القسم الأول

القرن الأخير للنظام القديم

الكتاب الأول

الأنـــوار

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول

روح القرن

١ ـ الاسلوب

ديكارت ، لوك
نيوتون

لقد درج القول بان ملكية ديكارت الفكرية انتهت في القرن الثامن عشر وانها افسحت المجال لملكية لوك ونيوتون. هنالك لعمري نصوص تبرر وجهة النظر هذه. فان «فلاسفة» كثيرين يستخفون بديكارت بسبب تركيباته العقلية حول الآلية ومذاهبه في الزوابع التي زعم الفيلسوف بان يفسر بها الكون. وقد رأى فيها معارضوه مجرد نسج خيال، اذ ان نتيجة واحدة قد تفضي اليها آليات مختلفة جداً. فنظروا الى ديكارت كما الى تائه عقل وغائص في اضغاث الاحلام. وعزا « دالمبير » اكتشاف علم ما وراء الطبيعة الى « لوك » وعلم الطبيعة الى نيوتون. وتكلم فولتير بازدراء عن « الروايات » الكرتزيانية وحدد التاريخ الذي يجب ان يعتبر تاريخ هزيمة ديكارت حتى في وطنه فرنسا : ١٧٣٠.

الا ان نصوصاً اخرى تنظر الى ديكارت كما الى سيد الفكر الاعظم في القرن الثامن عشر. لنقص فونتنيل المعجب جداً بالمعلم. فقد كتب فولتير في السنة ١٧٣٣ : « ان من ارشدنا الى طريق الحقيقة قد لا يكون اقل قدراً من ذاك الذي بلغ نهاية هذه الطريق منذ ذاك الحين » (الرسالة الانكليزية الرابعة عشرة) . واضاف دالمبير الى ذلك ، في السنة ١٧٥١ ، في خطبته التمهيدية لدائرة المعارف :

«بيد ان ديكارت قد تجاسر على إرشاد العقول السليمة الى خلع نير الطاعة للفلسفة المدرسية والرأي والسلطة ، وبكلمة موجزة للآراء المقبولة قبل التحقيق والمنهجية ؛ ولعله ادى للفلسفة بهذا التمرد الذي نجني ثماره اليوم خدمة اجل من كل ما تدين به لمشاهير خلفائه ... واذا ما انتهى الى الاعتقاد بتفسير كل شيء، فهو قد ابتدأ بالشك في كل شيء ؛ والاسلحة التي نستخدمها لمحاربته لا تفقد شيئاً من نسبتها اليه لاننا نوجهها اليه ...».

وكتب « تورغو » في دائرة المعارف: « ان نيوتون قد وصف البلاد التي اكتشفها ديكارت» وان « لوك » و « بركلي » و « كوندياك » « هم جميعهم ابناء ديكارت » . وفي السنة ١٧٦٥

فاز توما بجائزة الاكاديمية الفرنسية بسبب ثنائه على ديكارت : فهو قد اشار الى اننا اذا كنا قد تخلينا عن آراء كثيرة طلع بها، وليس هذا ما حدث، فاننا قد سرنا بأمانة على طريقة تفكيره. كما ان « كوندورسيه » نفسه ، المشايع للوك ونيوتون ، قد عنون الزمان التاسع ، في « اللوحة الايجازية لنجاحات الفكر البشري » منذ اوائل البشرية ، التي انجزها في السنة ١٧٩٤ ، بما لا يخلو من مغزى : « منذ ديكارت حتى الجمهورية الفرنسية ». فهو معجب بالفترة التي تبتدىء منذ ان احدثت عبقرية ديكارت ، في العقول ، هذه الانطلاقة العامة ، مبدأ الثورة الاول في مصائر الجنس البشري » . وأكرم ديكارت ومُجد ورُجع اليه كذلك في لندن وبراين وليبزيغ . ان ديكارت ، في نظر « الفلاسفة » يفتح عهداً من عهود البشرية يضم القرن الثامن عشر .

قد يستنتج بالتالي من هذه النصوص ان القرن الثامن عشر قد رفض علم ما وراء الطبيعة وعلم الطبيعة اللذين طلع بهما ديكارت واحتفظ باسلوبه . فما هي حقيقة الامر يا ترى ؟

النزاع بين ديكارت والآليين

كان ضرورياً في نظر ديكارت ، لإرساخ حقيقة العلوم الطبيعية الرياضية، ربط هذه الاخيرة بمبادىء ميتافيزيقية ثابتة . وقف موقفاً حذراً من كل ما هو حسي ونوعي، فادعى بتفسير الكون بمبادىء اكيدة لانها واضحة وجلية. تأكد من وجود الله ، وتأكد بواسطته من وجود العالم الخارجي ، ووحد بين المادة والاتساع ، واقعد على البساطة والقرار الالهي مبادىء ثبوت الاجرام، ودوام الحركة ، والصلابة ، والمبدأ العام لتصادم الاجسام ، واستخلص من ذلك سبع سنن للصدمة ، كما استخلص بعد ذلك ، بانتقالات المادة الرقيقة وبالزوابع ، كافة الآليات التي تفسر الظواهر . فغدا الكون من ثم استخلاصاً ضخماً ، انطلاقاً من بعض الافكار الواضحة والجلية . لقد آمن ديكارت بحقيقة هذا الاستخلاص . وكان مقتنعاً بان تحليل الافكار هذا قد اوقفه على حقيقة تركيب الكون الرياضي المستترة تحت الظواهر . وكان مقتنعاً كذلك بانه بلغ وجود الاشياء وبأن هذا الوجود رياضي . فكان تعليمه قياساً رياضياً في علم الكائنات .

ولكن رفاق نضاله ضد تعليم ارسطو، الآليين، «مرسين»، «روبرفال»، «باسكال»، «هوبس»، لم يبرهنوا اذ ذاك عن اقتناعهم. لم يسلموا بضرورة ربط العلوم الطبيعية بمبادىء ميتا فيزيقية. فان « غسّندي » في اعتراضاته على « تأملات » ديكارت ، قد لفت نظر الفيلسوف الى ان حقائق الهندسة وحقائق العلوم الطبيعية الرياضية لا ترتبط بوجود الله : فهنالك اشخاص عديدون يرتابون بالله، ولكن واحداً لا يرتاب ببراهين الهندسة . ورفض الآليون اسلوب ديكارت الاستنتاجي . فمن المستحيل الحكم بحقيقة فكرة استناداً الى وضوحها . وليس تفسير تكون الظواهر بتقلبات الزوابع والمادة الرقيقة سوى مجرد اسطورة . يجب التمييز ، في الافكار الواضحة ، بين الافكار الحقيقية والافكار الوهمية ، وهذا يستحيل معرفته الا بالاختبار ،

قاعدة العلوم الطبيعية . سلّموا بمذهب ديكارت العقلي الكمي ، ولكنهم أكملوه بمذهب عقلي اختباري . يضاف الى ذلك من جهة ثانية انهم لم يؤمنوا بأمكان معرفة كل شيء ولا ببلوغ كنه الاشياء . فالواقع في نظرهم يتعدى مفاهيمنا تعديا لامتناهيا . وكان رأيهم ان العلوم الطبيعية الرياضية تتيح تحقيق تراكيب سهلة الاستعمال ومفيدة ، ولكن هذه التراكيب لا ترفع النقاب عن الحقيقة في ما وراء واقع الظواهر . الصوت حركة في نظر عالم الطبيعة ؛ وهذه الحركة قابلة القياس ؛ فهم بذلك اسيادها ؛ ولكن المعرفة الكمية لا تعطيهم سوى مظهر من مظاهر الواقع ، وليست من ثم سوى تجزئة وتقطيع . كان الآليون سائرين باتجاهاتهم شطر مذهب العملية الذي يدعي معرفة الحقيقة بقيمة نتائجها العملية .

انتصار الآلية النيوتونية في هولندا والاثر الهولندي

كان نيوتون قد تبنى أسلوب الآليين وحارب « افتراضات » ديكارت في علم الطبيعة . وكان التحالف السياسي بين انكلترا وهولندا البروتستانتيتين ضد فرنسا قد يسّر العلائق بين العلماء الهولنديين والعلماء الانكليز . لذلك ، وعلى الرغم من ان هولندا كانت مهد الكرتزيانية ، وان علم الطبيعة الكرتزياني قد وجد فيها خير تعبيره المنسق في « قاموس » « شوفين » ، الذي اعيد طبعه في السنة ١٧١٣ ، كانت الغلبة لنفوذ نيوتون في اوائل القرن الثامن عشر . فغدا « غرافساند » صديقاً لنيوتون خلال رحلة قام بها الى لندن في السنة ١٧١٥ . وفي السنة ١٧١٧ عمل « موشنبروك » في لندن تحت إشراف العالم الانكليزي . وبين السنة ١٧١٥ والسنة ١٧٣٦ ، وفي خطب استخدمت مقدمات لابحاثهم في علم الطبيعة والكيمياء ، اطرى الطبيب والكيميائي « بورهاف » والعالمان بالفلك والطبيعيات غرافساند وموشنبروك ، في العلوم الطبيعية ، أسلوب الآليين الاختباري : ولكنهم قلما استشهدوا بديكارت وتناسوا الآليين الفرنسيين تناسيا كلياً ، وربما كان ذلك بداعي عدائهم لفرنسا التي حاربوها منذ امد قصير والتي ما زالت ظنينة اوروبا الكبرى . اما الذين اتوا على ذكرهم وغالوا في مديحهم فهم « بيكون » ، « وغاليليو » ، « ونيوتون » في الدرجة الاولى . ويؤكد موشنبروك الذي ترجم في السنة ١٧٣١ الاختبارات التي اجرتها ، ما بين السنة ١٦٥٧ والسنة ١٦٦٧ ، « اكاديمية الابحاث » الفلورنسية ، انه لا يجوز فصل هؤلاء الثلاثة ، كما يطيب لبورهاف ، منذ السنة ١٧١٥ ، ان يناقض الصواب وينسب الى بيكون كافة النجاحات المحققة في العلوم . واتوا كذلك على ذكر « توريشلّي » و « هويغنس » و « بويل » و « ليبنيز » واغفلوا كافة الفرنسيين باستثناء « ماريوت » والبروتستانتي « ديزاغولييه » . فيتضح من ثم ان مسؤولية الطلوع بفكرة علم عصري ، ايطالي وانكليزي في جوهره ، ولا سيما انكليزي ، تقع على كاهل الهولنديين وقد احرزت هذه الفكرة نجاحاً عظيماً .

ولا عجب في ذلك ، اذ ان « علماء الطبيعيات » هؤلاء قد احتلوا في حقل العلم مركزاً ممتبراً زاد من رفعته مركز الاقاليم المتحدة التجاري . تهافت عليهم الطلاب من كافة انحاء

اوروبا لتحصيل العلم تحت إشرافهم . وغدت لايدن مركزاً علمياً اوروبياً . ومنذ السنة ١٧٢٤ نشر تلامذة بورهاف الفرنسيون في باريس ما القاه عليهم من دروس قبل ان اصدرها المؤلف في هولندا بثماني سنوات . وقام « لامتري » و « دي فاي » والأب « نوليه » وفولتير برحلة الى هولندا وأوثقوا عرى الصداقة بالعلماء الهولنديين . فانتشرت الآراء الهولندية بفضل تراجمهم ومؤلفاتهم في علم الطبيعيات . وليست « خطبة » « ديلاند » الشهيرة في خير طريقة لاجراء الاختبارات (١٧٣٦) سوى اقتباس عن موشنبروك . وفي رأيهم جميعاً ان السنن التي تسير الكون « تخضع لارادة الكائن الاسمى الذي لم يوح بها الينا ؛ لذلك كان علينا ان نتنهل معرفتها من الظواهر » . فيجب من ثم « ان نلاحظ بعين ساهرة كافة حركات الطبيعة » ، ونسير على خطى نيوتون « الذي كان اول من اقصى عن علم الطبيعيات كافة الافتراضات ولم يسلم الا بما يمكن التثبت رياضياً من انه سلسلة من الظواهر » (سغرافساند) .

الاختلاط بين الكرتزيانية والآلية

كان هذا الاسلوب من ثم متناقضاً في نقاط جوهرية واسلوب ديكارت. فكيف استطاع الفلاسفة ، والحالة هذه، الاعتقاد بانهم ساروا بأمانة على خطى الفكر الكرتزياني ؟ في البدء قاوم الكرتزيانيون في فرنسا مقاومة طويلة . « فحين ظهر كتاب « عناصر فلسفة نيوتون » (١٧٤٥) كانت الكرتزيانية ما زالت مسيطرة حتى في اكاديمية العلوم في باريس » (كوندورسيه). مشتركاً بين التفسيرين، الكرتزيانية والنيوتونية ، كان الجهد المبذول بغية ايجاد تفسير كمي وآلي لكل شيء ، ومشتركاً ايضاً بين علماء المدرستين كان الاسلوب ، اسلوب الآليين . منذ ظهور « خطبة في الاسلوب » لم يدرك علماء الطبيعة الذين افتخروا بالكرتزيانية بجمل فكر ديكارت ولم يروا منه سوى المظهر الآلي . فان « ريجيوس » ، منذ السنة ١٦٤٦ ، « وكوردموا » ، منذ السنة ١٦٦٦ ، « ووهو » ، في السنة ١٦٧٥ ، و « ريجيس » ، في السنة ١٦٩٠ ، و « فونتنيل » اخيراً ، المدافع الاكبر عن ديكارت منذ كتابه « احاديث حول تعدد العوالم المأهولة » (١٦٨٦) حتى كتابه « نظام الزوابع » (١٧٥٢) ، يجاهرون كلهم بأسلوب الآليين العلمي ، مع انهم يقولون كلهم بنظرية الملء والزوابع . اختلطت الكرتزيانية بالآلية البحتة . لم يكن ديكارت كرتزيانيا . وحين يتكلم « الفلاسفة » عن دور ديكارت كسيد الفكر ، فانهم انما يفكرون بالآلية وباساليب العلم الاختباري وروحه . واذا ما بقي لديكارت أثره الكبير في القرن الثامن عشر ، فيرد ذلك جزئياً الى الاختلاط والتجزئة العقلية في مؤلفاته . بيد ان هذا الاختلاط كان نتيجة حدث تاريخي : لم تنتصر الآلية الا مع ديكارت وبديكارت وفي ديكارت . ولعل هذا الاختلاط عكس واقعاً آخر ايضاً : اعترف العلماء بالضعف البشري فقبلوا مكرهين بمذهب العقليين الاختباري، ولكن اليس مثل الآلية الاستنتاج الكرتزياني ، المعتق من المحسوس والكمي ، انطلاقاً من افكار واضحة وجلية ، والكون ممثلاً بهندسة مترامية الاطراف ؟

٢ ـ ظروف العمل

شغف الجماهير

ان الكرتزيانية والنتائج المحققة حولت الرغبة الحارة في المعرفة نحو العلوم في الدرجة الاولى . فاستثير شغف حقيقي بكافة علوم الطبيعة ، اي « بعلم الطبيعيات » . وتفرغ لها اناس من كل الطبقات ، لا سيما في فرنسا ، وفي بعض البلدان الاخرى ايضاً . فتعددت وسائل التعلم . وازدادت مجموعات الحيوانات والنباتات والحجارة ، كما ازدادت « دور » علم الطبيعيات ازدياداً مطرّداً : فتكون او تأسس منها لدى الدوقية والقضاة ورؤساء الاديرة والاطباء والسيدات والجمعيات الدينية . وكان للويس الخامس عشر مجموعاته و « دوره » الخاصة ، بالاضافة الى « دار » الملك وحديقة الملك اللتين أسسهما لويس الثالث عشر ووسعها « بوفون » بمضاعفة مساحة الحدائق ، وبناء المدافىء الزجاجية ومسرح للتعليم ، وتقدمة المجموعات التي ارسلتها اليه كاترين الثانية ، واستثارة حماس الجميع : فقدمت السيدات الهبات كي ترد اسماؤهن في « التاريخ الطبيعي » ؛ وكوفىء الوكلاء والموظفون الذين جمعوا له النماذج في المستعمرات بشهادات رسمية تعينهم « مراسلي غرفة الملك » . واتيحت رؤية هذه المجموعات العامة والخاصة بسهولة للهواة . وأُلقيت محاضرات علنية بغية حمل الجماهير على تذوق العلم . ومنذ السنة ١٧٣٤ القى الاب نولّيه في باريس محاضرات حصرها في علم الطبيعيات الاختباري : لم يتعرض فيها للنظريات ولم يستخدم الرياضيات ، بل اكتفى باحضار آلاته وإثبات ما لوحظ مباشرة . فأعطى بذلك عن العلم فكرة ناقصة ، لان العلم هو ، قبل اي شيء آخر ، سلسلة براهين يتوصل اليها الحساب ويثبتها الاختبار ، ولكن مستمعيه لم يجدوا اية صعوبة في فهم ما يلقيه عليهم ، فأحرز نجاحاً عظيماً واستمال الكثيرين الى العلم . وازدحمت في الشارع الذي اقام فيه عربات الدوقات اللواتي كن راغبات في اضطرام نشاطهن وحماسهن . وحين اسند اليه الملك ، في السنة ١٧٥٣ ، القاء دروس علم الطبيعيات الاختباري في كلية « نافار » ، اضطرت هذه الاخيرة لان تفتح ابوابها امام الهواة : فقد بلغ مستمعو نولّيه السبعين . وفي حديقة الملك ، كان الكيميائي « رويل » يشرع في القاء درسه معتمراً جمة مستعارة ومرتدياً اكماماً مطرزة . ولكنه كان يتنشط فينزع اكمامه وجمته ثم يخلع ثوبه وينتهي بنضو صداره عنه ويكمل درسه مرتدياً القميص فقط ، فتلتقل حماه الى مستمعيه . والقيت مثل هذه الدروس في كليات الولايات وفي مدن كثيرة من فرنسا وهولندا والمانيا . وامّن اناس كثيرون سبل معيشتهم بانتقالهم من مكان الى آخر لاجراء اختبارات في علم الطبيعيات : وكانت الكهرباء ما استهوى الجماهير واستمالها . ونشرت كتب كثيرة ، ينطوي بعضها على قيمة كبرى ، لجعل العلوم في متناول الجميع ، كـ « مشهد الطبيعة » للأب « بلوش » ، و « دروس علم الطبيعيات الاختباري » للأب نولّيه (١٧٤٨) ، و « التاريخ الطبيعي » لبوفون و « تاريخ الكهرباء » لبريستلي (١٧٧٥) ، بالاضافة الى العديد من الموجزات والقواميس والكتب المدرسية التي اصدرت تباعاً واعيد

طبعهـــا تكراراً . وكرست الصحف اعمدة طويلة للمؤلفات العلمية ؛ وقد تخصص بعضها في المنشورات العلمية .

عمت البلاد « فورة تعلم » و « حمى فهم » لم يكونا جديدتين ولكنهما غدتا اقل ندرة . فان « جنفييف دي مالبواسيير » مثلاً ، التي تنتمي الى اسرة ثرية من رجال المال ، وتعرف اللاتينية واليونانية والانكليزية والايطالية والاسبانية ، وتؤلف المآسي والمهازل ، قد طلبت من يلقنها دروساً خاصة في الرياضيات وتتلمذت لـ « فالمون دي بومار » في علم الطبيعيات والتاريخ الطبيعي وقرأت بوفون . كما ان ابنة احد النقاشين ، وهي التي ستصبح السيدة « رولاند » ، قد درست الرياضيات وعـــلم الطبيعيات ، وقرأت الاب نولـّيه ، وعالم الطبيعيات والتـــاريخ الطبيعي « ريومور » والرياضي والفلكي « كليرو » . ودرس فولتير الرياضيات وجعل منجزات نيوتون في متناول الجميع . وتابـــع « ديدرو » دروس التشريح وعلم الوظائف والكيمياء باشراف « رويل » طيلة ثلاث سنوات ، وخلـّف اصولاً هامة في علم الوظائف . ودرس « جان جاك روسو » الرياضيات وعلم الفلك والطب وحرر « انظمه كيميائية » مسهبة جداً . وقام فرانكلين باختبارات كهربائية . وواصل « غوته » ابحـاثه في البصريات وعلم النبات . وتلقى ولي عهد فرنسا دروساً في علم الطبيعيات ، وكان جورج الثالث ملك انكلترا عالماً بالنبات ، واعـــاد « فكتور ـ اميداي » الثالث امير « سافوا » اختبارات الاب نولـّيه .

لا ريب في ان الاكاديمية خـلال القرن السابق كانت قد كرست مزيداً من الوقت لتمييز ادق فروق الشواعر البشرية ، والبحث طويلاً عن خير المفردات والصيغ للتعبير عنهـــا باتقان وقوة وطلاوة وملاحة . ولا ريب كذلك في انها كانت تناولت الاقدمين بمزيد من التأمل لتكتشف في ما خلفوه بعض الايحاءات بصدد شواعر مجهولة او شواعر أسيء فهمها او مناويل تلسج عليها . وكانت قد استعانت بممارسة فحص الضمير والاختلاف الى كرسي الاعتراف ، ومحـــاولة بلوغ الكمال المسيحي بمراقبة الشواعر والاهواء مراقبة يقظى بغية توجيهها وجعلها تساهم في الخلاص . ولكن الديانة ، في القرن الثامن عشر ، ما عادت لتقدم مثل هذا العون : فاذا استمر الكثيرون في الذهاب الى القداديس وكرسي الاعتراف ، فالقلب ، على العموم ، اقل اشتراكا داخلياً ، وهم اقل ايماناً منهم في السابق ، ولا يشعرون في الغالب بدينهم ولا يعيشونه . واذا مـــا زالوا يهوون الادب ، فـــان اتساع الرغبة في المعرفة لا يترك لهم متسعاً من الوقت للتذوق والتبحر . الذوق سائر في طريق الفساد . ففولتير ومونتسكيو ينحدران الى دون مستوى بوالو انحداراً محزنـــاً احياناً . وليس فولتير بعيداً احياناً عن تفضيل « سطوح « له تاس » الخادع على ذهب فرجيل» . اضف الى ذلك من جهة ثانية انهم يبادرون كلهم الى الارتقاء من الظواهر الى الاصول ، وربطها بفلسفة العصر العـــامة ، وممارسة « ميتافيزيقية القلب » كما قد يقول دالمبير . يهملون فحص الواقع ؛ وغالباً ما تغدو السيكولوجية بدائية والتعبير جافـــاً ومجرداً . فاذا تقدمت العلوم ، فان الآداب قد تقهقرت ، واذا نظرنا الى القرن الثامن عشر من هـــذه الزاوية فاننا نراه اقل

بروزاً بين القرنين السابع عشر والتاسع عشر .

مساندة الرأي والحكومات

ولكن الشغف بالعلوم يساعد اعمال العلماء الذين اصبحوا موضوع اعتبار مشجع ووجدوا الظروف والوسائل المادية لمواصلة اعمالهم . فاراضي بوفون تعلن كونتية بأمر يصدره ملك فرنسا . عشرة شعراء يتغنون بعظمته . يقام له تمثال وهو في قيد الحياة . مسكنه في «مونبار» يغدو مزاراً . حين يموت ، تقام كنيسة على المرتفع المقابل لقصره وتضاء شموعها طيلة سنة كاملة . لا يدنو احد من مكتبه « الا كما من معبد حارسه خادمه الشيخ وحبره ابنه » . جورج الاول ملك انكلترا وبطرس الاكبر عاهل روسيا يزوران مختبرات « علماء الطبيعيات » . فردريك الثاني يستقبل العلماء والفلاسفة حول مائدته ، وكاترين الثانية في مكتبها لمجالستهم ومبادلتهم الاحاديث .

لم يقتصر المال على العلماء الذين كان باستطاعتهم ، في اوائل عهد علوم كثيرة ، التوصل الى نتائج حسنة بأدوات محدودة . فقد استخدم الكيميائي « شيل » كؤوس الشراب عوضاً عن « الاجهزة » . ولجمع الغازات كان يربط بعنق قنينة نفيطة جلدية يشدها بخيط حين تمتلىء ، وبدأ فرانكلين اعماله في حقل الكهرباء بانبوب زجاجي وجلد هر . ولكن علم الفلك والجغرافية ما كانا ليكتفيا بادوات بدائية . وما لبثت الكيمياء ان فرضت المتطلبات نفسها : فان مختبر « لافوازييه » قد ضم اجهزة دقيقة كبيرة الحجم شاقة الصنع . واستلزمت اختباراته كمية ضخمة من المحروقات . ومن حسن الحظ ان الملوك قد اسعوا الاكاديميات التي وفرت لاعضائها المرتبات ومكافآت الحضور واستثارت التنافس وكافأت الجهود بالجوائز ونظمت بعثات علمية تمدها الدولة بالاعانات المالية . اعطى المثل لويس الرابع عشر ملك فرنسا وحذره خليفتاه لويس الخامس عشر ولويس السادس عشر ، ثم اقتفى اثرهم في كل مكان . استمر لويس الخامس عشر في إسناد ادارة اعمال كبرى تتعلق بعلم هيئة الارض الى اعضاء اكاديمية العلوم في باريس : قياس خط الطول ، قياس المسافة بين « برست » وستراسبورغ ، خريطة فرنسا العامة لكسيني . واوعز بايفاد بعثات علمية كبرى الى البيرو ولابونيا ورأس الرجاء الصالح بغية قياس درجات خط الطول وتحديد المسافة من الارض الى القمر ، والقيام بمهام اخرى . فسارت الحكومات الاخرى على هذه الخطى . اسس بطرس الاكبر « اكاديمية سان بطرسبورغ » (١٧٢٤) . وارسل « بهرنغ » لاستكشاف المضيق الذي يفصل آسيا عن اميركا ، والذي حمل اسمه من بعده . وامرت القيصرتان آنا وكاترين الثانية بالقيام برحلات علمية الى سيبيريا . واستحضرت كاترين الثانية الى « سان بطرسبورغ » الرياضي السويسري « اولر » والفيلسوف الفرنسي « ديدرو » . والحقيقة ان « اولر » هو من حرر « الرسائل الى اميرة المانية » في الفلسفة والعلوم الاميرة « دانهالت دبسو » . وتأسست اكاديمية استوكهولم الملكية في السنة ١٧٣٩ ، وجمعية كوبنهاغن الملكية في السنة ١٧٤٥ . واستدعى فردريك الثاني ملك بروسيا

الى اكاديمية العلوم في برلين بعض الرياضيين : الفرنسيين « موبرتوي » ودالمبير و « لاغرانج » والسويسري برنولي . اما جورج الثالث ، ملك انكلترا المشهور بتقتيره ، فقد انفق بسخاء على العالم الفلكي « وليم هرشل » وعين له مرتباً شهرياً قدره ثلاثون جنيه وقـــدم له مسكناً مجاوراً لقصر « سلو » الملكي انشأ فيه مرصداً حقق فيـــه اكتشافاته . لا بل تواطأت الحكومات الاوروبية للايعاز بمراقبة مرور الزهرة امـــام الشمس في السلتين ١٧٦١ و ١٧٦٩ بغية تحديد المسافة بين الشمس والارض . وكان انتهاز الفرصة امراً واجباً اذ ان مروري الزهرة ، اللذين تفصلهما فترة ثماني سنوات ، لا يتكرران الا كل مائة وعشرين سنة تقريباً . فقام الانكليز بالرصد في تاهيتي وجون « هدسون » ومادراس ، والدانمركيون قرب رأس الشمال ، والاسوجيون في فنلندا ؛ والروس في لابونيا وسيبيريا ؛ والفرنسيون في كاليفورنيا وبوندیشيري . اتحدت اوروبا اذن لزيادة معرفة البشرية . ولم تكن النجاحات المحرزة بالحقائق الكبرى والجميلة والمفيدة لتجر على الحكومات سوى نفقات ضئيلة اذا ما قورنت هذه النفقات بما تتطلبه الدبلوماسية والحروب: فان « لاكاي »، الذي اوفدته الحكومة الفرنسية الى رأس الرجاء الصالح في السنة ١٧٥١ لرصد القمر بغية تحديد المسافة بينه وبين الارض ، لم ينفق بعد اقامة اربع سنوات نفذ خلالها المهمة المسندة اليه وحدّد بدقة مدهشة مكان اكثر من ١٠٠٠٠ كوكب في سماء نصف الكرة الجنوبي سوى ٩١٤٤١٥ فلساً بما في ذلك نفقات صنع الآلات .

شمول علم العلماء

يرد تقدم العلوم ونفوذ العلماء جزئياً الى ان التخصص ، على الرغم من ازدياده ، ما زال متأخراً جداً عما هو عليه اليوم . ما زالت معرفة الطبيعة في القرن الثامن عشر تدعى فلسفة ؛ وما زال أولئك الذين يدرسون سننها يطلقون على انفسهم اسم « الفلاسفة » . اضف الى ذلك من جهة ثانية انهم كلهم يعرفون مؤلفات الفلاسفة بحصر المعنى الذين يستخلصون من الاكتشافات العلمية مبادىء وروحاً ويثبتون نتائجها على الكون والانسان . بواسطة مثل هذه المؤلفات كان للعلوم مزيد من النفوذ . ان بوفون مدين بمبادئه الموجهة الى ليبنيز ، ومونتسكيو مدين بمبادئـه لمالبرانش ، وكلهم مدينون لأرسطو وديكارت . زد على ذلك انهم يمارسون علوماً عدة . فالعالم الرياضي والفلكي لابلاس يسهم في اختبارات لافوازييه الـتي تناولت الحرارة الحيوانية والتنفس . والعالم الرياضي اولر يخوض في نظرية القيـاس كما يخوض في النظريات الطبيعية حول حدوث الموجـات والتموج . والطبيب لامتري ينقل المذهب الآلي الى عالم الاخلاق . وان في ذلك لفائدة ، اذ غالباً ما ينتج النجـاح عن تطبيق اسلوب احد العلوم ونتائجه على علم آخر . يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان اكثرية العلماء يحققون او يكملون تحصيلهم العلمي برجوعهم الى الابحـاث الاصلية ، وذلك بفضل ثقافتهم الكلاسيكية . فان رياضيين كثيرين كانوا قادرين عـلى ان يترجموا من اليونانيـة « العناصر » لاوكليد ، ومن اللاتينية « الهندسة » لديكارت « والمبادىء » لنيوتون . وبذلك اضافوا الى تميزهم في ادراك فكر المعلم ادراكاً مباشراً تميزهم في رؤية توسع علمهم توسعـاً حقيقياً

وتاريخياً وكيفية تكون المسائل حقاً وكيفية وجود الحلول التي أثارت مسائل اخرى . فكان لديهم من ثم اوضح فكرة صائبة عن علمهم وروحه وأسلوبه وسيره ومستقبله .

الا انهم بدأوا يواجهون صعوبة جديدة : فعلى غرار الفرنسيين اخذ العلماء يكتبون ، لا باللغة اللاتينية ، بل بلغتهم الام ، مع ان مؤلفات علمية كثيرة ما زالت توضع باللاتينية . فأشار دالمبير منذ منتصف القرن الى مساوىء الطريقة الجديدة : «ان الفيلسوف الذي يريد التعمق في درس مكتشفات سابقيه سيضطر الى تحميل ذاكرته سبع او ثماني لغات مختلفة ؛ وبعد ان يكرس لتعلمها اثمن وقت من حياته ، سيموت قبل ان يشرع في الدرس والتثقف » . وقد حار لافوازييه في امره حين اراد الرجوع الى مذكرات الكيميائي الانكليزي بريستلي : ولكن من حسن حظه ان امرأته تمكنت من ان تترجمها له . الا ان سواد العلماء ، حين لا يكتبون باللاتينية ، يستخدمون الفرنسية ، لغة اوروبا الشاملة . هذا ما فعله العلماء الآتون من بال ، علماء الرياضيات من عائلة برنولّي ، واولر الشهير ؛ وهذا ما فعله كذلك علماء اكاديمية برلين واكاديمية سان بطرسبورغ .

وجملة القول ان العلماء وجدوا ظروف عمل مرضية جداً نسبياً .

الفصل الثاني

الرياضيات

تحليل الكمية الصغرى

صدرت مؤلفات جميلة كثيرة ، ولكن مبدأ جديداً وجوهرياً واحداً لم يكشف . توسع علماء الرياضيات في تحليل الكمية الصغرى التي اكتشفها في القرن السابع عشر نيوتون وليبنيز اللذان استخدما اعمال ديكارت « وفرما » . ان الحساب الجديد الذي يظهر حالة قدر معين في برهة معينة ويبين في آن واحد كيف يتبدل في هذه البرهة قوة واتجاهاً ، قد اتاح لعلماء الفلك والطبيعيات درس الحركات الدائمة . وقد اقبل الناس على قراءة الطبعة الثالثة لـ « المبادىء الرياضية للفلسفة الطبيعية » لنيوتون التي ظهرت في السنة ١٧٢٦ ، و « اسلوب المدود » لنيوتون ايضاً الذي وُضع في السنة ١٦٧١ ، وترجمه تلميذه كولسون وظهر في السنة ١٧٣٦ . ولكن نيوتون وليبنيز قد تركا حساب الكمية الصغرى ناقصاً جداً مخلفين فيه قضايا دونما برهان ، ومسائل عديدة دونما حل ، وعدداً من الايحاءات والمقترحات . فجاء خلفاؤهما يكملون ، ويوضحون ، ويثبتون .

انجز علماء الرياضيات في القرن الثامن عشر اعمالاً عملية في جوهرها : فان ما اتوه هو طرائق لحل المسائل التي طرحها علماء الآليات والفلك ، ولتفسير الوقائع التي ترفع النقاب عنها ملاحظة الفلك او الاجسام الارضية . وان المسائل التي عالجوها هي شكل شراع مستطيل قعرته الرياح ، و « وخط اسرع المحدار » بين خطين عموديين متعاقبين ، ورسم شعاع ضوئي يجتاز « طبقات مختلفة الثقل النوعي » ، وسبب الرياح ، وحركات السوائل ، والاوتار المترجرجة ، واشكال الارض ، وحركات القمر ، والترجيح والتأكيدات . فحسنوا من ثم الاداة الحسابية تحسيناً مدهشاً . في السنة ١٧٣٥ حل اولر ، في ثلاثة ايام ، بوسائله الخاصة ، مسألة فلكية كان عدد من مشاهير علماء الرياضيات قد طلبوا عدة اشهر لحلها بوسائل قديمة . وفي القرن التاسع عشر ، استطاع « غوس » حلها ، بطرائق افضل اكتمالاً ، في ساعة واحدة . فصل علماء الرياضيات فصلا تاماً بين التحليل والهندسة . في الحقبة السابقة ، درجوا على حل المسائل المطروحة بشكل هندسي وعلى تحويل نتائج الحساب الى شكل هندسي . اما في القرن الثامن عشر فقد جعلوا من التحليل علما مستقلا ،

وبلغ من تدلل « لاغرانج » ، في النهاية ، انه لم يورد في كتابه «علم الآليات التحليلي » اي شكل واي رسم بياني .

تفوق البر الاوروبي والفرنسي

في الثلث الاخير من القرن السابع عشر ، كان كبار علماء الرياضيات انكليزا كنيوتون او ألمانا كليبنيز . وفي القرن الثامن عشر ، كانوا سويسريين وفرنسيين . اما السويسريون ، عائلة برنولي واولر (١٧٠٧ — ١٧٨٣) ، من بال ، فقد استهوتهم ، بالتفضيل ، المسائل الخاصة والاكتشافات الكبرى للحقائق الجزئية ، وكان اولر مخترعاً لا يعرف الكلل اوحى بأكثر الآراء الكبرى التي توسع فيها خلفاؤه . واما الفرنسيون ، كليرو (١٧١٣ — ١٧٦٥) ، ودالمبير ، ولاغرانج (١٧٣٦ — ١٨١٣) ، ولابلاس (١٧٤٩ — ١٨٢٧) ، فكانوا بالتفضيل عقولا تأليفية تكتشف الطرائق المجردة وتوجز في نتائج عامة تنوع الحالات الخاصة الكثيرة جداً . وقد شرحوا ونشروا ، بالاضافة الى ذلك ، مذهب نيوتون في نظام العالم وطبقوا الحساب الجديد على علمي الآليات والفلك وبنوا علم الآليات الفلكي . لقد مارست فرنسا نوعاً من الملكية الرياضية .

لعل انحطاط الانكليز النسبي يرد من جهة الى ان نيوتون قد خلّف طريقته الحسابية اقل اكتمالا من الطريقة التي خلّفها ليبنيز ؛ ومن جهة ثانية الى المشادة التي قامت بين الانكليز والالمان والسويسريين حول هذا السؤال الهام والعديم الفائدة : من هو المكتشف الحقيقي لحساب الكمية الصغرى ، ليبنيز ام نيوتون ؟ فقد حدّت المجادلة من تبادل الآراء بين علماء الرياضيات في البر الاوروبي وعلماء الرياضيات في انكلترا . اكتفى الانكليز باساليب نيوتون ، وحتى السنة ١٨٢٠ جهلوا الاكتشافات الهامة التي تحققت في البر الاوروبي . لا بل انهم تراجعوا الى الوراء . فبينما طبق « بروك تايلور » ، في السنة ١٧١٧ ، حساب الزيادات المتناهية في الصغر ، واوضح نظريته الشهيرة ، استخدم « ماك لورين » في السنة ١٧٣١ ، في كتابه « بحث في المدود » او الكميات التي تتزايد بحد متواصل ، البراهين الهندسية لاضفاء صبغة الضبط والتدقيق على ما يقدم ، واوضح بعد ذلك بشكل هندسي النظرية القائلة بان جسما سائلا يدور حول محور يتخذ تحت تأثير الجاذبية شكل مجسم ناقص بفعل الدوران . فأعاد بذلك انتباه مواطنيه الى الهندسة وجعلهم يهملون التحليل . وهكذا عمل الانكليز في حجرة مقفلة إذا صح التعبير ، فخمد نشاطهم شيئاً فشيئاً .

اما في البر الاوروبي فكان وضع الفرنسيين ملائماً لتقبل الحساب الليبنيزي والحساب النيوتوني معاً . وكان من ازدهار الرياضيات ، بفضل اعمال ديكارت ، في اكاديمية العلوم في باريس وفي كلية فرنسا ، ان برزت هنالك عقول معدة خير إعداد لاستساغتها واستخلاص ما تنطوي عليه .

«الهندسة الوصفية»

على الرغم من المكانة الرفيعة التي احتلتها التحليل ، اكتشف فرع جديد للهندسة هو الهندسة الوصفية . ويعود الفضل في ذلك الى الفرنسي « غاسبار مونج » (١٧٤٦ – ١٨١٨) . كان ابن حانوتي في بون *(Benune)* ، لفت الانتباه اليه رسم وضعه للمدينة التي نشأ فيها ، وعين مساعداً فنياً في مدرسة الهندسة الملكية في « ميزيير » ، فاستغرب تعقد الوسائل المستخدمة لوضع مخططات التحصينات ورسومها الداخلية ، وطول الحسابات الضرورية. منذ السنة ١٧٦٦ ، حوّل الطرائق البيانية المختلفة التي يستخدمها المهندسون العسكريون والبناؤون ومهندسو العمارة والنجارون والفنانون الى تقنية عامة ذات نسق واحد مرتكزة الى البراهين الهندسية البسيطة والمدققة . فكان عمله هذا مولد الهندسة الوصفية . اعتمد قائد المدرسة الطريقة الجديدة بحرص كلي ، وفي السنة ١٧٦٨ عينه استاذاً للرياضيات ولكنه لم يسمح له بإشهار اكتشافه بسبب المنافسة القائمة بين المدارس العسكرية . الا انه انتشر بعض الانتشار بواسطة الضباط المتخرجين من المدرسة ، ولكنه لم ينشر مطبوعاً للمرة الاولى الا في السنه ١٧٩٥ .

علم الآليات العقلي

لقد دفع علماء التحليل بعلم الآليات العقلي الى الامام. كان جوهره قد اكتشف في اواخر القرن السابع عشر في اعقاب اعمال هويغنس الذي وضع اسس هذا العلم ، واعمال نيوتون الذي صاغ في « مبادئه » مجموعة كاملة من القضايا وحدد الشكل الذي بني عليه علم الآليات العقلي . ومنذ عهدهما حتى السنة ١٩٠٠ لم يوضع اي مبدأ جديد حقا . وما العمل الذي انجز بعدهما سوى توسع استنتاجي وصوري وحسابي في المبادىء النيوتونية . وقد لعب الفرنسيون الدور الاول في ذلك . فان دالمبير قد اوجز ونسّق ، في كتابه « بحث في علم القوى » ، الاكتشافات المحققة وردّها الى بعض الطرائق البسيطة ، ومنها النظرية المعروفة باسمه التي اعطت الوسائل العملية لاستخدام الاختبارات المعروفة والمدروسة . فكفى العلماء مؤونة التفكير بصدد كل حالة خاصة جديدة . وصاغ موبرتوي ، منذ السنة ١٧٤٤ ، مبدأ اقلّ كمية عمل . لاحظ ان النور « حين يجتاز اوساطاً مختلفة لا يسلك اقصر طريق ولا طريق اقصر وقت » ، فاقترح ان تعتبر الطريق التي يسلكها النور في انكسار اشعته وكأنها الطريق التي تكون كمية العمل فيها اقل كمية ممكنة . « ان كمية العمل هي حاصل ضرب حجم الاجسام بسرعتها وبالمسافة التي تجتازها » . ولكن عالم الطبيعة هذا كان منهمكا باعتبارات ميتافيزيقية . فهو قد كان راغباً في ان يجعل من هذا المبدأ ناموساً عاماً من نواميس الطبيعة ، يجوز تطبيقه على حركة الحيوانات ونمو النبات ودوران الكواكب . وقد ظن انه اذا ما اظهر كيف ان الكون يخضع لناموس واحد ، فهو انما يعطي فكرة سامية عن حكمة وعظمة الله تعالى ويقدم برهانا جديداً على وجود الله .

قام علماء الطبيعيات من بعده بتجريد مبدأه من كل صبغة ميتافيزيقية واعادته الى الحالة الموضوعية . فصاغه اولر في السنة ١٧٥١ على الشكل التالي : « حين يحدث تغيير ما في الطبيعة ،

تكون كمية العمل الضرورية لهذا التغيير اصغر كمية ممكنة ». واوضحه واستخلص منه طريقة « الكبريات والصغريات » وطبقه على الحركة العدسية الشكل التي تخضع لها الاجسام الوازنة وعلى الحركات التي تحدثها قوة مركزية ، الخ . ولكنه ما زال ينظر الى اجسام منعزلة لا الى مجموع اجسام تخضع لنظام واحد ، وما زال يرى في المبدأ ناموساً شاملاً من نواميس الطبيعة . اما لاغرانج فقد ترك جانباً ، في « علم الآليات التحليلي » ، كل اعتبار ميتافيزيقي وحصر المبدأ في علم الآليات ، ولكنه طبقه على مجموع الاجسام الخاضعة لنظام واحد بفضل اداة رياضية جديدة ، هي حساب التغيرات . وقد نظر الى المبدأ لا كما الى مبدأ ميتافيزيقي بل كما الى « نتيجة بسيطة وعامة لنواميس علم الآليات » . فسيطرت على « علم الآليات » الروح الموضوعية . كما ان لاغرانج قد نشر « علم الآليات التحليلي » ، في السنة ١٧٨٨ ، خلواً من كل شكل هندسي . « لن يجد القارىء اي شكل في هذا المؤلف » (مقدمة) . استنتج كل علم الآليات من مبدأ السرعات الافتراضية بضبط ولباقة كاملين . فجاء عمله بناء تاماً لعلم الطبيعيات انطلاقاً من مبدأ مجرد واحد مع ما يستلزمه هذا العلم من صيغ تتوالى « وكأنها ابيات قصيدة علمية » . انه لعمل بطولي متقن ينطوي على أهمية نظرية عظمى يلسق ويوجز عمل قرن كامل ، ولكن خلوه من الاشكال لا يجعله سهل الاستخدام مهما كان رأي لاغرانج في ذلك .

« المهندس »

وهكذا فان علم الرياضيات ، العلم الكامل في نوعه ، هو نموذج كافة العلوم ، والرياضيون ، او « المهندسون » كما دعوا آنذاك ، مثال العالم بالذات . وفيما يلي وصف الصورة التي كونها القرن عن المهندس كما يراها عالم الفلك « بايي » :

المهندس رجل يتولى اكتشاف الحقيقة ، وان بحثه هذا لبحث شاق ابداً في حقل العلوم كما في حقل الاخلاق على السواء . عمق نظر ، وسلامة حكم وخيال حاد ، تلك هي صفات المهندس : عمق نظر لرؤية كافة النتائج لمبدأ ما ؛ ... سلامة حكم ... للارتقاء من هذه النتائج المنفردة الى المبدأ الذي ترتبط به . ولكن ما يعطي هذا العمق ويصدر هذا الحكم هو الخيال الذي يفعل فعله داخل الاجسام . يرسم صورة كيانها الباطني ؛ ... يشرّح الشيء اذا صح التعبير ... وبعد ان يظهر الخيال كل شيء ، الصعوبات والوسائل ، يصبح بمكنة المهندس ان يسير الى الامام ؛ واذا هو انطلق من مبدأ لا مراء فيه يجعل الحل المقترح اكيداً ، اعترف له الناس بالعقل الرشيد ؛ واذا ما أرشد هذا المبدأ البسيط جداً الى اقصر الطرق ، كان المهندس لبقاً في فنه ؛ ويكون عبقرياً اخيراً اذا ما توصل الى حقيقة كبرى ومفيدة وغير داخلة في الحقائق المعروفة ...

كانت « الهندسة » الاعداد العقلي لكل من يرغب في ان يصبح « فيلسوفاً » . اما الروح الهندسية فهي روح كل هذا القرن الذي اشتهر بالاستنتاج والتعميم .

الفصل الثالث

علم الفلك

في حقل علم الفلك ، اكمل الفرنسيون اعمال نيوتون . وبنوا علم الآليات الفلكي وجعلوا من علم الفلك علماً كاملاً ، مثال علوم الطبيعة . واظهر تقدم علم الفلك الطريق التي يجب ان يسلكها كل علم . واعطى علماء الفلك خير امثلة عن البرهنة الاختبارية . وغدا علم الفلك كمدرسة في كافة الحالات التي تنطوي على الملاحظة والاختبار والبرهنة الاختبارية. فيجب من ثم ان لا نمر به مرور الكرام.

مر علم الفلك قبل القرن السادس عشر ، على غرار كل العلوم الاخرى ، في مرحلة طويلة من ملاحظة الظواهر وابتداع الافتراضات بغية تفسيرها واخضاعها للحساب . ثم جاء في القرنين السادس عشر والسابع عشر عهد اكتشاف النواميس التي تخضع لها الظواهر . كان كوبرنيك قد استدل بالظواهر على حركات الارض على نفسها وحول الشمس ؛ وكان كبلر قد اكتشف نواميس حركة السيارات . وكانت اخيراً ، في النصف الثاني من القرن السابع عشر ، المرحلة الثالثة : الارتفاع من هذه النواميس الى المبدأ الذي يفسرها كلها ، وهذا ما كان نيوتون قد فعله بمبدأ الجاذبية الشاملة .

مسألة الجاذبية

ما زالت آراء نيوتون في اوائل القرن الثامن عشر بحاجة الى إثبات . في البدء حل نيوتون المسألة التالية : ما هي القوة المحركة المفترض تسليطها على السيارات اذا كانت هذه السيارات خاضعة لنواميس نيوتون ؟ وكان قد اجاب عن السؤال بان هذه القوة يجب ان تكون ، لكل سيارة ، موجهة نحو الشمس ونسبية لحجم السيارة ، وان تتغير بتناسب عكسي لمربع المسافة . ثم واصل تأملاته ، فتبادر لذهنه ان هذه الجاذبية ليست محصورة في تأثير الشمس في السيارات ، وان القوة نفسها تدير القمر حول الارض ، وتسقط الاجسام الوازنة على سطح كرتنا الارضية ، لا بل ان هذه القوة تجعل كل ذرة مادية تؤثر في كل ذرة مادية اخرى وانها متبادلة في كافة انحاء الكون . هذا هو مبدأ الجاذبية الشاملة .

لكننا توجب إثبات النظرية ورؤية ما اذا كانت الوقائع المعروفة تدخل حقاً في هذا المبدأ،

واذا ما كانت المعارف الجديدة الممكنة حول النظام الشمسي تدخل فيه . لقد اصطدم مبـــدأ نيوتون في الواقـــع باعتراضات نظرية كبرى . فقد بدا وكأن الجاذبية تفرض تأثيراً عـبر المسافات لم يتوصل احد الى تصوره بوضوح. واتهم الكرتزيانيون نيوتون ببعث الخاصيات الخفية. اما نيوتون فكان يصرح انه يرى الظواهر رأي العين ويحسبها ويضع نواميسها ولا يريد ان يؤكد شيئاً بصدد طبيعة الجاذبية واسبابها . ولكن تلاميذه كانوا يؤكدون بأن الجاذبية مردها تأثير حقيقي عبر المسافات وبانها خاصية جوهرية من خاصيات المادة . فبدوا وكأنهم يرجعون القهقرى نحو الفلسفة المدرسية . وقد كتب ليبنيز في السنة ١٧١٥ ما يلي :

« ... الجسم لا يتحرك طبيعياً الا بجسم آخر يدفعه بالتصاقه بـه ؛ ويستمر في الحركة بعد ذلك الى ان يعيقه جسم آخر يتصل به . كل حركة أخرى في الجسم اما عجائبية واما خيالية.. بهذا تنهار الجاذبيات بالمعنى الحصري والتأثيرات الاخرى التي لا تفسرها طبائع المخلوقات والتي يجب اللجوء في تفسير حدوثها الى المعجزة او الى المحالات، اي الى الخاصيات الخفية التي تقول بها الفلسفة المدرسية والتي اخذ البعض يطلعون علينا بها تحت اسم القوة المموه ، ولكنهم يعيدوننا بذلك الى مملكة الظلمات »...

يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان وقائع كثيرة لم يحسن تفسيرها عملياً ؛ كمد البحر وجزره مثلاً : اجل لقد عزاها نيوتون الى جاذبية الارض والشمس ولكنه لم يضبط حساب قوتهما ولم يتتبع بالتفصيل نتائج الشمس والقمر ؛ افترض كوكباً دون حركة يرفع ويخفض المياه على كرة غير متحركة . فتعرض بذلك لتهمة التحكم ، وتهمة الابتعاد عن الوقائع وسد فراغ المعرفـــة بالالفاظ . وما زال على الجاذبية ان تفرض نفسها .

براهين الجاذبية

ان عمل امتحان النظرية قد تم بطريقتين : البحث عن وقائع جديدة قد تؤيد او تبطل الافتراض ، لا سيما قبل السنة ١٧٥٠ ؛ تفسير الوقائـــع بالتفصيل بحساب اجري وفاقاً للافتراض ، لا سيما في النصف الثاني من القرن .

سبق لنيوتون وهويغنس أن أعلنا قدرة كافة الكواكب على الجاذبية . فهل تسلّط الارض ايضاً ، على كافة الاجسام ، جاذبية نسبية لحجم هذه الاجسام هي ثقل الاجسام في نظر البشر ؟ كان مفروضاً ان يتغير هذا الثقل وفاقـاً لمكان وجود الجسم على سطح الارض : لما كانت الارض تدور حول محور وهمي يمر بالقطبين ، كانت القوة المبعدة عن المركز كبيرة عند خط الاستواء خصوصاً ومتناقصة باتجاه القطب ؛ وكان مفروضاً ان تكون الاشياء اقل انجذاباً عنـــد خط الاستواء ؛ كما كان مفروضاً أن تكون الارض قد ارتفعت عند خط الاستواء اكثر منها عنـــد القطب ؛ فوجب من ثم أن لا تكون كرة كاملة بل مسطحة بعض التسطح عند القطب . كان نيوتون وهويغنس متفقي الرأي على هذه النقطة . ولكنهما اختلفا بعد ذلك : فقد عزا نيوتون هذه الجاذبية الى كافة اجزاء المادة ؛ وكانت ، في نظره ؛ شاملة حقاً ؛ وقد حسب ان التسطح

يجب ان يكون بنسبة ١ الى ٢٣٠ من محيط الدائرة . اما هويغنس فقد اعتبر ان الثقل قوة ترد الى الكرة ككل واحد ؛ وأنكر الصفة الشاملة للجاذبية ؛ فوجب من ثم ، في نظره ، ان يكون التسطح أقل بكثير مما توصل اليه نيوتون ، أي بنسبة ١ الى ٥٧٨ من محيط الدائرة فقط. ولمعرفة ما اذا كانت هذه القوة الجاذبة ، التي عزاها نيوتون الى الكواكب ، موجودة حقاً ، كان لزاماً معرفة ما اذا كانت الارض مسطحة عند القطبين ؛ ولتقديم الدليل على أن هذه القوة الجاذبة هي خاصية من خاصيات كافة الذرات المادية ، كان لزاماً تحديد النسبة .

مقاييس موبرتوي ولاكوندامين

بات ضرورياً ، لتحقيق هذه الغاية ، قياس درجة من درجات خط الطول ، بواسطة مسح الارض ، في أقرب مكان ممكن من القطب ومن خط الاستواء : فاذا لم يكن محيط الدائرة كاملاً ، أي اذا كان مسطحاً عند القطب ، يكون قوس الدرجة عند خط الاستواء أقصر منه عند القطب فبادرت أكاديمية العلوم في باريس الى البحث . أوفدت بعثتان في السنة ١٧٣٥ : احداهما الى البيرو ، مع لاكوندامين وبوغر ؛ والثانية الى أقصى خليج بوتنيا في لابونيا ، مع موبرتوي وكليرو . قاس هذان الاخيران الدرجة ٧٦ من العرض الشمالي ، ووجدا في السنة ١٧٣٦ ان طولها يبلغ ٥٧٤٣٨ « تواز » [التواز يساوي ٦ اقدام] ، أي انها زادت ٣٧٨ « تواز » عن الدرجة التي حددها بيكار بين باريس واميان عند الدرجة ٥٠ من العرض الشمالي . فكانت الارض من ثم مسطحة عند القطب كما سبق لنيوتون وهويغنس ان اعلنا ذلك . ولكن بضع مئات من « التوازات » ، بالنسبة لبضع عشرات الوف ، فرق زهيد جداً ؛ أو ليس هنالك تعرض للخطأ؟ كان موبرتوي قد تنبه للامر ؛ فافترض أنه اخطأ أبداً في مثلثاته بعشرين ثانية عند قياس الزاويتين الاوليين ، وبأربعين ثانية عند قياس الزاوية الثالثة ؛ وان هذه الأخطاء تسير ابداً في اتجاه واحد وتؤول طبعاً الى انقاص القوس : فلا يكون الخطأ ، في هذه الحالات القصوى سوى ٥٤ « تواز » ونصفا . وهكذا لم يبق مجال لأي ريب . وقد تأيدت حسابات موبرتوي وكليرو ، بعد مرور ثماني سنوات ، بحسابات لاكوندامين وبوغر في كيتو . صرف هذان الاخيران وقتاً أطول لأن نوامي المنطقة الاستوائية أخرت عملها . قاسا الدرجة ٣ من العرض الشمالي متخذين كل الاحتياطات الممكنة بغية تحاشي الأخطاء الاتفاقية الناجمة عن تعب الملاحظ وشرود فكره ، أو عن الظروف الجوية السيئة . قيست قاعدة المثلث الأول ، التي تتوقف عليها كافة الحسابات اللاحقة ، بواسطة فريقين مختلفين قاما بهذا العمل كل على حدة . هذا « أحد أصح البراهين التي يمكن أن تخلف للأجيال الآتية ». وجدا أن قياس الدرجة هو ٥٦٧٧٥ « تواز ». ولكنهما قاما بالقياس في أرض مرتفعة فحدث كل شيء كما لو قاسا محيط دائرة أكبر . توجب من ثم رد القياس الى مستوى البحر فحصلا نهائياً على ٥٦٧٧٣ تواز للدرجة . كان نيوتون وهويغنس على حق بصدد النقطة الأولى ؛ الأرض مسطحة عند القطبين ، والقوة المبعدة عن المركز تنقص الثقل عند خط الاستواء ؛ والثقل ليس احدى خاصيات الأجسام بل احدى ظواهر الجاذبية الارضية .

ولكن القياسات المجراة قد أثبتت ان التسطح يبلغ ١/١٧٨ من محيط الدائرة في القطب ، وهذا ما أيدته في فرنسا منذ السنة ١٧٤٠ قياسات خط الطول بين دنكرك وبربنيان باطالة الدرجات تدريجياً نحو الشمال . وما كانت القوة اللازمة لاحداث مثل هذا التسطح لتتأتى الا من جاذبية كافة أجزاء الارض: اذن الجاذبية شاملة : وقد أصاب نيوتون في رأيه ضد هويغنس.

ملاحظات بوغر ومسكلين

اثبت الفلكي بوغر ذلك باختبارات غاية في اللباقة على جاذبية الجبال . وقد جر الى درس هذه الاخيرة على حدة بينما كان يبحث عن حقيقة ما اذا كانت الجاذبية تتسلط بنسبة عكسية لمربع المسافات . سبق لبعضهم ان لاحظوا ان الساعات ذات الرقاص تتأخر تحت خط الاستواء : الثقل اقل ، والرقاص « يجتذب » بقوة أقل ، فحركته من ثم اقل سرعة . ولضبط الساعة ، وجب تقصير الرقاص ، وهذا ما يزيد سرعة ذبذباته . وقد وجد بوغر في كيتو على ارتفاع ١٤٦٦ تواز فوق مستوى البحر ، بالاضافة الى ذلك، انه يجب تقصير الرقاص ٣٣/١٠٠ من الخط الذي كان يرسمه عند مستوى البحر . وظن ان هذا الواقع مرده اقترابه من الشمس التي تزداد جاذبيتها . وكي يكون على بينة من الأمر نقل الرقاص الى قمة جبل « بيشنشا » على ارتفاع ٩٦٨ تواز فوق كيتو . وهنا ايضاً وجب تقصير الرقاص ١٩/١٠٠ . وكاد يكون هذا النقصان متناسباً عكساً لمربع المسافات بحسب ناموس نيوتون. ولكن لماذا كاد يكون فقط ؟ تبادر الى ذهن بوغر ان الثقل ، اذا كان ينقص بفعل الارتفاع ، اي بالاقتراب من الشمس، انما يزداد بفعل الجبل، اي بازدياد حجم الارض الذي يزيد جاذبيتها: فكان الانسان ، في أعلى الجبال ، موجود على كرة كبرى ذات شعاع اكبر . والجبال بالتالي سبب من اسباب ازدياد الجاذبية .

ولكن ما تبادر الى ذهن بوغر لم يكن في هذه الحال سوى افتراض ، لا تعبيراً عن واقع . فبات اجراء الاختبارات امراً ضرورياً . ولكن كيف اجراؤها في علم الفلك حيث لا نستطيع في أغلب الاحيان ملامسة مواضيع المعرفة ، وحيث نعجز ابداً عن تحريكها ؟ يجب اذن عزل الظواهر بالفكر ، وهم علماء الفلك من حققوا اكمل نماذج البرهنة الاختبارية . فكر بوغر بعزل تأثير الجبل . وقد استخدم لهذه الغاية فادم ارباع الدائرة المستعملة لقياس علو الكواكب فوق الأفق . يبين الفادم الخط العمودي بين مركز الارض وسمت الراس . وهو عمودي لان الكرة المعدنية الصغيرة تجتذب نحو مركز الارض . اذا ما وضعت هذه الاداة بجانب جبل متسع وعال ، كان واجباً ان يجذب الجبل الفادم اليه ويحيده عن الخط العمودي. ولكن ما هو السبيل الى رؤية ذلك ؟

بوغر وحياد الجبال

اذا ما نظرنا الى كوكب بالمنظار المثبت في ربع الدائرة ، حددت الزاوية المتكونة من اتجاه المنظار والخط العمودي ، المسافة بالدرجات بين الكوكب وسمت الرأس . ولكن اذا اجتذب الجبل الفادم ، فان سمت الراس سيتزحزح من مكانه بالنسبة للراقب . فالمراقبات التي تتناول كوكباً واحداً ، على خط عرض واحد ،

وبعيداً عن الجبـــل ، ستعطي من ثم زوايا مختلفة . اختار بوغر جبل « شمبورازو » : لاحظ انتقال سمت الراس من مكانه ، ومن ثم حياد الفادم ، وانتهى الى القول بجاذبية الجبال . ولكنه بقي في لبس من الأمر : فالانتقال كان ضئيلاً جداً ، وربما كانت الريح العاصفة التي هبت اثناء المراقبتين سبباً لحياد الفادم. الا ان الاسكتلندي مسكلين قد اجلى كل ريب حول جاذبية الجبال بنتيجة ٣٣٧ مراقبة اجراها في اسكتلندا . وبما ان الجبال ، وهي صغيرة جـداً اذا ما قورنت بالكرة الارضية ، قادرة على الاجتذاب ، فليس ما يحول دون قدرة اصغر اجزاء المـــادة على هذا الاجتذاب . فاعتبر حسنو النوايا ان نيوتون كان على صواب . وارتأوا ان الجاذبية لا تدرك مع ان حقيقتها لا ريب فيها : يجب الاعتراف بواقعها دون فهمها . وقد استخدم كليرو كل هذه الاعمال ليبرهن ان شكل الارض شكل قطع اهليلجي تقريباً .

مراقبات « له مونييه »

تأيدت الجاذبية الشاملة بمراقبات « له مونييه » (١٧٤٦) . لقد سبق للعلماء ولاحظوا ان هنالك بعض التباين في حركة زحل حين يقترب من المشتري كل عشرين سنة . فاذا كانت نظرية نيوتون صحيحة ، كان مرد التباين جاذبية المشتري. ولكن ما هو السبيل الى عزل هذه الجاذبية عن جاذبية الشمس ؟ توصل « له مونييه » الى ذلك بان درس ، بين المراقبات القديمة فقط ، تلك التي كان مفروضاً ان يتلقى زحل اثناءهـــا التأثير نفسه من الشمس حين يكون موجوداً في النقطة نفسها من مداره ، وعلى المسافة عينهـــا من الشمس ؛ فتبين له ان المشتري وحده ، في هذه الحـالات ، كان موجوداً في امكنة مختلفة وعلى مسافات مختلفة . ثم قام له مونييه نفسه بالمراقبة في الظروف نفسها . فوجد اختلافات مطابقة في حركة زحل المبطئة ، وهو تأثير لا يمكن ان يتأتى إلا من حجم المشتري . اما حركة المشتري فكانت على نقيض ذلك تزداد سرعة . فبرز واقع الجاذبية جلياً في جزء آخر من النظـــام الشمسي ، وانكش المكان المتروك للشك . واكتشف العلماء اخيراً ان اقمار المشتري ترسم حوله قطعاً اهليلجيا وفاقاً لنواميس كبلر . فكان ذلك دليلاً على امـــكان تطبيق هذه النواميس على النظام الشمسي كله ؛ ولما كانت الجـــاذبية مبدأ هذه النواميس ، فقد تأيدت بها تأيداً غير مباشر .

اذا لم نستطـــع القول ان اختباراً بحصر المعنى قد اجري في جميـــع هذه الاعمال ، اذ ان المراقب لا يحول ولا يغير بنفسه الظواهر الطبيعية ، فهذا لا يعني ان الطريقة الاختبارية لم تطبق تطبيقاً كاملاً : فعلى غرار ما يجري في الاختبار ، أثبتت النتائـــج المستخلصة من المراقبات بمراقبات تناولت وقائع عزل بعضها عن البعض الآخر بالحيلة .

إثبات الجاذبية بالحساب

وهكذا فأن وقائع خاصة جديدة قد ايدت نظرية نيوتون . وقدم علمـــاء الرياضيات نوعاً آخر من البراهين باستخدام تحليل الكمية الصغرى . انطلقوا من المبدأ المشروح ، فاهتدوا بالأستنتاج الى كل نتائجـــه ، وكل المراقبات الجراة ، واظهروا تسلسل الوقائع وتنبأوا تنبؤات تحققت .

باستطاعتنا شرح طرائقهم على الوجه التالي : لنفترض جرماً قذفته في الفضاء قوة دفعهـا متساو ودائم ؛ سرعته معروفة واتجاهه محدد ؛ ما هي الطريق التي سيسلكهـا ، وما هو الخط المنحني الذي سيرسمه اذا كان ، كما يقول نيوتون ، مجتذباً حقاً وباستمرار الى مركز جرم آخر موجود على مسافة معينة بقوة متناسبة عكساً لمربع المسافات ؟ هذه هي مسألة الجسمين . في وقت قصير جداً ، تميل « قوة الدفع » الى جعله يرسم خطاً مستقيماً صغيراً ؛ وتميل قـوة الجاذبية الى جعله يرسم خطاً مستقيماً صغيراً آخر في اتجاه مختلف . يؤلف هذان الخطان الصغيران زاوية ويشكلان ضلعين من مسطح متوازي الاضلاع : ان الجرم يتتبع خط زاويتها في خضوعه للقوتين معاً ، وخط الزاوية هذا هو طريقه في هذا الوقت ، وجـزء من المنحني الذي سيرسمه . وباستطاعتنا ان نرى كذلك طريقه في الهنيهة التالية ، وهكـذا دواليك . خط الزاوية تفاضلي ، وبمقدورنا الارتقاء بواسطة حساب التكامل الى كميتها الـكاملة المحدودة التي هي معادلة المنحني . ولا يمكن ان يكون هذا الاخير سوى قطـع اهليلجي او دائرة او قطع زائد او قطع مكافىء .

اما مسألة الاجسام الثلاثة فأكثر تعقداً . لنفترض ثلاثة أجسام معينة بمواقعها واحجامهـا وسرعاتها ؛ ما هي الخطوط المنحنية التي سترسمها بجاذبيتها المتناسبة طرداً للاحجـام وعكساً لمربعات المسافات ؟ يقدم لنا نموذج هذه المسائل القمر الذي تجتذبه الارض وتحيـده الشمس ، والذي يغادر في كل هنيهة القطع الاهليلجي الذي يرسمه . اقتضى اجراء سلسلة من المقـاربات : حساب قطع القمر الاهليلجي كما لو كانت الشمس دون اي تأثير ، ثـم حساب تأثير الشمس بحسب مكانها في كل هنيهة ؛ وهكذا توصل العلماء بحسابات طويلة وشاقة الى تحديد موقع القمر في كل هنيهة في الفلك .

ان كل ما اجري قد أيد نظرية نيوتون تأييداً كاملاً . اتفق الحساب والمراقبة ؛ اجري الحساب وحده فوضع الاجرام حيث وجدتها المراقبة بحسب الاوقات ، وعين المكان الذي وجدتها فيه المراقبة ؛ ودلّ على كافة الحركات ، حتى اصغرها ، واظهر كيف انها تنجم عن موقع الاجسام في الهنيهة السابقة ؛ وفسر بالنتيجة كل شيء . وهكذا فان اولر وماك لورين ودانيال برنولي قد فسروا بمبدأ الجاذبية حركة مد البحر وجزره ، وهو الموضوع الذي اقترحته اكاديمية العلوم في باريس ؛ وقد اخذوا بعين الاعتبار سير القمر والشمس ، والارض التي تدور حـول نفسها ، وهذا ما يبعد الذرات المائية ، كما اخذوا بعين الاعتبار التأثير الذي يرفعها واحتكاك المـاء بالقعر والشواطىء ، ففُسر كل شيء .

نظرية السيارات والاقمار
ثبات النظام الشمسي

احرز كليرو ، في السنة ١٧٥٢ ، جائزة اكاديمية سان بطرس برج ببيان حول « نظرية القمر » ، المسألة التي اهملها نيوتـون والتي وجد هو لها حلاً يكاد يكون كاملاً . وفي السنة ١٧٦٤ فسر لاغرانج السبب الذي من اجله يدير القمر ابدا الوجه نفسه نحو الارض ، ثم طلع بنظريـة

اقمار المشتري فحل مسألة الاجسام الستة . وفي السنة ١٧٤٨ والسنة ١٧٥٢ احرز اولر جائزة اكاديمية العلوم في باريس باثباته اعمال له مونييه حسابيا وبتقديمه الدليل على ان التباين في حركة زحل والمشتري مرده جاذبيتها المتبادلة ؛ وبرهن حقيقة ظنّ طلع به جاك كاسنيي يُرد بموجبه التباين الى مكان المدارات الخاص ، وتكون الظواهر متناقضة في سنوات عدة ، وهكذا فانه سار في طريق اثبات دوام النظام الشمسي ، ولكنه ترك هذا الجهد للابلاس . لقد ارتاب نيوتون واولر نفسه ، ان تستطيع قوى النظام الشمسي الكثيرة عدا والمتغيرة اوضاعاً والمختلفة قـــوة المحافظة باستمرار على اتزان ثابت . وقد ظن نيوتون بأن يداً قوية انما تتدخل بين وقت وآخر لاعادة الاجسام الحائدة بفعل تأثيرها المتبادل الى مواقعها الخاصة . وكان ذلك في نظره اثباتاً لضرورة وجود الله . ولكن المراقبة اظهرت ان معدل سرعة كل من القمر والمشتري يزداد وان معدل سرعة زحل يتدنى . وبدا وكأن زحل سيخرج من النظام الشمسي والمشتري سيهبط على الشمس والقمر على الارض . فبرهن لابلاس في السنة ١٧٧٣ ان حركات السيارات ومعـــدل المسافات بينها ثابتة او عرضة لتغيرات دورية صغرى فقط . ثم برهن ، بـــين السنة ١٧٨٤ والسنة ١٧٨٧ ، ان التغيرات انما هي اختلالات دورية تخضع لناموس الجاذبية . فكان النظام الشمسي من ثم ثابتاً وخاضعاً بكليته لمبدأ الجاذبية الشاملة . ولا فائدة من ثم من وجود الله : فلم يعد لابلاس بحاجة الى هذا الافتراض .

المذنبات

بيد ان اوضح إثبات للمبدأ ولقيمة الحساب ، قدمـه كليرو في السنة ١٧٥٩ في موضوع مذنب « هالي » الكبير الحجم . فعلى الرغم من اعمال هالي ونيوتون ، ما زال الشك مخيماً حول ما اذا كانت المذنبات تظهر حقاً بعد فترات متساوية ، ومـــا اذا كانت حركتها دورية حول الشمس ، وما اذا كانت هذه الحركة ثابتة ومنتظمة ثبوت وانتظام حركة السيارات . ظهرت بعض المذنبات في السنة ١٧٢٩ ، والسنة ١٧٤٢ ، والسنة ١٧٤٤ ، والسنة ١٧٤٧ ، والسنة ١٧٤٨ . بالاستناد الى سرعتها واتجاهها ، حين كانت ماثلة للعيان ، توصل علماء الرياضيات الى حساب مداراتها ووجدوا انها قطع مكافىء . فاذا كانت المذنبات تعود ثانية ، فمعنى ذلك ان هذا القطع المـكافىء هو جزء من قطع اهليلجي كبير جداً . ولكن هالي كان قد انبأ بعودة مذنب السنة ١٦٨٢ بعد مرور ست وسبعين سنة . وكان قد عاد من قبل بعد فترات ٧٦ سنة و ٦٢ يوماً و ٧٦ سنة و ٤٢ يوماً . بالاستناد الى المراقبات التي تناولت هذا المذنب في السنة ١٥٣١ والسنة ١٦٠٧ والسنة ١٦٨٢ ، حسب كليرو عودتـه آخذاً بعين الاعتبار تأثير المشتري وزحل على سيره وانبأ بانه سيبلغ هـــذه المرة اقرب مسافة الى الشمس بعد مرور ٧٦ سنة و ٢١١ يوماً اي في ١٣ نيسان من السنة ١٧٥٩ . الا انه اضاف انه قد يكون اخطأ بشهر . وفي الواقع كان المذنب منظوراً منـذ اواخر كانون الاول من السنة ١٧٥٨ ، وقد شوهد في باريس منـــذ ٢١ كانون الثاني من السنة ١٧٥٩ .

وبلغ اقرب مسافة الى الشمس في ١٣ آذار من السنة ١٧٥٩ . فأثارت دقة الحساب اعجاب العالم وثقته . وراقب المذنب كافة علماء الفلـــك وحسبوا عناصره ووجدوها متشابهة كل التشابه بعناصره في ظهوراته السابقة . فكان ذلك برهاناً على ان المذنبـات ، على غـرار السيارات ، ترسم قطعاً اهليلجيا تحتل الشمس احد محترقيه ، وذلك وفاقاً لنواميس كبلر . كما كان برهانا على ان المذنبات ايضاً تخضع لمبدأ الجاذبية الشاملة . وقد احـرز كليرو جائزة سان بطرسبورغ الامبراطورية في السنة ١٧٦٢ بعرضه نظرية المذنبات .

الا ان المذنبات ما فتئت تثير مخاوف الرأي العام . ففي السنة ١٧٧٣ تكلم «لالاند» في اكاديمية العلوم عن امكان حدوث مدّ عظيم بسبب مرور مذنب على مقربة من الارض قد يكون من شأنه غمر اليابسة . انتشر افـتراض لالاند في باريس ، ومـا لبث ان تشوّه بانتقاله من شخص الى آخر فامسى نبوءة بوقوع الارض في المذنب : لا بل حُدد يوم هذا الوقوع بالذات . غير ان « دي‌سيجور » قد بين ان احتمال هذا الوقوع ضئيل جداً اذ ان المذنب الذي بلغ اقرب نقطة الى الارض قد يقي على مسافة ٧٥٠٠٠٠ فرسخ ؛ وان المد مستحيل حدوثه اذ ان المذنب الذي يقترب حتى مسافة ١٣٠٠٠ فرسخ من الارض لن يبقى على مقربة كافية من الارض تمكنه التـأثير في البحار سوى ساعتين ونصف الساعة بينما يقتضي للمذنب عشر ساعات و ٥٢ دقيقة حتى يحدث المد وتغمر المياه الارض . كان البرهان قاطعاً : لا تنطوي المذنبات على اي خطر .

وهكذا فقد قـدم الحساب ، او « الهندسة » كما درج القول حينذاك ، اثباتات ساطعة لآراء نيوتون . اجل لقد كان بالامـكان الاستغناء عن التحليل : فلو اجريت الوف المراقبات لانتهت كلها الى تقديم الدليل على ان نواميس نيوتون تتحقق ابداً . ولكن علم الفلـك كان في طريقه لان يمسي علماً استنتاجياً ؛ لقد بلـغ كماله ، وفي اواخر القرن ، استطاع الفلكي بايّي كتـابة مـا يلي : « ان هذين العلمين [الهندسة وعلم الفلك] يتماسان اليوم تماساً يجعلهما يبدوان وكأنهما مختلطين » .

وسائل جديدة للمراقبة

بينما كان المختبرون و « المهندسون » يستثبتون الافتراضـات ، واصل المراقبون عمل الوصف وتوسع الكون توسعاً مدهشاً . وقد سهلت المراقبات سلسلة من النجاحات التقنية التي ولدتها حاجات المراقبين . حدد بوغر ولاكاي انحراف الهواء في حالات الارتفاع والضغط والحرارة المختلفة ، فبات ممكناً والحـالة هذه ان يؤخذ بعين الاعتبار حياد الاشعة الضوئية ، الصادرة عن الكواكب ، اثناء مرورها عبر الجو ، الذي يرينا الكواكب في مواقـع غير مواقعها الحقيقية . وفي السنة ١٧٤٩ ، أضاف « كلود باسّمان » الى المناظير حركة اشبه بحركة الساعات اتاحت منذئذ تتبع الكواكب بدقـة في انتقالها. ولكن اهم التحسينات هي تلك التي ادخلت على المناظير والمَراقب نفسها. ففي المناظير حيث تجتاز الاشعة الضوئية العدسات الزجاجية لتصل الى عين المراقب ، يعطي الزجاج نتـائج

الموشور ، وتتلون الصور وتصبح غير واضحة ، ولذلك اخترع غريغوري ونيوتون المرقب حيث تعكس مرآة كروية الاشعة الضوئية . وفي السنة ١٧٤٧ خطر لأولر ان يصنع مكبرات المراقب من عدستين زجاجيتين يوضع بعض الماء بينهما : فكان على الاشعة الضوئية والحالة هذه ان تمر في مواد مختلفة الخاصيات في كسر الاشعة تحلل الاشعة وتفصل بين الألوان تحليلاً وفصلاً مختلفين ؛ وقد استطاع العلماء ان يظهروا المضادة بين هـــذه النتائج وينقضوا نتيجة باخرى ويعيدوا الى الشعاع الملون هذا المزيج المضبوط الذي يكون بياض النور. ولكن استخدام الماء لم يكن سهلاً. في السنة ١٧٥٨ توفق عـــالم البصريات الانكليزي « دولوند » الى ان يكتشف ، بعد تردد ، زجاجات مختلفة الخاصيات في كسر الاشعة ايضاً ، واستطـــاع ان يصنع مناظير تنفذ النور الابيض دون تحليله وتبلغ خمس اقدام طولاً وتعطي النتيجة نفسها التي تعطيهـا المناظير العادية البالغة اثنتي عشرة قدماً طولاً . وصنع ابنه مناظير تبلغ ثلاث اقدام طولاً وتعطي نتيجة منظار مصنوع بحسب المبادىء القديمة يبلغ ١٥ قدماً. فضلت المنـاظير المراقب فترة من الزمن. ولكنها استلزمت زجاجاً يدخل الرصاص في تركيبه ولم يرافق النجاح الكامل صنعه الا اتفاقـاً . لذلك عاد الانكليزي « وليم هرشل » وروّج المراقب . كانت هذه الاخيرة تعطي صوراً غير واضحة بسبب التفاوت في الانحناء ؛ وهذا ما يعرف بزيغان الكروية . حـــاول هرشل اعطاء المرايا العاكسة اشكال قطع مكافىء وقطع زائد ؛ فأقصى بذلـــك زيغان الكروية . في السنة ١٧٨٩ كان لديه مرقب يبلغ ١٢ مترا طولاً و ١,٤٧ قطراً حقق بواسطته اكتشافات روجت المراقب مرة أخرى .

الاكتشافات

ساعدت تحسينات الأجهزة على مواصـــلة استكشاف الفلك . ففي السنة ١٧٥١ ، حدد لاكاي، في رأس الرجاء الصالح ، مواقع كافة النجوم المنظورة بين القطب الجنوبي وخط الجدي ووضع جدولاً بعشرة آلاف نجم . وفي السنة ١٧٨١ اكتشف هرشل السيارة اورانوس ؛ كما اكتشف في السنة ١٧٨٩ قمري زحل السادس والسابع ؛ ولاحظ أن نجوماً ضعيفة الضوء كثيرة تحتوي على نواة لامعة وان بعضها يؤلف مجموعات تضم عدداً كبيراً جداً من النجوم .

اخذت تبرز امكانية وجود عوالم اخرى مأهولة . واعتقد مرصدا لندن وباريس باكتشاف جو يحيط بالقمر . فان كسوف الشمس في اول نيسان من السنة ١٧٦٤ قد بـــدا وكأنه يظهر انحرافا في الأشعة الشمسية لا يمكن ان يرد الا الى جـوّ ، لان الشعاع يأتي من الشمس بسرعة فائقة تجعله ينجو من « جاذبية » (كذا) القمر . وكان الحياد ضعيفاً : اذن الجو ليس كثيفاً . وحملت مراقبات أخرى على الاعتقاد بوجود جوّ حول المريخ والزهرة وعطارد .

ارتدت السيارات والنجوم ارتداداً مدوماً الى الوراء في كون كان يتسع اتساعاً مطرداً. في السنة ١٧٥١ حدد لاكاي بعد القمر بـ ٨٥٤٦٤ فرسخاً . وأتاحت مراقبات دولية مشتركة أجريت في

السنة ١٧٦١ والسنة ١٧٦٩ لتحديد بعد الشمس عن الارض بـ ٣٥ مليون فرسخ تقريباً ولتحديد أبعادها بـ ١٤٠٠٠٠٠ ضعف أبعاد الارض . ولاحظ « براديلي » ان الزاوية المتكونة من الخط المستقيم الذي يصل عين المراقب بأحد النجوم والخط المستقيم الذي يصل مركز الارض بهذا النجم لا تعادل ثانية واحدة من القوس . ولا يلزم للقمر ثانية واحدة لكسف النجوم التي يصادفها . لذلك فان قطر هذه النجوم لا يحتل مسافة نصف ثانية في الفلك . وهذا يفرض ان النجوم أبعد من الشمس في الفلك بـ ٢٠٦٠٠٠ مرة ؛ ولكن اذا ما ابعدت الشمس الى مسافة توازي ٢٠٦٠٠٠ ضعف مسافتها لغدا اتساعها ٢٠٦٠٠٠ مرة اقل مما يبدو ولغدا قطرها مساوياً لـ ١/١٠٧ من الثانية . اذن النجوم أكبر من الشمس وتحتل مكاناً بعيداً خارج النظام الشمسي.

تأليف لابلاس

وهكذا ، على الرغم مما تبقى من جهالات واخطاء ، توفرت الظروف الضرورية لكي يستطيع الانسان محاولة تصور نظام الكون ، وهذا ما حاوله لابلاس في كتابه « عرض نظام العالم » الذي تعود طبعته الاولى الى السنة ١٧٩٦ ، والذي هو كتاب حجة جمع وأوجز ورتب ونسق ، بتدقيق كلي ، كافة المعارف المحققة وتخطاها باندفاع مخيلة إله خالق ، وقصيدة تثير الاعجاب وتشترك في مثل كبار الأنبياء المقدس ، وان اوغست كونت مدين له بالكثير مما كتب : فان قسماً كبيراً من « الفلسفة الموضوعية » موجود في لابلاس .

يبحث على التوالي ، في خمسة كتب ، في الحركات الظاهرة للاجرام السماوية ، والحركات الحقيقية للاجرام السماوية ، ونواميس الحركة ، ونظرية الجاذبية الشاملة ، وتاريخ علم الفلك . فهدفه فلسفي ويتخطى مجرد بيان المعارف . يرغب في اظهار سير علم الفلك ، « ... الطريق التي سلكها هذا العلم في نجاحاته والتي يجب ان تسلكها العلوم الطبيعية الاخرى على غراره... » ؛ وصف الظواهر اولاً ، ثم استعادة ما يحدث في الواقع ، ثم اكتشاف العلائق الشاملة واللازمة بين الظواهر ، اي النواميس ، واخيراً ادراك المبدأ العام الذي يستطيع العقل أن يرد اليه كافة النواميس ويجعل منه نقطة انطلاق للبناء ثانية بواسطة الاستدلال .

وهو يشدّد الكلام على ركانة النتائج :

« لقد اصبح علم الفلك والحالة هذه حلا لمسألة كبرى في علم الآليات ... ان لديه اليقين الذي يستند الى عدد وتنوع الظواهر المشروحة بكل تدقيق ، والى بساطة المبدأ الذي يكفي وحده لهذه الشروح . فلا خوف من أن يناقض كوكب جديد هذا المبدأ ، بل يمكن بعكس ذلك الجزم سلفاً بأن حركته ستكون مطابقة له » .

ويبين واقع الحال :

« هذا هو ، بدون ريب ، تكوين النظام الشمسي . ان كرة الشمس الضخمة ، المركز الرئيسي لحركات هذا النظام المختلفة ، تدور حول نفسها في خمسة وعشرين يوماً ونصف اليوم ؛

مساحتها مغطاة بخضم من مادة مضيئة ؛ وفي ما وراءها تتحرك السيارات وأقمارها في مدارات تكاد تكون مستديرة وعلى مستويات قليلة الانحدار بالنسبة لخط الاستواء الشمسي . وهنالك مذنبات لا يحصى لها عدد تقترب من الشمس ثم تبتعد عنها الى مسافات تقدم الدليل على أن سلطانها يمتد الى أبعد من الحدود المعروفة لنظام السيارات . لا يؤثر هذا الكوكب بجاذبيته في كافة هذه الاجرام بارغامها على الدوران حوله فحسب ، بل يوزع عليها نوره وحرارته . تأثيره الخيّر يساعد على ولادة الحيوانات ونمو النباتات التي تغطي وجه الارض ، وتحملنا المماثلة على الاعتقاد بأنه يعطي نتائج مشابهة في السيارات ، فطبيعي لعمري أن نفكر بأن المادة ، التي نرى إخصابها يتكاثر تكاثراً كبيراً متنوعاً ، ليست عقيمة في سيارة بضخامة المشتري لها ، على غرار الارض ، لياليها ونهاراتها وسنواتها ، وتحدث فيها ، كما تشير الى ذلك المراقبات ، تغييرات تفرض قوى ناشطة جداً . ان الانسان ، وهو من توافق تكوينه الحرارة التي ينعم بها على الارض ، قد لا يستطيع ، في الارجح ، العيش على السيارات الأخرى ؛ ولكن اليس مفروضاً أن يكون هنالك تعضيات كثيرة جداً توافق تكوينها الحرارات المختلفة في أجرام هذا الكون ؟ اذا كان اختلاف العناصر والاقاليم يكفي وحده لاحداث مثل هذا التنوع في المحاصيل الارضية ، فكم بالاحرى يفرض ان تختلف محاصيل السيارات الكثيرة وأقمارها ؟ ان المخيلة لأعجز من أن تكون أية فكرة عنها ، ولكن وجودها ، في أقل تقدير ، قريب الى المعقول ... »

ثم يبين رحابة الكون ووحدة تركيبه ويرتفع الى فكرة التطور . في ما وراء الشمس ، توجد شموس لا يحصى لها عدد هي النجوم ؛ يخضع بعضها ، في لونها ونورها ، لتغييرات دورية تشير ، على سطحها ، كما على سطح الشمس ، الى بقع كبرى تظهرها وتخفيها حركات الدوران . وهنالك نجوم اخرى ظهرت واختفت ، بعد ان لمعت لمعاناً ساطعاً اتاح رؤيتها في وضح النهار . بعد ان كان لونها ابيض ناصعاً ، في البدء ، على غرار المشتري ، غدا اصفر فضارباً الى الحمرة ، ثم ابيض رصاصياً ، على غرار زحل ، ثم اختفت عن الانظار ، ولكنها لا تزال موجودة .

تؤلف هذه النجوم فئات عدة . تبدو شمسنا واكثر النجوم لمعاناً مجتمعة في احدى هذه الفئات التي تظهر وكأنها تحيط بالفلك وتكون المجرة . ولكن المجرّة قد تظهر لمراقب يبتعد عنها الى ما لا نهاية له وكأنها نور ابيض متصل ذو قطر صغير ، اذ ان انتشار الاشعة الذي لايضمحل في احسن المراقب ، سيملأ المسافات التي تفصل بين النجوم . فمن المحتمل جداً والحالة هذه ان يكون بعض النجوم الضعيفة الضوء مجموعات تضمّ عدداً كبيراً جداً من النجوم قد تبدو ، اذا ما نظر اليها من داخلها ، شبيهة بالمجرّة .

«فاذا ما فكرنا الآن بهذا العدد الضخم من النجوم والنجوم الضعيفة الضوء المنتشرة في الفضاء السماوي ، وبالمسافات الشاسعة التي تفصل بينها ، فان المخيلة التي ستدهشها عظمة الكون ، ستجد صعوبة في ان تتصور له حدوداً » .

تبدو النجوم الضعيفة الضوء وكأنها تتكاثف . راقب هرشل الشهير التكاثف في نجوم

ضعيفة الضوء كثيرة «كما يراقب المرء ، في حرج واسع الاطراف ، نمو الاشجار في كل نوع من الانواع يشتمل عليها » . بعضها مجرد مادة غائمة ضعيفة الضوء ، وبعضها على شيء من التكاثف حول نواة باهتة اللمعان ؛ وبعضها الآخر ذو نواة اكثر لمعاناً ؛ وهنالك نجوم ضعيفة الضوء كثيرة الاجزاء مؤلفة من نويات لامعة متقاربة جداً ، يحيط بكل منها جو من مادة غائمة ضعيفة الضوء ؛ وهنالك اخيراً مجموعات النجوم . وهكذا ينتهي المرء ، بواسطة تزايد تكاثف المادة الغائمة الى الشمس التي كان يحيط بها من قبل جو مترامي الاطراف ، « وهذا اعتبار توصلت اليه بدرس ظواهر النظام الشمسي ... ان التوصل الى مثل هذه النتيجة التي تلفت الانتباه ، بسلوك طرق مختلفة ، يجعل من مرور الشمس في هذه الحالة امراً محتملاً جداً » .

وفي احد بياناته ، عرض لابلاس « بالتحفظ الذي يجب ان يوحيه كل ما ليس نتيجة المراقبة والحساب » افتراضه الشهير حول اصل وتطور النظام الشمسي الناشيء عن نجم غائم ضعيف الضوء قديم العهد تكاثف شيئاً فشيئاً . يغلب على الظن ان المادة الغائمة الضعيفة الضوء تكاثفت في مركزها بحيث كوّنت نواة . كلما تزايد التكاثف تزايدت سرعة الدوران . ويغلب على الظن كذلك ان التفاوت بين التكاثف والسرعة قد عزل عن النواة المركزية عدّة حلقات مشتركة المركز ، وان التكاثف قد تزايد تزايداً متفاوتاً في كل من هذه الحلقات ، التي تقسمت في الارجح اجراماً هي السيارات . فجاءت هذه النظرية تحل ، محل الرأي القائل بحالة الكواكب المستقرة الدائمة ، الرأي القائل بحدوث تغير في الزمان ، وتحول كائن الى آخر ، وتدخل نوعاً من النشوء والارتقاء الى علم الفلك .

وينتهي لابلاس بهذا النشيد :

« ان علم الفلك ، بعظمة موضوعه وكمال نظرياته ، اجل بدائع العقل البشري وأشرف عناوين إدراكه . تضلّل الانسان زمناً طويلاً بأوهام الحواس والأنانية فنظر الى نفسه كما الى مركز حركة الكواكب ، وقد نال عقاب صلفه الباطل بالمخاوف التي اوحتها اليه . واخيراً انتهت اعمال قرون طويلة الى اسقاط الستار الذي كان يحجب نظام العالم عن عينيه . فاكتشف حينذاك انه على سيارة صغيرة جداً في النظام الشمسي الذي ليست رحابته الواسعة الارجاء سوى نقطة لا تذكر في اتساع الفضاء غير المحدود . الا ان النتائج السامية التي حملته اليها هذا الاكتشاف من شأنها ان تعزيه عن المرتبة التي يعينها للارض باظهاره عظمته الشخصية في صغر القاعدة التي استخدمها لقياس السماوات . فلنحفظ بعناية وللنمو وديعة هذه المعارف السامية التي هي نعيم الكائنات المفكرة . لقد أدت خدمات هامة للملاحة والجغرافية ؛ ولكن خدمتها الجلّى انها بددت المخاوف الناجمة عن الظواهر السماوية وقضت على الاخطاء الناجمة عن جهلنا حقيقة علائقنا بالطبيعة ، وهي اخطاء ومخاوف قد تتجدد بسرعة اذا ما انطفأ مشعل العلوم » .

الفصل الرابع

عـلم الطبيعـة

كانت نجاحات علم الطبيعة صاعقة في السنوات الثمانين الأولى من القرن السابع عشر . اما في القرن الثامن عشر فكانت النتائج أقل لمعاناً، ومع ذلك فقد تحققت اكتشافات جميـلة في حقلي الحرارة والكهرباء . ولكن الوقت اضيع في النظريات حول طبيعة الظواهر .

حاول ديكارت معرفة طبيعة النور ، فتبنى طريقة التموج : افترض ان الاجسام المضيئـة تشرك في تموجات اجزائها الصغرى سائلا متمططاً غاية في الرقة منتشراً في الفضاء ؛ يأخذ هذا السائل بالارتجاج فينجم النور عن ارتجاجه كما ينجم الصوت عـن ارتجاجات الهواء . فكان النور من ثم انطباعاً تحدثه في حواسنا احدى حركات المادة، أي حالة خاصة من حالات الحركة. أما نيوتون فقد اعتبر ، بعد تردد طويل ، ان الوقائع توحي بالتفضيل طريقة البث : النـور مركب من ذرات مضيئة تقذف بها اجسام ترسل النور حتى اعيننا : فليس النـور حالة من حالات الحركة بل جسماً خاصاً . فرضت هذه النظرية نفسهـا على القرن الثامن عشر بأسره ، باستثناء اولر الذي استمر في تفسير اختلاف الالوان باختلاف ديمومة الارتجاجات . وقد حملت المعاصرين على النظر بالمماثلة الى الحرارة والكهرباء نظرهم الى اجسام ، لا الى حركات مختلفة لمادة منتشرة واحدة . فكان ذلك تقهقراً بالنسبة الى القرن السابع عشر .

المِحَر استطاع درس الحرارة احراز التقدم بفضل أداة قياس دقيقة ثابتة حساسة لم تتوفر من قبل : هي المحر الذي جاء نتيجة جهود بذلها علماء ينتمون الى بلدان مختلفة أدخلوا عليه تحسينات متوالية .

اهتدى الى مبدأ المحر « فاهرنهيت » الدانتزيغي ، صانع الادوات المختصة بالحوادث الجوية. في السنة ١٧٢٤، اكتشف أن لكل سائل نقطة بخار ثابتة تتغير بتأثير الضغط الجوي. فاستطاع من ثم ان يستخدم للقياسات سائلاً تبلغ نقطة بخاره حرارة أعلى من حرارة المـاء : وان يتخذ كحرارة أصلية حرارة بخار الماء الغالي تحت ضغط جوي طبيعي عند مستوى البحر ، أي ٧٦ سم من الزئبق . بقي عليه تعيين الجسم الذي يعطي ابـدا الحرارة الدنيا نفسها والتثبت من أن الجسم المختار يتمدد أو يتقلص ، بـين النقطتين المقابلتين للحرارتين القصويين ، تمدداً وتقلصاً

مستمرين ومتناسبين تقريباً لتبدلات الحرارة . وبعد تردد اعتمد الزئبق أو الكحول سائلاً ، وعين الصفر بحرارة مزيج من الثلج والجليد والماء ، والدرجة ٢١٢ في بخار الماء الغالي . ولكن المزيج وتعيين الدرجات كانا صعبي التحقيق ، كما ان استخدام الدرجات لم يكن بالأمر السهل .

اما عالم الطبيعة الفرنسي ريومور فقد استخدم لتعيين الصفر ، في السنة ١٧٣٠ ، الجليد الذائب ، واعتمد سائلاً كحولاً ممزوجاً بثلث مقداره ماء يتمطط تمططاً أكثر ويعطي دلالات أوضح ، وقسم الدرجات الى ثمانين لأن السائل الذي اعتمده يتمطط من ١٠٠٠ الى ١٠٨٠ بين حرارة الجليد الذائب وحرارة بخار الماء الغالي ، وهي درجات أسهل تعييناً على أنبوب. ولكن صنع المحر ما زال معقداً . ولم يتوصل ريومور قط الى صنع أدوات متشابهة الدلالات .

وارتأى « دي كرست » الجنيفي ، في السنة ١٧٤٠ ، اعتماد الدرجات المئوية ، ولكنه اخطأ بتعيين الصفر بحرارة اقبية مرصد باريس ، اذ ان ذلك جعل صنع المحر مستحيلاً في غير مكان او ارغم على اجراء حسابات للمقارنة بين الملاحظات .

وفي السنة ١٧٤٢ ، جمع سلسيوس استاذ علم الفلك في اوبسالا من اعمال اسوج بين اكثر الطرائق سهولة ، اي الجليد الذائب والتقسيم الى ١٠٠ درجة . ولكنه عين الصفر بحرارة بخار الماء الغالي والدرجة ١٠٠ بحرارة الجليد الذائب . فكان ذلك مزعجاً للقراءة. في السنة ١٧٥٠ ، عكس زميله « ستورمر » سلّم الدرجات واعطى المحر شكله الحالي .

ان محر سلسيوس هذا ، الذي نعرفه باسم المحر المئوي ، اسهل استعمالا من غيره . ولذلك لم يلبث ان اعتمد في فرنسا . ولكن ما زال هناك ١٩ سلم درجات في السنة ١٧٨٠ ؛ سلم فاهرنهيت في هولندا وانكلترا وامريكا بوجه خاص ؛ وسلم ريومور في المانيا ؛ وكان مقدراً لها ان تعرف ديومة طويلة .

قياس كمية الحرارة

بفضل المحر استطاع الاسكتلندي « جوزف بلاك » الكيميائي والطبيب ، والاستاذ في غلاسكو وادنبرا استثبات الافكار التي اوحت اليه بها مراقباته والتوصل الى قياس كمية الحرارة . منذ السنة ١٧٥٦ ، اطال التأمل ببطء ذوبان الجليد واستمرار بقاء كميات من الثلج المتحول جليداً على الجبال في قلب الصيف ، والوقت المديد الضروري للماء الغالي كي يتبدد بخاراً . فكر بان كمية كبرى من الحرارة انما تستهلك في الارجح لإحداث تحول الجليد الى ماء والماء الى بخار دون ان يطرأ اي تبدل على حرارة الاجسام . فافترض من ثم ان كمية كبرى من سائل رقيق ، يدعى الحرارة ، تمتزج بجزئيات المادة ؛ تضمحل دون ان تزول من الوجود ؛ يفرض ان تصبح كامنة ؛ هذه هي الحرارة الكامنة.

اراد حينذاك استثبات هذه الفكرة وايضاحها بالارقام . بحث عن كمية الحرارة اللازمة

لتحويل الماء الى بخار ، اي عن الحرارة الكامنة في عملية التحويل الى بخار . فوجد اولاً انه يقتضي كمية ثابتة من الحرارة لرفع حرارة كمية معينة من الماء درجة واحدة : هذه هي قابلية الماء للحرارة ، او حرارته النوعية . وهكذا توفرت لديه وحدة لقياس الحرارة ، واستطاع اذ ذاك تحديد كمية الحرارة التي يتخلى عنها البخار للعودة الى حالة سائل ذي حرارة مماثلة ، ومن ثم تحديد كمية الحرارة الضرورية لتحويل ماء حرارته ١٠٠ درجة مئوية الى بخار . واكتشف كذلك كمية الحرارة الضرورية لتحويل الجليد الذائب الى ماء تكون درجة حرارته صفراً في سلم الدرجات المئوية فوجد لحرارة التحويل الى بخار وحرارة الذوبان ارقاماً لا تختلف اختلافاً كبيراً عن الارقام الحالية . وقد توصل اثناء اعماله الى تقديم الدليل على ان زيادات متساوية في الحرارة تحدث تغيرات متساوية في مستوى سائل محرّاته ، والى اثبات قيمة دلالاتها . ولاحظ ان الاجسام تختلف بقابليتها للحرارة ، وانه لا يقتضي كمية الحرارة نفسها لرفع كميات متساوية من هذه الاجسام الى درجة حرارة واحدة . عرض اكتشافاته في محاضراته منذ السنة ١٧٦١، وقد صنع اثنان من تلامذته الفرنسيين ، الكيميائي «لافوازييه» والمهندس «لابلاس» ، مسعراً جليديا ، وحدّدا ، حوالي السنة ١٧٨٣ ، الحرارة النوعية لعدد كبير من الاجسام .

وهكذا بات بمكنة الانسان قياس الحرارة وأثرها في انتقال الاجسام من حال الى حال : وبات الانسان بالفعل نفسه سيد ذوبان الاجسام وتكوين البخار . وكان مقدراً له ان يعرف ، عند الحاجة ، ما يقتضي له من محروقات ووقت للحصول على قوة معينة او تحويل معين. وأتاحت اعمال بلاك لجايس وات ان يحسن الآلة البخارية ويجعل منها الأداة القوية والطيعة التي كان مقدراً لها ان تحدث ثورة في العالم .

إلا أن هذه النتائج لم تبدل الآراء في الحرارة . نظر الجميع الى هذه الاخيرة كما الى سائل رقيق، او مادة متمططة جداً تتنافر اجزاؤها وتتوزع هي على الاجسام بكمية متناسبة للجاذبية الاتفاقية التي تتبادلها هذه الاجسام وهذا السائل ، اي لقابلية الحرارة .

الكهرباء

كانت الكهرباء الفرع الذي أكب عليه بمزيد من النجاح ، او أقله الفرع الذي كان لنتائجه ، الجديدة كلها، اكبر تأثير في المخيلة. انحصرت الابحاث في الكهرباء الساكنة حتى السنة ١٧٩٠ حين بدأ درس التيار الكهربائي .

كانت المعارف الكهربائية محدودة جداً في اوائل القرن الثامن عشر. وما زال الناس يعتقدون بان قابلية نقل الكهرباء مرتبطة بلون الاشياء . إلا انهم كانوا قد عرفوا اظهار الكهرباء اما بواسطة انبوب زجاجي يحك ، أما بواسطة آلة قوامها كرة زجاجية تحرك بمقبض وتحك باليد العارية . ثم تحسنت هذه الآلة شيئاً فشيئاً: فحلت الاسطوانة الزجاجية ثم القرص الزجاجي محل الكرة ؛ واستبدلت اليد بالوسادات ؛ وفي السنة ١٧٦٢ ، اعتمدت نهائياً الوسادة الجلدية

المغطاة بلغم القصدير . الا ان الاب نوليه، الذي تميز بيد كبيرة وجافة جـــداً ، قد ثابر على الحك باليد العارية .

الاكتشافات الاولى

احرزت نجاحات سريعة في حقل لم يكتشف فيه شيء بعد . في السنة ١٧٢٩ ، اكتشف الانكليزي « غراي » ، بواسطة انبوب زجـاجي بسيط ، ان قابلية نقل الكهرباء مرتبطة بالمواد التي تتركب منها الاجسام وقـام بأول تصنيف للاجسام الحسنة النقل (المعادن) والسيئة النقل (الحرير) . وكان الاول في تقديم الدليـل على ان جسم الانسان يتكهرب وينقل الكهرباء ، كما كان أول من اجتـذب اجساماً خفيفة (عدة قصاصات من الورق) برأس وقدمي شخص مكهرب ومعزول ، فأتى بذلـك اختباراً كان له وقعه العظيم وكان مقدراً له ان يعرف نجاحاً كبيراً جداً . وكان كذلـك أول من اكتشف النقل الى مسافات بعيدة وجعل الكهرباء تجتاز ٧٦٥ قدماً .

واصل الفرنسي « دي فاي » اختباراته حتى السنة ١٧٣٩ . اثبت ان كافة الاجسام قابـلة للتكهرب فنقض بذلـك تصنيف جلبير للاجسام بتقسيمها الى كهربائية وغير كهربائية . اظهر أوجه التشابه بين الكهرباء والصاعقة : فحين كان هو نفسه متكهربا ، معلقاً بحبـال حريرية تعزله عزلاً تاماً ، ويمر شخص آخر على مقربة منه ، بدا وكأن بروقـاً تخرج من جسمه وتسمع حسيساً جامداً . فكانت هذه البروق في الظلمة وكأنهـا شرارات نارية وكأن نوراً ينبعث من جسمه . ويروى ان الاب نوليه استصدر منه شرارات تبلغ سنتيمترات عدة . وكان رأي نوليه ان البرق والشرارة الكهربائية شيء واحد . واكتشف « دي فاي » الكهربة بالمماسة ووجد ان الاجسام الكهربائية تجتذب كافة الاجسام غير الكهربائية وتدفعها حـــال تكهرب هذه الاخيرة بهـــا . واكتشف نوعين من الكهرباء : الكهرباء الزجاجية (الايجابية) والكهرباء الصمغية (السلبية) ، وجاذبيتهما لعكسها ودفعهما لنظيرهما . فحاول ان يفسر هذه الظواهر ، ولكنه لم يجد ما يتخيله سوى سائلين .

قنينة لايدن

كان لهذه الاكتشافات وقع عظيم جداً . راح أناس كثيرون يكسبون معيشتهم باجراء الاختبارات في مكان تلو الآخر . وكان الجميع راغبين في أن يتكهربوا، ويجتذبوا الرياش برأسهم أو يشعلوا الكحول بالشرارة المندلعة من سن سيف يمسك به الانسان المكهرب . وأكثر أساتذة الجامعات من الاختبارات العلنية . وفي لايـــدن ، حاول الأستاذ موشنبروك ، في السنة ١٧٤٥ ، كهربة الماء في قنينة . فحدث أن أحد أصدقائه ، الذي كان ممسكاً بالقنينة باحدى يديه ، حاول باليد الاخرى سحب الشريط الواصل الماء بالناقل . تلقى ضربة قوية في ذراعيه وصدره . كتب موشنبروك بذلك على الفور الى ريومور . فرغب الناس كلهم في تلقي التفريغ الكهربائي . وزادت قنينة لايدن من سلطة المختبرين . وقـد أمر الأب نوليه التفريغ الكهربائي بسرية تضم ١٨٠ رجـلاً من الحرس الفرنسي ، ثم بـ ٣٠٠ راهب ألفوا

صفاً واحداً وجمعت بينهم قضبان حديدية . عند التفريغ كان الأشخاص الذين تمر بهم الكهرباء يقفزون في الهواء . بالقنينة قتلوا الطيور وأمرّوا الكهرباء بالأنهر والبحيرات ومغنطوا الإبر . ولوحظ سريان السائل سرياناً فواتياً .

الكهرباء الجوية ومانعة الصواعق

كانت الكهرباء حتى ذاك التاريخ موضوع فضول في الدرجة الأولى ، لكنها سيغدو بمكنة الانسان في وقت قريب أن يظهر وجودها الشامل ويفسر بها بعض أكثر الظواهر الطبيعية جلاء .

في السنة ١٧٤٧ ، ارسل الانكليزي « كولنسون » ، عضو جمعية لندن الملكية ، الى صديقه الاميركي « بنجامين فرانكلن » ، انبوباً زجاجياً وتعليمات لإجراء بعض الاختبارات . اكب فرانكلن عليها بشغف ولاحظ قدرة الاسنان على « اجتذاب وقذف النار الكهربائية » . وكان لا يزال يعتقد اذ ذاك ان الصاعقة مردها « نفث كبريتور الحديد القابل الالتهاب ، الذي هو كبريتور كربوني يشتعل تلقائياً » . ولكنه لاحظ في السنة ١٧٤٩ ان البرق والشرارة الكهربائية مضيئان كلاهما ولونهما واحد وينشران رائحة كبريتية واحدة ويرسمان خطوطاً معوجة متماثلة ويتميزان بالسرعة نفسها ، والصوت نفسه ، وقابلية المعادن لنقلها ، والقدرة نفسها على تذويب هذه المعادن وقتل الحيوانات واشعال المواد اللهوبة . وتساءل عما اذا لم يكن ممكناً اجتذاب البرق بالاسنان على غرار الكهرباء . واقترح ان توضع ، على مرتفع ، مرقبة مزودة بقضيب حديدي مقرن جداً يبلغ طوله ١٠ امتار ، وان يوضع في المرقبة رجل معزول بقرص من الصمغ يجوز ان يكهرب اذا ما مر الغمام منخفضاً . واشار بانه قد يمكن ، بهذه الطريقة ، « استراق الكهرباء من الغمام » وحماية المساكن والكنائس والمراكب من الصاعقة . فعرض آراءه في رسالة الى كولنسون في شهر تموز من السنة ١٧٥٠ . اطلع كولنسون عليها جمعية لندن الملكية التي اكتفت بالاستهزاء والازدراء برؤى فرانكلن . فنشر كولنسون حينذاك رسائل صديقه في مجلّد ترجم الى كافة اللغات .

في فرنسا ، لفتت هذه المسائل الانتباه . فان « روماس » مستشار محكمة « نيراك » وعضو اكاديمية بوردو ، قد اشار ايضاً ، بعد الأب نولّيه ، في السنة ١٧٥٠ ، الى وجه التشابه بين الصاعقة والكهرباء . وكان الفرنسيون على علم باختبارات « جالابير » الذي اكتشف هو ايضاً ، في السنة ١٧٤٨ ، في جنيف ، طاقة الاسنان . وترجم « داليبار » احد اصدقاء بوفون ، مؤلف فرانكلن ، فبادر بوفون الى رفع قضيب حديدي فوق قصره في مونبار وشجع داليبار على اعادة اختبار فرانكلن . اجري الاختبار في « مارلي » في اليوم العاشر من نوار من السنة ١٧٥٢ ، بنجاح تام ، برعاية ملك فرنسا ، واعيد ، بعد مرور اسبوع ، في باريس ، بواسطة قضيب يبلغ ٣٢ متراً طولاً .

الا ان فرانكلن لم يكن موقناً تماماً بان المختبرين قد « استرقوا » الكهرباء من الغمائم

العاصفة لأن القضبان لم تبلغها . فصمم على ان يرسل الى الغمائم « طيارة » وينقل الكهرباء بواسطة الحبل . فعل ذلك في ايلول من السنة ١٧٥٢ وتمكن من « استراق » كهرباء احدى الغمائم ، وتلقي شرارة ، وشحن قنينة بالكهرباء ، وبلغ خبر اختباره باريس في شهر كانون الثاني من السنة ١٧٥٣ . قام روماس في « نيراك » بعمل مماثل في شهر حزيران وتمكن بذلك من اجهاض عاصفة هوجاء . ونصب فرانكلن قضيباً حديدياً فوق مسكنه . ثم حدث حادث اتاح تحسين الجهاز : اعتقد فرانكلن بضرورة عزل اسفل القضيب ؛ ولكن « ريتشمن » ، الذي وجد في السنة ١٧٥٣ على مقربة من اسفل قضيب احكم عزله في سان بطرسبورغ قتل بالصاعقة التي ضربت منه الرأس ، حين لم تستطع التغوير . فلمس العلماء الحاجة الى تسهيل تغوير الكهرباء ، ومنذ السنة ١٧٥٤ انتشرت مانعة الصواعق .

وهكذا وجد الانسان التفسير الطبيعي لظاهرة اعتبرت وكأنها مظهر من مظاهر الغضب الإلهي : فان بوالوكان لا يزال يعتقد بان الله هو الذي يرعد ويجلجل . فكان الانسان في طريق النجاة من المخاوف وادراك الطبيعة واتقاء الاخطار .

الكهرباء العضوية والنابعة الكهربائية

تأيد وجود الكهرباء الشامل . في السنة ١٧٧٣ ، اثبت « وولش » ، في لاروشيل ، ان الصدمات التي تحدثها بعض الاسماك كهربائية ؛ فقد وصل ظهر وبطن رعّاد بناقل كهرباء وحصل على تفريغ كهربائي . كما ان الايطالي « غالفاني » ، الطبيب واستاذ التشريح في بولونيا ، قد اجرى اختبارات في افخاذ الضفادع واثبت ، بين السنة ١٧٨٠ والسنة ١٧٩١ ، وجود الكهرباء في عضلات الحيوانات ووضع الصيغة المشهورة : « ان جسم الحيوانات قنينة لايدن عضوية » وواصل اختباراته مواطنه فولتا استاذ الطبيعيات في « كوما » ثم في بافيا ، فوجد ان الكهرباء تؤثر في اعصاب البصر والذوق . تابع ابحاثه في هذه الطريق ، وفي ٢٠ آذار من السنة ١٨٠٠ ، وصف في رسالة الى رئيس جمعية لندن الملكية ، تابعته التي هي « عضو كهربائي صنعي » : تنضيد طبقات من ثلاث حلقات : حلقة نحاسية وحلقة زنكية متلاصقتان تغلفهما حلقة ورقية رطبة . في ٢ نوار من السنة ١٨٠٠ حلل الماء بفضل النابعة الكهربائية : فاكتشفت بذلك اداة جوهرية للبحث والتطبيق العملي .

اما « فرنسوا كولون » ، الذي كان مهندساً في باريس ، والذي اكتشف ، في السنة ١٧٨٤ ، ميزان القوى الصغيرة بواسطة شريط مفتل ، فقد أوضح ، بين السنة ١٧٨٥ والسنة ١٧٨٩ ، ان ناموس نيوتون لذي تكون الجاذبية بموجبه متناسبة طرداً للاحجام وعكساً لمربع المسافات صحيح في الجاذبية والدفع الكهربائيين والمغناطيسيين . فاوحى من ثم بالفكرة القائلة بأن كافة الظواهر الطبيعية قد تفسر يوماً بمبدأ الجاذبية دون غيره .

وقام اللندني « كافنديش » بأبحاث كاملة في الكهرباء الساكنة منذ السنة ١٧٧٣ ، ولكن مؤلفاته لم تنشر الا في السنة ١٨٧٩ .

طبيعة الكهرباء

بقيت الآراء في طبيعة الكهرباء متأثرة تأثراً بينا بمادة ديكارت الرقيقة وبذرّات نيوتون. فان « دي فاي »، في « مذكرته الرابعة حول الكهرباء » قد فسر بالكرتزيانية الدفع الذي يحدثه الانبوب الكهربائي في ورقة ذهبية بعد ان تكون الجاذبية الاولى قد جرت الورقة والصفتها بالانبوب : « تجدر الملاحظة ، استناداً الى المسافة التي تقف الورقة عندها بعيداً عن الانبوب ، ان بمقدورنا الحكم على مدى الزوبعة الكهربائية ، وان بمقدورنا كذلك ، اذا ما سيّرنا الورقة فوق اجزاء الانبوب المختلفة ، اما بادارتها حول محورها واما بجعلها في وضع عمودي ، ان نكوّن صورة لحدود الزوبعة ، او بالأحرى صورة لطبقة الزوبعة التي لها من القوة ما يكفي لمقاومة وزن الورقة ، لأننا اذا ما اخذنا قصاصات صغيرة جداً ، رأيناها تقف على مسافة ابعد جداً » . وفي السنة ١٧٣٧ ، توسع « دي فاي » في تفسيره الظاهرة بالزوابع الكرتزيانية . وفي السنة نفسها ، فرض « بريفا دي موليير » في المجلد الثالث من « دروسه في علم الطبيعة » ، رغبة منه في تفسير ملاحظاته ، ضرورة التسليم بتكون ما هو اشبه بالجو حول الجسم الكهربائي . ولما كان هذا الجو مضيئاً في الظلمة وقابلاً الاشتعال حين ندني الاصبع منه ، « لا يبقى مجال للشك بان اجزاء هذا الجو الصغرى ليست ذرات زيت حقيقية » . وليست هذه الذرات ، طالما هي في مسام الجسم الكهربائي ، سوى زوابع صغيرة جداً توازن ذرات اصغر منها هي ذرات الاثير ، الوسط المتمطط. بفعل الاحتكاك تخرج زوابع الزيت الصغيرة هذه وتكبر . وحين تلامس انتضاح الاصبع غير المنظور ، تختمر وتلتهب . وكان « بريفا » قد تبنى في السنة ١٧٢٩ زوابع المادة الرقيقة الصغرى ، ذات السرعة الكبرى في الابعاد عن المركز التي سدّ بها مالبرانش في السنة ١٧١٢ ، في الطبعة الرابعة من « البحث عن الحقيقة » ، مسدّ الاجزاء الصغرى التي قال بها ديكارت . وبفضلها استطاع « بريفا » الاهتداء في الزوابع السماوية الى ناموس كبلر الثالث وملاشاة احد اعتراضات نيوتون الاساسية على ديكارت . ولكنه بواسطة تأملاته في طبيعة الكهرباء اتاح بالاضافة الى ذلك لفونتنيل الخلوص الى جواز وجود الكهرباء في الزوابع السماوية وجواز تجاذب هذه الزوابع وتدافعها تجاذباً وتدافعاً مستمرين (١٧٣٧) . وهكذا تزول كافة الاعتراضات على الكرتزيانية . إلا أن اعمال الفلكيين افضت الى غلبة نيوتون . كما ان المفهوم النيوتوني للبث قد اوحى لفرانكلن بنظريته : الكهرباء « عنصر مشترك » موجود في كافة الاجسام ؛ اذا ما توفر منها لجسم فوق نصيبه الطبيعي ، فالكهرباء ايجابية ؛ واذا حدث عكس ذلك ، فالكهرباء سلبية . وقد سلم بهذه النظرية حتى « فاراداي » .

الفصل الخامس

الكيمياء

سارت الكيمياء في طريق صيرورتها علماً . انتقل الكيميائيون من وصف الظواهر الى اكتشاف الواقع بتنحية أجسام عديدة اعتبرت من قبل بسيطة ، ثم انتهت عبقرية لافوازييه ، الذي كمل طريقة العمل واكتشف نواميس الظواهر الرئيسية ، الى تكوين العلم .

العنصر اللهبي

لم تعد عناصر ارسطو الأولية ، النار ، الهواء ، التراب ، الماء ، كافية لتفسير الظواهر الكيميائية المكتشفة حديثاً . فكان من الألماني « ستاهل » ، أستاذ الطب في « هال » ، أن ابتدع لتفسيرها ، في السنة ١٦٩٧ ، نظرية السائل اللهبي التي نشرها في السنة ١٧١٧ .

ان شيئاً ما يخرج من الجسم المشتعل أثناء احتراقه . وهو وجود هذا العنصر في الجسم ما يجعل هذا الجسم قابلا الاحتراق . ان هذا العنصر ، أو « فلوجستون » (لهيب) ، الذي لا يُشعر بوجوده في حالة التركيب الكيميائي ، لا يصبح حسياً الا حين ينبعث من الجسم . وحينذاك يؤلف قوام النار . الاحتراق هو انتقال النار المركبة مع الجسم (العنصر اللهبي) الى حالة النار الطليقة ، وقد تخيل ستاهل هذا العنصر ، ولعله تأثر في ذلك بديكارت ، كجامد مركب من اجزاء غاية في الصغر قليلة التلاحم فيما بينها ، أكثر قدرة من اية مادة أخرى على التحرك تحركاً سريعاً هو كنه كافة نتائج النار كما ساد الاعتقاد. فكل مادة مركبة من العنصر اللهبي من جهة ومن عنصر آخر يختلف باختلاف الاجسام من جهة ثانية . المعدن مركب من عنصر لهبي ومن « كلس » يختلف باختلاف طبيعة المعدن . حين يكلّس المعدن ، ينبعث العنصر اللهبي ويبقى « الكلس » .

قامت هنالك صعوبة : فقد لوحظ ان القصدير والرصاص يرتفع وزنهما حين يكلّسان . فكيف التوفيق بين هذا الواقع وفقدان أحد عناصرهما. ولكن ستاهل استدل من ذلك على ان العنصر اللهبي أخف وزناً من الهواء وانه يميل طبعاً الى رفع الجسم المركب معه وافقاده بعض وزنه .

ادخلت النظرية تبسيطاً عظيماً على مفاهيم الكيميائيين . فهي قـــد سهلت تفسير الظواهر المعروفة خير تفسير . وقد احرزت نجاحاً حقيقياً .

كان اذن أهم الكيميائيين « لهبيين » ، واذا مـا استثنينا لافوازييه ، فانهم جعلوا العلم يتقدم بواسطة التحليل النوعي في النصف الثاني من القرن ، بعد أن أتاح لهم إحكام الطريقة الاختبارية السير قدماً . كان دور الوقائع والاختبارات والافتراضات في العلم معروفاً حينذاك خير معرفة بفضل بيكون ونيوتون وبفضل أعمال علماء الفلك وعلماء الطبيعة . وفي السنة ١٧٣٦ ، استشهد «ديلاند» باحدى خطب الهولندي موشنبروك في بحثه حول «خير طريقة لاجراء الاختبارات»، فاقترح قواعد تضاهي بشدتهـا القواعد الكلاسيكية التي اقترحها « ستوارت مل » بعد ذلك . ولكنها باتت شبه مبتذلة في السنة ١٧٥٠ .

ان الاسكتلندي جوزف بلاك قد مهد لأعمال شيل وبريستلي ولافوازييه بشق الطريق لنمط جديد في الكيمياء ، كيمياء الغازات أو « الكيمياء الغازية » ، وبافتتاح طريقة لافوازييه «طريقة الوزن » ، مرتكز الكيمياء العصرية . قبـل بلاك نظر الكيميائيون الى الجو كما الى خواء توجد فيه أجزاء صغرى مختلفة الأنواع لم يتوصل أحد الى التفريق بينها . بحث بلاك عن دواء أقـل قوة من ماء الكلس لمداواة النقرس والحصاة في الكلى او المثانة ، فدرس المغنيزية البيضاء ، عالج سلفات المغنيزيوم بكربونات البوطاس ، فحصل على ضالتـــه المنشودة ، كربونات المغنيزيوم . ولكنه فحص خصائص المركب الجديد ، فوجد أنـــه يفقد « هواء » بالفوران حين يعالج بالحوامض أو بالنار ، وهو « هواء » ليس سوى جـــزء من الهواء الجوي . اطلق عليه اسم « الهواء الثابت » الذي ليس سوى غاز الكربون (١٧٥٤ – ١٧٥٦) . ولكنه تحول بعد ذلك الى مسائل « الحرارة الكامنة » .

شيل

ان الصيدلي الاسوجي شيل ، الذي ولد في « ستراسوند » في السنة ١٧٤٢ ، وكان مجهولا في وطنه ، وأثار الاعجاب في كافة انحـاء اوروبا ، بفضل صديقه « برغمان » ، استاذ الكيمياء في اوبسالا ، بمذكراته التي ترجمت الى الالمانية والفرنسية ، وتوفي في السنة ١٧٨٦ عن عمر ٤٤ سنة ، قد كرس حياته للبحث في كل اوقـــات فراغه . امتاز بارابة ومثابرة نادرتين ، فكان سيد التحليل النوعي بواسطة المـاء . لم يضاهه احد في استكشاف جسم جديد في تفاعل كيميائي ، كما لم يضاهه أحد في عزل جسم جديد . اكتشف عـدداً كبيراً من الاجسام البسيطة : كلور ، اوكسيجين ، باريت ، منغانيز ؛ وجعل وجود عدة اجسام أخرى مرجحاً بدرسه مركباتها : فان اختباراته على فلورور الكلسيوم وحامض الفلور الصواني قـــد أفضت الى التسليم بجسم أساسي خاص يعرف باسم الفلور ؛ وانبأ بوجود الموليبدين والتونغستين . واكتشف عدداً كبيراً من الحوامض العضوية والمعدنية ، حامض دردي الخمر ، وحـامض الزرنيخ ، وحامض اللبن ، والحامض البروسي، وحامض الليمون ، وحامض العفص، وغيرها . .

ووصف عملية تحضير الغليسرين وخصائصه . وحدد كيفية تركيب الهواء الحقيقية من عنصرين احدهما « هواء النار » (اوكسيجين) القابل الامتصاص بالكبريتورات القلوية وعدد من الاجسام الأخرى ، والثاني « الهواء الفاسد » (ازوت) الذي يبقى هو هو كاملا . وحصل على الاوكسيجين بتحليله النطرون وبير اوكسيد المنغانيز واوكسيد الزئبق واوكسيد الفضة ، وعين كل خصائصه خير تعيين .

وهكذا فإنه قد أدى خدمات جلّى بوصفه المدقق لوقائع خاصة عديدة . ولكنه حين أراد اكتشاف علائق هذه الوقائع فيما بينها وردّ العلائق الى مبدأ عام ، بغية جعل الانسان سيد الظواهر ، ضل الطريق وهام على وجهه . في رأيه ان الحرارة والنور مركبان من العنصر اللهبي وهواء النار . العنصر اللهبي وهواء النار وازنان ، ولكن اجتماعهما معاً قد يعطي جسماً لا وزن له . ويبلغ هذا الأخير من الرقة ما يتيح له اجتياز الزجاج والتبدد بشكل حرارة اولا وبحالة نور ثانياً . وجلي ان هذا الكلام حشو وهدر لم يتركا لشيل ما يأخذه على آخر الفلاسفة الكلاميين .

ما هو مرد عجز العالم عن اتمام عمله يا ترى ؟ ان مرده هو ان شيل ليس في الحقيقة سوى عامل افتقر الى ثقافة عامة ، فلم يلبث ان اغتر بالكلمات . اهملت تربيته في صغره ، فتعلم بالممارسة العملية ، ولكنه امتاز بعبقرية طبيعية حركها شغف المعرفة ، فأتى عملاً مفيداً . الا انه افتقر ابداً ، للإفادة كل الإفادة من صفاته النادرة ، الى فلسفة الطبيعة والاداة الرياضية .

بريستلي

ولد الانكليزي بريستلي في ٣٠ اذار ١٧٣٣ ، على مقربة من « ليدس » في « يوركشاير » ، من اب جواخ . وغدا راعياً واستاذاً . لفتت انتباهه الشهرة التي عرفتها الكهرباء ، فكتب اول تاريخ للكهرباء في السنة ١٧٧٥ ، واجرى بعض الاختبارات ، وأصبح عضواً في جمعية لندن الملكية . كان مقيماً في جوار ممعل جعة ، فأخذ منذ السنة ١٧٦٧ يجري بعض الاختبارات على غاز الكربون . واصل في اوقات فراغه اختباراته على الغازات وابتكر عدة اجهزة لانتاج الغازات ومعالجتها ودرسها . فأدرك وحده في عهده مدى تكون الغازات وتنوع طبيعتها . وتضلع خير تضلع من فن ايجاد الصلة بين الغاز وكافة المواد الاخرى ؛ وخلف للقرن التاسع عشر معظم الطرائق المعتمدة في معالجة الغازات .

حين باشر ممارسة عمله ، كانت الغازات المعروفة اثنين فقط : حامض الكربون او الهواء الثابت ، والهيدروجين او الهواء القابل الاحتراق . اكتشف بريستلي الازوت ، وثاني اوكسيد الازوت ، وغاز الكلور ، وغاز النشادر ، واول اوكسيد الازوت ، وحامض الكبريت ، والاوكسيجين الذي اخرجه من اوكسيد الزئبق في اول آب ١٧٧٤ واسماه الهواء الخالي من العنصر اللهبي واكتشف دوره في دوام التنفس واثره في الدم الوريدي ؛ ثم اكتشف غاز فلور الصوان واوكسيد الكربون . فتم له بذلك اكتشاف الغازات التسعة الأهم شأناً ، تلك التي

تفسر الهواء ، والتنفس والاحتراق ، والتكلس ، أي العمليـــات الرئيسية التي تجري في الكرة الارضية .

ولكنه لم يتوصل هو ايضاً الى وضع أسس علم الكيمياء ولم يعرف السمو الى ما فوق تحديد الاحداث الخاصة . لا بل درج على قول ما جوهره : كلمـــا اكتشفت ، تدنى ادراكي وتدنت معرفتي ؛ وكلما تأملت زاد ارتيابي . ولا يرد ذلك ، فيما يعنيه ، إلى افتقـاره إلى ثقافة عامة : فقد تعلم اليونانية والعبرية واللاتينية في مدرسة داخلية ؛ وتعلم الرياضيات والفرنسية والألمـانية والايطالية للتسلية ؛ وتعلم الكلدانية والسريانية والعربية للتعمق في الكتاب المقدس ؛ ومـارس الفلسفة واللاهوت ممارسة تخصص ووضع فيهما ثمانين مجلداً .

إلا إنه أرتكب خطأ في الاسلوب؛فقد قام بما قام به دون تبصر ولا قصد،ولم يسّيره « فكر سابق البحث والتحقيق » ولا افتراض يجيب استشبـاته ، ولا مخطط بحث . استخدم يديه اكثر من دماغه . امتحن اختبارات سابقيه التي انطوت على فوران واستقطـــار وحرارة واتاحت لافتراض بتكون جسم غـازي ، وبما ان معظم الاجسام الغـازية كانت مجهولة ، فقد توفق إلى اكتشاف بعضها . أجرى « اختبارات للمشاهدة » : اوكسيد الزئبق الأحمر أعطـاه غازاً ؛ لم يميز بينه وبين بيراوكسيد الازوت ؛ امتحنه بثاني اوكسيد الازوت فكانت دهشته كبيرة حين رأى الخليط يصطبغ بلون أحمر ؛فلم يميز اذ ذاك بينه وبين الهواء؛ وحدث اتفاقاً أن أدخل شمعة في الدردي ، فأخذ العجب منه كل مأخذ حين رآهـا تشتعل . « ... لو لم أر أمامي شمعة مضاءة ، لما أجريت هذا الامتحان ، ولبقيت كافة اختباراتي اللاحقة على هـذا النوع من الهواء في عالم المجهول ... » . انتقل من دهشة إلى دهشة ومن اتفاق إلى اتفاق إلى ان بيّن ان هـــذا الغـاز هو جديد ومتجانس وهو الجزء الملهب والممكن نشقه في الهـواء ، أي الاوكسيجين . ولكن ثمن فقدان الاسلوب هذا هو أن النتائج لم تتجمع قط في ذهنه وأنه لم يستطع الحـكم فيها مجتمعة . لاحظ عـدداً كبيراً من الاحـداث المتنافية والعنصر اللهبي ، ولكنه بقي « عنصراً لهبياً » ، وحين توفي في السنة ١٨٠٤ لم يكن من عنصري لهبي سواه في العالم . ولعل هذا الراعي انشغل ايضاً بالجـادلات اللاهوتية : فلم تكن اختباراته سوى طلب للراحة في حـال أن العلم يتطلب الاستئثار بكل الانسان. ولعل هذا المؤمن كان شديد الميل كذلك الى الاسترشاد بوحي الروح . ولعل هذا الانكليزي ، اخيراً ، كان ضحية نزعة غير نادرة عند ابنـاء وطنه الى جمع الاحداث دون محاولة استيضاح علائقها ولا تسلسلها ، تفضي احيانـاً الى عجز كلي عن اصلاح الآراء العلمية أو السياسية التي أثبت الاختبار بطلانها التام أو قدمها العقيم .

لافوازييه

وأخيراً جاء لافوازييه . ولد في ١٦ آب ١٧٤٣ ، منحدراً من عائلة بورجوازية ميسـورة . تلقى دروسه بامتياز في كليـــة « مازارين » حيث تلقن اللاتينية والبيان والمنطق. بعد ذلك أطلق له والده الحرية، فدرس الرياضيات وعلم الفلك على «لاكاي»،

وعلم النبات على « جوسيو » ، والكيمياء على « رويل » . توفر له من ثم ما لم يتوفر لشيل : التهذب الأدبي والرياضي ، أي الآداب التي تعوّد التمييز بين أدق الفوارق والعلائق في الأفكار وتقدير معنى الكلمات الصحيح واستعمال أدوات الفكر هـذه ، والرياضيات التي هي أداة الافتراض الواضح والسير الأمين والنتيجة الأكيدة . وتوفر له ما لم يتوفر لشيل وبريستلي معاً : فكرة اجمالية عن العلم وسيره وأساليبه وطرائقه ، وفكرة عامة جلية واضحة عن العالم اثارت سبيله طيلة حياته . غدا عضواً في أكاديمية العلوم في السنة ١٧٦٨ « فتيسر له الاتصال بالعلماء والاطلاع على كافة الاكتشافات المفيدة لأعماله ؛ وكان بالاضافة الى ذلك يلتزم جمع الضرائب ويدير احتكار ملح البارود ، والتحق بصندوق القطع في السنة ١٧٨٨ ، فتوفرت له الثروة وبات قادراً على تكريس ١٠٠٠٠ ليرة سنوياً لمختبره ، وتوفرت له من ثم كافة أسباب إخصاب عبقريته .

اهتدى منذ البدء بوحي هذا الافتراض : كل ظواهر الكيمياء مردّها انتقالات المادة ؛ ولكن المادة تبقى ابداً هي هي في الكون اذا ما نظرنا اليه ككل ؛ قد تتغير شكلاً ، ولكنها لا تزيد ولا تنقص : لا شيء يفقد ولا شيء يستحدث . فاذا صح ذلك ، فان الشكل الخارجي قد يتبدل في اناء مغلق ، ولكن الوزن لن يتغير ؛ في كل تفاعل كيميائي يجب أن يكون وزن المواد المتكونة مساوياً لوزن المواد المستعملة . أداة البحث هي الميزان الذي يفيدنا عما اذا كان هنالك مادة جديدة يجب اكتشافها ، أو جسم جديد يجب تحقيق هويته والبحث عن مصدره؛ الطريقة هي طريقة الوزن . كانت الكيمياء نوعية ، فأصبحت كمية ، أي علماً حقيقياً .

أبين الفرق بجلاء باختبار السنة ١٧٧٠ الذي ساعده على تقديم الدليل على أن الماء لا يتحول ترابـاً . أوعز لافوازييه بصنع ميزان صحيح ، ثم امتحنه واعترف بضرورة الوزن المزدوج . وزن إناءه في حالات جوية مختلفة واستثبت أنه يفقد بعض وزنه حـين يكون ساخناً بتبخر الرطوبة التي تلتصق به بارداً ، واستنتج من ذلك ضرورة اجراء الوزن الذي كان يريد مقارنته في الحالات الجوية نفسها . استخدم اناء يتصاعد فيه البخار إلى أعـلاه حيث يتبخر ثم يتساقط ويأخذ بالغليان مرة أخرى . أخذ كمية من المـاء ، ووزنها ، وأفرغها في الاناء الذي سبق له وزنه ، ووزن الماء والاناء معاً رغبة منه في تحاشي كل خطأ ، وأقفل الاناء إقفالاً محكماً ، وكرر الماء طوال مائة يوم ويوم . بعد انقضاء هذا الوقت لم يطرأ أي تغيير على وزن الاناء والماء معاً ؛ إلا أن الاناء قد فقد ١٧ حبة من وزنه ؛ والماء بات عكراً وازداد كثـافة . وبعد تبخيره خلف دردياً بلغ وزنه ٢٠ حبة . كان الاناء مصدر ١٧ حبة . أمـا الحبات الثلاث فكانت مجهولة المصدر ، ولكن لافوازييه استنتج بحق أن حجماً على هذا الصغر مصدره طارىء من طوارىء الاختبار ، وان الماء لا يتحول تراباً . أجرى شيل الاختبار نفسه ، ولكن شيل لجأ إلى التحليل حيث لجأ لافوازييه إلى الوزن . اكتشف أن الدردي اوكسيد سيليسيوم ؛ فالمـاء الذي اصبح قلوياً قد ضم اليه عناصر قابلة الذوبان ؛ وكان استنتاج شيل من ثم مماثلاً . ولكن شيل استند

إلى بصره وذوقه ولمسه ، الى حدة حواسه ، الى سلامة ذاكرته ، الى احكام صغيرة شخصية ضمنية كثيرة ، بينما استند لافوازييه إلى الميزان الذي استخدمه بمنطق ودقة ، إلى أرقام يقبل بها الجميع . لم يكن شيل أميناً من أنه رأى كل شيء ومن انه لم يهمل ناحية من نواحي الظواهر ، بينما كان لافوازييه أميناً من أنه لم يهمل أي جسم وأي تفاعل . ولم يكن معنى ذلك ان التحليل النوعي يجب الاستغناء عنه ، فذلك غير ممكن ؛ بل ان عليه إفساح المركز الاول لطريقة الوزن .

ما لبث الميزان أن اوحى للافوازييه بأفكاره الموجّهة التي كانت والعنصر اللهبي على طرفي نقيض . فقد قال في مذكرة قدمها الى اكاديمية العلوم بتاريخ ١ تشرين الثاني ١٧٧٢ ما يلي :

« منذ ايام خلت اكتشفت ان الكبريت يولد باحتراقه حامضاً ويزداد وزناً : وهذا يصح في الفسفور ايضاً . إن هذا الازدياد في الوزن مصدره اتحادهما بكمية كبيرة جداً من الهواء .. » .

منذ ذاك الحين صدر الحكم على العنصر اللهبي في عقله ، ولكن الواجب كان يقضي بتقديم الدليل على زيف نظرية ستاهل واستبدالها بنظرية أخرى تكون أكثر انطباقاً على الوقائع . اختط لافوازييه لنفسه طريقة بحث منظمة اتبعها طيلة اكثر من عشر سنوات بطول أناة وعزم لا يعرفان الكلل . كان يقصد مختبره منذ الساعة السادسة صباحاً ويكرس للكيمياء ساعات عديدة ، ثم يعود اليه في المساء بعد انصرافه في النهار إلى اعماله المالية . وفي أيام الآحاد كان يجمع ، حول اكواره ، العلماء والعمال الذين يعدون له الأجهزة ، وبعض الشبان . ومنذ السنة ١٧٧٢ حتى السنة ١٧٨٦ ، رفع على التوالي ٤٠ بياناً نشرت في مجلدات اكاديمية العلوم ، وبلغ مما ارسله منها في السنتين ١٧٨١ و ١٧٨٢ أن استحال نشرها كلها . ترابطت هذه البيانات وتكاملت ؛ أفضت الوقائع الى افكار جديدة ، وأدت الأفكار الجديدة الى درس وقائع مهملة أو الى اكتشاف وقائع مجهولة . لم يُترك شيء للمصادفة والاتفاق ؛ فالتفكير هو ما وجه البحث ابداً .

يستحيل علينا الدخول في تفاصيل هذه الاختبارات التي كان اشهرها ، في السنة ١٧٧٧ ، تحليل الهواء الذي قاده الى اكتشاف الآزوت والاوكسيجين ونسبها الصحيحة وخصائصها ودورها في التنفس والاحتراق ، ثم الى إعادة تركيب الهواء من اجزائه المختلفة ؛ وفي السنة ١٧٨٣ ، تحليل الماء وإعادة تركيبه من مقوماته . وفي النهاية أثبت ان العنصر اللهبي لا وجود له ، وان الهواء الخالي من العنصر اللهبي جسم بسيط ، هو الاوكسيجين ؛ وأن الاوكسيجين يتحد بالمعادن إبان تكليسها ، وانه يحول الكبريت والفسفور والفحم الى حوامض ؛ وانه يؤلف الجزء الفاعل في الهواء ويغذي اللهيب والموقد ؛ وانه يحول ، في تنفس الحيوانات ، دمها الوريدي الى دم شرياني ، ويغذي الحرارة الخاصة بها ؛ وانه يشكل الجزء الاساسي في قشرة الكرة الارضية وفي الماء والنباتات والحيوانات ؛ وانه كائن أزلي لا يفنى ، ينتقل من مكان الى

آخر دون ان يكسب أو يفقد شيئاً ، على مثال المادة بصورة عامة . وفي السنة ١٧٨٣ ، وبعد بيان اجهز على العنصر اللهبي الذي قال به ستاهل ، وضع كتابه « بحث في الكيمياء » في مجلدين صغيرين كان من حسن سبكهما وضبطها الهندسي ووضوح فصولها وكمال تسلسلها المنطقي أن أثارا إعجاب أوروبا فعافت الكتب الاخرى .

تأخر الكيمائيون اكثر من غيرهم في الانضمام الى لافوازييه . ولكن «برتوليه » «وغويتون دي مورفو » تبنيا اخيراً نظريته في السنة ١٧٨٥ ، وما لبث « شابتال » ان حذا حذوهما ، وفي السنة ١٧٨٧ علم « فوركروا » النظريتين وقارن بينهما في محاضراته .

الاصطلاحات الكيميائية

أدى لافوازييه خدمة اخيرة للكيمياء بإسهامه في وضع لغة خاصة بها . كانت الكيمياء ملأى بالاسماء الغريبة : الفاروث ، ملح الالمبروث ، الماء الفاجيديني ، زيت الدردي الناقص ، زبدة الزرنيخ ، زهور الزنك . وقد شاطر رأي لافوازييه كافة كيميائيي اوروبا ، كما عبر عنه في الخطبة التمهيدية لكتابه «بحث اولي في الكيمياء » : « ... يقتضي تعوّد طويل وذاكرة حادة لاستذكار المواد التي تعبر عنها [اسماؤها] وبصورة خاصة للاهتداء الى نوع التركيب الذي تعود اليه ... انها تولد افكاراً خاطئة جداً » . وبين لافوازييه بعد ذلك ، متصرفاً تصرف تلميذ كوندياك ولا سيما تصرف العالم ، استحالة فصل المصطلحات عن العلم وفصل العلم عن المصطلحات ، لأن كل علم قوامه سلسلة الوقائع التي تكونه والافكار التي تذكر بها والكلمات التي تعبر عنها. على الكلمة ان تولد الفكر ، وعلى الفكر ان يصور الوقائع :

« انها رسوم ثلاثة لخاتم واحد ... وبما ان الكلمات هي ما يحفظ الافكار وينقلها ، يستنتج من ذلك اننا لا نستطيع اتقان الكلام دون اتقان العلم ، ولا اتقان العلم دون اتقان الكلام ، وان الوقائع ، مهما بلغ من ثبوتها ومن صحة الافكار التي قد تولدها ، لن تفضي الا الى تعابير خاطئة اذا لم تكن لدينا المفردات الصائبة للتعبير عنها » .

طلب الكيميائيون المصطلحات من غويتون دي مورفو الذي باشر العمل في السنة ١٧٨٧ مع لافوازييه وفوركروا وبرتوليه . فقرروا الدلالة على المواد البسيطة بكلمات بسيطة تعبر عن اكثر خصائص المادة شمولا وتمييزاً : اوكسيجين (مولد الحموضة) بسبب دوره في تكوين الحوامض . اما الاجسام المتكونة من اتحاد عدّة مواد بسيطة ، فقد قسموها الى طوائف واجناس وانواع . فالمواد المعدنية المعرضة لتأثير الهواء والنار معاً تفقد لمعانها المعدني ويرتفع وزنها وتتخذ ظاهراً ترابياً : انها مركبة من عنصر مشترك بينها ومن عنصر خاص بكل منها ؛ اشتق اسم الجنس من العنصر المشترك : اوكسيد ؛ واضيف اليه اسم المعدن الخاص . والحوامض مركبة من مادتين ، « من صنف تلك التي نعتبرها بسيطة » ، احداهما مشتركة بينها كلها ، قوامها الحموضة ، اشتق منها اسم الجنس ؛ والثانية خاصة بكل

حامض ، اشتق منها الاسم النوعي . وفي العدد الاكبر من الحوامض قـــد يوجد العنصران المركبان ، العنصر المحمّض والعنصر المحمّض، بنسب مختلفة تؤلف كلّها نقاط توازن: يُعبر عن هاتين الحالتين للحامض الواحد بتغيير آخر الاسم النوعي *(eux, ique)* .

وهكذا كان للكيمياء ، بفضل لافوازييه ، نهجها ، ولغتها ، ومجموع وقائع ترتبط بنواميس. لقد ولد علم فتي ؛ وسيعرف نمواً عجيباً .

obeikandl.com

الفصل السادس

العلوم الطبيعية

تقدمت معرفة الطبيعة بخطى حثيثة ، على انها ما زالت ، في اغلب الاحيان ، وصفاً ، او « تاريخاً طبيعياً » ، وهذه خطوة اولى ضرورية على كل حال .

ولكن مقارنة الوقائع أثارت مسائل كبرى ، فوضعت نظريات كثيرة ، واستعين كثيراً بالطريقة الاختبارية التي طبقت تطبيقاً مطرداً على تعقد الظواهر الحيوية ، وارتسمت فكرة عامة جديدة : ويمكن اعتبار كل عمل القرن اعداداً لمذهب التطور المعاصر .

بوفون

كان بوفون (١٧٠٧ — ١٧٨١) احد اوسع عوامل التقدم نشاطاً . كان لكلير الذي قُلد لقب « الكونت دي بوفون » ، ابن مستشار في مجلس قضاء ديجون ، ودرس في سن مبكرة علم الرياضيات وعلم الطبيعة ، وارسطو ، وديكارت ، وليبنيز ، ووضع بيانات علمية ونشر ترجمات كتب علمية . عين بعد ذلك امين حدائق الملك (حديقة النباتات الحالية) فتمخض عقله بفكرة « تاريخ طبيعي » واسع جداً كرس له حياته منذ ذاك التاريخ . منذ السنة ١٧٤٩ حتى السنة ١٧٨٩ ظهر منه ٣٢ مجلداً بقطع ١/٤ في الارض والانسان ورباعيات القوائم والطيور والمعادن . ثم انجز « لاسيبيد » ، بالاستناد الى ملاحظات بوفون ، « تاريخ الأفاعي » (١٧٨٩) ، وطبيعي ان بوفون قد استعان بعدد كبير من المساعدين نخص بالذكر منهم « دوبنتون » الذي عاونه في موضوع رباعيات القوائم . ولكن بوفون تولى شخصياً تحرير الاقسام التي استهوته استهواء خاصاً : « نظرية الارض » ، « تاريخ الانسان الطبيعي » (١٧٤٩) ، « تواريخ الطبيعة » (١٧٧٨) ، « علم المعادن » . كان عالماً بطبقات الارض وعالماً بطبائع الانسان في الدرجة الاولى .

تناول النقد بوفون كما تناول كافة واضعي المؤلفات الجامعة والنظريات الكبرى والنظريات الجريئة والعلماء الذين هم علماء وادباء معاً . اخذ عليه تصنعه وتفخيمه . ولكن الاقسام التي يستشهد بها لاصدار هذا الحكم هي من وضع بعض معاونيه . فهو حين يكتب يفرغ ما يكتبه في قالب بسيط ينبض بعظمة حقيقية . « ... ان حركة اللوحات الهادئة والقوية ـ وتبسطها المستفيض والجميل يجعلان من هذا الكتاب العلمي في بعض اجزائه ، كـ« تواريخ الطبيعة » مثلاً ،

قصيدة تتصف بالروعة والجلال » . يروى انه حدث له ان صرف صبيحة كاملة في تركيب جملة واحدة ، وانه كان قادراً على تبرير استعمال كل كلمة . فجدير بنا من ثم ان نهنئه بهذه المقدرة. واذا كانت لغة بوفون متصفة بالعظمة والاسهاب والنبل ، فمرد ذلك الى انه طرق مواضيع عظيمة وشعر شعوراً عميقاً بعظمتها . واخذ عليه ، وذلك امر مهم صدر احياناً عن رجال علم من مصف ريومور ، انه عالم مزيف ، وباني مذهب جمح به الخيال ، وانه يكاد يكون مجرماً بحق الفكر . اما الواقع فهو انه قد لاحظ واختبر طوال حياته ، واحترم الوقائع خير ما يكون الاحترام ، واجلى برهان على ذلك انه غير على الدوام نهجه ونمط حكمه ، وانه حين ثبت له ، من تقدم دروسه ، ما تنطوي عليه « نظرية الارض » من نقص واخطاء ، اعاد كتابتها ، بعد مرور ٢٩ سنة ، باسم « تواريخ الارض » . ولكنه لم يكتف ، على غرار العقول الضعيفة والافئدة الخابية ، بالحقائق الجزئية : بل حاول ان يدرك ويرى مجموع الوقائع ويمسك بالروابط التي تصل بينها . لقد كان قوّة من قوى الطبيعة . اولع بالملذات والمآكل الفاخرة وجمع المال ولعه بالحقيقة ، وقضى اوقاته بين « مونبار » وباريس ، واختلف الى الصالونات وعاشر الممثلات ، وضارب في تجارة العقارات ، واستثمر المحاجر والغابات ، وادار معملاً للحديد ، واستطاع على الرغم من كل ذلك ان يكرس اكثر اوقاته للعمل العلمي . ازدرى بالمجادلات ، وواصل درس الوقائع بهمة لا تعرف الكلل ، وقال ، مغفلاً صفة نادرة من صفات الفكر ، ان العبقرية ليست سوى قدرة كبرى على الصبر وان فخره في انه سلخ خمسين سنة في مكتبه . شغفه بالعلم ادخل الحياة الى كتبه بتلك الحرارة وتلك البلاغة اللتين جعلتا منها احد اكثر المؤلفات قراءة واوسعها انتشاراً في دور الكتب ، ومؤلفاً ربما كان له اكبر دور في بعث الميل الى العلوم الطبيعية والروح العلمية ، كما انه اتاح ، بفضل الطريقة التي نادى بها والوقائع التي جمعها والآراء التي اقترحها والنظريات التي بسطها ، قيام عدد كبير من الاعمال ونشوء فروع علمية جديدة ! الجغرافية الحيوانية ، علم طبائع الانسان ، علم خصوصيات الشعوب ، علم الاحاثة .

واسهم بوفون في تحرير التاريخ الطبيعي من كل تأثير عقلي فرضي وردّه الى درس انتقالات المادة . كان خصماً عنيداً للعلل الغائية التي كان يطيب للأب « بلوش » ، مؤلف « مشهد الطبيعة » (١٧٣٢ — ١٧٤٠) الذي عرف شهرة كبرى ، الاسترسال فيها : « ملّح الله البحر لأنه يصبح مضراً بدون ملح .

... وخلق المد والجزر حتى تدخل السفن بسهولة الى المرافىء ... وكان من شأن اللون الاحمر واللون الابيض ان يعيي البصر ، ومن شأن اللون الاسود ان يثير الحزن ، لذلك وجد اللون الاخضر في الارياف لمساعدة الرؤية ، كما وجدت درجات مختلفة من اللون الاخضر لبهجتها.

« أليس القول ان هنالك نوراً لأن لنا أعيناً ، وان هنالك اصواتاً لأن لنا آذاناً ، او القول

ان لنا آذاناً وأعيناً لأن هنالك نوراً واصواتاً ، ترداد لقول واحد، او بالحري ما معنى هـــذا القول ؟ » وقد لاحظ من جهة ثانية في اكثر الحيوانات« اجزاء لا طائل تحتها ولا فائـدة منها او اجزاء زائدة » تهدم فكرة نظام للحيوانات المخلوقة بفعل عقل كلّي الكمال وكلّي القدرة .

ناهض الرغبة المستهجنة في نسبة كل شيء الى هدف معين ، وعدم الاكتفاء « بمعرفة كيفية الاشياء والطريقة التي تسلكها الطبيعة في عملها » ، واستبدال « هـــذا الشيء الواقعي بفكرة لا طائل تحتها بمحاولة التكهن بسبب الوقائع والغاية التي تتوخاها من عملهـــا » . وانتهى الى هـــذه النتيجة :

« ليست العلل الغائية ما يمكّننا من الحكم في اعمال الطبيعة ؛ يجب الاّ ننسب لها مثل هذه المقاصد الصغيرة واخضاعها في عملها الى لياقات أدبية ، بل ان نبحث عن كيفية عملهـــا فعلاً وان نستخدم ، بغية معرفتها ، كافـة « العلائق الطبيعية » التي يوفرها لنـــا التنوع الكبير في نتائج عملها » .

ان ردّ كل شيء الى معرفة « العلائق الطبيعية »، دون اي تساؤل آخر، كان بالنتيجة تفريجاً عن الفكر وتأسيساً لعلم موضوعي . ولكن بوفون لم يتملص الا ببطء من الآراء القديمة : فهـو قد استعاض عن الله واللاهوت بمفهوم « الطبيعة » الميتافيزيقي . حين نذكر الطبيعة نجعـل منها نوعاً من كائن مثالي درجنا على ان ننسب اليه ، كعلة ، كافة المعلولات الثابتة ، كافة ظواهـــر الكون » . افترض ان لها مقاصد ومشاريع واخطـاء ورغائب فجائيـة ؛ وانها تجرب وترسم وتحاول . الا أن مفهومه قد انجلى شيئاً فشيئاً . لاحظ أن الطبيعة لا يمكن أن تكون شيئاً لأنها قد تصبح كل شيء ، ولا كائناً لأنها قد تصبح الهاً . « الطبيعة هي « مجموع النواميس » التي وضعها الخالق . » ومجموع النواميس ، أي مجموع العلائق الشاملة والضرورية بـــين الوقائع ، يعني نظرة موضوعية كلها .

قبل بوفون ، سبق لريومور ، في « تاريخ الحشرات » (١٧٣٤ – ١٧٤٢) ، وفي بياناتـــه ومراسلاته ، ان نصح بدرس الطبيعة نفسها درساً مباشراً واستثبات كل ما يرويه المؤلفون ، حتى أرسطو وبلين . أما بوفون فلم يرد سوى معرفة الوقائع وأوحى احترام الواقع :

ان تخيل نظام أسهل من وضع نظرية ... المؤرخ مخلوق ليصف لا ليبتدع ... يجب الا يجيز لنفسه أي افتراض ... ولا يجوز أن يستخدم مخيلتـــه الا للتوفيق بين الملاحظات وتعميم الوقائع وتأليف مجموع منها يوفر للعقل ترتيباً منسقاً للأفكار الواضحة والعلائق المتسلسلة .

الجيولوجية

وهكذا فانه قد جُر في الجيولوجية الى نبـــذ كل التفسيرات التي لا تفرضها الوقائع فرضاً : غياب القمر ، وجود سيارة اختفت ، طوفان شامل ؛ « انها افتراضات يسهل اطلاق العنان للمخيلة في موضوعها ، اذ أن مثل هذه العلل تسبب كل ما نريد

ان تسبب » . لم يرد سوى « معلولات تحدث كل يوم وحركات تتعاقب وتتجدد بدون انقطاع ، وعمليات دائمة تتكرر أبداً » . هذه هي نظرية « العلل الراهنة » التي تغلبت على نظرية الكوارث .

حين بدأ دروسه الجيولوجية ، كانت الفكرة العامة ، على الرغم مما المجزه بعض علماء الطبيعة الممتازين من أعمال جزئية مفيدة ، هي الفكرة الواردة في حرف سفر التكوين : صنع الله العالم في ستة ايام ، وخلق القارات والحيوانات بمرة واحدة ، كما رآها الناس في القرن الثامن عشر وكما كانت منذ القديم ، باستثناء تغييرات جزئية طفيفة يرد حدوث معظمها الى الانسان . هذه كانت النظرية التي اطلق عليها فيما بعد اسم نظرية الثبوت . عُرفت آثار عضوية متحجرة كثيرة ، ولكنهم تخلصوا منها بنسبتها الى خلق الطبيعة اللعوب التي تلهت بإعطاء الحصباء البسيطة أشكالاً أشبه بالاصداف والأوراق النباتية والأسماك ، أو باعتبارها أثراً من آثار الطوفان . اما الذين لم يقتنعوا فلم يتجاسروا على مناقضة حرف التوراة وآثروا الاعتصام بالصمت .

أراد بوفون ألا يخشى سوى الخطأ ، والا يبتغي سوى الحقيقة ، والا يعرف سوى الوقائع . منذ السنة ١٧٤٩ ، عين للآثار العضوية المتحجرة ، في « نظرية الأرض » ، أصلها الحقيقي ، ولكرتنا الأرضية عمراً حدّده بـ ٧٤٠٠٠ سنة بدلاً من الـ ٦٠٠٠ التي حدده بها اللاهوتيون ، وأظهر تطوراً . واستند في السنة ١٧٧٨ ، في « تواريخ الطبيعة » ، الى خمسة « وقائع » وخمس « آيات » .

بيّن الوقائع :

« الأرض ترتفع عند خط الاستواء وتنخفض عند القطبين بالنسبة التي تفرضها نواميس الجاذبية والقوة المبعدة عن المركز .

الكرة الارضية تتميز بحرارة داخلية خاصة بها مستقلة عن الحرارة التي قد تصلها من أشعة الشمس .

الحرارة التي ترسلها الشمس الى الأرض خفيفة نسبياً اذا ما قورنت بحرارة الكرة الأرضية الخاصة ... وقد لا تكون الحرارة المرسلة من الشمس كافية لابقاء الطبيعة حية .

المواد التي تؤلف الكرة الأرضية هي على العموم من طبيعة الزجاج ويمكن أن تحوّل كلها الى زجاج .

يوجد على كل سطح الأرض ، وعلى الجبال نفسها حتى ارتفاع ١٥٠٠ و ٢٥٠٠ « تواز » كمية ضخمة من الأصداف وبقايا أخرى من نباتات البحر وأسماكه » .

ووصف آيات الماضي :

« اذا ما فحصنا الأصداف والآثار العضوية البحرية التي تستخرج من الأرض في فرنسا وانكلترا وألمانيا وبلدان أوروبا الأخرى ، تبين لنا أن قسماً كبيراً من الانواع الحيوانية التي تعود اليها هذه البقايا لا يوجد الا في البحار المتاخمة ، أو لا وجود له في أيامنا هذه ، او لا يوجد الا في البحار الجنوبية .

نجد في سيبيريا وفي الأصقاع الشمالية الأخرى من أوروبا وآسيا من الهياكل العظمية والأنياب وعظام الفيلة وأفراس الماء والماموث ما يؤكد لنا أن أنواع هذه الحيوانات التي لا يمكن ان تتكاثر بالتناسل الا في المناطق الجنوبية قد وجدت فيما مضى وتكاثرت في المناطق الشمالية .

نجد انياب وعظام فيلة ، كما نجد أنياب أفراس ماء ليس في مناطق قارتنا الشمالية فحسب ، بل في مناطق شمالي اميركا ايضاً ، مع أن أنواع الفيل وفرس الماء لا توجد في قارة العالم الجديد هذه » .

وقد خيل اليه ان هذه الوقائع الراهنة وبقايا الماضي هذه تفرض عليه فكرة تطور في الزمان رسم خطوطه الكبرى . يقسم تاريخ الأرض الى سبعة عهود . العهد الأول هو عهد الميع والاتقاد : « حين اتخذت الأرض والسيارات شكلها » ؛ والثاني هو عهد الابراد : «حين جمدت المادة وكونت خوالد الكرة الداخلية ، كما كوّنت الكتل الكبرى القابلة التحويل الى زجاج والموجودة على سطحها » ؛ والثالث : « حين غمرت المياه قاراتنا » ؛ والرابع : « حين تراجعت المياه وأخذت البراكين تثور وتقذف الحمم» ؛والخامس : «حين قطنت الفيلة وحيوانات الجنوب الأخرى مناطق الشمال » ؛ والسادس : « حين تم انفصال القارات» ؛ والسابع : « حين غدت قدرة الانسان عوناً للطبيعة » .

وهكذا فقد غدا النهجُ درسَ انتقالات المادة ؛ والمبدأ الاساسي المسلم به دون برهان ديمومة النواميس الطبيعية التي كانت ظواهر الماضي بموجبها مماثلة لظواهر الحاضر ؛ والفكرةُ العامة التطورَ الدائم ، التحول البطيء في الزمان : فتأسست بذلك الجيولوجية الحديثة .

إن فكرة التطور هذه ، التي نحن الفناها ، قد قلبت طرائق التفكير وصادفت مقاومات كثيرة . قلقت الكنيسة : فبوفون قد دافع عن رأي معاكس لرأي سفر التكوين . في ١٥ كانون الثاني ١٧٥١ ، زيفت كلية اللاهوت ١٦ رأياً جديداً وأوجبت استدراك القول . أعلن بوفون أنه يؤمن « إيماناً ثابتاً بكل ما يرويه التاريخ عن الخلق »وانه يتخلى عن كل ما قد يخالف رواية موسى » . وتابع طريقه . ولكن اناساً من امثال فولتير نفسه لم يستطيعوا فهم بوفون : فهو قد تصور عللاً دائمة أحدثت المعلولات نفسها في كافة الازمنة ، دون ان يكون هنالك تأثير لحالة الاشياء في عهد سابق عليها في عهد لاحق ، وعنيد في ان يرى في الآثار العضوية المتحجرة اصدافا احضرها حجاج الحملات الصليبية من سوريا او اسماكا نبذها الرومان من موائدهم لانها غير طازجة ، دون أن يتمكن من ان يفسر ، في هذه الحال ، كيف أن الآثار المتحجرة تكتشف أرصفة قد تتجاوز ١٠٠ فرسخ طولاً .

التصنيفات النباتية والحيوانية

لقد انجز خلال هذا القرن عمل عظيم جداً هو تصنيف الكائنات الحية اجناساً وانواعاً . وكان التصنيف ضرورياً للاسراع في تشخيص النباتات التي عرف منها ١٨٠٠٠ في أواخر القرن السابق ، والحيوانات التي كان عددها يرتفع ارتفاعاً مطرداً . ولكن علماء الطبيعة قد عنِدوا في اجراء هذا التصنيف لانهم ابتغوا من وراء

ذلك اكتشاف مخطط الله ايضاً .

في اوائل القرن استخدم علماء الطبيعة التصنيف النباتي للفرنسي « تورنفور » والتصنيف الحيواني للعالم اليوناني أرسطو . أدخل عليهما السويدي « لينّيه »(١٧٠٧ — ١٧٨٠)، وهو ابن راعٍ بروتستانتي ، تحسيناً كبيراً . فان كتابه « انظمة الطبيعة » الذى نشر في السنة ١٧٣٥ قد اعيد نشره منقحاً ١٣ مرة حتى السنة ١٧٨٨ ونشر معه عدة مؤلفات اخرى . في علم النبات وزع ٧٠٠٠ نبات على ٢٤ طائفة وفاقاً لعدد ابرها وترتيبها ونسبتها واجتماعها ؛ وبسّط المصطلحات النباتية تبسيطاً كبيراً . كان علماء الطبيعة قد درجوا على تضمين اسم النوع خطوط الوصف الاساسية . فكان يقتضي ذاكرة اعجوبية لحفظ هذه الاسماء الطويلة ، وبات التصنيف يزهق العقل بدلاً من ان يفرّج عنه . اما لينّيه فقد اعتمد المصطلحات الثنائية العنصر : اسم للجنس وآخر للنوع ؛ فغدت الطريقة سهلة ؛ وهي لا تزال حتى ايامنا هذه اساساً للمصطلحات النباتية ؛ فمكن بذلك خلفاءه من القيام بعملهم الوصفي العظيم . وادخل في علم الحيوان بعض التحسين على تصنيف ارسطو دون ان يقلب رأساً على عقب ، فأخذ بعين الاعتبار الاعضاء الداخلية ، وكان اول من ميز بين الحيوانات الولودة بواسطة الاثداء وصنف ، بين الضرعيات ، الحوتيات التي صنفت حتى ذاك التاريخ بين الاسماك .

وعى اهمية عمله وقدره واكبره . فقد نظر الى الانواع كما الى كيانات حقيقية متميزة بفوارق متباينة ودائمة هي الصفات النوعية . كل نوع يطابق عملاً من اعمال الخالق الذي عين له كافة الخصائص الضرورية وجعله ثابتاً ودائماً . فمهمة عالم الطبيعة الاولى تقوم في جرد الانواع لأنه بذلك يصف عمل الله العجيب : علم التنظيم هو العلم الاسمى . ان لينّيه لعمرى هو فيلسوف مذهب الثبوت .

بيد ان عمله بقي ناقصاً ، فهو قد اختار ما يختص بالابر مبدأ للتصنيف لأنه اعتقد بأن تحديد الصفات على هذا الشكل يضفي عليها قيمة كبرى؛ كما فكر بالتوصل الى تصنيف طبيعي. اما في الواقع فكان اختياره تحكمياً ، وبقيت ابواب تصنيفه صعبة : صنف اشجار الورد ثلاثة ابواب مختلفة وادخل شجرة التين في باب نبات النار . وفي علم الحيوان ، جمع في باب الحيوانات الضارية النمر والاسد وثعلب الماء والفقمة والكلب والقنفذ والخلد والخفاش ! وادخل في باب الافراس الحصان والفيل وفرس الماء وفأر السم والخنزير ! لم يبعث نظامه ارتياحاً في النفس ولم يصادف قبولاً وقناعة : فظهر عشرون نظاماً غيره ، افضت كلها الى تعمق في درس الصفات المميزة وتقدم عظيم في الوصف والطرائق ، واتاحت الاقتراب شيئاً فشيئاً من الطريقة الطبيعية. اضف الى ذلك من جهة ثانية ان بعض الاكتشافات بدت وكأنها تزيل الفروق بين العوالم . لقد ساد الاعتقاد ابداً بان المرجان نبات بحري . فأثبت احد اطباء مرسيليا ، «بيسونيل»، في السنة ١٧٢٧ ، ان هذه النباتات « حشرات تكون المرجان » . ودرس الانكليزي «ترمبلي»،

في السنة ١٧٤٠ ، نباتا مائياً اتضح له شيئاً فشيئاً انه حيوان هو الهدرية الخضراء التي توفق في اختباراته عليها الى الحصول على التوالدات الحيوانية المعروفة الاولى : قطعت الهدرية فكوّن كل قسم منها هدرية كاملة ؛ لا بل انه توفق الى اجراء اللقح الحيواني والحصول على هدريات ذات رأسين او عدة رؤوس . كان صدى عمله عظيما واتجه الانتباه الى هذه الحيوانات التي كان تصنيفها من الصعوبة بمكان . واخذت تبرز فكرة دوام الطبيعة .

رأى بوفـــون بوضوح ، وربما كان اول من رأى ، طابع التصنيفات الصنعي وهاجمه ليندّيه بعنف . واذا مـــا هو انتهى الى التصنيف ايضاً ، تفريجا عن العقـل ، فانه لم يكن قـط مغروراً :

يرون ان الاوس نوع من الهر ، والثعلب والذئب نوع من الكلب وقط الزباد نوع من الغرير ، والخنزير الهندي نوع من الأرنب البري ، والجرذ نوع من القندس ، ووحيد القرن نوع مـن الفيل ، والحمار نوع من الحصان ، وكل ذلك لأن هنالك بعض النسب الصغرى في عـدد اثداء هذه الحيوانات واسنانها او بعض التشابه في قرونها ... افليس القول ان الحمار حمار والهر هر اسهل واصح واقرب الى الطبيعة من ان نريد ... الحمار حصانا والهر أوسا ؟

بيد أن الفرنسي « آدنسون » (١٧٢٧ – ١٨٠٦) هو من اهتـــدى الى طريقة التصنيف الطبيعي وقوّض أسس الايمان بواقع النوع . ففي كتابه « تاريخ السنغال الطبيعي » (١٧٥٧)، وفي مؤلفه الهام « فصائل النباتات » (١٧٣٦) ، شدّد الكلام على الاشكال المنظمة . لم يستطع أحد « اثبات وجود الطوائف والأجنـاس والأنواع في الطبيعة » ، لأن « ليس هنالك سوى كائنـات فردية تتعاقب ، منصهراً بعضها في البعض الآخر ، اذا صح التعبير ، بواسطة الفروق المميزة » . واذا ما فحصنا الفروق بدقة ، توصلنا في النهاية الى تمييز « الخطوط الفاصلة ». وربما لم يكن بعضها ، مما هو بارز ويكون « فراغاً» بين الكائنات ، دلالة اختلاف في النـوع ، بل ان سببها الوحيد « هو جهلنا للكائنات الوسيطة التي تصل بينها ، أي فقدان هذه الكائنات بالذات في تعاقب الأزمنة وبفعل تقلبات وجـــه الارض ». ولكن لما كانت الضرورة العملية توجب التصنيف ، بات لزاماً ، على الأقل ، احترام « الترتيب الذي تبقي عليه هذه الخطوط الفاصلة فيما بينها » ، واتبـاع « طريقة الطبيعة او ... الطريقة الطبيعية ... وحتى اذا لم يكن من وجود للطوائف والأجناس والأنواع في الطبيعة ، بالمفهوم الذي يعنيه المنهجيون المعاصرون ، فقـــد يمكن استناداً الى مدى الفراغات ، اكتشاف تقسيمات متشابهة يجوز ان تحمل اسمهـا في طريقة طبيعية » . تخلى آدنسون عن كافـة العادات وانكب على فحص المجموعات : فالمجموعة هي الواقع . « وصفتُ في البدء كل نبات وصفاً كامـلا مخصصاً لكل من أجزائه ، بكل تفاصيله ، مقالاً خاصاً ؛ وكلما مررت بأنواع جديدة تقوم بعض الصـــلات بينها وبين ما سبق وصفه ، وصفتها الى جانب الاولى ضارباً صفحـاً عن أوجه التشابه ومدوناً الفوارق فقط . تبين لي من

مجموع هذه الأوصاف المقارنة ان النباتات تتنسق من ذاتهـــا في طوائف أو فصائل لا يمكن أن تكون قياسية أو تحكمية من حيث أنها غير مبنية على جزء واحد أو عدة أجزاء ... بل على كافة الاجزاء معاً » . فكانت هـــذه الملاحظات حول انتقال غير محسوس من فئة الى أخرى طريقاً سهلة نحو مذهب التحول ؛ كما ان تحقيق واقع مستمر يقطّعه عقلنا أجزاء لأجـــل راحته الشخصية ، وكما لو كان ذلك بفعل ضرورة يستلزمها تركيبه ، لم يكن منطويـاً على نتائج فلسفية ضئيلة .

التناسل الذاتي

حاول القرن الثامن عشر ان يتغلل في أسرار هـذه الأجهزة العضوية التي توفر له وصف ظاهرها . فما هو أولاً مصدرها يا ترى ؟ كان القرن السابق قد هدم الاعتقاد بالتناسلات الذاتية فيما خص الديدان والذبان وكافـــة الحشرات . فقد اثبتت بعض الاختبارات انها تولد جميعها من تزاوج ذكر وأنثى . كما كان قد اكتشف الجراثيم بواسطة المجهر . الا أن بوفون رجع في السنة ١٧٤٨ ، بغية تفسير مصدرها ، الى نظرية التناسل الذاتي الموافقة لرأيه في التطور . طلب الى الاب « نيدهام » القيام بالاختبار . أعد الاب نيدهام بعض مرق اللحم المشوي « الساخن جداً » في قنانٍ سكب فيها ماء غالبـاً وسدّها سدّاً محكماً ثم وضعها في رماد «ساخن جداً». بعد مرور أربعة أيام ظهرت على التوالي خيوط عفن، وغبيرات، وخمائر ، وجراثيم ، ونقاعيات . فتكلم نيدهام عن « قوّة انمائية » في المادة تجعلها تنتقل الى حالة النبات ثم الى حالة الحيوان .

حينذاك أجرى عـــالم الطبيعة الايطالي « سبالنزاني » (١٧٢٩ — ١٧٩٩) سلسلة من الاختبارات الخليقة بباستور . اشتبه في أن نيدهام لم « يعرّض الآنية لدرجة من الحرارة كافية لافناء الجراثيم الموجودة فيها » . يضاف الى ذلك انه لم يسدّ قنانيه الا بالقرق « الذي هـــو مسامي جداً » ، فلم يتمكن من الحيلولة دون دخول الجراثيم الى منقوعاته . في السنة ١٧٦٥ ، سكب سبالنزاني منقوعات في قنان ختمت اعناقها باذابة الزجاج ثم وضعت في الماء الغالي طيلة ساعة كاملة . فلم يظهر أي « حيوان صغير » . أما اذا أبقيت القناني مفتوحة أو سخنت لفترة قصيرة ، فتتكاثر الحيوانات الصغيرة بسرعة .

اعترض نيدهام على ذلك : اضعف سبالنزاني القـوة الانمائية بمغالاته في التسخين . فسخن سبالنزاني قنانيه حينذاك طيلة ساعتين في المـــاء الغالي ، ولكنه لم يحكم سدّها : ظهرت الحيوانات الصغيرة ، وما كانت الحرارة من ثم لتضعف أية قوة ، وبالتالي كان الاختبار الاول صحيحاً ومقبولاً .

زعم نيدهام آنذاك ان سبالنزاني قلل في المـــرة الأولى كثافة هواء القناني بسدها باذابة الزجاج ؛ وهذا هو سبب عـــدم ظهور الحيوانات الصغيرة . استخدم سبالنزاني قناني تلتهي بانبوب شعري . اقفلها باذابة الزجاج وبقطع الانبوب سريعا : لم يطرأ من ثم أي تغيير عـلى

ضغط الهواء . أعاد اختباره الأول في هذه القناني : فجاءت النتيجة مماثلة .

استطاع سبالنزاني أن يؤكد ما يلي: « القوة الانمائية ليست سوى نتاج المخيلة». «الحيوانات الصغيرة » تتولد من « بذور » تقاوم قوة النـار بعض الوقت ولا تلبث في النهاية أن تموت . الا أن فكرة التطور والمادية ستبعث الاعتقاد بالتناسلات الذاتية . وكان مقدراً لباستور « وبوشيه» أن يجددا الجدال الذي قام بين نيدهام وسبالنزاني .

التغـذية

كيف تعمل هـذه الاجهزة العضوية عملها يا ترى ؟ فصل الانكليزي « هايلز » في كتابه « علم سكون النباتات » (١٧٢٧) الاختبارات الـتي سمحت له بالتأكيد أن انتقال النسغ صعداً يجري بسبب الانتضاح ؛ وان الأوراق هي مركز هذا الانتضاح تحت تأثير نور الشمس . وفي أواخر القرن أتاح تقـدم الكيمياء اكتشاف كيفية تكوين النباتات لمادتها بذاتها . وفي السنة ١٧٧١ لاحظ بريستلي أن ساق النعنـاع الموضوع تحت اناء زجاجي مقفل اقفـالاً محكماً ينقي الهواء . وبعد أعمال لافوازييه ، ادرك العلماء ان النباتات تستولي على غـاز الكربون في النهار وتحتفظ بالكربون وتتخلى عن الأوكسجين : الكربون يبقى متحداً بالنبات .

اما فيما خص الحيوانات فقد قال القرن الثامن عشر ، مدة طويلة ، بآراء ديكارت : الجسم آلة ، أو اجتماع أنابيب ، ومخول ، ومنافيخ ، ومضخات ، ومناخل . لم يكن هنالك أية فكرة عن الظواهر الكيميائية . الصفراء ، والبول، والحليب كل ذلك يتكون في الدم . الدم يمـر في الغدد التي ليست سوى مصاف لإفراد هـذه الاخلاط . ولما كان كل شيء آليا ، فمن الممكن اخضاع كل شيء للحساب . برهن الانكليزي « كيل » بطريقة الإستنتاج ان جسم انسان يزن ١٦٠ لبرة يشتمل على ١٠٠ لبرة دما و ١٠ لبرات عظما و ١٧ لبرة شحما . وكان ذلك خطأ غير نادر يقوم،بالاستنتاج، باعتماد طرائق علم أكثر بساطة وتقدما ، في علم أحدث عهداً وأكثر تعقيداً ، غير آخذ بعين الاعتبار الا ما هو مشترك بين العلمين ومهملاً ما هو خاص بالعلم الأكثر تعقيداً .وهذا ما كان سيحدث ، بعـد ذلك بزمن ، بتطبيق علم الحياة على درس المجتمعات البشرية ، والحصول بهذا التطبيق على نتائج غريبة .

تقدم « بارتيز » ، في السنة ١٧٧٨ ، بنظرية « الحيوية » : ان مجرد حركة القوى الطبيعية لا يمكن ان يفسر ظواهر الحياة . هذه الاخيرة تنجم عن فعل مبدأ حيوي لا تكتشف نواميسه الا بدرس خصائص الاعضاء ، بحسب الروح النيوتونية . فكان ذلك وعيا لنوعيـة ظواهر الحياة ونبذاً لكافة النظريات الميتافيزيقية في الحياة. وقد غدت مونبلييه مركز مذهب الحيوية.

تحققت النتائج على ايدي المختبرين . فقد برهن ريومور ، في السنة ١٧٥٢ ، وسبالنزاني في السنة ١٧٨٠ ، ان الهضم كيميائي عند الحيوانات الغشائية المعدة، بينما زعم سابقوهما انه يرد الى عملية السحق التي تتولاها عضلات المعدة . فأمّنا الاطعمة ضد عملية السحق هـذه بواسطة

انبوب صغير من التنك احدثا فيه ثقوباً كثيرة ، ووجدا ان الاطعمة قد هضمت . ثم وضعا اسفنجة في الانبوب . وجمعا العصارة المعدية . وضع سبالنزاني هذه العصارة في انابيب ملأى باللحم سدّها سدّاً محكماً وتابطها طيلة ثلاثة ايام ، فوجدبعدها ان اللحم كان قد هضم هضماً تاماً : فكان ذلك اول هضم اصطناعي .

ساد الاعتقاد حتى السنة ١٧٧٥ ان الهواء يدخل الى الدم لتبريده أو لتزويده بمبدأ محي . في تلك السنة برهن بريستلي ان التنفس ينجم عن تبادل غازي . ثم جاء لافوازييه فحل في السنة ١٧٧٧ ، باختبارات معدودة ، المسألة التي عطف عليها الاطباء وعلماء الطبيعة منذ قرون عديدة : فبرهن ان الدم ، في الرئتين ، يمتص الاوكسجين ويتخلى عن حامض الكربون . ومنذ السنة ١٧٨٠ حتى السنة ١٧٩٠ ، طبق لافوازييه ، مع لابلاس ثم مع سيغين ، مقياس كمية الحرارة على درس الحرارة الحيوانية ؛ وأثبت ان التنفس هو السبب الرئيسي للمحافظة على حرارة الجسم ، وان العرق يبرد الجسم حين يكون بحاجة الى ذلك ، وان الهضم يعيد الى الدم ما يفقده بالتنفس والعرق .

الاخصاب

كيف تتناسل الكائنات الحية ؟ أدت اختبارات عديدة الى اكتشاف تزاوج النباتات : يتم الاخصاب بسقوط غبار طلع ذكور الازهار على اناث الازهار . تحققت هذه النتيجة منذ السنة ١٧٥٠ . ولكن العلماء فشلوا فشلاً ذريعاً في التغلل في اسرار تناسل الحيوانات . لوحظت وقائع غريبة من أمثال تناسل الارق الذاتي ، التناسل بواسطة العذارى المخصبة ، الذي لفت ريومور الانتباه اليه . اجريت بعض الاختبارات . ولكنها لم تسفر عن نتيجة حاسمة واحدة .

« ان جاذبية متساوية وعمياء موزعة على المادة كلها قد لا تفيد في تفسير كيفية تركب هذه الاجزاء بغية تكوين جسم غاية في البساطة . إذا توفرت لها جميعها النزعة نفسها أو القوة عينها ليتحد بعضها بالبعض الآخر ، فلماذا يكون هذا البعض عينا وذاك البعض اذنا ؟ لماذا هذا الاحكام العجيب ؟ ولماذا لا تتحد كلها اتحاداً مختلطا ؟ » .

وبسبب جهلهم كل شيء من ذلك ، تعلق العلماء بنظرية التكون السابق وتداخل الجراثيم التي لا تتعرض للمسائل المطروحة : اشتمل الانسان الاول في ذاته والحيوانات الاولى في ذاتها على كافة الاجيال اللاحقة متكونة ومتداخلة كلها . وقد حسب أحد العلماء ان ٢٠٠ جيل تمثل ٢٠٠ مليار من الكائنات البشرية المتداخلة على هذه الصورة ! انتقد بوفون هذا الرأي وهذا المفهوم انتقاداً لاذعا ، ولكن العلماء انحنوا امام « حكمة العلي التي لا تدرك » .

على الرغم من هذا الاخفاق اخذت فكرة استمرار الطبيعة تتقدم رويداً رويداً . فان طرائق الملاحظة والاختبار التي نجحت ذاك النجاح الكبير في درس الاجسام الجامد ، قد نجحت

وحدها ايضا في درس الاجسام العضوية ! وقد آل عـدد كبير من الظواهر الحيوية الى ظواهر طبيعية وكيميائية ، الى حركات من حركات المادة . واعتقد بعضهم بأنه سيأتي يوم يؤول فيـه اليها كل ما لم يفسر بعد : فكانوا ماديين تماما .

الاعصاب

استخدم القرن الثامن عشر مفهوم الحركة الانعكاسية الذي طلع به الانكليزي « ويليس » في القرن السابع عشر . فان « استروك » من مونبلييه ، قد درس في بيانيه العائدين الى السنة ١٧٢٣ والسنة ١٧٣٦ ، « القابليات » أي ردود الفعل التي تؤدي ، عند تهيج احـــد الاعضاء ، الى تقلص أو تشنج في عضو آخر : اغلاق الجفون ، السعال ، العطاس ، الهواع ، المعص ، البلع . فسّرها بحركة مزدوجة من « التآمير » التي تصعد من المناخر باتجاه الدماغ ، فتصطدم بليفته وتسلك طريق عضب الحجاب الحاجز . يتحرك هذا الاخير بعنف فيحدث العطاس .

ولكن ما زال كل شيء خاضعاً للدماغ . في الثلث الأخير من القرن حدثت ثورة كوبرنيكية : اكتشاف مراكز « حسية حركية » تعمل بدون الدماغ . فإن « هويت » ، من « ادنبرا » ، قد حصل على حركة انعكاسية ، اثناء اختباراته على ضفادع مقطوعة رؤوسها ، على الرغم من عدم وجود الدماغ ، وبرهن على أن النخـاع الشوكي هو ما يسبب هذه الحركات : فهي لا تحدث بعد تعطيل هذا الدماغ (١٧٤٦) . ورأى « اوتز » ، الاستاذ في « هال » ، أن الجسم مركب من عدة « آلات حيوانية » تنبض بقوة نوعية خاصة بها وتحدث مباشرة وفجـأة حركات حيوانية تقي جسم الحيوان بدون أي تدخل من الدمـاغ ، وبدون وعي وبدون ادراك . تؤمن الاتصال بين هذه « الآلات الحيوانية » عقد وضفائر عصبية تعكس الانطباعـــات الخارجية وتحدث الحركات الانعكاسية (١٧٧١) .

ورأى « بروشاسكا » ، الاستاذ في براغ ، ان « المركز الحسي المشترك » (الانتفاخ الفقاري والنخاع الشوكي) ، يؤمن ، بمعزل عن الدماغ ، بقاء الجهاز العضوي ودفاعه ضد اسباب الفناء على انواعها . تسبب الأعصاب الحسية ، بفعل اتصالها بهذا « المركز الحسي المشترك » ، تحول الانطباع الى حركة . ويتم الانطباع الحسي عند مستوى عقد الاصول الخلفية للأعصاب الفقارية .

تحاشى هؤلاء العلماء الثلاثة التعرض لطبيعة الخلـط العصبي والقوة العصبية — وتبنوا الطريقة النيوتونية فاكتفوا بدرس خصائص الاعصاب لمحـاولة تحديد نواميس حيوانية دونما اكتراث للآلية الكرتزيانية والنظريات الطبيعية : إلا أن الأدنى لا يفسر الأعـلى . ولعلم الحياة نسقه النوعي ونواميسه الخاصة .

مذهب التحول

بيد أن فكرة تطور الكائنات وتبدلاتها البطيئة والتدريجية والمستمرة وقابليتها الكبرى للتغير كانت سائرة قدماً ومؤدية شيئـاً فشيئاً إلى مذهب التحول . وقد أوحت وقائع كثيرة بهذه الفكرة : الحيوانات المتحجرة المجهولة في ايامنا هذه ؛ الطابـــع

الصنعي الذي يرتديه النوع والوسائط الكثيرة بين الانواع المتقاربة ؛ نجاحات عـــلم التشريح المقارن على يـد الفرنسيين « دوبنتون » الذي شرّح لبوفون ، بين السنة ١٧٤٩ والسنة ١٧٦٧ ، ١٨٣ نوعاً من الضرعيات ، و « فيك دازير » ، طبيب مـاري – انطوانيت ، الذي قارن بين الهياكل العظمية والقلوب والمعد عند الطيور والاسماك ، فاكتشفا وحدة تخطيط التركيب : ان التخطيط العام لتركيب هذه الحيوانات متماثل ، والاعضاء نفسها موجودة عند جميعها في الوضع النسبي نفسه ومركبة من الاجزاء نفسها وفاقاً للترتيب عينه ، كما لو كانت كلهـا منحدرة من جد مشترك ؛ ورأيا تشابه الخِلـَق ونوع الحياة الذي حمل على الاعتقاد بالمطـــابقة للبيئة . واتجهت الاتجاه نفسه جغرافية بوفون الحيوانية : لما كانت الفوارق بين الحيوانات نفسها تتبـــع المناخ والنباتات وارتفاع سطح الارض ، فلا يمكن أن ترد الا الى تغيرات تحدث بتـــأثير العوامل الطبيعية ؛ واظهر علم الوظائف أهمية العوامل الطبيعية والكيميائية في حياة الأجهزة العضوية ؛ وبدت بعض الوقائع الغريبة وكأنها تشير في الطبيعة الى قوى مجهولة غير اعتيادية : فقـد رأى « ترمبلي » الهدريات المقطعة إرباً إرباً تستعيد تكوينها مرة أخرى ؛ وابر الهدريات برؤوس في اوضاع غريبة بعيدة التصديق جداً . وابر « دوهاميل – وومونسو » ، في السنة ١٧٤٦ ، رأس الحيوان بصيصة الديك . وشاهد ريومور ، في السنة ١٧١٢ ، تجـــدد تكون رجل السرطان المقطوعة ؛ كما شاهد سبالنزاني في السنة ١٧٦٨ تجدد تكون رأس حلزون مقطوع الرأس؛ ورأى بونـّيه في السنة ١٧٨٠ تجدد تكون عين سمندر ماء .

وهكـــذا فقد نشأت نظرية التحول باكراً في ذهن الفرنسيين . فعالم الرياضيات والفلكي « موبرتوي » ، الذي استنار باختبارات تهجين عديدة ، قـد عبر عن فكره تعبيراً تحولياً في « الزهرة الطبيعية » (١٧٤٥) و « نظام الطبيعة » (١٧٥١) و « عـلم نواميس العالم العامة » (١٧٥٦). بيّن تبدلات حاصلة بتأثير المناخ والاغذية وقابلة الانتقال منذ التوالد الأول : « ألا نستطيع أن نفسر بذلك كيف أمكن حصول تعدد أكثر الانواع تبايناً انطلاقاً من فردين فقط؟» لقد تصورت في ذهنه منذ ذاك التاريخ فكرة المطابقة للطبيعة والانتقاء الطبيعي ؛ ولـّد اتفاق هذه التأثيرات الطبيعية عدداً غفيراً من الأفراد ؛ فما كان منهـا سيء التركيب ولم يستطع سد عوزه قد انتهى الى الاضمحلال ، أما ما تبقى فقد عرف البقاء بفضل « بعض علائق الانتفاع » .

اما آدنسون فقد اقتنع بقابلية التبدل لدى الانواع . تحقق ظهور انواع نباتات جديدة ، اما باخصاب نباتين مختلفين من نوع واحد ، واما بالزراعة والتربة والمناخ والجفاف والرطوبة والظل والشمس .قد تزول هذه التبدلات في التوالد اللاحق ، ولكنها قد تنتقل بالوراثة ايضاً:فيتكون من ثم نوع جديد .

خلص بوفون الى القول ان الحمـار ليس سوى حصان فسد نوعه بتأثير المناخ والغذاء ؛ وان الانسان والقرد ينحدران من اصل واحـد على غرار الحصان والحمار ؛ وان « كل فصيلة ، سواء

obeikandi.com

٣- اِختِبَار مِغنَاطِيسِيّ

obeikandl.com

٤- مختبر كيميائي

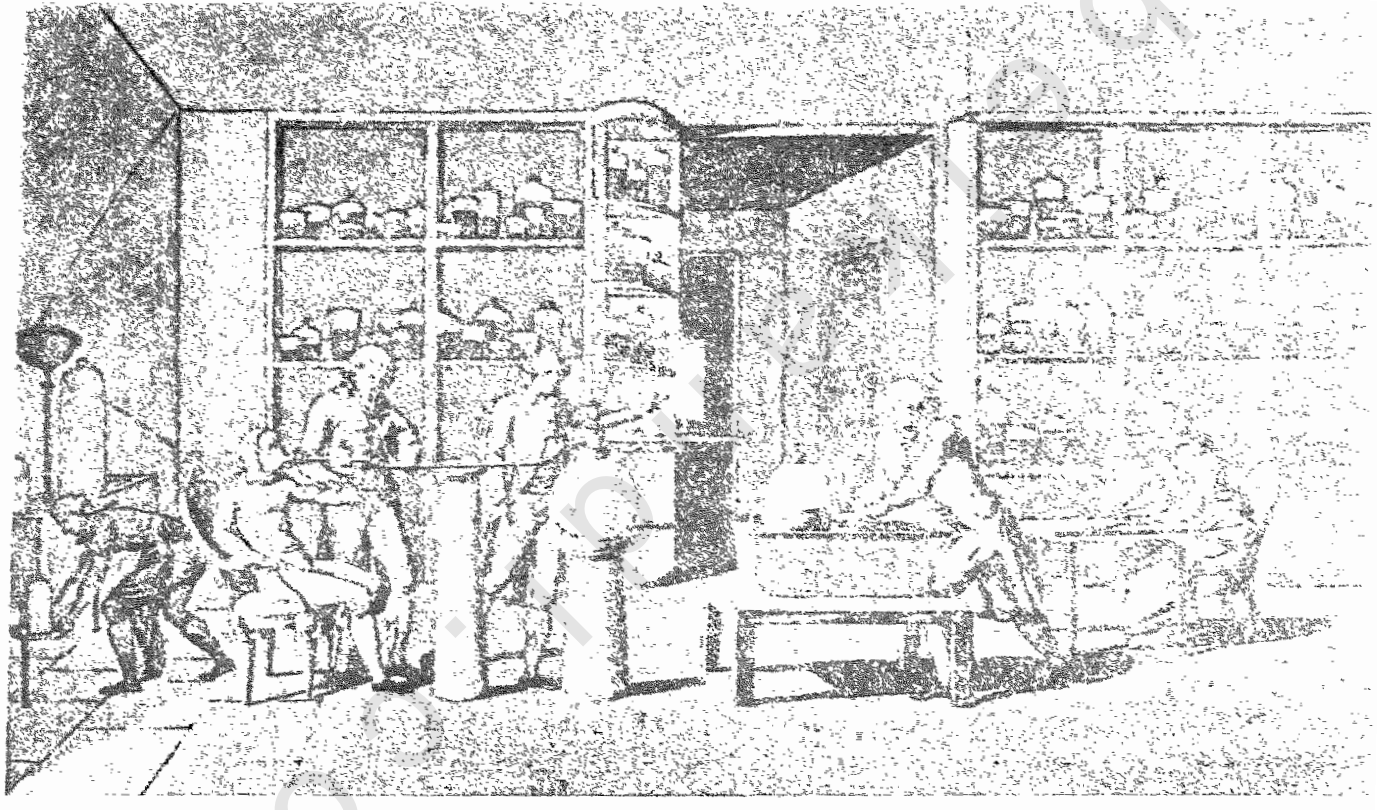

٥- لافوازيه في مختبره

١ - تتويج فولتير في المسرح الفرنسي

۷۔ شارع کِنگامبوا عام ۱۷۲۰

٨ ـ إنشاء طريق عام

٩ - فلاحو غونيس يمزقون منطاداً هبط في قريتهم

١- منشأ اللقاح

١١ - منظر دار "سوبيز" من جهة الشارع

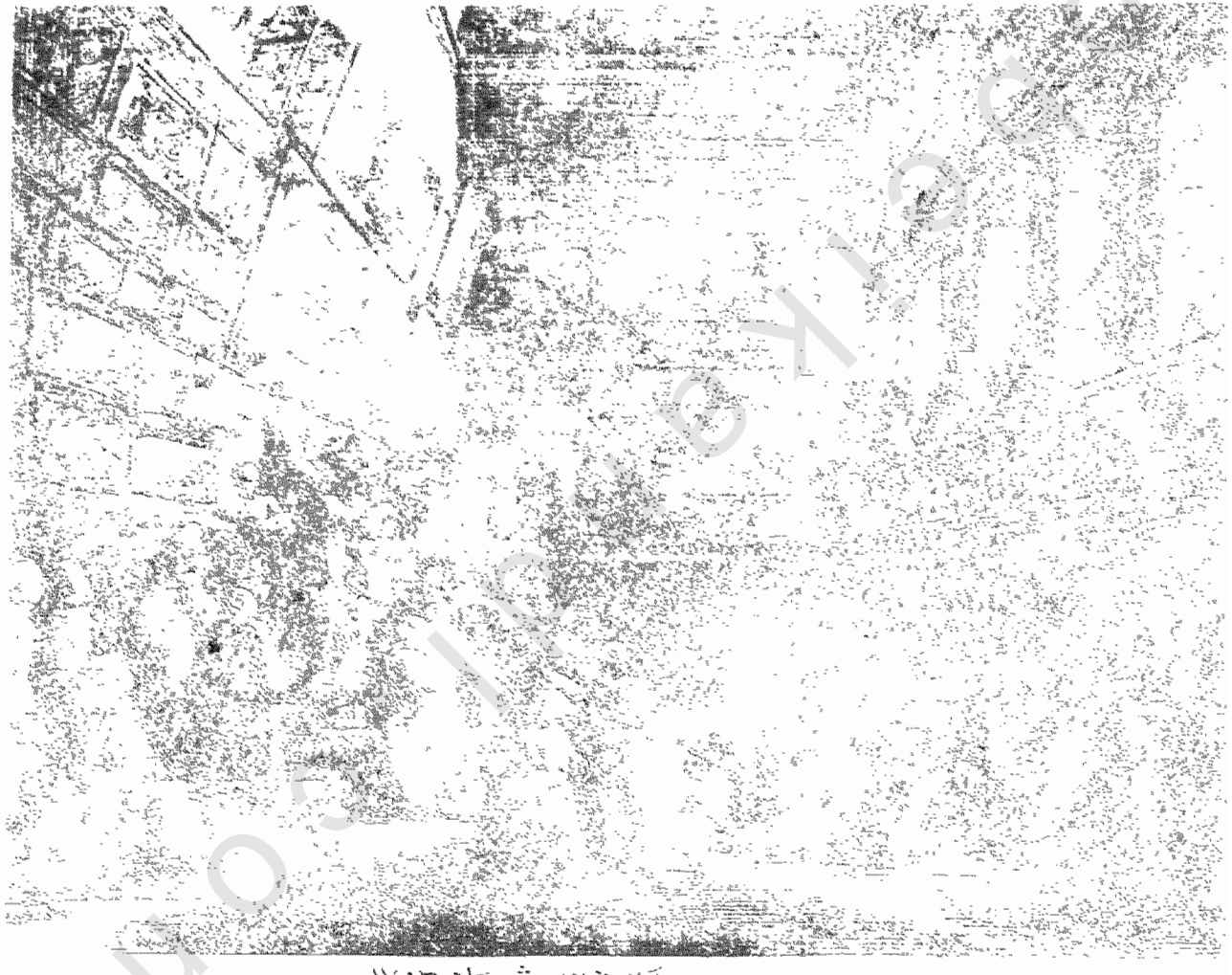

١٢- قاعة الاستقبال في اللوفر عام ١٧٥٣

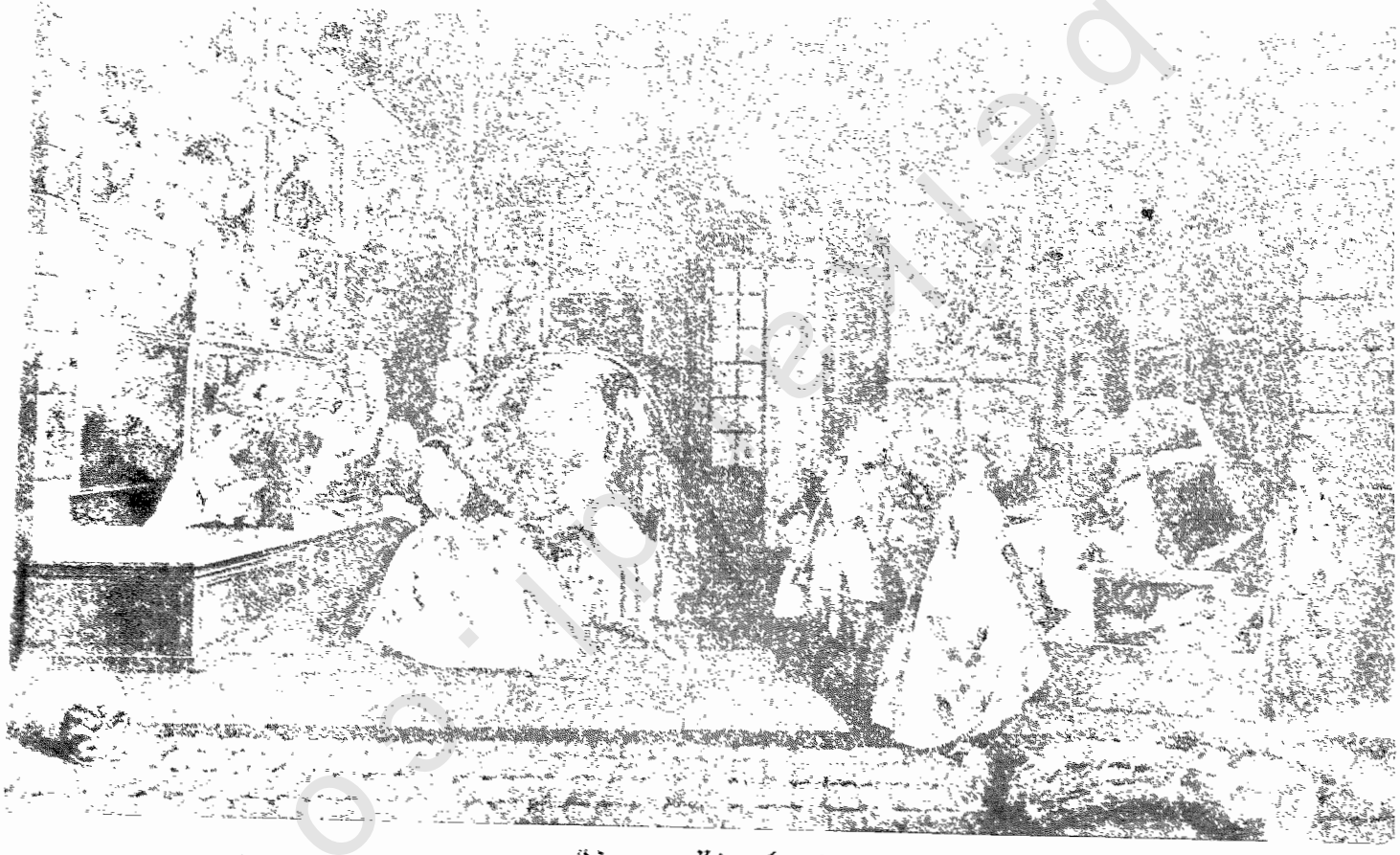

١٣- رمز "جرسين"

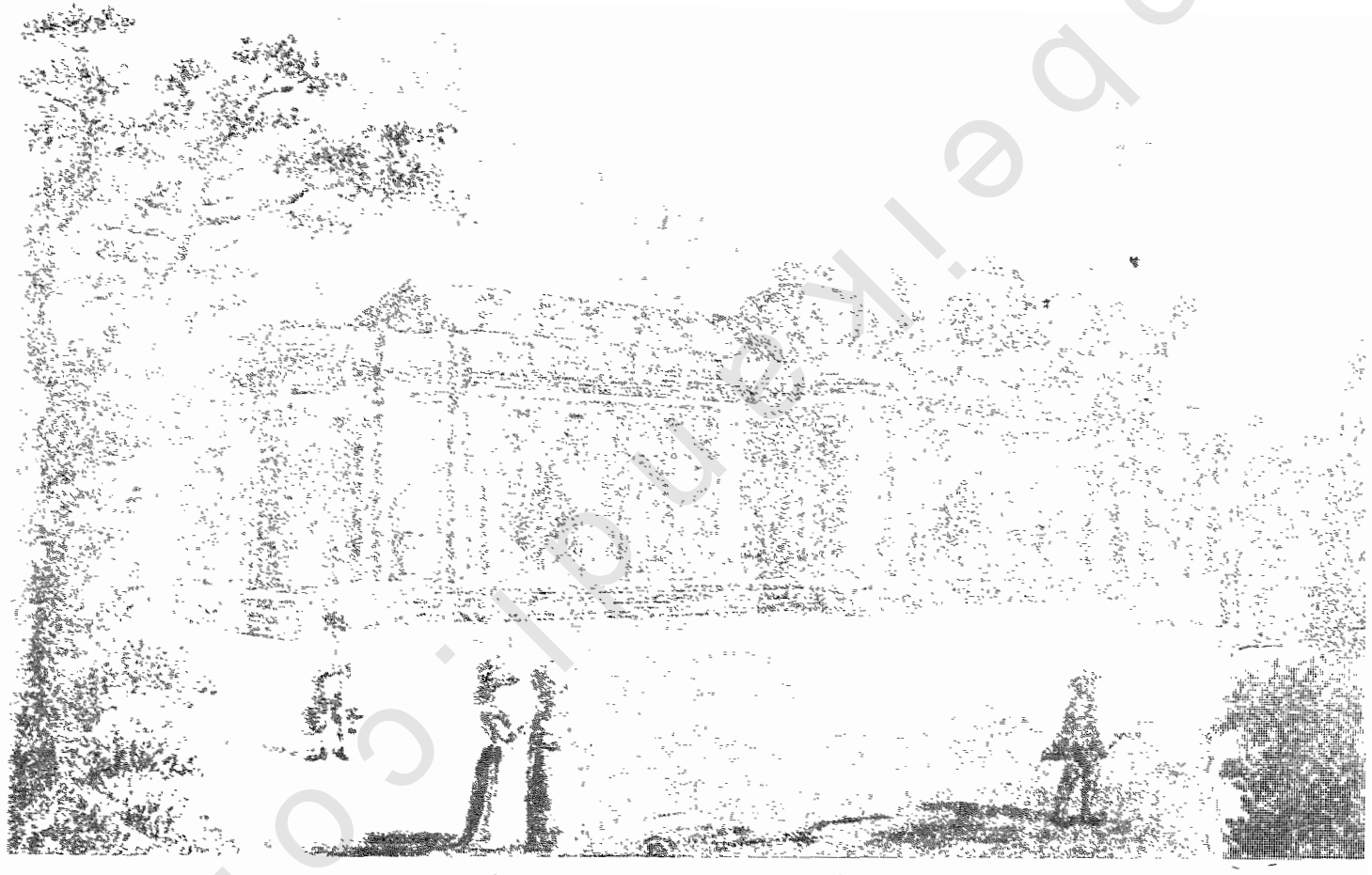

١٤- قصر "سان سوسي" في بوتسدام

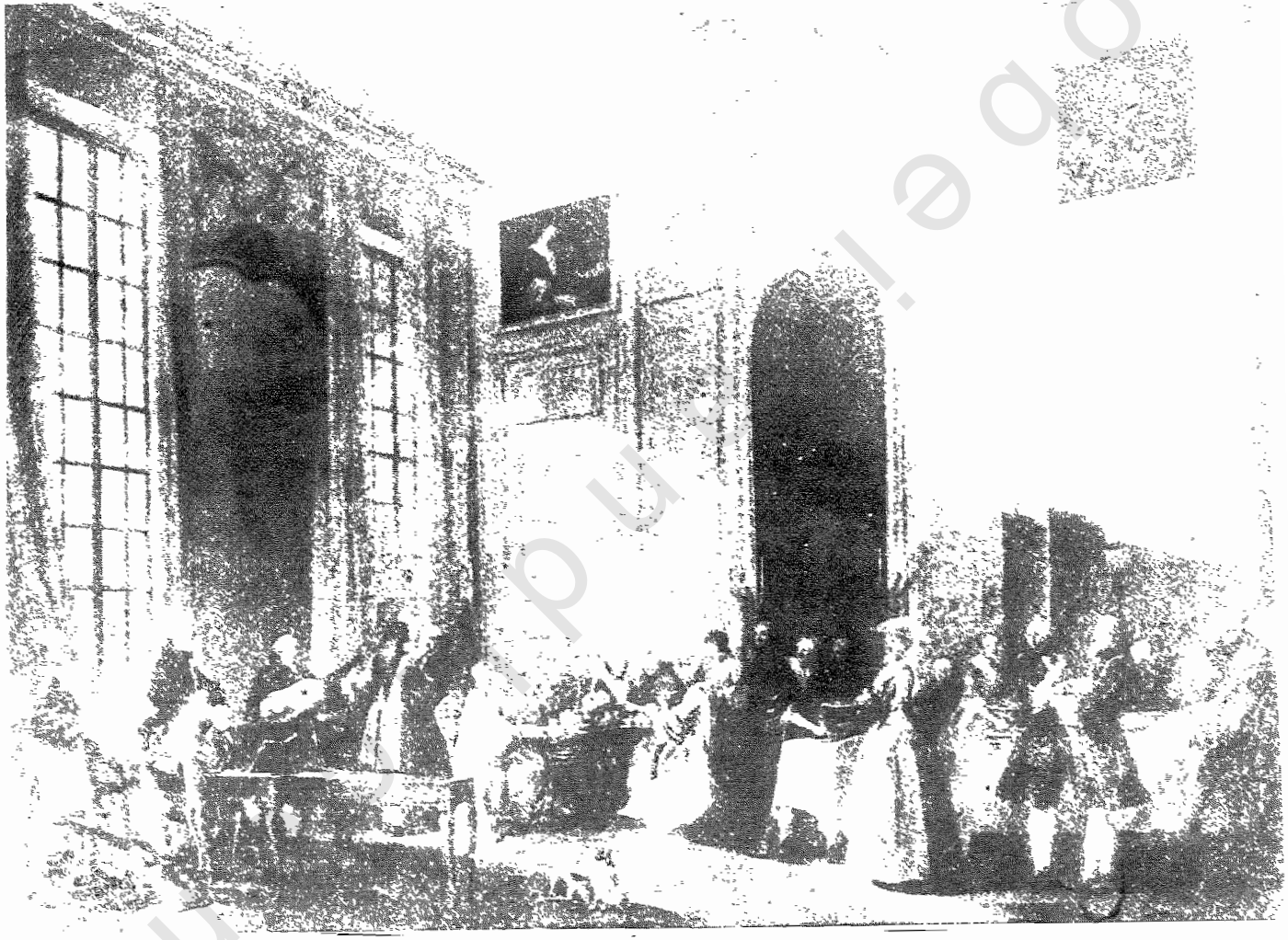

١٥- الشاي على الطريقة الانكليزية في صالون أميرة كونتي

١٦- رقصة روسية

عند الحيوانات او النباتات ، تنحدر من ارومـة واحـدة ؛ « لا بل ان كافـة الحيوانات انحدرت من حيوان واحد ولـّد ، في تعاقب الازمنة ، بتحسن او فساد نوعه ، كافة اجـناس الحيوانات الاخرى ... » بتأثير الظروف الخارجية التي تسبب تبدلات تدريجية تنتقل الى الذراري .

بيد ان كل ما ذكرنا ما زال متشتتاً في المؤلفات ، ثانويا ، عارضاً ، اي انـه ما زال نظرة سريعة الزوال . الا ان الفكرة قد رأت النور . وكان مقدراً لـِ «لامارك» ، مؤدب ابن بوفون ، ان يجعل منها نظرية كاملة في اوائل القرن التالي .

obeikandl.com

الفصل السابع

علوم الانسان

احرزت علوم الانسان تقدماً كبيراً وان بقيت ناقصة جداً . نرى فيها روح « علم الطبيعة » وسياقه . الروح : العلل الغائية الغيت ، والعناية الالهية أقصيت ، ومبدأ الحتمية سلم به ؛ الانسان لا يريد ان يأخذ بعين الاعتبار بعد اليوم سوى العلل الفاعلة الطبيعية : البيئة الطبيعية ، الحاجات البشرية ، العواطف ، الاهواء ، الأفكار ؛ الطرائق المعتمدة هي ملاحظة الوقائع ملاحظة مباشرة أو بواسطة الشهود ، والبرهنة الاختبارية . السياق : وصف الظواهر وصفاً دقيقا ، بذل الجهد بغية التوصل في هذا المجموع الى معيات او ترادفات دائمة ، تمييز التلاحم والارتقاء الى النواميس ، والنزوع الى رد النواميس الى أقل عدد ممكن من المبادىء العامة . ولكن صعوبة تطبيق الأداة الرياضية على أكثر الوقائع تعقدا وتحركا وتشابكا ، التي غالبا ما لا يدرك العالم منها سوى رسوم غير كافية ، أخرت اكتمال هذه العلوم ، فبقيت وقتا أطول في المرحلة الوصفية ، مرحلة التاريخ .

علم طبائع الانسان

أسس بوفون علم طبائع الانسان والجغرافية البشرية . درس الانسان نوعا بعد أن درس من قبله فرداً . في السنة ١٧٤٩ ، اثبت في كتابه « تاريخ الانسان الطبيعي » وحدة الجنس البشري . ان نوعين مختلفين يولّدان فروعا عقيمة ؛ والحال كل الفروع البشرية مخصبة . اذن الانسان يؤلف نوعا يضم تنوعات هي الاجناس التي تختلف بفعل المناخ والغذاء وطريقة الحياة . « ليس الانسان الابيض في اوروبا والأسود في افريقيا والاصفر في آسيا والاحمر في اميركا سوى الانسان نفسه متخضبا بلون المناخ » . ولكن البشرية واحدة تتميز أبداً تميزاً متزايداً عن الحيوانية بالذهن والعقل. الذهن هدف الانسان وهو في الوقت نفسه سعادته . وهكذا فقد انتهى العالم المعادي للدين الى استلتاج روحاني .

العلم الواسع

ان علم المجتمعات البشرية المتكونة في نطاق النوع ، الذي سيدعوه « اوغست كونت » علم الاجتماع، كان في طريق التكون. وان طريقة التاريخ النقدية ،التي سيستخدمها هذا العلم بالنظر الى ان الملاحظات المباشرة غير كافية ابداً والى انه يجب اللجوء

الى الشهادات في الماضي البعيد او في الماضي القريب القريب الذي ندعوه حاضراً ، كانت معروفة تمام المعرفة بفضل جهود قرنين ونيف . فالفرنسي « لويس دي بوفور » يعطي عنها ، في كتابه « بحث في الشكوك التي تحوم حول القرون الخمسة الاولى من التاريخ الروماني » (١٧٣٨) ، امثلة جميلة يمكن ان يستخلص منها بسهولة دراسة منسقة قانونية . بوفور في حالة الشك الكرتزياني ، الذي هو ثمرة محبة شديدة للحقيقة . فهو يتفحص تأكيدات المؤرخين الاقدمين . يجد منها ما ينطوي على تناقض ، يريد استثباتها . يجب لذلك جمع المستندات الأكيدة لأن قيمة عمل المؤرخ ترتكز الى قيمة مصادره . ولكن يجب التيقن من ان المستندات صحيحة ومن انها لا تزال في حالتها الاولى ، فيجب من ثم الفحص عن كيفية وواسطة انتقالها وتتبع سيرها حتى ايامنا هذه . بعد جمع المستندات يتوجب فهمها . يجب قراءتها دون « انشغال » ، والحرص على ان لا يطلب من النص ما يتوخاه المؤرخ ، وفهم التعابير بالمعنى الذي تتضمنه طبيعيا ، واستخلاص النتائج التي تتولد منها تلقائيا . يجب الانتباه كل الانتباه الى الكلمات ، واذا انطوت على اقل غموض ، يجب البحث عن المقاطع الأخرى التي استعملت فيها لتعيين معناها الصحيح في سياق الكلام .

فعرف الآن ما تقوله النصوص . فهل تقول الحقيقة يا ترى ؟ يجب هنا التمسك بمبدأ عدم التناقض الذي هو القسم الاساسي في البرهان . كل ما ينطوي على تناقض يجب رفضه : كل ما يناقض نواميس الطبيعة او الاحتمال العقلي باطل مهما كان من عدد وشهرة المؤلفين . اذا كان هنالك تناقض بين نصوص قد يقبل بها العقل ، يجب اذ ذاك التمييز . يجب ابداً تفضيل تأكيد مستند صحيح على تأكيد المؤرخ ؛ وتأكيد مؤرخ من بين مؤرخين يتفق ووقائع تاريخ بلدان اخرى يرتبط بتاريخ البلاد المعنية ؛ وتأكيد من يكتب ضد مصلحته الخاصة بعد التعمق في درس الموضوع ؛ وتأكيد من لا يتوخى التجميل او التعييب ؛ يجب الوقوف موقف الحذر من الاكثار من التفاصيل التي تستلزم شاهد عيان مدقق : ان هذا الاكثار ينطوي على التناقض لأن الفرصة نادراً ما تسنح للملاحظة الدقيقة الواضحة . يجب البحث عن غاية المؤلف واصوله وخلقه وعاداته في العمل وظروف كتابته .

يجب اخيراً ، بواسطة الاستشهادات والاسنادات ، تمكين القارىء ، الذي يفرض عليه الشك والتفحص والتقرير بالإستناد الى مبدأ عدم التناقض ، اصدار حكمه على النتائج بذاته . ان هذه الطريقة احدى اجمل ثمار مذهب العقليين .

مارسها بوفور خير ممارسة . ولكنها كانت ملكا مشتركا . فقد مارسها كذلك كافة العلماء الواسعي الاطلاع ، كما مارسها المؤرخون ، اقله في احسن اوقاتهم . تسرعوا احيانا في الاعتقاد بوجود التناقض ، وبالغوا في الاركان الى معرفتهم الناقصة للنواميس الطبيعية ، وغالوا في احترام الاحتمال العقلي : « ان ما هو حقيقي قد يكون احيانا غير محتمل عقليا » ؛ وقد يبدو

لنا غير محتمل عقليا ما هو غير مألوف . فانزلقوا من ثم ، على غرار فولتير ، الى النقد المفرط الذي هو مصدر اخطاء خطيرة . ولكنهم انجزوا على العموم عملاً كبيراً جداً .

واصل القرن الثامن عشر جهود القرن السابق في حقل العلم الواسع. اكتشفت كمية ضخمة من النصوص واستنسخت ونشرت . ووضعت جداول مسهبة بالمؤلفات . وجمعت المعلومات حول انتقال المستندات ، ومؤلفيها ، واوجه استخدامها ، والجغرافية وكيفية التاريخ في عهدها ، اي كل ما قد يفيد في التمييز بين ما هو صحيح وما هو غير صحيح . انجز عمل جبار في كل مكان ، ولا سيما في فرنسا على يد البندكتيين واكاديمية الكتابات والآداب الجميلة » . ويؤلمنا هنا الا نستطيع ذكر ذاك العدد الغفير من العمال المهرة المتفانين حتى التضحية ، ومن المؤلفات الكبرى والبالغة الاهمية . بات بالامكان تجديد التاريخ القديم واكتشاف القرون الوسطى واكتشاف حضارات آسيا، سيدخل كل ذلك في امجاد القرن اللاحق . فتح «بريمار» النحوي « وغوبيل »مترجم « شو-كنغ » ابواب تاريخ الصين القديمة . وفي السنة ١٧٦٢ جاء الفرنسي «انكتيل – دوبرّون» الى باريس بـ ١٨٠ مخطوطاً زنديا وبهلويا وفارسيا وسنسكريتياً. وفي السنة ١٧٧١ نشر ترجمة «زند – افستا ». وفي السنة ١٧٩٣ استند «سيلفستر دي ساسي» الى قاموسه البهلوي وحل ألغاز كتابات الملوك الساسانيين . كما ان الانكليزي « جونز » ، رئيس جمعية كلكوتا الآسيوية ، التي تأسست في ١٥ كانون الثاني من السنة ١٧٨٤ ، قد نشر في السنة ١٧٨٩ ترجمة للأساة الهندية « شاكونتالا » ، وباشر في السنة ١٧٩٤ نشر شرائع « مانو » . فبدأ الشرق يخرج من الاساطير . الا ان مصر وبلاد ما بين النهرين بقيتا مجهولتين .

علم الاجتماع

جمعت النصوص ونقدت وادركت واثبتت الوقائع ووضعت في إطارها الزماني والمكاني ، فمست الحاجة الى الأعمال الضرورية التالية : تصنيفها وفاقاً لتشابهها، تحديد علائقها وترابطها ، واستخلاص النواميس منها ، ورد هذه الأخيرة الى بعض المبادىء العامة الخاضعة لمبدأ اصلي . ليس هذا النهج المنطقي المثالي ، في الواقع ، نهج القرن الثامن عشر، اذ ان عمل العلماء الواسعي الاطلاع والمؤرخين السابقين قد اتاح ، منذ النصف الاول من القرن ، لبعض ذوي العقول النيرة ، محاولة العمليات الأخيرة .

فان الايطالي « فيكو » (١٦٦٨ – ١٧٤٤) قد نشر كتابه « مبادىء علم جديد » في السنة ١٧٢٥ . انه احد مؤسسي علم الاجتماع بعد « ماكيافلي » و « جان بودين » . في رأيه ان الله يوجه التاريخ نحو انتصار كنيسته . ولكن اذا كان هناك الله ، العلة الاولى ، فان هناك العلل الثانوية ، الطبيعية . يكتفي فيكو بدرس نواميس التاريخ الطبيعية بمعزل عن كل تدخل عجائبي. يوجد نظام ازلي يسير الأمور ، وناموس مثالي يخضع له نمو كل أمة ، وهذا لعمري رأي افلاطوني ، ولكنه رأي نيوتوني ايضاً : ان ظواهر مختلفة كثيرة تحدث وفاقاً لناموس واحد. يكتشف العالم هذا الناموس بملاحظة الدلائل التي خلفتها البشرية : لغات الامم القديمة ومؤلفاتها،

الاساطير والخرافات ، القصائد القديمة ، الشرائع الاولى ، التي هـي انعكاسات احوالنا السيكولوجية السابقة واحوالنا الاجتماعية الاولى . فليس والحالة هـذه من حاجة الى القراءة لرؤية حركة الاهواء البشرية المشتركة ، ومتابعة رواية مؤثرة ، وتذوق تعابير متناسقة او لاذعة ، بل الى التوقف عند الكلمات والتراكيب التي تدل على شكل خـاص مـن اشكال التفكير والشعور ، او عرف ، او تنظيم نوعي ، والاستعانة بذلك لاستعادة حالة البشرية الاولى . هذا هو « العلم الجديد » . فيكو يثبت وحدة الجنس البشري . ان في البشر بصيرة عامة ، وقـوة تمييز دون تفكير تشمل الجنس البشري كله ، وامة بكاملها ، وطبقة بكليتها ، و « افـكاراً متماثلة نشأت في آن واحد عند شعوب كاملة يجهل بعضها البعض الآخر » . وهكذا فاننا نجد عند كل الأمم نظما مشتركة وتطوراً متشابها . في امة معينة يخضع كل شيء لحالة الافكار : الدين ، والطبقات الاجتماعية ، والحق ، والحكم ، ونوع الحياة ، تنجم عنها وتصل بينها علائق انتفاع . اذا وجد احدها ، وجدت كلها . هكذا يصف فيكو ظروف وجود مجتمع في وقت معين ، او التوازن الاجتماعي . ولكن الفكر البشري يتحول ، يتطور ويمر في سلسلة احوال تتجدد ابداً ، ويسبب تحولا في المجتمعات التي تمر في سلسلة احوال مقابلة تتجدد ابداً ايضـا . الافكار تسير العالم . هكذا يثبت فيكو سلة تطور المجتمعات ، يدرس علم القوى الاجتماعية : حالة طبيعية بربرية ، ثم حالة ثيوقراطية عائلية ، وحالة ارستوقراطيـة في المدن تسيطر المخيلة عليها كلها سيطرة تخف وطأتها تدريجيا ، وحالة ملكية يتغلب فيها العقل ، ثم تتفهقر وتحلال وعود على بدء . ليس التطور غير محدد بل دوريا ، يؤلف كلا يتجدد مع كل امة . انه تكرر دائم .

كان فيكو مشوش التفكير غامض التعبير ، فلم يعرف الشهرة في زمانه ، ومع ذلك كان له بعض التأثير . فان مونتسكيو قد قرأ مؤلفاته ، وعبر في ملاحظاته الشخصية عن مقدار الأثر الذي تركته فيـه نظريات فيكو ، وعن طريق مونتسكيو انتقل رأيا فيكو الرئيسيان ، التوازن ، والتطور ، الى القرن كله . وكان مقدراً لفيكو ان يترك اثراً اعم وأعمق في القرن التاسع عشر ، ولا سيما في « فوستيل دي كولانج » . كانت آراؤه الموجهة الهامـة صحيحة . اخطأ هدفه بسبب افتقاره الى المواد الكافية . أمـا اليوم ، أي بعد قرنين من العمل التاريخي المثمر ، فتجدر العودة الى محاولته .

اصاب الفرنسي مونتسكيو (١٦٨٩ – ١٧٥٥) في كتابته حول علم القوى الاجتماعية في مؤلفه « اعتبـارات حول اسباب عظمة الرومان وانحطاطهم » (١٧٣٤) ، وحاول توضيح التوازن الاجتماعي في كتابه « روح الشرائع » (١٧٤٨) . كان رجل شرع ثرياً ، وتولى ردحاً من الزمن رئاسة محكمة بوردو ، ثم ما لبث ان تكرس بكليته لعمله الذي انكب عليه طيلة ثلاثين حولا . كان كرتزيانياً يكثر من الاستلتاجات ، ولكنه كان عالماً بالطبيعيات والتاريخ الطبيعي ايضـاً ورحالة بصيراً ومطالعاً لا يعرف الكلل ، فكانت طريقته الرئيسية الملاحظة والاستدلال ؛ الوصف ، التحقق ، الارتقاء من الوقائع الى نواميسها ومن النواميس الى المبادىء ،

وهو نهج يحجبه بعض الشيء في مؤلفاته نسق العرض الذي يختلف طبعاً عن نسق الاكتشاف . وقد صرح بذلـــك بوضوح في مقدمة « روح الشرائع » . بدأ يلاحظ رغبة منه في المعرفة والمشاهدة : « تفحصت البشر أولا » ؛ تصورت امامه فكرة كتابه الاولى : « واعتقدت انهم ليسوا مسيرين في هذه الشرائع والاخلاق المختلفة الكثيرة ، بشهواتهم واهدافهم دون غيرها » . واصل حينذاك ابحاثه ومحاولاته : « مراراً كثيرة شرعت في هذا المؤلف ومراراً كثيرة اعرضت عنه ... سرت في موضوعي دونما قصد ؛ كنت جاهلا القواعد والاستثناءات ، ولا اكتشف الحقيقة إلا لاضاعتها » . واخيراً توضحت فكرته العامة ، واستطاع صياغة نظرياته : « ولكن حين اكتشفت مبادئي ، جاء إلي كل مـا كنت ابحث عنه ... وضعت المبادىء » ، ومنذ ذاك الحين اخذ يستثبت نظرياته ويحولها نواميس : « ورأيت الحالات الخاصة تخضع لها كما من ذاتهـا وتواريخ الامم كلها كما لو كانت ذيولا لها ، وكل ناموس خاص ، مرتبط بناموس آخر ، يرتبط بناموس اوسع شمولا » .

الطبيعة كلها تدار بنواميس طبيعية ، على غرار « آلة » مدهشة : ان النواميس ، في اوسع مفاهيمها ، هي العلائق اللازبة التي تنجم عن طبيعة الاشياء ، ولكل الكائنات نواميسها في هذا المعنى » . ولكن المجتمعات البشرية هي ايضاً كائنات طبيعية وتخضع لنواميس طبيعية . يجب ان تكون الشرائع التي يسنها البشر ، أي الشرائع الموضوعية ، مرتبطة ارتباط انتفاع بالنواميس الطبيعية وفيما بينها . الانسان حر ، وقد يحدث ان تخالف شريعته « العلائق اللازبة » : فلا ينجم عن ذلـــك سوى السوء . يتوجب من ثم على الانسان ان يعرف هذه العلائق كي يحترمها ويستخدمها . ويفرض ان تكون « الشرائـع البشرية من الموافقة للشعب الذي سنت من اجله بحيث يصبح اتفاقـاً نادراً ان تكون شرائع امة مناسبة لامة اخرى . يجب ان تطابق طبيعة الحكم القائم أو المراد اقامته ... يجب ان تكون مختصة بطبيعة البـلاد ، بالمناخ البارد أو الحار أو المعتدل ، وبنوع البقعة وموقعها واتساعها ونوع حياة السكان الفلاحين أو القناصين أو الرعـاة ، وبدرجة الحرية التي يمكن ان يقبل بها الدستور ، وبدين السكان وميولهم وثرواتهم وعددهم وتجارتهم واخلاقهم وطرائقهم . ولها اخيراً ارتباطات فيما بينها ؛ لهـــا ارتباطات بمصدرها ، بالنظام العـــام الذي استند اليه في وضعها ، بمقصد المشترع . يجب مراعاة كل هذه الاعتبارات عند النظر اليها » . بحسب هذه الاسئلة ، حدد هذه العلائق اللازبة في كل مؤلفه ، وهو تعاقبها ما يؤلف مخططه الذي تحجبـه بعض الشيء تجزئـة مفرطة معدة لتسهيل القراءة تضيع سياق الافكار .

حتمية ونسبية ، هذان هما المبدآن الاساسيان . المعطية المعينة تستلزم شريعة معينة وتستبعد شريعة اخرى معينة . هذه الحتمية تؤمن حرية الانسان الذي قد يكون اعزل من السلاح في عالم قد يؤدي كل عمل فيه الى نتائج متقلبة جداً ، فيستحيل التبصر والتنظيم والعمل ، وقد يكون فيـه الانسان مستعبداً لقوى عمياء . كما هو يستخدم نواميس العالم الطبيعي ، كذلك يستطيع

استخدام شرائع العالم الاجتماعي ، خصوصاً في سبيل التوصل الى هذا الخير الاسمى ، المناسب لطبيعته البشرية ، الحرية . ويتحول مونتسكيو في كل برهة الى مهندس اجتماعي ، فيظهر السلوك الواجب للتوصل في كل حالة الى اقصى حد ممكن من الحرية والانسانية . فالسلطات الثلاث مثلا هي في الدولة السلطة التشريعية والسلطة التنفيذية والسلطة القضائية . في اوروبا الغربية يجب ان يفصل بينها وتسند الى اناس مختلفين حتى تحد من كل منها السلطتان الاخريان وتراقباها ، وبغية الحيلولة دون الاستبداد الذي قد يفضي إليه تركزها إما في ملك وإما في عدد من النبلاء وإما في أيدي الشعب .

أفرغ الكتاب في لغة متينة ، عادمة السهولة ، مؤثرة ، صافية وكثيفة كالبلور حينا ، أو زاهرة وقاطعة كحد الفولاذ حيناً آخر ، فعرف نجاحاً عظيماً جداً ، وترجم الى كل اللغات ، وألهم الملوك والسياسيين ورجال الشرع والمؤرخين في كافة البلدان ، وأوحى بالدستور الأميركي في السنة ١٧٨٧ ، وبالدستورين الفرنسيين في السنة ١٧٩١ وفي السنة الثالثة ، وبالدستور البروسي في السنة ١٧٩٢ ، وبمعظم دساتير القرن التاسع عشر . وان « كارل ماركس » نفسه مدين لمونتسكيو ايضاً . ولكن مقاصد مونتسكيو لم تكن سهلة الادراك ، فلم يفهمه الناس كثيراً : وراح أكثرهم يبحثون عنده عن مقتطفات انطوت ، بفصلها عن النص ، معنى وقع من أنفسهم موقع الرضى .

الاقتصاد السياسي

لم يخلف أحد مونتسكيو مباشرة . الا أن روح كتابه وكثرة المسائل التي طرحتها تأكيداته على بساط البحث قد أوحت بعدد كبير من الأعمال الجزئية . أما الذين اقتربوا منه في الواقع أكثر من سواهم ، باعارة النواميس الطبيعية اهتمامهم دون تبني مبدأ النسبية الذي قال به ، فهم الاقتصاديون الذين اعتبروا الزراعة مصدر الثروة الوحيد .

كان « كيناي » (١٦٩٤ – ١٧٧٤) طبيب لويس الرابع عشر ، وعالماً احيائياً ، وملاكاً كبيراً . فاستفاد من ملاحظات كثيرة وعبّر عن آرائه في فصلي « المزارعون » و « الحبوب » من « دائرة المعارف » (١٧٥٦ – ١٧٥٧) ، في « الجدول الاقتصادي» (١٧٥٨) ، وفي « الحق الطبيعي » (١٧٦٥) . ثم جاء تلاميذه فرسموا شكل « العلم الجديد » الذي بلغ منذ نشأته « أقصى درجات الوضوح » ، وأطلق عليه « ديبون دي نمور » اسم « فيزيوقراطيا » أو حكم الطبيعة .

تؤلف الظواهر الطبيعية وقائع تخضع لبعض النواميس النابعة من طبيعة الاشياء ، وتشكل هذه النواميس مجموع آقيسة ، أو علما . انها من وضع الله تعالى ؛ وهي جزء من نواميس الطبيعة بل هي أفضلها اطلاقاً .

ليس المال شيئاً يذكر ، انه مجرد واسطة عقيمة . الثروة الحقيقية نتاج قابل الاستهلاك دون

أن تؤدي الى انقاص المادة التي ساعدت على ايجاده . الزراعة وحدها تعطي مثل هـذا النتاج ، « النتاج الصافي» . الصناعة لا تعطي نتاجاً صافياً ؛ انهـا تحول شكل المواد الراهنة ، وتحدث بعملها هذا أشكالاً مفيدة ، ولكنها تنقص المادة دون الاعاضة منها . وينحصر عمـل التجارة في نقل ومقايضة هـذه المصنوعات . الفلاح وحده يخلق مادة جديدة ويكوّنها ثانية ويضاعفها. لذلك فان الطبقة الاساسية هي طبقة الملاكين العقاريين الـتي استصلحت الارض ، وتليها طبقة الفلاحين ، ثم جميع الآخرين ، « الطبقة العقيمة » . يجب ان يخضع كل شيء للانتاج الزراعي . ويجب من ثم الاكثار من الملكية الفردية بالغاء المشاعات وتحرير الزراعة من حقوق الارتفـاق الجماعية والحقوق الاقطاعية ، وتشجيع الاملاك الكبرى القادرة وحدهـا على توفير التسليف والزراعة العلمية ، وتأمين البيع الوفير بسياسة الاجور المرتفعة ، والغـلاء او « السعر الجيد » بحرية التجارة ، وزيادة الثروة قبل السكان .

الملك حق ناجم عن مشيئة الله، وهو من ثم حق طبيعي . وكذلك الحرية التي تسمح وحدها بممارسة حق التملك ، والامن ، وعدم المساواة ، والاستبداد، لان دور الحكم محصور في أن يعبر بلغة بشرية ، في الشرائع الموضوعية ، عن النواميس الطبيعية الـتي لا تقبل جدلاً . المستبد يجبي الضرائب الضرورية من الملاكين دون غيرهم ، لانهم دون غيرهم يحصلون على نتاج صاف، فمصالحه ومصالحهم واحدة ، ويجب ان يكون حقه في السلطة وراثياً على غرار حقهم في التملك ، وان لا يؤدي حسابا الا لهم أو لمندوبيهم ولضميره وفاقاً للنواميس الطبيعية .

جاء النجاح عظيماً . وقـد صرح ميرابو ان « الجدول الاقتصادي » يشكل، بعد ابتكار الكتابة والنقد ، ثالث الابتكارات الرئيسية الـتي حققها العقل البشري . فبات مذهب حكم الطبيعة دينا في فرنسا . وتأثرت به جمعية السنة ١٧٨٩ التأسيسية تأثراً عميقاً. وبلغ من اعجاب كارل ماركس بـ « كيناي » ان رأى فيه مؤسس الاقتصاد المعاصر .

بين تلاميذ كيناي المستقلين عن فكرة المعلم ، « تورغو » ، الذي سيصبح وزيراً في عهـد لويس الرابع عشر ، والذي شدّد الكلام على أن العامـل لا يتقاضى في النتيجة سوى اللازم في اللازم لتأمين معيشته ،وهذه هي « شريعة الأجور النحاسية » التي تسمح بتخفيض أسعار الكلفة وتحرم العامل من أمله في الخروج من طبقته وتخلق طبقة من الأثرياء . فرأى تورغو مـع وكيل التجارة وجوب اطـلاق الحرية للفرد لأنه يدرك مصالحه أكثر من كل شخص آخر : « اتركه يعمل ، واتركه يمرّ » .

بيد أن المؤسس الحقيقي لمذهب الاحرار في القرن التاسع عشر كان تلميذ كيناي الأسكتلندي « آدم سميث » (١٧٢٣ — ١٧٩٠) . في كتابه « محاولة في ثروة الامم »(١٧٧٦)، يصف نظاماً طبيعياً يتحقق حيثما تترك الطبيعة وشأنها ، هو في نظره خير نظام . يميل الانسان طبعاً الى تحسين حاله ، وهو خـير من يتبين مصلحته الشخصية : فيجب من ثم ان تطلق له

الحرية. يجب ان لا تتدخل الدولة الا عندما يعجز الافراد عن ايجاد المؤسسات المفيدة للمجتمع . ان هذا العالم جمهورية كبرى مواطنوها منتجون ومستهلكون يرتبط بعضهم بالبعض الآخر ، ويجب ان ينتج السلام من الشعور بهذا الارتباط المتبادل .

يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان تحليله للقيمة يجعل منه سلف الاشتراكيين والشيوعيين . العمل هو المقياس الحقيقي لقيمة البضائع وهو ما يحدد سعرها . في البدء عاد كل هذا السعر للعامل . ولكن حين جمع أحد الافراد رأس مال ، أي أرضاً أو مادة خاماً أو أداة ، واستثمره بواسطة العامل ، احتفظ الرأسمالي بجزء من السعر وأعطى العامل ما تبقى أي الأجر . كل منهما يريد أكبر نصيب ممكن من السعر . فتحديد الاجر هو من ثم نتيجة أخذ ورد بين الرأسمالي والعامل يتحولان الى « صراع بين الطبقات » المتنافسة . « أرباب الاعمال يؤلفون ، في كل مكان وزمان ، ما هو أشبه بتكتل ضمني دائم متماثل للحيلولة دون ارتفاع الأجور » . وقد تعبّس مميث حيال اولئك الذين لا ينتجون : « الملك ... وكافة وزراء العدل وكافة العسكريين عمال غير منتجين ... وبالامكان إلحاق الكهنة والمحامين والأطباء والادباء ... بالطبقة نفسها » . وتعبّس كذلك حيال التجار الذين تناقض مصلحتهم المصلحة الاجتماعية . فكانت كل هذه التحاليل مصدر وحي لكارل ماركس .

التاريخ

تفرغ مؤلفون آخرون الى الأعمال التاريخية الوسيطة التمهيدية ، بالنسبة الى بلاد أو عهد معين ، أو بالنسبة الى البشرية جمعاء : ترتيب الاحداث وتسلسلها ، وهذا ما يعتبر في أغلب الأحيان تاريخاً بحصر المعنى .

ظهرت سلسلة من كتب التاريخ الخاصة : « قرن لويس الرابع عشر » لفولتير (١٧٥١) ، « تاريخ بريطانيا العظمى » لدافيد هيوم (١٧٥٤) ، « تاريخ اسكتلندا » لـ روبرتسون (١٧٥٩) ، « تاريخ اوسنابروك » لجوستوس موزر (١٧٦٨) . لقد تبدلت روح هذا التاريخ منذ مونتسكيو . اعتبر بوفور والمؤرخون السابقون أن لا طائل تحت المعلومات المتعلقة بالحكومات والعادات ؛ يجب الاكتفاء « بترتيب الاحداث وتحديد تواريخها ، وهذا هو جوهر التاريخ » . أما في نظر المؤرخين الجدد ، فالجوهر هو تاريخ الحضارة . وكان الفرنسي فولتير أول من قال بذلك :

« يجب أن لا يتوقع القارىء الوقوف هنا على أدق تفاصيل الحروب والهجمات على المدن المحتلة والمستردة بقوة السلاح أو المساومة والمستعادة بالمعاهدات . فلن نتوقف في هذا التاريخ إلا عند ما يستوقف انتباه كل الازمنة وما يمكن أن يرسم صورة لعبقرية البشر واخلاقهم ، وما يمكن أن يلقي درساً ويحمل على محبة الفضيلة والفنون والوطن » .

الاخلاق ، العادات ، الاعراف ، المعتقدات ، الخرافات ، العادات المستهجنة ، الاكتشافات ،

هذا هو الجوهر[1] . الانسان هو موضوع هذا التاريخ ، وان وجهة النظر هـذه تفضي الى إلقاء نظرة شاملة على تاريـخ البشرية . وهذا ما فعله فولتير في كتابه « محاولة في اخـلاق الأمم وروحيتها » (١٧٥٦) . وكعادته ناقض نفسه مراراً ، وانتهى بصورة خاصة ، هنا كما في كتبه الأخرى ، الى « خواء من الافكار الواضحة » ، ربما لأنه كان يتحاشى التأثر بمظهر واحـد من مظاهر الاشياء بفضل ذكائـه المتفوق . التاريخ محال ، يخضع لاتفاق ، لكوب ماء على فستان ، لأنف غاية في القصر ، ولكنه يخضع كذلك لامراء عظام يصنعونه وفاقاً لمخططات مدروسة ، هم عنايات صغرى حلت محل العناية الكبرى . يشمل التاريخ ، في جملة مـا يشمل ، اربعة قرون عظمى : قرن بريكليس ، قرن اوغسطوس ، قرن آل مديسيس ، قرن لويس الرابـع عشر . وانما يجب ألا يدرس الفتيان الا التاريخ المعاصر ، المفيد وحده . التاريخ يخضع للأهواء البشرية التي هي هي لا تتبدل ، وكل عهد يشكل كلا يكاد يكون مستقلاً عن المـاضي وغير ذي أثر في المستقبل ، ومع ذلك تتقدم البشرية كما لو كان تقدمها خاضعـاً لسنة معينة . ومهما يكن من الأمر ، فقد استهوت مؤلفاته القراء ، فأوحى بفكرة التاريخ الحقيقي وتذوقه ، والقى ضوءاً على احداث كثيرة ، وأثار العديد من المسائل ، وجعل كل المؤرخين مدينين له .

انتهى هؤلاء تدريجياً الى التخلي عن مجرد الاحداث المتماثلة المتعـاقبة في الزمان ، وتوصلوا ، بفضل تقدم دراساتهم وبتأثير العلوم الطبيعية ، الى مفهوم التحولات ، أي مفهوم التطور . فقد أظهر « ونكلمن » ، بكتابه « تاريـخ الفن في العصور القديمة » (١٧٦٤) ، ان الفن يخضع لتطور المخلوقات العام ، يولد ويتفتح ويشيخ ويموت . انه ظاهرة حية . وتصور آخرون تقدماً تحرزه البشرية انطلاقاً من الهمجية نحو كمال العقل . فبعد تورغو و « دائرة المعارف » اللذين طلعا بالفكرة[2] ، ألّف الالماني « لسّنغ » كتـابه « تربية الجنس البشري » (١٧٨٠) ، كما ألف مواطنه « هردر » كتابه « آراء في فلسفة تاريـخ البشرية » (١٧٨٤ — ١٧٩١) . ولكنهما استنجدا بإله مبهم أو بحياة الكون السرية . فجاء ما كتباه بحثـاً فلسفياً في المعقولات اكثر منه علماً بحصر المعنى . أما الفرنسي كوندورسيه فكان أبعد موضوعية منهما في كتـابه « تخطيط لوحة تاريخية لنجاحات العقل البشري » (١٧٩٤) ، فكمل عمل بوفون في « تواريخ الطبيعة » وصاغ سنة التقدم : « ان قابلية الانسان للتكامل تتجاوز في الواقع كل حد » ، وليس لها « من أجل سوى ديمومة الكرة التي القت بنا الطبيعة فيها » ؛ « ولن تسير ابداً الى الوراء » ما دامت ظروف الكرة الطبيعية هي هي دون تبدل . التطور متواصل : « ان نتيجة كل هنيهة حاضرة تتوقف على نتيجة الهنيهات السابقة ، وتؤثر في نتيجة الهنيهات الـلاحقة » . التطور يصدر عن

---

(١) بولنغبروك ، (١٧٥٢) : « التاريخ والفلسفة يعلماننا بالامثال كيف يجب ان نسلك في كافة ظروف الحياة العامة والخاصة » .

(٢) اوضح تورغو في «خطبة في نجاحات العقل البشري» سنة الحالات الثلاث الشهيرة، الحالة اللاهوتية، والحالة الميتافيزيقية ، والحالة الموضوعية ، لاوغست كونت .

اسباب واضحة ومتميزة : يكوّن الانسان باستمرار افكاراً جديدة ، بالجمع بين ما توفره له منها حواسه ، وباتصاله بسواه من البشر ، وبوسائل صنعية ، كالكلام والكتابة والجبر ، يبتكرهـا ابداً ودائماً . ترتسم اللوحة بملاحظة مترادفة تتناول المجتمعات البشرية في مختلف العهود التي مرت بها » ، وستفضي بالانسان « الى تأمين واستعجال النجاحـــات الجديدة التي تسمح له طبيعته بارتجائها » . عشرة « عهود » تعاقبت : ١ . تجمع البشر عشائر وقبائل ؛ ٢ . الشعوب الرعاة ، والانتقال من هذه الحال الى الشعوب الفلاحين ؛ ٣ . تقدم الشعوب الفلاحين حتى اكتشاف الكتابة الابجدية ؛ ٤ . تقـدم العقل البشري في اليونان حتى زمن تقسيم العلوم حوالي قرن الاسكندر ؛ ٥ . تقدم العلوم منذ تقسيمها حتى انحطاطها الناجم عن المسيحية ؛ ٦ . انحطـاط الانوار حتى تجديدها حوالي عهد الحملات الصليبية ؛ ٧ . منذ نجاحات العلوم الاولى ، حين تجددها في الغرب ، حتى اكتشاف الطباعة ؛ ٨ . منذ اكتشاف الطباعة حتى اليوم الذي تمردت فيه العلوم والفلسفة على السلطة ؛ ٩ . منذ ديكارت حتى قيام الجمهورية الفرنسية ؛ ١٠ . النجـاحات المقبلة للعقل البشري . على ضوء هذا التاريخ ، سنعرف كيف نتجنب « آراء سبق الوهم » قبل بهـا اجدادنا ونضمن انتصار العقل والحقيقة والبشرية ؛ « صيحة الحرب : عقل ، تساهل ، بشرية » . وقـد أفاد اوغست كونت في القرن التاسع عشر افادة كبرى ، في مؤلفه حول علم الاجتماع ، من آراء كوندورسيه الذي بدا له ناهجاً نهجاً علمياً مدققا .

أما في الواقع فان كوندورسيه لم يواصل بذلك عمله العلمي بل بشر بالمجيل . كان فولتير قـد حاول وصف المـــاضي وتفسيره ، دون نظرية يجب إثباتها ، ودون فلسفة التاريخ . وأراد كوندورسيه ان يظهر البشرية سائرة ابداً نحو مزيد من العقل ، شرط تجنب المسيحية ، وعبّر عن مفهوم تفاؤلي للتطور كان فعل ايمان عظيما عند انسان يؤلف كتابه منفيـا ومطارداً . وكان يرى تاريخ البشرية معداً لان ينتج ما يحبه حبا تفضيليا . فكان ذلك انتقاما من العاطفة . ان كوندورسيه ، في ما يعنيه ، قد شق الطريق امام مخيلة واختلاجات قلب المؤرخين الرومنطيقيين من امثال اوغسطين تيرّي ، والشعراء من امثال فيكتور هوغو في « اسطورة الاجيـــال » . فكانت فكرة التاريخ العلمي آخذة بالتذال .

«علم المعقولات»

القرن الثامن عشر هو عدو المذاهب الميتافيزيقية الكبرى التي نادى بها القرن السابق . تمثل بلوك ودعى « عـــلم المعقولات » دراسة الادراك البشري . والمقصود هو تحليل العقل للتفكير في كل شيء بسداد وجلاء كبيرين ، ولمعرفة النهج الذي يجب أن يسلكه العقل البشري والمدى الذي يمكنه بلوغه . كان هذا الدرس مبنيا على الملاحظـــة والاستدلال منذ ان أثبت ديكارت أن فعلا واحداً يجوز نسبته نسبة معقولة الى النفس ، هو فعل التفكير : الشعور ، الارادة ، الادراك ، التصور . أقصى بذلك عن النفس الوظائف الانمـائية والمغذية والمطاوعة والدوائية التي قال بها الفلاسفة المدرسيون . لم يعد من حاجة لمعرفة النفس الا الى ملاحظة حالات الفكر . ملاحظة ، استدلال ، انتقال من الاحداث الخاصة الى نواميسها ،

ومن النواميس الى مبادئها، ان هذا الدرس هو علم طبيعي، مستوحى هو ايضا من علم الطبيعيات الذي وضعه نيوتون. هذا العلم يتيح اصدار حكم في ما يُدرك عادة بعلم المعقولات: الافكار حول الله والكون وخلود النفس والحرية والمصير البشري.

كانت السيطرة في القرن الثامن عشر لتعاليم لوك. كل افكارنا تصدر عن الحواس، ومن ثم عن الاختبار الذي يعطينا الافكار البسيطة: البرد، الحرارة، المرارة، الاتساع، الشكل، الحركة. ان افكار الاتساع والشكل والصلابة والحركة والوجود والديمومة والعدد هي، بين هذه الافكار البسيطة، « الصفات الاولية » وتمثل الاشياء كما هي؛ انها تمثيلية، انها صور الاشياء. أما الافكار الاخرى، الالوان، والاصوات، والمذاقات، فهي « صفات ثانوية » تنتج عن الانطباع الذي تحدثه في حواسنا حركات غير محسوسة تصدر عن الاجسام. النظرية حاسية وآلية. انها تثبت قيمة « علم الطبيعة » اذ اننا نعرف عناصره، وتثبت « الصفات الاولية » كما هي في الواقع. لقد تردد لوك حول هذه النقطة الاخيرة: أما تلاميذه فلم يترددوا.

والحال، هاجم الاسقف الانغليكاني « بركلي » (١٦٨٥ – ١٧٥٣) مرتكزات مذهب الآلية هذه. نشرت مؤلفاته الهامة قبل السنة ١٧١٥، ولكنه، حتى موته، أعاد طبعها تكراراً متبعاً إياها بملاحق متممة. فكر في ترددات لوك بصدد القيمة التمثيلية لـ « الصفات الاولية » وبصدد مسألة طرحها « مولينو » على لوك: هل بامكان انسان ولد ضريراً ثم أبصر النور بعد عملية جراحية ان يميز فوراً، بواسطة حاسة النظر، بين كرة ومكعب كان يميز بينهما بواسطة حاسة اللمس؟ أجاب لوك في حينه سلباً. سيضطر الأعمى في هذه الحال الى القيام بالاختبارات والمقارنة حتى يتعلم ان هذا التأثر البصري المعين يقابله ذاك الحجم المعين وتلك المسافة المعينة اللذان عينتهما له حاسة اللمس. اثبت بركلي ان ذلك يصح فينا جميعاً: نحن لا نرى المسافات ولا نرى الأحجام، بل نركبها تركيبا؛ نتعلم بالاختبار ان هذا التغير في امتزاج الألوان والضوء وهذا الحس بمطابقة العين يقابلان تلك المسافة وذاك الحجم. ثم نستخدم هذا الاختبار بحكم صامت لاشعوري. ان هنالك عملا خاصاً بالعقل وحركة لاواعية. في السنة ١٧٢٨، نشر الطبيب « شيزلدن » ملاحظة فتى أجرى له عملية السادّة (الماء الأزرق): قال هذا الفتى ان الأشياء « تلامس » عينيه؛ وان شيئاً بحجم الابهام وضع على مقربة من عينيه قد بدا له وكأنه بحجم الغرفة كلها. ودرست بعد ذلك حالات مماثلة. فكان بركلي من ثم مصيباً: ان ادراك الأحجام والمسافات بواسطة النظر نتيجة الاختبار. الاحجام والمسافات « صفات ثانوية » بالنسبة لحاسة النظر. واعتقد بأن حاسة اللمس وحدها تدركها مباشرة كـ « صفات أولية ».

استخلص بركلي من تحقيقات نهائية نتائج تتسم بمنطق جريء: انما الأشكال البصرية دلائل، أو لغة. ولكنها ليست دليل وقائع خارجية، بل دليل صفات مختصة بحاسة اللمس. تصورات اللون هي دلائل تصورات الشكل والحجم والصلابة التي تعطيها حاسة اللمس. والحال ليست

هذه التصورات مختصة بالجسم اذ ان الحجم يتغير بحسب المسافة وتركيب الأعين، واذ ان الصلابة والرخاوة مرتبطتان بالقوة التي نبديها . التصورات وحدها موضوع معرفة مباشرة . الطبيعة هي التصورات المستقلة عن الارادة التي تتكون تكوناً متعاقباً محدداً ؛ والأجسام هي تركيبات منظمة للتصورات . العقل هو الواقع الوحيد .

ولكن العقل حر : نحن نعرف أنفسنا بوصفنا عوامل احراراً . التصورات المتعاقبة المستقلة عن الارادة تصدر عن عقل متفوق . يضاف الى ذلك ، من جهة ثانية ، ان الأشكال البصرية هي دلائل ، أو لغة ؛ والحال ، كل لغة هي عمل العقل . الأشكال البصرية هي لغة شاملة ، اذن هي عمل عقل شامل ، الله .

باستطاعتنا التأكيد من ثم ان وجود العقول والله ، واللغة الشاملة التي يكلمنا الله بواسطتها، والامكانية العقلية لوحي آخر بشكل كلام ، امور ثابتة جداً . اما علم الطبيعة الآلي فوهم وخداع ، وحساب الكمية الصغرى محال ، لأن التسليم بقابلية التجزئة الى ما لا نهاية له تسليم بأن الاتساع موجود دون أن يقع تحت الحواس ، في حال أن لا وجود الا للتصور الذهني . علم الطبيعيات هو معرفة بعض التصورات المتعاقبة تعاقباً منتظماً .

ناقض بركلي بذلك كل روح القرن . فأراد الفرنسي « كوندياك » (١٧١٥ – ١٧٨٠) ، وهو من أسرة برلمانيين تلقى علومه في اكليريكية سان – سولبيس ، انقاذ مذهب الآلية . كان كرتزيانيا مقتنعا ، فلم يستطع القبول بنظرية بركلي الذي افترض احكاما لاشعورية ، هي مفهوم غامض غير متميز . « يكفيني ان يعترف الذين يريدون فتح أعينهم بأنهم يشاهدون نوراً ولوناً واتساعاً وأحجاماً»الخ. انا لا أرتقي الى ما فوق ذلك لأنني هنا ابدأ بتحقيق معرفة واضحة بديهية». الحواس تنقل الينا تصورات بسيطة نعين لها دليلا ؛ نقارن ونجمع ونبدل هذه الدلائل، التي هي اللغة ، ونستخلص منها تصورات مركبة . كل تصوراتنا ، حتى المخيلة والذاكرة والحكم والبرهان منها ، ليست سوى « التأثر الحسي المتحول » ، وكل القوى تنشأ عن تأثرات حسية ، لا بل قد تنشأ عن أدناها أي تأثر حاسة الشم . ثم حاول ان يعرف كيف ان الكائن البشري ، الممتلك كافة قواه ، سيعرف العالم الخارجي ،فوصل الى مسألة بركلي :ميز بين الادراك البصري الاولي ، الغامض ، حيث ليس للاشياء حدود واضحة ، وبين الادراك البصري الحالي للاشياء المتميزة الموجودة في مكان معين . تُرد النتيجة الى تحليل يجرى باللمس . حاسة اللمس تعرف الاشكال ، وحاسة البصر تدركها ، ولكن دون أي شيء يضاف الى التأثر الحسي الاول ، دون ايحاء من تأثرات حاسة اللمس التي استعانت بها . منذ البدء ، يرى الكائن البشري الاشياء ، ولكنه لا يميزها لانه لم يحللها . الا ان الاشياء موجودة كما يراها بعد التحليل . يعرفها كخارجية بفضل حركة جسمه التي توقفها مقاومة الاجسام الجامدة . اذا كان الجسم الجامد خارجاً عن جسمه ، لا يكون هناك سوى تلامس ؛ واذا لامس جسمه بالذات ، يكون هناك

تلامس في الجزء الملامس والجزء الملامس معاً . هكذا يعرف الانسان جسماً من الاجسام ويفرق بينه وبين الاجسام الأخرى . يستثبت واقع العالم الخارجي والاتساع والحركة والقيمة التمثيلية لتصوراته الذهنية الناشئة عن التأثرات الحسية ؛ بذلك كان « علم الطبيعة » الآلي مضموناً .

اتضحت بالفعل نفسه طريقة العلم . بما اننا نستخلص تصوراتنا المركبة من مقارنة علامات اللغة ، يجب ان يكون هناك توافق تام بين التصورات والعلامات ، وان لا نستعمل أية كلمة لا يكون مدلولها موضحاً ولا يختص بواقع واضح متميز . العلم « لغة مهذبة » . يجب من جهة ثانية أن لا نستنتج بل أن نحلل : الحواس تعطينا كلاً ندركه ادراكاً آنياً غامضاً ؛ ندرك اجزاءه تدريجياً وانفراداً ؛ ونتوصل إلى إدراك الكل نفسه إدراكاً آنياً ومتميزاً . إن في إدراكنا تجزئة وإعادة تركيب ، تحليلاً وتأليفاً . ليست أرفع الطرائق العلمية سوى أشكال لطريقة العقل البشري البسيطة والشاملة. فباستطاعة كل عقل من ثم الانتقال من التأليف إلى التحليل . العلم في متناول الجميع . يجب أن تؤلف المعارف المحصلة طرائق غير استدلالية : « تركيب الاجزاء المختلفة لفن أو لعلم وفاقاً لترتيب تتعاضد فيه كلها وتفسّر الاخيرة منها بالاولى التي هي المبادىء » . يجب ان تكون هذه المبادىء ظواهر معروفة جيداً كالجاذبية الشاملة . إن علم الطبيعة الذي وضعه نيوتون خير مثال للعلم والطريقة .

كان لكوندياك ، بمؤلفاته الكثيرة[1] ، أكبر أثر في علماء زمانه ، وفي جماعة الباحثين في التصورات والافكار ، وفي عدد من المؤلفين من أمثال « ستندال » .

ان ما حاول كوندياك تأمينه ، أي قيمة معرفتنا العلمية وبراهين وجود الله ، الساعاتي « الاسمى » في علم الآليات الشامل ، قد قوضه الاسكتلندي هيوم بحرية زاد منها انه أركن في حياته العملية إركاناً تاماً الى الاعتقادات الطبيعية والبديهية . اهم مؤلفاته هي « بحث في الطبيعة البشرية ، محاولة في ادخال طريقة البرهنة الاختبارية الى العلوم الادبية » (١٧٤٠) و«المحاولات الفلسفية حول الإدراك البشري » (١٧٤٨) . « أراد على غرار كوندياك استخدام طرائق نيوتون: الانطلاق من تقديرات واعتقادات الانسان بغية البحث بالتحليل والاستدلال عن مبادئها، « التي يجب ان تعين في كل علم حدود كل رغبة بشرية حارة في المعرفة » .

قال هيوم ايضاً بمذهب الحاسيين . ان انطباعات الحواس هي الاصول التي تشكل الافكار نسخها . الفكرة الصحيحة هي تلك التي تقابل أو يمكن ان تقابل انطباعاً. ولكن هذا التحليلي الذي لم يعتمد طريقة خاصة قد لاحظ ان هنالك تصورات ذهنية بسيطة دون انطباع مقابل؛ اذا عرضنا على العين سلم ألوان كاملاً باستثناء لون واحد ، فان العين سترى الدرجة الناقصة كما لو

---

(١) ومن بينها « محاولة في أصل المعارف البشرية » (١٧٤٦) ، و « بحث في المذاهب » (١٧٤٩) ، و « بحث في تأثرات الحواس » (١٧٥٤) ، و « المنطق » (١٧٨٠) .

كانت هنالك حركة عقلية خاصة نحو التأثر الحسي وفاقاً لبعض النواميس ، وكما لو كان العقل يسبق المعرفة بواسطة الحواس ، او كما لو كان في العقل شيء سابق للاختبار .

الانطباعات تولد الافكار البسيطة . العقل ينتقل من الافكار البسيطة الى الافكار المركبة بتوارد يتم وفاقاً لمبادىء المخيلة الشاملة ؛ الافكار تتجمع بتشابهها ، باتصال الانطباعات ، لأن احدها يمثل علة يكون الثاني لها معلولا . ان هذه النواميس هي بالنسبة للافكار ما هو ناموس الجاذبية النيوتوني بالنسبة للاجسام ؛ انها اصلية وأولية . ليس من حاجة للارتقاء الى ابعد من ذلك . إلا أن الانسان يبقى حراً ؛ باستطاعته الحيلولة دون تجاذب الافكار ، باستطاعته الجمع تحكماً بين فكرين ؛ يضاف الى ذلك ان الافكار قد تتجاذب دونما مبرر ، كما بالتشابه مثلاً. هنالك خطأ في الحالتين الاخيرتين .

ان هذه التجاذبات تعطينا تصورات مركبة قد لا يكون لها وجود في الواقع . لنأخذ الصلة بين العلة والمعلول مثلاً ؛ فان مراقبة علة معينة (انخفاض حرارة الماء) لن تثبت البتة ان هذه العلة يجب ان تؤدي بالضرورة الى معلول معين (التجمد) . ان احد ملوك سيام لم يصدق يوماً ان هنالك بلداناً يبلغ من تجمد الماء فيها انه يصبح قادراً على حمل الفيل . الاختبار وحده هو ما يعلمنا،الاختبار،أي تعاقب بعض الأحداث الثابتة،أو تكرر بعض الاعادات بشكل معين ، قد يتغير يوماً .

لسنا ندرك ابداً سوى تعاقب الانطباعات والتصورات . ان مجموعة تصورات بسيطة تجمعها المخيلة بحسب تواردها بالاتصال وتلبس اسماً غريباً تعطينا فكرة المادة وقد يكون ذلك خدعة العادة والكلام . فما الاجسام يا ترى ؟ انها اكداس انطباعات متواترة نجمعها بحسب تشابهها ونعتقد انها وقائع دائمة . والنفس ؟ اهي لامادية ، اهي مادة روحية ؟ لعلها ليست سوى سلسلة انطباعات وتصورات متعاقبة تتوارد في الذاكرة ، فتخلق المخيلة وهم ديمومتنا . إلا ان هيوم يعترف بأنه لا يعلم كيف « تتحد احساساتنا المتعاقبة في فكرنا أو في ضميرنا » . ومن هو الله ؟ ان نقد فكرتي المادة والعلة يؤدي الى العلة الاولى والمادة اللامتناهية . التشابه بين جهاز صنعي وبين الكون برهان احتمالي من براهين العلوم الاختبارية ، ولكن التشابه بين جزء محدود وبين كل غير محدود قابل للمنازعة والجدال .

ان هيوم المخيف قد ايقظ « كانت » من « سباته العقائدي » . كما ان «جان – جاك روسو» قد ترك فيه اثراً كبيراً ايضاً بتشديده على الحكم ، على هذه الكلمة الصغيرة « هو موجود » ، التي هي دليل نشاط الانسان . ان « كانت » (١٧٢٤ – ١٨٠٤) الذي كان استاذاً في جامعة كونغسبرغ وعالماً فلكياً وعالم طبيعيات وفيلسوفاً ، قد نشر في السنة ١٧٨١ « نقد العقل الصريح » ، وفي السنة ١٧٨٨ « نقد العقل العملي » وعدداً من المؤلفات الاخرى في الفلسفة والاخلاق والتاريخ والدين. طمح في أن يحدث في علم العقل البشري الثورة التي احدثها كوبرنيك

في علم الفلك وفي ان يغير وجهة النظر تغييراً تاما. اراد ان يثبت ان عقلنا لا يتقبل صورة الاشياء بل يستخدم واقعا لمجهله ليكوّن به الاشياء . وهو ايضـــا يتخذ علم الطبيعة النيوتوني مثالا للمعرفة : سلسلة من الاختبارات المختلفة ، نواميس تربط بين هذه الاختبارات ، مبدأ ترتبط به هذه النواميس . لقد لازمه وتسلط عليه مثل العلوم الطبيعية .

ينطلق « كانت » من تحليـــل الحكم . هنالك القضايا « الاولية » السابقة للاختبار التي لا يحتاج تحقيقها الى الاختبار ، والقضايا « الاستدلالية » المبنية على الاختبار . ان القضايا « الاولية » كلها اعتبرت من قبله تحليليـة : الخبر فيهـا موجـــود وجوداً ضمنيا في المبتدأ أو الاسم ويستخلصه العقل منها بالتحليل . هـــذه هي حال القضايا الرياضية والميتافيزيقية والاخلاقيـة . واعتبرت القضايا « الاستدلالية » كلها تأليفية : الخبر ليس جزءاً من المبتدأ أو الاسم بل يؤدي اليـه الاختبار ويوازي العقل بينه وبينها بالتأليف ، كما في هذه القضية مثلا : الذهب قابل الذوبان بتأثير حرارة تبلغ ١٠٠٠ درجة ، التي هي تأليفية « واستدلالية » .

والحال ، القضية التحليلية « الاولية » لا تزيد المعرفة : انها توضحها . القضية التأليفيـة وحدها هي ما ينميها . ولكن الرياضيات تنمي معرفتنا . اعتقد كانت ، على نقيض دالمبير ، ان « ٢ + ٢ = ٤ » تأتينا بمعرفة جديدة تختلف عن مجرد التأمل في ٢ و ٢ . الرياضيات « أولية » . اذن هنالك قضايا تأليفية « أولية » : الخط المستقيم ، مبدأ السببية ، وغيرهما . اذن هنالك ، قبل اي اختبار ، معطية عقلية وحركة عقلية وفاقا لبعض النواميس ، وهذا عمل غير شعوري بالنسبة لنا . وتوصل « كانت » هنا الى بَدائه بركلي وهيوم : ان افكارنا كلها وقوانا كلها لا تأتينا من التأثرات الحسية . العقل واقع حي سابق للتأثرات الحسية . فبرزت مرة اخرى الافكار المطبوعة .

بعد بلوغ هذه النتيجة ، بات لزاماً التوصل الى واقع العقل هذا . درس « كانت » انطباعاتنا الحسية . ليس باستطاعة حسنا ان يتأثر الا في المكان والزمان . المكان والزمان « اوليان » ، وهما شرطان للانطباع الحسي ، وشكلان من اشكال الحس الحاصل قبل الاختبار . الحس لا يعطينا سوى انطباعات حسية . وحتى نجعل من هذه الانطباعات تأثراً حسياً بما هـو جامد ، ورخو ، وبارد ، وحار ، يجب ان يقيم الادراك ، او النشاط البديهي للعقـــل ، علائق بـين الانطباعات الحسية بواسطة « مفاهيم » ينطوي عليها « اوليا » قبل اي اختبـــار : السببية ، الكمية ، النوعية ، وغيرها . وجود الادراك يستلزم وجود الـ « انا » ، « انا » المتكلم ، الذي هو معطية « اولية » ، قبل اي اختبار ، وشرط الاختبار . وهكذا حلت المسألة التي تركهـا هيوم : كيف يمكن ان تعرف مجموعة الطباعات وكأنها « انا » المتكلم .

ان واقعا خارجياً يحدث الانطباعات الحسية هو شرط التفكير . ولكن التفكير لا يبلـغ هذا الواقع او «نومين» *(noumène)* بحد ذاته . والعقل لا يعرف منه الا ما يصله مركباً بواسطة الادراك ، وفاقاً لمفاهيمه « الاولية » ، بحسب ما اعطـاه الحس في اشكاله « الاوليـــة »، او

« الظواهر » . ان ما نعيه شعوريا هو تركيب يحققه عقلنا انطلاقاً من واقع مجهول . وهكـذا ليس لتصوراتنا الذهنية من قيمة تمثيلية ، فليست هي صورة للأشياء ؛ فانهـار مذهب الحاسيين الاختباري القائل بان الحس اصل المعرفة .

ينتج عن ذلك اننا لا نعرف انفسنا كما نحن . « انا » كل منا ظاهرة نتوصل اليها بالاختبار ، من خلال شكل الزمان « الاولي » ، بحسب مفاهيم الادراك .

لا نستطيـع معرفة العالم كما هو ، كـ *(noumène)* ، بل كما يبدو لنا فقط ، اي كظاهرة . ولذلك نرانا نصل ابداً ، حيال العالم ، الى معارضات او مناقضات . اذا قيل ان العالم متناه لانه يجب ايجاد حدّ للفضاء الراهن ، فبالامكان الاجابة بانه لامتناه لان مكان شيء ما هو نسبي لمكان شيء اخر ، واذا قيل انه متناه لأننا لا نستطيـع الانطلاق من معلول للانتقال من علة الى علة الى ما لا نهاية له ، ولانه يجب بالنتيجة ايجاد علة اولى حرة ، امكن الاجابة بانه لامتناه لان علـة حرة تقطع التسلسل السببي اذا لم تكن هي نفسها معلولا لعـلة اخرى ، ولان علـة حرة تناقض مبدأ السببية ، وهكذا دواليك .

لا نستطيع اثبات قيمة الحتمية المطلقة . انها ناموس من نواميس معرفتنا ؛ وليس اختبارنا ممكنا الا في الزمان الذي تتعاقب فيه العلل والمعلولات تعاقبا لازماً . ولكنها ليست ناموسا من نواميس الكيان : فقد يكون هنالك علة حرة ، خارج الزمان .

لا نستطيع اثبات الله . انه احد تآليف العقل اللازمة . لا نستطيع تصـور كل شيء الا بالنسبة لكائن يستوعب كل واقع ممكن ، يكون بمثابة مثال كامل للاشياء الناقصة . ولكن ، هل ان هذا الكائن اللازم لنا هو موجود حقا ؟ الكون يسير بموجب نظـام يثـير الاعجاب ويفرض كائنا كلي الذكاء وكلي القدرة ؟ لنسلم بكائن كلي الذكاء وكلي القدرة ، الا انه قد يكون محدوداً ، متناهيا . ولكن كل الكائنات غير لازمة الوجود ؛ قد يكون ممكنا ان لا توجد ، ليس لها علة وجود في ذاتها ، انها مرتبطة بكائنات اخرى . يقتضي كائن لازم ، لا يمكن ان لا يكون ، يفسر كافة الكائنات الاخرى ولا يحتاج لان يُفسر . لنسلم بـذلك ؛ ولكن لا يُثبت على هذا الشكل وجود اله ذاتي وخالق ؛ قد يكون الكائن اللازم المـادّة او الها مختلطاً بالاشياء ويظهر فيها . ولكن اكمل كائن يمكن تصوره موجود حتما : اذا انتزع منه الوجود ، فلن يكون الاكمل ؛ تصوره كاملاً هو فرض وجوده . غير ان الوجود لا يزيد شيئا في نظر « كانت » : فان ١٠٠ « تالر » حقيقية ليست اعظم كمالا من ١٠٠ تالر ممكنة .

وهكذا فان علم المعقولات ليس ثابتاً ، وليس علماً . ان ما نعرفه واقعي لا حقيقي . ان علمنا ، المبني انطلاقاً من الوقائع الحسية ، علم مشروع اذ اننا لا نستطيـع عمل شيء آخر ؛ اضف الى ذلك من جهة ثانية انه علم ناجح ، وهذا يظهر بعض التوافق بـين مفاهيمنا والعالم

الخارجي . ولكنه علم ليس له سوى قيمة عملية . لا نستطيع في الحقيقة ان نعرف شيئاً من جوهر الأشياء .

كان مقدراً لتفكير « كانت » ان يصبح منطلق كافة فلاسفة القرن التاسع عشر تقريباً . اعتبر « نقده » زمناً طويلاً وكأنه اكتشاف نهائي يعين الشروط الدائمة لكل معرفة فعلية ويؤلف حد حقل المعرفة بالنسبة للعقل البشري .

توسع العلم

اذن قام رجال ذاك العهد بمجهود علمي جبار . حاولوا تنظيم كافة المعارف على غرار « علم الطبيعة » : الحقوق ، الاخلاق ، كل شيء ، وحتى الجمال . فان الكاهن الفرنسي « دي بوس » قد اسس علم الجمال الجديد بكتابه « افكار نقدية في الشعر والرسم » (١٧١٩) . وفي السنة ١٧٣٥ اطلق الألماني « بومغارتن » على هذا العلم اسم « علم سنن الجمال » .

مهما بلغ من انتشار العلم والروح العلمية ، فانهما ما زالا ، على الرغم من ذلك ، وقفا على اقلية ، وكم في هذه الاقلية بالذات من عزائم تراخت بفعل الانسياق وراء الاهواء . كان هناك علماء زائفون اعتقدوا برجال البحر وبنات البحر والعنقاء المغربة والتنين والوحش البشري والفرس الوحيدة القرن ونشروا اعتقادهم ، وزعموا انهم وجدوا ورسموا بشراً وحيوانات تعيش في الحصباء ، وشاهدوا اصدافاً تولد في الأرض وتنمو فيها . وقد اكد فولتير نفسه انه شاهد ولادة أصداف في ريفه . وكان هناك اساتذة من امثال ذاك الذي فسّر ، في السنة ١٧٦٨ ، في باريس ، في كلّية مونتيغو ، تناسل الحيوانات كما يلي : « ان روح الحيوان الفحل (الكلب مثلاً) تبعث من ذاتها بشعاع روحي مغلف بخلاصة من جذره الخضل : هذا هو زرع الكلب ! » وكان هناك جمهور الطفيليين الذين ازدحموا حول وعاء « متسمّر » بائع الأدوية ، المزود بالقضبان والسلاسل السرية ، واعتقدوا بالشفاء من كافة الأمراض وبالوضع دون الم بفضل قوى مجهولة في المغنطيسية الحيوانية . وكان هناك الفلاحون الذين انقضوا على الكرات الهوائية الاولى ومزقوها شر ممزق ، والصناعيون اليدويون الذين ثاروا على مانعات الصواعق الاولى ؛ وجميع من اعتقد بالسحر والسحرة والعفاريت الوهمية والسحرة المتنكرين بهيئة الذئاب ، اي المحيط البشري الذي طفت فوقه قبضة من الفلاسفة والعلماء .

لم يجمع العلم وقائع جديدة الا باستسلام العقل البشري الذي قبل ، لتفسير الملاحظات ، بمبادىء لم يدركها . ماذا كانت كل هذه العوامل الخفية ، السائل الحراري ، والسائل الكهربائي ، والسوائل العادمة الثقل التي تنطوي على قوة فاعلة ملازمة لها ياترى ؟ حاول ديكارت ان يقضي في كل مكان على هذه الملازمة ، كما حاول ان يثبت بالرهان في كل مكان ما هو خاص ونوعي ، أي ما هو غامض ومغشّى وضمني بغية ردّه الى بعض عناصر مشتركة ، الاتساع والحركة ، أي الى ما هو جلي ومتميز وصريح . فقد بدت السوائل وكأنها تعود بالحالة الفكرية الى ما قبل ديكارت .

ولكن العلم ملك ضمن حدوده . انه يصبح دنيا . فقد برزت الثقة العمياء في العلوم . وان الانسان، الذي بات بواسطة العلم سيد اسرار الطبيعة وقادراً، كما اعتقدوا ، على شفاء الامراض المستعصية بواسطة جهاز الدكتور « ناسم » الكهربائي (١٧٧٤) ، وتمديد حياة الانسان الى ما حد له بواسطة الاوكسيجين ، وتنظيم خير مجتمع بواسطة العلم الاجتماعي ، كان في طريقه الى العصر الذهبي .

obeikandl.com

الفصل الثامن

النظريات الشاملة

« فلسفة الأنوار »

حوالي السنة ١٧٦٠ بدا النجاح وكأنه يحالف « فلسفة الأنوار » التي بناها أولئك الذين أطلقوا على أنفسهم اسم « الفلاسفة » . أوضحو أفكارهم في مآس ، وقصائد ملحمية وتعليمية وهجائية وروايات ومقالات انتقادية عنيفة وحوارات وشروح جمل فلسفية وقواميس . أما مؤلفهم الشامل الاول ، « اجمال فلسفة القرن الثامن عشر » المعد لأن يحل محل « الاجمال اللاهوتي » للقديس توما الاكويني ، فقد كان قاموساً هو « دائرة المعارف الفرنسية » لدالمبير وديدرو ، التي ظهر الجزء الأول منها في أول تموز ١٧٥١ مع خطبة تمهيدية من وضع دالمبير ، والتي انجزت في السنة ١٧٦٤ على الرغم مما وضعته السلطة في سبيلها من عراقيل وعقبات . تألف نصها من ١٧ مجلداً ولوحاتها من ١١ مجلداً . وأكمل الاجمال هذا بكتاب موجز هو « القاموس الفلسفي » السهل نقله لفولتير (١٧٦٤) . أما دائرة المعارف التي أسهم في انجازها ١٣٠ شخصاً من محامين وأطباء وأساتذة وكهنة وأعضاء في الأكاديمية وصناعيين وأصحاب معامل جلهم من أهل اليسار ومن حملة الألقاب الرسمية ، والتي كان ثمنها في متناول البورجوازية الكبرى المستنيره وحدها ، فكانت مؤلفا بورجوازيا . وكان أهم « الفلاسفة » ، الكتبة المتضلعون من جميع العلوم من أمثال فولتير وديدرو ، ورجال القانون من أمثال مونتسكيو ، وعلماء الرياضيات من أمثال دالمبير ، رجالا منحدرين من مختلف درجات البورجوازية أو نبلاء رجال قضاء أو شرع هم أقرب اليها من أهل الجندية . كان تفكير العصر بورجوازيا أكثر منه في القرون السابقة .

ان تفكير هؤلاء البورجوازيين عقلي وموضوعي ونفعي . يريدون في كل شيء البداهة والوضوح والمطابقة للعقل واحترام مبادئه : الذاتية ، عدم التناقض ، السببية ، الشرعية . للعقل قيمة سامية . انه قادر على كل شيء ، ويدرك كل شيء ، ويصدر حكمه في كل شيء . هو الاله الأخير . اما الذين وجدوا له حدوداً ، كفولتير مثلاً ، فقد اعتقدوا ، على الأقل ، ان ليس خارج العقل سوى ليل وخواء ، وانه سبيلنا الوحيد المقبول الى المعرفة . العقل يستدل انطلاقاً من حقائق بسيطة وجلية ، إلا أنه فوق كل شيء ، يراقب الوقائع ويستخلص منها النواميس . يجب أن يقتصر العقل على المعارف المفيدة للانسان : كل ما لا يفيد باطل . اف"

من الرغبة في المعرفة لمجرد الرغبة ! قد يكون هذا التفكير معقداً . ولكنهم لحسن الحظ قد بقوا له أوفياء .

قال معظم « الفلاسفة » بالدين الطبيعي مع إنكار الوحي . اثبت لهم عقلهم وجوب وجود علة أولى لأنه يستحيل الارتقاء الى ما لا نهـاية له من علة الى علة ؛ فهنالك من ثم كائن أزلي يرتبط به كل شيء ويكون بالتالي كلي القدرة . ولكن هذا الكائن الأسمى كلي الذكاء أيضاً ، لأن الكون آلة ميكانيكية تثير الدهشة بتركيبها وتنظيمها : النظام يستلزم ذكاء منظما . ان هذا الكائن الأسمى ، الكلي القدرة والكلي الذكاء ، اله هو . لا نستطيع معرفة هـذا الاله ومعرفة ما هو بالضبط ، بيد اننا نعرف انه موجود : هذا هو المعتقد المشترك بين كافة الأديان ، هذا هو الدين الشامل .

إن الله خلف بالضرورة عمله ناقصاً : فقد لا يميز بين الله وعالم كامل قد يكون هو نفسه الله ؛ الله وحده كامل . ولكن الله الكلي القدرة والكلي الذكاء ، وخالق عالم على مثل هذا التناسق ، قد خلق بالضرورة خير عالم ممكن . اذا كانت هنالك شرور ، ففي سبيل خير أكبر لا ندركه . أطلق على هـذا المذهب اسمه ، « التفـاؤل » ، في السنة ١٧٣٧ . كان فولتير في البدء من تبعته المقتنعين ، ثم بات عدوه العنيد بعـد كارثة الزلزال التي حلت بلشبونة (١٧٥٥) وألف كتابه اللاذع « كنديد » (١٧٥٩) : قـال « كاكمبو » : ما هو التفاؤل ؟ — أجـاب كنديد : إنه الكلف بالتأكيد أن كل شيء جيد في حال أن كل شيء سيء » . منذ هـذا التاريخ أخذ التفاؤل بالانكفاء إلى الوراء .

نظم الله العالم بنواميس أزلية لا يدخل عليها أي تغيير . فلا فائدة إذن من الابتهال اليه ، ولا من حـاجة إلى الطقوس والاسرار . إن ما يجب عمله هو درس الطبيعة لمعرفة نواميسها والعمل بموجبها .

كان بعض الفلاسفـة ماديـين وملحدين : « موبرتوي » ، الطبيب « لامتري » ، ملتزم جمع الضرائب « هلفتيـوس » ، البارون « دولبـاك » الذي كان يجمـع حـول مائدته الملحدين الباريسيين الرئيسيين ويدير منشورات تتميز بالدعاوة الالحادية ، وديدرو أخـيراً بين الفينة والفينة . كل شيء في نظرهم يفسر بالمـادة . المادة أزلية ؛ من طبيعتها تتولد الحركة ونواميسها والنظام الكوني ؛ ومن الحركة يتولد كل شيء ، حتى الفكر . الله افتراض باطل . نظر النـاس الى الملحدين بحلم وتسامح : ففي أشهر روايات القرن « هيلويز الجديدة » لجـان جاك روسو ، يظهر السيد « دي فوطار » ملحـداً خفيف الظل . ولكن هؤلاء الفلاسفة لم يتجاوزوا عـدد أصابع اليد ولم يترك تعليمهم أثراً يذكر .

رأى « معظم الفلاسفة » ان الطبيعة التي خلقها الله ونظمها تجعل البشر يعيشون حيـاة اجتماعية . على العقل البشري أن يكتشف النواميس الطبيعية التي تنظم المجتمعات بغيـة العمل

بوجبها . هنالك حق طبيعي مبني على النواميس الطبيعية . على الانسان ان يعبر عن هذا الحق الطبيعي بشرائع موضوعية . وهنالك اخلاق طبيعية مطابقة للنواميس الطبيعية . على أن على الانسان أن يعبر عن هذه الأخلاق بمبادىء ويجمعها في تعليم طبيعي .

حواسنا توحي لنا اننا موجودون على الأرض لأجل السعادة ، أي لأجل التمتع باللذة : « يجب أن نبدأ بالتفكير في أنفسنا أن لا عمل لنا في هذا العالم سوى أن نوفر لنا فيه احساسات وشواعر مستطابة » . التمتع باللذة حق . « ان محبة النعمى ، التي هي أقوى من محبة الوجود ، يجب أن تكون بالنسبة للأخلاق كما هي الجاذبية بالنسبة لعلم الآليات . الأنانية مرتكز علم الأخلاق . ولكن يجب أن تفهم الأنانية جيداً . العقل يرشدها ويظهر لها « حقيقة عملية واحدة لا جدال فيها هي حاجة البشر المتبادلة بعضهم الى بعض ... والواجبات المتبادلة التي تفرضها هذه الحاجة عليهم . اذا ما افترضت هذه الحقيقة ، اشتقت منها كافة قواعد الاخلاق بتسلسل لازب ... « لعل علم الأخلاق أكمل كافة العلوم اطلاقاً . » هذا هو أساس القواعد الأولية : لا تعمل لسواك ما لا تريد أن يُعمل لك؛ واعمل لسواك ما تريد أن يعمل لك . ومن هنا تشتق قواعد التساهل والاحسان والانسانية ، المتفقة من جهة ثانية واريحية الانسان الطبيعية ، ولكنها تخضع لتدابير حكيمة حتى يجد كل شخص في آخر يومه ان لذته اكبر من المه وان حساب الاخلاق يثبت له ، اذا رجحت كفة اللذة ، انه سعيد حقا . وينجم عن ذلك حلم عام معين : الانسان الذي يتصرف تصرفا سيئا لا يمكن ان يكون سوى انسان ارتكب خطأ . وينجم عن ذلك ايضا الاعتقاد بخلود النفس والجزاء بعد الموت : يخطىء البعض ويعذبونني على غير حق ؛ فمن المخالفة لكمال الكائن الاسمى ان لا يعيض من هذا الضرر في العالم الثاني بنظام مكافآت وعقوبات .

يجب ان تنظم المجتمعات في سبيل سعادة البشر . ولأجل تأمينها عقد البشر فيما بينهم في البدء اتفاقا ووحدوا قواهم ضد الكوارث الطبيعية وضد اعدائهم. لا يمكن ان تنجم هذه السعادة الا عن التقيد بالحقوق الطبيعية الناتجة عن النواميس الطبيعية . فالبشر من ثم يختارون حكومتهم حتى تضمن لهم حقوقهم ، وهنالك عقد اتفاق حقيقي بين الحاكم والمحكومين ؛ وبمكنة هؤلاء استبدال الرئيس الذي قد لا يحترم العقد ويتعدى على حقوقهم او يتغاضى عن التعدي عليها . اذن الثورة حق ايضاً . ولكن على الحكومة ان تتولى كل السلطات للتمكن من القيام بمهمتها . يجب ان تكون استبدادية وملكية في الدول التي تتجاوز مساحة معينة . « قد تقوم بالضرورة ، في الجمهورية ، احزاب من شأنها ان تمزقها وتقضي عليها » . الحكم الملكي « وحده اهتدى الى الوسائل الحقيقية الكفيلة بجعلنا نتمتع بكل سعادة ممكنة وبكل حرية ممكنة وبكل الفوائد التي يستطيع عضو المجتمع ان يتمتع بها على وجه الارض » . على المستبد ان يتلقى تعاليم « الفلاسفة » دون غيرهم . هذه هي نظرية « الاستبداد المستنير » ، التي نشرها ، في المانيا ايضاً ، « رُولف » وكتبة آخرون كثيرون ضمنوا لها نجاحاً كبيراً .

على الامير ان يؤمن حقوق الانسان . حرّية الشخص اولاً : بالغاء الرق والفدادية . يمنح حرية الانتقال والتجارة والصناعة والملاحة والحرية المدنية ، لا الحرية السياسية ، او حرية سياسية محدودة ؛ فالحرية السياسية « خير لم يوجد لأجل الشعب » . لن يكون هنالك حرية فكر ولا حرية دين بل تساهل الى ان يستنير كافة البشر . ويكون هنالك حرية الكلام حتى يستطيع الفلاسفة الاعراب عن آرائهم . اما حيال الآخرين فيجب التصرف بفطنة وبصيرة : لا يمكن لحرية التهجم على الحرية ان تكون حرية . وقد رأينا ديدرو الذي عينه وكيل الشرطة ، «سارتين» ، رقيباً على المؤلفات ، يدرس مهزلة « الهجّاء » لـ « باليسّو » ويطلب حظرها لأنها تستهزىء بالفلاسفة . وكثيراً ما وشى هؤلاء كتابة بمعارضيهم الى الحكومة .

على الامير ان يؤمن المساواة امام القانون ويبطل امتيازات النسب ، فيدفع الاكليروسيون والاشراف جميعهم الضريبة النسبية ، ويحاكمون امام المحاكم نفسها وينالون العقوبة نفسها للمخالفات عينها . وتفتح ابواب المهن كلها لكافة الكفاءات لان المساواة في الحقوق طبيعية ولان من المصلحة العامة ان يعين خيار الرعية في اعلى الوظائف . ولكن الطبيعة حبت البشر بارادة وذكاء وكفاءآت متفاوتة . فينجم عن تفاوت المواهب هذا تفاوت في الثروات هو من ثم طبيعي . والتملك الذي ينشأ من استخدام الحرية هو طبيعي ايضاً ، وهو مقدس . على الامير ان يبقي بعناد على حرمة التملك وتفاوت الثروات . وباستطاعته ان يسند الى كبار الاثرياء والملاكين العقاريين سلطة تشريعية . فيكون هنالك ارستوقراطية الثروة والمواهب . « لجاجات الانوار محدودة » بحسب ما جاء في « دائرة المعارف » ، فهي لا تبلغ الضواحي قط لان الشعب هنا متأخر جداً . عدد اسافل الناس يكاد لا يتغير ... الجماهير جاهلة وبلهاء » . وقال فولتير قولاً اشد قساوة من ذلك : «يقتضي للشعب الاحمق والهمجي نير وفخس وعلف».

يجب ان تكون العدالة اكثر حلما . حريتنا الخارجية محدودة . فنحن نريد من ثم آراء فرضت علينا ، وهذه الآراء تخضع لتأثراتنا الحسية التي تخضع لبيئتنا ووراثتنا : فمسؤوليتنا من ثم مخففة بعض التخفيف . العدالة تستهدف الحث على القيام باعمال مفيدة للمجتمع والحيلولة دون الأعمال الاخرى . يجب إلغاء كل ما هو خطر او غير مفيد فقط : الاستنطاق بواسطة التعذيب الذي يتيح للمجرم القوي ان يفوز بالبراءة ويرغم البريء الضعيف على الاقرار بجرائم لم يقترفها ؛ العقوبات المتروكة لتحكم القاضي او العادمة التناسب والجريمة ؛ العقوبات التي تتناول الجناية على العزة الآلهية ، وهي خطيئة بمكنة الله ان يقتص من مرتكبها بعزل عن القاضي . يجب ان لا يسلم بعقوبة الموت الا اذا كانت السبيل الوحيد لانقاذ حياة اكبر عدد ممكن من البشر . للمتهم الحق في ان يعامل معاملة البريء لا معاملة المجرم ، وللمجرم في ان يعامل بحلم ورحمة ، والاولى للدولة ان تمنع الجرائم بالتربية من ان تقتص من المجرمين . وقد توسع الميلاني « بكاريا » في كتابه « الجرائم والعقوبات » (١٧٦٤) في هذه الآراء التي استوحاها من مونتسكيو و « دائرة المعارف » .

لا يمكن التسليم بالحرب ، وهي آفة البشرية ووصمة عار في جبينهـا ، الا اذا دعت الحاجة القصوى الى امتشاق السلاح في سبيل الدفاع المشروع عن النفس . ولا يكون حينـذاك كل شيء جائزاً للجندي ، الذي عليه ان لا يفعل شيئا يناقض « نواميس البشرية الأزليـة » وان يبحث عن مجده في « سخائه » . على الأمم ، المؤلفة من بشر احرار ، ان تعتبر نفسها كاشخاص احرار تترتب عليهم واجبات الافراد . وقد واصل الأب «دي سان ـ بيير» حتى السنة ١٧٤٣ الدعاوة التي باشر بثها في عهد لويس الرابع عشر في سبيل سلم دائم بواسطة اتحاد دائم بـين كافة ملوك اوروبا : الاتحاد سيحول دون اندلاع الحرب فيما بينهم ؛ وسيحد من التسلـح ، ولن تقسم اية بلاد ، وسيكون للاتحاد جيش مؤلف من مجندي الامم المختلفة لفـرض احترام مقرراتـه ، وسيكون مركز الاتحاد في مدينة السلام ، الحرة والحيادية ، كجنيف مثلاً .

تتقدم الانسانية تقدما مستمراً بانتشار الانوار . التربية ابعد وسائل التقدم اثراً . يجب ان توجهها الدولة لمصلحة الدولة التي يجب ان توفر لها مواطنين تجمعهم روح واحدة ويكونون اهلاً للقيام بوظائف الدولة المختلفة بغية بلوغ مثل اعلى مشترك . يجب ان يتولى شؤونهـا مكتـب خاص خاضع لسلطة الوزير المكلف امر الاشراف على امن عام الدولة . يجب ان تكون التربية طبيعية حسية ، وان تبدأ بالمحسوس ، بالوصف ، حتى تنتقل الى ما هو عقلي ، ان تنطلق مما هو بسيط حتى تبلغ ما هو مركب : استثبات الوقائع قبل البحث عن العلل . يجب ان تكون طبيعية : اي ان تكوّن اجساما قوية بالمعيشة الخشوشنة والتمارين ؛ وعملية : اي ان تستـلزم درس لغة البلاد التي نعيش فيها ، والتاريخ المعاصر ، والجغرافيـة ، والعـلوم الطبيعيـة ، والرياضيات ، وعلم الطبيعة ، والتدرب على العمل اليدوي . وقد شدد الكلام في هذه النقاط مؤلفون كثيرون نخص بالذكر منهم القاضي الفرنسي « لاشالوتيه » الذي وضع في السنه ١٧٦٣ كتابه «محاولة في التربية الوطنية» . اضف الى ذلك من جهة ثانية ان المعرفة في متناول الجميـع : « الحقيقة بسيطة» وبالاستطاعة ابداً وضعها في متناول الجميـع » . هذا ما قاله دالمبير في سياق كلامه عن « التفاضل » في « دائرة المعارف » .

وقعت هذه الآراء موقع الرضى من نفوس الملوك الذين كانوا قد اعلنوا الحرب على امتيازات الكنائس والاشراف والجمعيات . راسلوا الفلاسفة واستقبلوهم . فقد تبـادل فولتير وديدرو ودالمبير الرسائل وملك بروسيا فردريك الثاني وقيصرة روسيا كاترين الثانية . كما اقام فولتير في برلين وديدرو في سان بطرسبورغ .

الماسونية

الا أن ناشر هذه الآراء الرئيسي هو الماسونية . وقد تساءل « بول هازار » عما إذا لم تكن دائرة المعـارف مشروعاً ماسونياً . انتمى الماسونيون إلى نقابات البنائين في القرون الوسطى الذين كانوا يحرصون على الاحتفاظ بأسرارهم المهنية وقبلوا بـأن ينضوي الى جمعيتهم بعض عظماء الأسياد المولعين بمعرفة الأشياء . استمرت محافلهم في انكلترا حتى أوائل القرن الثامن عشر واستمرت معها تقاليدهم وصكوكهم واحتفالاتهم وكتاب رتبهم؛

أما الأعضاء فخليط من مهندسي العمارة المتهنين ، ورجـــال الفكر ، والاشراف . في السنة ١٧١٧ ، انصهرت أربعة محافل من محافل لندن في محفل انكلترا الكبير واستبدلت الماسونية المهنية القديمة بماسونية فلسفية . في السنة ١٧٢٣ ، وبناء على أمر المعلم - الأكبر ، وضع الراعي الماسوني اندرسون « دساتير الماسونيين» التي تعتبر انجيل هـــذه الكنيسة الفكرية والنفعية وقانونها وكتاب فرضها .

تحتفظ الماسونية ، من اصولهـا في القرون الوسطى ، بالرموز والطقوس التي أتتها من الشرق على ما يقال ؛ تعليم الأوليـات ، الأعمدة ، الأقمشة الكتانية المصورة التي تمثل هيكل سليمان ، النجم الساطع ، الزاوية المثلثة ، البركار ، ميزان التسوية (رمز المساواة) ، السر المطلق « تحت طائلة قطع العنق واقتلاع اللسان وتمزيق القلب ؛ وكل ذلك حتى أدفن في أعمق أعمـاق البحر ويحرق جسمي ويحول الى رماد ينثر في الهواء » .

يؤلف الماسونيون من ثم شيعة صوفية ، مما أسهم في نجاحهم .

يريدون اصلاح النظام الأخلاقي والاجتماعي بنظام فكري جديد . يقولون بمذهب العقليين ويحاربون الديانة المسيحية ، ولكنهم يدينون بالدين الطبيعي وينكرون الوحي ويعبدون مهندس الكون العظيم ؛ يجب على الماسوني أن لا يكون لا «زنديقاً ملحداً» ولا « دهريا بليداً» بل ان ينضوي الى « هذه الديانة العامة التي يجمع عليهـا كل البشر » . يتعلقون بالحرية والمساواة ويقولون بمذهب التمع باللذة .

« في طريق تكسوها الأزهار

الماسوني يجتاز الحياة

باحثاً عن التمتع باللذة ...

هتاف الطبيعة ، أيها الصديق ، هو الحرية ...

نحن متساوون دون فوضى وأحرار دون فساد

والخضوع لشرائعنا مرتكز استقلالنا » .

الماسونيون جمعية دولية خاضعة لنظـــام متسلسل السلطات ، وقانونها هو تفاني الأعضاء بعضهم في سبيل البعض الآخر وتبادل المساعدة .

على الرغم من أن البـابا اكليمنضوس الثاني عشر قد أصدر حكمه ، في السنة ١٧٣٨ ، بمنع الماسونية في العالم المسيحي ، ومن أن البابا بندكتوس الرابع عشر قـد جدّد المنع في السنة ١٧٥١ ، فإن انتشارها كان سريعاً وواسعاً . فما لبثت المحافل ، بفضل الأعضاء من تجـــار ودبلوماسيين ، وبحارة وجنود وأسرى حرب وممثلين هزليين متنقلين ، ان تأسست في كل أنحاء العالم ، في« مونس» في بلجيكا(١٧٢١)، وباريس (١٧٢٦) ، وروسيا (١٧٣١) ، وفلورنسا

(١٧٣٣) ، وروما ولشبونة (١٧٣٥) ، وبولونيا وكوبنهاغن (١٧٤٣) ، وجبل طارق وأمريكا منذ السنة ١٧٣١ ، والهند والبنغال . استهوت الماسونية الأعيان والبورجوازيين الميسورين وأعضاء المهن الحرة والفلاسفة مونتسكيو ، وهلفتيوس ، وبنيامين فرانكلن ، « ولالند » ، وفولتير الذي قبلت عضويته في ٧ نيسان ١٧٧٨ في محفل الاخوات التسع في باريس . وانضوى اليها الاشراف باعداد كبرى واحتل بعضهم مركز المعلم الأكبر : دوقية وكونتية انكليز ، والدوق « دانتين » والأمير « بوربون – كونديه » والكونت «دي كلرمون» والدوق « دي شارتر » في فرنسا ؛ والمركيز « دي بلّغارد » ، ياور الملك « شارل – عمانوئيل الثالث دي سافوا » ، ومؤسس محفل « شمبيري » الأول ، وهو المحفل الأم لسافوا والبييمون؛ والأمير دي « سان سيفيرو » ، المعلم الأكبر لمحفل نابولي ؛ «وفرنسوا دي لورين» زوج ماري – تيريز النمساوية وامبراطور الامبراطورية الرومانية الجرمانية المقدسة ؛ وملك بروسيا فردريك الثاني الذي أصبح منذ السنة ١٧٤٤ المعلم الأكبر لمحفل الكرات الثلاث في برلين . وكان هذا الانضواء خير وسيلة لمراقبة هذه الجمعيات السرية وضمان دعاوتها ومساندتها لهم . الماسونية قوة تنشر آراء الفلاسفة وتوحد الطبقات والأمم وتسهم في خلق ذهنية مشتركة تكون منطلقا لأعمال متماثلة .

المسيحية والكنائس

قام في وجه الفلاسفه خصوم أقوياء . وفي طليعة هؤلاء المسيحية عدوهم الأزرق . أخذوا عليها انها تطلب من العقل فوق ما يتحمل . فكيف استطاع آدم ، الكائن المحدود ، أن يهين الله اهانة غير محدودة؟ كيف يمكن التصديق أن الجنس البشري بكليته أصبح مذنباً بفعل خطيئة الانسان الأولى ؟ كيف يمكن للطفل الذي يخلق اليوم أن يكون مسؤولاً عن خطيئة ارتكبت قبله بآلاف السنين ؟ كيف يمكن تصور اله واحد في ثلاثة أقانيم ؟ واله يتجسد ؟ وانسان يقوم من بين الأموات ؟ سخروا بالكتب المقدسة وبرواياتها الغريبة ، الجارحة ، البعيدة الفهم والتصديق ! أليس جلياً أن ليس هناك من كتب موحى بها من الله ، بل مؤلفات من وضع بشر نقلوا آراء عصرهم السائدة ، نقّحت وشوهت وأفسدت تكراراً ، وفاقاً لمقتضيات الزمان أو لدرجة فطنة وانتباه المستنسخين .

وأخذوا على المسيحية انها تعارض الطبيعة وتنصح بالفقر والعمل الجاهد ، والتضحية والتواضع والألم والخضوع . لا بل نسبوا إليها أبوة شواعر غير انسانية : المسيحي يبتهج بوفاة ولده الذي يربح السعادة الأزلية ؛ ويترك قريبه يموت بدون أية مساعدة حتى لا يتغيب عن حضور القداس .

واتهموها بالحاق الضرر بالمجتمع . الأديرة ملاجىء كسالى تحرم الدولة من الفلاحين والصناعيين والتجار . البتولية الكنسية تمنع تكاثر البشر وتحرم الجسم الاجتماعي من المنتجين والمستهلكين

والجنود . إرسال المال إلى البابا يفقر الأمة . الكنسيون يعفون من الضرائب في حال أنهم يمتلكون أراضي واسعة الأطراف ، ويحرمون الدولة من موارد وفيرة . الآراء الدينية تقسم المواطنين : وليس تاريخ الكنيسة سوى سلسلة طويلة من الاضطرابات والحروب . الكنيسة توحي بروح مقاومة وعدم انقياد : على المسيحيين أن يطيعوا الله قبل البشر ، وان يتقيدوا بوصايا الله لا ان ينصاعوا لأوامر الحكومة . ليس المواطنون والحالة هذه بكليتهم للدولة ، وما هو العمل ضدهم ما داموا يتصورون أن ساعة وفاتهم ستكون ساعة سعادتهم الأزلية ؟

ان في مثل هذه النتائج لدليلاً على أن رجال الكنيسة جميعهم مكارون ومراؤون. لا يبحثون سوى عن مصلحتهم الشخصية ، الثروة ، والسيطرة . يتجرون بجهل البشر وخوفهم وضعفهم ويخدعونهم بالأساطير والخرافات ويعيشون على حسابهم ويسخرون منهم .

ثم يطفح جام الغضب . فيتولى فولتير الحملة على الكنيسة : « لنسحق الشائنة » . تلك كانت نزعته طيلة حياته ، ولكنها غدت ، منذ السنة ١٧٦٠ ، شغل هذا العجوز الشاغل . لا شيء يصعب عليه : تبسيط استخفافي ، حذف ، تشويه . فقد صدرت بدون انقطاع ، عن «مصنع فرناي» ، الاهاجي الازدرائية اللاذعة التي كتبت من أجل أولئك الذين يؤثر فيهم المزاح والجناس المستقبح أكثر من البرهان . « كان هدفه تخليف هذه السخرية لشعب اخرق وغليظ قد يألف الضحك أمام ما لا يدركه » . بواسطته خصوصاً « ولدت في القرن الثامن عشر ... ودامت بعد ذلك فئة من الناس لم تعتمد غذاء روحيا سوى محاربة الاكليروس ... واعتقدت أن محاربة الاكليروس قد تكفي لتقويم الحكومات ولجعل المجتمعات كاملة وللايصال الى السعادة » . انتشر الكفران في كل مكان . وقام الباعة الجوالون يزودون النبلاء والبورجوازيين والكنسيين بمخطوطات وكتب تناهض الاكليروس . في المقاهي والحدائق العامة ، سمع جواسيس الأمن الأراجيف الموجهة ضد الكنيسة والدين ، والصادرة عن الكهنة أنفسهم أحياناً .

ضعفت الكنيسة الكاثوليكية . وكانت آنذاك أقل قدرة على المقاومة بسبب تدخل الدولة في شؤونها ، وتسرب روح العصر اليها ، وانقساماتها الداخلية . كان الملوك والأمراء والنبلاء قد أخذوا على عاتقهم ، في كل الدول ، وعلى مر الأيام ، تعيين رؤساء الأساقفة والأساقفة ورؤساء الأديرة وخدمة الرعايا في المراكز الهامة . وغالباً ما اسندوا هذه الوظائف الى غير الابكار من أبناء الاشراف ، أو الى خلائق البطائن دونما نظر جدي الى الدعوة والمؤهلات . فعاش العديد من الأحبار عيشة كبار الأسياد العلمانيين وأحيوا الأعياد والحفلات وشيدوا الأبنية وزاولوا القنص ولجأوا الى الدسائس والدبلوماسية وانشغلوا بالزراعة والمعامل والطرقات والجسور ، ولكنهم اهملوا واجباتهم الرئيسية : نشر الكلام الالهي واعداد كهنتهم وترقيتهم الى الدرجات الكهنوتية . اما الكهنة ، الذين غالباً ما ينتمون الى عامة الشعب ، وتسند اليهم

خدمة أسوأ الخورنيات حالاً ، او ممارسة الوظائف الهامـــة ، لقاء أجر زهيد ، بالوكالة عن الأسقف أو خادم الرعية الغائبين، فكانوا في أغلب الأحيان سريعي الغضب ، خامدي النشاط، قصيري الباع في أمور الدين . فقدت الدروس الكنسية ، في الواقع ، كثيراً من قيمتها . وقـد أصاب أسقف « سواسون » ، « فيتز – جيمس » ، حين كتب الى مونتسكيو ، في ٢٩ ايلول ١٧٥٠ ، ما يلي : «يجدر التفكير جدياً باعادة الحياة الى دروس اللاهوت التي هبطت هبوطاً كلياً، ومحاولة اعداد خدام دين يعرفونه ويستطيعون الدفاع عنه » . وقد أضاف الى ذلك : « الدين المسيحي من الجمال بحيث أنني لا اعتقد بامكان معرفته دون محبته ؛ واذا ما وجد من يجدف عليه ، فهذا دليل على جهله له . » ولذلك استسلم العديد من الكنسيين الى الآراء الجديدة وباتوا يعتقدون ، بقليل أو كثير من الصراحة ، بالدين الطبيعي وينكرون الوحي ، وينادون بالالحاد أحياناً . وفتر ايمان الآخرين ؛ وكف الوعاظ ، بسبب عدم اطمئنانهم وعـدم قناعتهم ، عن التكلم في موضوع العقيدة ، واقتصروا على الكلام عن عموميات اخلاقية مستبهمة . وكان بعض المدافعين عن العقائد المسيحية مملين ، وعادمي الحذاقة ومثيرين للسخرية احيانـاً . ونظم الأب « بلغرين » حقائق العقيدة المسيحية بحيث تنشد وفاقـاً لألحان مألوفة رائجـة . واخيراً كانت الكنيسة قد فقدت اعتبارها بفعل الجدال الكبير الذي قام بين الجنسينيين واليسوعيين . فهؤلاء وأولئك قد تجاهلوا المحبة المتوجبة عليهم . وقد اضعفت اتهاماتهم المتبادلة كلا الطرفين . عالجوا أدق عقائد الايمان في الساحات العامة ؛ فحمل ذلك أعمق الناس جهـــلاً على اصدار حكمه فيها . وقد طلب من السلطة المدنية أن تتدخل في الدين .

في كل مكان تقريبا ، دافعت الدولة مبدئياً عن الكنيسة . كان عمـــل مجلس التفتيش مستمراً في اسبانيا والبرتغال ، ولم ينقطع حبـــل احراق الهراطقة . وفي كل مكان ، كانت هنالك رقابة ، واخطار التعرض لأحكام الأساقفة وجمعيات الاكليروس والعقوبات الحكومية . واتخذت تدابير شديدة احيانا : فان ماري تيريز قد حظرت فهرس الكتب المحرمة لأن مجرد قراءة العناوين قد يثير الرغبة في قراءة الكتب الـتي كان الاولى ان لا يعرف بوجودها نفسه . وفي أوساط البروتستانت طرد غليوم الاول الاستاذ « وولف » من منبره التعليمي في « هال ». وحصلت اعتقالات واضطهادات وابعادات .

ولكن الملوك ما كانوا ليحبوا في الكنيسة إلا ما كان من شأنه أن يخـــدم صوالحهم . فهم وبطائنهم ومراريهم ووزراؤهم قد انساقوا وراء الآراء الجديـــدة أيضاً . وغدت تصرفاتهم متناقضة . فان لويس الخامس عشر ، في فرنسا ، قد عين أمينا للمكتبة « مالزرب » العاطف على حرية أهـــل الادب . كما أن « داميلافيل » المفوض الاول في إدارة الضرائب ، كان يمهر طرود مؤلفات فولتير المعادية للدين بخاتم المراقب العام ، وكان لماري – تيريز المشهورة بتقواها مستشار جنسيني وزوج ماسوني . وكانت مقاومة الدعاوة المعادية للدين ضعيفة . فهبط تأثير الكنيسة . والدليل على ذلك الالغاء على مراحـــل الذي استهدف جيش البـــابا ، أعني به جمعية اليسوعيين

المرتبطة بالبابا بنذر طاعة خاص . فقد ألغيت الجمعية في البرتغال (١٧٥٩)، وفرنسا (١٧٦٤) واسبانيا (١٧٦٧) ، ونابولي ، وبارم ، وأقصي اليسوعيون إلا عن فرنسا . وأرغم الملوك الكاثوليك البابا على حل جمعية يسوع ، في ٢١ تموز ١٧٧٣ . فهتف فولتير : « لن يكون هنالك كنيسة بعد مرور عشرين سنة » .

بيد أن الكنيسة استمرت . وقد استمرت، في الدرجة الاولى ، بفضل هذه الجوقة من الكهنة والراهبات الذين لم تستوقفهم الصعوبات الفكرية ، بل جاشت قلوبهم بتلك المحبة العظيمة للقريب التي هي محبة الله فبذلوا أنفسهم بصمت في سبيل المرضى والعجزة والفقراء والاطفال. واستمرت بفضل هؤلاء المرسلين الذين ذهبوا ، كما في الماضي ، يضحون بحياتهم لتخليص اخوتهم. واستمرت بفضل تلك الالوف من العلمانيين الورعين الذين بذلوا وسعهم ، دونما ضجة ، حتى يحيوا دينهم ويكونوا كل يوم أعظم صدقاً وضميراً وفضيلة وتفانيا ومحبة . فكان لها معترفوها وشهداؤها وقديسوها .

واستمرت كذلك بفضل العلمانيين أو الكنسيين الذين ردوا على الهجوم بهجوم معاكس . أوضحوا أن الايمان بيسوع المسيح ليس مرتبطاً بأية فلسفة : فالقديس اوغسطينوس قد جاهر بالافلاطونية ، والقديس توما الاكويني فضل ارسطو ، وبوسويه كان كرتزيانيا . وان العقيدة المسيحية لا تتنافى والفلسفة الجديدة . وأن كهنة اتقياء كثيرين يقولون بفلسفة ديكارت ولوك ويعجبون بها . انهم مسيحيون « مستنيرون » جمعوا بين حقائق العلم والحقائق المسيحية . فاليسوعي « بوفييه » ، الاستاذ في كلية لويس الكبير ، قد علّم مذهب لوك . وحاول الفرنسيسيون ورهبان القديس فيلبس النيري أن يدخلوا إلى البرتغال مذهب بيكون ونيوتون ويعودوا تلامذتهم النقد والحكم الشخصي . وأعاد الأب « كونارسكي » النظر في برامج الجامعة البولونية : فأوصى بدراسة بيكون وغسندي وديكارت ولوك . وحارب المدافعون عن العقائد المسيحية بأسلحة الفلاسفة نفسها . العقل ؟ أحبته الكنيسة ابداً ودائماً ؛ لا يجوز اقسام اليمين استناداً الى قول المعلمين ؛ يجب أن ينبثق الايمان من الفحص العقلي ، ولا يجوز أن يكون نتيجة الاكراه ؛ لا دين حقيقي سوى الدين الحر والاختياري . يقتضي من ثم التساهل واللين والاقناع . العقل خير ادواتنا ولكنه محدود ؛ هنالك نطاق يعجز عن بلوغه باعتراف الفلاسفة انفسهم . لذلك أوحى الله لنا ببعض حقائق ما كنا لنتوصل اليها بطريقة أخرى . فالايمان بالاسرار ليس من ثم متعارضاً والعقل : لا بل هو العقل ما يستحث على ذلك . النقد التاريخي ؟ انه يثبت صدق الكتاب المقدس ، فان المعجزات ، التي يخبرها شهود عيان او شهود معاصرون يدل كل شيء على صدقهم وسلامة طويتهم ، وتتناول وقائع مرتبطة بوقائع لاحقة ، ويسلم بها حتى اولئك الذين تقضي مصلحتهم بنكرانها ، ترتدي طابعاً لا يقبل الجدل أو الاعتراض . لا ريب في انها تناقض نواميس الطبيعة ، ولكن ليس من تناقض إلا بالنسبة لعقولنا الضعيفة ، لا بالنسبة للادراك الالهي القادر على أن يرى الصلة بين كل الاشياء وان يصهر في وحدة واحدة ما هو

بالنسبة لنا تباعد واختلاف . المساواة في الحقوق ؟ المنفعة الاجتماعية ؟ هذا هو تعليم المسيح بالذات . إن بين البشر ، ابناء الله ، واخوة المسيح ، مساواة طبيعية : وظائفهم غير متساوية ، أما هم فمتساوون . على امرائهم أن لا يجعلوا نصب اعينهم سوى خير الدولة ، وأن يعملوا في كل شيء بمقتضى الشريعة الالهية التي تنهى عن ارتكاب المنكر وتأمر بالاسهام في خير الجميع ، وحتى الاعداء ، كما تأمر بأن نعمل لسوانا من البشر ما نتمنى أن يعملوه لنا. خير علاج للآلام الاجتماعية محبة البشر المتأججة المتبادلة . الدين محبة ، لا تطرف في التقوى . ويخلص الأب جينوفيزي ، الاستاذ في جامعة نابولي ، إلى القول : « أنا أعبد الانجيل الذي جوهره المحبة . آه ما أعذبها هذه الكلمة ، المحبة . وكم تكون حياتنا سعيدة لو انها تسود وحدها ». المحبة ربطت بين ملايين البشر في الكنيسة بروابط لم تقو أية محاولة على تحطيمها .

نزلت بالكنائس البروتستانتية المختلفة ، لا سيما الكنيسة الانغليكانية والكنائس اللوثرية (المانيا الشمالية واسوج مثلاً) ، مصائب مماثلة لمصائب الكنيسة الكاثوليكية : العبودية للدولة ، نقص في عدد الأكليروس وتدن في مستوى تربيته (في بعض البلدان الكلفينية كاسكتلندا وجنيف) ، وفتور في الايمان ، ونزعة عامة الى المذهب العقلي والدين الطبيعي والاخلاق « الطبيعة » . ولكن حدثت عند البروتستانت حركات تجديد أشد عنفاً ، أو أقله أكثر بروزاً منها عند الكاثوليك ، بسبب الاستقلال المتأصل في البروتستانتية : الكتاب هو المصدر الوحيد لكل حقيقة ؛ كل من يقرأه ، مستنيراً بالروح القدس ، يدركه إدراكا تاماً ويحكم بالصواب فيما اذا كانت الكنيسة والدولة متفقتين وأياه ؛ وليس باستطاعة الكنيسة والدولة أن تفرضا شيئاً يعارض الكتاب . هذا ما يفسر عدد ونشاط المنشقين الذين يريدون « تجديد » الحياة الدينية والعودة إلى جوهر البروتستانتية : عقيدة « الخلاص بالايمان » . ان الانسان ، الملطخ بالخطيئة الاصلية ، لا يخلص إلا بالايمان بالمسيح الذي يستتبع الحياة الداخلية بمحبة الاله الحي ، والصلاة والتأمل ، ومطابقة الأعمال للأنجيل . هذا ما قال به بروتستانت المانيا واسوج والدانمارك ؛ والأخوة المورافيون الذين انطلقت شيعتهم من بوهيميا وانتشرت في كافة انحاء اوروبا الوسطى ، وحتى في البلدان الانكلو – ساكسونية ؛ والانجيليون الذين حصروا عملهم داخل الكنيسة الانغليكانية ؛ والميثوديون الانكليز الذين أسسهم « وسلي » في السنة ١٧٣٨ ، وانفصلوا نهائياً عن الكنيسة الانغليكانية في السنة ١٧٩١ ليؤلفوا كنيسة مستقلة تستميل مريديها بنفسها غير آخذة بعين الاعتبار سوى الدعوة الفردية ؛ والبوريتانيون في انكلترا وامريكا الذين انتهوا الى القول بالاختيار منذ الازل للمجد السماوي . في البلدان الانكلو – ساكسونية الآخذة في التصنيع ، بشر هؤلاء المسيحيون الغيارى العمال ببهجة الحياة الداخلية واسلام الامر لله ، وأرباب المصانع بالاخوّة المسيحية . فأوجدوا حركة انسانية طالبت ،على لسان « شارب » و « وليرفورس » ، بحل المسألة العمالية والغاء النخاسة والرق .

الرومنطيقيون

أقامت أشكال أخرى من أشكال الحس اعداء أقوياء في وجـــه فلسفة الانوار . انطوت هذه الفلسفة ، بفعل منطقها المتصلب ، ونقدها الهدام ، وعلم اخلاقها الحذر والمتبصر والمرتكز ابـــداً ، في النتيجة ، الى اانية واعية ، على شيء من الحصر والانكماش والجفاف، انتهى عند كوندياك وهلفتيوس ودولباك،الى ما هو اشبه بهيكل عظمي معرى من اللحم . ما كانت لتشبع حاجات القلب والحس والمخيلة مع انها ، في الوقت نفسه ، كانت تحركها وتطلق لها العنان . نادى الفلاسفة بأن الأهواء جيدة كلها وانها مثار كل نشاط ، كما نادوا بشرعية اشباع الحس ، وحرية الفرد المطلقة في ان يحكم بنفسه ويسلك بموجب أحكامه . زد على ذلك ان فقدان السياق في تفكيرهم كان تشجيعا للفرد على رفض تعاليمهم وعلى سلوك الطريق الخاصة التي يطيب له سلوكها . تكلموا عن الطبيعة كما عن امرأة ، ولكنهم لم يتفقوا فيما بينهم بصددها ؛ فتارة رأوا فيها امـــا جاهدة في سدّ حاجات ابنائها ؛ وأخرى اميرة بعيدة تحتقر الافراد احتقاراً عميقاً ولا تهتم الا للنوع ؛ واخرى ابا هول لغزيا لا يهتم لشيء ويعيش في الصمت حياته العادمة الرحمـــة . يضاف الى هذا من جهة ثانية ان كل ذلك لم يكن سوى مجازات واستعارات اعتبرت تفسيرات اولية،بينما هي فلسفة مدرسية في طور الانحطاط. أرادوا العمل بنواميس الطبيعة ، ولكن كل واحد منهم وجـــد لنفسه نواميسه الخاصة . اذا جمعت بين جميع هؤلاء الفلاسفة خطوط مشتركة كبرى تؤلف « فلسفة الأنوار » ، فهذا لا يعني انهم لا يناقضون بعضهم بعضا في الكثير من النقاط ، وانهم لا يناقضون انفسهم : فهم متقاربون ولكنهم متغايرون . لذلك نشأت حركة تستهدف نبذ كل هذه الاقوال وسلوك طرق أخرى يرشد كلا من القائمين بها وحي فؤاده .

جان جاك روسو

بين العديد من الكتبة الفرديين ، الخياليين والعاطفيين ، المنساقين وراء حسهم ، على شغفهم بالعقـــل في الوقت نفسه ، المنطلقين من شواعرهم ليستلتجوا منها ، بمنطق صارم ، مذهبا فلسفيا كاملا ، وليفرضوا على العالم هذا النتاج من صنع ذاتهم الذي هو اعظم هؤلاء الرومنطيقيين طرا ، ومعـــلم الرومنطيقيين الذين جاؤوا من بعدهم، يبرز جان جاك روسو (١٧١٢ – ١٧٧٨) . ابصر النور في جنيف ، وكان ابنا لساعاتي ؛ هام ابدا على وجهه وتطفل في أغلب الاحيان على العظماء ، وتميز بخجله ، ومن ثم بكبريائه ، وبحس مسقام جعله يجهش بالبكاء عند كل انطباع على بعض القوة ، وبمخيلة سعرى ، فبلغ من تأله ابدا من علائقه بالبشر ولا سيما بالعظماء ، ومن انظمة المجتمع ومصطلحاته وموجباته ، انه سُرّ وحده، بالمقابلة ، وفي وسط الطبيعة ، بالتمتع بذاته وتأثراته الحسية والروايات التي ما انفك عن بنائها في مخيلته حيث خلق على هواه عوالم مصنوعة لاجله . في السنة ١٧٥٠ ، اهتدى الى طريقه ، حين علم بموضوع المباراة الذي طرحته اكاديمية ديجون : « هل أسهم إحياء العلوم والفنون في تنقية الاخلاق » . تشجع روسو بموافقة ديدرو وايحاءاته ، فعالج الموضوع وفـــاز بالجائزة في ٢٣ آب ١٧٥٠ . دافع عن رأي معاكس لرأي الفلاسفة: « لقد فسدت نفوسنا بمقدار

تقدم فنوننا وعلومنا نحو الكمال . » وناقض نفسه : « العلوم والفنون مدينة بنشأتها الى نقائصنا . » على العلماء الحقيقيين ان يديروا الدولة . ولكن لا شأن لذلك : فالعلوم والفنون تضيع الوقت ، وتخنث بالبذخ ، وتفسد الذوق ، وتقتل الفضائل العسكرية ؛ والطباعة آفة ؛ والفلاسفة ممخرقون على الجماهير الساذجة . نشر هذا الهجوم على المعابيد « توعاً من الرعب » . تحدّث عنه فولتير ودالمبير وملك بولونيا ستانسلاس لكزنسكي . ولا غرو في ذلك اذ ان معالج هذه الآراء المبتذلة رجل متشبع من التوراة ومتتلمذ على كبار منطقيي القرن السابع عشر ، ديكارت وبور — رويال ومالبرانش ، تحركه كافة الآلام التي تعرض لها وكافة الاحقاد المتكدسة في نفسه . وهذا ما جعل جملته عادمة السهولة ، خطابية ، مؤثرة في القلوب ، قوية ، ايقاعية ، تعارض اسلوب العصر الموجز الظريف ، وتؤثر وتفرض نفسها . كرس روسو كاتباً . ومنذ ذاك الحين انفصل تدريجياً عن الفلاسفة .

في السنة ١٧٥٤ نشر كتابه « خطبة في منشأ وأسس التفاوت بين البشر » . رسم فيها بدوره ، على غرار الكثيرين من اهل زمانه ، لوحة الهمجي الصالح في حالة الطبيعة ، حالة النعمة : عصلي ورشيق ، متوحّد ، فطري ، سعيد كل السعادة . « حالة التفكير حالة تناقض الطبيعة ... الانسان الذي يتأمل حيوان مفسّد » . ولكن للانسان قدرة مشؤومة على التحسن والتكامل . زد على ذلك ان سنوات المحول وفصول الامطار الطويلة ، وفصول الصيف المحرقة ، والفيضانات والزلازل ترغمه على مشاركة بشر آخرين ليؤلف معهم فرق قنص ثم قبائل رعاة . في الجمعيات يتولد الحسد والشقاق والصلف والاحتقار . يؤدي الاتفاق الى اكتشاف النار ، شرط الزراعة . توجب على البشر ، بعد ان اصبحوا فلاحين ، ان يتقاسموا الاراضي ويقروا التملك الفردي ، ومنذ ذلك الحين ، فقد كل شيء ، وارتكبت الخطيئة الأصلية ، وسلك البشر طريق « تحول النوع » . عن التملك نشأ عدم المساواة ، والمنافسة ، والخصومة ، والكبرياء ، والبخل ، والحسد ، والرداءة ، وصراع الطبقات ، والحروب . بات لزاماً اختيار رئيس ؛ فغدا الرئيس طاغية . نزلت بالبشرية كافة المصائب . وهكذا يتضح ان الخطبة حل لمسألة الشّر . « البشر سيئو الخلق ... الا ان الانسان صالح بطبيعته ... فماذا الذي دفع به الى هذا الدرك من الفساد ان لم يكن التبدلات التي طرأت على بليته والنجاحات التي حققها والمعارف التي حصلها ؟ » عرفت « الخطبة » اوسع انتشار عرفته مؤلفات روسو باستثناء « هيلويز الجديدة » . عرضت في المكتبات اكثر من « العقد الاجتماعي » . واسهمت اكثر من اي مؤلف آخر في نشر عبادة المساواة .

حاول روسو آنذاك الاهتداء الى « حالة براءة وطهارة في الفساد الاجتماعي » .

لا يستطيع الانسان من ثم الاستغناء عن عضد الانسان ؛ لا يستطيع العودة الى الوراء . والحال ، الحالة الاجتماعية ليست طبيعية ، وهي ترتكز الى اصطلاحات . فيجب والحالة هذه تعيين شكل اصطلاحي يكون من شأنه الجمع بين فوائد الحالة الاجتماعية وفوائد حالة الطبيعة . هذا هو موضوع « العقد الاجتماعي » (١٧٦٢) : ايجاد شكل شراكة

يحفظ للأفراد المساواة والحرية اللتين كانتا لهم بالطبيعة ؛ وموضـوع « اميل » (١٧٦٢) : ايجـاد طريقة تربوية تجعل الانسان يحافظ في المجتمع على جودته المطبوعـة وعلى براءة الحالة الطبيعية وفضائلها .

سيعمد مهذب اميل الى عزله عن المجتمع لتربيته تربية فضلى ، ولجعله يعيش بحسب الطبيعة ، ولاستخدام استعداده للبحث عما هو مستطاب وتجنب كل شيء آخر . ستكون التربية من ثم تربية سلبية . يجب الا نعلّم التلميذ شيئاً ، بل ان نسلمه مباشرة الى درس الاشياء كي يتعـلّم على حسابه ما يجب السعي لنيله وما يجب تجنبه . اذا كسر لوح زجاج النافذة في غرفته ، فليتألم من البرد . لا يريد ان يفعل شيئاً ؟ دعه وشأنه ، اذ انه سيمل البطالة . لا ريب في ان الاشياء قـد تعلمـه ما قد لا نريده ، او لا توفر له الدروس المتوخاة . علينا ان نثيرهـا او نبتكرهـا : كالتظاهر باننا ضللنا الطريق حتى يدرك اميل فائدة علم الفلك ؛ او تدبير مؤامرة بالاتفاق مع سكان القرية المجاورة حتى تكرّهه الكلمة المخدشة الآذان الخروج منفرداً . اذا كان سريـع الغضب ، يقال له « كلا » دون اي تفسير . وهكذا اذا ما تربى اميل في جـو من الصـدق والحرية يختلف كل الاختلاف عن جوّ التربية المألوفة ، فانه سيحافظ على الفضائل المطبوعـة في الانسان .

حين يبلغ اميل سن العشرين ، يكشف له القناع عن حقائق الدين . هذه هي « المجاهـرة بحقائق الدين » التي يولي روسو ، البروتستانتي المرتد الى الكاثوليكية ، والساقـط ثانية في الهرطقة ، امرها الى كاهن كاثوليكي من مقاطعة سافوا . يتردّد بين آراء الفلاسفة المتناقضة فيقرر الاسترشاد بـ « النور الداخلي » ، مصمماً على التسليم بكل الحقائق « التي لن استطيـع ، في صدق قلبي ، رفض الموافقة عليها » . القلب الصادق والعواطف الطاهرة هي شرط الحقيقة قبل العقل . يرى نفسه يفكر ، بتصورات ذهنية يولدها عقله بمناسبة التأثرات الحسيـة ؛ دون ان تصدر عن التأثرات الحسية ؛ له قدرة على الحـكم سابقة للتأثرات الحسية ، ليس هو « كائنـاً حسياً وسلبياً ، بل كائناً فاعلاً وعاقلاً » ، على نقيض لوك ومدرسته . كل ما حوله مادة جامدة مع انها خاضعة لحركة منتظمة . ولكن « اذا كانت المادة المتحركة تثبت لي وجـود ارادة ، فان المادة المتحركة وفاقاً لبعض النواميس تثبت لي وجود عقل » . يتوصل من ثم الى العقل الاسمى ، الله . الانسان ، العاقل ، المختلف اختلافاً عميقاً عن الحيوانات ، هو ملك الارض ، مهما قال الفلاسفة في ذلك . ولكن الشر موجود . الله براء منه . اعطى الانسان سمو الكمال ، الحرية . الانسان الحر يوجد التشويش في الطبيعة ويخلق الشر . ليكن عادلا فيغدو سعيـداً . الحاجة الى التكفير عن الظلامات دليل على خلود النفس وعلى العقوبات والمكافآت بعد الموت . قواعد الاخلاق مدونة في اعماق القلب : « كل ما اشعر به خيراً يكون خيراً ، وكل ما اشعر به شراً يكون شراً ؛ الضمير خير حلال للمشاكل ... العقل يخدعنا غالباً ... ولكن الضمير لا يخدع ابداً ... فهو من ثم ، في اعماق نفوسنا ، مبدأ « مطبوع » للعدل والفضيلة .

ميزة الانسان الفريدة في الطبيعة ، والتصورات الذهنية المطبوعة ، والانكماش على النفس لاكتشاف الحقيقة في ذاتنـــا ، في صمت الاهواء ، بعيداً عن العالم ، هذا هو الرأي المعاكس لفلسفة الانوار ، وكان من شأنه ان يصبح انتقام ديكارت الكامل على لوك لو ارتكز كل شيء الى العقل لا الى العاطفة .

سيعمد البشر المحسّون والصالحون الى التشارك، الى وضع « عقد اجتماعي » فيما بينهم، بحيث يحافظون على حريتهم . « الانسان مولود حراً وهو في كل مكان موثق بالقيود ... التخلي عن الحرية هو التخلي عن صفـة الانسان ، عن حقوق الانسانية ، وحتى عن واجباتها ... ان مثل هـذا التخلي يتعارض وطبيعة الانسان » . السبيل الى التوفيق بين السلطة والحرية هو تنازل كل شريك عن كافة حقوقه للجماعة . فلمـا كان كل انسان يهب نفسه الى المجموع ، فهو لا يهب نفسه لأحد ، ولمـا كان ليس من شريك نتمتع حياله بالحقوق نفسها التي نتخلى له عنها ، فإننا نكسب ما يعادل كل ما نخسره ، لا بل نكسب مزيداً من القوة للمحافظة على ما لنا . « الارادة العامة تصنع القانون ، والارادة العامة ليست ارادة انسان، ولا ارادة جمعية من الممثلين ؛ ليست مجموع الارادات الخاصة ولا قرار الاكثرية . في كل فرد ارادة خاصة تحركها الغرائز والاهواء الظرفية؛ وارادة عميقة هي « عمل بحت من اعمال الادراك الذي يرشد في صمت الاهواء الى ما يستطيع الانسان فرضه على نظيره والى مـا يحق لنظيره ان يفرضه عليه » . هذه الارادة متماثلة عند كل البشر ، منزهة عن الضلال ؛ انها الارادة العامة المنبثقة عن الضمير الفردي ، المستخلصة بالهدوء والتفكير في العزلة بعيداً عن الاحزاب والتكتلات والهيئات . لا حاجة لاية جمعية ، أو نقابة ، أو حزب ، بل لهباء من الافراد ، « وإلا لاستطعنا القول ان ليس هناك من بعد مقترعون بعدد البشر ، بل بعدد الجمعيات فقط » .

ان القانون ، وهو التعبير عن الارادة العامة ، كلي القدرة . الدولة ، حيال اعضائها ، سيدة ممتلكاتهم بفعل العقد الاجتماعي ... الملاكون يعتبرون مؤمنـين على الممتلكات العامة ». الدولة حكم في مـا يجب ان تاركه من حرية لكل فرد ؛ باستطاعتها فرض دين مدني ، ضروري للمجتمع، وابعاد من لا يعتنقه ،والحكم بالموت على من يعتنقه « ويسلك كمن لا يدين به » . وهذا يعني فتح الباب على مصراعيه امام الاستبداد .

ولما كان يقتضي عملياً، وعلى الرغم من كل شيء، اصدار قرار بأكثرية الاصوات، فمن شأن العقد الاجتماعي ان يفضي الى طغيان الاكثرية على الاقلية .

حكم روسو بنفسه على الاهمية العملية التي انطوى عليها عمله في كتبه ومراسلاته . فنصح بصراحة الى احدى السيدات بأن ترسل الى مدرسة داخلية ابناً لها غير قابل التأديب . وكتب الى احد الكهنة : « اذا كان صحيحاً انـك تبليت المخطط الذي حاولت رسمه في « اميل » ، فاني معجب بشجاعتك». وكتب عن العقد الاجتماعي « انه لا يمكن ان يوافق سوى دول صغيرة

جداً ، كجنيف ، وبرن ، وكورسكا » . وكتب في مكان آخر : « ان حكماً على مثل هـذا الكمال لا يلائم البشر ». وفي رسالة الى ميرابو ، شبه المسألة التي حاول حلها « بمسألة تربيع الدائرة في الهندسة » .

إلا أن الجمهور لم يعر اهتمامه التحفظات التي جهل معظمها على كل حـال . فغدا روسو إلهاً . وبدّل العادات والاخلاق . فاستحضرت السيدات الجميلات اطفالهن إلى مقصوراتهن في الاوبرا لإرضاعهم على مرأى الجماهير وفي وسط عاصفة من التصفيق ، لان روسو أوصى بارضاع الامهات لأطفالهن . وجمعت الفتيات نباتات الحقول لدرسها لان روسو كان يهوى علم النبات .

استوحى «مورلّي» الحالة الفكرية نفسها، وطلب في « دستور الطبيعة » (١٧٥٥) الرجوع إلى الطبيعة التي تعلم الانسان مشاعية الممتلكات . التملـك مصدر كل الجرائم . والشيوعية ستكون عودة إلى العصر الذهبي . وكتب الاب « مـابلي » ، تلميـذ روسو ، في كتـابه ، « التشريع » ، ما يلي : « اتعلمون ما هو مصدر كافة المصائب التي تنزل بالبشرية ؟ انه التملك». ونصح « بهذه المشاعية المباركـة في الممتلكات » ، اي بشيوعية زراعية من شأنهـا القضاء على الاهواء الانانية وإشعاع الغرائز الاجتماعية. وحاول« مرسييه»، في روايته التي تتناول المستقبل، « باريس في السنة ٢٤٤٠ » ، الحد من التفاوت بالزواجات الاكراهية بين الاغنيـاء والفقراء ، وروّج «بريسو دي وارفيل» ، الذي سيصبح عضواً في « الجمعية التشريعية » و «جمعية الميثاق»، الصيغة التي طلع بها « برودون » : « التملك هو السرقة » .

« كانت »

بيد ان أهم تلامذة روسو شأناً هو « كانت » . فان « مجـاهرة نائب السافوا بحقائق الدين » قـد أوحت له ، بنسبة وحي « هيوم » تقريباً ، بـ « نقد العقل البحت » . كما أوحت له ايضاً بكتابه « نقد العقل العملي » ، واخلاقه ، ودينه ، وسياسته .

حلل كانت الاخلاق للارتقاء إلى مبدئها ، بحسب طريقة نيوتون ، فوجد أنهـا تسلّم كلها بقيمة مطلقة لـ « حسن النية » . « النية الحسنة » هي تصميم على القيام بالواجب نابـع من أعمق اعماق ذاتنا ، اشبه بنزعة من طبيعتنا الداخلية الخفية ، او بمبدأ مطبوع ، كما قال بذلك روسو . يكون الواجب متمماً حين يؤتى العمل بتصميم على القيام بالواجب وحين نحكم في ضميرنا اننا قمنا به بحكم الواجب . لا شأن لطبيعة العمل ، وقد نخطىء بالقيـام به ، فقيمة العمل لا تتولد من المعرفة بل من الشعور المتكون فينا بقيمته ، ومن الحكم الذي نصدره عليه : فقتل والد عجوز ، بحكم الواجب ، في الألم والقلق الشديد ؛ للاستغناء عن شخص لا يجدي نفعاً إبان مجـاعة ، عمل خاطىء، ولكنه عمل جيد ادبياً ؛ ومساعدة انسان بائس لضمان جميله نتيجة للأنانية : ان العمل، المتفق وعلم الاخلاق ، ليس جيداً ادبياً .

الواجب شيء مطلق لا يرتبط بالظروف: « اعمل بحسب مبدأ يمكنك معه ان تريد في الوقت نفسه ان يصبح سنّة شاملة » . هذا هو الامر الجازم ، الناموس الاخـلاقي . يكتشف الناموس

الاخلاقي الذي يستخلص المطلق والشامل من كل بواعث الحس . الشعور يبعث التحريك ، يولّد « النية الحسنة » ؛ ولكن العقل هو ما يرشد الى الطريق . العقل هو القوة التي تجعل الانسان انساناً . على هذا الاخير من ثم ان يحترم العقل والحرية ، في نفسه وعند الآخرين: « اعمل بحيث تستخدم الانسانية ابداً في شخصك كما في شخص الغير ، كغاية لا كوسيلة فقط » .

ولكن الانسان متجمل بحس يجب إشباعه ، حتى يصبح هو سعيداً . ولكنه غالباً ما يصبح تعساً بخضوعه للقانون الاخلاقي . فمن المرجح من ثم ان له نفساً خالدة وان هنالك الهـاً يمنحه السعادة بحسب استحقاقاته . الله هو المشترع الواجب احترامه ؛ العمل الاخلاقي هو في النتيجة العمل الذي يرضي الله ؛ الدين هو التصميم الثابت على تتميم واجباتنا ارضاءً لله . الله هو المبـدأ الاساسي الذي يسلم به العقل العملي بدون برهـان . الكنيسة هي مجموع الناس الحسني النية . الكنائس هي محاولات مقاربة هذه الكنيسة الشاملة .

على القانون ان يسعى جهده لإرضاء حاجات الانسان وميزتي الحرية والعقل فيه . وعليه ان يحترم المبادىء : « اعمل بحيث تتخذ الانسانية هدفاً لا وسيلة » ؛ و « اعمل خارجياً بحيث يتاح لاستخدام ارادتك الحر ان لا يتنافى ووجود حرية كل فرد بحسب سنة عامة » . هذه المبادىء تضمن للدولة ، التي هي لسان حال القانون ، السلطة القسرية على الفرد ، وحق الفرد في مقاومة الدولة ، وحق التملك الذي يعطي كل فرد نطاق ممارسة حريته . كما انها تستلزم النظام الجمهوري . عندما تتبنى كافة البلدان الدستور الجمهوري ، يصبح باستطاعتهـا تأسيس جمعية أمم ، وإقرار حق دولي ، وتأمين السلم الدائم .

عارض « كانت » من ثم مونتسكيو والفلاسفة بفكرة المبادىء المطلقة ، المستقلة عن الزمان والامكنة والظروف ، كما عارض الفلاسفة بعلمه الاخلاقي النابع من القلب المستنير بالعقل ، لا من الحواس المرشدة بالعقل .

كان شارحو الكتاب المقدس من الالمان قـد عادوا مرة اخرى الى درس سبينوزا . كانت ألوهية الكون التي طلع بها ، اي قوله بإله يتميز بصيرورة دائمة ويظهر في كل الطبيعة ، مصدر وحي لـ « لسنغ » و « هردر » . ارتأى لسنغ ان مـا يدعوه البشر حقيقة ليس سوى تعاقب اشكال عابرة لحقيقة تكتشف اثناء تقدمها . وارتأى هردر ان حياتنـا نبض في حياة الكل الاعظم ؛ وان تاريخ البشرية هو تعاقب الرسوم الايجازية التي تقترب بها الطبيعة اقتراباً مستمراً ، بتحول تدريجي ، من المثال الاكمل . لسنا ندرك هذا العمل بواسطة العقل ، بل بحدس ذاتي مباشر . وهكذا فان الفلاسفة الذين اعتقدوا بانهم توصلوا بواسطة العقل الى حقيقة نهائية قـد تعرضوا هنا ايضاً لهجمات رأي سيكون له اعظم أثر في العهد اللاحق .

تأسست في هذه الاثناء ماسونية من الملهمين والصوفيين ، معـادية للفلسفة الانسيكلوبيدية التي رجمتها بالسباب والشتائم . انطلقت موجة صوفية من المانيا وسويسرا واسوج وبلغت شرقي فرنسا وباريس . استوحى هؤلاء الماسونيون العقيدة المسيحية وبحثوا ، بمعزل عن كل كنيسة ، عن

اصلاح نفوسهم بالاتصال بما هو الهي كي يحيوا بحسب الانجيل . ولكنهم انهمكوا في مناجـــاة الارواح ، والتنويم المغناطيسي ، والكيمياء ، والسحر ، وهي كلها ممارسات انفت منها الكنائس المسيحية . انبيـــاؤهم هم الاسوجي « سويدنبورغ » الذي ناجى الموتى واكتشف « الاسرار السماوية » و « عجائب السماء وجهنم » ؛ والسويسري « لافاتير » الذي اعتقـد بامكان حصوله بالايمان على قدرة فائقة الطبيعة ، واتصاله بالله بواسطة التنويم المغناطيسي ، والذي غدا مسكنه في زوريخ ، في السنة ١٧٨٩ ، مزاراً اوروبياً ؛ والفرنسي « سان مـــارتين » ، « الفيلسوف المجهول » ، المعادي للعلم لان الانسان لا يستطيع اكتشاف شيء ، بل الاستذكار فقط ، وعليه ان يستعجل مجيء ملك المسيح بالتأمل والصلاة (الاخطـــاء والحقيقة ، ١٧٧٥) . تأسست جمعيات صوفية في المانيـــا ؛ جمعية « التقيد التام » التي استمالت الامراء والاميرات وكبار الاسياد ؛ وجمعية « وردة الصليب » التي كان ملك بروسيا الجديد ، « فردريك ـ غليوم الثاني » عضوا من اعضائها ، والتي اراد أحد مشايعيها ، وهو طبيب عـام في الجيش البروسي ، التقاط النيازك بغية تكرير بلسم هذه المادة الاولية . وتأسست محافل صوفية في « ليون » «وشمبيري» وستراسبورغ وغرينوبل . وكان كل هؤلاء الصوفيين على اتصال فيما بينهم .

كان هناك إلى جانب الرسل الممخرقون الذين احرزوا نجاحا باريسيا مدهشا . نخص بالذكر منهم « كاليوسترو » الذي استدعى الارواح واسس في ليون محفل « الحكمة الظـافرة » حيث كان التباع ينخطفون امام موسى وايليا اللذين يظهران لهـم ؛ والطبيب الفبيني « مسمر » الذي ادعى شفاء كافة الامراض « بوعـــائه الخشبي السحري » . انتشر المنومون المغناطيسيون ، واليقظون النائمون ، والملهمون ، بأعداد كبيرة في كل مكان . وفي الضباب الفكري استسلم بعض الافراد الى نزعات غامضة . فظن كثيرون بانهم امـام ثورة تشق الطريق التي تؤدي الى العـالم الثاني ، ولن تلبث ان تقوم بتجديد البشرية .

الرجعيون

تحت ستار محاولة في علم الاجتماع ، هي « روح الشرائع » ، حارب مونتسكيو محاولات الاصلاح . حاول ان يثبت ان الدساتير السياسية ترتبط ، وفاقا لنواميس طبيعية حقيقية ، بظروف الاقليم ، والتربة ، ونوع الحياة ، وطبع الشعوب ، واخلاقها ، ودينها ، الخ . فاتخذ من ذلك حجة للتعريض بانه لا يجوز مس الدستور الفرنسي ، وبان هـذا الدستور يجعل من المجالس التمثيلية فياصل شرائع المملكة ومعاوني الملك . عظّم دستوراً يستوحى من دستور الانكليز تقام بموجبه ، بين السلطة التنفيذية التي يتولاها الملـك والسلطة التشريعية التي يمارسها ممثلو الأمة ، سلطة قضائية يتولاها القضاة وتكون حكماً كحارس للدستور . ودافع عن المذهب الذي عاد اليه ، في السنة ١٧٣٢ ، الكونت « دي بولنفيلييه » في كتابه « محـــاولة في طبقة الاشراف » : الطبقات الاجتماعية الفرنسية اجنـــاس بشرية ، الاشراف ينحدرون من الفاتحين الفرنجة ، وعامة الشعب من الغاليين المستعبدين ؛ الاشراف يمتلكون فرنسا بموجب حق الفتح ؛ في البدء كانت الملكية انتخابية ومحدودة ؛ وكان على الملوك ان يطلبوا رأي فدادييهم ؛

ثم اغتصبوا امتيـــازات الاسياد . وطالب مونتسكيو بأن يكون لطبقة الاشراف مزيد من الشأن والأهمية لأنها من صميم الملكية . فكان كتابه ، حتى السنة ١٧٨٩ ، انجيل المعارضة الارستوقراطية الرجعية .

فيتضح من ثم أن فلسفة الانوار ، التي حوربت في كل مكان ، تقهقرت تقهقراً تدريجيـــاً في اواخر القرن . كان العالم على مشارف عصر جديد .

obeikandl.com

الكتاب الثاني

الأنوار والتقنية

بلغ تقدم التقنية في اوروبا ما يجيز لنا الكلام عن ثورة حقيقية . تفوقت اوروبا بالمعدات والتنظيم على كافة انحاء العالم الاخرى . وتحققت الاكتشافات في اغلب الاحيان على يد حرفيين ممتهنين او هواة استحثتهم الحاجات الاجتماعية ، او فقدان التوازن الاقتصادي ، او الازمات على اختلاف انواعها . لم تستخدم معطيات العلم ولم يدرس العلماء المسائل التطبيقية الا تدريجيا : فالبحرية ثم الجيش في النصف الاول من القرن ، والصناعة ، في النصف الثاني منه ، استفادت من الحركة العلمية ؛ وفي اواخر القرن بدا ممكناً ان تصبح التقنية مجموع تطبيقات العلم على الحياة العملية .

الا ان العلم والروح العلمية لم يغبا قط عن الاكتشافات : فأقل مخترعي الآلات ثقافة قد استخدم بعض الحساب والهندسة ، والمبادىء الاولية لعلم الميكانيكيات ، واعتمد في عمله ، على علم او غير علم منه ، طرائق الحكم الشخصي والملاحظة والاختبار ، كما اعتمد مذهب الآلية الكونية . ويمكن القول بصورة خاصة ، نظراً الى الازمات التي حدثت في جميع انحاء العالم ، ان مصدر مكاثرة الاختراعات هو روح القرن باكملها التي تؤلف الروح العلمية جزءاً منها : ايمان بالسعادة الواجب بلوغها على الارض بارضاء الحواس ، بالتقدم المادي ، الذي ثنى عقولاً خيرة كثيرة عن النظريات اللاهوتية والتأملات الدينية ووجهها شطر ما هو عملي ومفيد ؛ ويقين كرتزياني ، انتشر واستحث الجهود الفردية ، بان كل شخص يستطيع ، بمجرد العقل الرشيد ، اكتشاف ما فات «الجدود الغلاظ» ، وان من لم يتعلم في الكليات والجامعات يحتفظ بعقل سليم لان هذا العقل لا يكون معوجاً بـ «آراء المدرسة» ، ولان باستطاعة الانسان تحقيق اكتشافات فضلى بقواه الخاصة وحدها ، وحذر من الكتب ، ولا سيما القديمة منها ، وميل الى التفحص عن الاشياء نفسها ؛ ونزعة أنمتها الكرتزيانية والدروس الكلاسيكية الى الارتقاء في كل شيء عن الوقائع الى المبادىء البديهية واستخلاص النتائج الواجبة منها وفاقاً لترتيب صارم يتحقق في الوقائع . وقد لعبت الحاجة الى الوضوح والترتيب دوراً هاماً في بعض النجاحات التقنية . فباشمئزاز ، واي اشمئزاز ، فضح المدفعي «ديكودراي» الفوضى القديمة في معدات المدفعية ، وذاك الخرق المفرط الذي لم يمكن النظر اليه الا كما الى نتيجة همجية آبائنا القدماء ؛ وباحتقار ، واي احتقار

مستهزىء ،وصف «سورلافيل» الفوضى القديمة في كتائب الفرسان : « ان مثل هذه البلبلة اشبه بفوضى البرابرة » . فتحقق معظم النجاحات التقنية بفضل انتشار الروح الجديدة.

بيد ان الانطلاقة الاقتصادية ، على نقيض العلم ، قد تركت اعظم اثر في التقنية . وان لنا في انكلترا ، حيث تحققت اهم الاكتشافات التقنية ، خير مثل على ذلك . توسعت التجارة الانكليزية في ما وراء البحار توسعاً كبيراً بعد الانتصارات الانكليزية، اي بعد معاهدتي اوترخت (١٧١٣) ومعاهدة باريس (١٧٦٣) . قفزت الاستيرادات الانكليزية من ٦ ملايين جنيه سترليني في السنة ١٧١٥ الى ١٩ مليونا في السنة ١٧٩٠ ، كما قفزت التصديرات من ٧ ملايين جنيه سترليني ونصف المليون في السنة ١٧١٥ الى ٢٠ مليوناً في السنة ١٧٩٠.والحال ان ارباح هذه التجارة هي ما يوفر رؤوس الاموال للصناعة . فصناعات الحديد الاولى في جنوبي ولاية «وايلز» هي عمل تجار الشاي وتجار آخرين من بريستول ولندن . ومعظم التجهيز الصناعي في وادي «كلايد» عمل تجار التبغ في «غلاسكو» . وانطلقت التجارة الداخلية بدورها انطلاقة كبرى ، بفضل انشاء طرقات حدثت عليها ثورة صامتة ، هي الاستعاضة عن حيوانات النقل بعربات تزيد من حجم النقليات وسرعتها . وافادت التجارة كذلك من فتح الاقنية الذي خفض سعر الفحم المسلم في «منشستر» الى نصفه في السنة ١٧٦١ . هي الاقنية ما اتاح استثمار المناجم والمحاجر والاحراج . وعلى ضفافها قامت الصناعات وتحققت اعظم التطورات في التقنية الصناعية الانكليزية، عند «ماثيو بولتون» صانع آلات «وات» البخارية ، وعند «صموئيل ووكر» ، متعاطي صناعة استخراج المعادن وتنقيتها ومعالجتها ومجهز الجنود بالاعتدة،وعند «ودجوود» الخزاف العبقري. ولكن ما ترك اثراً مباركاً في التقنية هو كذلك توظيف الصناعيين لارباحهم في مشاريعهم ، وانخفاض معدل الفائدة الذي هبط من ٥ ٪ في السنة ١٧١٤ الى ٢,٥ ٪ في السنة ١٧٥٧ ، فادى ذلك بالنتيجة الى مضاعفة قيمة رؤوس الاموال المستقرة ، وتزايد عدد السكان الذي ارتفع، في انكلترا وولاية وايلز ، من ٥ ملايين ونصف المليون في السنة ١٧٠٠ الى ٩ ملايين في السنة ١٨٠١ ، وضآلة عدد العمال الاكفاء التي دفعت الى اختراع الآلات .

الفصل الأول

التقنية العسكرية

يجب ان تأتي التقنية العسكرية في الدرجة الاولى لان المعاصرين أعاروها اهتمامهم قبل كافة التقنيات الاخرى . اجل كان هنالك ، في كافة انحاء اوروبا ، اشراف يتصلون باشراف القرون الوسطى من العسكريين وينظرون الى الجندية كما الى الحرفة النبيلة بالذات . ولكن هذا الالتفات كان تعبيراً عن حاجة دائمة ايضاً : اذ ان الدولة ، بدون جيش قوي ، لا تلبث ان تزول من الوجود ؛ الفن العسكري يستطيع وحده ان يؤمن للشعوب كيانها واستقلالها وأمنها ، اي المنافع التي لا منافع بدونها؛ الحرية الاولى هي حرية الدولة؛ اذا تعرضت هذه الاخيرة للاخطار، لا تكون حريات المواطنين سوى وهم باطل .

السدنيا

ان تاريخ التقنية العسكرية في القرن الثامن عشر هو تاريخ « التقدمات المتتالية المحققة في حقل فن الحرب في سبيل استخدام البندقية والمدفعية الصقيلة خير استخدام » . اخترعت البندقية في القرن السابق . استخدمت في المانيا منذ السنة ١٦٨٩ وفرض استخدامها في فرنسا منذ السنة ١٦٩٩ ، فحلت نهائياً محل البندقية القديمة ذات الفتيلة في السنة ١٧١٥ ، واغنت عن فرق حاملي الحراب بفضل الحربة ذات « ماسورة الوصل » المتممة لها . لم تكن ابعد مرمى من البندقية القديمة : ٣٠٠ خطوة كحد اقصى و ١٨٠ خطوة لتأثير بفائدة . ولكنها كانت اخف واسهل استعمالاً . وبفضل طريقة اشعال النار فيها بواسطة زناد مزود بسوادة ، لم تشكل خطراً على المجاورين بل اتاحت للجنود اطلاق النار متقاربين بعضهم من بعض . يضاف الى ذلك انها كانت اسرع حشواً . فمنذ السنة ١٧١٥ ، بات باستطاعة الجندي اطلاق النار مرة كل دقيقة . وفي السنة ١٧٤٠ اتاح اعتماد القضيب الحديدي ، وهو اصلب من القضيب الخشبي القديم ، حشو البندقية بالبارود والرصاص وما يفصل بينهما دون احتياطات كبرى ، كما اتاح توفيراً في الوقت ؛ فانتقلت سرعة اطلاق النار الى طلقتين او ثلاث في الدقيقة . وفي السنة ١٧٤٤ ، تمكن الجندي ، بواسطة الخرطوشة ، من ان يطلق ثلاث طلقات كل دقيقة في اي وقت من الاوقات تقريباً .

المدفع الصغير

كانت المدفعية مؤلفة من مدافع برونزية ، صقيلة من الداخل ، تحشى من فوهتها بعيارات ٤ و ٨ و ١٢ و ١٦ و ٢٤ و ٣٣ لبرة لاطلاق القذائف بخط مستقيم ، ومن مدافع قصيرة للاطلاق المنحني ، الضروري ضد الجيوش المتمركزة وراء المتاريس او في الخنادق . وكانت تقذف بمعدل ثلاث مرات في الدقيقة للمدافع من عيار ٤ لبرات ، او مرة او اثنتين للمدافع الاخرى ، قذائف حديدية كروية او مستطيلة ، ملأى او فارغة ، وعلباً من التنك تتمزق في الهواء وتمطر على العدو القطع الحديدية المحشوة بها . تراوح مرمى القذيفة بين ٦٠٠ و ١٨٠٠ متر ، والقطع الحديدية بين ١٥٠ و ٦٠٠ متر . كانت القذيفة من عيار ٤ لبرات تخترق بين ٦ و ٨ اشخاص على مسافة ٣٠٠ خطوة . وزاد المدفعيون من فعالية القذيفة بجعلها تثب بعد اصطدامها بالارض بفضل احناء المدافع احناء معينا ؛ وكان من شأن القذيفة ان تثب خمس او ست وثبات بين صفوف المشاة وتحدث خسائر فادحة . ولكن هذه المدفعية كانت عادمة الضبط جداً ؛ فالانحراف عن الهدف كان يبلغ سدس المسافة . وكان ممكناً ، بحسب العيارات والمسافات ، ان تسقط القذيفة بين ٥٠ و ١٥٠ متراً امام او وراء الهدف . وكانت المدفعية بصورة خاصة ثقيلة جداً ؛ فالمدفع من عيار ٤ لبرات كان يزن ٦٥٠ كيلوغراماً ؛ والمدفع من عيار ٣٣ لبرة ٣٠٨٥ كيلوغراماً . وكان يقتضي لجرها حيوانات مقرونة قوية . وبعد ان توزع المدفعية على مراكزها ، المدافع الخفيفة والمتوسطة صفاً واحداً في الجبهة ، والمدفعية الثقيلة مجموعة في كلا الجانبين للتشبيك نيرانها امام الجبهة ، لا تتحرك الا في ظروف استثنائية نادرة . لم يكن باستطاعتها مرافقة المشاة في حركتهم الاندفاعية الى الامام ، وكانت تتوقف عن مساندتهم حين تصبح الحاجة الى نيرانها ماسة جداً ؛ كما لم يكن باستطاعتها اللحاق بهم في حال تراجعهم ، فيستولي عليها العدو دونما صعوبة .

الحرب في السنة ١٧١٥

اصبح الجندي الراجل ، منذ ذاك التاريخ ، سيد ساحة المعركة : رصاصته تخترق آلات الوقاية المعدنية وترغم الفارس على البقاء بعيداً ريثما يتاح للجيش مواجهة هجوم جانبي مفاجىء ؛ يتمتع بسرعة الحركة التي لا تتوفر لمدفعية يجمدها ثقل وزنها في الارض ؛ الخيالة والمدفعيون لا يعملون الا لأجل المشاة : انهم معاونوهم . فرق المشاة سيدة المعارك . كان من شأن البندقية ، منذ السنة ١٧١٥ ، وحتى قبل هذا التاريخ ، ان تقلب فن الحرب رأساً على عقب . وانما توجب مرور قرن كامل تقريباً للاستفادة من نتائج الاختراع الجديد ، وهو نابليون بونابرت فقط من اوصل التطور البادىء الى كماله .

في السنة ١٧١٥ ، كان الجيش ينظم صفوفاً في ساحة الوغى لمعاركة الاعداء بالاسلحة النارية . لفت انتباه القادة العسكريين سرعة اطلاق النار بالبندقية . فوضعوا نصب اعينهم اقامة ما يشبه سماطاً من الرصاص ، امام المشاة ، لايقاف العدو في حالة الدفاع ، ولايقاع الاختلال في نيرانه وإتاحة التقدم ، في حالة الهجوم . كان على المشاة ، عند تلقي الامر بذلك ، ان يطلقوا نيرانهم

في آن واحد دونما تسديد تقريباً ؛ فالجوهر لم يكن الضبط ، بل السرعة ، لاقامة سور من نار. نظم القادة من ثم فرق المشاة ، في ساحة الوغى ، صفوفاً طويلة متوازية في وجه العدو . إلا انهم ابقوا على تنظيمات لم توجد إلا لاسلحة أخرى . فكما فعل اسلافهم ، في زمن البندقية القديمة ذات الفتيلة ، نظموا الجنود ستة صفوف على اربع أو خمس خطوات بين الجندي والجندي وبين الصف والصف حتى يستطيع كل صف اعادة حشو سلاحه بينما تطلق الصفوف الاخرى نيرانها الواحد بعد الآخر ؛ ولم يكن من حاجة لكل ذلك بعد أن تأمنت سلامة الاطلاق وسرعته بواسطة البندقية . وأرادوا جيشاً منظم الصفوف ، كما في زمن السلاح الابيض عندما كانت فاعلية الصدام تستلزم ان يواجه الصف ذلك الصف العدو في آن واحد . واستمروا في تحريم عكس نظام الصفوف : لم يسمح قط بأن يوضع الى الشمال جنود تعودوا البقاء الى اليمين ، وأن يوضع في الصف الاول جنود كانوا عادة في الصف الثاني ، وهو تقليد يعود الى زمن توجب فيه وضع الرجال الاقوياء في المقدمة لاختراق صفوف الاعداء . فنجم عن ذلك بطء عظيم في اصطفاف الجيش للقتال وتنظيم صفوف الجنود وفاقاً للمسافات المطلوبة ؛ وحاجة الى الانتظام بعيداً عن العدو ، والانتقال الى ساحة الوغى عبر الارياف في مسيرة لا يفوت العدو سيرها ؛ واستحالة إرغام العدو على الاقتتال اذا ما هو أراد الانسحاب ، لان المحافظة على تنظيم الجنود وفاقاً للمسافات المفروضة توجب السير ببطء والتوقف مراراً ، فيتمكن العدو ، في هذه الاثناء ، من الابتعاد صفوفاً طويلة ضيقة بسرعة المشاة العادية ؛ واستحالة المناورة في ساحة المعركة ، واستحالة مطاردة جيش الاعداء وسحقه ، وبالتالي الاضطرار الى اعتماد « ستراتيجية اللواحق » ، أي الى مهاجمة مستودعات العدو ومصانعه الحربية وطرق مواصلاته وكافة المدن المحصنة ، الى أن يعجز جيش الاعداء عن التموين والانتقال ؛ وحرب بطيئة جديدة ، لا نهاية لها . وكانت النتيجة الاولى لتحسين المتاد تجسيم نواقص الجيوش القديمة . فان الصفوف الطويلة في اوائل القرن الثامن عشر كانت اقل مقدرة على المناورة منها في جيوش تورين وكوندبه .

الجيش البروسي

هم البروسيون من ادخلوا التحسينات الاولى . كانت الحرب صناعة بروسيا الوطنية ، وكانت نخبة البروسيين تقف ذاتها على الفن العسكري . تحقق معظم التقدمات الرئيسية في عهد « فردريك ـ غليوم الاول » ، « الملك الرقيب » (١٧١٣ ـ ١٧٤٠) ، على يد احد خبراء حروب لويس الرابع عشر ، الامير « دانهالت ـ دشو » . منذ السنة ١٧٢٠ ، اعتمد الجيش البروسي رسمياً بعض التدابير العسكرية التلقائية التي اعتمدها الضباط والجنود في ساحة المعركة في السنوات الاخيرة من حرب وراثة عرش اسبانيا : « الاصطفاف الدقيق » ، « والاصطفاف المرصوص » . نظم الجنود ثلاثة صفوف فقط ، جنود الصف الاول جاثين ، وجنود الصف الثاني واقفين منحنين ، وجنود الصف الثالث واقفين مستقيمين ، يطلقون نيرانهم تتالياً . وقد سبق لهذا التنظيم ، الذي فرضه عدد الجنود المحدود في اعقاب الخسائر الفادحة ، ان ثبت كفاءته ، على الرغم من الاصطفاف « الدقيق » ، بفضل البندقية .

فأتاح ، بعدد أقل من الجنود ، حماية جبهة طويلة والحؤول دون اندفاع العدو بأعداد كبيرة. ورصت الصفوف بحيث تتماس المرافق مسافة ، وتماس الركبة حربة الجندي في الصف الامامي ، رغبة في مضاعفة كثافة النيران. فسهلت بالفعل نفسه عمليات الاصطفاف والانتقال من الصف سلفة سلفة الى نظام خط الجبهة .

كان المشاة البروسيون يبلغون ساحة المعركة صفوفاً طويلة ضيقة ويجانبون الخط الذي سينتشرون عليه صفوفاً متوازية في وجه العدو . وفي الصف الطويل ، تفصل بين الفرقة ، المنظمة مسبقاً وفاقاً لمراكزها ومراكز افرادها في الجبهة ، عن الفرقة السابقة مسافة تعادل المسافة التي ستحتلها في الجبهة : وهذا ما يعرف بالصف الطويل ذي المسافة الكاملة . ثم يتوقف الصف الطويل هذا . فتصبح كل فرقة امام العدو ويحتل افرادها مراكزهم في الصفوف بحركة تحولية ذات مدار ثابت يدور فيها أحد الجناحين بينما يبقى طرف الجناح الآخر في مكانه . وقد سهلت هذه الحركة الخطوة الموزونة . وبعد الاصطفاف للمعركة يتسلم كل زعيم (كولونيل) « وجهة نظر » يوجه إليها علمه ، بمراقبة بمباشي (ماجور)، فتحتفظ الاعلام ، وبالتالي الفرق، بصف مستقيم دقيق . وكان الهجوم يشن مشياً لا ركضا ، رغبة في المحافظة على ضبط الصفوف ، تطلق فيه النيران على دفعات منتظمة ، باسناد مؤخرة البندقية الى الخاصرة رغبة في كسب الوقت والحيلولة دون حدور الكتف (اطلاق المرشة) . وعلى بعد ٢٠ خطوة يطلق المشاة نيرانهم مرة اخيرة على العدو ويهجمون عليه بالحراب ، إذا هو لم يتقهقر بعد ، ويزيد من أثر نيران المشاة استخدام المدافع الخفيفة أو المدافع الاسوجية التي كانباستطاعة المشاة اطلاق نيرانها باليد، والتي كانت تحتل المسافات الفاصلة بين الفرق . وأهملت المدافع الثقيلة من عيار ٣٣ لبرة. واستعملت المدفعية البروسية المنهضة ، والفشكة ، أو خرطوشة المدفع ، واشتملت على نسبة كبيرة من المدافع القصيرة . أما الفرسان البروسيون، الذين توزعوا كواكب كبيرة على صفين، فكانوا أول من اعتمد الكرة قناصاً رغبة في التخلص من نيران العدو في اقصر وقت وفي مضاعفة قوة الاصطدام . يندفعون نحو جانبي العدو بعد ان يكون قد اضعف بنيران البنادق والمدافع . دفاعهم نيران ثابتة ، وهجومهم نيران متحركة الى الامام .

اما فردريك الثاني (١٧٤٠ — ١٧٨٦) ، الذي استخدم جيش ابيه ، فقد اخطأ باعتماده السلاح الابيض دون غيره ، وباصدار الاوامر للجيوش بالهجوم دون اطلاق النار ، رغبة منه في سرعة تقدمها . ولكن جيوشه أوقفت ابداً بنيران العدو بعد تكبد خسائر فادحة بالارواح لا سيما بين الضباط . لذلك لم يلبث ان تخلى عن خطة الهجوم بهذا السلاح . وقد كتب في السنة ١٧٦٨ ، في « وصيته العسكرية»،« هذه الجملة الفصل : « إنما تكسب المعارك بتفوق النيران » . وبلغ من اقتناعه بذلك انه سير مع طلائع الجيوش مجموعات كاملة من المدفعية تضم مدافع ثقيلة من عيار ١٦ و٢٤ لبرة . فكانت النتيجة ان هذه الطلائع لم تتوقف أمام القرى المحصنة التي كان باستطاعتها قهرها بالمدفع ، بينما كان مشاة الامم الاخرى يوقفون اندفاعهم ويمنون بالخسائر امام

الخنادق والمتاريس . وكان اهم ما ادخله على فن الحرب الاستعاضة عن « الاصطفاف المتوازي » « بالاصطفاف الازور » . فحاول ، في كل المعارك تقريباً ، تسيير فرقه على طريقة الادراج ، اي انه ، إذا مـــا كان مصمماً على التوصل الى نتيجة لجهة الشمال مثلاً ، يجعل الفيلق الشمالي الاول متقدماً بعض التقدم على الثاني ، والثاني على الثالث ، وهكذا دواليـك ، بحيث يكون كل فيلق منحرفـاً بعض الانحراف عن الفيلق السابق من الشمال الى اليمين . ويعجز العدو ، بسبب الصفوف المرصوصة ، عن تمييز التباين في الابعاد ، ويلتظر الجيش البروسي ، كالمعتاد ، على جبهة موازية لجبهـته . فيتوقف البروسيون فجأة ويصطفون بسرعة في جبهة « زوراء » بالنسبة لجبهة العدو ، بينما يضع فرديك فرقه الاحتياطية وراء الجنـاح المتقدم فيصبح اعظم قوة من العدو في هـذه النقطة ويستطيع مهاجمته بأعداد كبيرة والالتفاف حواليه والتغلب عليه ، فلا يستطيع العدو القيام بأية حركة باتجاه الجناح البروسي الضعيف ، وليس له متسع من الوقت لاعادة تنظيم صفوفه ومواجهة الهجوم الجانبي .

كان اثر البروسيين كبيراً في جيوش الاعداء بفعل انتظام انطلاق نيرانهم وسرعة حركاتهم . فلم يكن نادراً ان تحتل صفوفهم الطويلة مراكزها في الجبهة في عشر دقائق . وترد هذه السرعة المدهشة الى الدقة في اعداد كافة الحركات مسبقاً والى طول الاناة في تلقينها الجنود . فيصبح الجنود أشبه بآلات متحركة قادرة على القيام بحركاتها المعتادة بكل سرعة وفي اية حـــال من الاحوال . وقد درج فردريك الثاني على مقارنة حركات الجيش البروسي بحركة مجموع دواليب ساعة متقنة الصنع . وهكذا تمكن البروسيون من التغلب على اعدائهم بسرعة حركتهم والمحافظة على نظام تام في اشدّ الظروف حراجة . فاستفاد فردريك الثاني ، القائد العبقري ، خير استفادة من هذه الاداة .

لم يلبث النمساويون ، والامراء الالمان ، والهانوفريون ، والهولنديون ، والانكليز الذين كان ملوكهم امـــراء هانوفريين ، ان اقتبسوا عن البروسيين الصفوف الدقيقة والصفوف المرصوصة واطلاق النيران دفعة واحدة . اما الفرنسيون فقد استخدموا الصفوف المرصوصة في وقت مبكر نسبياً ، ولكنهم لم يعتمدوها رسمياً الا في السنة ١٧٥٠ .

وجملة القول ان البروسيين لم يستحدثوا جديداً يذكر . قاموا خير قيام بحركاتهم ولكن حركاتهم لم تكن خير حركات . لم يجنوا من البندقية الفوائد التي كان بالامكان جنيها منهـا . فنادراً ما يأتي اطلاق النيران دفعة واحدة بالنتيجة المتوخاة ، الا على مسافة قريبة جداً ، لأن الجندي يهتم لاطلاق النار في آن واحد مع رفاقه ، لا لقتل العدو ، مع ان قتل العدو هـو المعول عليه . « يستحيل على الجندي ان يحسن التسديد إذا ما اضطر الى إعارة انتباهه امـــر القائد » (موريس دي ساكس) . وكان الصف الثالث دون فائدة . والاصطفاف الدقيق المستقيم كذلك ، بالاضافة الى صعوبة المحافظة عليه ، لان دخان المدفـع كان يحجب الاعلام . ويكون

الاصطفاف الدقيق ذا فائدة في الارض المنبسطة بصورة خاصة . ولم يدخل البروسيون تحسينات تذكر على المدفعية. وقد اصر فردريك الثاني ، على الرغم من سيدليتز ، على ان يكرّ الفرسان « بشكل سور » ، متراصين عند الانطلاق ، السوقاء بمحاذاة السوقاء . ولكن حركة تمايل الحصان القامص تستلزم للفارس مكاناً ارحب منه في سير الحصان العادي . وكم من مرّة اضطر بعض الفرسان المتراصين ،الذين القوا ارضاً عن سروجهم ، الى الخروج من الصف وتقدم الآخرين او ايقاف مطاياهم ، ففقد الصف قدرته على الاصطدام .

التقدمات النمسارية والفرنسية

تحققت اهم التقدمات على يد النمساويين ولا سيما على يد الفرنسيين . وهي نقائص التقدمات السابقة وسيئاتها ما حركت عبقرية هؤلاء الآخرين الابتكارية . قنط الفرنسيون من بلوغ كمال رماية الجيش البروسي وحركاته . ورأوا ان هذه التمارين الدائمة الدقيقة ، وهذا الاعداد لكل حركة ، وهذا الصبر ، وهذه الآلية تتنافى كلها « وعبقرية الامة » . سلموا بانهم لن يتفوقوا في هذا الميدان ، فبحثوا عن الاعاضة من دونيتهم بتحسينات وتجديدات تكتيكية وخلقوا جيش نابوليون .

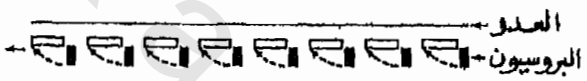

الانتقال من صف السير الى صف الحكومة

كانت لهم حرب وراثة عرش النمسا (١٧٤٠ – ١٧٤٨) وحرب السنوات السبع (١٧٥٦ – ١٧٦٣) مدرستي ملاحظة وتفكير افضتا الى صدور ابحاث عديدة ، وكتب ، وقوانين ملكية تنظم تعليم الرماية والمناورات والقتال . ولكن القوانين تأخرت في تسجيل الاكتشافات لأن الوزراء ، البعيدين جداً عن ساحات المعارك ، لم يعرفوا دائماً تمييز الآراء المنطبقة على الوقائع في غمرة المشاريع المقدمة . اما اهم المبتكرين فهم : موريس دي ساكس بطل معركة «فونتنوا» الظافر الذي اوجز خبرته في كتابه «تأملات»؛ والمارشال «دي بروبل»، الأول بين قادة حرب السنوات السبع الذي خلف للفرنسيين ذكريات سيئة جداً ، مع ان القادة الفرنسيين برهنوا فيها عن موهبة ابتكارية وقدرة على التجديد كانت سبباً من اسباب الاخفاقات ، لانهم ، مع مرؤوسيهم ، طالما تلمسوا طريقهم في استخدام طرائق جديدة هي عنوان مجد وفخار ؛ والكونت « دي غيبير » ، الذي كان ابن معاون المارشال « دي بروبل »، وشهد بنفسه الفصول الأخيرة من حرب السنوات السبع ، والف « محاولة عامة في فن الحرب» نشرت في السنة ١٧٧٢ وتأثر بها بونابرت ؛ واخيراً المدفعيان « فالبير » و « غريبوفال» ، والفارس « دي تيل » . كانت الملاحظة والاختبار خير الاساليب التي انتهجها كافة هؤلاء الرجال العظام . « يجب الرجوع ابداً الى الاختبار ... حتى إذا ادت البرهنة ظاهراً الى نتائج ثابتة جداً». ان ما لم تعلمه الحرب قد روقب بعناية في مناورات شهيرة قام بها المشاة في معسكر

« فوسيو » (١٧٧٨) ، وفي معتقي ستراسبورغ (١٧٦٤) و « موبوج » (١٧٦٦) اللتين نزلتا بالمدفعية ، وفي تمارين الفرسان في متز (١٧٨٨) . وكان غيبير اول من عين بدقة الوقت الذي يستغرقه إطلاق النيران ، ومن فحكر بدرس الحركات وتعاقبها كي يختار منها ما يعطي خير نتيجة .

الاصطفاف العميق

ما لبث الخبراء ان لاحظوا صعوبة انتشار الجيوش والمهاجمة بصفوف منظمة . فتبادرت الى الذهن فكرة مفاجأة العدو بكرّة قوية قبل ان ينظم صفوفه للمعركة ، او بين نارين كثيفتين ، اي عمقاً وفي صفوف طويلة ، بغية تجنب الانكشار والسير بمزيد من السرعة . كان مفروضاً ان تتقدم الحركة على النار . اوصى الفارس « فولار » بالصف الطويل ، اي « بالاصطفاف العميق » في كتابه « مكتشفات جديدة في فن الحرب » (١٧٢٤) . وانما حدثت في ذهن هذا الجندي الممتاز ، على الرغم من انفه شاهد الحرب ، ظاهرة قد يسمح تكررها الدائم بعد النزاعات المسلحة بان يجعل منها قانوناً : اعني بها اهمال النار . اراد اصطفافاً طويلاً يضم بين ٣٠ و ١٨٠ صفاً من الجنود المتراصين يكون بعضهم

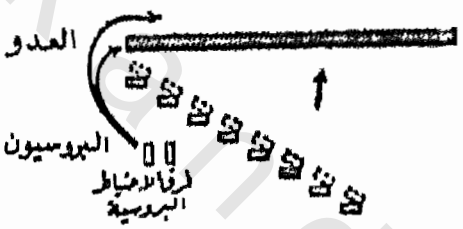

الصف المنحرف

مسلحين بالحراب لشق صفوف العدو بالاصطدام . « ان قوة الوحدة الحقيقية تكمن في تماسكها واتصال صفوفها ووحدتها وتراصها » . تتلمذ عليه تلامذة متحمسون على الرغم من خبرة الحروب . فقام المركيز « دي سيلفا » بحساب طويل جداً استلزم ست صفحات لتقدير القوة الحية التي ينطوي عليه صدام الصف الطويل . وعلى الرغم من خبرة الحروب ، عاد « مسنيل ـ ديران » ، في السنة ١٧٥٥ ، الى رأي فولار في كتابه « مشروع تنظيم فرنسي في فن الحرب » ، وعاد اليه مرة اخرى في السنة ١٧٧٧ . وقد عند آنذاك القائلون برأي فولار في اعتبار الكرّة بالسلاح الابيض تنطبق وحدها على المزاج الفرنسي ، واتهموا غيبير باحتذاء مثال الاجنبي ، وبالتخلق باخلاق البروسيين . وكان مقدراً للجمهورية الثالثة ان تشاهد تجدد هذه المنازعات قبل السنة ١٩١٤ .

اما في الواقع فاذا كانت فكرة مجموم الصفوف العميقة بالحراب فكرة صائبة ، فان هذا الهجوم ما كان ليصبح ممكناً بشكل الصفوف العميقة الذي نادى به كل من فولار ومسنيل ـ ديران . الصفوف الكثيرة لا تجدي نفعاً : اذ ان الصف الاول هو وحده ما يحمل عبء الصدام .

جنود الصفوف الاخرى لا يضيفون اية قوة ولا عمل لهم في المعركة بالسلاح الابيض سوى الحلول محل الجنود القتلى او الجرحى . ان مثل هذا المجموع معرض للفناء بنيران العدو . ولا يستطيع الضباط ، في مثل هذا التنظيم ، قيادة وحداتهم كما تجدر القيادة . ولن تلبث الصفوف ان تختلط ، والجيش ان يصبح قطيعاً . زد على ذلك اخيراً ان مثل هذا الاصطفاف العميق لا يصلح لاية حركة باستثناء السير الى الامام . فكل مناورة مستحيلة وكل تراجع مستحيل. وقد تناوله غيبير بنقد حاسم :

«كل النواميس الطبيعية المتعلقة بحركة الاجسام واصطدامها تصبح اضغاث احلام حين يراد تطبيقها على فن الحرب؛ فليس بالامكان اولاً تشبيه الوحدة العسكرية بكتلة جامدة لانها ليست جسماً متراصاً خلواً من الفجوات ؛ وثانياً ، ليس في الوحدة التي تهاجم العدو سوى جنود الصف الذي يتصل بالعدو من تتوفر فيهم قوة الصدام ؛ فكل من وراءهم يعجزون عن التراص والاتحاد اللذين تتميز بهما الاجسام الطبيعية ، ويغدون بدون فائدة ولا يصدر عنهم سوى الفوضى والضوضاء . ولو فرضنا ، ثالثاً ، امكانية حدوث هذا الصدام المزعوم بمساهمة كافة الصفوف ، فان وحدة مؤلفة من افراد يقدرون الخطر ويشعرون به ، اقله تقديراً وشعوراً آليين ، لا تخلو من بعض الارتخاء والانقسام في ارادات الافراد ، مما يؤدي بالضرورة الى البطء في تقرير السير وقياس الخطوة ، فليس هناك من ثم من كمية حركة كاملة ، وليس من حاصل حجم وسرعة ، وليس من اصطدام ، لان الاصطدام يفرض بان تستمر السرعة ، بعد احداثها في الجسم المتحرك بالعلة المحركة ، حتى اللحاق بالجسم المصدوم ...»

«يندر ، اوبالاحرى ، لا يحدث البتة ان تنتظر [وحدات المشاة] بعضها بعضاً بحيث تتصادم وتتشابك بالحراب » . اذا لم يتوقف المهاجم بفعل النيران ، فان المهاجَم يتراجع في الوقت اللازم قبل ان يقترب منه العدو .

النيران الاختيارية

نُبّه الجميع بقساوة الى فاعلية النيران في معركة « دتّنجن» التي قاتل الفرنسيين فيها ملك انكلترا جورج الثاني على رأس مجندين ألمان وانكليز (١٧٤٣) . فقد روى احد الضباط الفرنسيين ما يلي : « كان مشاتهم متراصين يبدون وكأنهم سور من قلاّ تنطلق منه نيران من الحدة والتواصل ما جعل قدامى الضباط يعترفون بأنهم لم يشاهدوا مثلها في يوم من الايام » . كانت الخسائر الفرنسية فادحة جداً ، وزوال الوهم شديد المرارة على انصار السلاح الابيض . وجاءت معركة « فونتنوا » (١٧٤٥) تؤيد الواقع : فان وحدة الحرس الفرنسية التي كابدت نيران الانكليز على مسافة ٣٠ خطوة قد لاذت بالفرار ؛ اما شرذمة « اوبتير » التي استبسلت في صمودها فقد خسرت نصف جنودها . فكانت النتيجة حاسمة : النيران هي الجوهر ؛ وهي تتفوق على الحركة . وبرهنت النيران المطلقة دفعة واحدة ، من مسافة قصيرة ، عن انها فعالة جداً ايضاً . ولكن هذه المعارك اوحت بما اثبته غيرها فيما

بعد : حين كان المشاة الانكليز والهانوفريون ، وحتى البروسيون ، يرون العدو وقد بات قريباً جداً منهم ، كان يستحيل على الضباط إرغام رجالهم على انتظار الامر لاطلاق النار . ففقدت النيران ما في تعاقبها من جمال واصبح اطلاق النار اختيارياً . ولكن هذا الانطلاق برهن عن انه اقتل وافعل من الاطلاق الموحد لان الجنود يحصرون همهم حينذاك في ضبط التسديد بغية منع العدو من ادراكهم . فهم لا يطلقون نيرانهم للكنس كما في النيران الموحدة ، بل للقتل . فأخذ الفرنسيون يعتمدون تلقائياً النيران الاختيارية وقد اوصى بها غيبير بالحاح . واخيراً أقر قانون السنة ١٧٧٦ رسمياً النيران الاختيارية بعد النار الموحدة الاولى .

جنود الطليعة

اثناء هذه الحروب ، لاحظ المحاربون فاعلية نيران الجنود المسلحين بسلاح خفيف والمتناثرين امام جبهة الجيوش ، اعني بهم جنود الطليعة . كان السباقون الى استخدامهم النمساويين الذين غمروا ساحات المعارك بجنود الطليعة من الكرواتيين. كان هؤلاء الرجال الموزعين هنا وهناك ، وراء الاسيجة ، والسواقي ، والاشجار المنفردة ، والادغال ، والمرتفعات ، يطلقون النار على صفوف المشاة ، ويشددون الضربات ، ويجندلون الضحايا ، وينشرون الفوضى في الصفوف ، ويزعزعون معنويات المهاجم ، بينما هم يستخدمون طبيعة الارض فلا تلحق بهم نيران صفوف المشاة كبير اذى ، ثم ينسحبون وراء صفوف مشاتهم ، حين يبلغ العدو مرمى بنادق هؤلاء. وكانوا يطلقون النيران على المدفعيين الاعداء ويشوشون نيران المدفعية . كما كانوا يفتكون جانبياً بفرسان العدو الهاجمين على الفرسان من مواطنيهم . ولم يلبث موريس دي ساكس ان رأى ان باستطاعتهم ، بفضل تسديد نيرانهم ، الشبيهة « بنيران القناصين » ، شل حركة وحدة محاربة ، الشيء الذي ساد الاعتقاد حينذاك باستحالته على غير وحدة محاربة بفضل النيران الموحدة . ففي فونتنوا تمكن افراد سرية « غراسين » الـ ١٢٠٠ الموزعين جنود طليعة في غابة « باري » ، من ايقاف سيل فرقة « انغولدسبي». اجل لقد جرى ذلك في ارض ذات كسور . ولكن في روكو (١٧٤٦) وزع موريس دي ساكس سريتي « غراسين » و « لامورليير » جنود طليعة في ارض مكشوفة لجهة جناحه الايمن ؛ فتجاوزوا قرية « آنس » وأتاحوا الاستيلاء عليها . فأكثر الجيش الفرنسي منذ ذاك الحين من استخدام جنود الطليعة هؤلاء ، « القناصين » ، وكان استخدامهم متفقاً و « اندفاع ونزق » الفرنسيين . وخلال حرب السنوات السبع ، استخدمهم « برويل » باستمرار بغية اعداد الهجوم بالسلاح الابيض ، وتجنب طغيان العدو على جناحيه ، وتغطية انتشار الجيش ، والدفاع عن الغابات ، والقرى ، والرياض ، والبيوت المنفردة . ووفق اخيراً الى التغلب على مقاومات الوزراء ، واستحصل في السنة ١٧٦٦ على نص رسمي باحداث فوج قناصين في كل سرية ، واستخدام قرابة ٦٠ جندي طليعة في كل فوج ، وعلى نص آخر في السنة ١٧٨٤ باحداث افواج من القناصين المشاة بلغ عددها ١٢ في السنة ١٧٨٨ . في هذا التاريخ جاءت حرب اميركا ، وقضاء المزارعين الاميركيين على فصيلة انكليزية في لكسنغتون ، واستسلام صف

طويل من الجنود الانكليز في « ساراتوغا » ، تثبت قيمة قتال جنود الطليعة . فاكتشف بالفعل نفسه خيرُ استخدام للبندقية .

صف الهجوم

الا ان فعالية النيران كانت قد ارغمت على اللجوء الى صف الهجوم . ففي مهاجمة اهداف جبهة محدودة، كمدخل قرية،او مدخل طريق حرجية ، او مجاز ، او ثلمة او زاوية في متراس ، وجب تفضيل الصف الطويل لأنه لا يعرض العديد من الجنود ، في آن واحد ، لنيران المدافعين ، ولأنه اكثر موافقة للتقدم نحو الهدف وداخله . استخدم موريس دي ساكس صفوفاً طويلة لمهاجمة المواقع في « روكو » و« لوفلد » ؛ كما استخدمها برويل لمهاجمة الغابات والمتاريس . زد على ذلك ، من جهة ثانية ، انه بدلاً من ان يؤلف صفوفاً أخرى من فرقه الاحتياطية ، غالباً ما تركها صفوفاً طويلة ، لان الصف الطويل اسرع انتقالاً من الصفوف المتوازية ولان ذلك يسهل عليه نقل فرق الاحتياط بسرعة الى مكان استخدامها . ولكن القادة واجهوا حينذاك مسائل شكل الصف الطويل والتقدم نحو الهدف وانتشار الجيوش ، مع المحافظة على الصفوف المتوازية ، في اطراف الغابات او في السهول بعد الاستيلاء على الهدف ، للحيلولة دون هجوم معاكس يقوم به العدو ، لان الصفوف المتوازية اكثر موافقة للدفاع من الصف الطويل .

بيد ان الصف الطويل المعتمد لم يكن ذاك الذي قال به فولار، والذي لم يتجاسر أي ضابط على المجازفة باعتماده بعد الكارثة التي حلت بالصف الانكليزي في فونتنوا ، والذي اثبتت التجارب المجراة في معسكر «فوسيو»عدم اهليته للمناورة،بل صف السير البسيط ؛ وهو يؤلف من صفوف متوازية لا يتجاوز الواحد منها الاربعةجنود؛وتفصل بين الفرق مسافة عدة خطوات لتجنب الوقوف الفجائي بفعل عدم انتظام سير المقدمة الذي تسببه طبيعة الارض أو نيران العدو . كان مثل هذا الصف الطويل سهل القيادة ، والاخضاع للنظام ، والقيام بالمناورات . يسير بخطى حثيثة ، لا بل عدواً اذا مست الحاجة . يتقدمه جنود الطليعة الذين لا يتوارون إلا في ساعة متأخرة من الليل ، ويحيط به حتى مرمى بنادق العدو مشاة مصطفون صفوفاً متوازية يصوبون بنادقهم إلى الفرجات والنوافذ والادغال وكل مكان آخر تنطلق منه النيران لإبعاد نيران العدو ومنعه من ضرب الصف الطويل. النيران تعد الحركة وترافقها. وبعد الاستيلاء على الهدف ، ينتقل جنود الطليعة الى المقدمة ويؤلفون ستاراً . ينتشر الصف الطويل صفوفاً متوازية على طول الجبهة التي يتوجب عليه الدفاع عنها بمجرد دوران كل جندي الى اليمين (أو اليسار) ، دونما حركة تحولية . واذا كان على الصفوف المتوازية السير مجدداً في صف طويل ، يدور الجنود الى اليسار (او اليمين) ، وتسير الفصيلة التي تحتل المقدمة وتبدّل اتجاهها نحو العدو ؛ وتسير كل من الفصائل الاخرى بدورها ، وتحتل مركزها وراء الفصيلة السابقة ، على مسافة خطوات معدودة ، بعد أن تكون قد سلكت أقصر الطرق في انتقالها . لا شأن بعد اليوم لعكس المراكز . يحتل الجنود والوحدات المراكز التي تمليها الظروف . وهكذا بات

الانتقال من الصف الطويل الى الصفوف المتوازية ومن الصفوف المتوازية الى الصفوف الطويلة عملية بسيطة وسريعة جداً .

اعتمد المارشال « دي بروبل » ومعاونه « غيبير » هذه الطرائق تكراراً خلال حرب السنوات السبع . وقد عرفت هذه الصفوف ، منذ السنة ١٧٦٦ ، باسم « الصفوف على طريقة غيبير ». ثم وضع فيها ابن المعاون نظرية كاملة في السنة ١٧٧٢ . وأوصى بالاضافة الى ذلك ، في الارض المكشوفة ، بالهجوم عدواً ، وبصفوف متوازية ، دونما اهتمام لاستقامة الصفوف التي لا تجدي فتيلاً ؛ وبتحول على مدار متحرك يستمر فيه الجنود الذين يشكلون مدار الحركة الدائرة في السير ببطء بغية كسب الوقت . وصدر قانون السنة ١٧٦٩ باعتماد « الصفوف على طريقة » غيبير . وبعد طويل « جدال حول الاصطفاف الدقيق والاصطفاف العميق» اعتمدت آراء غيبير بالتعليمات المؤقتة الصادرة في ٢٠ ايار ١٧٨٨ .

الفرقة

كان مقدراً للطرائق « الغيبيرية » إتاحة تطورات سريعة وسهلة . إلا ان القادة فكروا ، في الوقت نفسه ، بوسائل اخرى للتوصل الى توزيع الجيش المقاتل بسرعة في وجه العدو . حقق البروسيون ذلك بفضل تدريبهم المدهش . لذلك سارت جيوشهم صفاً طويلاً واحداً أو صفين ، أو ثلاثة على الأكثر . وسعى القادة الفرنسيون إلى تنظيم صفوف طويلة اكثر عدداً تسير في طرق متوازية وبسرعة متماثلة : فكان الصف أقل طولاً والانتقال الى الصفوف المتوازية ، الذي تفرضه البندقية ، اسرع تحقيقاً . وقد توصلوا الى ذلك بتقسيم الجيش فرقاً . فقد سبق لموريس دي ساكس أن شكل فرقاً ، بعد معركة فونتنوا ، للزحف على روكو ثم على لوفلد . واعتمد بروبل الطريقة نفسها في حملة السنة ١٧٦٠. قُسّم صفا المشاة أربعة اجزاء أو « فرق » ؛ وضمت كل فرقة قسماً من الصف الأول وآخر من الصف الثاني ، فجاء المجموع ١٦ فوجاً من المشاة . ورافق كل فوج من المشاة قسم من فرقة الفرسان وآخر من المدفعية اللتين قسمتا أربعة اقسام ايضاً . وعند الاقتراب من العدو ، كانت الفرقة تنقسم صفين طويلين . وهكذا اصبحت الفرقة جيشاً مصغراً كاملاً يضم المشاة والمدفعية والفرسان ، أي كل الوسائل الكفيلة بقهر العدو أو إيقافه . أحدثت لتسهيل انتشار الجيوش في الجبهة فقط ، ولكنها لن تلبث أن تبدل ظروف الحرب وتتيح مناورات جديدة تستهدف جانبي العدو أو مؤخرته . ولكن القادة الفرنسيين ، في القرن الثامن عشر ، لم يعرفوا بعد كيف يستخدمونها خير استخدام .

وهكذا برز قسم هام من نتائج استخدام البندقية . وليست كافة الطرائق التي يعزى اكتشافها احياناً الى جنود الثورة والتي ربما استهدفت جزئياً اخفاء نقص تدريب المتطوعين ، من استخدام جنود الطليعة ، والهجوم بالحراب عدواً وفي صفوف طويلة ، وتقسيم الجيش فرقاً ، سوى وسائل قتال وتنظيمات احدثها الجيش الملكي خلال القرن الثامن عشر ، بسبب اداة جديدة ، هي البندقية .

الفرسان

حقق الفرسان الفرنسيون تقدمات عظيمة ، ولكنهم حذوا في ذلك حذو البروسيين والنمساويين . فقد اقرت قوانين السنتين ١٧٧٦ و ١٧٧٧ كواكب الخيالة الكبرى ، والقيام قياساً بهجوم قصير وعنيف ، على ان لا تؤلف الكواكب سوراً واحداً بل تتخللها المسافات ؛ واعتماد الصف الطويل في مهاجمة المشاة لاختراق صفوفهم .

مدفعية فاليير

قام بعض الفرنسيين بثورة في حقل المدفعية . فان قانون ٧ تشرين الاول ١٧٣٢ فرض في فرنسا مذهب فاليير الذي عمل به حتى السنة ١٧٦٥ . ويقوم فضل فاليير الاكبر في انه قام بعمل تنظيمي . أراد مدفعية واحدة تتوزع مدافعها على خمسة عيارات ، من ٤ الى ٢٤ لبرة ، « تكون كلها موافقة لمهاجمة المواقع والدفاع عنها ، وتشترك الفئات الثلاث الاول منها بحسب الظروف بحيث تصبح موافقة للحرب في الارياف ؛ فيصبح ممكناً ، إذا قضت الحاجة ، ان تقدم المواقع العون للجيوش ، والجيوش للمواقع » . ان هذه الكلمات يقولها ابن فاليير تحدد عمل الاب خير تحديد وتتضمن نقده . أراد فاليير ، رغبة في التبسيط ، صنع عتاد مزدوج الهدف . ولكنه لم يستجب تماماً لاية حاجة . فان مدافعه ، على الرغم من تخفيف وزنها ، قد بقيت ثقيلة جداً لساحة المعركة (المدفع من عيار ٤ ، ٥٧٥ كيلوغراماً ؛ والمدفع من عيار ٢٤ ، ٢٧٠٠ كيلوغرام) . يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان تنظيمه قد برهن عن اكثر العقليات رجعية : فهو قد صرف النظر عن المدفع القصير ؛ وأمر بأن يحشى المدفع بلعقة عميقة طويلة المقبض ، المصباح ، يستغني بها عن الفشكة ، رغبة منه في التمهل وتوفير الذخائر ؛ وألغى المنهضة بحيث توجب في معظم الأوقات اطلاق النار اطلاقاً تقديرياً ؛ وترك الفوارق في صنع الذخائر بحيث استحال استخدام القذائف المصبوبة لمدفع معين في مدفع آخر من العيار نفسه ؛ زد على ذلك ان قطع المدافع المختلفة والاسناد لم تكن قابلة التبديل والتغيير .

« بيليدور »

حاول فاليير تلافي الزيادة في الوزن بأن اعتمد في السنة ١٧٤٠ ، على غرار معظم دول أوروبا الوسطى ، المدفع الخفيف على الطريقة الاسوجية ، وهو مدفع قصير جداً من عيار ٤ لبرات ، يبلغ وزنه ٣٠٠ كيلوغرام ، يمكن جره بالايدي ، ويستطيع المشاة استخدامه . إلا انه رفض تخفيف المدافع الاخرى . فبرهن بيليدور ، العالم بالطبيعيات ، والاستاذ في مدرسة « لافير » للمدفعية ، في السنة ١٧٣٩ ، ان المرمى ليس نسبياً لحشوة البارود ، وان حشوة توازي ثلث وزن القذيفة تعيض من حشوة توازي ثلثي وزنها . فما لبث كافة المدفعيين ان خفضوا وزن حشوة البارود . فبات ممكنا والحالة هذه انقاص سماكة القطع ووزنها . ولكن فاليير قاوم هذا الانقاص بعناد . لا بل عزل بيليدور عن منصبه .

إلا ان الحروب اظهرت ضرورة تخفيف المدفعية . فخلال حرب السنوات السبع استخدم النمساويون قطعة خفيفة من عيار ٣ لبرات لمواكبة المشاة . وفي السنة ١٧٥٦ ، أمر « برويل » باعادة خرت المدافع من عيار ٨ و ١٢ لبرة وتحويلها الى مدافع من عيار ١٢ و١٦ لبرة بانقاص

سماكة جوانبها ، فجعلها أخف وزناً واسهل تحريكاً .

مدفعية « غريبوفال »

اجريت التطويرات الحاسمة على يد « غريبوفال » . كان ضابط مدفعية في الجيش الفرنسي ، فجمع بهذه الصفة ثروة ملاحظات خلال حرب السنوات السبع ، وأثناء خدمته في الجيش النمساوي ، وأثناء اسره في بروسيا في السنة ١٧٦٢ . وحين استدعاه الوزير « شوازول » الى فرنسا عرف كيف يستخلص النتائج مما شاهده وزود الجيش الفرنسي بخير عتاد في العالم ، العتاد الذي استخدم في كافة حروب الثورة والامبراطورية .

ادرك غريبوفال الحاجة الماسة الى تخصيص المدافع ، الى ادخال تقسيم العمل الى المدفعية . ميز بين مدافع الحصار (عيار ٢٤ و ١٦) ومدافع القتال في الارياف (عيار ١٢ و ٨ و ٤) . خفف مدافع القتال في الارياف بانقاص طولها وسماكتها . فانخفض وزن المدفع عيار ٤ من ٥٧٥ كيلوغراما الى ٣٠٠ كيلوغرام ، والمدفع عيار ٨ من ١٠٥٠ كيلوغراما الى ٦٠٠ كيلوغرام ، والمدفع عيار ١٢ من ١٦٠٠ كيلوغرام الى ٩٠٠ كيلوغرام . وقصّر وخفف الاسناد ايضاً وأمر باعتماد المجر الواحد الذي يتيح استخدام الاحصنة اثنين اثنين معاً بدلا من المجرين اللذين لا يسمحان باستخدام الاحصنة إلا واحداً وراء الآخر . فبات الجرّ اكثر فعالية ، واستطاعت الاحصنة الجارة السير خبباً ، لا بل قماصاً . وبات بمكنة مدفعيته اخيراً ان تنتقل من أي مكان الى أي مكان آخر بفضل الحبل الطويل وقدّة الجلد . فالحبل الطويل هو في جوهره حبل يصل بين السند ومقدم العربة . فقد غدا ممكناً بواسطته اجتياز الخندق ، والحافة التي تعترض المنحدرات ، واطلاق النار اثناء الانسحاب ايضاً ، إذ يكفي في هذه الحال ايقاف الاحصنة ، فيصبح المدفع من نفسه في وضع الاطلاق . اما قدة الجلد فأشبه بحبالة تسمح للجنود بجر المدافع في ساحة المعركة . ويكفي ثمانية جنود لجر المدافع من عيار ٤ و ٨ لبرات ؛ و ١٥ جندياً لجر المدافع من عيار ١٢ لبرة . فغدا بمكنة المدفعية ، التي اصبحت سهلة التحريك ، ان تواكب المشاة منذ الآن ، وتساند هجماتهم وتسير وراءهم اثناء الانسحاب وتحمي مؤخرتهم .

وزاد غريبوفال من فعالية هذه المدفعية باعتماد المدفع القصير ، وبعدد المدافع : ٤ لكل الف جندي بدلاً من واحد ؛ فخصص كل فوج بمدفعين عيار ٤ أو مدفعي مشاة . وحسن غريبوفال مرمى القذيفة وقوة اختراقها . فوفق بدقة بين القذيفة وقطر المدفع الداخلي لانقاص هواء القذيفة وضياع الغاز . وفي سبيل ذلك أمر بأن لا تصب المدافع حول نواة يتشوه شكلها بتأثير الحرارة وتسبب خشونة في داخل المدفع ، بل أن تصب مليئة وتخرت بعد ذلك . وأتاحت بعض المقاييس النحاسية المحقق عيارها ، كالنظارات والاسطوانات ، مراقبة قياسات القذيفة وداخل المدفع التي كانت مستحيلة حتى ذاك التاريخ . وجليت المدافع من الخارج بالمخرطة . فزالت الاضافات التزيينية . وتمكن الضباط من رؤية نقائص المعدن واستلام مدافع محدودة

السماكة ومن نوع جيد لا تنفجر في وجه من يستخدمها . وغدت المدفعية أدق تسديداً باستخدام خط الاحكام والمنهضة اللذين اطالا مرمى المدفع ووسعا مجال عمل المدفعية . وبات إطلاق النار اسرع تنفيذاً باستخدام الفشكة .

وجعل غريبوفال الاصلاحات عملية سهلة . فرض على العمال طـــاولة متقنة الصنع محدودة القياسات ، واقطـّة ، ومثاقب ، ومساطر حديـــدية ، وقوالب ، وعيارات . فباتت صناعة العربات والاسناد ومقدم العربات متماثلة متساوية . وأمكن تبديل القطع ، مهما كان مصدرها ، حتى على مقربة من ساحة المعركة .

في السنة ١٧٧٦ ، وبعد منازعات طويلة ، عين غريبوفال مفتشاً عاماً للمدفعية ، واعتمدت طريقته نهائياً .

المدفع المفرض

سبق للمدفعي الانكليزي « روبنز » ، في كتاب لم يترجم إلا في السنة ١٧٧١ (« رياضيات تتضمن المبادىء الجديدة في المدفعية ») ، أن اقـترح تفريض المدافع من الداخل لزيادة التدقيق ، ولكنه اصطدم ، لاسباب نظرية ، بـ « اولر » الذي حال ما له من نفوذ دون العمل باقتراح روبنز على الرغم من اختبارات هـذا الأخير المقنعة . وهكذا تأخرت ثورة أخرى اعظم نتائج من الثورة السابقة .

الحرب الجديدة

بفعل تطويرات الاسلحة المختلفة هذه ، تبدلت كل ظروف الحرب. فقد بات بمكنة القائد ، الآن، إرغام العدو على القتال : عـدد كبير من جنود الطليعة المتشتتين سيكرهه على ابطاء انسحابه ، ثم على التوقف للاجابة على النار بالنار ، وربما استطاع أن يقطع عليه الطريق ؛ وسرعة تحول صف طويل إلى صفوف متوازية ، وإمكان قيـام الصف الطويل بهجوم بالحراب ؛ فلن يستطيع العدو الهرب بعد اليوم ، بينما يعد القـائد صفوف جيشه للمعركة . وسيتمكن القائد من محاولة الالتفاف حول العدو وتهديد مؤخرته : أن فعالية نيران جنود الطليعة ، وجمع الاسلحة المختلفة في الفرقة الواحدة ، سيتيحان ، لشطر من الجيش معتصم في أرض ذات شجون أو في مواقع محصنة ، أن يوقف لمدة طويلة هجمات عدو متفوق عـــدداً ويوفر للقائد وما تبقى من الجيش تحت أمرته الوقت الكافي للقيام بحركة التفافية[1] .وسيتمكن القائد اخيراً من اختراق جبهة العدو ، اما بصف طويل من الخيالة ، واما بمجموعة كبرى من المدافع تؤمن الاختراق ، كما أوصى بذلك غيبير ؛ وما ان تحدث الثلمة حتى يتدفق عليها المشاة للانتشار في المؤخرة والارتداد إلى الجناح العدو الأكثر تصدعاً والقضاء عليه قضاء تامـــاً . وسيتمكن القائد ، بفضل صفوف غيبير الطويلة ، من تبديل مراكـــز جيشه بسرعة في قلب

---

(١) وهذا ما سبق لفردريك الثاني ان فعله في « زورندورف » حيث أوقفت فرقـة «زيتن » جيش العدو في مكانه ، بينما كان فردريك ، مع القسم الأكبر من الجيش البروسي ، يلتف حواليه .

المعركة ، ومفاجأة العدو مفاجآت كثيرة مختلفة . فأتاحت كل هذه التطويرات إمكان التخلي عن « ستراتيجية اللواحق » في سبيل الحرب الحقيقية ، تلك التي تستهدف تدمير جيوش العدو ، حرب الافناء القصيرة السريعة .

إلا أن القادة لم يبلغوا بعد هذه المرحلة . ففي عهد « الهيئة التشريعية » نفسها ، قاموا بالحرب على الطريقة القديمة ، واقتضى نزاع استغرق سنوات عدة لاقرار نقل النظرية الى ميدان العمل . أما غيبير فكان قد أدرك كل شيء وشعر مسبقاً بكل شيء وانبأ بكل شيء ، وخلص الى هذه النتيجة :

« إن جيشا حسن التنظيم والقيادة لن يصادف البتة موقعاً يوقف تقدمه ... كما أن قائداً يتمرد ، في هذا الصدد ، على الآراء الموروثة ، سوف يحير عدوه ويذهله ولا يترك له مجالا للتنفس ويرغمه على القتال أو على التراجع ابداً امامه . وأني اتجاسر وأعتقد بأن هنالك طريقة لقيادة الجيوش اجدى ، واضمن نتيجة حاسمة ونجاحات كبرى ، من تلك التي اعتمدناها حتى اليوم ... سيبرز انسان ، ربما كان قبل ذلك مغموراً بين الجماهير وفي الظلمة ، انسان لم يعرف الشهرة لا بكلامه ولا بمؤلفاته ، انسان ربما جهل موهبته ولم يشعر بها إلا بممارستها ... إن هذا الانسان سيسيطر على الآراء ، وظروف الحظ ، ويقول عن كبار واضعي النظريات ما قاله مهندس العمارة الممتهن ، امام الاثينيين ، عن مهندس العمارة الخطيب : سأنفذ ما قاله لكم منافسي » .

وكان نابوليون بونابرت من سيحقق حلم غيبير .

« ان اله الحرب قريب الظهور ، لاننا سمعنا نبيه [1] » .

التوسع الاوروبي

احرز الاوروبيون ، آنذاك ، تفوقاً عظيماً على كافة الشعوب ، ليس بالاعتدة والمناورات فحسب ، بل بالنظام والاعداد اللذين جعلا من الاوروبيين ، كما بدا ذلك ، مثالا انسانياً خاصاً يتميز برباطة جأش ، وعزيمة وعناد ، وبسالة لا نظير لها ايضاً . ففي بلاد الهند ، حيث كان اكثر المحاربين شجاعة ، بسبب فقدان النظام والانضباط اللازمين ، عرضة لخوف محزن ليس ما يبرره ، قال المهرات « سنديا » للانكليز في السنة ١٧٧٩ :

« أي جنود جنودكم : اصطفافهم اشبه بجدار من الآجر ! اذا سقط احدهم ، سد الثلمة جندي آخر : هذه هي الجيوش التي اتمنى ان اقودها » .

ان هذا التفوق لم يوفر للأوروبيين النصر والرعايا فحسب بل الحلفاء والاصدقاء ايضاً . فقد كان احدى أهم وسائل دخولهم شتى انحاء العالم وسيرهم نحو السيطرة الشاملة .

---

(١) ج . كولين .

الفصل الثاني

الثورة المِلاحية

المهندسون

تحددت المبادىء الكبرى للسفن الشراعية منذ اعمال « دانيال برنويي » في السنة ١٧٣٨ ، وأعمال أولر في السنة ١٧٤٩ . استمرت اكاديميات العلوم والبحرية ، طيلة القرن ، في تقديم المعطيات العلمية لتصاميم بناء السفن الحربية . كما أن بعض السفّانين المهرة ، الضليعين في العلوم الرياضية والآلية والطبيعية ، برعوا في تطبيقها . « انتهت منذئذ المرحلة الاختبارية ، مرحلة « أرباب الفأس » كما عرفوا في عهد لويس الرابع عشر ، الذين طبقوا أساليب شخصية وقوالب موروثة ابناً عن أب وأباً عن جد . وحل المهندس محل الممتهن ... فبين ما انتجه القرن السابق وما انتجه عهد لويس الخامس عشر تقوم كل المسافة التي تفصل بين عمل عامل بسيط ، مهما بلغ من مهارته ، وبين النتيجة المحققة بتعاون الرياضيين والعلماء المهندسين المتخصصين » . وقد تكلل هذا الواقع بالتكريس الرسمي . ففي فرنسا اطلق قانون السنة ١٧٦٥ على السفانين اسم « مهندسي البحرية » . وقد تلقوا علومهم في معهد بناء السفن في باريس ، سلف المعهد الحالي للهندسة البحرية . وشجع الحركه العلمية الفارس « دي بوردا » ، مفتش بناء السفن الحربية منذ السنة ١٧٨٤ ، ومستحدث الاساليب الجديدة .

السفن

ازدادت سرعة السفن وقدرتها على المناورة . حافظت السفن على طول ٤٠ متراً للسفن التجارية الكبرى ، حتى ٦٠ متراً لأكبر السفن الحربية ، وعلى عرض يوازي ثلث الطول أو ربعه . انثنت جوانب السفينة الحربية نحو الداخل ، بين مجموعة المدافع السفلى والشُرَعة العليا . اما الاتساع في القسم الأدنى فقد زاد من استقرارها . اكتسبت مزيداً من الدقة . وزالت تدريجياً الزخارف والنقوش . ارتفع المقدم بينما انخفض الكوثل : استعيض عن الطبقة التي كانت تبنى فوق شرعة المؤخر ، بطبقة صغرى بنيت فوق مؤخر هذه الشرعة ، ثم الغيت هذه الطبقة الصغرى في عهد لويس السادس عشر . وهكذا خفت مقاومة الهواء . وكانت هياكل السفن مزودة تحت خط العوم بمسامير وصل فطحاء ثقيلة لا تلبث الاشنة والاصداف ان تضيف اليها ثقلاً فوق ثقل . فاستعاض الانكليزي عن المسامير بوريقات نحاسية دقيقة اخف وزناً تسهل الانسياب . واحتذى الفرنسيون مثال سفينة انكليزية استولوا عليها .

وفي السنة ١٧٧٨ كانت البارجة « ايفيجني » اولى السفن الفرنسية المبطنة بالنحاس . ولكن البطانة كانت مرتفعة الكلفة ويجب تبديلها مرة بعد مرة .

قويت أجهزة السفينة ، وثبتت الصواري والدواقل وزيدت مساحة الاشرعة . غدت الاشرعة اكثر عدداً وبات ممكناً مراعاة النسبة الصائبة بين مساحتها وقوة الريح . وأتاحت شبكة من الحبال مناورات سهلة ودقيقة . دارت السفن على ذاتها وسارت كيفما طاب لقباطنتها بكل امان . وتمكنت من بلوغ أقرب نقطة ممكنة من الريح المعاكسة .

« لقد اصبح شكل هذه السفن عصرياً ، وهي من هذا القبيل اكثر تشابهاً بالسفن الشراعية خلال القرن التاسع عشر منها بالسفن الشراعية في عهد لويس الرابع عشر » .

مسألة تحديد موضع السفينة

استطاع الملاحون التوجه شيئاً فشيئاً الى المكان المقصود بمزيد من الامان . احدثت الحكومات مستودعات خرائط ورسوم وصحف وبيانات في موضوع الملاحة في فرنسا (١٧٢٠) وفي انكلترا وهولندا (١٧٤٠) . حسّن مقياس سرعة السفن بأن اضيف اليه ثقل يجنبه جزئيا تأثير التيارات البحرية. وأتاحت بعض الاجهزة الانعكاسية، كالشّماني، المؤلف من ثمن محيط الدائرة، اي من ٤٥ درجة، والذي أحكمه الانكليزي « هادلي » منذ السنة ١٧٣١ ، ثم السداسي، المؤلف من سدس محيط الدائرة ، اي من ٦٠ درجة ، حوالي السنة ١٧٥٠ ، تتبع كافة حركات البحر ، وتقدير ارتفاع الشمس ظهراً بفارق دقيقة او دقيقتين من القوس تقريباً ، وحساب خط العرض حساباً أكثر تدقيقاً . ولكن ملاحين كثيرين استمروا في استخدام القوس الفولاذي الذي بلغت فوارق دلائله ثلاثين دقيقة من القوس تقريباً .

كانت اهم مسألة تمكنوا من حلها مسألة خطوط الطول . كان باستطاعة الملاحين تحديدها بمراقبة آن حدوث ظاهرة فلكية وحساب آن مراقبتها في مكان معروف . وكان باستطاعتهم الاستناد الى كسوف الشمس وخسوف القمر النادرين ؛ وفحص اقمار المشتري ، على الرغم من صعوبته ؛ ومسافة النجوم الى القمر التي تتطلب معرفتها حسابات كثيرة . الا ان كل ذلك لم يكن عملياً ، وقد فاق في الوقت نفسه معارف معظم القباطنة . فكان أسهل السبل ، والحالة هذه ، الاستناد الى فارق الزمان : اي تحديد الوقت المنصرم منذ مغادرة السفينة لمكان معين حتى مرور الشمس في أعلى نقطة فوق مكان وجود السفينة ظهراً . من السهل اذ ذاك معرفة خط الطول لان كل أربع دقائق زمنية تقابلها درجة قوسية .

ولكن الصعوبة نجمت عن ان الساعات لا تحافظ على ساعة نقطة الانطلاق . فهي كانت تتعطل اثناء مسير السفينة بسبب الانتقال من خط عرض الى خط عرض آخر وبسبب حركات البحر . وهكذا فان الملاحين الذين نادراً ما أتوا أخطاء كبرى في تحديد خطوط العرض ، قد ارتكبوا أخطاء جسيمة في تحديد خطوط الطول . ففي السنة ١٧٥٠ عينت الخرائط الانكليزية

والهولندية مكان الشاطىء الشرقي لـ « الارض الجديدة » على مسافة ٩ درجات من مكانه الحقيقي . وفي السنة ١٧٦٥ بلغت الاخطاء عدة درجات في تحديد مكان رأس الرجاء الصالح ورأس « هورن» الواقعين على طرق بحرية مسلوكة جداً . فكان هنالك ثلاثة أرخبيلات باسم « غالاباغوس » وعدة جزر باسم « القديسة هيلانة » . وكان الملاحون يتجهون نحو يابسات لا قرار لها في مكانها . فاضطروا اخيراً الى بلوغ خط عرض المكان المقصود والسير شرقاً أو غرباً الى ان تتراءى لهم اليابسة . ولكن ما أكثر الأخطاء والطوارىء ! ففي السنة ١٧٤١ ضل القبطان الانكليزي « انسون » خط الطول المقصود وتاه طيلة شهر في المحيط الهادي الجنوبي اثناء بحثه عن جزيرة « جوان — فرناندیز » : فتوفي ٨٠ شخصاً من الملاحين بداء الحفر. وفي السنة ١٧٦٣ ، توجهت السفينة الفرنسية « له غلوريو » الى رأس الرجاء الصالح ؛ فاعتقد القبطان في طريقه انه بلغ نقطة تقع شرقي جزر الرأس الأخضر بينما هو كان غربي هذه الجزر وسار باتجاه الغرب حتى بلغ البرازيل . وفي السنة ١٧٧٥ ، اتجهت السفينة الانكليزية نحو جبل طارق : دل حساب تحديد مكان السفينة انها على مسافة أربعين ميلاً غربي رأس «فيليستير » الاسباني ، عندما جنحت الى شاطىء رملي امام جزيرة « ريه » .

سفينة في اقرب نقطة ممكنة من الريح المعاكسة

سبق للبرلمان الانكليزي ، في السنة ١٧١٤ ، ان خصص ٢٠٠٠٠ جنيه استرليني لمن يحدّد طريقة لاكتشاف خط الطول في البحر بفارق نصف درجة قوسية تقريباً . بعد عمل استغرق اربعين سنة ، صنع النجار الانكليزي « هارسون » مقياساً للزمان . في السنة ١٧٦١ ، شحن هذا المقياس في سفينة متجهة نحو جزيرة جامايكا ، واعيد الى انكلترا بعد مرور ١٤٧ يوماً ، فوُجد بعد الفحص ان الفارق الزمني فيه لم يبلغ سوى دقيقة واربع وخمسين ثانية . كانت المسألة محلولة ما دام نصف الدرجة القوسية يقابله دقيقتان في الزمان . ولكن تركيب جهاز هارسون كان على كثير من التعقيد . امر البرلمان باعطائه ١٠٠٠٠ جنيه استرليني وارجأ المبلغ المتبقي الى اليوم الذي يتوفق فيه هارسون الى جعل تطبيق جهازه من البساطة بحيث يمكن النسج على منواله بسهولة . تكامل هذا المقياس بفضل الفرنسيين ، « له روا » الذي ابتكر ، في السنة ١٧٦٦ ، الزنبرك اللولبي المتساوي الدوام ، والمنفذ ، والرقّاص المعدّل ، و « برتو » الذي صنع ، بين السنة ١٧٦٧ والسنة ١٧٧١ ، مقاييس زمان كثيرة . وبين السنة ١٧٦٧ والسنة ١٧٧٢ ، زودت عدة سفن فرنسية بمقاييس اعطت نتائج مرضية . وهو مقياس هارسون ما اتاح لـ « كوك » القيام برحلته الثانية . ولكن الاختراع الجديد لم يعم استعماله الا رويداً رويداً . فخلال الحرب الاميركية نفسها ، ارتكب قادة الأساطيل اخطاء جسيمة في تحديد خط الطول .

السفن الحربية

زادت الاساطيل الحربية شيئاً فشيئاً من قوتها وخفضت في الوقت نفسه عدد نماذج السفن بالغاء النماذج الضعيفة . فلن تتجاوز السفن الشراعية بعد اليوم القياسات التي بلغتها السفن الحربية الكبرى .

كانت هنالك البوارج ، المعدة للقتال ؛ والمراكب الحربية المعـــدة للاستكشاف وحـرب المطاردة ؛ والحراقات المعدة لنقل الأوامر . كانت البوارج ذات شرعة واحدة او شرعتين او ثلاث . وزودت البارجة ذات الشرعة الواحدة بـ ٥٠ مدفعاً من عيـــار ١٢ و ٨ ، وبـ ٣٠٠ بحار . والسفينة ذات الشرعتين بـ ٦٤ مدفعاً من عيار ٢٤ و ١٢ ، و٨٠ مدفعاً من عيار ٣٦ و١٨ ، تؤلف كلها مجموعتين ، سفلى وعليا ، وبعدد من البحارة يتراوح بين ٥٠٠ و ٨٠٠ . والسفينـة ذات الشرعات الثلاث بـ ٩٠ الى ١٢٠ مدفعاً وبـ ٩٠٠ الى ١٢٠٠ بحار ؛ ضمت المجموعة السفلى مدافع من عيار ٦ ؛ والمجموعة الثانية مدافع من عيار ١٨ ؛ والمجموعة الثالثة مدافع من عيار ١٢ ؛ وثبتت في مقدمة ومؤخرة الشرعة العليا مدافع من عيار ٦ ؛ وفي الطبقة الصغرى مدافع من عيار ٤ . وزودت مراكب الاستكشاف والمطاردة بـ ٢٠ مدفعاً من عيار ٦ او ٣٠ مدفعاً من عيار ٨ او ٤٠ مدفعاً من عيار ١٢ . وكانت هذه المراكب الأخيرة توازي سفن الدرجة الرابعة في عهـــد لويس الرابع عشر التي زالت من الوجود . اما الحراقات فقد ضمت بين ٧٠ و ٨٠ بحاراً وسلحت للمرة الاولى بـ ١٢ مدفعاً من عيار ٤ ، فاستطاعت منذئذ الاشتراك في القتال .

في الثلث الأخير من القرن ، الغيت السفينة ذات الشرعة الواحدة بسبب عدم قدرتها ، منذ ذاك التاريخ ، على الاشتراك في القتال . ولم تعتبر السفينة ذات الشرعتين ، المسلحة بـ ٦٤ مدفعاً ، كبارجة بعد ذاك التاريخ ، وهي لن تلبث ان تزول . اما السفن المقاتـــلة الحقيقية فكانت السفن ذات الشرعتين المسلحة بـ ٧٤ و٨٠ مدفعاً ، والسفن ذات الشرعات الثلاث المسلحة بـ ١١٠ مدافع و١٢٠ مدفعاً . زودت كلها بمدافع من عيار ٣٦ في المجموعة السفلى ؛ وزودت السفينة ذات الشرعات الثلاث بمدافع من عيار ٢٤ في المجموعة الثانية ؛ والسفينة ذات الشرعـــات الثلاث ، المسلحة بـ ٧٤ مدفعاً ، بمدافع من عيار ١٨ .

كانت السفينة « دول بورغونيا » ، التي شرع في بنائها في السنة ١٧٨٥ ، مزودة بـ ١١٨ مدفعاً وضمت ١٠٩٢ بحاراً ، وكان طولها ٦٣ متراً عند خط العوم ، وعرضها ١٦،٩٦ متراً ، وعمقها ٨،٠٨ امتار من الحيزوم حتى الشرعة العليا ، وبلغت اشرعتها ٣١٦٢ متراً مربعاً . وكانت قادرة على التموين باغذية تكفي لـ ١٨٠ يوماً وماء يكفي لـ ١٢٠ يوماً .

كان بالامكان اطلاق نيران المدافع مرة كل خمس دقائق اذا كان البحارة متمرنين تمرينـاً جيداً . كما كان بالامكان ، اذا احني المدفع احناء معيناً ، ان يبلغ مرمى القذيفة ٤٠٠٠ متر ، ولكن المرمى الفعال تراوح بين ٥٠٠ و ٦٠٠ متر . في السنة ١٧٧٤ ، صبت مصانع « كارون » في سكوتلندا مدفعاً جديداً ، هو المدفع الكاروني ، القصير ، المركب على سند ثابت ، الذي لم يتجاوز ثلث وزن مدفع من العيار نفسه ولم يستلزم العدد عينه من المدفعيين . كانت نيرانه اقل تسديداً ومرماه اقرب مسافة ، ولكنه اتاح تسليح السفن الصغرى ومقدمات الشرعات ومؤخراتها بمدافع يفوق عيارها ما سمحت به المدافع الاخرى . استخدمه الانكليز بسرعة على

نطاق واسع . ولكن استعماله لم يعم في الاسطول الفرنسي الا في عهد الثورة .

الفن الحربي البحري والستراتيجية البحرية

كان المدفعيون يستفيدون من تحرك السفينة بفعل حركة الماء لاطلاق نيرانهم . فقضت الطريقة الفرنسية بالاطلاق حين ترتفع فوهة المدفع بغية اسقاط الصواري . اما الطريقة الانكليزية فقضت بالاطلاق حين تنخفض الفوهة لاصابة السفن العدوة في جسمها . لم يكن القصد اغراق سفن الأعداء اذ ان الخشب كان بالغ السماكة فوق خط العوم وكثرة الألياف كفيلة بسدّ الثقب الذي ما كان ليتجاوز ١٧ سنتيمتراً قطرا اذا ما احدثته قذيفة من عيار ٣٦ لبرة . ولكن القذائف كانت تطير شظايا خشبية شديدة الخطر على البحارة الأعداء الذين حاولوا اتقاءها بشباك مشدودة بين كوة مدفع واخرى وبلف اقمشة كثيرة حول الرأس . وجلي ان الطريقة الانكليزية كانت خيرا من الطريقة الفرنسية ؛ فالبحارة الانكليز كانوا يصلحون بسرعة الاضرار التي تلحقها بصواري سفنهم القذائف الفرنسية التي كثيراً ما لا تصيب الهدف على كل حال ؛ اما القذائف الانكليزية فقلما تذهب سدى ، اذ ان الهدف اوسع مساحة ووثبة القذيفة على وجه الماء امراً ممكناً ؛ لذلك كانت الخسائر الفادحة في الأرواح ، التي يمنى بها العدو ، ترغمه على التوقف عن القتال . وكان تفوق الانكليز هذا السبب الأكبر لانتصاراتهم .

طرأ على الفن الحربي بعض الانحطاط منذ اواسط القرن السابع عشر . لفتت قوة المدفعية الانتباه الى استخدام المدافع خير استخدام . فقدرة السفن على المناورة أتاحت الحركات العلمية المنظمة . وربما انتقلت الى الاساطيل عدوى الآراء السائدة في الجيوش البرية ايضاً . فان الانكليز ، وسواهم من بعدهم ، قد نظموا سفنهم صفاً مستقيماً تفصل فيه بين مقدم سفينة ومؤخر سابقتها مسافة قصيرة جداً ، « الصاري الامامي المائل على الكوثل » . وكان الصف شيئاً مقدساً . فكان الاحرى بكل سفينة ، اذا اقتضى الامر ، ان تترك العدو يقترب منها ويهاجمها من ان تتركه يخترق الصف . ولم يجز لاية سفينة ان تغادر مركزها في الصف حتى ولو اعطبت او حطمت صواريها . كما لم يجز لاية سفينة ان تخرج من الصف لمطاردة سفينة عدوة الا بأمر من قائد الاسطول . وكان واجب القبطان الوحيد الحرص على انتظام الصف واكتماله . فاستحالت من ثم كل مناورة . وغالباً ما اقتصرت المعركة على اطلاق نيران المدافع دون نتيجة حاسمة . وقد قال امين سر الدولة للبحرية الفرنسية ، « موروبا » ما يلي : « هل تعلمون ما هي المعركة البحرية ؟ مناورة ، وتبادل اطلاق نيران المدافع ، ثم انسحاب كل من الاسطولين ... وهذا لا يمنع البحر من ان يبقى مالحاً » .

كان من ثم القضاء على الاساطيل العدوة امراً مستحيلاً . يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان السفن كانت باهظة الاكلاف والقباطنة يتحاشون بالتالي ان تغرق او تصاب بأذى . لذلك تحايدت الاساطيل المتعادية بعضها البعض جهد المستطاع واعتمد البحارة ستراتيجية هي اشبه

« بستراتيجية اللواحق » : مهاجمة تجارة العدو بسفن المطاردة ، الاستيلاء على المستعمرات ، غارات مفاجئة على شواطىء العدو لتدمير تجهيزاته فيها . وقد بلغت هذه الحرب الخاصة ذروة ضراوتها حين تحارب الفرنسيون والانكليز من اجل جزيرة « سانت — لوسي » في الانتيل « اذ رأى الناس مشهداً غريباً لاسطولين راسيين على مقربة من جزيرة بينما كانت جيوش الانزال فيها تتنازع السيطرة عليها » ، وفي السنة ١٧٨١ ، حين غادرت بحر المانش اربعة اساطيل معا ، اسطولان انكليزيان مهمتها نقل المؤن الى جبل طارق ومهاجمة مدينة «الرأس» ، وآخران فرنسيان مهمتها نقل المؤن الى الانتيل والدفاع عن مدينة « الرأس » ، دون ان يفكر احد بان المهمة قد تنفذ خير تنفيذ ، او بالاحرى قد تصبح نافلة ، بتدمير الاسطولين العدوين عند خروجهما الى المحيط حيث لم يبحث كل منهما الا عن تجنب الآخر .

وكان قد سبق للكونت دي برويل ، اخي المارشال ، في اوائل الحرب الاميركية ، ان نادى بحرب تدميرية بغية إنزال الجيوش في انكلترا نفسها والقضاء عليها مرة واحدة . ولكنه لم يلق آذاناً صاغية .

« رودني » و « سوفرين »

ان الذين قاموا بانقلاب ثوري في حقل الحرب البحرية هم الاميرال الانكليزي رودني ، بطل معركة « سانت » الظافر ، والفارس « دي سوفرين » الفرنسي . لنأخذ مثل سوفرين . كان بروفنسيا ورث تقليد قتال التصارع الذي استهوى ضباط السفن الحربية القديمة وحرّكته روح هجومية نادرة . اسند اليه في السنة ١٧٨١ امر الدفاع عن مدينة « الرأس » ، فقام بهذه المهمة قياماً اثار الاعجاب ، ثم طلب اليه تعزيز اسطول « جزيرة فرنسا » في المحيط الهندي ، فغدا قائداً لهذا الاسطول بعد وفاة اميراله ، وتولى في السنة ١٧٨٢ والسنة ١٧٨٣ قيادة حملة الهند الشهيرة التي هزم فيها الاساطيل الانكليزية خمس مرات ومهد لانتصار الجيوش البرية ، فاطلق عليه الهنود لقب « الاميرال — الشيطان » ونظر اليه العديد منهم كما الى الهٍ . وقد طبق في هذه الحملة المبادىء التي اوحت بها اليه حياة سلخها في المعارك .

تدمير اسطول الاعداء هو تنفيذ لكافة المهمات . لذلك كان سوفرين يبحث عن الاسطول العدو وينقض عليه حيثما يجده ، حتى في المرافىء الكبرى دونما اكتراث لمدافع الساحل التي لا يمكن ان تطلق نيراناً فعالة في اشتباك قد يصاب فيه الاصدقاء والاعداء على السواء . انتظام الاسطول صفاً مستقيماً ينطوي على اضرار كبيرة لانه يشل الحركة : لذلك امر سوفرين « بان تصطف السفن للقتال اصطفافاً طبيعياً » ؛ انه في نطاق عمله « لفيلسوف » حقاً . وحتى يكون الهجوم مجدياً ، يجب الا يقتصر على اطلاق نيران المدافع من مسافة بعيدة ؛ يجب الاقتراب الى مسافة لا تتجاوز مرمى المسدس (٣٠ خطوة تقريباً) ، وقد اعطى سوفرين المثل بنفسه على الرغم من القذائف التي طيرت من حوله شظايا خشب طبقته العليا ، والتي نجا منها

كما بمعجزة . ويجب بصورة خاصة الاحاطة بأكبر عدد ممكن من السفن العدوة وتدميرها تدميراً كلياً . نقطة الضعف في الاسطول المصطف للمعركة هي المؤخرة او الذنب . لذلك هاجم سوفرين المؤخرة بجمداً في الوقت نفسه مقدمة الاسطول العدو بخطر الالتفاف . وهـــكذا استطاع ، بسفن اقل عدداً من سفن العدو ، إثبات تفوقه في النقطة الهامة واحراز نصر حاسم .

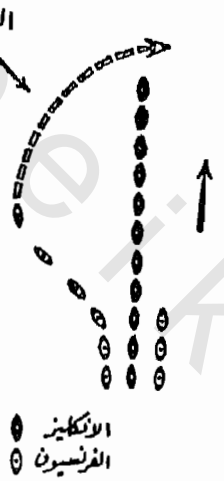

رسم ايحازي لمناورة « سوفرن »

ان هذه المبادىء ، التي تبدو وكأنهـا في منتهى البساطة ، كانت بمثابة انقلاب في آراء اهـل زمانه جعل من المتعذر على مرؤوسيه ان يفهموه جيداً ، فكانت النتيجة ان اوامـــره لم تنفذ بحذافيرها في يوم من الايام . ان سوفرين « قد جـدد الفن الحربي البحري والستراتيجية البحرية وقام في البحر بثورة شبيهة بتلك التي سيقوم بها نابوليون ، بعد سنوات معدودات ، في قيادة الجيوش . وبعمله هذا يحتل سوفرين مركزه بين كبار عباقرة الحرب » .

بعد تحقيق كل هذه التقنيات ، كانت اساطيـــل اوروبا الاساطيل الوحيدة التي مخرت كل البحار ، وكان الاوروبيون البشريين الوحيدين الذين قصدوا كل انحاء العالم .

السفينة التجارية

وظهرت السفينة التجارية اخيراً . في السنة ١٧٥٣ ، خصصت اكاديميـة العلوم في باريس جائزة لمن يتوفق الى توفير وسائل تسد مسد فعل الريح . بحث المركيز الفرنسي « دي جوفروا — دابان » عن الحل . فخطر له في السنة ١٧٧٥ ، بعد ان شاهـــد « مطفأة » « شايو » في باريس ، ان يطبق على السفن الآلة ذات المفعول البسيط التي ابتكرها « جايمس وات » . وتوفق الى حساب المقاومة الواجب التغلب عليها والى ايجاد طريقة نقل الحركة . فألف جمعية صغرى مع بعض الاشراف وانزل الى نهر « دو » زورقاً بخارياً مزوداً بمجاذيف ذات مفاصل سافر بواسطته في النهر خلال شهري حزيران وتمـوز من السنة ١٧٧٦ . الا ان المجاذيف لم تعمل عملها كما ينبغي . فابتكر العجلة ذات اللوحات ، التي اعتمدت من بعده ، وفي ١٥ تموز من السنة ١٧٨٣ صعد نهر السون الى ليون امام ١٠٠٠٠ مشاهـد . حينذاك اراد جوفروا — دابان استثمار اختراعه ، ولكن المتمولين طالبوا ، كضمان لاموالهم ، امتيازاً لمـدة ثلاثين سنة . وقبل الموافقة على هذا الامتياز ، اوعز الوزير كالون الى اكاديمية العـلوم بتأليف لجنة لم تسلّم بالامر بسبب عدم قناعتها : ان الآلة ذات المفعول البسيط لا تفي بالحاجـة لتأمين حركة الدوران المتواصل المطلوب . وفرضت اللجنة على جوفروا اعـادة اختباراتـه على نهر السين في باريس . ولكن جوفروا كان قد انفق كل ثروته ، فاحتقره الاشراف واستهزأت به

الجماهير ، فاقلع عن كل شيء ، مـــع ان الآلة ذات المفعول المزدوج لن تلبث ان تتغلب على كافة الصعوبات .

ان الآلة ذات المفعول المزدوج التي ابتكرها « وات » والتي نقلت حركـة دوران منتظمة جداً قد ادخلت اميركا منذ السنة ١٧٨١ . ان ضفاف الانهر المستنقعة او الكثيرة الاشجار جعلت عملية جر الزوارق امراً مستحيلاً ؛ كما ان المراكب التي تنزل مجاري هذه الانهـر كانت اعجز من ان تصعدها مرة ثانية ، فتتلف او تفكك . لذلك مست الحاجة الى المركب البخاري فعرض الاميركي « فيتش » ، منذ السنة ١٧٨٤ ، مركبا بخاريا اختبره في الســـنة ١٧٨٧ على نهر « ديلاوار » بحضور « واشنطن » وفرانكلن فيه . فثار الحماس ، وتأسست في فيلادلفيـــا شركة برئاسة فرانكلن ، وتدفقت الاكتتابات ، ومنحت الحكومة امتيازاً . واصـل فيتش تجاربه . ولكن جهاز الدفع الذي ابتكره ، وهو في جوهره عوارض خشبية افقيـة يحركها البخار اثبتت فيها مجاذيف عادية ، كان مضيعة لكثير من القوة وعرضة للتعطل . والسبب في ذلك انه استعـان في صنع آلته بحدادين عـاديين : فتميزت بالكثير من العيوب والنواقص . فاعتقدت الجماهير بانها ستتطلب صيانة دائمة واصلاحات كثيرة وانها ستكون باهظة الكلفة . فحدث تحول في الرأي . اما فيتش الذي تخلى عنه الجميع ونعت بالجنون ، فقد انتحر في السنة ١٧٩٣ . الا ان الحل سيهتدي اليه في اوائل القرن التاسع عشـر مواطنـه « فولتون » الذي سيقلب ظروف الملاحة والنقل وكل الاقتصاد رأساً على عقب .

الفصل الثالث

الثورة المالية والصناعية

الروح النفعية

في اوروبا القرن الثامن عشر اتسعت الثورة المالية التي بدأت في القرنين السابقين ، وحدثت ، لا سيما بعد السنة ١٧٦٠ ، ثورة صناعية حقيقية استهلت عهد فن اختراع الآلات واستعمالها . اتجه الاهتمام شطر الفنون الميكانيكية . فان اعظم قاموس حققه القرن هو « دائرة المعارف » القاموس المعلل للعلوم والفنون والحرف » الذي اعطت مجلدات نصه السبعة عشر ومجلدات لوحاته الاحد عشر معلومات جزيلة الفائدة حول اجهزة ميكانيكية كثيرة وطرائق صناعية لا حصر لها . مجد المؤلفون التقنية . ودهش دالمبير في « الخطبة التمهيدية لدائرة المعارف » من « الاحتقار الذي ينظر به الى الفنون الميكانيكية » « ومخترعيها انفسهم » ، ومن أن « اسماء هؤلاء المفضلين على الجنس البشري مجهولة كلها تقريباً » ، في حال أن تاريخ مخربيه ، واعني بهم الفاتحين ، لا يجهله احد . ومع ذلك ، ربما توجب البحث لدى الصناعيين اليدويين عن اشد البراهين إثارة للعجب على بصيرة العقل وطول اناته وامكاناته ...» وطرح على نفسه هذا السؤال : « ... وكي لا نخرج من نطاق صناعة الساعات ، لماذا لا يحظى اولئك الذين ندين لهم بزنبرك الساعة والمنظمة والدقاق بالاعتبار نفسه الذي حظي به اولئك الذين عملوا على التوالي على تكييل الجبر ؟ » . وذهب فولتير في استغرابه الى أبعد من ذلك :

« من يستطيع تصديق ذلك يا ترى ؟ المجنون الذي يكرر سفاسف الفلسفة المدرسية طوال سنتين يتلقى جلاجله وصولجانه في احتفال رسمي ، فيتبختر ويقرر ؛ وهي مدرسة «بدلام» هذه التي تمهد الطريق لبلوغ المراتب السنية والثروات . توما وبونافنتورا يتألقان فوق المذابح ، واولئك الذين اخترعوا المحراث والمكوك والمنجرة والمنشار لا يعرفهم احد » .

توافر رؤوس الاموال

ما كانت تقدمات الصناعات لتصبح ممكنة بدون رؤوس اموال وبدون وسائل دفع خاصة . والحال ما انفكت رؤوس الاموال خلال القرن تتجمع وتتكدس ، ووسائل الدفع تتكاثر ، والاسعار والارباح والأجور الاسمية ترتفع . ازداد حجم المعادن الثمينة من جهة وتكاملت وانتشرت التقنيات المالية من جهة اخرى .

تدفق المعادن الثمينة

ان التجارة ، ولا سيما التجارة البحرية والاستعمارية الكبرى قد جمعت رؤوس الاموال في اوروبا الغربية حيث تكدس ، طوال القرن ، معظم انتاج الذهب والفضة في العالم ، تكدساً مستمراً متزايداً . وكان المنتج الأكبر مستعمرة المكسيك الاسبانية حيث استثمرت مناجم جديدة ؛ ولكن هنالك مستعمرات اخرى كثيرة انتجتها ايضاً[1] . افاد تدفق المعادن الثمينة دول اوروبا الغربية في الدرجة الاولى . فقد دخل على انكلترا ذهب وفير من البرازيل بعد معاهدة « ميتوين » (١٧٠٣) بينها وبين البرتغال ؛ ومنذ معاهدة باريس (١٧٦٣) وضعت يدها على تجارة هندوستان ، باب الشرق الأقصى ، واستأثرت بمعادنها الثمينة . وتلقت فرنسا معدناً ثميناً وافراً من الامبراطورية الاسبانية بفضل التجارة الكبرى التي نشطت بينها وبين اسبانيا وحتى بينها وبين الامبراطورية مباشرة بالاتفاق مع بعض تجار قادش الاسبانيين . واستفادت هولندا من هذا التيار ، ولكن بنسبة دنيا ، لأن صناعتها تأخرت وانخفض حجم صادراتها تدريجياً . أما دول اوروبا الاخرى فلم تستفد منه الا استفادة محدودة ، لأن بعضها ، كاسبانيا والبرتغال ، كان شبه خال من المعادن الثمينة بفعل اضطراره الى استيراد الكثير من البضائع ، والبعض الآخر ، كالنمسا وبروسيا وروسيا ، كان بعيداً عن البحار دون مستعمرات ودون تجارة كبرى على بعض الأهمية .

ولكن المعادن ما كانت لتكفي للمدفوعات . فان سرعة تداولها المحدودة قد جعلت الناس يشعرون شعوراً اعظم بنقص حجمها . يضاف الى ذلك ان نقلها كان باهظ الاكلاف ومحفوفاً بأخطار السرقة . فكان باستطاعة الفرنسيين ، حتى في السنة ١٧٨٢ ، أن يروا ، في المدن التجارية الكبرى ، في العاشر والعشرين والثلاثين من كل شهر ، بين الساعة العاشرة والساعة الثانية عشرة ، حمالين يسيرون بسرعة في كل الاتجاهات ناقلين اكياساً ملأى بالفضة تنوء عليهم بثقلها . وكانت وكالات الشحن تنقل بين مدينة وأخرى اكياساً تتسع لـ ٢٠٠ دينار يساوي الواحد منها ٦ ليرات ، وتصر في صناديق مسطحة مغطاة بالتبن ومشدودة بالحبال، لقاء ليرتين لكل الف ليرة حتى مسافة ٢٠ فرسخاً ، وليرة لكل ١٠٠٠ ليرة عن كل ١٠ فراسخ فوق الـ ٢٠ فرسخاً . فكان هناك ، كما هو جلي ، ما يحمل المشتري على التردد والتراجع .

---

(١) قدر سونبر الانتاج العالمي ، بالكيلوغرامات ، كما يلي :

	فضة	ذهب	نسبة الزيادة
١٧٠١ - ١٧٢٠	٣٣٥ ٠٠٠	١٢٨٢٠	١٠٠٨ ٪
١٧٢١ - ١٧٤٠	٤٣١ ٢٠٠	١٠٠٨٠	٢١٠٢٦ ٪
١٧٤١ - ١٧٦٠	٥٣٣ ١٤٥		٢٣٠٦٤ ٪
١٧٦١ - ١٧٨٠	٦٥٢ ٧٤٠		٢٢٠٣٤ ٪
١٧٨١ - ١٨٠٠	٨٧٩ ٠٦٠		٣٤٠٦٧ ٪

ولا عجب والحالة هذه ، اذا ما اتقن القرن الثامن عشر كل التقنية المصرفية .

النقد الورقي

احدثت هذه الاخيرة شيئاً فشيئاً منـــذ القرون الوسطى في كبريات مدن التجارة الدولية ، البندقية ،جنوى، جنيف ، انفرس ، اوغسبورغ ، وحسنت تحسيناً عظيماً في القرن السابع عشر على يد الهولنديين الذين صدروها الى انكلترا ، وتقدمت تقدماً كبيرا بفعل معاملات البيع والشراء بالدين التي فرضتها حرب وراثة عرش اسبانيا ، فتكـاملت في القرن الثامن عشر وانتشرت في دول البر الاوروبي الكبرى عن طريق فرنسا وبلغت شرقي اوروبا .

الاوراق النقدية

تعاطى العمليات المصرفية على أنواعها مصارف دولة (لندن ، امستردام) ومصارف خاصة ، وكتاب عدل ، وسماسرة تجارة . فكان هناك الإيداع ، والتحويل ، والورق النقدي ، والسفتجة ، والحسم ، وشركة التوصية ، والقروض لقاء رهونات عقارية أو اوراق مالية أو قروض لآجـال قصيرة ، والدخول الدائمة ومدى الحياة ، والاسهم ، والسندات . وموورست في المصافق ، بواسطة الدلالين، تجارة الاوراق المالية ، والصفقة المؤجلة، والتسليف على الاوراق المالية ، والبيع لآجال قصيرة .

وارتبطت التأمينات على الحياة بهذه المضاربات . وقامت منذ ذاك الحين منازعات ضارية بين المساومين على الارتفـــاع والمساومـين على التدني ، فحـــاول هـــؤلاء بحجم المبيعات، واولئك بحـــجم المشتريات، لآجـــال قصيرة ، تحويـل الاسعار لمصلحتهم . واستغلت الاخبار السياسية : الانتصار ، الهزيمة ، المعاهدة ، المفاوضة ، ارتقاب تغيير وزير أو عشيقة ، واتجاه سياسي جديد ، التي كانت تنبىء بأن سوقا استعمارية أو صفقة كبرى ستنتقل من يـد الى يد اخرى فتؤثر تأثيراً عظيماً جداً في اسعار اسهم الشركات التجارية . ومنذ ذاك الحين لم تكن الاشاعة الكاذبة والدسيسة السياسية امراً مجهولا. جرى النقد مجرى السياسة وغالباً ما أثر فيها. استخدمت من ثم كافة الاساليب الهامة ولكنها لم تستخدم استخداماً سوياً في كل مكان .

النقد الورقي في هولندا

دانت هولندا منـــذ زمن بعيد لتجارتها العالمية بالعمولة ولدورها كـ « جوالة البحار » بكونهـــا الدولة الاوروبية التي استخدمت فيها كل هذه الاساليب استخداماً ماهراً جـــداً في مصرف امستردام ومصفقها . في امستردام اتجر بسفتجات اوروبا جمعاء ، وفي مصفقها حدّدت اسعار كافة الاوراق المالية . وابتكر الهولنديون في القرن الثامن عشر القرض لقاء رهونات لفلاحي « سورينان » : فكان دين المدنيين مؤمناً عليه بالمغارس . ولم تتح قروض هولندا استثمار ممتلكاتها زراعياً فحسب ، بل استثمار الهند الغربيـة (انتيـل) الفرنسية والانكليزية والمستعمرات الدانمركية ايضا . وقد قدمت هولندا اكثر من ثلث رؤوس الاموال الموظفة في المشاريع الصناعيـــة المؤسسة في مختلف الدول الالمانية . ففي السنة ١٧٨٧ بلغت دخول هولنـدا في الخارج ١٢٣ مليوناً ، أي ما يعادل ٦٢ فلورين لكل هولندي ، وهو مبلغ ضخم لعمري . إلا ان اهمية الهولنديين النسبية قـد اخذت في التدني منذ

السنة ١٧٥٠ بتوسع مستعمرات البلدان الاخرى وتجارتها وصناعتها . وبصورة خاصة تأخرت الصناعة الهولندية لأن الدول التجارية قد حدّت من تصدير الخامات التي يفتقر إليها الهولنديون. فأرغم الهولنديون من ثم على شراء قسم كبير من المصنوعات التي سيقايضونها ، فباعوها بأسعار تفوق اسعار منتجيها . وتقهقرت بالتالي تجارتهم وتأخر تدفق رؤوس الاموال على امستردام .

في انكلترا

تفوقت انكلترا تفوقاً متزايد الاهمية بفضل ازدهار تجارتها البحرية الكبرى وصناعتها . بعد معاهدة اوترخت (١٧١٣) التي حدت من المزاحمة الفرنسية ، ولا سيما بعد معاهدة باريس (١٧٦٣) التي فتحت ابواب الهند للانكليز ، تدفقت رؤوس الاموال . وزع مصرف سكتلندا ارباحاً تعادل ٢٠٪ . وبفضل مصرف انكلترا ومصفقها ، سارت لندن قدما في طريق التفوق على امستردام . لجأت الدولة الانكليزية ، التي ثقلت عليها الديون بسبب حرب وراثة عرش اسبانيا ، الى قروض كثيرة ، ولكنها اعتمدت في عقدها اساليب حكيمة . فلم تقترض إلا في حالات استثنائية ، لا لتغطية العجز ولا لتأمين الانفاق العادي . سددت المتأخرات تسديداً شديد الدقة باحداث ضرائب مقابلة . وفرت كافة التسهيلات للافراد لبيع الدخول: الملاك يقصد سمساراً يتصل بالشاري ؛ الملاك يوقع تخلية مؤلفة من سطرين على قصاصة ورق ؛ يذهب والشاري الى المكتب حيث توجد سجلات الاملاك العامة ؛ فيتم الانتقال دون نفقة من حساب البائع الى حساب الشاري ؛ ولا تستلزم هذه العملية كلها سوى ١/٨٪ يشكل عمولة السمسار . اما في هولندا وفرنسا فكان متوجبا على الملاك الاخير ان يحتفظ بوثائق تسلسل انتقال الملك إليه . وكانت هنالك في فرنسا صعوبات اخرى كثيرة ايضاً .

ارتفع عدد الشركات المساهمة ارتفاعا كبيراً : شركات التأمين ضد الحريق ، على الحياة ، على الزواج ، الخ . فقد بلغ هذا العدد في انكلترا ، منذ اوائل القرن ، ١٤٠ شركة مساهمة . في ٢٦ آذار ١٧١٤ اصدر « جون فريك » في لندن اول بيان اسبوعي بالاسعار . وفي حمى المضاربة ، التي حدثت في السنة ١٧٢٠ ، بتأثير مثل « لو » في فرنسا ، تأسست شركات غريبة جداً : شركة رأسمالها مليون جنيه استرليني من اجل عجلة دائمة الدوران، وأخرى لأجل تكرير مياه البحر. وعلى غرار «لو» في فرنسا تقدم مصرف انكلترا وشركة البحر الجنوبي باقتراح الحلول محل الدولة تجاه دائنيها مقابل فائدة تناقصية يستوفيانها من الدولة . وأدت المضاربة الجامحة في السنة ١٧٢٠، كما حدث في فرنسا ، الى تضخم مفرط في الاسهم ، ثم الى اختلال وانهيار، ولكن فقدان الثقة في الشركات المساهمة لم يدم طويلاً ، كما في فرنسا، إذ لم تمض سنوات معدودات حتى استعادت هذه الشركات ازدهارها .

وكانت جنيف مركزاً مالياً عظيم الاهمية . وقد بلغ من مهارة تجارها الماليين ان قال عنهم الدوق « دي شوازول » ما يلي : « ان اتقانهم للحساب قد بلغ مبلغاً يوجب علينا ، إذا ما رأينا

جنيفياً يلقي بنفسه من نافذة الدور الثالث ، ان نحذو حذه بكل طمأنينة ، اقتناعاً منا بأننا سنكسب ٢٠٪ بالسير على خطاه » .

في فرنسا

تأخرت فرنسا عن ركب كل هذه الدول لان التجارة فيها أقل نمواً وتقدماً ، ولأن الكاثوليكية فيها دين الدولة . الحق القانوني والحق المدني يحرمان الفائدة التي تؤمن كسباً دون مشقة ودون مسؤولية . ولا يجيزانها الا عندما يتعرض المال لخطر أكيد كما في الشركات البحرية مثلاً . في السنة ١٧٤٥ تقدم بعض صيارفة « انغوليم » ، الذين عجزوا عن استرداد مالهم من مدينيهم المتمنعين ، بدعوى الى القضاء ، ولكنهم فوجئوا بالحكم عليهم لعدم صحة الدعوى : خالفوا القانون بالادانة بالفائدة ؛ فخسارتهم من ثم قصاص عادل .

الا ان الدين بالفائدة انتشر بحكم الضرورة . لا بل ان فرنسا عرفت ، قبل « لو » ، الشركات المساهمة ، والسند لأمر حامله ، والصفقة المؤجلة ، اقله بأشكالها الاولية . وخلال القرن الثامن عشر ادخل بعض السكتلنديين ، من امثال « لو » ، والسويسريين من امثال « نكر » و « بنشو » و « كلافيير » ، الى فرنسا ، كل التقنيات المعروفة في البلدان الأخرى ، وقد تمت في فرنسا آنذاك اهم الاختبارات وابعدها اثراً دولياً .

ان ما جعل الناس يعملون بآراء جون لو ليس حاجات التجارة الكبرى ، على الرغم من نموها مع اسبانيا وهولندا وانكلترا وألمانيا والهند حتى السنة ١٧٦٠ ، ومع الانتيل طوال القرن كله ، بل حاجات دولة اصبحت على قاب قوسين من الافلاس في اعقاب حروب لويس الرابع عشر . النقد في نظر لو وسيلة مقايضة . فالمسأله الكبرى هي من ثم الاسراع في ترويج النقد لمضاعفة الشراء والبيع باطراد ومضاعفة الانتاج بالمقابلة . وجلي بالتالي ان «لو» من مشايعي النقد الورقي المتحمسين . افلح في اقتراحه على الحكومة الحلول محلها تجاه دائنيها ووفاء الدين تدريجياً . استحصل من الوصي على العرش ، في السنة ١٧١٦ ، على اجازة بتأسيس مصرف خاص كانت ثلاثة ارباع رأسماله ديوناً على الدولة . وفي السنة ١٧١٧ ، أسس شركة الغرب التي كان مفروضاً ان تستخدم اوراقاً نقدية يصدرها المصرف والتي قبضت ثمن أسهمها سندات ملكية . ثم اشرك في جمعية جبارة اطلق عليها اسم « النظام » ، مصرفه الذي اعطي صفة المصرف الملكي في السنة ١٧١٨ ، وشركة الغرب التي تحولت في السنة ١٧١٩ الى شركة الهند ، بغية استثمار الميسيسبي وكندا والانتيل وغينيا والمحيط الهندي والشرق الأقصى ؛ وضم اليها التزام التبغ وسك النقود وجباية الضرائب . فكان ان الآمال في ارباح طائلة ، التي قوتها دعاوة ماهرة ، رفعت سعر الأسهم من ٥٠٠ ليرة الى اكثر من ١٨٠٠٠ ليرة . الا ان ربيحة الـ ٤٠٪ التي بُشر بها في كانون الاول ١٧١٩ ما كانت لتمثل ، بالنسبة لهذا السعر ، الا ١٪ أو أكثر بقليل . اخذ المضاربون بالبيع . وانخفضت قيمة الأسهم . وتضعضعت الثقة حتى

في اوراق المصرف النقدية ؛ فتزاحمت الجماهير مطالبة بأن تدفع لها حقوقها نقوداً معدنية . ولكن ما كان اصدره لو من النقد الورقي قد فاق موجودات صناديقه من هذه النقود ، فاضطر المصرف الى اقفال ابوابه . وفي كانون الاول ١٧٢٠ انخفضت قيمة سهم الشركة الى ليرة ذهبية ، فأفلس « لو » وتوارى عن الانظار . ان لو قد خفف وطأة دين الحكومة وانهض المشاريع التجارية والصناعية وأحدث انقلاباً اجتماعياً وولد في الناس كراهية النقد الورقي والبيع والشراء بالدين . «منذ«لو»، بات [النقد الورقي] موضوع اشمئزاز لا بل موضوع رعدة وفزع » . أنف الفرنسيون من المصرف وذكره . فتأخرت انطلاقة الثقة في المعاملة ، وتأخرت معها الانطلاقة الصناعية والتجارية .

في السنة ١٧٢٤ فتح مصفق باريس ابوابه . ولكن تسليم الاوراق المالية حدد بأربع وعشرين ساعة ؛ وحرّمت الصفقة المؤجلة . وقد ووفق على فتحه في السنة ١٧٨٠ . استفاد الوزير « كالون » منه لمحاولة رفع سعر أسهم شركة الهند بوسائل الاب « دسبانياك » . ولكن القضية انتهت الى غير ما يشتهيه ذووها وحلت امام القضاء في عهد الثورة .

في السنة ١٧٧٦ أسس سويسري وسكتلندي « صندوق الحسم » متجنبين بحكمة كامة مصرف . حسم الصندوق السندات التجارية وتقبل الودائع وأصدر سندات لم تعرف قط رواجاً خارج باريس . ومنذ السنة ١٧٧٦ تأسس بانصيب فرنسا الملكي الذي اصدر في السنة ١٧٨٣ سندات تعين فائدة لحاملها وتسدّد خلال ثماني سنوات ، كانت مماثلة للسندات الطويلة الأجل على الخزانة . وفي السنة ١٧٧٧ تأسس « مصرف المحبة » لمحاربة الربى فأقرض التجار ، أهم زبنه آنذاك ، أموالاً لقاء رهونات .

منذ السنة ١٧٥٠ ، ولا سيما منذ السنة ١٧٨٠ ، انتشرت الشركات المساهمة انتشاراً واسعاً: شركات معادن الفحم الحجري ، مؤسسات التعدين ، مصانع الغزل ، المصارف ، التأمينات البحرية . تولت « صحيفة باريس » وصحيفة فرنسا نشر لائحة الأسعار . وتأسست بشكل شركات مساهمة شركة « انزين » (١٧٥٧) وشركة « انيش » (١٧٧٣) لاستخراج الفحم المعدني ؛ وشركة القطن ، في « نوفيل - لارشفيك » على مقربة من ليون (١٧٨٢) ، التي وزع رأسمالها على ٢٤ سهماً قيمة كل منها ٢٥٠٠٠ ليرة ، فساعد على تزويد المصنع بأحدث الآلات ؛ ومصانع الفولاذ في امبوي (١٧٨٤) التي حدد رأسمالها بمليونين ؛ وأول شركة فرنسية للتأمين ضد الحريق اسسها السويسري كلافيير (١٧٨٨) ؛ وعدد كبير آخر من الشركات ، لتبطين السفن مثلاً ، او تنقية الفحم الحجري ، او صناعة التراب العضوي القابل الاحتراق . واستخدم السند لحامله لتأسيس مصنع « له كروزو » في السنة ١٧٨٢ كي ينصهر فيه ، في السنة ١٧٨٥ ، معمل الملكة للبلور ومعمل صب المعادن الملكي في « اندريه » و « مونسليس » ، برأسمال قدره عشرة ملايين موزعة على ٤٠٠٠ سهم ، فبات الملك مساهماً .

وهذا دليل على ان الصناعة الكبرى واستخدام الآلات قد ارتكزا الى الدين .

في البلدان الاخرى

في البلدان الأخرى ، عرفت المحلات التجارية الكبرى الدين منذ زمن بعيد . فمنذ السنة ١٧٢٠ قامت في همبورغ شركات تأمين بحري . ولكن الدول الكبرى كانت جـــدّ متأخرة . ففي الدول النمساوية ، أراد شارل السادس ، متأثراً بمثل « لو » ، تأسيس «شركة اوستند » معوّلاً عـــلى المؤسسات التجارية والمصارف في اوستند وانفرس . ومنذ السنة ١٧٥٠ أصدرت النمسا نقـداً ورقياً ، وحذت حذوها كل من اسوج وروسيا واسبانيا . ولم يكن هناك مصفق رسمي بل مصافق « سوداء » في برلين وفينّا. وأسس فردريك الثاني مصرف بروسيا في السنة ١٧٦٣ حين عجز عن مواجهة واجباته في أعقاب حرب السنوات السبع .

الثورة الصناعية في انكلترا

اننا نشاهد في انكلترا المرحلة الاخيرة لانتقال اقتصاد مبني على الماء والخشب الى اقتصاد مبني على الفحم والحديد . في السنة ١٧١٤ ، مـــا زال الخشب يستخدم لكل شيء . لا شك في انه استخدم وقوداً ، ولكنه هو ما وفّر الاشنان لصناعات المنسوجات والزجاج ، والقار للسفن . واستخدم كذلك في دباغة الجـلود . ولكن انكلترا عانت « مجاعة » خشب عرضت كل نموها للخطر . لذلك فنحن نشاهد الانتقال من اقتصاد مبني على استثمار المحاصيل النباتية والحيوانية الى اقتصاد مبني على استثمار المصنوعات المعدنية . ففي تبييض المنسوجات مثلاً ، استخدم اللبن الحازر . ولكن الزراعة ما كانت لتوفر المنظفات الـكافية لصناعة المنسوجات التي ادى ذلك الى عرقلة انطلاقتها . فبات لزاماً استخراج المنظفات من المواد المعدنية ، وهذه هي مسألة الانتقال من الملح الى الاشنان التي لعبت دوراً كبيراً.

الصناعة المنزلية

في السنة ١٧١٤ ، لم تكن الصناعة ، في انكلترا كما في اي بلد آخر ، المورد الأهم ، مع انها نمت فيها اكثر من غيرها . كان اكثر اشكال الصناعة انتشاراً الصناعة المنزلية التي ازدهرت في صناعة الصوف الهامة بنوع خاص . فان عمالاً يدويين كثيرين ممن وزعوا حياتهم بين الصناعة والفلاحة قد امتلكوا ادواتهم . كانوا يشترون المادة الخـــام ويحولونها في منازلهم بمساعدة زوجاتهم واولادهم ، وبعض العـمال احياناً . وكانوا ينقلون مصنوعاتهم على عربتهم التي يجرها حصانهم بغية بيعها في سوق البلدة . وكانوا يزرعون بضعة هكتارات من الاراضي . ويربون بعض الماشية بغية تأمين كفافهم من الموارد . فهم من كانوا ينتجون اقمشة وسكاكين شفيلد واسلحة برمنغهام وادواتها المعدنية ولعبها ، ودبابيس بريستول، اي قسماً كبيراً مما كان يصدر الى موانىء الشرق الادنى وحتى الى اميركا .

التركيز التجاري
تقسيم العمل والانتاج بالجملة

الا ان العلائق ببلدان ما وراء البحار ، والمقايضات المتزايدة ، والطلب المتعاظم ، وحاجات الزبن الجدد او اذواقهم الخاصة ، والوقوف في وجه المزاحمين ، قد ادت الى تركز الصناعة تركزاً تجارياً. اراد بعض التجار الجواخين وبائعي الادوات المعدنية ولعب الاولاد نوعية فضلى ؛ وسعراً

ادنى ايضاً ، فارادوا في سبيل هذه الغاية فرض طرائقهم الصناعية على المنتجين وفرض كسب محدود . وتوصلوا الى ما ارادوا اما بتزويد فلاحي المناطق الخلوة من الصناعة بالانوال ، واما بالاستفادة من جدب الحصائد وحاجات العمال المنزليين ليستولوا على ادواتهم تسديداً لاموال يسلفونهم اياها ، واما بتوفيرهم على العامل مالك الأدوات انتقالاته للبحث عن المادة الخام ولبيع مصنوعاته . اخذوا على انفسهم ايجاد الموّانين والشارين. كان ذلك اول تقسيم للعمل جعلهم اسياد السوق ، ومن ثم اسياد المصنوعات وصناعتها . فالتاجر الذي عرف باسم الصناعي او صاحب المصنع، يقدم المواد الخام، اي الصوف والقطن والقنب والحديد ، والأدوات والنماذج. اما العامل فينفذ العمل . ثم يعود الصناعي فيطلب الأشياء المصنوعة ويبيعها . وهكذا اصبح العامل اليدوي عاملاً مأجوراً بعد ان كان صناعياً مستقلاً . هذه هي مرحلة المصنع ، التعبير الذي لا يعني مؤسسة كبرى بل مجموع المصانع الفردية التي تعمل لأجل تاجر هو متعهد رأسمالي . وضم المصنع احياناً ، بالاضافة الى ذلك ، مشغلاً كبيراً تجمع فيه المصنوعات لأعمال الصقل النهائية . ومنذ هذه المرحلة ادخلت تحسينات كبرى على تقنية الصناعة : « توزيع العمل » و « الصناعة بالجملة » ، قبل اختراع الآلات واستعمالها. بدأ توزيع العمل بصناعة الصوف حيث مهد له السبيل نوع التقنية : الغسل ، التقصير ، الطرق ، الحلاجة ، الندافة ، الغزل ، الحياكة ، الجز ، الكشط . فان المهارة التي يحققها العامل الاختصاصي في احدى العمليات زادت من انتاجه كماً ونوعاً في الوقت نفسه وخفضت سعر الكلفة لانتاج افضل . ولا عجب من ثم اذا ما تكاملت هذه المهارة على مر الايام . فافضت حيث امكن ذلك الى الصناعة بالجملة، كما في مصنع الدبابيس الصغير ، الذي وصفه «آدم سميث» في السنة ١٧٧٦ ، وحيث قام كل عامل اما بواحدة، واما باثنتين او ثلاث من العمليات الثمانية عشر التي تطلبتها صناعة الدبوس الواحد ، وتوصلوا بعمل يدهم الى انتاج ٤٨٠٠٠ دبوس يومياً .

العامل

وكان هنالك اخيراً ، في الصناعات التي استلزمت آلات معقدة التركيب وباهظة الاكلاف ، بعض « معامل » تجمع فيها الأجهزة والعمال ، كما في صناعة الحرير مثلا . فقد جهزت بعض الشركات الساهمة بعض مناجم النحاس ؛ كما امتلك بعض ارباب معامل الحديد من النبلاء ، مصهرا او مصهرين ، ومعمل حدادة وانتجوا خمسة وستة اطنان اسبوعياً .

الآلات
اسباب اختراعها

وتحققت تحسينات جديدة بفضل نمو التجارة . ان هذه الأخيرة خلقت الحاجة : زبن جدد في بلدان ما وراء البحار ، اذواق جديدة عند الزبن الانكليز ، منافسون جدد . استوردت ليفربول من الشرق منسوجات قطنية ادى النجاح الذي عرفته الى قيام صناعة مماثلة في منشستر ، وغدت ليفربول تستورد المادة الاولى ، القطن الخام . الا ان ذلك اوجب حينذاك مجاراة عمال آسيا القانعين بمستوى حياة

متدن ، والمتجملين بخفة يدوية لا نظير لها عند الاوروبيين . فكان ذلك أحد الأسباب الرئيسية لاختراع آلات جديدة. وقد سبق أن لفت أحد الابحاث المغفلة الانتباه «الى ان تجارة الهند الشرقية، بتوفيرها مصنوعات ادنى سعراً من مصنوعاتنا ، سترغمنا في الأرجح على اختراع طرائق وآلات تتيح لنا ان ننتج بيد عاملة قليلة وبكلفة متدنية ، ومن ثم ان نخفض سعر المصنوعات » . ان الآلات كلها ، والاختراعات كلها بصورة عامة ، ولدت من فقـــدان التوازن الاقتصادي ومن الحاجة الى تخفيض اسعار الكلفة ، ولكنها ولدت كذلك من امكان الحصول على رؤوس اموال بفائدة ضئيلة وتحقيق ارباح كبرى . وقد كثرت في البدء ، كما هو طبيعي ، في الصناعات التي لم تكن خاضعة لأنظمة التعاونيات ، كصناعة القطن مثلاً ، وهي احدث عهداً من ان يأخذها المشترع بعين الاعتبار . ففي الصناعة القطنية حدّد عرض الأثواب بعرض ذراعي العامل ، بسبب مرور المكوك . وإذا ما طلب ثوب اوسع عرضاً توجب استخدام عاملين وفاق ارتفـاع سعر الكلفة ارتفاع الأرباح . وهذا ما حدا بـ «جون كاي» الى البحث عن مكوكه المتحرك ، والى ابتكاره في السنة ١٧٣٣ ، فأتاح هذا المكوك انتاج اثواب بالعرض المطلوب . ثم عم استعماله حوالى السنة ١٧٦٠ . وفي صناعة استخراج المعادن وتنقيتها ، حدّ نقص المحروقات من انتاج الحديد وحديد الصب ، اذ ان اشجار الغابات كانت تقطع لتوسيع المراعي . فتوجب استيراد الحديد من السويد لصناعات برمنغهام وشفيلد ، ولكنه كان باهظ الثمن ورفع سعر الكلفة رفعاً مفرطاً ، بينما تعرض ارباب المصاهر من الانكليز للافلاس . فدفع ذلك بعض آل «داربي» ، في السنة ١٧٣٥، الى ابتكار الحديد المصبوب بالفحم الحجري المقطر ، لأن الفحم الحجري غير المقطـــر ينشر مركبات كبريتية تجعل حديد الصب قصماً . اما الآلة البخارية فقد ولدت من عجز الانهار عن تحريك عجلات الآلات ، وعن صعوبة احداث الخزانات ، الباهظة الاكلاف على كل حال. واستخدمت الآلة التي سيرها « نيوكومن » (١٧٠٥) بالبخار الجوي لرفع الماء الذي يسقط بعد ذلك على العجلات ذات اللوحات ، ولتحريك المضخات بغية تفريغ ماء المناجم .

المخترعون

لم تكن كل هـذه الاكتشافات ، في البدء ، عمل العلماء ، بل عمل محترفين مهرة متمكنين من الطرائق التقنية المستعملة وواقفـين بالممارسة على موضوع ابحاثهم . فان جون كاي قد كان حائكاً في البدء ثم صانع منافش للانوال. ومن بين مخترعي آلات الغزل، كان « هارغريفز » ، الذي ابتكر في السنة ١٧٦٥ ، آلة لغزل عدة خيوط دفعة واحدة ، حائكاً ثم نجاراً ؛ وكان « توماس هايز » ، الذي ابتكر « المغزل المائي » (١٧٦٧) عاملاً نفاشاً بسيطاً ؛ وكان كرومبتون، الذي ابتكر آلة تجمع بين الآلتين (١٧٧٩)، غزالاً وحائكاً. وكان كارتريت ، مبتكر آلة الحياكة ، راعياً محباً للبشر ، ومجرد هاوٍ في علم الآليات . وكان آل داربي ارباب مصاهر ؛ وتحقق تحويل حديـد الصب الى حديد ، في السنة ١٧٨٣ ، على يد « بيتر أونيونز » ، رئيس العمال في احـد المصاهر ، « وهنري كورت»، احد ارباب المصاهر . وان الآلة البخارية، التي اكتشفت في القرن السابع عشر وجعلت صالحة للعمل على يد نيوكومن،

الحداد والقفّال ، اصبحت عملية حقاً على يـــد « جايمس وات » ، صانع الآلات المختبرية . ولكن هذا الاخير أفاد من قياس الحرارة الذي حققه « بلاك » . وهكذا انضم العلم الى التقنية . وبعد تحقيق هذه الطرائق كلهـا ، درسها العلماء واكتشفوا نواميسها ، وتوفقوا بواسطتها ، في القرن اللاحق ، الى اكتشافات علمية وتقنية جديدة .

نجاح الاختراعات

لقـــد سبق هذه الاختراعات كلها مرحلة طويلة من السعي والبحث والاخفاق . فقبل هارغريفز وهايز ، اكتشف « جون وياث » و « ولويس بول » آلة غازلة جيدة (١٧٣٣ – ١٧٣٩) . وقبل آل دربي ، يبدو ان « دادلي » قد توصل ، منذ أواخر عهد جـاك الاول ، الى اكتشاف مبدأ الحديد المصبوب بالفحم الحجري المقطر ، وهنالك حالات اخرى كثيرة . ولكن المخترعين الاول قد اخفقوا في البدء بسبب عـــدم كفاءتهم العمليـــة وافتقارهم الى الروح التجارية . اتقنوا التفكير والادراك والاكتشاف دون النقاش والحساب والبيع والشراء . وغالباً ما كانوا وجلين وجزعين ومتريبين دون طموح حقيقي اقتناع بالاكتشاف ، شأن هايز ووات . وقد اصطدموا على الاخص بمقاومات الصناعيين الحذرين ابداً بسبب خوفهـم من خسارة المـــال ، ومقاومات العمال المعادين للآلة الذين يخشون فقدان مرتزقهم فيحطمون ويحرقون الآلات . وقـد توجب ، حتى تفرض هذه الاخيرة نفسها ، ان تصبح الازمات الاقتصادية ، التي دفعت الى البحث عنها ، من الشدة بحيث تبدو الآلات بوضوح وكانها السبيل الوحيد الى التغلب عليها . مات معظم المخترعين مغمورين وفقراء . ولكن سـرهم سرقه واستخدمه الصناعيون الذين رفضوا مكافأتهم . فان « آركرايت » قد انتحل آلة هـايز الغازلة واكتشافات ثانوية عديدة حققها كثيرون غيره . كان تاجراً ماهراً ، فنجح وجمع ثروة طائلة وغدا « سير » وعظيماً بين العظماء . وقد عزا اليه مواطنوه إثراء انكلترا ونجاح الصراع الطويل ضد فرنسا ، مغفلين عدم استقامته . وجعل « كارليل » من اركرايت احـــد ابطاله وقارنه بنابوليون . وحالف جايمس وات الحظ بموافقته بولتون البوريتاني الذي شجعه وسانده وبنى الآلة وجعلها تفرض نفسها بعد سنوات طويلة من الصراع .

ترابط الاختراعات في صناعة النسيج

احـــدث كل اختراع تخلخلاً اقتصادياً جديداً اوجب البحث عن آلات جديدة . فقـــد توالدت الاختراعات . ارتفعت نسبة انتاج المنسوجات ارتفاعاً كبيراً بفضل المكوك المتحرك بينما بقي الخيط يغزل بالدولاب . افتقر الحاكة الى الخيط لا سيما في فصل الصيف حين ينصرف الغزالون والغزالات الى اعمـــال الحصاد . وقد نجم عن ذلك ان التجار الذين تعهدوا بتلبية طلبات البضائع ، معولين على طاقـة الانوال ، لم يستطيعوا التنفيذ بسبب افتقارهم الى الخيط . فاضطروا الى تسريح عمالهم وخسروا بعض زبائنهم . اشتدت الازمة حوالي السنة ١٧٦٠ بسبب الانتصارات الانكليزية في الهنـد التي افضت الى ازدياد الطلب . وهذا ما اوحى الى هارغريفز باختراع آلته الغازلة (١٧٦٧) التي

اتاحت لعامل واحد في منزله ان يغزل بين ٨ و ٨٠ خيطا معا . انتجت هذه الآلة خيطا دقيقا ولكن هذا الخيط كان واهيا وقصما . اما آلة هايز الغازلة (١٧٦٨) ، وقـــوامها اساطين وسفافيد عمودية، فقد انتجت خيطا متينا، على بعض الشخانة، لم يتح بلوغ دقة الاقمشة الشرقية. واما آلة كرومبتون (١٧٧٩) فقد انتجت خيطا متينا جدا غاية في الدقة صالحا جدا لصناعة الاقمشة الموصلية . ولكن الغزال تقدم آنذاك الحائك الذي ما زال يعمل بيديه . ولم يعـرف الغزالون كيف يصرفون بضائعهم . فأخذوا يصدرون بعضها الى الـــبر الاوروبي . ولاح من ثم خطر المنافسة للاقمشة الانكليزية . فـكان ذلك منطلقاً لمساعي كارترايت ، في السنة ١٧٨٥ ، في سبيل ابتكار نوله الآلي الذي نجح نجاحا تاما منذ السنة ١٨٠٠ . والدليل على ذلك ان نولين بخاريين ، يراقبهما فتى في سن الخامسة عشرة ، كانا ينسجان ثلاثة اثواب ونصف الثوب ، في حين ان عاملاً ماهراً يستخدم المكوك المتحرك لم ينسج في الوقت نفسه سوى ثوب واحـــد . فتيسر استهلاك الخيط المغزول ؛ وانخفض سعر الاقمشة ؛ وارتفع عدد الزبائن .

صناعة استخراج المعادن ومعالجتها

إن الحديـــد المصبوب بالفحم الحجري المقطر ، الذي ابتكره آل « داربي » ، قد زاد من كمية الحديد المصبوب . ولكن معالجي المعادن لم يعرفوا كيف يحولونه الى حديد . فتجمعت منه كمية كبرى عجزوا عن بيعها في حين مست الحاجة الى الحديد الذي ما زال يصنع بواسطة الفحم . فقام « اونيونز » و « كورت » بتجارب كثيرة وتوفقوا الى تحويل حديد الصب الى حديد (١٧٨٣ – ١٧٨٤): يمحص حديد الصب بنار الفحم المعدني المقطر ، فيفقد جزءاً من كربونه ؛ ثم يذاب مـع خبث غني بأوكسيد الحديد ؛ فيتحد ما تبقى فيه من كربون بالاوكسيجين، ويتجمع المعدن النقي كتلة شبيهة بالاسفنج ، تطرق لتنقى من الخبث ، وتصفح بين الاساطين . وقد اكتشفت هذه الطريقة دون ان يعلم المكتشفان أن حديد الصب يحوي الكربون المطلوب ابعاده . فكان أن الخبرة سبقت النظرية .

في السنة ١٧٥٠ ، اكتشف « هنتسمن » الفولاذ المائع باذابة الحديـــد في بوتقة من الخزف العادم الذوبـــان مع نزر يسير من الفحم والزجاج المسحوق بمثابة كاشف كيميائي . ومنذ السنة ١٧٧٠ انتج فولاذاً لا نظير له اتاحت عملية تحويل الحديـــد المصبوب الى حديد انتاجه بكميات كبرى .

الآلة البخارية

استلزمت آلة « نيوكومن » الجوية محروقات لا تتناسب كلفتها والنتائج المحققة. حين يرفع البخار المكبس ، يدخل بعض الماء البارد في وعاء المضخة : فيخثر البخار ويحدث فراغ تحت المكبس الذي ينزل ثانية بفعل الضغط الجوي . ولكن الماء المدخل في وعاء المضخة المرتفع الحرارة يسخن بدوره ؛ ويتحول جزء منه الى بخار . لذلك لم يكن الفراغ كاملا . فيقاوم هذا البخار نزول المكبس نزولا كاملا ، ويضيع بعض القوة . أضف الى ذلك ان

وعاء المضخة كان يبرد بالماء المدخل اليه وبعودة الهواء الداخلي حين ينزل المكبس . فحين يوجه البخار ثانية لرفع المكبس ، يفقد هذا البخار ، الذي يدخل الى اسطوانة باردة ، بعض قوتـــه الامتدادية ، فيقتضي تسخين وعاء المضخة اولا وتوجيه كمية من البخار توازي اضعاف ما يتطلبه رفع المكبس طبيعياً .

تسلح « وات » بنظريات « بلاك » فـاخترع ، في السنة ١٧٦٥ ، المخثر المنعزل . وضع الى جانب وعاء المضخة حيث يتحرك المكبس اسطوانة تحـافظ على حرارة منخفضة بفعل جريان ماء بارد وتتصل بوعاء المضخة بانبوب مزود بصمام . يفتح صمام وعاء المضخة المـــلىء بالبخار . فيندفع هذا الاخير ، بفعل قابليته الكبرى للامتداد ، في الاسطوانة البـاردة ، ويحدث التخثر فراغاً يجتذب اليه كل البخار . ويكون التخثر كلياً دون ان يبرّد وعـاء المضخة الا بالهواء الذي يدخـل حين ينزل المكبس . في السنة ١٧٦٩ استحصل على شهادة اختراع لآلته ذات المفعول الواحد : اسطوانة مقفلة مزودة في اعلاها بنافذة صغرى يتحرك فيها جـــذع المكبس . يصل البخار الى وجه المكبس العلوي ، ويدفعه نزولا ، اذ ان البخار السفلي قـد وجه نحو المخثر . ثم تستخدم الاصمة بحيث يصل البخار الى وجهي المكبس اللذين يخضعان حينذاك لقوى متساوية : فيرتفع المكبس من ثم بفعل الضغط الموازن . ويحـد من ضياع الحرارة غلاف خشبي يحـاط به وعاء المضخة . فأنقصت « المضخة النارية » الجديدة استهلاك المحروقـات بنسبة ٣ الى ٤ . وكان الصناعي « بولتون » ، صانع آلات « وات » ، « يعطي » الآلات ويستعيد آلات « نيوكومن » ولا يطالب الا بثلث المبلغ الذي يوفر سنوياً من ثمن المحروقات . ففي « شايزووتر » ، دفـــع الملاكون سنوياً لبولتون ووات ، مقابل ثلاث مضخات نارية ، ٦٠٠٠٠ فرنك ذهباً ، ولكنهم دفعوا هذا المبلغ كاسفي الوجه في حين انهم كانوا يربحون بدورهم ١٢٠٠٠٠ فرنك .

إن الآلة ذات المفعول الواحـد لم توفر القوة الا اثناء نزول المكبس . فكانت القوة متقطعة . وان الآلة ، الموافقـــة جداً لتحريك المضخات ، كانت أقل موافقة لعمل المصانع المتساوي والدائم . أدرك وات ذلك وابتكر محركاً شاملاً هو « آلته ذات المفعول المزدوج » . جعـــل البخار يؤثر بالتناوب في وجهي المكبس وأحدث بذلك حركة ذهابية وإيابية متساوية القوة ابداً . وبالاضافة الى ذلك حول حركة المكبس المستقيمة الى حركة دائرية بواسطة ذراع الدافعة ومقبض الادارة (١٧٨٤) . فأمكن منذئذ استخدام قوة البخار في الآلات على انواعهـا : انوال غزل القطن ونسجه ، الاكيار ، آلات تصفيح المعادن ، المطارق ، مطـــاحن الحبوب والمُنتِشة ، والصوان ، وقصب السكر . لقد دخل تاريخ العالم عهداً جديداً .

التعاون المتبادل بين الصناعات

تعاونت كل هذه الاختراعات تعاوناً متبادلا . فقد اقتضى اسطوانات هندسية الإطار ومكابس محكمة الالتصاق دونما احتكاك ودواليب متشابكة بمثل دقة تشابك دواليب الساعة ، لآلات التصفيح ، ومخارط المعادن ، والمطـــارق البخارية ، والمثاقب ، والانوال . وحل الحديد أكثر فأكثر محـل الخشب لأنه أشد صلابة ويتيح

مزيداً من الدقة . فلا اختراع آلات حيث لا حديد . وأتاحت تحسينات صناعة المعادن الحصول على الكميات الكبرى والاصناف الجيدة . فقد وفرت الآلة البخارية اكبر قوة وأسهلها استعمالا دونما خسارة واعظمها مرونة وأسلسها انقياداً . بيد أن الآلة البخارية لم يعم استخدامها إلا في السنة ١٨٠٢ ، مع أن الآلات الغازلة البخارية الاولى ترتقي الى السنة ١٧٨٥ . وأوجدت انوال الصناعات النسجية والمعدنية وآلاتها ، بدورها ، اسواقاً للحديد ولآلات وات .

التجمعات الصناعية

لقد حدث تجمع اول قبل اختراع الآلات والبخار . فقد وجد بعض التجار الصناعيين موافقاً أن يجمعوا في الأبنية نفسها عمالاً يسهمون في انتاج الصنف نفسه رغبة منهم في أن يحسنوا مراقبتهم ويكفوا انفسهم مؤونة نقل المادة من عامل الى عامل في مراحل الصناعة المختلفة . ثم قامت مصانع جديدة . ولكن اختراع الآلات اوجب بعض التجمع . فان اجهزة « اركرايت » كانت باهظة الثمن وتستلزم مكاناً واسعاً ، كما ان اجزاءها كانت مترابطة في العمل : آلة الحلج الأولى ، آلة الحلج الثانية ، آلة الغزل ، القوة المحركة المركزية . استخدم الصناعيون من ثم مكاناً واحدا وعمالاً يتقيدون بالنظام . وأصبحت مصانع الغزل أبنية قرميدية تألفت من أربع أو خمس طبقات وضمت بين ١٥٠ و ٦٠٠ عامل . وتألف مصنع بولتون ؛ منذ السنة ١٧٦٥ ، من خمسة ابنية ، وضم ٦٠٠ عامل ، وسير آلاته كلها دولاب محرك قوي . فكان أرباب هذه المعامل صناعيين حقاً . وفي صناعة المعادن ، منذ أن استخدم الفحم الحجري المقطر ، لم تتحدد ضخامة المشروع باتساع الاحراج . فقد جاز أن يضم كل مشروع عدة مصاهر ومعامل . لا بل شاهد الناس ظهور التجمع العمودي : ففي السنة ١٧٨٧ ، كان « ولكنسون » يمتلك مناجم حديد ، ومناجم فحم معدني ، ومصاهر ، وأرصفة في التايز .

ورافق التجمع الداخلي تجمع جغرافي . فلما كانت شلالات الماء ضرورية لتحريك الآلات تجمعت الصناعة في البدء في المناطق الرطبة وذات الكسور ، بعد ان كانت متشتتة هنا وهناك : في انكلترا ، على منحدرات جبال بنين الثلاثة ؛ القطن في جنوبي كولتية لانكستر (منشستر) بنوع خاص ، وشمالي كونتية دربي (دربي) ، منذ السنة ١٧٧٥ ؛ والصوف في مقاطعة يوركشاير ، في ليدس وبرادفورد ؛ وفي اسكتلندا ، في وادي « كلايد » . ثم حين عم استخدام البخار ، بعد السنة ١٧٨٥ ، تبدل تجمع الصناعات بعض الشيء . فان المناطق الشمالية ، التي كانت مناطق استخراج الفحم الكبرى ايضاً ، بقيت مناطق صناعية ، ولكن نظراً الى ان طرق المواصلات المائية الكثيرة اتاحت نقل الفحم الحجري بسهولة ، قامت المعامل اما على مقربة من اسواق الخامات واما على مقربة من اسواق بيع المصنوعات ، وأما على مقربة من المراكز السكنية التي توفر العمال . فبرز من ثم تخصص المناطق .

وربط التجمع المالي بين المشاريع ، فكان ذلك ارتساماً « لتجمع أفقي » احياناً . فقد

امتلك اركرايت بين ثمانية وعشرة معامل مثّل كل منها رأسمال يقدر بعدّة آلاف من الجنيهات الستر لينية . ولكن لدينا كذلك امثلة تجمع جماعي ، هي الشركات ، التي غالباً ما اقتصرت ، من جهة ثانية ، على تشارك اشخاص معدودين .

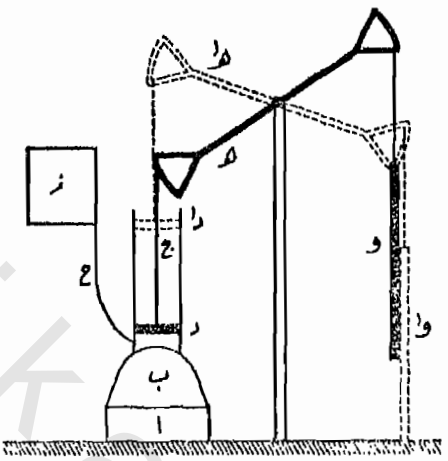

رسم ايجازي لآلة نيوكومن

ا ـ الموقد ؛ ب ـ مسخن البخار ؛ ج ـ وعاء المضخة ؛ د ؛ دا ـ المكبس ؛
هـ ، هـا ـ الرقاص ؛ و ، وا ـ ثقل موازن متصل بمضخة ؛ ز ـ خزان ماء بارد ؛ ح ـ انبوب .

تحسن النوعيات وتزايد الكميات

ان اختراع الآلات والطرائق التقنية الأخرى اعطت المملكة المتحدة تفوقاً عظيماً على الأمم الأخرى في أواخر القرن الثامن عشر . فقد زادت الكميات المصنوعة اولاً. في السنة ١٧٨٠ صدرت المملكة المتحدة أقمشة قطنية بما قيمته ٣٦٠٠٠٠ جنيه سترليني ؛ وفي السنة ١٧٩٢ صدرت بما قيمته مليونان . في السنة ١٧١٧ ، انتج آل داربي بين ٥٠٠ و ٦٠٠ طن من الحديد المصبوب سنوياً ، بينما انتجوا بين ١٣٠٠٠ و ١٤٠٠٠ طن في السنة ١٧٩٠ . ثم حسنت الكمية والقيمة التجارية . فقد أتاحت آلة « هايز » الغازلة انتاج الأنسجة القطنية . وأتاحت آلة كرومبتون انتاج أنسجة موصلية أخف وزناً من تلك التي كان ينتجها الهنود ؛ فارتفعت قيمة المادة الخام بنسبة ٥٠٠٠٪ اثناء مراحل الصناعة . ومنذ السنة ١٧٨٣ ، توصّل الانكليز الى توشية الأقمشة بواسطة اسطوانات نحاسية . وفي السنة ١٧٨٦ طبق « تايلور » سر « الاحمر التركي » وانتج اقمشة « ادرنيّة » ما لبثت ان اكتسبت شهرة الأقمشة الهندية . وأعطت عملية تحويل الحديد المصبوب الى حديد قضباناً حديدية أفضل من افضل حديد سويدي أو روسي . وكان الطلب على الفولاذ الذائب الذي انتجه هنتسمن ، في كافة انحاء اوروبا . واخيراً تدنت الأسعار : فقد قامت الاسطوانة النحاسية بعمل ١٠٠ عامل ؛ وكانت المطرقة البخارية تضرب ١٥٠ ضربة في الدقيقة .

المآتي

ان التحقيقات الانكليزية اذهلت الأجانب . فـــان ولكنسون ، « ابا صناعة الحديد » ، قد بنى في السنة ١٧٧٩ ، فوق الـ « سفرن» ، اول جسر من الحديد المصبوب قوامه حنية واحدة . وسيتوفق في السنة ١٧٩٧ الى ان يبني في سندرلند ، فوق الـ « وير » ، جسراً من الحديد المصبوب تمر تحته سفينة بحرية بكل صواريها . ودون ان يتوقف عند الاتهامات الموجهة اليـه بتحدي المعقول العام ، انزل الى البحر في السنة ١٧٨٧ اول سفينة حديدية . وفي السنة ١٧٨٨ سلم مصلحة مياه مدينة باريس ٦٤ كيلو متراً من الأنابيب المصنوعة من الحديد المصبوب .

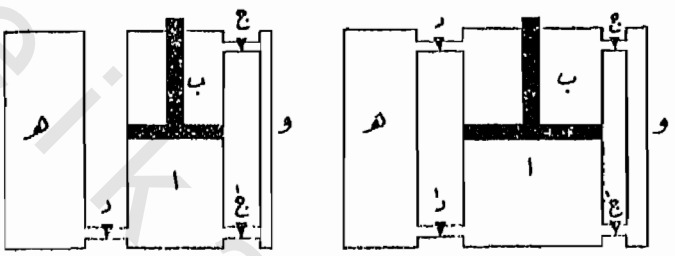

رسم ايحازي لآلتي رات

ا ـ وعاء المضخة ؛ ب ـ مكبس ؛ ج ، ج ا صمامات لدخول البخار ؛ د ، دا صمامات لخروج البخار ؛
هـ ـ مخمر ؛ و ـ انبوب يتصل بمسخن البخار

الصراع الطبقي

منذ ذاك الحين برزت نتائج الصناعة الكبرى المألوفة لدينا ؛ أزمـــات تخمة الانتاج ، مع ما رافقها من ارتفـــاع مفاجيء في أسعار المصنوعات وانهيار مالي في السنة ١٧٩٣ ؛ وارتفاع عـــدد السكان ونمو المدن ؛ وقيام طبقة من الرأسماليين الصناعيين لا حلم لها ، من جهة ثانية ، الا ان تنصهر في طبقة النبلاء ؛ توسع طبقة من عمـــال المصانع الذين لا يتملكون ايـة وسيلة من وسائل الانتاج وليس لهم سوى سواعدهم وأولادهم ، اي طبقة من الكادحين . لقد ارتفعت اجور بعضهم الحقيقية ، وتحسن الغذاء والصحة ، وطال امد الحياة مع الانتاج . ولكن الكثيرين من عمال الصناعة ، كعمال المصانع المتدربين ، وصانعي المسامير ، والحاكة ، ما زالوا يتقاضون اجراً ضئيلاً ويتغذون تغذية سيئة ويقيمون في مساكن حقيرة ، فتفتك بهم حمى المصانع وداء السلّ ؛ منـذ السنة ١٧٨٥ ، تجمع هؤلاء العمال وقاموا باضرابات وباعمال عنف استهدفت الآلات والأشخاص وطالبوا البرلمان بتشريع يحميهم : فكان ذلك منطلق الصراع الطبقي .

استمرار الصناعة المنزلية

على الرغم من هـــذه التطورات ، بقيت الصناعة الصغرى اوسع الصناعات انتشاراً . فان آلة هارغريفز الغازلة ، التي يصلح استخدامها في المنزل ، قد انتشرت في كل مكان بين السنة ١٧٧٥ والسنة ١٧٨٥ ، وارتفع من ثم عدد المنتجين الفرديين . وقد استمروا في عملهم هذا ، حتى بعد استخدام

النول الآلي ، مرتضين بتخفيضـــات كبرى على أجورهم ، وبالبؤس . وفي صناعة الصوف ، وصناعة الآلات المعدنية ، وصناعة السكاكين ، دافع الصناعيون اليدويون عن انفسهم دفاعاً طويلاً . ففي أوائل القرن التاسع عشر ، ما زال مجموع انتاجهم يفوق مجموع انتاج المصانع .

الصناعة الكيميائية

ان القماش الذي ينتجه النول يحتاج الى تنظيف وتخضيب قبل تسليمه الى التجارة . والتبييض ضروري جداً لتقصير القماش ، لأن من شأن الشحم أن يلعب دور مثبت الألوان ، اي أن من شأنه أن يؤلف مع الصبـاغ مركبات كيمائية قد تلوّن القماش ، حيث يوجد الشحم ، بألوان داكنـة أو أكثر لمعاناً . فأخضع القماش من ثم الى عملية اولى هي اغلاؤه في الماء مع رماد الحطب ، الغني بالاشنان ، يلشر بعدها طيلة ايام فوق العشب ، ثم ينقع في مصالة حامضة ، ثم تنتهي عملية التبييض بغسله بالصابون . الا ان هذه العمليات أثارت مشاكل خطيرة : الافتقـار الى خشب الوقود ، حرمان الزراعة من مساحات كبرى ، تربيـة مواش كثيرة للحصول على المصالة فقط ، الافتقار الى الصابون . فقامت العقبات في طريق صناعة النسيج .

مست الحاجة الى الحامض الكبريتي والاشنان . اجل لقد انتج الحـامض الكبريتي وعرف الناس كيف يعالجون الاملاح بهذا الحامض لانتاج الاشنان. ولكن المشكلة كانت في انتاج كميات كبرى باسعار منخفضة . استخرج الملح بوفرة من ماء البحر بواسطة التبخير . اما بصدد الحامض الكبريتي فقد احرز نجاح اول بفعل حاجات الصناعات المختلفة : القبعات ، الجلود ، الازرار ، القصدير ، النحاس . وبدلا من أن يحصل على الحـامض باكسدة كبريتور الحديد اكسدة جوية بطيئة ، أحرق الفرنسي « لفيفر » الكبريت وعالجه بملح البارود فحصل من ثم ، في مدى زمني أقصر ، على حامض كبريتي أقل كلفة . وقد أدخل هـــذه الطريقة الى انكلترا الانكليزي « يشوع وورد » منذ السنة ١٧٣٦ . ولكن كميات الحامض الكبريتي المنتج مـا زالت ضئيلة ومرتفعة الاثمان .

إن الحامض الكبريتي الغير المجرد من مائه تماماً لا يفعل في الرصاص . فاستعاض « روبوك » و « جربت » عن الزجاج بالرصاص في معالجة الحامض ونقله . وهكـذا استطاعوا زيادة حجم سفن أكثر متانة ، وتخفيض سعر النقل ، وانتاج كميات كبرى ، والبيع باسعار متدنية ، وتصدير الحامض ، منذ السنة ١٧٥٠ ، الى كافة انحاء اوروبا الشمالية الغربية . فأخذ الحامض الكبريتي يحل محل المصالة في عملية التبييض . وقد اعطى في خمس ساعات نتيجة لا تعطيهـــا المصالة إلا في خمسة ايام .

في السنة ١٧٨٤ خطر للكيميـــائي الفرنسي « برتوليه » أن يستخدم في التبييض خصائص إزالة الألوان التي ينطوي عليها الكلور . ونزولا عند رأيه طبق « جايمس وات » هذه الطريقة ، في السنة ١٧٨٨ ، في تبييض انتاج مصنع حميه . ثم ما لبث اختراع ماء « جافيل » ، وهو كلور

مضاف الى محلول اشنان ، ان زاد بصورة غريبة سرعة التبييض .

كان « كير » و « كوليسون » قد حلاّ ، كل من جهته ، منذ السنة ١٧٦٩ ، مسألة الانتقال من الملح الى الاشنان . فاستطاع « موسبرات » ، بفضل تجاربها، أن يؤسس ، في السنة ١٨٢٣، معمله الشهير الذي يعتبر منطلق صناعة الاشنان الكبرى في بريطانيا العظمى . وهكذا حلت نهائياً مسألة التبييض ، فازدهرت صناعة النسيج .

اتجهت الرغبة العامة الى الاقمشة الزاهية . ولكن كل الصباغات المعروفة لم تكن لتفي بالمطلوب بسبب عدم ثباتها . ففي الألوان الزرقاء مثلاً لم يصبغ النيلج والعظلم القماش بكليته بل كانا يلونان وجه القماش فقط ويزولان بالاستعمال . اكتشف الصبّاغ البرليني في السنة ١٧٠٤ « الازرق البروسي » ونشر صيغته في السنة ١٧٢٤ . فجعلها الكيميائي « ماكر » صناعية في السنة ١٧٥٠ . وهكذا تحقق لون ازرق « يضاهي بشفوفه ولمعانه شفوف ولمعان اجمل ياقوت ازرق » ، ويصبغ القماش في جميع اجزائه ، ويحافظ على زهوه . وحصل « جورج غوردن » في السنة ١٧٥٨ على احمر بنفسجي جميل جداً بنقع اشنة الصباغين في محلول النشادر . وأنقذ الفرنسيان « بوريل » و «بابيون» تجارة الاقمشة الانكليزية في افريقيا باهتدائها، في السنة ١٧٨٦ ، الى « الاحمر التركي » ، وهو احمر زاه ، باستخدام الفوة .

وقد تمت كل هذه الاكتشافات بالتلمس وبدون معارف كيميائية تقريباً .

الزراعة الصناعية

جُددّت الزراعة قبل الصناعة نفسها . تنازعت الحظوة لدى الانكليز طريقتان : طريقة « نورفولك » التي اعتمدت منذ أواخر القرن السابع عشر، وطريقة « جترو تول » . اعلن هذا الأخير ، في كتاب نشر في السنة ١٧٣١ ، ان الأسمدة نافلة ، لا بل مضرة ، اي انها سموم . وفي رأيه أن النباتات تتغذى باشياء صغرى ملتصقة بمساحة تجاويف التربة الداخلية . فيجب من ثم ، تسهيلا لتغذية النباتات ، تقسيم الارض جهد المستطاع حتى تتمكن الجذور من اختراق التراب بسهولة . اذن يجب الاكثار من الحراثة ، وقدابتكر « تول » طرائق عدة للحراثة حتى اثناء طلوع الحنطة . وهكذا تصبح الاسمدة والدورات الزراعية غير ذات جدوى . اما اشياع طريقة « نورفولك » ، الذين اكثروا من الحراثة ايضاً، فقد استخدموا الأسمدة ، السجيل والكلس ، استخداماً واسعاً ، كما استخدموا بصورة منتظمة الزراعات الدورية ، ونباتات الكلأ ، كالجندقوقة والايدوصرن والفصفصة واللفت والسلجم . ثم اثبتت اختبارات « هوم » و « دوكسون » ان تول كان على خطأ ، فكانت الغلبة لطريقة نورفولك التي اتاحت توفير كميات كبرى من الغذاء الضروري لسكان متزايدين عدداً وتخفيض نسبة الوفيات ، وسهلت التصنيع .

في سبيل تطبيق التقنيات الجديدة، عزل كبار الملاكين مزارعيهم وضموا اراضيهم وصونوها بمساعدة البرلمان الذي كان تحت سيطرتهم . ولكنهم لم يفعلوا ذلك بداعي التقنية بل بغية

الاستثمار بمكاسب الطريقة الجديدة. وقد ناسبت طريقة نورفولك كل المناسبة «الارض المكشوفة» والزراعة الجماعية ، بتصوين المراعي ، وقد أقدمت على ذلك قرى كثيرة .

في البر الاوروبي

كانت النجاحات في البر الاوروبي اكثر بطئاً ، ويرد ذلك بصورة عامة الى عدم توفر رؤوس الاموال التي لم يكن ما يوفرها سوى التجارة البحرية الكبرى . اجل توفر المال لهولندا ، ولكن صناعتها مالت الى التأخر ، ربما بسبب عدم توفر الخامات في ارضها ، وفي اعقاب القيود التي فرضتها الدول الاخرى ، الساعية وراء التصنيع ، على خروج الخامات من أراضيها . وظف الهولنديون أموالهم في انكلترا وفرنسا والدول الالمانية المختلفة واسهموا في تصنيع هذه البلدان . وخارج انكلترا والاقاليم المتحدة ، نمت الصناعة بفضل تدخل الدولة الذي أملته دوافع عسكرية: التحرر من الأجنبي ، انتاج الأقمشة للملابس العسكرية ، والاسلحة ، والبارود ، والتصدير لأجل تأمين النقد الضروري للسياسة الكبرى ولاضعاف العدو بالمنافسة . وقد تدخلت الدولة بالاكتتابات ، والمكافآت ، والاحتكارات ، والتعريفات الجمركية ، والمشاريع الرسمية، ولكن ببعض الصعوبة ، لتوسيع صناعة صنعية ، لا أسواق لها ، تدفع ثمناً لنموها سلسلة من الافلاسات وعوداً على بدء .

في فرنسا

كانت فرنسا قد اجتازت هذه المرحلة آنذاك ، وكانت صناعتها قد اتسمت منذ ذاك الحين ببعض التلقائية . كان للبلاد تجارة بحرية و استعمارية كبرى ورؤوس اموال كثيرة ، ولكن دون القوتين البحريتين درجة ، وكانت تقنيتها المالية دون تقنيتها تقدماً . يضاف الى ذلك ، من جهة أخرى ، ان الدولة قد استنزفت ، بسبب سوء تنظيم ماليتها ، قسماً كبيراً من رؤوس الأموال المتوفرة . لذلك لم تتمكن الصناعة الفرنسية من الاستغناء عن إسهام الدولة المباشر ، فكانت النجاحات ابطأ منها في انكلترا . كما في انكلترا، احتلت الصناعة المنزلية المركز الأول. وتزايد التجمع التجاري في مراكز معينة تزايداً مطرداً . ففي صناعة الجوارب في ليون مثلاً ، استخدم ٤٨ تاجراً ٨١٩ عاملاً اختصاصياً . واذا كان لآل « فان روبيه » ، في « ابفيل » ، ١٨٠٠ عامل ، موزعين على عدة معامل على كل حال ، فان حوالي عشرة آلاف عامل قد اشتغلوا لأجلهم كل في منزله . وكانت « المصانع الملكية » الاثنا عشر تنجز الأعمال التحضيرية (الجز واعادة الحياكة) بواسطة العمال الموزعين على المعامل، ولكن الغزل ومعظم الحياكة كانا ينجزان بواسطة عمال الجوار وفي منازلهم .

ونشاهد من جهة ثانية تجمعاً في المصنع ، قبل استخدام الآلات، في الصناعات التي استلزمت اجهزة معقدة التركيب وباهظة الاثمان ، وانماطاً كثيرة مختلفة للصنف الواحد . في « رمس » تجمع أكثر من نصف انوال الصوف . وفي « لوفييه » ، جمع ١٥ متعهداً ألوف العمال . اما في صناعة القطن ، فللأقمشة الهندية ، التي تستلزم أرضاً واسعة للتبييض وأبنية فسيحة للمعامل وغرفاً كبرى للتنشيف وأدوات كثيرة ومخزونات هامة من الأقمشة والمواد الملوّنة وتوزيع

عمل بين العمال المشتغلين تحت سقف واحد ، كان هنالك ، حوالي السنة ١٧٨٩ ، مائة صناعي ينتجون ١٢ مليون لبرة من الأقمشة المصبوغة . وكانت هنالك شركات مساهمة عدة على جانب كبير من الثروة . فقد أسس « اوبركامف » ، في السنة ١٧٨٩ ، شركة يناهز رأسمالها الاجتماعي ٩ ملايين . واما في المناجم فمنذ السنة ١٧٤٤ احتفظت الدولة لنفسها بما تحت سطح الارض وأعطت امتياز استثماره لشركات كبرى . فكان لدى شركة « انزين » ، التي تأسست في السنة ١٧٥٦ ، أربعة آلاف عامل قبل السنة ١٧٨٩ . وتأسست شركات أخرى في « آليه » ، و« كارمو » ، وفي أمكنة اخرى ايضاً . فكان ان الاستثمار ، الذي تم حتى ذاك التاريخ ، في حفائر صغيرة كثيرة قليلة العمق ، على ايدي ملاكين هم غالباً من الفلاحين ، قد تحسن تحسناً سريعاً. لقد حلّت الاستبارات محل التنقيبات الاتفاقية . وعوضاً عن النزول بواسطة دركات مفروضة في جدران الآبار استخدم عمال المناجم السلالم الحديدية ، كما استخدموا في « انزين » ، بعد السنة ١٧٦٠ ، سلات يجرها ملفاف تديره الجياد . وتأمنت تهوية الأروقة بآبار خاصة . ولمكافحة المياه بنيت جدران الاروقة بالقرميد في « انزين » ، وأحدثت خزانات ، واستعيض عن المضخات اليدوية الصغيرة التي يحركها عامل واحد بمضخات كبرى يحركها عمال وأحصنة . فبلغ عمق الآبار قرابة ٣٠٠ متر بعد ان كان لا يتجاوز الخمسين متراً ؛ لا بل بلغ عمق احدى الآبار ١٢٠٠ متر . وقد انتجت شركة انزين ، في السنة ١٧٨٩ ، ٣٧٥ ٠٠٠ طن من الفحم الحجري .

وأخيراً استخدمت الآلات. فمنذ السنة ١٧٣٢ استخدمت آلة نيوكومن في المناجم احياناً . وفي حقل غزل الحرير ميكانيكياً أتاحت اكتشافات « فوكنسون » قيام مؤسسات كبرى . ففي « اوبنا » جمع فوكنسون ١٢٠ قدراً لحل الغزل في بناء واحد . اما الغزل فقد بقي صناعة منزلية وريفية . وفي صناعة القطن استحضر الفرنسيون عمالاً وآلات من انكلترا . وفي السنة ١٧٨٩ كانت هنالك معامل في « بريف » و « اميان » و « اورليان » و « مونتارجيس » و « لوفييه » . وظهر الحديد المصبوب بالفحم المعدني المقطر ، فأفضى الى تأسيس مصانع كبرى كمصنع الـ « كروزو » مثلاً . وغدت آلة وات البخارية الاولى مضخة « شايو » النارية ، المعدة لرفع المياه لباريس ، في السنة ١٧٧٩ . ولكن استعمال الآلة لم ينتشر بسرعة . ففي السنة ١٧٨٩ لم يكن عدد المضخات النارية مرتفعاً في فرنسا . وان اقتناء شركة انزين لاثنتي عشرة مضخة منها كان مثاراً للدهشة . ولن يعم استعمال الآلات الا في عهد الامبراطورية .

في البلدان الاخرى

على الرغم من جهود الأمراء كانت النجاحات التقنية في دول أوروبا الأخرى ابطأ منها في فرنسا ايضاً . كانت هذه الدول ، مع حفظ النسبة ، في الوضع الذي وجدت فيه فرنسا في عهد كولبير . مست الحاجة في أوروبا الوسطى والشرقية الى رؤوس الأموال لأن الدول لم تسهم اسهاما يذكر في التجارة العالمية ولأنها افتقرت

الى المستعمرات . لذلك نجد في كل مكان ، في « بافاريا » و « ورتمبرغ » و « هس » والنمسا وبروسيا وروسيا، مميزات مشتركة مختلفة الدرجات. الدولة تتدخل في كل مكان . الأمير يحدث المشاريع، ويتخلى عنها للافراد ، او يفرض تأسيسها على النبلاء ، والأديرة ، والمدن ، والتجار، واليهود. تستفيد هذه المشاريع من مساعدات مالية، واعفاءات من الضرائب والرسوم، واحتكارات، كما تستفيد في أغلب الأحيان من مدربين أجانب ويد عاملة مسخرة (متسولين ، متشردين ، بنات داعرات ، ايتام ، جنود) . تنظيم العمل مماثل له في المصانع : معمل مركزي يستكمل فيه العمل ، ولكن معظم العمليات ينجزها في منازلهم اجراء قد يحصون بالالوف . ففي « فريدو » من اعمال بوهيميا ، ضم مصنع « جوهان فريس » للنسيج ٥٥ عاملاً في مشاغله ووزع عملاً على ٢٠٠٠ آخرين في منازلهم . وباع مصنع برلين ، « كونيغليشس لاجرهوس » ، في السنة ١٧٤٠ ، اجواخاً من الصنف الممتاز انتجها لحسابه ١٤٠٠ عامل في منازلهم . ووزع « سولنجن » المادة الخام على عمال يعملون في منازلهم ويسلمونه السكاكين بأسعار محددة . وفي روسيا استخدمت مصانع الاجواخ والحرير خمس عمالها في مشاغلها بينما عمل الباقون لحسابها في منازلهم . في السنة ١٧٨٠ ، وفي مصنع « ميدينغ » لاشرعة المراكب ، تجاوز عدد العمال العاملين في منازلهم ، الى حد بعيد ، عدد عمال المشاغل . ويصح هذا القول في مصانع المخرمات والساعات والزجاجيات والمرايا . المصانع المجموعة كلياً نادرة جداً ، وليس لدينا أمثلة عنها الا في صناعة الاواني الصينية ، والتبغ ، والأثاث الفاخر، وتحضير الجعة ، والتقطير ، ونشر الاخشاب ، او حين يتوجب استخدام يد عاملة مجموعة بحكم الهدف ، كجنود افواج حامية برساو الخمسة الذين كانوا يغزلون القطن في ثكناتهم في أوقات فراغهم ، أو يد عاملة مجموعة بحكم واجب المراقبة ، كمساجين « سباندو » (غزل الحرير والصوف) وأيتام « بوتسدام » (المخرمات البرابانية) ونزلاء « ارفورت » ، وغيرهم ايضاً . اما الآلات فكان استعمالها اكثر تأخراً واكثر بطئاً ايضاً : فان آلة رات الاولى ظهرت في ألمانيا في السنة ١٧٨٥ . ان القرن الثامن عشر الذي ابتكر الآلات المختلفة وأنتجها بكثرة ، قد انصرف كذلك الى تحقيق اختراعات معدة لمستقبل باهر : مانعة الصواعق ، السيارة والقطار الحديدي ، المركب البخاري ، التلغراف والهاتف ، الملاحة الجوية .

مانعة الصواعق

مانعة الصواعق نتيجة ابحاث فرانكلن الذي اوقف المانعة الاولى فوق بيته في شهر ايلول من السنة ١٧٥٢ . منذ السنة ١٧٥٤ انتشر استعمالها . ففي السنة ١٧٨٢ ، كان منها ٤٠٠ في فيلادلفيا . في السنة ١٧٦٢ انتصبت أول مانعة للصواعق في لندن . انتقلت بعد ذلك الى البر الاوروبي ، الى ايطاليا منذ السنة ١٧٧٦ ، والى جنوبي فرنسا ثم الى باريس في السنة ١٧٨٢ . اعترض بعض اللاهوتيين على استعمالها : الرعد والبروق دلائل الغضب الآلهي ؛ فمن الكفر مقاومة طاقتها التدميرية . أجاب لاهوتيون آخرون والفلاسفة أن على البشر اتقاء الصاعقة ، كما عليهم اتقاء المطر والثلج والريح ، بالوسائل التي وضعها الله بين

ايديهم . وغالباً ما أثارت هذه الآلة الخوف في قلوب الجماهير . في السنة ١٧٨٣ ، أوقف أحد اشراف « سانتومير » الريفيين فوق بيته مانعة للصواعق تلتهي بحربة تتحدى السماء . هاجت الجماهير . اصدرت البلدية اليه امراً بانزال المانعة . تقدم بدعوى الى محكمة « آراس » التي ابطلت القرار البلدي تحت تأثير مرافعة محام شاب ، سيعرف الشهرة فيما بعد ، هو « مكسيميليان دي روبسبيير » . ثم فرضت مانعة الصواعق نفسها بخدماتها الباهرة . فان الابنية التي كثيراً ما تعرضت للصواعق ، ككنيسة القديس مرقس في البندقية وكاتدرائية سينتا ، لم تصب يوماً باذى الصواعق منذ تزويدها بمانعات الصواعق . وعرفت السفن مزيداً من الأمان : فان سفينة كوك قد بقيت سليمة ، بفضل مانعة الصواعق المرفوعة فوقها ، الى جانب سفينة هولندية اصيبت بالصاعقة .

السيارة والقطار الحديدي

حاول المهندس الفرنسي ، « جوزف كونيو » ، استخدام طاقة البخار لتحريك المدفعية . بنى عجلة بخارية لنقل الاثقال ، وعرضها على محك امتحان غريبوفال ، وأمر الوزير « شوازول » بتجربتها تكراراً في السنتين ١٧٦٩ و ١٧٧٠ . في هذه السنة الأخيرة ، جربت آلة كونيو ، وهي السيارة الاولى ، في « دار الصناعة » ، فجرت مدفعاً ثقيلاً من عيار ٤٨ ، مع سنده الثقيل ، مسافة ٥ كيلومترات في ساعة واحدة . تسلقت اشد المرتفعات وعورة وتخطت بسهولة خشونات الارض . ولكن حركاتها كانت من العنف بحيث صعبت ادارتها فجمحت باتجاه جدار وهدمته . ومن حيث هي آلة يلعب فيها التخثير دوراً أولياً ، احتاجت الى كمية كبرى من الماء ، ولم يهتد كونيو الى أية طريقة إحكامية لآلته استعاضة عن الماء . كان توقيفها ضرورياً كل ربع ساعة . فلم يكن استعمالها عملياً . في السنة ١٧٨٦ ، تقدم الاميركي « اولفر ايفانس » من مجلس ولاية بنسلفانيا بطلب امتياز لسيارة بخارية تتحرك بآلة ذات ضغط عال لا تحتاج الى كمية كبرى من الماء . ولكنه لم يحصل على امتيازه الا في السنة ١٧٩٧ ، وفي النهاية كان الفشل حليفه . إلا أن الانكليز استخدموا في مناجم الفحم المعدني خطوطاً حديدية لتسهيل جرّ عجلات نقل الفحم بواسطة الاحصنة ، وهو استخدام هذه الخطوط التي أضعفت تأثير الاحتكاك ، واستخدام الآلة ذات الضغط العالي ، التي جهلها كونيو ، ما أتاح الاهتداء إلى حل بواسطة القاطرة والخط الحديدي .

الهاتف

وجرت تجربة جهاز هاتفي . في أول حزيران من السنة ١٧٨٢ ، اوضح « دون غوتاي » ، أحد رهبان دير « سيتو » ، أمام اكاديمية العلوم ، وسيلة تتيح الاتصال بالاماكن البعيدة : وهي أن تقام ، بين مراكز متعاقبة ، أنابيب معدنية يسري فيها الصوت دون أن يفقد قوته فقداناً محسوساً . وكان يعتقد أن باستطاعته أن ينقل امراً ، خلال ساعة ، الى مسافة ٢٠٠ فرسخ . التمس المركيز « دي كوندورسيه » اجراء اختبار فأذن الملك لويس السادس عشر بذلك . استخدمت في الاختبار الانابيب التي تنقل السائل الى مضخة « شاپ » على مسافة

٨٠٠ متر ، فجاء النجاح كاملاً . التمس « غوتاي » حينذاك امتحاناً يتناول ١٥٠ فرسخاً : ولكن الادارة الملكية اعتبرته باهظ الاكلاف . حاول غوتاي فتح اكتتاب في باريس ، ثم في فيلادلفيا ، ولكن النتائج لم تكن مشجعة .

التلغراف

بذلت جهود كبرى في الثلث الأخير من القرن الثامن عشر ، لا سيما تلك التي قام بها الكاهن الفرنسي « كلود شاب » ، بغية الاهتداء الى التلغراف الكهربائي. إلا أنها انتهت كلها إلى الفشل لأن الذين بذلوها لم يعرفوا سوى الكهرباء الساكنة التي تنبثق من الاحتكاك أو تنتجها الآلات الكهربائية . إن هذه الكهرباء لا توجد إلا على سطح الاجسام وتميل باستمرار إلى الابتعاد عنها ؛ فالهواء الرطب وحده كاف لأن تتلاشى . لذلك فإن ثلاثين سنة من المحاولات لم تعط أية ثمرة . عاد البحاثون الى العلائم التي تكون في الفضاء فترى أو تسمع الى مسافات بعيدة . فابتكر الألماني برغستراسر ، من هانو ، لغة شكلية لم تكن عملية ، اذ ان جملة مؤلفة من ٢٠ كلمة استلزمت اطلاق ٢٠٠٠٠ طلقة مدفع أو قذف ٢٠٠٠٠ سهم ناري . وكان مقدراً لـ « كلود شاب » أن يهتدي الى الحل في عهد الثورة .

الملاحة الجوية

رأت الملاحة الجوية النور في فرنسا . ان الاخوين « اتيان وجوزف مونغولفييه » ، وهما إبنان لأحد صناعيي الورق في « انوناي » اشتهر في كافة انحاء اوروبا بكمال مصنوعاته ، وقفا على المؤلف الذي وصف فيه بريستلي عدة غازات جديدة . فكرا بالارتفاع الى الجو بأن يحصرا في غلاف خفيف الوزن غازاً أخف وزناً من الهواء : فيرتفع الجهاز الى أن يصادف ، على علو معين ، طبقات يبقيه ثقلها النوعي في حالة توازن . قاما باختبارهما الكبير الاول في « انوناي » ، في ٤ حزيران من السنة ١٧٨٣ ، أمام مندوبي ولاية « نيفاريه » : ان المنطاد المعروف باسميهما ، والبالغ قطره اثني عشر متراً ، والمصنوع غلافه من نسيج مبطن بالورق ، والذي سخن هواؤه بالدرين المشتعل ، قد ارتفع حتى ٥٠٠ متر علواً .

طلبت اكاديمية العلوم إعادة الاختبار ، في ساحة مارس ، في ٢٧ آب من السنة ١٧٨٣ . ملأ البروفسور « شارل » المنطاد بالهيدروجين الذي يزن ١٤ مرة أقل من الهواء ، والذي حصل عليه للمرة الاولى بكميات كبرى بعد أن كان يحصل عليه في المختبرات فقط . أمام ٣٠٠٠٠٠ شخص يبكون ويتعانقون ، لان أحد أقدم أحلام الانسانية كان في طريق التحقيق ، ارتفع المنطاد حتى علو ١٠٠٠ متر . ولكنه كان قد ملىء تماماً عند الانطلاق ، فتمزق وسقط على مسافة ٢٠ كيلو متراً من باريس . فذعر الفلاحون اولاً اعتقاداً منهم أن القمر قد سقط من السماء ، وانتقموا من خوفهم بتقطيع المنطاد ارباً ارباً . اضطرت الادارة الملكية إلى اشعار الفلاحين رسمياً بأن ليس هناك ما يثير مخاوفهم وبأن لا يمزقوا شيئاً من الآن فصاعداً . وبعد اختبار شرّفه الملك بحضوره ، في ١٩ ايلول من السنة ١٧٨٣ ، كان « بيلاتر دي روزييه » والمركيز « دارلند » الانسانين الاولين اللذين طارا في الجو ؛ حلقا فوق باريس في ١٩ تشرين

الثاني من السنة ١٧٨٣ . اما البروفسور شارل ، الذي ابتكر « السلة » والشبكة والصمام ، فقد اصطحب روبير وبلغ معه ٤٠٠٠ متر علوا في اول كانون الاول من السنة ١٧٨٣ ، ثم نزل الى الارض على مسافة ٣٦ كيلومتراً من باريس ، مسجلاً مع رفيقه الارقام القياسية الأولى في المسافة والارتفاع . وانطلق « بلانشار » والدكتور « جفرى » من شاطىء « دوفر » في ٧ كانون الأول من السنة ١٧٨٣ وكانا اول من اجتاز المانش عن طريق الجو . وكان « بيلاتر دي روزييه » الذي لاقى حتفه في ١٥ حزيران على اثر تمزق غلاف منطاده اول شهيد من شهداء الجو . وابتكر « بلانشار » و « غويتون دي مورفو » المنطاد المسيّر ولكن مجاذيفهما لم تصلح الا لاثبات استحالة الاكتفاء بقوة الانسان . تأسست في كل مكان من فرنسا جمعيات من الهواة ، وفي كل يوم ارتفع منطاد في الجو . استوحت أزياء القبعات والاوشحة والملابس والعجلات « مونغولفييه » والمنطاد « وشارل » و « وروبير » . ثم عم هذا التيار اوروبا . ففي انكلترا ، ارتفع منطاد هيدروجيني في ٢٢ شباط من السنة ١٧٨٤ . وفي ايطاليا ارتفع المنطاد الاول في ميلانو في الخامس والعشرين من الشهر نفسه والسنة عينها . منذ السنة ١٧٨٤ ، وفي رسالة من أكاديمية ليون ، فكرّ « غودين » باستخدام المناطيد في الحقل العسكري ولفت الانتباه الى ان « سوبيز » ما كان ليخسر معركة روسباخ لو كان لديه منطاد . وكان مقدراً للمنطاد ان يستخدم في الجيش الفرنسي منذ السنة ١٧٩٤ ويؤمن لفرنسا السيطرة الجوية الاولى .

اوروبا والعالم

وهكذا فإن الثورة التقنية الكبرى ، التي وفرت لاوروبا تفوقا ماديا عظيما على كافة شعوب العالم ، والتي اتاحت لها ثلب شهرة حضارات آسيا نفسها ، قبل ان يتزود العالم بهذه التقنيات ويرتد اليها ، ترد لعمري الى الروح الاوروبية البحتة ، ولكن هذه الروح غالباً ما استثارتها الحاجات التي خلقها الاتصال بشعوب ما وراء البحار ، وغالباً ما وجدت في علائقها بهذه الشعوب وسائل عملها . وربما كان باستطاعتنا القول ان الثورة المالية والصناعية مظهر من مظاهر اتصال اوروبا بالعالم .

الفصل الرابع

تقنيات التحسين الانساني

١ ـ الطب والجراحة

حقق الفن الطبي تقدماً كبيراً بفضل تأثير الحركة العلمية . فان طرائق الملاحظة والاختبار أخذت تعتمد اعتماداً متزايداً يوماً بعد يوم .

الدروس

بقيت تنشئة الاطباء خاضعة للكتب والنظريات كما هو محتوم . ولكن الاساتذة والطلاب أخذوا يمتحنون النظرية بالواقع . كان على الطلاب المسجلين في كلّية باريس الطبية ، بعد انهاء دروسهم الكلاسيكية ، ان يتلقوا الدروس طيلة سنتين للفوز بدرجة حامل البكالوريا في الطب : وكان التشريح ، والطب ، والكيمياء ، وعلم النبات ، والصيدلة ، والجراحة ، والتوليد مادة هذه الدروس . وكان عليهم بعد ذلك تلقي الدروس طيلة سنتين اخريين للفوز بالاجازة : وكان لزاماً عليهم حضور المناقشات العامة التي تعتمد فيها الاقيسة المنطقية للمجادلة . وكان عليهم اخيراً ، لنيل الدكتوراه ، مرافقة اطباء الكلية في زياراتهم لمرضى المستشفى البلدي ومستشفى « الحبة » . وكان هذا الجزء العملي اخذاً بالنمو والتوسع . تأسست العيادة الجامعية الاولى في فينّا في السنة ١٧٥٤ ، ثم تأسست عيادة أخرى في باريس في السنة ١٧٧٠ . في درس التوليد ، وهو الفن الذي تفوق فيه الفرنسيون ، درّب الطلاب تدريباً عملياً على دمى من شمع ، وبهذه الوسائل البدائية تمت تنشئة مولدين ممتازين . وكان العديد من الاطباء ، في الوقت نفسه ، علماء طبيعة من الطراز الاول كـ « هالر » و « سبالنزوني » و « فيك دازير » . ونشأ الى جانب تعليم الكلّيات تعليم حديث الطابع : في السنة ١٧٧١ ، اعتلى « بورتال » اول منبر لتلقين علم الوظائف في كلية فرنسا . اجتذبت باريس ومونبلييه الطلاب من كافة انحاء أوروبا . وكانت لـ « بادوا » و« بافيا » و« بودا » و« فينا » اهميتها الكبرى أيضاً . وأتاحت بعض المنشورات الدورية الخاصة للاطباء مقارنة ملاحظاتهم : « المكتبة الطبية » في ارفورت ، منذ السنة ١٧٥١ ؛ « صحيفة الطب والجراحة » في باريس ، منذ السنة ١٧٥٤ حتى السنة ١٧٩٢ ؛ « صحيفة الطب » في البندقية ، منذ السنة ١٧٦٣ حتى السنة ١٧٧٧ .

كان للجراحين أثرهم الكبير . توجب عليهم ، حتى ذاك التاريخ ، اجراء العمليات وفاقا لأوامر رؤسائهم من الاطباء . ولكنهم كانوا مهرة في عملهم . مارس معظمهم العمل اولاً في حوانيت الحجامين الذين كانت الجراحة الصغرى وطب الاسنان وقفاً عليهم . واصلوا التعليم بالممارسة . فرفعوا فنهم ، بفضل الاختبار المستمر ، الى درجة عليا من الكمال وأمنوا له الاستقلال . وتوفقوا الى اقرار تعليم جراحي خاص . وفي السنة ١٧٣١ ، تأسست في فرنسا الاكاديمية الملكية للجراحة . وفي انكلترا ، اقر البرلمان ، في السنة ١٧٤٥ ، منح الجراحين امتيازاً فبنوا مدرسة ومسرحاً مدرجاً . وفي السنة ١٧٨٢ ، أسس « جوزف الثاني » في فينا مدرسة للجراحة ، وحذا حذوه « كريستيان الرابع » في كوبنهاغن في السنة ١٧٨٥ . انطوى التعليم قبل كل شيء آخر ، في هذه المدارس ، على دروس عملية تدوم ثلاث سنوات تخضع لامتحانات عملية في الدرجة الاولى: تشريح، عمليات ، تضميد . وجدير بالانتباه ان كثيراً من النجاحات الطبية احرزها جراحون ألفوا الملاحظة والاختبار .

التشخيص والتقدير

ان اعراضاً معروفة كثيرة وصفت بمزيد من الدقة ونظمت جداول بالاعراض التي تساعد على كشفها وتتبع سيرها . فقد اعطى الفرنسي « جان سيناك » مثلاً دلائل امراض القلب : خفقان القلب ، تورم الارجل ، الربو ، صعوبة التنفس لا سيما في حالة الضجوع ، تمدد الابهر ، نفث الدم . ووصف الاطباء الايطاليون حميات المستنقعات . ودرس كذلك درساً افضل الزحار ، والمغص الاسربي ، وتضخم العين ، والذبحة والحمى القرمزية (التي لم تميز عن الحصبة) ، والنكاف ، والامراض الجنسية . واكتشفت امراض مجهولة ايضاً . فان « رولو » ، الجراح العام للمدفعية الانكليزية ، قد اكتشف في احد ضباط المدفعية الداء السكري مع مميزاته : شهوة اكل وظمأ مفرطان ، هزال ، بول غزير ، حلو المذاق ، التهاب اللثاث ، تخلخل الاسنان . واكتشفت الحمى التيفية ، التي اطلق عليها اسم الحمى المخاطية ، والحماق الخفيف ، وسل العظم الذي اطلق على اهم ظواهره اسم الجراح الانكليزي الذي اكتشفه « داء بوت » .

اخذ الاطباء بعين الاعتبار الحرارة وعدد الانباض لتقدير حالة المريض . وهم الانكليز من استعملوا المحر بصورة خاصة . وتبنى الطب وجهة النظر السكية ، فاصبح بذلك اكثر طابعاً علمياً . وفي السنة ١٧٦٠ ، اكتشف الطبيب « اونبروجر » ، في فينا ، القرع كوسيلة لتشخيص امراض الصدر ، ولكن اكتشافه لم يلفت الانتباه تقريباً .

الطب الدوائي

كانت المذاهب الطبية ، بحكم الاشياء ، كثيرة جداً ، اذ كان على الطبيب ان ينظر الى مجموع ، هو الكائن البشري ، ومن ثم ان يقوم بعملية تأليفية . نال مذهب « ستاهل » (١٦٦٠ – ١٧٣٤) القائل بوجود الروح في كل الاجسام الحية ، ومذهب « بورهاف » (١٦٦١ – ١٧٣٨) الاختياري ، ومذهب « هوفمن » الآلي ، ومذهب

بارتز (١٧٣٤ – ١٨٠٦) القائل بوجود مبدأ حيوي متميز عن الروح والجسم معاً ، حظوة على التوالي عند الجماهير . اختلف هؤلاء المؤلفون واتباعهم كل الاختلاف عن بعضهم وانما جمعت بينهم صفة مشتركة هي وقوفهم موقف الانتظار والارتقاب . ان للطبيعة قوة علاجية ، وللداء فائدة في انه يزيل من الجسم عناصر مضرة ، وان الحمى ، بنوع خاص ، احدى وسائل التطهير والتنقية . فحذار من ثم مقاومة الاعراض ، وملاشاة الحمى والبواسير مثلا ، لننتظر ونسهل عمل الطبيعة بتنقية الجسم من اخلاطه واجزائه النتنة . الى هذا التفكير يرد استعمال الوسائل السهلة : التليين ، الحقن ، الحمية (بالحمية شفى رولو مريضه المصاب بداء السكري) ؛ والطرائق المزيلة الاحتقان : الفصد والحراقة ؛ والتمارين الخفيفة ، والدلك ، والمياه المعدنية . فزالت باطراد الادوية المستهجنة كعين السرطان ، واللآلىء ، ولحم الثعبان .

ولكن برزت اكثر فأكثر ايضاً ضرورة مواجهة المرض نفسه مباشرة ، في وقت واحد . فاختلطت بالروح التأليفية روح تحليلية لن تلبث أن تحل محلها . أما أهم واضعي النظريات في هذا الحقل فهو عالم الأمراض العقلية الفرنسي « بينيل » (١٧٣٥ – ١٨٢٦) الذي يطوري الطريقة التحليلية ويؤكد بان كل داء يردّ الى خلل عضوي يجب اكتشافه ومعالجته . وقد رأى القرن انتصار الكينا التي اشار بها الايطاليون بنوع خاص لمعالجة الحميات . واستخدمت القمعية لتقوية القلب في حال الاستسقاء . ولمعالجة فقر الدم اشار « فولر » بالتفضيل بالزرنيخ السائل (سائل فولر) . وخطر للانكليزي « برنغل » ، في السنة ١٧٥٠ ، ان يضع الحراقة على مركز الألم الشديد في الصدر لمعالجة البرسام والتهاب الرئة . وحاول « فولتا » شفاء امراض الاذن بالصدمة الكهربائية . وعالج « كراتزنستاين » الدانماركي بالكهرباء أمراض الشلل والنقرس والرئية المزمنة . وفي السنة ١٧٩٠ لم يحصل « فوركروا » على نتائج تذكر بتنشيق الاوكسيجين مرضى السلّ ، ولكنه احرز نجاحاً في حالات الربو واليرقان وداء الخنازير والكسح .

الوقاية

اهتم الاطباء اهتماماً كبيراً لاتقاء الامراض ولا سيما الامراض الوبائية التي تفتك بسكان العالم فتكاً . عاث الطاعون فساداً في اوكرانيا في السنة ١٧٣٧ ، وفي مسينا في السنة ١٧٤٣ ، وفي موسكو منذ السنة ١٧٨٩ . واقتفت الحمى التيفية آثار الجيوش . فكانت موضعية في اسبانيا منذ السنة ١٧٥٠ . وفي السنة ١٧٦١ اجتاح اوروبا واميركا وباء صُدام فتاك . كما اجتاح اوروبا السعال الديكي : فأفنى في السويد وحدها ٤٠٠٠٠ طفل بين السنة ١٧٤٩ والسنة ١٧٦٤ . وكان وباء الجدري كارثة حقيقية سببت موت ١٤٠٠٠ شخص في باريس وحدها ، في السنة ١٧١٩ . وفي السنة ١٧٧٠ انتشر في العالم وباء جدري عام : ففتك بسكان كافة المدن الكبرى ؛ وبقدر ضحاياه في الهند بثلاثة ملايين شخص .

انحصرت التدابير المتخذة ، لمدة طويلة ، في تدابير الأمن تقريباً . فكانت المناطق المصابة تحاط بجنود يؤلفون حولها نطاقاً صحياً يحظر الخروج منه . وكان يحظر السفر على المسافرين ما

لم يبرزوا شهادة صحية . وكانوا يخضعون ، عند وصولهم ، للحجر الصحي ، اي يوضعون تحت المراقبة على حدة طيلة اربعين يوماً . وكان كل مريض يثير الشبهة يوضع حالاً في الانفـــراد في محجر صحي . بدأ « فرانك » النمساوي ، في السنة ١٧٧٩ ، ينشر « قواعد السياسة الطبية » . اكد بأن مراقبة الصحة العامة احد واجبات الدولة وطالب بتشريـــع خاص . وفي البندقية كان الاعلان عن حالات السل وتطهير أمتعة المسلولين امرين إلزاميين ، وجرت محاولات مماثلة في بلدان اخرى .

ألف الاطباء من جهة ثانية كتباً صحية من شأنها أن تتيـح لكل انسان تحسين صحتـــه ومقاومة الامراض مقاومة أجدى . نخص بالذكر ، بين هـــذه المؤلفات ، « آراء للشعب حول صحته » (١٧٦١) و « صحة أهل القلم » (١٧٧٢) الذي لا تزال له أهميته في ايامنا هـذه ، وكلاهما للسويسري « تيسو » .

واحرز تقدم حاسم في اتقـــاء الجدري بالتلقيـح . علمت السيدة « مونتيـخ » حرم سفير انكلترا في الاستانة بان الجركسيات يخزن انفسهن بابر مغمسة في قيـح الجدري ، فيصبن من ثم بجدري خفيف ثم لا يلبثن ان يحصلن على مناعة ضد المرض ، كما لو كانت اجسامهن قـــد تمرنت على مقاومة المرض الخفيف واستمدت قوى لاتقاء المرض الحقيقي . اطلعت السيدة مونتيخ الغرب على الطريقة ، فـكان أن تبناها الطبيب السويسري « ترونشين » (١٧٠٩ – ١٧٨١) وجعل من نفسه بطل التلقيـح .

ولاحظ الجراح الانكليزي « جنر » (١٧٤٩ – ١٨٢٣) ، المكلف تلقيح ســـكان احدى الكونتيات الانكليزية ، ان الذين اصيبوا فيما سبق بجدري البقر (*Vaccine*) لا يتأثرون باللقاح ولا يصابون بالجدري البشري . وبعد ملاحظات واختبارات استغرقت عشرين سنة ، طعّم في ١٤ ايار ١٧٩٦ اول ولد ، « جايمس فيلبس » ، بقيح جدري البقر ، ونشـــر في السنة ١٧٩٨ « تحقيقه حول اسباب ونتائج جدري البقر » الذي احدث تأثيراً عظيماً . فقد انقذت البشرية من الجدري . ثم اكتشف بعد ذلك ان التطعيم يمارس في اماكن عديدة من الهند ، وفي بـــلاد فارس ، وبلاد البيرو . ولكن مـا كان يجري ليس سوى اتفاقات محلية . اما جنر فهو وحـده من توصل الى اكتشاف معلل وشامل .

فن التوليد

في منتصف الطريق بين الطب والجراحة ، احرز فن التوليد تقدماً عظيماً جداً ، لان كل مـــا فيه قد رد الى مبادىء آلية وطبيعية ، « باعتبار ان التوليد ليس سوى عملية آلية ، خاضعة لنواميس الحركة » (« بودلوك » ، ١٧٤٥ – ١٨١٠) . فان بوزوس (١٦٨٦ – ١٧٥٣) و « لفريه » (١٧٠٣ – ١٧٨٠) ، مولد ولية عهد فرنسا ، احكما ملقط الجنين الذي كان مستقيماً حتى ذاك العهد : ادخلا عليه الانحناء اللازم ، فبات استعماله رائجاً . وان « بلنك » (١٧٣٨ – ١٨٠٧) ، الاستاذ في بودا وفينا ، قاس الحوض قياســات دقيقة ،

وحدد لكل قياس العمليات الخاصة . توصل فن التوليد الى « يقين هندسي » ، وبلغ كماله التقني . وتنحصر النجاحات المحرزة بعد ذاك الوقت في التطهير والتبنيج .

الجراحة

وبلغت عمليات جراحية كثيرة درجة الكمال ايضا . فان الفرنسي « بتي » (١٦٧٤ – ١٧٥٠) قد ادخل الاطمئنان الى نفوس الجراحين بالملوى الضاغط ذي الوصائل الذي ابتكره والذي اتاح تجنب نزيف الدم . كان بالاضافة الى ذلك اختصاصياً في معالجة انفكاك العظم ، وكان اول من استخرج الحصى من المرارة . وبلغ من البتر كماله التقني : فقد اجريت بنجاح عمليات استئصال الاعضاء المرضضة والقروح وتورمات المفاصل البيضاء والتورمات العظمية ، والغدد وامهات الدم والسرطانات ، مع علم الجراحين بان هذه الاخيرة تعود الى الظهور . وان « شوبار » (١٧٤٣ – ١٧٩٥) ، مكتشف احدى طرائق بتر الرجل ، قد احرز نجاحات كبرى في جراحة المسالك البولية . واشتهر « دافييل » (١٦٩٦ – ١٧٦٢) بمهارته في إزالة سادّة العين (الماء الازرق) باستئصال البلورية ، فاستدعي الى كافة بلاطات اوروبا واجرى في السنة ١٧٥٢ ، عمليات لـ ٢٠٦ مرضى اقترن ١٨٢ منها بنجاح تام . واحرز تقدم كبير في شق المثانة لاستخراج الحصى منها ، ولا سيما على يد ممتهن باريسي هو الاخ « كوم » الذي ابتكر جهازاً لتفتيت الحصى الكبيرة ، وطريقة للشق بواسطة جهاز منحن يدخل الى المثانة . كانت العمليات مؤلمة جداً لان الجراح لم تتوفر لديه اية وسيلة للتخدير او التبنيج ، ولكنها كانت تتم بنجاح بفضل المهارة التقنية والنظافة والتطهير المؤلم ، حتى بواسطة الحديد المحمى بالنار اذا اقتضت الحاجة . عرفت بعد ذلك اوائل القرن اللاحق مرحلة قهقرى الى ان استؤنف السير قدماً بواسطة الاكتشافات حول الجراثيم ومواد التخدير والتبنيج .

٢ – التعليم

روح القرن

هوجم التعليم التقليدي هجوماً أكثر اعلاناً وأكثر شمولا ، وأكثر بلاغة أحياناً منه في القرن السابق ، دون ان يقال في هذا الهجوم شيء جديد حقاً . ليس رأي القرن الثامن عشر في موضوع التعليم سوى تكملة لرأي القرن السابع عشر واضعاف له احياناً . ولكن هنالك ، بدون شك ، مزيداً من التحقيقات .

نجد ثلاثة انواع من المهاجمين . فهنالك من جهة العلميون الذين يعتبرون ان التدريس لا يفسح مجالا كافياً للاكتشافات الحديثة ولفروع العلوم الجديدة . وهنالك من جهة ثانية النفعيون الذين يريدون ان تنطوي البرامج على مزيد من الفنون والمعارف التي يمكن الافادة منها فوراً في الحياة اليومية . وهنالك اخيراً الحاسيون ، مستوحو « لوك » ، من امثال كوندياك وروسو ، المقتنعون اقتناعاً تاماً بأن كل افكارنا مصدرها الحواس والراغبون في تعليم بواسطة الكائنات والاشياء ، وبواسطة

ملاحظة الوقائع والاختبار ، لا بواسطة الكتاب والكلمة . وغالباً ما يسير الانسان نفسه في هذه الاتجاهات الثلاثة . كان الجدال حاداً ، وغالباً مـــا انطوى على سوء النية . غالى المصلحون في مساوىء التعليم وعاملوا خصومهم بازدراء . وأخذ المحافظون عليهم اهمال الاختبار والواقع . نجح المصلحون ، بصورة اجمالية ، ولكن دون ان يحققوا كل ما رغبوا فيه : فقد ادخلت مواد جديدة على البرامج ، واعتمدت طرائق جديدة احياناً ، فكان ان التعليم النفعي ، الذي ندعوه تقنياً ، قد نمـــا وتقدم . جرت الاصلاحات في فرنسا بنوع خاص ، وفي البلدان الخاضعة لملوك جرمانيين وفي روسيا . أما في الدول الأخرى فقد كانت الاستحداثات محدودة جداً. فقد بقيت انكلترا نفسها وفية للتعليم الكلاسيكي القديم ولتعليم المهنة بالممارسة تعليماً مباشراً .

التعليم الابتدائي

ان التعليم الابتدائي الذي يجب ان يزود الاولاد بـين سن السادسة وسن الحادية عشرة بالمعارف الاولى التي يمكن الافادة منهـا فوراً ، كان متباين الانتشار . فقد وزع في العائلات على الاثرياء والميسورين . أما عامة الشعب فكان تعليمها خاصاً في البلدان الكاثوليكية : تولته جمعيات رهبانية ، كـ « اخوة العقيدة المسيحية » ، بمساهمة الرعايا والاهالي أو بدونها . ولم يكن هنـــاك في انكلترا الانكليكانية سوى مدارس راعوية تتعهدها الاحسانات الخاصة على قدر الامكان، وفي البلدان الكلفينية واللوثرية أدى واجب قراءة الكتاب المقدس الى قيام تعليم ابتدائي علني غالباً ما اعطى نتائج جيدة . وفي النصف الثاني من القرن سعى « المستبدون المستنيرون » جهدهم لايجاد تعليم رسمي يستهدف تربية أفراد الرعية الامنـاء والمطيعين والاكفـاء . وفي بروسيا جعل فردريك الثاني التعليم الزامياً في السنة ١٧٦٣ . وفي النمسا اعادت ماري – تريز تنظيم التعليم الابتدائي في السنة ١٧٧٤ . وفي روسيـــا اصدرت كاترين الثانية، في السنة ١٧٨٦ ، قانوناً للمدارس الخاصة قضى بأن يكون التعليم وقفاً على الدولة.

شمل التعليم الدين والاخلاق أولاً ، أي تلقين الجميع مفهوماً للكون ولمصير الانسان ، ولمكان هذا الأخير ودوره في المجتمع ، ثم عتاد المعرفة الأولية : قراءة ، وكتابة ، وحساب . وكانت النتائج حسنة في معظم الاحيان . وفي فرنسا امتاز لعمري تعليم عامـة الشعب عنه في النصف الاول من القرن التاسع عشر .

اعتبر هذا التعليم ، منذ عهد مبكر ، غير كاف لأولئك الذين توجب عليهم كسب معيشتهم حال انهاء سني دراستهم . فلذلك ، وبسبب أهميـــة العمل اليدوي لاحكام النظر واتقان العمل واصابة الرأي، اضاف اليه اخوة العقيدة المسيحية في فرنسا منذ زمن طويل التدرب على الحرف. وفي ألمانيا ادار «فرانك» و « سمار » في « هال » منذ السنة ١٧٠٠ مدارس وفق فيها بين التعليم والتدرب التقني في المشغل ، ونحا هـــذا النحو فردريك الثاني الذي اضاف الى برامج المدارس الابتدائية زراعة شجرة التوت وتربية دودة القز .

الى جانب المؤسسات التي افسحت مجـالاً للتعليم التقني ، تأسست مدارس تقنية بحتـة ، في

ألمانيا وفرنسا بصورة خاصة . ففي باريس تأسست مدرسة الرسم الملكيـــة في السنة ١٧٦٧ لـ ١٥٠٠ ولد فوق الثامنة تلقوا دروسهم فيها مجانـــاً . وأسس بعض الافراد ، والبلديات ، والولايات ، حيث قامت المصانع ، مدارس لفنّ فيها الرسم والرياضيات . وفتح احد الفلاسفة ، الدوق دي لاروشفوكو ــ لنكور ، لأيتام فرقته ، مدرسة مهنية مشهورة أقرها صك ملكي في السنة ١٧٨٦ كانت نموذجاً لمدرسة الفنون والحرف في عهد الثورة الفرنسية . وانما أخـذ على هذه المدارس انها لم تهتم الا لتربية العامل مهملة فيه الانسان والمواطن .

يجب ان نضيف الى هذه المؤسسات ، بسبب الطابع الاولي لتعليمها ، معاهد تعليم أخـوة الابكار من الاشراف الفرنسيين ، التي تولت اعداد الضباط ، والتي نسج على منوالهـا في بروسيا وروسيا (١٧٣٢) .

وأراد بعض ذوي النظريات ، المستوحين روسو ، ان يلقنوا العـــلم بالشكل ، بالتأثيرات الحسية . فان الالماني « باسدو » (١٧٢٣ ــ ١٧٩٠) قـــد ألقى « دروس اشياء » في داسو . كان يضع امام أعين الاولاد لوحة تمثل امرأة مضناة طريحـــة الفراش وبعلا جالساً الى جانبها وقبعتين صغيرتين على طاولة . وكان على الاولاد ان « يجدوا » وضع الامرأة ، ومعنى القبعتين والاخطار التي تتعرض لهـا الامرأة الحامل وواجبات الاولاد نحو أمهاتهم اللواتي ذقن الامرين قبل وضعهم . وتؤلف دروس الاشياء كذلك جوهر طريقة « بستالوزي » (١٧٤٦ ــ ١٨٢٧) الذي باشر رسالة تربوية في « نوهوف » في السنة ١٧٧٥ ، ولكن نشاطه الاول ، الذي لم ينحصر في التعليم الابتدائي ، لاحق للعهد الذي يعنينا . وقـــد أخذ على هذه الطرائق ، الحصرية جداً ، انها لا تصلح الا للأولاد المتخلفين وانها مضيعة لوقت الولد الطبيعي الذي لم يقدر حدسه وخياله وحتى تفكيره حق التقدير .

التعليم الثانوي

كان التعليم الثانوي خاصاً في كل مكان تقريباً تحت رقابة الكنيسة والدولة . وأدارت الكليات تعاونيات تعليمية أو جامعات ، كجـامعة اوكسفورد أو جامعة باريس ، أو جمعيات رهبانية ، كجمعية اليسوعيين الذين أداروا العدد الأكـــبر منها ، وجمعيتي البندكتيين ورهبـــان القديس فيلبس النيري ، أو الافراد ايضاً في حالات كثيرة . في كليات اليسوعيين وجامعة باريس كان التعليم مجانياً للخارجيين ، وكان الداخليون يستفيدون من منح كثيرة . طالب « المستنيرون » اكثر فأكثر ، لا سيما في فرنسا ، بـ « تربيـــة وطنية » وباساتذة علمانيين يختارون بين الناجحين في « مباراة لنيل شهادة التدريس » . ثم اصبحت هذه النزعة عامة بعد طرد اليسوعيين . ففي فرنسا مثلاً بات لزاماً ، بعد السنة ١٧٦٣ ، أن يدير كل كلية «مكتب إدارة» يضم أبرز القضاة . ولكن حل هيئة من الاساتذة الممتازين تسبب في تقهقر تعليمي أفادت منه بروسيا وروسيا اللتين احسنتا وفادة اليسوعيين .

ارتكز تعليم الكليات الى دروس الآداب القديمة كما درست في ايام النهضة . وكان تعليما عمليا .

وزع على رجال الغد من قضاة ومديرين ومحامين واطباء وكهنة ورعاة واساتذة وضباط عامين، فكان طبيعيا أن يجعلهم يتقنون اللغة ، خير اداة لأدق عمليات الفكر واكثرها تعقيداً ، لا بل الشرط الذي لا بد منه لكل تفكير . استخدمت الكليات لهذه الغاية اللغة اللاتينية ، اللغة الأم للحضارة الاوروبية ؛ وقلما استخدمت اللغة اليونانية ، وهي اكثر صعوبة وبعداً ؛ ولم تستخدم اللغات الحية قط ، وهي لم تزل ، باستثناء الفرنسية ، لغات مترددة لن تستقر إلا خلال القرن ؛ وكان استعمال المفردات كأدوات للفكر من الصعوبة بمكان بسبب افتقار المفردات الهامة بصورة خاصة الى مداليل ثابتة محددة . يضاف الى ذلك ، على حد ما قيل ، أن المؤلفين اللاتين من شعراء ومؤرخين وخطباء اثرياء بالاختبار العاطفي والاخلاقي والسياسي الذي لم يفقد شيئا من اهميته . فحالات ومشاكل الازمنة كلها متوفرة في مؤلفاتهم . وكان الدين ، الذي ينطوي على فلسفة كاملة وعلى علم كامل يتناول الطبيعة البشرية والمجتمعات ، متداخلا كل شيء . فلم يكن للدين كتبه وواجباته فحسب بل ان كتب الصغار الابتدائية تألفت من مختارات للمؤلفين القدماء حول الله والاخلاق ايضا ؛ وكان يُحكم على آراء العصور القديمة ورجالها من زاوية مسيحية . فكان من ثم ، كما ساد الاعتقاد ، تعليماً غنياً جداً .

قسمت الدروس الى مرحلتين . وقد شملت المرحلة الاولى ثلاثة دروس في الصرف والنحو ودرساً في الادب القديم خصص جلّه للشعر ، ودرساً في البيان . البيان علم طبيعي. يستخلص من درس كبار المؤلفين قواعد الاقناع . ثم يصيغها احكاماً ويتصل بالتالي ، ككل علم ، بفن أو بتقنية اذا صح التعبير .

كان اكثر التلامذة يهجرون الكلية بعد المرحلة الاولى . وكان الآخرون يتلقون بالاضافة الى ذلك دروس الفلسفة طيلة سنتين. يدرسون المنطق الصوري وعلم ما وراء الطبيعة والاخلاق. المنطق الصوري علم طبيعي يستخلص من درس امهات مؤلفات الفكر البشري قواعد الحكم والبرهان ويستنتج منها فن التفكير . وكانوا يدرسون مبادىء الرياضيات وعلم الطبيعة ، على أن هذا الاخير كان محصوراً في البراهين حول طبيعة المادة وخصائصها . فكان كل شيء ينتهي الى عرض بالاقيسة لمذهب ارسطو يتداخله احياناً شيء من تعاليم ديكارت ولوك .

تميزت الدروس بالنشاط في المرحلة الاولى بنوع خاص . غالباً ما درّست اللغة اللاتينية بحسب الطريقة المباشرة ، بدون كلمة فرنسية واحدة ، سوى النصوص المطلوبة ترجتها . وهكذا فان التلميذ، الذي لا يلبث ان يمتلك ناصية اللغة ، كان يؤلف باستمرار ، باللغة اللاتينية ، الروايات نثراً ، والامثال نثراً وشعراً ، والمراثي ، والاناشيد ، والتآبين ، والمرافعات ، والخطب . وكان طبيعياً أن تلقى الدروس في المرحلة الثانية ، وكان لدى التلامذة دفاتر يدونون فيها ما يلقى عليهم . ولكن مجرد فهم المسألة المطروحة وتتبع الاقيسة المتعاقبة كان مجهوداً صعباً للشبان ، وقد درجت العادة على المجادلة بواسطة الاقيسة . وكان التدريب يكتمل بتمارين علنية ، مهازل ، وتلاوات عن ظهر قلب ، ومجادلات ، امام الاعيان والاقارب .

. تعرض هذا التعليم للمهاجمة. فقداستهزأ بعضهم بمواضيع البيان من أمثال « ندامة نيرون بعد اقدامه على قتل أمـه » ، لان التلامذة ، الذين لم يقترفوا جرم قتل قط ، ما كانوا ليستطيعوا انتاج شيء شخصي . امـا انصار هذه التمارين فارتأوا ان المهاجمة لا تعطي وزناً لحس الشبان ومخيلتهم وحدسهم ، وان الاساتذة على حق في اللجوء اليها لتنميتها ، اذ اننـا لا ندرك حق الادراك الا العواطف التي قـد نشعر بها بعض الشيء . وان اهمية المخيلة تفوق اهمية البرهان : ان ما نستطيع رؤيته ولمسه وقياسه قليل جـداً ؛ فمن « رأى »فرنسا ، وألمانيا، والدولة ، وطبقة الاشراف ، وطبقة الكادحين ، والعدالة ، والقساوة ، والحقـد ؟ وانتقد بعض الخصوم مواضيع الفلسفة : « هل الكيـان مشترك بين الجوهر والعرض ؟ » اما الانصار فكانوا يجيبون بأن هذه المواضيع ، المختارة ، تطرح ، كما يجب ان تطرح ، بتعابير تقنيـة هي في منتهى الضبط والدقة .

الا ان بعض فئات رجـال الاعمال قد اعتبرت ان ليس هنالك ما يفيد تجار وصناعيي ومزارعي الغد ، وربما تصور ابناء الصناعيين اليدويين والفلاحين ، الذين جاؤوا لقضاء بعض سنوات في الكلية ، دونما رغبة في متابعة دروسهم العليا ، انهم انما يضيعون وقتهم . وارتأوا ، أقله في فرنسا ، ان ما بلغته اللغـة من الاستقرار ، والادب من الثروة ، يغني عن اللغة اللاتينية التي لم يعد لها من حاجة الا لترجمة النصوص ؛ وان ما حققته العلوم من تقـدم وما وفرته من براهين ودلائل رائعة يسمح بالاستغناء عن كثير من حيل البيـان والمنطق . وفي ذلك دليل على ان محاولات جرت لتجديد التعليم الكلاسيكي وتنمية التعليم التقني .

في كل مكان تقريبا ادخلت مواد جديدة على برامج الكليات . في بروسيا ، ادخل فردريك الثاني في السنة ١٧٦٣ تعليم اللغـة الفرنسية ، وأحل منطق « وولف » محل منطق ارسطو . في النمسا ، اوجب برنامج الدروس لسنة ١٧٧٣ اعتماد الطريقة الاختبارية في عـلم الطبيعة والفلسفة والاخلاق . في فرنسا اقدمت بعض كليات رهبان القديس فيلبوس النيري ، ثم الجامعة بعد السنة ١٧٦٣ ، على تعليم اللغـة الفرنسية بواسطة الصرف والنحو ، وعلى تدريس البيان بواسطة المؤلفين الفرنسيين . ادخل التاريخ الحديث ، وبعد أن كان سرداً زمنياً للحوادث ، لم يلبث ان اصبح درس الحضارات والحكومات والسياسة الخارجية . تأسست منابر لتلقين علم الطبيعة الاختباري ومختبرات لعلم الطبيعة في كليات عدة بعد السنة ١٧٦٠. ظهرت اللغـات الاجنبية . في الفلسفة ، دحض الاساتذة نيوتون ولوك وديكارت ، ويعـني ذلك انهم تكلموا عنهم وأوجدوا الشغف بمعرفتهم . استصوب البعض آراءهم ، وتخلى واحد او اثنان عن البرهنة بالاقيسة . وكان أهم تطوير لفت الانتباه ما أقـدم عليه بندكتُيو « سان – مور » في كلية « سوربز » : بمكنة التلامذة ، الذين يرغبون في ذلك ، تلقي دروسهم بدون اللغـة اللاتينية ووضع برنامجهم الخاص بفضل حقوق اختيار اعطيت لهم . الا أن معظم الكليـات حافظت على تقليد اثبت مزاياه وأفضليته .

وإذا عارض اساتذة الكليات ادخال العلوم العملية الى المؤسسات ، ظهرت مدارس خاصة بالتعليم التقني . في المانيا أسس « هكر » ، حوالى السنة ١٧٤٧ ، « المدرسة الواقعية » الاولى. وبعد السنة ١٧٦٣ ، اكثر فردريك الثاني من هذه المدارس في بروسيا . وتعـــددت مدارس التجارة في المانيا . ودخلت فرنسا عن طريق « الالزاس » حيث أسس تجار « ميلوز » ، في السنة ١٧٨١ ، المدرسة الاولى . وظهرت بعض المدارس الزراعية. وعلمت المدارس كلّها الدين واللغات الحية والتاريخ والجغرافية والرياضيات وعلم الطبيعة والرسم ، كما علمت بالاضافـة الى ذلك ، بحسب الاختصاص،الكيمياء والعلوم الطبيعية والمراسلة التجارية ومسك الدفاتر وحساب الاوزان والمقاييس في الدول الهامة والعمليات التجارية والزراعة واعمال المشغل . فاتجه التعليم كله شطر الحياة العملية اليومية .

أحدثت مدارس عسكرية وبحرية خاصة . فكان لآل هبسبورغ مـــدارس عسكرية في بروكسل منذ السنة ١٧١٧ ، وفي فينّا منذ السنة ١٧١٨ . واحدث الفرنسيون خير المدارس لإعداد ضباط الغد لدروسهم العليا . فتحت المدرسة العسكرية الملكية ابوابهـا في السنة ١٧٥١ لتلامذة تتراوح اعمارهم بين ١٣ و ٢٠ سنة . ثم احدث الكونت « دي سان جرمين » في السنة ١٧٧٦ اثنتي عشرة مدرسة عسكرية اقليمية ، اسندت ادارتها الى رجال كنيسة يعاونهـــم بعض الضباط ، لقبول تلامذة حتى سن الرابعة عشرة . كان هؤلاء التلامذة يتعلمون اللغـة اللاتينية واللغات الحية والتاريـخ والجغرافيا والرياضيات والرسم وعـلم الطبيعة الاختباري والرقص والمسايفة والموسيقى . وقد ضمت هذه المدارس تلامـــذة يدفعون رسوماً مدرسية واخرين يستفيـــدون من منـح تتحملها الدولة . وكان نابوليون واحداً من هؤلاء الآخيرين في مدرسة « بريين » .

استقبلت فرقتا حراس البحرية في برست وتولون،لبحرية الدولة ، ابناء نبلاء تتراوح اعمارهم بين ١٤ و ١٧ سنة . سرح افراد هاتين الفرقتين في السنة ١٧٨٦ ، فاستعيض عنهـــما بـكليتين احداهما في « فان »والاخرى في« اليه » . تناول التعليم الرياضيات والرسم وبناء السفن والملاحة وقيادة السفن والاستهداء بواسطة الخرائط . وفي فصل الصيف كانت تنظم اسفـــار بحرية على ظهر سفن التدريس .

وكان هنالك ، للبحرية التجارية ، ٢٤ مدرسة خاصة لتلقين علم الميـاه السطحية في المرافىء الهامة ، وفي السنة ١٧٤٦ أحدثت مدارس رسمية في «برست» و «روشفور» و « تولون» .

التعليم العالي

أمـا في التعليم العالي ، الذي يوزع على شبان اكبر سناً اعد ذهنهم لتحصيل أعلى درجات المعارف الخاصة ، فقد بقيت الجامعات ، لسوء الحظ ، بعيدة على العموم عن العلوم الجديدة والعلوم العملية . احدثت الجامعـات الالمانية دروساً في الاستثمار الزراعي للشبان المعدين لادارة الامـــلاك الملكية ، أو مشاريع زراعية اخرى . واحدثت

جامعات « هال » و « هيدلبرغ » و « غوتنجن » دروساً في الكيميـاء العملية وعلم الآليات ، ولكن معارضة اساتذة اللاهوت والآداب القديمة كانت سببا في التخلي عنها بعد سنوات معدودة. وادخل آل هبسبورغ العلوم الاختبارية والتعاليم المفيدة الى الجامعات القائمة في بلدانهم، ولا سيما جامعة بافيا في ايطاليا الشمالية . إلا ان الدروس الجديدة نظمت على العموم الى جانب الجامعات على يد الاكاديميات والجمعيات الادبية والعلمية وبعض المؤسسات الخاصة . وكان لبعض العلمـاء واثرياء الهواة ، في فرنسا ، مجموعـات عديدة من النماذج والآلات ، كـ « فوكنسون » مثلاً الذي عرض ، في السنة ١٧٧٥ ، مجموعاته من آلات الغزل والحياكة في احد فنادق ضاحيـة « سانت انطوان » وسمح للجماهير بمشاهدتها . ثم أوصى بها في السنة ١٧٨٢ الى الملك لويس السادس عشر الذي اضاف إليها ٥٠٠ نموذج بغية تحسين المصنوعات . وان هذه المجموعة التي ضمت بعد ذلـك الى مجموعة اكاديمية العلوم ، غدت ما نعرفه اليوم بالمعرض الوطني للفنون والحرف . وغـدت حديقة الملك ، التي ادارها بوفون ، مركزاً للنشرات العلمية والتعليم . واجتذبت الدروس في علم النبات والكيمياء والتشريح والصيدلة ، التي ألقاها بعض العلماء ، طلاباً كثيرين جداً. واسست مدارس لتعليم اعمال المناجم في المانيا ، في « برونسويك » (١٧٤٥) و « فريبورغ » (١٧٦٥) و « كلوستال » (١٧٧٥) ، وفي فرنسا ، في باريس (١٧٧٨) . وغـدت المدرسة الفرنسية للجسور والسدود (١٧٤٧) نموذج المدارس العصرية العليا للهندسة المدنية .

واكتسبت الاكاديمية العسكرية النمساوية في «فيينر–نوستات» (١٧٥٢) شهرة حلالا. وأعيد فتح المدرسة العسكرية في باريس ، في السنة ١٧٧٧ ، لتستقبل نخبـة طلاب المدارس العسكرية الاقليمية . وقد تلقى نابليون بونابرت فيها دروسه بعد تخرجه من بريين .

وقامت في فرنسا آنذاك افضل مدارس المدفعية . أمـــا أهمها فمدرسة « لافير » حيث درّست شؤون المدفعية ، للمرة الاولى ، تدريساً قياسيا مبنياً على العقل . وقد اشتهرت كذلك مدرسة « هانوفر » (١٧٨٢) حيث درّس « شارنهورست » مجدّد الجيش البروسي بعـد معركة « ايينا » .

وقد لقن خير تعليم تقني عرفته أوروبا في المدرسة الهندسية الفرنسية في «ميزيير» التي تأسست في السنة ١٧٤٨ ، على غرار أكاديمية المهندسين السكسونية للهندسة في الأرجح . فـان الطلاب، الآتين من مدرسة المدفعية في «لافير» ، ما كانوا ليقبلوا فيها الا بعد امتحان عسير . وقد اعتبر مهندسو الجيش الفرنسي خير المهندسين في أوروبا . وخرجت المدرسة رجالاً معروفين كثيرين : « لازار كارنو » ، منظم النصر ؛ والرياضي « بونسليه » ، وكونيو ، مخترع السيارة ؛ وكولومب، العالم بالطبيعيات ؛ والوطني « روجيه دي ليل » ، مؤلف المرسليز .

منذ السنة ١٧٢٠ تلقى واضعو الخرائط البحرية من الفرنسيين علومهم في دار الخرائط والتصاميم الخاصة بالبحرية في باريس . وتخرج سنويـاً من مدرسة البحرية في اللوفر ١٢ مصمماً

للسفن . وكانت مدرسة المدفعيين المتمرنين ، المؤسسة في السنة ١٧٦٦ ، تستقبل شبانـــاً بين الثامنة عشرة والخامسة والعشرين وتجعل منهم ضباط مدفعية في البحرية .

وجّه التعليم في كافة هذه المدارس شطر الناحية العملية . وتناولت الدروس ، المتميزة كلها بقيمة عملية كبرى ، مواد خاصة مختارة . ونذكر على سبيل المثل أن طلاب هندسة المناجـــم كانوا يدرسون المواد التالية : الكيمياء ، وعلم المعادن ، وعلم سير المياه ورفعها ، والتهوية ، واستثمار المناجم . وكانوا يحلون في قاعة التدريس مسائل عملية عديدة ويرسمون التصاميم . ويعملون في المختبر . وقد كرس نصف الوقت ، ثلاثة ايام من أصل ستة على العموم ، للأعمال المختلفة : بناء الجسور والحصون ، صنع البارود ، مناورات ، ورماية . ومن جـهة ثانية كانوا يقضون شطراً من الصيف يمارسون خلاله اعمالاً تمرينية في المصانع وورش الاشغال العامة ومراكز بنـاء السفن واصلاحها . فكانت نتيجة الاتحاد الوثيق بين العلم والتطبيق العملي وبين عمل الفكر وعمـــل الايدي تعليماً مهنياً ذا قيمة عظمى . ويعتبر المؤرخ الاميركي « ف . ب ارتز » ان التعليم التقني الفرنسي العالي كان على العموم خير تعليم تقني في كافة انحاء اوروبا ، أي في العالم ، خلال القرن الثامن عشر .

٣ – الصحافة

إن الصحافة الدورية ، التي نشأت في مستهل القرن السابع عشر ، قـد نمت نمواً كبيراً خلال القرن الثامن عشر ، في هولندا ولا سيما في انكلترا ، بفضل مزيد من الحرية ونشاط الحيـــاة السياسية ، وفي البلدان الاخرى ، على غرار هذين البلدين ، كلما نمـــت الحياة الفكرية وبرزت وسائل العمل السياسي التي توفرها الصحافة . فالصحافة تعكس في كل مكان حالة البلاد عكساً يكاد يكون صحيحاً .

الصحف الهولندية

حافظت الصحيفتان الهولنديتان ، « صحيفة اوترخت » و « صحيفة ليدن » ، على الشهرة الاوروبية التي اكتسبتاها خـلال القرن السابق . ملأت صفحاتها اخبار هامة في أغلب الاحيان ، كالاعلام بمشاريع المعاهدات ، أو معثرة ومعيبة بسبب الحرية التي يتمتع بها اصحاب المطابع في هذه البلاد الجمهورية ، وبسبب تجارتها العالمية الكبرى ، وموقعها كمفترق طرق على بحار ضيقة هي اكثر البحار الاوروبية نشاطاً ، عند مصب الرين . حررتا في معظم ايام السنة باللغة الفرنسية فوجدتا قراءً في كل مكان ، وقد سمح الملوك بدخولها دونمـــا صعوبة لأن هذه اللغة تجهلهـا الطبقات المتوسطة والشعبية . تميزتا بالاستقلال وغالباً مـا شكت مجالس الوزراء لحكومة الاقاليم المتحدة قحة الصحافيين ومذالها . فكانت الحكومة توجه اليهم التهديد تلو التهديد دون أن تعقب ذلك بعمل جدّي في غالب الاحيان . لذلك كان ملك بروسيا ، فردريك الثاني ، يتدخل شخصياً : هاجمته يوماً جريدة تصدر في « غرونتغ » فنبه أحـد امناء سر المندوبية البروسية الصحافي إلى أنه ، اذا استمر في مهاجمته ، « سيُتخذ بحقك قرار سيجعلك

تندم على فعلتك طيلة الايام المتبقية من حياتك » . وقد زاحمت الصحف الهولندية صحف أخرى تصدر باللغة الفرنسية ، تأسست في بلدان صغرى تتمتع بحرية لم تعرفها الدول الكبرى ، وضمنت لها النجاح بالصدق والصراحة : « صحيفة هرف » في أقليم « ليـــاج » ؛ « روح الصحف » في لياج ، و « صحيفة برن » و « صحيفة كولونيا » . إلا أن بعض هذه الصحف لم يرضيراً في تقبل مساعدات الملوك المالية .

الصحافة الانكليزية

ازدهرت في انكلترا صحافـــة عصرية الطابع . تميزت بحريتها الكبرى نسبياً . لا حاجة الى ترخيص مسبق : باستطاعة اي كان ان يؤسس ساعة يشاء الصحيفة التي يطيب له تأسيسها . ولا رقابة احتياطية : فالمقالات لا يقرأهـــا ولا يقتطع منها ولا يحذفها رقيب رسمي قبل ظهورها . وهذا شيء ضروري في بلاد خاضعة لنظام تمثيـلي وبرلماني الى حد بعيد ، حيث بعض المواطنين ينتخبون ومن حقهم ابداء رأيهم . ولكن الصحافة ليست حاجة سياسية فحسب ؛ فهي نتيجة تفتح كافة اشـكال الحياة الاجتماعية ، ولذلك فتبادل الآراء والاخبار ينمو مع كل ما سواه .

بلغت هذه الصحافة بعض الكمال نسبياً . فان المنشورات الدورية ، التي كانت اسبوعيـــة في البدء ، صدرت ثـــلاث مرات في الاسبوع منذ ان سيّرت ثـــلاث عربات بريد على الطرق الرئيسية المتفرعة من لندن. غدت الـ « دايلي كورانت » ، ابتداء من السنة ١٧٠٢ ، اول صحيفة يومية . كانت هناك اربعة انواع رئيسية من المنشورات الدورية : الجريدة السياسية ؛ والجريـدة الاخلاقية ، وابعدها شهرة جريدة الـ « سبكتاتور » لاديسون الذي عرف نجاحـاً عظيماً حتى السنة ١٧١٢ واقتفى اثره اكثر من مائة صحافي في انكلترا وخلفه صحافيون كثيرون في الـــبر الاوروبي ؛ والجريدة الاعلانية ؛ واخيراً « المجلة » ، « مخزن » كل جديد مهم في العالم : وكانت المجلة الاولى « مجلة الجنتلمن» الشهرية التي تأسست في السنة ١٧٣١ وتألفت من ٤٢ صفحة مطبوعة على عمودين . ولكن هذا التقسيم ليس مطلقاً. فان الجرائد السياسية قد نشرت محاولات اخلاقية واعلانات ، والجرائد الاعلانية نشرت مقالات سياسية ، ونشرت المجلات خلاصات المناقشات البرلمانية . في هذه البلاد التي كانت موطن التجارة الكبرى ، عاشت الصحافة من الاعلانات ، وقد كتب احد الصحافيين في السنة ١٧٥٩ : « ان صناعة الاعلان هي الآن على قـاب قوسين من الكمال ، وليس سهلاً ادخال اي تحسين عليها » .

الصحافة الانكليزية صحافة طبقة من الميسورين. فهؤلاء قد اقصوا الفقراء بضريبة الطابـــع البريدي التي فرضت في السنة ١٧١٢ ، وزيدت نسبتها تدريجياً ، فازالت من الوجود الجرائـــد الصغيرة العديدة التي كانت تباع بفلس وتتنشل الشعب من الجهل من حيث هو يعلم اولاده فيها القراءة . الا ان الجرائد كانت ، بفضل المقاهي ، في متناول الصناعيين البدويين انفسهم . وكم كانت دهشة مونتسكيو كبيرة حين رأى عاملا مسقفاً يطلب ان يؤتى له بجريدة.

وهي صحافة نضال ايضاً حاولت الاحزاب والحكومة الافادة منها. فرؤساء الاحزاب أسسوا الجرائد وتنازعوا الصحافيين اللامعين الذين يحصى بعضهم بين كبار الكتبة الانكليز : « ديفو »، «سويفت» ، « فيلدنغ » . لا بل ان أحد الاسياد العظام ، « بولنبروك » ، قد احترف الصحافة منذ السنة ١٧٢٨ حتى السنة ١٧٣١ تفانياً منه في سبيل حزبه . وقد استخدم رئيس مجلس الوزراء « مالبول » (١٧٢١ – ١٧٤٢) عدداً من المستكتبين واعطى تصاميم المقالات واوحى بما يجب أن يُنشر لعدد كبير من الجرائد وقدم المساعدات المالية للمستقلين أو المعادين. فجر ذلك على الدولة ٥٠٠٠٠ الف جنيه استرليني في السنة . اتفقت كلمة كافة السياسيين على أن لا يعرف الصحافيون عن البرلمان إلا ما يرونه مفيداً . لم تكن الجلسات عامة وقد حظر نشر وقائعها . فكان خيراً أن لا يعرف الجمهور معرفة أكيدة أن رئيس مجلس الوزراء كان يمر بين مقاعد النواب موزعاً عليهم الاوراق النقدية . ووجدت الصحافة نفسها ، من ثم ، معاقة ومستعبدة بعض الاستعباد .

حاول بعض الصحافيين ، الحريصين على تأدية واجبهم المهني قبل كل شيء ، أن يؤمنوا استقلالهم . وقد بلغوا ما سعوا اليه ، فيما خص الاحزاب ، بفضل الاعلانات وحتى بفضل ضريبة الطابع البريدي التي ازالت المنافسين من طريقهم . نشر مديرو المجلات وقائع جلسات مجلس العموم بالاشارة الى النواب بحرفين من اسمهم اولا (١٧٣١ – ١٧٣٨) ، ثم بتظاهرهم ، بعد صدور رواية « سويفت » ، بسرد مناقشات مجلس شيوخ « ليليبوت »(١٧٣٨ – ١٧٥٢)، واخيراً بنقلهم تفاصيل المناقشات بصراحة ، فسارت الجرائد على خطاهم . وكان أن الأزمة الكبرى التي نشبت بمحاولة جورج الثالث ممارسة الحكم الشخصي ، وقد برزت فيها قضية « ويلكس » بصورة خاصة ، أفضت الى انتصار الصحافيين . ففي السنة ١٧٧١ ، أوقف بعض الصحافيين لنشرهم تفاصيل المناقشات البرلمانية ، فأخلى سبيلهم قضاة لندن ، وكان من قوة تيار الرأي العام أن تخلى البرلمان عن المنع . وبعد محاولات كثيرة بذلت بغية تكليف القضاة الملكيين تقرير ما اذا كانت المقالات تنطوي على طابع القدح والذم ، تركت هذه المهمة اخيرا ، في السنة ١٧٩٢ ، للمحلفين والصحافيين الذين اصبحوا ، بمثل هذه الحماية ، يتمتعون بحرية تامة .

الصحافة الاميركية

في المستعمرات الانكليزية الاميركية تقدمت الصحافة تقدماً عسيرا . فالحبر والورق وأحرف المطابع المستوردة من اوروبا كانت مرتفعة الاسعار. وكان عدد المشتركين ضئيلا لأن الأخبار كانت نادرة ومتأخرة. وكان اجتياز الاطلسي يستغرق بين خمسة وثمانية اسابيع ، ولم تكن المواصلات أقل بطئاً بين المستعمرات الشمالية والمستعمرات الجنوبية . ومع ذلك فقد كان هنالك ، في السنة ١٧٧٥ ، ٣٤ جريدة اسبوعية تصدر بانتظام تقريباً ، أهمها جريدة « فرانكلن » ، « جريدة بنسلفانيا » ، في فيلادلفيا . خلال حرب الاستقلال ، أدير النضال الفكري بواسطة الكتب الصغيرة بصورة خاصة : إلا أن

« جريدة بوسطن » لصاحبها « سام ادامز » وجرائد « توماس باين » قد لعبت دورها ايضا .ثم تعاظم ميل الاميركيين الى المنشورات الدورية . فتأسست مصانع ورق وحبر وأحرف مطابع للاستغناء عن انكلترا . وفي السنة ١٧٨٢ ، كان هنالك ٤٣ نشرة دورية ، وفي السنة ١٧٨٤ ، ظهرت الجريدة اليومية الاولى ، « بنسلفانيا باكت » .

الصحافة في البر الاوروبي

كانت الصحافة في البر الاوروبي ، حيثما قامت ملكية مطلقة ، خاضعة للترخيص المسبق ، والاحتكار ، والرقابة المسبقة . وكان الصحافيون ، من جهة ثانية ، محتقرين في كل البلدان كجهلة وسطحيين . فكان للمؤلفات الكبرى والكتب الصغرى مركز الصدارة . ولذلك فان فولتير ، وهو اول صحافي عرفته العصور المتعاقبة ، لم يكتب في الجرائد . فكثرت من ثم الجرائد المخطوطة التي بيعت في الخفاء ، وهي الشكل الدوني من اشكال الصحافة .

في فرنسا

بيد ان استرخاء عاماً قد شجع الصحافة في فرنسا . دفعت بعض الجرائد الجديدة تعويضاً للجريدة الدورية الممتازة ، « جريدة فرنسا » ، للأخبار السياسية ، و « مركور فرنسا » للأخبار الادبية والعالمية ، و « جريدة العلماء » . وحرر غيرها خارج فرنسا وسمح لها بالدخول مقابل رسم تستوفيه وزارة الشؤون الخارجية . الا ان فقدان الوحدة في الحكومة غالباً ما اتاح الاهتداء الى وزير يحمي الجريدة من الرقابة. فصدرت منشورات دورية كثيرة اشهرت الأب « بريفو » ، والأب « ديفونتين » ، وفريرون . لا بل ان المكتبي « بنكوك » قد نظم منذ السنة ١٧٧٢ شركة احتكارية حقيقية للجرائد وتوصل في السنة ١٧٨٧ الى الحصول على امتياز « جريدة فرنسا » و « مركور فرنسا » وأدخل في خدمته المحررين النضاليين ، المشهورين بعنفهم وحماهم ، الذين ينشدون الحرية . ولكن التأخر كبير بالنسبة للصحافة الانكليزية : فإن « جريدة باريس» ، وهي أول جريدة يومية ، لم تصدر الا في السنة ١٧٧٧ .

حاولت الحكومة ان تضمن لها خدمات الصحافيين الفرنسيين والصحافيين الذين يكتبون باللغة الفرنسية في كافة انحاء اوروبا . وقد انفقت في محاولتها مبالغ ضخمة من المال . ثم فكرت بأن تكون لها جرائدها ايضاً . ففي السنة ١٧٦١ ألحق « شوازول » « جريدة فرنسا » بوزارة الشؤون الخارجية واوعز الى المشرفين عليها باعتماد « اللهجة الجمهورية » . وبواسطة الصحافة أعد « فرجين » الرأي العام للحرب الاميركية . ومنذ السنة ١٧٧٥ أخذت « جريدة فرنسا » والـ «مركور» تعظم « الثائرين » . ومنذ السنة ١٦٧٦ ، ادارت وزارة الشؤون الخارجية سراً جريدة « شؤون انكلترا واميركا » التي ما فتئت تهاجم الانكليز وانتهت الى امتداح مبادىء اعلان الاستقلال ونشر مقتطفات طويلة من « المعقول العام » ، مقالة توماس باين الانتقادية الديموقراطية العنيفة . فكان ذلك بمثابة لعب بالنار .

البلدان الاخرى

أما الدول الاوروبية الاخرى ، فكانت كلّها دون فرنسا بمراحل. الترخيص يمنح بكل تقتير ، والرقابة تمارس بكل صرامة . نمت النشرات الدورية على العموم في المدن الحرة ، المزدهرة تجارتها ، « فرنكفورت » ، « همبورغ » ، كولونيا ، اوغسبورغ ، ولكنها لم تنج من ازعاج الرقابة الدائمة . بيد ان الاولوية كانت للنشرات الأدبية الدورية في كل مكان . وفردريك الثاني هو الوحيد ، بين كافة الملوك ، من افاد من الصحافة خير افادة بمراعاته مصلحته الشخصية دون كل مصلحة اخرى . استحدث الجرائد في مدنه الكبرى . وكتب مقالات واوحى بغيرها ونقح سواها . مارس البُطل بكل مهارة . فلإثارة الرأي العام الألماني والبروتستانتي على النمسا الكاثوليكية ، لم يأنف من ان ينشر في كل مكان رسالة مزعومة من البابا الى القائد النمساوي « دون » وكتاب تهنئة مزورا من القائد الفرنسي « سوبيز » الى هذا الأخير (١٧٥٩) . في السنة ١٧٦٧ هزت برلين شائعة حرب جديدة . فاعطت الجريدتان البرلينيتان شتى التفاصيل حول عاصفة بَرَدية شديدة اجتاحت ، بزعمها ، منطقة « بوستدام ». نسي البرلينيون الحرب في استزادتهم من التفاصيل حول هذه الكارثة الخيالية . في سيليزيا المحتلة ارغمت « جريدة سيليزيا » على اطراء الانتصارات البروسية والنظام البروسي ، ومهاجمة النمسا . وأوعز فردريك الثاني بأن تؤسس في « كليف » جريدة باللغة الفرنسية بغية التأثير على اوروبا ، هي « بريد الرين الاسفل ». وقدم المساعدات المالية ، شأن غيره ، للجرائد الصادرة باللغة الفرنسية ، كـ « جريدة برن » مثلا . وحارب خصومه بكافة الوسائل . فأمر مثلا بأن يوسع مدير « جريدة كولونيا » المعادية ضرباً بالعصا . اضطر النمساويون ، بدورهم ، الى اثارة جرائد المدن الكبرى على فردريك الثاني . وفي اقصى اوروبا ، أي في روسيا الآخذة في التنبه الى حياة الغرب الفكرية ، ادارت كاترين الثانية مجلة « شيء من كل شيء » واعتمدت فيها الاسلوب الجدلي . بذلت بعض المحاولات في سبيل تحقيق حرية الصحافة ، كمحاولة « جوزف الثاني » مثلا ، ولكنها لم تدم طويلا .

يتضح من ثم ان الصحافة برزت كأداة تربية قوية . وهناك جرائد دورية انكليزية وفرنسية عديدة اثبتت قيمتها الكبرى . ولكنها توجهت بصورة خاصة الى الميسورين والمثقفين من النبلاء والبورجوازيين . ان زمن الصحافة الشعبية لم يحن بعد . وعلى الرغم من ذلك ، فقد كانت الصحافة ، منذ ذاك التاريخ ، اداة كذب واداة تضليل للرأي العام .

ان مجموع الطرائق التقنية التي بحثناها في هذه العجالة ، سواء كانت جديدة كل الجدة ، ام اتخذ استخدامها آفاقاً جديدة واشكالا جديدة ، لجدير لعمري بأن يحمل اسم الثورة . توفرت للاوروبيين وسائل فاقت كل ما عرف منها قبل ذاك التاريخ . وكان بمكنتهم تولي امر تحسينهم الخاص وتحسين كافة البشر ومحاولة ايصالهم الى مستوى الانسانية الاسمى . ولكنهم لم يسعوا في اغلب الاحيان الا وراء الفتح والاستثمار بغية اشباع رغائبهم . وعلى الرغم من النوايا الكريمة ، فقد حال الاتجاه التجاري للحضارة الاوروبية خلال القرن الثامن عشر دون قيام الاوروبيين بهداية الاعراق الملونة في ما وراء المحيط الى خير ما امتلكته اوروبا .

الكتاب الثالث

الأنوار وتعذّر تحقيق الأمّة الأوروبيّة

الفصل الأول

وحدة أوروبا

افتتنت اوروبا بحلم ساحر، هو حلم الامة الاوروبية. وعى المثقفون مايقرب بينهم من احياء آداب قديمة ، ومسيحية، او مثُل موروثة عنها، تداخلت كل افكار العصر ، حتى المعادية المعادية منها، وفردية النهضة ، وروح علمية عصرية ، واشكال فنية ، وحياة مجتمع ، وتقنيات ، ولاحظوا وجود هذا الكائن ، اوروبا . وصفها فولتير كـ « ... نوع من جمهورية كبرى مقسمة بين عدة دول ، بعضها ملكي وبعضها الآخر مختلط ، هذه ارستوقراطية ، وتلك شعبية ؛ ولكنها متطابقة كلها ، من حيث هي ترتكز الى اساس ديني واحد ، وتؤمن بمبادىء حقوقية وسياسية واحدة ، مجهولة في انحاء العالم الاخرى ... » والح الميلانيون في التأكيد : « ان البشر ، الذين كانوا في ما مضى رومانيين او فلورنسيين او جنويين او لومبارديين قد اصبحوا كلهم اوروبيين تقريباً » ؛ وذهب الجنيفي روسو في تأكيده الى حد قوله « ان ليس هنالك اليوم من فرنسيين والمسان واسبانيين وحتى من انكليز ، ليس هنالك سوى اوروبيين . ميول الجميع واحدة هواواؤهم واحدة واخلاقهم واحدة لان واحداً من كل هذه لم يتخذ شكلاً قومياً بموجب نظام خاص » . ودرج المثقفون على الكلام عن « عادات اوروبا المشتركة » . اما المستقبل المرتقب فكان نهاية الحروب وتقارب كافة الدول في اتحاد كبير للدول المتحدة الاوروبية .

اوروبا الفرنسية

هي فرنسا آنذاك ما وحّدت اوروبا فكرياً وأخلاقياً . على الرغم من هزيمتها في حرب وراثة عرش اسبانيا ومن اعترافها بالهزيمة في معاهدتي « اوترخت » و « راستات» ، وعلى الرغم من ان انكلترا اصبحت الدولة الاولى تجارياً

وسياسياً ، فان فرنسا ما زالت تثير وتقود اوروبا ، وتنير وتقود بواسطتها عالماً بكامله . فإن المركيز « كاراشيولي » ، سفير نابولي ، قد صدّر كتابا صغيراً وضعه في السنة ١٧٧٦ بهذا العنوان : « باريس ، مثال الامم الاجنبية » او « اوروبا الفرنسية » . وقد جاء فيه : « من اليسير ابتداً التعرف الى امة مسيطرة تحاول اقتفاء آثارها . بالامس كل شيء كان رومانيا ، اما اليوم فكل شيء اصبح فرنسيا » . وفي اواخر القرن ، قال « ريفارول » في احتفال تتويجه في اكاديمية برلين : « يبدو ان الزمان قد حان للكلام عن العالم الفرنسي ، كما سبق الكلام في ما مضى عن العالم الروماني » . والمقصود بكل ذلك هيمنة فرنسية مرتكزة لا الى القوة ، بل الى رضى الافكار الحرة .

الفرنسية لغة اوروبية

لأوروبا لغتها المشتركة ، اللغة الفرنسية ، التي كانت قيمتها احد اسباب رفعة المقام الفرنسية . منذ السنة ١٧١٤ ، اذ سلّم صاحب الجلالة الامبراطورية وصاحب الجلالة المسيحية جدا ، في راستات ، بتوقيع اتفاق باللغة الفرنسية ، حلت اللغة الفرنسية محل اللغة اللاتينية ، حتى حدود آسيا ، كلغة دبلوماسية : ففي السنة ١٧٧٤ حرر الاتراك والروس معاهدتهم باللغة الفرنسية .

وتكلم امراء اوروبا جمعاء اللغة الفرنسية وكتبوا باللغة الفرنسية ، ونحا نحوهم افراد بطائنهم . وراسلت ماري-تريز النمساوية ابنها جوزف الثاني وابنتها ماري - انطوانيت باللغة الفرنسية . ونظر فردريك الثاني ، ملك بروسيا ، الى اللغة الالمانية كما الى طمطمانية بربرية ولم يستعمل سوى اللغة الفرنسية . باللغة الفرنسية راسلت الفلاسفة كاترين الثانية امبراطورة روسيا . واستخدم اهل الأدب كذلك اللغة الفرنسية . لا بل ان الجرماني « لسنغ » كاد يؤلف الـ « لاوكون » بالفرنسية ، وان « غوته » ، الذي سيتكلم فيما بعد عن « لغته الالمانية العزيزة » ، قد تردد بين اللغتين . واجاد العديد من الاوروبيين التأليف باللغة الفرنسية ، وانه لجدير بسبعة منهم ان يحتلوا مركزاً في أدبنا : البريطاني « هاملتون » ، الامير البلجيكي « دي لينيه » ، الكاهن الايطالي « غالياني » ، الصحافي الالماني « غريم » ، ملك بروسيا « فردريك الثاني » ، الامبراطورة كاترين الثانية ، الجنيفي جان جاك روسو . وتكلم اللغة الفرنسية كافة « اهل الفضيلة والامانة » . فكانت اللغة الفرنسية لغة المجتمع الرفيع . ولم ينتقل الادب الانكليزي الى اوروبا الا في ترجمات او مقتبسات فرنسية . وحتى يستطيع الهنغاريون استخدام مجموعة ايطالية ، كان ضروريا ان تكون مترجمة الى الفرنسية . ولعل النخبة الالمانية عرفت مؤلفات كبار الكتاب الالمان ، من امثال « كلوبستوك » و « لسنغ » ، من خلال ترجمة فرنسية . وخير القول ما قاله فردريك الثاني حين امر ان تنشر باللغة الفرنسية « ابحاث اكاديمية برلين » : « على الاكاديميات ، كي تكون مفيدة ، ان تبلغ اكتشافاتها باللغة الشاملة ، وهذه اللغة هي الفرنسية » ؛ وفي كتابه « التاريخ العصري » جاء عن اللغة الفرنسية ما يلي : « تدخل الى كافة

المنازل وكافة المدن. سافر من لشبونة الى بطرسبورغ ومن ستوكهولم الى نابولي ، وتكلم الفرنسية، فتصادف في كل مكان من يفهم ما تقول » .

ان اللغة الفرنسية مدينة بهذه الملكية الخارقة لوضوحها . فهي اكثر اللغات وضوحاً لان عمل الكلاسيكيين قد اقصرها على اعم المفردات بالاستغناء عن معظم الكلمات التي تستخدم في العلم الواسع الخاص وفي الاختبار التقني، وعن الكلمات الاقليمية والمحلية والشخصية والمؤثرة؛ ولأن كل كلمة أو تعبير احتفظ بهما قد كانا موضوع بحث وتدقيق ، وكل معنى قد حدّد ، والقوّة والمدلول قد قيسا ، والتجانسات والاستعمال والموافقات قد عينت ، وأخيراً لان ليس من لغة في أوروبا بلغت هذا القدر من الضبط والصحة والوضوح وقرب المأخذ بالنسبة لكل من ليس منتسباً للبلاد او للمهنة .

انتصرت لانها استُخدمت في اكمل المؤلفات ، تلك التي انتظمت فيها الافكار انتظاماً خالياً من كل عيب ينقلنا تدريجياً من الفكر البسيط الى الافكار المطردة التركيب بحسب تسلسل منطقي ؛ ولان كل فكر قليل الفائدة أو غريب عما يريد المؤلف ايضاحه او اثباته يقصى اقصاءً تاماً ؛ ولأنها استخدمت كذلك في المؤلفات التي حُققت فيها خير تحقيق صفات النظام والسياق والتدرج والاتصال واستمرار البيان، وفي تلك التي تطرق جوهر الموضوع بدون مداورة وتفسر وتبرهن وتقنع وتقرب الى الادراك ، بشكل لا نظير له .

ان هذه المؤلفات، وهي اجلى ما انتجته أوروبا ، لكافية بمجرد صناعتها لأن تؤلف مدرسة فكرية ، ولكنها بالاضافة الى ذلك تنطوي على كنز قل نظيره من الملاحظات والآراء . غزا الادب الفرنسي كل شيء. قرأ الناس كبار كلاسيكيي القرن السابع عشر ومؤلفي القرن الثامن عشر واعادوا قراءتهم تكراراً وتأملوا فيهم واستساغوهم وقلدوهم واقتبسوهم. لقد هتف الميلاني « بكاريا » قائلا : « أنا مدين بكل شيء للكتب الفرنسية . ايه دالمبير وديدرو وهلفتيوس وبوفون، ايتها الاسماء الدائمة الشهرة التي لا يمكن ان نسمع بها دون اهتزاز وتأثر ، ان مؤلفاتكم الخالدة هي كتب مطالعتي الدائمة وموضوع انشغالي في النهار وتأملاتي في الليل» .وكان باستطاعة الوف مؤلفة ان تقول ما قاله بكاريا .وتشرب فردريك الثاني« بايل» ، وفونتنيل ، ومونتسكيو الذي دعاه « توراة المشترع العصري »، ولا سيما فولتير . وتغذى جوزف الثاني بمؤلفات واضعي دائرة المعارف والاقتصاديين و « الملك » فولتير . وتشبع الكتاب الالمان من الادب الفرنسي . لا بل ان صحافياً اشتهر بألمانيته كـ «لسنغ » قد حاول افراغ جملته في قالب جملة فولتير ، واشهر بمسرحياته نظريات ديدرو ، واستوحى الاب « دي بوس » في نقده الفني . وجاء غوته الى جامعة ستراسبورغ بغية اتقان اللغة الفرنسية وافتتن بالفرنسيين . لا بل بلغ من تأثر الانكليز بالادب الفرنسي ان مقالات انتقادية سياسية قد صيغت صياغة فرنسية . لقد سيطر على اوروبا اتجاه عقلي مشترك وطريقة تفكير مشتركة وآراء كثيرة مشتركة .

وكان فرنسياً كذلك الفن الاوروبي، وهو مصدر آخر لميول ومشاعر مشتركة .

الفن الفرنسي فن اوروبي

اراد المجتمع الفرنسي آنذاك ان يجعل حياته بلاذ الحواس اللطيفة التي تستلزم حكماً ممحصاً ، وقد خرج الفن الفرنسي من هذه النزعة التي قواها .

انه متجانس وتطوره متواصل . بشق النفس نستطيع ان نميز مزيداً من الشهوانية والهوى في عهد الوصاية ، اثناء المرحلة التي عقبت الحرب ؛ وحالة توازن حوالي السنة ١٧٥٠ ، حين عرف النمط المعروف بنمط لويس الخامس عشر اوج ازدهاره ؛ ونزعة متزايدة الى البساطة وعدم التصنع ، ابتداء من السنة ١٧٦٠ ، تحت تأثير العصور القديمة المكتشفة في اتروريا ، وبومبيي ، ومصر ، ونظريات « ونكلمن » ، في ما اطلق عليه اسم نمط لويس السادس عشر . ولكن هنالك ما هو اشبه بتصميم على متابعة المهمة المشروع بها وادخال الجدة في التقليد . فكان « داڤيد » اول من ظهر بمظهر الثائر . وان هذه الوحدة وهذا الاستمرار يردان الى هيكل اداري « لا يزعج الاقوياء ... ، ويساند الضعفاء ، ويتيح للمتوسطين انفسهم ان لا يكونوا البتة اردياء كلياً » : سلطة وكيل الابنية ومهندس الملك ورسامه الاولين ، واثر الاكاديميات النشيطة جداً التي تعلم وترشد وتكافىء . وترد الوحدة والاستمرار كذلك الى الزبن الذين يحتل البورجوازيون ولا سيما البورجوازيات المركز الاول بينهم : المرأة هي مصدر الوحي الاول . اما الملك ،الذي واجه صعوبات مالية جمة ، فلم تعد نصرة الفن وقفاً عليه ،بينما كانت البلاد آخذة بجمع الثروات بواسطة التجارة والمصانع . واذا استمرت الملكتان « ماري لكزنسكا » و « ماري انطوانيت » والعائلات النبيلة الكبرى في تشييد الابنية وطلب البضائع ، فان حديثي النعمة وحديثي العهد بالغنى قد لعبوا دورا ربما كان اكبر من دور الملكتين والعائلات النبيلة : الخليلات الملكيات المنحدرات من اصل وضيع ، كالسيدة « دي بومبادور» والسيدة « دي باري »؛ ورجال المال كـ « كروزا » و « باري — دوفرني » ؛ وممثلات الاوبرا كـ « غيمار » . لم يعد الفن فرساييليا فحسب ، انه باريسي في الدرجة الاولى ، والولايات تقتفي اثر باريس . الفنان يحلم بجمهور اكبر عددا . فمنذ السنة ١٧٣٧ ، لا تسمح الاجتماعات في قاعات الاستقبال ، التي يسرد تفاصيلها الصحافيون ، كديدرو مثلاً ، بالاتصال بمزيد من الناس فحسب، بل ان اعادة نشر المؤلفات بنقوش متقنة يرغم على ارضاء هواة من صغار البورجوازيين انفسهم ايضا . من هذه التأثيرات المختلفة انبثق الفن الذي تميز بتنوعه وسحره .

ازدهر في أعقاب حروب لويس الرابع عشر الطويلة والعصيبة ، في عصر أبعد استقراراً كادت المملكة لم تشعر فيه بقتال ملوكها في الخارج ، واستوحى السعي وراء السعادة على هذه الارض ، فجاء فناً علمانياً بحتاً ليس من روح الكنيسة لا بقليل ولا بكثير . هندسة عمارة كان ام تزييناً ، رسماً أم نقاشة ، زياً أم موسيقى ، فانه يطفح بالطلاوة أبداً . اناقة ، وخفة ، حتى في القوة ، وانطلاق ، ونسق رشيق ، واعتدال ، وتحفظا ، انه لمن الصعب التعبير عن هذه

الطلاوة بالكلام ، ولكن ليس من يشاهد تحقيقات هـذا الفن دون أن يتأثر بها . انه فن فتي ؛ فتي باختيار نماذجـــه أولاً : فمع ان الرسامين والنقاشين لم يرفضوا الكهول والشيوخ في رسم الاشخاص ، وحتى المشاهد ، فانهم قد فضلوا الاطفال والفتيان والشبان ولا سيا الشابات ، لأن العصر كان « عصر المرأة » ؛ وفتي كذلك بميله الى الحركة ، ونزوة العنف في التماثيل المختلجة ، ومسيرة الجماعات الراقصة على اللوحات ، ونسق وجه الابنية الذي يشعر المشاهد امامه وكأنه مأخوذ ومحمول كما في موسيقى راقصة سحرية . انه لفن بهج أيضاً : فاخشاب الاثاث الزاهـــرة الالوان ، ومرايا المداخن المتألقة ، والوان الرسوم اللامعة والمتنوعة ، وجمال العري ، والبسمات ، كل ما فيه سحر للعيون ، وعيد دائم ، وكل ما فيه يعبق ببهجة الحياة . وانـه لفن مريح اخيراً لا يغفل رغد العيش البتة. ان هذه المميزات المسيطرة ، التي قد ترافقها مميزات أخرى ، موجودة في كافة تحقيقات هذا الفن .

هندسة العمارة الفرنسية

عني القرن الثامن عشر عناية خاصة بتجميل المدن الذي سبق للقرن السالف ان عاد إليه . نظر الى المدينة ككل لتجميلها وتحسين حيـاة سكانها المادية . سعى وراء الجمال والمنفعة في آن واحد . كوّن لنفسه مفهوماً كلاسيكياً واراد إخضاع الطبيعة لمشيئة الانسان وعقله ، ولكنه لم يهمل الطبيعة قط ، ولا التاريخ ، لأن الصواب يقضي بالافادة من معطياتها . فبرزت في كل مكان الارصفة الجميلة والجسور المتينـــة في « رين » و « اورليان » و « بلوا » و « تور » و « نانت » ، والمنتزهات العامة وحدائق المدن ، كـ« الدائرة الكبرى » في « تولوز » مع نجمتها المخضوضبة (١٧٥٢) ، وحديقة « الينبـوع » في « نـيم » ، و الـ « بيرو » في « مونبلييه » مع اطلالته على أفق جبال « سيفين » العابس والاجرد ؛ وبرزت في كل مكان الساحات الملكية المعدّة لأن تكون اطاراً لتمثال الملك ، في « ليون » ، و « مونبلييه » و « ديجون » و « رمس » ، و « فالنسيان » ، و « نانسي » ، و « بـــوردو » ، و « رين » ، ولا سيا ساحة لويس الخامس عشر (ساحة الاتفاق) في باريس . ولكـن الساحة ، التي كانت مقفلة في القرن السابع عشر ، انفتحت في القرن الثامن عشر واسهمت في السير العـام . لم يشيد في جوار ساحة لويس الخامس عشر سوى صف من الابنية الى الوراء ، وامتدت الحدائق الى يمينها ويسارها وانساب نهر السين امامها . وتجاورت الساحات ، كما نرى ، في نانسي مثلا ، ساحـة « دوكال » مع حواجزها الحديدية المشبكة الشهيرة التي حققها « لامور » ، وساحتي « المحجر » و « نصف الدائرة » اللتين « تتقابلان وكأنهما مقطعان من نغم واحد » . وظهرت فكرة تجميل عصرية جداً في التصاميم التي وضعها « لدو » لمدينة نموذجية تقرر بناؤها في « شو » ، من اعمـال « فرانش — كونتيه » ، حيث تبدو الابنية المكعبة والكروية ، الخلو من كل تزيين ، تسبيقاً لما سيحققه « له كوربوزييه » .

احتفظت هندسة العمارة بطابعها الكلاسيكي ، وعلى الرغم من اننا نلمس فيها تطور القرن العام ، فلعل الفن هو أقل ما تبدل فيها . لم يحدث الملك أشياء جديدة كثيرة في فرسايل ، وان

ارتفع هنا الـ « تريانون الصغير » الذي حققه « غابرييل » (١٧٦٨) والذي هو تحفة القرن الثامن عشر . فباريس هي التي استأثرت بالمحدثات الهامة . لم تقم هناك أبنية دينية كثيرة (القديسة جنفييف التي حققها « سوفلو » ، و « سان سولبيس » التي حققها « سرفندوني ») . ولكن الابنية الدينية تجددت بالاستعاضة عن الركائز الضخمة الثقيلة بالاعمدة الرشيقة وباعتماد الاروقة . اكثر الابنية الجديدة أبنية منفعة عامة : المدرسة العسكرية ، وهي من تحقيق غابرييل (١٧٥١) ، ومدرسة الجراحة ، من تحقيق « غندوان » (١٧٨٠) ، ودار السكة (١٧٧١) ، والمسارح ، كـ « الاوديون » ، من تحقيق « انطوان » و « بير » ، ومسرح « فكتور لويس » في بوردو الذي كان سلمه الايهي الكبير ، المستوحى من القصور الملكية ، مثالاً نسج « شارل غارنيه » على منواله عندما حقق دار الاوبرا في باريس . وقامت كذلك دور ارستوقراطية كثيرة شيدت بحسب تصميم خاص : المسكن منفرد تحيط به ابنية الخدمة القائمة الزوايا ويفصله عن الشارع فناء الشرف ، ووجه البناء مع بناء آخر امامي في الوسط ، والحدائق في المؤخرة . اما امثلة ذلك فدار « سوبيز » ، من تحقيق « ديلامير » و « بوفران » ، ودار « بيرون » (متحف « رودين ») من تحقيق غابرييل ، ودار « ماتينيون » (رئاسة مجلس الوزراء) من تحقيق « كورتون » ، ودار « سالم » (قصر جوقة الشرف) من تحقيق « روسو » ، وقد شيدت كلها تقريباً في ضاحية (سان جرمان) عند منطلق طريق فرسايل ؛ وقصور آل « روهان » في « ستراسبورغ » و « سافرن » من اعمال الالزاس .

هذه الهندسة كلاسيكية بما اقتبسته عن العصور القديمة وعصر النهضة : الاعمدة ، الاروقة ، تيجان الاعمدة الدورية والايونية والكورنثية ، العتبات فوق الاعمدة مع الساكف ، الافاريز والاطناف ، المثلثات في اعلى مقدم البناء ، الدرابزونات والقباب . وهي كلاسيكية بنظامها الصارم . تتألف الابنية كما تتألف عظات « بوسويه » ومآسي « راسين » . التوازن والانسجام والتناسق ، تلك هي صفات هذه الهندسة التي تكملها هندسة اخضيضاب الحدائق على الطريقة الفرنسية : ان نظر المشاهد يهتدي بجواشي الحدائق الطويلة وصفوف الاشجار المشذبة الوارفة الظلال ، ينتقل من ارض مخضوضرة الى مرآة مائية ، ثم يضيع في أفق سمنجوني وتستقر العين في التماثيل البيضاء .

ان هذه الهندسة معتدلة جداً . لا تعتمد التزيين الا بكل تزن . الجمال يقوم في كمال نحت الحجر ، وتناسق الخطوط ، وضبط النسب ، والمطابقة الصحيحة بين كافة الاجزاء والغاية التي وجدت من اجلها ، والذوق الصائب في وضع العرض حيث يرتاح اليه النظر . وقد برزت صفة الاعتدال هذه بعد السنة ١٧٥٠ بصورة خاصة . ولكن لا برودة ولا تعبس ، اذا استثنينا اواخر القرن . ان حياة رقيقة تسري في اوجه البناء هذه ، وايقاعاً خفياً يهز عضلات المشاهد وموسيقى شجية تجتذبه . على الرغم من عظمتها الحقيقية ، وحتى من جلالها احيانا ، فان ما يشبه الخفة والاندفاع ، والطلاوة الراقصة ، يجعل المشاهد يتعرف فيها الى عصرها . اما بعد

السنة ١٧٧٠ ، فقد اصبح المعبد اليوناني ، بتأثير من علماء العاديات ، النموذج المألوف للمسارح (اوديون) ، والاسواق (المصفق) ، والكنائس («سان فيليب ـ دي ـ رول » ، من تحقيق شالغرين) ، واتجه الذوق الفاتر شطر الجفاف والتقشف قبل ان ينتقل ، في عهد نابوليون الاول ، الى الضخامة والعظمة .

وعلى نقيض ذلـــك ، تبدل تزيين هذه الابنية وتأثيثها تبدلا تاماً . فان الراحة والصفـــاء والظرافة قد تقدمت العظمة والقوّة . ظهرت «مساكن صغيرة » حتى في فرســـايل . وبغية انارتها وتكبيرها ، وضعت المرايا فوق المداخن . ثم احدث التزيين بالملاط الكلسي والرخامي والمعاجين على انواعها والواح تخشيب الجدران والحديد المشغول ما يشبه الخطوط المنحنية الـتي تكونهـا الالعاب النارية . ان مشاهد الرعيـــان ، والحظائر ، والقرود الصاعرة ، والطيور ، والازهار ، والثمار ، واكاليل الازهار ، وكنانة اله الحب وقدسه هي المشاهد التي زالت عادتها ولم يستخدمها الفرنسيون الا داخل دورهم ، والتي تفتحت في دار ســوبيز ، في قاعـة بوفران الاهليلجية المشهورة ، او في رواق دار تولوز (مصرف فرنسا) المذهب . غدا الاثاث اخـــف وزنا واسهل نقلاً والبس بالنسيج المحشوّ واتخذ اشكالا تتفق ومنعطفات القوام،حلّ محل الكرسي المستقيم المسند ، المعد للتصدّر ، والمشهور بطراز لويس الرابع عشر ، الكرسي المشهور بطراز لويس الخامس عشر والذي حشي مقعده ومسانده وغلفت بالمديحات. وظهرت الكراسي الواسعة ذات الاذنين ، والكراسي الطويلة او « الخطيئة المميتة» ، والارائك ، والتخوت والكراسي الخفيفة . ونثرت الطاولات المستديرة والطاولات الصغيرة والمكاتب والخزائـــن ذات الادراج وعلب ايداع محتويات الجيوب ، في كل مكان تقريباً . اما مادة هذه المفروشات فبهجة وساطعة بالوان متقلبـــة : اخشاب الجزر ، البلاذر ، خشب الورد ، وخشب البنفسج ، واللـــك الاحمر والذهبي واللك المتعدد الالوان ، وبرنيق «مارتين» . واذا عرف الميل الى الرفاهية الاستمرار ، فأن اعمال التنقيب في بومبيي قد روّجت تدريجياً ، ابتداء من السنة ١٧٦٥ ، اشكالا مستقيمة وهندسية لاتزال تتميز بالخفة والطلاوة ، والالوان غدت اقل ايـذاء للنظر ، وظهرت الخلفيات السوداء الاولى مزدانة بفسيفساء او رسوم قديمة المواضيع ، ولاسيما بالراقصـات الساحرة . ان الطـراز المعـروف بطـراز لويس الســادس عشر قـــد بـدأ قبل لويـس الســادس عشـر بزمن بعيد .

الرسم الفرنسي

ماشى الرسم الظروف الجديدة . فلا مكان في المساكن الصغرى للوحات التاريخية والميثولوجية الكبرى ، بل للوحات الصغرى الكثيرة ، فوق المداخن والابواب مثلا ، التي يحلو النظر اليها . لذلك تنوعت مواضيع الرسم التزييني وكثرت اللوحات الصغرى التي يسهل تركيزها ونقلها من مكان الى اخر .

اعدّ الرسم للارضاء والاعجاب قبل التربية والتهذيب ، لذلك نراه يتخلى عن المثل العقلي

الاعلى الذي سعى وراءه في لوحة « رعاة اركاديا » . توجه الى الحس بواسطة اللون . الرسامون حلونون كلفوا بالبندقيين ، والفلمنكيين كـ « روبنس »، والهولنديين كـ « رمبراندت » . فهم والمعجبون بهم يتلذذون باللون كلون ، ويتمتعون باهتزازاته كما بالموسيقى. اما الصناعة فعصرية في اغلب الاحيان وتبشر بالتأثريين . يفصل « شاردين » بين الالوان التي يجاورها ويربط بينها بتقاطع الانعكاسات . وينهج « فراغونار » النهج نفسه ، ويعتمد تبادل الاشعاع بين السدوف والخلفيات ، وبلون الظلال . فغدا الرسم ، اكثر فاكثر ، تأليفيا يتلقف الايجاز الحاسم .

ايقظ الرسم الخيال . انه شعر العصر ، ذلك الشعر الذي افتقر اليه الادب ايما افتقار . فها هي « الاعياد الانيسة » لـ «فاتو» (١٦٨٤ – ١٧٢١) التي هي حوار مستلذ بين اسياد شبان وسيدات شابات ، وخرافات حقيقية ، نخص بالذكر منها لوحة « الابحار الى سيتير » (١٧١٧) الشهيرة ؛ وها هما لوحتا « دور فينوس » و « الراعويات » لـ « بوشيه » (١٧١٣ – ١٧٧٠) اللتان تمثلان حلم انسانية جميلة ، شهوانية ، مخصابة ، في طبيعة منظمة ؛ وها هي انشودة الحب ، لـ « فراغونار » (١٧٣٢ – ١٨٠٦) ، التي تعبق منذ ذاك التاريخ بكل الشعر الغنائي الرومنطيقي ؛ وها هي لوحات غرق السفن والعواصف في ضوء القمر ؛ لـ «فرنيه» (١٧١٤ – ١٧٨٩) ، والاطلال لـ « هوبير روبير » (١٧٣٣ – ١٨٠٨) .

ولكن الرسامين ابناء زمن كانت محبته للحياة اليومية اقوى من ان يكترثوا للعالم المحيط بهم . فان « فاتو » نفسه قد رسم مشاهد عسكرية ، كما رسم « فرنيه » مرافىء فرنسا . ونجد في ما خلفه « هوبير روبير » تاريخاً مصوراً لفرنسا تحت ظل النظام القديم . اما الاختصاصي شاردين (١٦٩٩ – ١٧٧٩) ، فكان رسام صغار البورجوازيين (« الام المنهمكة» و «صلاة تناول الطعام») .وبرع كلهم في رسم صور الاشخاص ،فكانوا سيكولوجيين يتقصون اعمق اعماق الشخص الذي يرسمونه . ويجب ان نضيف الى من ذكرنا « ناتيبه » (١٦٨٥ – ١٧٦٦) الذي رسم ماري لكزنسكا و « سيدات » فرنسا ، والسيدة « فيجيه لبران » التي رسمت ماري انطوانيت ، وامهرهم اطلاقاً ، المصور بالقلم ، « لاتور » (١٧٠٤ – ١٧٨٩) ، اللوذعي حق الفظاظة ، الذي رسم « مدام دي بومبادور » ولويس الخامس عشر .

الا ان في هذا القرن ، الذي بلغ هذا القدر من الثروة والتنوع ، نواحي اقل جمالاً : الرسم الخلاعي الذي لا نجرؤ على اصدار حكمنا عليه في ما انتجه « فراغونار » الصادق والضاحك (الارجوحة ، القميص المخلوعة) ، والذي تقز منه النفس امام ما خلفه « غروز » المرائي (الابريق المكسور) ، وما هو شر من ذلك، رسم « غروز » الاخلاقي، البهرج والمفخم ، الذي له اسوأ وقع على المشاهد .

أما النقاشة بماء الفضة التي برع فيها « كولين الابن » وسانتوبين و « مورو الابن » ، فقد عرّفت فرسايل وباريس . وقد اكتشفت النقاشة بالالوان في السنة ١٧٢٥ .

وأما التدبيج الذي وفّر له الرسوم الايحازية اشهر رسامي العصر فقد اعطى نتاجاً جميلاً جداً نقل او نسج على منواله في كل مكان .

في أواخر القرن تأثر «دافيد»(١٧٤٨ — ١٨٢٥) باستاذه «فيان» وبالساكسوني «ونكلمن»، على الفن ان يستخلص من الطبيعة الجمال المثالي ؛ قام القدماء بذلك خير قيام ؛ يجب التتلمذ عليهم ؛ الا ّ ان الرسم القديم ، اذا ما استثنينا الآنية اليونانية والرسوم الجدرانية في بومبي ، قد اضمحل وزالت آثاره ، فيجب من ثم النسج على منوال النقاشة وانتاج نقوش مصورة . ان «يمين الهوراس» ، التي عرضت في روما في السنة ١٧٨٤ وضمت ، على تعبيرها وطابعها المسرحي ، اجزاء جميلة جداً ، قد عرفت نجاحاً عظيماً جداً وكانت بمثابة بيان المدرسة الجديدة . فأوقف دافيد بذلك ، لسنوات طويلة ، تياراً لن يظهر ثانية الا ّ مع مدرسة السنة ١٨٣٠ .

النقاشة الفرنسية

تطورت النقاشة من الحركة الوثابة في « جياد الشمس » لـ«روبير اللوريني» الى الاتزان في يلبوع غرينيل »لـ «بوشاردون» (١٧٣٩) والى الكلاسيكية الزاهدة وربما العابسة في « سان برونو » و « ديانا » لـ « هودون » .

حافظت اكثر من الرسم على المواضيع الكبرى : التماثيل الملكية للساحات (لويس الخامس عشر»ليوشاردون ، في ساحة لويس الخامس عشر ، ١٧٥٠ ؛ و «لويس الخامس عشر لـ «بيغال» في « رمس» ، ١٧٥٦) ، وقد حطمت كلّها على يد الثورة ؛ الأبنية المدفنية ، كضريح المارشال « دي ساكس » في ستراسبورغ لـ « بيغال » (١٧٧٧) . ولكنها ، في الدرجة الاول ، نقاشة مساكن تتميز بالخطوط المرنة ويضاهي فيها الآجر الرخام وتكثر من النساء والاولاد والفتيان: كـ « مركور رابطاً جناحيه » و « الولد والقفص » ، و « الولد والعصفور » لـ « بيغال » ، و « المستحمة » لـ « فالكونيه ». وكان النقاشون اخيراً مصوري اشخاص سيسولوجيين ايضاً يظهرون لنا مجتمع عصرهم كاملاً : بيغال («فولتير عار » ١٧٧١) ، « لموان » ، «باجو» ، « كافييري » ، وخصوصاً « هودون » ، الذي يعتبر « لاتور » النقاشة («فولتير» في بنساه الكوميديا الفرنسيه » ، و « واشنطون » في كابيتول « ريتشموند » ، و « وفرانكلن ») .

الموسيقى الفرنسية

هل كانت الموسيقى الفرنسية ، في هذا القرن ، دون الفنون الاخرى ؟ يبدو ان فرنسا لم تنجب عباقرة من امثال اولئك الذين المجتهم النمسا وتورنج . ولكن اثر الموسيقى الفرنسية ، على الرغم من ذلك ، كان كبيراً . فالفرنسيون كانوا في الدرجة الاولى اساتذة معتبرين عرفوا ،هنا ايضاً ، الاهتداء الى النظام العميق المحتجب تحت الظواهر واكتشاف النواميس وردها كلّها الى مبدأ مشترك . وهذا ما فعله «رامو » ، المراقب البصير ، والعقل القياسي والمنطقي ، في مؤلفين هما بمثابة « مراحل الاجور وسية الموسيقية » : « بحث في الايقاع » (١٧٢٢) و « واثبات مبدأ الايقاع » (١٧٥٠) . فرد نهائياً مقاسات الألحان الاثني عشر القديمة الى المقامين الأكبر والاصغر ، والمقام الاصغر الى المقام الاكبر ،

والمقام الاكبر الى توافقي الاصوات الاساسيين ، التام والسباعي ، وهـــذين الآخرين الى اللحن الخاص ، اي « النقطة الايقاعية » . وقد خضع التلحين كله ، حتى العهد المعاصر ، لأعمـــال رامو . عرف الفرنسيون اذن كيف يستخلصون من ممارستهم الموسيقية ، بمجهود تحليل وتجريد ، قواعد عامة وتمارين منسقة لتعلم العزف على الآلات الموسيقية . فقد نشر « فرنسوا كوبرين » ، الكبير ، في السنة ١٧١٧ ، « فن العزف على البيانو (القديم) » ، ونشر « رامـو » ، في السنة ١٧٢٤ ، مجموعة معزوفات للبيانو ، تحت اسم « اسلوب لآلية الأصابـع » . واعطى الفرنسيون خير أمثلة عن موسيقى البلاط وموسيقى قاعات الاستقبال . وجلّوا في البيانو القديم ، الذي هو جدّ البيانو الحالي ، ولكنه يبضّ الوتر بدلا من ان يطرقه طرقاً ، فـــلا يستطيـع من ثم صيانة الصوت ؛ والى هذا يرد ضعف رنينه ، « حزمة مفاتيـح تحرك » ، والحاجة الى المديحات والزين المختلفة ، وتخصيصه للموسيقى الخفيفة والرقيقة : البيانو القديم « مشط دقيق لامـرأة شقراء مجعدّة الشعر جداً » . ان رامو و « وداكين » (١٦٩٤ – ١٧٧٢) ، ولا سيما فرنسوا كوبرين الكبير (١٦٦٨ – ١٧٣٣) قد اكثروا في الموسيقى من «الاعياد الانيسة» و « التسليات الريفية » و « الراعويات » التي حققها الرسم ، فجاءت نغما لطيفاً ومرناً على غرار اثاث مـــن طراز لويس الخامس عشر ، على بعض التصنع في الطلاوة وتلاطف في الاناقة ، تتسلط عليهـــا المرأة تسلّطاً كلياً كما تدلّ على ذلك اسماؤها : « الساحرة » ، « العفيفة » ، « الشهوانيـة » ، « الساذجة » ، الخ . وقد جلّى رامو بالاضافة الى ذلك في الاوبرا . واشهر مؤلفاتـــه الكثيرة « كاستور وبولوكس » (١٧٣٧) . اعطى فيهـا مثال الموسيقى النبيلـــة ، المتحفظة ، المعدّة لمساعدة الشعر في التعبير عن المشاعر وأحوال النفس دونما زخارف نافلة ، الكلاسيكية ، لغـة الفؤاد . وهم الفرنسيون اخيراً من خلقوا الاوبرا الهزليـــة التي أشهرهـا اسم « غرتري » ، وعندهم اكتُشفت اصول الايقاع الذي احدثته منذ السنة ١٧٤٣ مدرسة «مانهايم» الألمانية .

الزي الفرنسي

اتجه الزي كذلك شطر المستحب والمستحسن . منـذ السنة ١٧١٨ ، انتشر استعمال القضبان الخفيفة والطوية التي تنفخ «التنانير»: وكانت البهجة كبيرة بالخلاص من فساتين الزي القديم الضيقة . ارتدت النساء « مباذل » ، أي فساتين واسعة ومتسدلة ، تكشف العنق والكتفين وأعلى الصدر ، ومزودة باكام على شكل القمـــح والهيكل الصيني . الاقمشة خفيفة : منسوجات قطنية من الهند ، ومنسوجات موصلية ، وشفوف دقيقة جـداً ، وحرائر . السيدات يقصرن شعرهن الذي يجعدنه قصّاباً كبرى ويضطررن في سبيل ذلـك الى الذهاب الى المزينين . ويبرزن جمالهن بقسيمات من النسيج الحريري الدقيق الاسود يلصقنهـــا بالوجه ، « الاذية » : « المولعة » ، الى جانب العين ، « الماجنة » ، فوق الانف ، « المغناجة » ، في أعلى الخد .

وتخلى الرجال عن الجمم المستعارة الضخمة والملابس المثقلة بالاوشحة والمخرمـات واعتمدوا الملابس البسيطة ، الضيقة ، السراويل من نوع « غمـــد المسدس » ، والثوب المخصر المنحدر الى

الركبتين ، والجمم المفلطحة .

منذ السنة ١٧٥٠ ، زادت كسوة رأس النساء ارتفاعاً . وفي عهد لويس السادس عشر باتت مرتفعة جداً ، حتى بات وجه النساء على ارتفاع ثلثي طولهن . وابتكر « ليونار » القبعات المعبرة « على طريقة مونغولفيه » ، و « طريقة المتمردين » ، و « طريقة الدجاجة الحسناء » مع مركب حربي مبسوط الأشرعة . أما الملابس فقد تكلفت ، اكثر فأكثر ، البساطة وطابع الازياء الانكليزية للرجال .

ابتكر الزي فنانون حقيقيون . هم الخياطون وحدهم من صنعوا ألبسة الجنسين في القرن السابق ، أما اليوم فقد ظهر طراز جديد هو طراز الخياطة وصانعة القبعات النسائية . إن الآنسة «برتين» ، « وزيرة الزي » ، المقيمة في شارع « سانتونوريه » ، تشاهد الملكة « ماري – انطوانيت » يومياً . المزينون الاختصاصيون يحلون محل القرّاش والفراشة . «داجيه» يزين السيدة « دي بومبادور » ؛ و « ليونار » يزين « ماري – انطوانيت » ؛ و « له غرو » يؤسس اكاديمية التزيين . وتقوم جرائد الازياء بنقد الفن الجديد .

الطهاية الفرنسية

ان بعض متذوقي المآكل ساعدوا الطهاة على تحسين فن الطباخة . يفرض تذوق المأكل حساً مرهفاً في اللسان والمذاق ، وانتباهاً كلياً دائماً ، وحكماً سليما للتمييز بين الطعم والروائح الزكية في ادق فوارقها ومطابقاتها وتداخلاتها . النهم فن من الفنون الجميلة ، وهو جدير بان تكون له ربة شعره . الطهاة في دور « اورليان » و « كونتي » و « سوبيز » ، والطهاة في دور الاحبار ورجال المال يتبارون في وضع خير جداول الاطعمة تنظيماً ، وتركيب اكثر المتبلات اتقاناً وتخليد اسماء اسيادهم باطلاقها على فريدة من الثرائد ، او على حساء جديد . انتظمت الوجبات الفرنسية انتظام المسرحيات الكلاسيكية . الحمور والاجبان الفرنسية ارسخت شهرتها . ابتكرت السيدة « دي بومبادور » صنف القدد من لحم ظهور الدجاج في « المنظر الجميل » ، وابتكرت سيدات غيرها صنف السمانيات على طريقة « ميربوا » وصنف الفراريج على طريقة « فيلروا » . وخلّدت مآثر الدوق «دي ريشليو » في « بور – ماهون » بالحساء المركب من زيت وخل وملح وفلفل ومحة البيض . وكان القرن الثامن عشر بالاضافة الى ذلك قرن النبيذ الشمباني المزبد ، والفطائر المحشوة بقطع الاكباد المشهورة باسم فطائر ستراسبورغ ، وحلوى « *Praline* » الدوق « دي برالين » . كما كان قرن الطاهي « كاريم » المشهور الذي كانت محبته للمطبخ اقوى من ان يتأخر في تناول الطعام ، والمقصف « بريا – سافارين » الذي ولد في السنة ١٧٦٥ .

غزو فرنسا لاوروبا

غزا الفن الفرنسي اوروبا . تزاحم الامراء والنبلاء على الطهاة الفرنسيين . صدّرت المفروشات الفرنسية من فرنسا شحنات كبرى . عند الامراء في ردع صانعي الاثاث والفروش الفرنسيين بغية احداث المعامل في بلدانهم . وقد بلغ من شهرة مصنع الـ (غوبلين) الملكي الفرنسي انهذا الاسم اصبح اسم جنس لتعيين المفروشات

العصرية على اختلاف مصدرها . زودت حوانيت الصاغة في باريس كافة البلاطات الاجنبية . وانتشرت منتجات مصنع « سيفر » الملكي من آنية صينية وآنية شبيهة بالمرمر في كل مكان . واستوردت النساء من باريس الفساتين والجوارب الحريرية والمراوح والقفافيز المعطرة واحمر الشفاه وكافة « سلع المحبة الصغيرة الحجم » . وتزين وارتدين الملابس على الطريقة الفرنسية . وكن يرتقبن بفارغ الصبر دمية شارع « سانتونوريه » ، المزينة الشعر والمجملة بالملابس ، التي تأتيهن كل شهر باحدث زي في باريس . وكن في ساعات دوارهن يستسلمن الى السحر احياناً. فقد عادت كنة كاترين الثانية يوماً من باريس بـ ٢٠٠ صندوق من فساتين شارع « سانتونوريه » وخرقه ، وما ان رأتها كاترين حتى طاش صوابها واصدرت قانوناً يقيد النفقات المفرطة . وقد شقت باقات خيوط الحرير التزيينية والبهارج والمخرمات الحريرية طريقاً امام الملحنين والكتاب والرسامين .

ان الموسيقى الفرنسية ، التي احتقرها جان جاك روسو ، كانت موضوع تقدير الالمان . وشقت القطع الموسيقية الفرنسية ، ولا سيما موسيقى البيانو ، طريقها الى كافة البلاطات الالمانية حيث عزفت وقلدت ونقلت . واقتبس الايطاليون والالمان الكثير من موسيقى رامو الاصيلة . وفي كلامه عن فرنسوا كوبرين الكبير ، صرّح « براهمز » « بأن « سكارلاتي » و « هايندل » و « باخ » من عداد تلاميذه » (مدخل طبعة المؤلفات الموسيقية المعدة للبيانو) . واعجب « باخ » بكوبرين وأشار على تلامذته بالافادة منه . وان باخ هذا ، الذي هو عبقرية متميزة ، لمدين الى الفرنسيين بفنه في التسلسل وطريقته الكلاسيكية ، الراسيلية والفرسايلية ، في حصر أهمية القطعة الموسيقية بفكرة واحدة تسيطر عليها من أولها الى آخرها . وليست « ثورة » « غلوك » المزعومة في الاوبرا سوى تطبيق لمبادىء رامو على يد رجل عبقري ، والى باريس جاء غلوك ، الذي لم تفهمه فيينا المتعودة محسنات الاوبرا الايطالية ، ليرى انتصار كلاسيكيته القانعة . وتأثر « موزار » تأثراً قوياً بمؤلفات رامو للاوبرا وبالاوبرا الفرنسية الهزلية . وانك لترى ، في كل ما خلفه هايدن وموزار ، اثر الموسيقى الارستوقراطية العالمية ، الطريفة والخفيفة ، التي جلى فيها الفرنسيون . وقد ذاع صيت باريس في كافة انحاء اوروبا بسبب امتياز طبعاتها الموسيقية . فان والد موزار قد طلب الى الباريسيين نقش مؤلفات ابنه ، كما ان غلوك قد ارسل الى باريس من فيينا تركيب معزوفة « اورفيه » كي ينقش فيها نقشاً فخيماً.

ولكن اعمق أثر تركته فرنسا هو أثرها في هندسة العمارة والنقاشة والرسم . وكان من حق المهندس « بات » ، أن يكتب في السنة ١٧٦٥ « تجوّل في روسيا وبروسيا والدانمارك وروتنبرغ ، والبالاتينا ، وبافاريا ، واسبانيا ، والبرتغال ، وايطاليا ، ثر في كل مكان مهندسين فرنسيين يحتلون المراكز الاولى . وينتشر نقاشونا كذلك في كل مكان ايضاً ... باريس هي بالنسبة لاوروبا ما كانته أثينا بالنسبة لليونان حين ازدهرت فيها الفنون : انها تقدم الفنانين لكافة اقطار العالم » . في كل مكان نشاهد فرنسيين يحتلون مركز الرسام الاول والمهندس

الاول والنقاش الاول لدى الامراء والملوك . وهم لا يكتفون بالابداع والخلق ، بل يديرون أكاديمية الفنون الجميلة الأجنبية ويدرسون فيها ايضاً . واذا لم ينتقلوا من مكان الى آخر ، أرساوا التصاميم والرسوم التي يراقبون تنفيذها . يؤثرون بمنشوراتهم المجموعات المنقوشة المطبوعة في فرنسا التي تضمها كل مكتبة من مكتبات الفنانين الاجانب ، والتي هي ، بالنسبة لهؤلاء ، مرجع يستوحون منه الافكار والاشكال الهندسية : كتب الهندسة لـ « دافيلر » ، وبلوندیل ، ومجموعة كبريات جوائز هندسة العمارة ، وكتاب فن تنظيم الحدائق لـ «لبلون» ، ومجموعة تماثيل ... قصر فرساي ، ومجموعة « جوليان » لصور « فاتو » ورسومه . الامراء يرسلون المشاريع التي يضعها مهندسو بلدانهم الى الأكاديميات الفرنسية طالبين ابداء الرأي واجراء التحويرات اللازمة . ويأتي عدد غفير من الفنانين الأجانب لتلقي دروسهم في فرنسا فيتشربون فيها الذوق الفرنسي .

اقتبست اوروبا عن فرنسا فنها البلاطي . ان مدينة فرساي الملكية ، مع تصميمها الموضوع بشكل مروحة ، واتجاه شوارعها الى القصر الذي يسيطر على المدينة ، وفي ذلك ما فيه من تعبير عن نظام الحكم المطلق ، قد نسج على منوالها في « كارلسروه » مقر حكام « باد » ، وفي « سان بطرسبورغ » حيث نضّد « لبلون » ، مهندس القيصر العام ، بين السنة ١٧١٦ والسنة ١٧١٩ ، فوق الاقنية المشتركة المركز ، مروحة مؤلفة من ثلاثة ابعاد نظرية كبرى تتجه كلّها الى اعلى برج « الاميرالية » ، فجعل من عاصمة القياصرة فرساي جديدة .

حاول كافة الامراء تقليد قصر فرساي مع افنائه الأمامية التي تضيق تدريجياً باتجاه فناء الشرف ، وحديقته المنظمة ، وبناءي « مارلي » و « تريانون » الملحقين به ، ورواق المرايا الكبير ، وسلم السفراء ، والسقف الرمزي تخليداً لمجد الملك ، وصورة الملك حاملاً اسلحته او مرتدياً بزة التكريس . كلهم رغبوا في ساحة ملكية تكون اطاراً لتمثال الملك فارساً أو راجلاً ، على غرار لويس الرابع عشر الراجل لـ « ديجاردين » ولويس الرابع عشر الفارس لـ « جيراردون » ، أو لويس الخامس عشر لـ « بوشاردون » ، وقد حُطم هذان الأخيران في عهد الثورة .

ان القصر المنتخبي في بون الذي حققه « روبير دي كوت » وتلامذته وزينه «اودران» و « اوبنورت » و « فاسّيه » ، ومقر « بوبلدورف » الريفي ، وقصر « بروهل » ، قد شيدت في المانيا الرينانية لمنتخب « كولونيا » . وشيّد منتخب تريف ، في « كوبلانس » ، على يد « اكسنار » ثم « بير » الابن ، وبمراقبة اكاديمية باريس للهندسة ، بناء على الطراز المعروف بطراز لويس الرابع عشر . واقتبس منتخب « مايانس » قصر مارلي ، وأسند وضع تصاميم البناء الى الألمان وطلب الى الفرنسيين اعادة النظر فيها . وفي البلاتينا ، انجز « بيفاج » قصر منتخب مانهايم وانشأ حديقة « شتزنجن » ، على غرار فرساي . وفي ورتمبرغ انجز « لاغيبير » بعد السنة ١٧٥١ القصر الدوقي في « شتوتغارت » . وفي بافاريا طلب الأمير المنتخب من «روبير

دي كوت» تصاميم لقصره في شلسهايم واستخدم مهندسين تتلمذوا على الفرنسيين. وفي «كاسل» شيد الأخوان «دي ري» «للاندغراف» قصوراً ومتحفاً واوبرا. وفي برلين شيد «جان دي بودت» «دار الصناعة»، وتعهد فردريك الثاني عدداً كبيراً من المهندسين الفرنسيين الذين شيدوا له قصر «بوستدام» و «سان – سوسي». وأعدّ له النقاشون الفرنسيون عدداً كبيراً من القطع الرخامية المنقوشة للسطوح والحدائق. يضاف الى ذلك أن تمثال المنتخب الأكبر لا يفترق بشيء عن التماثيل الفرنسية، كما ان ساحة فردريك مقتبسة عن ساحة لويس الخامس عشر. ثم ان الرسام «بين» قد خلف صوراً لفردريك الثاني في كافة مراحل حياته. وفي «درسد» تزخر «الحديقة الكبرى»، التي دمرتها القذائف البروسية، بالتماثيل المستوحاة من تماثيل فرساي. وقد رسم الفنانان الفرنسيان «سيلفستر» و «هوتين» الصورة الملكية واعادا الى الذاكرة بلاط درسد وملاذه.

في النمسا شيد «جودو» جامعة فيينّا. واستعان النمساوي «دونر» بالنقوش الفرنسية لنقش تمثال «شارل السادس» على غرار تمثال لويس الرابع عشر، وزين ينبوع «السوق الجديدة» بتماثيل شبيهة بتماثيل فرساي، وليست ساحة جوزف الثاني سوى ساحة لويس الخامس عشر بالذات. وقد تولى أحد تلامذة «لارجيلير» رئاسة اكاديمية الرسم العليا. وأراد الأمير «اوجين» أن يكون له فرسايته الصغير في قصر «المنظر الجميل» وحديقته.

في روسيا جعل «لبلون» قصراً وحديقة فرنسيين من «بيترهوف» والحديقة الصيفية التي جمّلها «بينو» بالعديد من الينابيع الضخمة. وحقق «فالين دي لاموت» بعد السنة ١٧٥٦ قصر اكاديمية الفنون الجميلة ثم «صومعة» كاترين الثانية، المستوحاة من «تريانون». ونسج على منوال فرساي في المقرات الامبراطورية في «قيصر كويه–سيلو» و «بافلوسك» وحقق في المقرات السيدية، كمقر الأمير «غاليتزين» في «اركنجلسكويه» ومقر الكونت شرمتياف في «كوتوفو». وفي السنة ١٧٦٦ استدعت كاترين الثانية «فالكونيه» الذي نقش تمثالاً ضخماً لبطرس الأكبر فارساً، وهو المصلح ومشيد المدن، مستوحياً مشروع تمثال للويس الرابع عشر، فحقق اجمل التماثيل الملكية في القرن الثامن عشر.

في بولونيا يشاهد الأثر الفرنسي في قصر لازينكي الصيفي وقد زينه النقاش «لبرون»، نقاش الملك الأول، الذي اسهم ايضا في أعمال قصر فرصوفيا الملكي.

وان ساحتي «كونجنس – تورف» و «امالينبورغ» في الدانمارك لساحتان ملكيتان، كما أن «سالي» قد صنع تمثال الملك فردريك الخامس فارسا من البرونز على غرار تمثال لويس الخامس عشر لـ «بوشاردون».

في السويد انجز قصر وحديقة «دروتننغهولم» والتجميل الداخلي في قصر ستوكهولم الملكي على غرار فرساي. وقد عمل هنا وهناك فرق عديدة من النقاشين الفرنسيين. وأقام «لارشفيك»

بين السنة ١٧٥٥ والسنة ١٧٧٨ في ستوكهولم تمثالا لـ«غوستاف فازا» راجلا وآخر لـ «غوستاف – ادولف» فارسا . وتولى ديبريه ، بين السنة ١٧٨٤ والسنة ١٨٠٩ كافة الأعمال التزيينية التي تطلبها المسرح وأعياد البلاط . وزين رسامو مدرسة « بوشيه » القصر الملكي .

في اسبانيا ، أراد فيليب الخامس أن يجعل من الـ « غرانجا » قصر فرساي جديداً . فصنع النقاشون الفرنسيون العديد من التماثيل والينابيع ، وهكذا حوّلوا شكل حديقة « ارانجويز » . وشيد مهندسون فرنسيون منتزه « بوين رتيرو » في مدريد ، ودار « كوريوس » ، وقصر « المنظر الجميل » . وفي البرتغال جاء قصر « كلوز » قصر فرساي جديداً ايضاً ، كما جاءت ساحة التجارة في لشبونة ، التي انشئت تخليداً لمجد جوزف الاول ، مماثلة لساحة لويس الخامس عشر . وفي ايطاليا اقتبس « كازرتو » في « نابولي » و « كولورنو » في « بارما » عن قصر فرساي ، كما اقتبس عنه « هت لو » في هولندا و « هامبتون كورت » وحديقة شاتسوورث في انكلترا .

ونقلت أوروبا عن فرنسا فنها المجتمعي ، الفن الباريسي ، ففي كل مكان يشاهد في الدور الخاصة تصميم الدار الباريسية المميز ، كدار البارون « دي بزنفال » في سولور (سويسرا) ودار « تور » و « تاكسي » في فرنكفورت ، وهي من تحقيق « روبير دي كوت » ، والدور الارستوقراطية في حي « ولمسترلس » في برلين .

وقد استعاد التزيين فيها كلها موضوع « الاعياد الانيسة » لـ « فاتو » . فشغفت به أوروبا ، لذلك نرى اجمل مجموعات « الاعياد الانيسة » للرسامين الفرنسيين في لندن وبرلين وستوكهولم ولننغراد . وهي رسوم الاشخاص التي حققها الرسامون والنقاشون الفرنسيون ما يؤلف خير مراجع صورية لكافة بلاطات أوروبا .

لا يتسع المجال هنا لاحصاء المنجزات الاوروبية التي حققها الفرنسيون او اقتبست عن الفرنسيين . بيد ان الامثلة التي قدمنا لكافية للدلالة على هيمنة فرنسا الفنية .

اسباب التوسع الفرنسي

ترد هذه الهيمنة في الدرجة الأولى الى تفوق الفن والادب في حد ذاتها . ولكن ظروفا خارجة عن ذلك سهلت انتشار المنجزات والفنانين وانتشار الحس والمشاعر والآراء المشتركة .

العظمة الفرنسية

فهنالك اولاً سحر العظمة الفرنسية الكبير . القرن الثامن عشر هو في نظرنا الفترة التي افتقرت فيها فرنسا الى الهيمنة البحرية والتجارية والسياسية . اما في نظر المعاصرين ، فان فرنسا ، التي كانت اكثر بلدان أوروبا سكاناً وخيرها تنظيماً ، ما زالت ، على الرغم من هزائمها ، التي تخللتها انتصارات كبرى على كل حال ، ارهب قوة عسكرية في البر الاوروبي اطلاقاً . وان في القوة لجاذبا .

بلاط فرنسا

جسّم ملك فرنسا ابداً ، في نظر ملوك أوروبا ، مثال الملك بالذات ، كما كان بلاط فرنسا نموذج البلاطات كلها . لذلك حرص اصغر صغار الامراء الالمان على ان يقلدوا ، في اماراتهم ، لويس الرابع عشر وفرساي ، وبلاط فرنسا . ولذلك قصد الامراء والعظماء فرنسا طيلة القرن لاستكمال تهذيبهم فيها . نذكر من بينهم بطرس الأكبر في السنة ١٧١٧ وكريستيان السابع ملك الدانمارك في السنة ١٧٦٨ وولي عهد السويد غوسطاف ، باسم الكونت « دي غوتسلاند » ، في السنة ١٧٧١ ، وجوزف الثاني امبراطور النمسا ، باسم الكونت « دي فالكنستين » في السنة ١٧٧٧ ، والغراندوق « بول » الروسي ، باسم كونت « الشمال » ، في السنة ١٧٨٢ ، والامير هنري البروسي ، باسم كونت « اولز » ، في السنة ١٧٨٤ .

قاعات الاستقبال

يضاف الى ذلك ان عظماء اسياد كافة الأمم ، وفنانيها وكتابها ، قد استهووا قاعات الاستقبال الباريسية ، قاعات الدوقة « دي مين » ، والمركيزة « دي لمبير » ، والدوق « دي سولّي » ، والأمير والأميرة « دي ليون » في عهد الوصاية ؛ ثم قاعات المركيزة « دي دفنّان » والسيدة « دي تنسين » والسيدة « جوفرين » ؛ وفي النصف الثاني من القرن ، قاعات الاستقبال الفلسفية في دور البارون « دولباك » والآنسة « كينو » والآنسة «دي لسبيناس» ؛ والقاعة الموسيقية في دار « لابوبليني‌ير » ؛ وبعد وفاة الآنسة دي لسبيناس في السنة ١٧٧٦ والسيدة جوفرين في السنة ١٧٧٧ ،قاعة السيدة « نكَر » ؛ وقاعات اخرى كثيرة في دور عظماء الأسياد ، والأمراء الملكيين ، ورجال المال ، وأهل القلم . لم يتقن في أي مكان آخر ما اتقن في هذه القاعات من تطرق بعيد الى كافة المواضيع دون اطالة ، واطلاق الكلمات كالسهام ، وتقاذف الأفكار في مبارزة حادّة يدافع فيها كل من الأطراف عن موقفه بالنبرة والحركة والنظرة ، في « نوع من الكهرباء يطيّر الشرار » (السيدة « دي ستال ») . وبرعت السيدة جوفرين بصورة خاصة في حمل ضيوفها على الكلام: « مقاعدها اثافيّ ابولون ؛ انها توحي باشياء سامية » (الاب غالياني) . واجتذبت اليها اكبر عدد من مشاهير الاجانب :

« لا أزال أذكر انني رأيت أوروبا جمعاء
تؤلف حول مقعدها حلقات ثلاثا » (« دي ليل »)

وقد درج ملك بولونيا ، « ستانيسلاس – اوغست بونياتوفسكي » ، على مناداتها بكلمة « امي » . استقبلها في فرصوفيا ، كما استقبلتها في فيينّا بأبهة ماري – تريز وجوزف الثاني .

الاستقبال الفرنسي

احيط الأجانب في كل مكان في باريس بحسن الالتفات والملاطفة وأعطوا مركز الصدارة . « يلاقي الأجنبي هنا المراعاة نفسها التي تلاقيها سيدة في انكلترا » (بنيامين فرانكلن) . درجت أكاديميات الفنون الجميلة في العواصم

الأوروبية ، وهي شبيهة بها في فرنسا ، وعلى اتصال دائم بها ، على ايفاد الطلاب الداخليين الى باريس . وكان باستطاعة الفنانين الأجانب ، حتى البروتستانتيين منهم ، الدخول الى الاكاديمية والاستحصال على الحقوق الوطنية . لذلك فـان معظم الاجانب لا يغادرون باريس ، « التي لم يتركها احد مسروراً » ، الا بانكسار قلب مؤلم ، وهم يصابون بعلة الحنين اليها ، فيشعرون وكأنهم « منفيون في وطنهم نفسه » . « لا حياة الا في باريس ، اما في الاماكن الاخرى فالحياة حياة ضيق » ، كما قال كازانوفا ؛ وقال الامير هنري البروسي : « سلخت نصف حياتي تائقاً الى رؤية باريس ؛ وسأسلخ النصف الآخر متحسراً عليها » .

الهجرة الفرنسية

وغزا الفرنسيون اوروبا من جهتهم ايضاً . عددهم جعـل من هجرتهم امراً يكاد يكون الزامياً ، اذ ان عـــدد سكان فرنسا الذي تجاوز عدد سكان روسيا نفسها ، قد بلغ ١٦ مليوناً في السنة ١٧١٥ و ٢٦ مليوناً في السنة ١٧٨٩ ، وكان يتزايد تزايداً سريعاً ومطرداً بفضل ارتفاع نسبة الولادات . زد على ذلك ان انهيار نظام « لو » ، والأضرار التي نجمت عنه ، وتدني الطلب ، قد تسببت في هجرة فرنسيين كثيرين ؛ فتوثقت عرى الصداقات وعرفت الديمومة . وقـــد ساعد على اكرام وفادة الفرنسيين اثراء اوروبا العام عن طريق تجارة ما وراء البحـار والنشاط الاقتصادي الذي ابداه ملوك اصبحوا « مستبدين مستنيرين » . وكانت هنالك اخيراً العلائق العائلية . فقد جمعت بين اكثر العائلات الملكية والاميرية في اوروبا روابط الوراثة والمصاهرة والصداقة او الخدمات بسلالة البوربون في فرنسا : سلالة البوربون في اسبانيا وايطاليا ، فيليب الخامس ، حفيد لويس الرابع عشر ، وذريته : سلالة هبسبورغ في النمسا ، بزواج ماري ـ انطوانيت من ولي عهد فرنسا ، وقـد سبق قبل ذلك ان ازداد اثر فرنسا في فيينّا بزواج « ماري ـ تريز » من «فرنسوا دي لورين». وما كانت مشاريع زواج لويس الرابع عشر من ابنة بطرس الاكبر ، اليصابات ، لتبقى دون اثر على حسن الالتفات الذي ابدته هذه الاخيرة للفرنسيين بعد اعتلائها عرش القياصرة . وكان الامراء المنتخبون الكلنسيون في كولونيا وتريف ومايئس زبناً سياسيين أو نسباء لملوك فرنسا . فان منتخب كولونيا ، « جوزف كليمان » ، كان اخاً لزوجة ولي العهد الكبير ؛ وحين اقصي عن ولايته ابان حرب وراثة عرش اسبانيا ، التجـــأ الى فرساي . كما ان « ماكس ـ عمانويل » ، منتخب بافاريا ، ونسيب لويس الرابع عشر ، قد التجأ هو ايضاً ، فترة من الزمن ، الى فرنسا . وكان منتخب تريف « كليمان ونسسلاس دي ساكس » عمـــاً للويس الرابع عشر . وأسهمت علائق آل « روهان » ، الذين شغلوا مركز ستراسبورغ الاسقفي اباً عن جد ، بالامراء اساقفة مايئس وسبير ، اسهاماً كبيراً في انتشار الفن الفرنسي . فان دار ستراسبورغ الاسقفية ، وهي الرائعة التي حققها « روبير دي كوت » ، غالبا ما كانت نموذجاً للقصور الالمانية . وعن طريق الالزاس اتصلت رينانيا الالمانية بالفن الفرنسي . فيتضح من ثم ان الفرنسيين كانوا في كل مكان ، لا رسامين ونقاشين ومهندسين وضباطا ومهذبين وصحافيين وممثلين وفرّاشات وطهاة فحسب ،

بل بنّائين وردّامين وبستانيين وحذائين وصناعيين يدويين منتسبين الى كل المهن ايضاً في البلدين الجنوبيين المفتقرين الى اليد العاملة ، اسبانيا وايطاليا .

الروح الاقطاعية

وقد سهل المبادلات بين الدول المختلفة رواسب الروح الاقطاعية التي ما زالت قوية عند الاشراف الريفيين . فما كان مسلّما بـه آنذاك ان من حق الضابط اختيار سيده والبحث عن عمل عند ملك غير ملكه وامتشاق السلاح إذا اقتضى الأمر ، ضد بلاده ، شرط أن لا يكون ملكه ، الذي يعتبر الاقطاعي الاول ، أو الاقطاعي السيد ، في وجه هذا الضابط ، يقود جيشه شخصياً . لذلك كان الأجانب من الضباط والجنود كثراً ، في كل جيش . فالامير « دانهالت - داسّو » كان في خدمة ملك فرنسا قبل أن يساعد فردريك غليوم الأول على اعادة تنظيم الجيش البروسي . وكان الأمير « اوجين دي سافوا » قد عرض خدماته على لويس الرابع عشر ، وحين استخف به هذا الأخير ، دخل في خدمة الامبراطور ، ولكنه أسهم بعد ذلك في إدخال الفنون والروح الفرنسية الى النمسا . وان المارشال « دي ساكس » ، الذي كان ابن زنى لملك بولونيا اوغست الثاني ، قد دخل في خدمة لويس الرابع عشر .

الوطنية الشائعة

ولكن نزعة جديدة عرفت بالوطنية الشائعة كانت أكثر فعالية ايضاً . جاءت هذه النزعة نتيجة لنظريات الفلاسفة الفرنسيين . نظر هؤلاء الى الجنس البشري كما الى وحدة . ان للبشر كلهم حقوقاً واحدة وطاقة على السير في مدارج الرقي نفسها . ليس هنالك من شعب مختار ومن عنصر متفوق ، لا بل ان الاختلافات العنصرية والقومية ليست ذات شأن . « الطبيعة اعطت كل انسان العالم موطنا وكافة البشر مواطنين » . نظر القائلون بالوطنية الشائعة الى حب الوطن كما الى رأي مقبول قبل التحقيق . لذلك هزل فيهم الشعور القومي . فقد كتب فولتير : « كان من الواجب ان يكون ملك بروسيا سيدي والشعب الانكليزي مواطني » ، وقد هنأ فردريك الثاني بانتصاره على الفرنسيين في روسباخ . وتوصل الفلاسفة فترة من الزمن الى اقناع كافة مثقفي اوروبا بهذه النظرية . فجاهر فردريك الثاني باحتقاره اللغة والأدب الالمانيين ، ونعت رعاياه بالايروكوا . وأعلن الالماني شيلر : « اكتب كمواطن عالمي . فقدت وطني منذ زمن بعيد لاستبداله بالعالم الفسيح » . وأسدى هذه النصيحة الى أحد مواطنيه : « لا تسعوا وراء تكوين امة بل اكتفوا بأن تكونوا بشراً » . وايد غوته هذه الآراء . وصرح لسنغ بانه لا يفقه معنى لحب الوطن . ومن جهة اخرى ، إذا كان اختلاف الاخلاق والعادات والالسن ابعد منه اليوم الى حد بعيد ، فإن الانتقال من بلاد الى اخرى لم يخضع لما يخضع له اليوم في الدول العصرية القوية التي كيفت الأفراد وابرزت الفوارق بين الالمان والفرنسيين ، والاسبان والايطاليين . فنجم عن ذلك سهولة كبرى في الاغتراب وتبني اخلاق الأمة المسيطرة وآرائها وميولها ، ترسخ الوطنية الشائعة ، التي كانت مصدراً لها ، وتنمي الروح الاوروبية .

الاستبداد المستنير

ومما زاد في اظهار اوروبا وكأنها اقتربت من الاتحاد ، ما قام في كل مكان من نظم متماثلة ، اوحتها ، كما بدا ذلك ، مؤلفات الفلاسفة ، وتزايد عددها تزايداً مطرداً بحيث أصبحت في النصف الثاني من القرن ، بعد «دائرة المعارف» ، حركة عامة تعرف بالاستبداد المستنير . ان الملوك ، او « المستبدين المستنيرين » ، اعتقدوا انفسهم خدام دولهم الاولين وارادوا تجديدها تجديداً جذرياً باسم العقل . فرضوا على رعاياهم اصلاحات « معقولة » : بعض المساواة في الضرائب بغية زيادة مواردهم ، والتناسق المطرد في ادارة الولايات والمدن بغية ضمان طاعة الرعايا بسهولة ، وبعض التسوية السياسية والاجتماعية للحد من توسع الارستوقراطيات ، والتساهل الديني بغية استخدام كافة رعاياهم بحسب كفاءاتهم ، وادارة اقتصادية تميزت بالحب المفرط للربح ، تخفف من وطأتها الحريات التي تبدو ضرورية للانتاج . ورافق كل ذلك قاموس فلسفي . أطلق الملوك على أنفسهم صفات « الفضلاء » و « الكرماء » و « المواطنين » و « الوطنيين » و « الشفوقين » ، وتكلموا عن سعادة الجنس البشري ، واحبوا الطبيعة ، وذرفوا الدموع ، ونعتوا خصومهم بالمستبدين : هذا هو ، منذ ذاك التاريخ ، التصنع البياني الذي اشتهر به العهد الجمهوري ، ولكنهم لم يستهدفوا من وراء عملهم هذا سوى ارضاء الفلاسفة محركي الرأي العام الاوروبي الأقوياء . وقد نجح المستبدون المستنيرون في ما سعوا اليه ، اذ ان الفلاسفة قد انخدعوا بالظواهر أمام التملق والملاطفة . فقام فولتير بالدعاوة لفردريك الثاني وديدرو لكاترين . لم يروا أن الملوك لم يختاروا في برنامج « دائرة المعارف » سوى النقاط التي تعود عليهم بالفائدة ؛ او بالأحرى ان في ما أقدم عليه « المستبدون المستنيرون » ، وهو خلو من كل جديد جديد ، تدابير اتفقت وبعض نقاط برنامج دائرة المعارف ؛ لم يروا أن هدف الملوك انحصر في تحقيق عظمة دولهم بغية السيطرة والغزو والتقسيم ، وان كل هذه « الفلسفة » ليست سوى فتنة خادعة ، وان وحدة اوروبا سراب خلّب .

الفصل الثاني

تنوّع أوروبا

الدول المختلفة

ان العادات والنظم المتماثلة والمتشابهة قد حجبت في الواقع فوارق عميقة. فالطوائف البشرية المعدودة ، التي انتثرت هنا وهناك وكونت بفضل اتحادها « جمهورية عظيمة من العقول المستنيرة » (فولتير ، ١٧٦٧) ، قد برزت فوق جماهير مختلفة اختلافاً كلياً. ويرد ذلك إلى أن دول اوروبا الكثيرة كانت آنذاك في مراحل تطور تباعد بينها فروق كبيرة جداً . فمن الشرق الى الغرب ، كان المراقب يعود قروناً الى الوراء ويجتاز الزمن كما يجتاز المسافات .

احتفظت اوروبا بمميزات القرون الوسطى التي لن تزول إلا في القرن التاسع عشر . ولكن هذا الاحتفاظ تباينت درجاته . فأوروبا كانت زراعية قبل أي شيء آخر ، يسيطر عليها النظام السيدي وبعض الارستوقراطيات العقارية القوية التي كانت تحد من السلطة الملكية حداً متفاوتاً. في كل مكان تقريباً ، كانت الأرض مقسمة املاكاً كبرى هي الممتلكات الوراثية لارستوقراطية اسياد يؤلفون هرماً منظماً من الفداديين والاقطاعيين ينتهي في القمة بالملك ، الاقطاعي الأكبر . وكان هؤلاء الاسياد يحتفظون لأنفسهم بقسم من الاملاك يستثمرونه بواسطة الملتزمين أو كما حدث ذلك غالباً في الشرق ايضاً ، بتسخير فلاحيهم الآخرين ، وكانوا يسلمون ما تبقى من أراضيهم انصبة صغيرة الى مزارعين غالباً ما يكونون احراراً في الغرب ، وفدادين الى الشرق من نهر الإيلب . كان هؤلاء الاخيرون يزرعون انصبتهم لأنفسهم ، بينما كان باستطاعة الاحرار ، شرط شراء موافقة السيد بالمال ، توريث وحتى بيع حقهم في زرعها . وكانوا ملزمين أمام السيد بالعمل في قصره والأراضي التي احتفظ بها ، وهو عمل دعي « التسخير » ، غالباً ما استعيض عنه في الغرب بمبلغ من المال ، وبأتاوات مختلفة عينية ونقدية ، اسهاماً منهم في تأمين حاجات السيد واعترافاً بحقوقه السامية. هذه كانت الحقوق الاقطاعية . وكانت الغابات والمياه والبراحات ممتلكات مشاعية سمح السيد للفلاحين أن يأخذوا منها ، بشروط معينة ، الاخشاب والقشور والعسل البري والكلأ وفراش الدواجن ويسوّموا فيها مواشيهم . واحتفظ السيد لنفسه بالقضاء على الحيوانات المضرة ، أي بالقنص . ومارس حيال الفلاحين ، بأشكال مختلفة ، سلطات قضائية

وبوليسية مع مراعاة سلطات الملك مراعاة تختلف باختلاف الدول. واذا ما توسعت بعض القرى والمدن في املاك السيد ، ألزم سكانها ايضاً بواجبات إقطاعية وخضعوا لسلطته القضائية. ولكن الاتحاد والاثراء وحق تشييد الاسوار أتاح للمدن أن تتحرر كليا أو جزئيا .

إن هذه الارستوقراطيات ، التي جمعتها من جهة ثانية الروابط العائلية والروابط الوثيقة بين الحامي والمحمي وبين صاحب الاخاذة والسيد ، كانت مستأثرة من ثم بسلطة كبرى ، أقله محلية . فالواقع هو أن الملك ، وان اعترف له بسلطة مطلقة ، لم يمارس السلطة الفعلية التي تمارسها حكوماتنا الحالية ، حتى في فرنسا مثال الملكيات . فهو لم يصطدم بحقوق الارستوقراطية العقارية فحسب ، بل كان عليه أن يأخذ بعين الاعتبار حريات وامتيازات وحقوقاً فازت بها بقوة الاتحاد وضمنتها بامضاء الملك هيئات منظمة عديدة ، أعني بها الجمعيات المعدة لحماية الأفراد: البلديات ، التعاونيات المهنية ، الجامعات ، الكنيسة ، واحياناً ، كما في فرنسا واسبانيا مثلاً ، هيئات الموظفين الذين يمتلكون وظائفهم . أجل غالباً ما نافست هذه الهيئات الارستوقراطيات العقارية ، ولكنها اتحدت معها احيانا للدفاع عن « الحريات » المشتركة ضد قوة الملوك المتعاظمة.

وتوجب على هؤلاء كذلك احترام حريات وامتيازات ولايات دولهم المختلفة . الوحدة مفقودة في كل مكان، بدرجات مختلفة . لم يتحرر الناس في أي مكان من مفاهيم القرون الوسطى التي كان الملك بموجبها مالك المملكة وسيداً أعلى يمتلك أراضي ملكية . وسع الملوك ممتلكاتهم بالزواج والارث ، وباختيار السكان احياناً ، وبالقوة ايضاً. ولكنهم غالباً ما تركوا للولايات المحتلة اخلاقها وعاداتها ونظمها الخاصة . واذا الفت بعض الدول ، ولا سيما فرنسا ، أمماً حقيقية، فان الامة لم تكن كاملة في أي مكان : لقد أدى واجب الخضوع الى رئيس واحد ، كما هو طبيعي ، الى قيام بعض النظم المشتركة ، ولكن التنوع ما زال كبيراً في كل دولة ، كما أن عمل الملك اعاقته هذه الفوارق وحد منه الاستقلال الذاتي الممنوح بتفاوت لكل ولاية من الولايات .

وتباين مدى السلطة الملكية والنظم المشتركة تباينا كبيراً بحسب الدول . وانما يبدو ، على العموم ، انه كان كبيراً في البلدان التي تمكن الملوك فيها من أن يوقفوا في وجه الاسياد طبقة جديدة هي طبقة البورجوازيين ، من تجار وصناعيين . ان هذه الطبقة ، التي لم تزل من الوجود قط ، والتي تزايدت تزايداً كبيراً منذ زمن بعيد ، قد نمت نمواً سريعا وهاما جداً منذ الاكتشافات الكبرى في اواخر القرن الخامس عشر وتوسع التجارة الاوقيانوسية الكبرى . كان هؤلاء البورجوازيون ، الذين اكتسبوا ثروة وعلما ، قوة اجتماعية كبرى ، وقد لعبوا ، بفضل الاموال الطائلة التي استطاعوا وضعها بتصرف الدولة والمصنوعات التي تمكنوا من توفيرها للملك، دوراً لا يتناسب وعددهم ، لا بل لا يتناسب ، في الارجح، واهمية ثروتهم الحقيقية اذا ما قيست بثروة البلاد كلها . حماهم الملوك ، لا بل حماهم بعضهم بتدخل الدولة المنظم في الحياة الاقتصادية الذي أطلق عليه اسم الروح التجارية . فان هنري السابع وهنري الثامن و « اليزابت تودور » في

انكلترا القرن السادس عشر ، وهنري الرابع ولويس الثالث عشر ولويس الرابع عشر في فرنسا القرن السابع عشر، كانوا مستبدين مستنيرين حقيقيين قبل أن يحدد المعنى اللفظي لهذه الكلمات. ولكن البورجوازيين ما ان اصبحوا اقوياءحتى حاولوا بدورهم الحد من السلطة الملكية بالاتفاق مع ارستوقراطية مستضعفة باتت أقل خطراً عليهم .

يبدو التفاوت في نمو البورجوازية بحسب الدول اهم واقع في تاريخ هذه الدول خلال القرن الثامن عشر . ففي الشمال الغربي من اوروبا الذي يحتل موقعاً مركزياً بالنسبة لتيارات التجارة العالمية الكبرى ، رأت انكلترا ، البورجوازية المنتصرة في ثورة السنة ١٦٨٨ ، توسع سلطتها وتأثيرها ، ورأت دول تجارية كهولندا ، ومدن المانيا الشمالية ، قيام جمهوريات بورجوازية قديمة جداً .وفي فرنسا ، التي كانت أقل تطوراً ، هزت القرن كله الصراعات بين الارستوقراطية والبورجوازية والملك . وفي اوروبا الوسطى والجنوبية التي لم تتأثر تأثراً يذكر بالتجارة الاوقيانوسية الكبرى ، حاول « المستبدون المستنيرون » انماء بورجوازية رأسمالية لمضاعفة قوة دولهم . أما في اوروبا الشرقية التي ما زالت في قرونها الوسطى ، فاما كانت السيطرة للارستوقراطية كما حدث في بولونيا ،واما استهدفت جهود الملك ، الملاك الاول في الدولة، ضمان قيادته الفعلية لأرستوقراطية تخلى لها عن كافة الفوائد الاجتماعية ، كما حدث في روسيا .

اوروبا الغربية

الملكة المتحدة

. سيطرت التجارة البحريةعلى حياة انكلترا كلها،منذ ان وضعت الاكتشافات الاوقيانوسية الكبرى انكلترا في طريق التيارات التجارية الرئيسية ، ومنذ ان استطاعت الافادة من الرياح الجنوبية الشرقية التي وجهت إليها السفن الشراعية الكبرى ، تعاظمت تجارتها تعاظماً عجيباً حتى غدت منذ مطلع القرن الثامن عشر التجارة الاولى في العالم . كانت تجارة ايداع وتخزين : ينزل الانكليز في موانئهم منتوجات ما وراء البحار لاعادة توزيعها في اوروبا ، ومنتوجات البحر المتوسط لمقايضتها بمنتوجات البلطيك وبالعكس . وكانت تجارة نقل ايضاً : حل الانكليز باطراد محل الهولنديين وأمنوا نقل البضائع لحساب تجار الدول الاخرى . وكانت تجارة تصدير اخيراً تتناول ، بالاضافة الى المصنوعات ، الحنطة ، ولكن اقل فأقل ، والفحم المعدني ، « الهند السوداء » ، اللذين صدرا الى اوروبا الشمالية الغربية . وقد قدر بعضهم ان الانكليز استأثروا في أواخر القرن بتسعة اعشار المحمول الاوروبي .

اعتمدت الدولة التعاليم الاقتصادية التوجيهية : وجهت الاقتصاد خدمة لصوالح الجميع . على البلاد ان تكفي نفسها بنفسها ، وتبتاع القليل وتشتري الكثير ما استطاعت الى ذلك سبيلاً ؛ ان الميزان التجاري ، الذي ترجح فيه كفة الصادرات على كفة الواردات ، ووفرة المعادن الثمينة، هما دليلا الازدهار. الدولة تعمل بقوانينها وانظمتها وسياستها. فوثيقة الملاحة (١٦٥١) تحتفظ للسفن الانكليزية بتجارة ما وراء الاوقيانوسات ، وتحظر على السفن الاوروبية ان تنقل

الى انكلترا بضائع غير بضائع البلدان التي تنتسب هي إليها ، وتحمي رسوم جمركية مرتفعة الصناعة الانكليزية التي نظمت . الدولة تعلن الحرب وتعقد الصلح وفاقاً لحاجات التجارة : الانتصارات على فرنسا انما هي انتصارات تجارية بواسطة المدفع . زد على ذلك ان معاهدتي أوترخت في السنة ١٧١٣ ومعاهدة باريس في السنة ١٧٦٣ قد كرست هيمنة انكلترا البحرية والتجارية .

بدّلت هذه التجارة كل شيء . ارتفع عدد السكان ، الذي اصبح في اسكتلندا وبريطانيا العظمى بين ٥ و ٦ ملايين نسمة في السنة ١٧٠٠ ، و ٩ ملايين نسمة حوالي السنة ١٧٨٩ . ونمت بورجوازية غنية من رجال المال والتجار ومجهزي المراكب . لم تتكون فيهم روح الطبقية بعد : فحلمهم هو ان يكتسبوا الاملاك الكبرى وينظر إليهم كما الى اعضاء الارستوقراطية العقارية . ولكن صوالحهم دفعتهم اخيرا الى القيام بعمل مشترك في الساعات الحاسمة . وبعد السنة ١٧٦٣ ، احدثت التجارة ثورة صناعية ضمت « قباطنة الصناعة » الى بورجوازية التجار وافضت الى نشأة طبقة من الكادحين .

أدت الانطلاقة التجارية والثورة الصناعية الى تطوير الاملاك الانكليزية الكبرى . افتقرت الصناعة الى المزيد من الصوف ، والمدن النامية الى مزيد من الحنطة واللحوم . زاد طلب المنتوجات الزراعية وارتفعت قيمتها ، فرغب البورجوازيون ، اصحاب الاملاك السيدية ، بحسب عادتهم ، في الافادة منها اكبر افادة . لم ينظر النبلاء من جهتهم الى النشاطات المفيدة نظرة الارستوقراطية الفرنسية . فهو احد كبار اعضاء طبقة النبلاء العقاريين ، اللورد «تونشند» ، من استهوى الزراعة ، فكان ان معظم الاشراف الريفيين اخذوا ، حوالي السنة ١٧٦٠ ، يستثمرون اراضيهم بأنفسهم . ولكن نظام الزراعة ، نظام «الحقول المكشوفة والمستطيلة» (*Openfield*) ، لم يكن موافقاً للزراعة المنتجة والعلمية . فالحقول لم تكن مقفلة . وكان كل مزارع وراثي (*Freeholoder*) يعتبر كمالك للارض ويتصرف بعدة عقارات موزعة هنا وهناك محافظاً على حقوق السيد السامية . ويقتضي الزرع في الوقت نفسه ، وبالطريقة نفسها ، وهذا يتنافى والتقدم . أراد الاسياد صيانة اراضيهم كي يستطيعوا تغيير موعد الزرع ، وأرادوا استبدال طريقة الزرع كي يستطيعوا تأصيل المواشي . حولوا اراضيهم الى آراض مقفلة . استحصلوا من البرلمان على اجازة بتصوين الاراضي وجمعها كي يجعلوا منها انصبة يستلم كلاً منها مزارع واحد ، وصونوا الاراضي المشاعية نفسها . ولكن ذلك أدى بالمزارع الحر الى الافتقار احياناً ، إذ أنه يستلم اراضي اقل جودة ويضطر الى تحمل نفقات التصوين ، ويحرم حق رعاية مواشيه في الحقول بعد الحصاد وحق الاستفادة من الاراضي المشاعية ، ويعجز عن مزاحمة كبار الملاكين بمنتوجاته بسبب افتقاره الى المال والمعرفة لاعتماد الطرائق الجديدة . فيضطر الى بيع ارضه من السيد والانحدار الى منزلة العامل الزراعي ، أو الذهاب في أغلب الاحيان الى المدينة حيث يصبح

عاملاً ، أو صناعياً احياناً اذا حالفه الحظ . فما كانت الصناعة لتنمو لولا اليد العاملة التي وفرتها الحقول المقفلة . وهكذا غدا الغني اكثر غنى والفقير اكثر فقراً . والارستوقراطية اخذت تنسج على منوال البورجوازية . انشغلت بالانتاج والبيع واستثمرت المناجم كما استثمرت الارض. فقد انصرف الدوق « دي بردجووتر » بعد السنة ١٧٦٠ الى تشييد الاقنية لنقل الفحم المعدني ، ولكن اخوة الابكار في العائلة الكبرى قد انصرفوا من جهة ثانية ، بسبب البكورية الصارمة ، اكثر فأكثر الى التجارة والمال. وهكذا خفت تدريجياً حدة التضاد بين الاشراف والبورجوازية.

هاجت التجارة المجتمع هياجاً شديداً . فان الاثراء السريع الذي حققه اناس ، حتى من كبار الاسياد ، ما زالوا ريفيين افظاظاً ، والذي جاء في اعقاب حرب وراثة عرش اسبانيا الطويلة القاسية ، قد اسهم في فساد الاخلاق : ادمان الفقراء والاغنياء على المسكر ؛ فجور ؛ ميل الى المشاهد الشرسة وحتى الاليمة (ملاكمة ، معارك الديكة) ؛ اعتماد الكذب والنميمة والرشوة ، والعنف والشغب عند الحاجة في الحياة السياسية ؛ لا بل فقدان الشعور القومي في وقت من الاوقات « اني مستعد للدفع ، اذا وصل الفرنسيون ، اما اذا توجب علي القتال ، فخير لي ان يريحني الشيطان من الحياة ! » .وبصورة غير مباشرة ، سببت التجارة ، كردة فعل امام بؤس الطبقة الكادحة ، وفتور الكنيسة الانغليكانية ، التي كانت مناصبها محط انظار ابناء النبلاء من غير الابكار ، حركات فكرية واخلاقية كثيرة : الميثودية ، الانجيلية ، الميل الى محبة البشر . وانما القى (وسلي)غظة لاول مرة في الهواء الطلق امام المعدنين الغاليين . فكان ان هذه الحركات الكريمة كلها قد جددت انكلترا تدريجياً منذ السنة ١٧٤٠ ، وبعثت القوى الادبية ، كالاهتمام بالقومية والعدالة والانسانية ، ولكنها ادت للبورجوازية خدمة بينة هي حمل الكادحين على الصبر والانتظار . وكان للتجارة اثرها حتى في العلوم والفنون . فهم البورجوازيون المثقفون والمتفرغون بعض التفرغ من قادوا الحركة العلمية . ويفسر الاثراء من جهته اقبال المجتمع الانكليزي على شراء منتجات الرسامين والنقاشين الفرنسيين ، كما يفسر اخيراً ، بعد انقضاء فترة تدريبية ، قيام مدرسة اصيلة للرسم الانكليزي .

وهيمنت التجارة كذلك ، بواسطة المجتمع الذي خلقته ، على الحياة الادارية والسياسية . كانت الادارة المحلية في ايدي الاغنياء . الملك يعين الموظفين المحليين من بين كبار الملاكين . فكان في كل كونتية قائمقام يقود مجندي الملاكين ، ومأمور احكام مدينة ينفذ احكام القضاء ، وقضاة صلح يختارون من لائحة ملاكين ينظمها القائمقام ، وتسند اليهم امور القضاء والأمن والاسعاف العام والرسوم المحلية . ولكن « الامن » في ذاك العهد كان يشتمل على كل ما نطلق عليه اليوم اسم الادارة . لذلك كانت الحياة المحلية كلها خاضعة للأثرياء ، وما انفك البورجوازيون ، من بين هؤلاء ، يزدادون عدداً كلما اكتسبوا املاكاً جديدة ، ومنذ السنة ١٧٦٠ ، انضم اليهم الـ « نباب » ، اي موظفو شركة الهند الذين جمعوا ثروات طائلة .

الفت انكلترا ، سياسياً ، ملكية دستورية ، مع ملك ومجلسين . ولكن هذين المجلسين

لا يمثلان سوى الاغنياء . يتألف مجلس اللوردات من اسياد عظماء ، لوردات بالوراثة ، ومن اساقفة ورؤساء اساقفة ينحدر جلهم من الارستوقراطية ، ومن لوردات يحق للملك ان يعينهم على هواه من بين الانكليز الذين ادوا خدمات جلى للبلاد ويختارهم من بين الاغنياء . ويتألف مجلس العموم من مندوبين تنتخبهم المدن او القرى الكبرى ، والارياف او الكونتيات ، حسب دخلها او اعفاءاتها : يجب ان يكون المقترع من اهل اليسار . بيد ان الاغنياء وحدهم هم من ينتخبون عملياً . وكيف يجوز ، في ظل الانتخاب العلني ، ان لا يصوت الناخب لمرشح السيد الكبير ، مالك كافة بيوت القرية الصغرى والقادر من ثم على الانتقام ؟ كيف يجوز عدم ارضاء السيد الكبير ، مالك معظم اراضي القرية ، الذي يجمع بين النفوذ السياسي وممارسة الوظائف المحلية التي تتيح له تضييق سبل الحياة على المنتخبين العصاة ؟ اضف الى ذلك من جهة اخرى ان اثار الحياة الاقطاعية لم تندرس كلها . فهناك عائلات كثيرة من المزارعين الاحرار ما زالت مخلصة في تفانيها في سبيل سيدها وحاميها . ثم ان الرشوة ممكنة اخيراً . فعدد المنتخبين ليس مرتفعاً ، وقد تدنى في بعض الامكنة بفعل ضائقة المزارعين الاحرار ، كما هبط عدد سكان بعض القرى الى دونه في القرون الوسطى . ليس هنالك بعد سوى ٧ ناخبين او ٥ او ٢ . ولكن هؤلاء ما زالوا ينتخبون العدد نفسه من المندوبين . وجلي انه من السهل جداً شراء هذه « القرى الفاسدة » . وجلي كذلك ان باستطاعة البورجوازيين الاغنياء ان يصبحوا مندوبين . فيتضح من ثم ان انكلترا الارستقراطية هي اوليغارشية .

لا ينتخب مندوبو مجلس العموم لحل المسائل السياسية ، بل لتأمين صوالح الفئات المحلية ، والصوالح المادية ونفوذ العائلات . وغالباً ما يقوم الابكار بنشاط سياسي بغية الحصول لاخوتهم على الاسقفيات ، او قيادات السفن ، او مراتب في الجيش ، او مراكز حكام في المستعمرات . وغالباً ما يقومون بهذا النشاط كذلك سعياً منهم وراء المجد والشهرة . الأحزاب اختلاط غريب ينم فئات غير واضحة الاهداف . في السنة ١٧١٤ ، رغب السر طوري ، في ان يتمكن الملك من ان يحكم فعلياً ، وان يختار ويعزل الوزراء كما يطيب له . ورغبوا خصوصاً في أن يتربع على العرش احد أنسال سلالة ستوارت : فهم أشبه بالـ «جاكوبيين» . اما الاويغ ، وهم ينتسبون الى ذكريات عائلات عهد الثورة ، فقد رغبوا في رجحان نفوذ مجلس العموم ، السيد في اقالة الوزراء واختيارهم على السواء . ثم ما لبثت هذه الفوارق ان زالت بين الويغ والطوري ولم يساعد بينهم سوى المسألة الجاكوبية وحدها تقريباً . وجدير بالذكر ان هذين الحزبين ما كانا ليشكلا أكثر من ثلث المجلس . فإن ثلث المندوبين تقريباً لم ينتسبوا الى اي حزب . والمنتخب الثلث الأشهر ابداً الى جانب الحكومة . كانت الاحزاب في الواقع تجمعات مؤقتة من المندوبين الطامعين في المراكز حول رئيس يعتبرونه قادراً على ايصالهم الى ما يتوقون اليه . وكانت كفة الميزان الدستوري تميل الى جهة مجلس العموم او الى جهة الملك وفاقاً للظروف والاشخاص .

كانت الغلبة للويغ حتى السنة ١٧٦٠. فقد اقصي آل ستيوارت عن العرش لأن الويغ اخذوا عليهم السعي وراء السلطة المطلقة ، وقد ساند الطوري هؤلاء ، وان بتردد ورجوع متكرر الى الوراء ، حقداً منهم على الكاثوليكية . اختار الانكليز ملكاً عليهم منتخب هانوفر ، ابن حفيد جاك الاول ، جورج الاول (١٧١٤ – ١٧٢٧) . استند هذا الاخير ، وابنه جورج الثاني (١٧٢٧ – ١٧٦٠) ، الى الويغ لان الطوري كانوا متهمين بتعلقهم بآل ستيوارت . زد على ذلك من جهة ثانية ان هذين الملكين بقيا المانيين ، ملمشغلين بمنتخبيتهما في الدرجة الاولى، وجاهلين الانكليزية ، ومتغيبين عن انكلترا في اكثر الاحيان ، فاقدين كل سلطة بسبب ادمانها على المسكر وبسبب دسائس عشيقاتها . اضطرا الى اختيار وزرائها من بين الأكثرية ، اي الويغ ، وافساح المجال واسعاً أمامهم لممارسة الحكم : فما كانا ليحضرا حتى مجلس الوزراء . ولكنهما حافظا على بعض النفوذ . كان على رئيس مجلس الوزراء ، إذا اراد الابقاءعلى اكثريته، لا ان يدفع اموالاً للممثلين اثناء الاقتراعات الحاسمة فحسب ، بل ان يستحصل على مراكز لهم ولعائلاتهم ولأصدقائهم ولعملائهم الانتخابيين. فالملك كان يعين ويعزل ضباطاً كثيرين في وظائف المالية والجيش والاسطول . لذلك بات لزاماً على رئيس مجلس الوزراء ان يوثق علائقه بالملك واكثرية البرلمان على السواء . وقد لجأ رئيس مجلس الوزراء الى رشو الملك عند الاقتضاء بحمل الاكثرية على اقرار زيادة المخصصات الملكية واقرار الرواتب والمهور لعائلته وللمقربين اليه. كان كل شيء مرتكزاً الى المصلحة الشخصية . وقد عرف « والبول » (١٧٢١ – ١٧٤٢)خير معرفة كيف يعتمد هذه الطريقة ويمارس الحكم بارضاء عدد من كبار اعضاء البرلمان وزبنهم الكثيرين . وهي هذه الرشوة ما حاربها « وليام بيت » . كان راغباً في وزارة قومية تتألف من رجال يمثلون كافة النزعات ولا يهتمون الاّ بالمصلحة العامة . احدثت الحرب ضد فرنسا تياراً فكرياً عاماً اعطاه ، منذ السنة ١٧٥٦ حتى السنة ١٧٦١ ، دور رئيس مجلس الوزراء وشبه دور الدكتاتور المفروض على احزاب الأمة . ولكن ما أن تحقق النصر حتى أقاله جورج الثالث . كان هذا الاخير ، وهو حفيد جورج الثاني ، انكليزياً عاش حياة لا لومة عليها ونظر الى مسؤولياته بجد واقدام واراد ضمان الحقوق الملكية.فتوصل ، باعتماده الرشوة بدوره، الى فرض وزارة اختارها هو وجعل على رأسها اللورد « نورث » منذ السنة ١٧٧٠ حتى السنة ١٧٨٢ ، وحاول ان يحكم حكماً ملكياً مطلقاً . اضطر لقبول استقالة اللورد « نورث » في السنة ١٧٨٢ ، ولكنه توصل بالرشوة الى تأمين اكثرية من الطوري وفرض في السنة ١٧٨٤ وزيره « بيت » الثاني ، ابن وليام بيت .

يتضح من ثم ان التجارة سيطرت على الحياة السياسية كلها . فالمسائل الكبرى التي نوقشت في مجلس العموم ومجلس اللوردات مسائل قروض وضرائب ورسوم جمركية . امن « والبول » الازدهار التجاري . وإذا ما بدت سياسته السلمية وكانها تعرضه للخطر ، ارغمه مجلس العموم على محاربة اسبانيا وفرنسا ثم على الاستقالة . وهم رجال المال ، والتجار ، وسكان مرفأ لندن ،

مركز الحكومة ، العائشين من حركة المرفأ والمتاهبين ابداً للشغب ، من فرضوا « بيت » الاول لاعـــلان الحرب على فرنسا منافسة الانكليز في المستعمرات . اعطى « بيت » الاول صيغـــة السياسة الخارجية الانكليزية : « السياسة البريطانية هي التجارة الانكليزية » . فاخفاق السياسة الجمركية في اميركا وفقدان المستعمرات وبعض اسواقها هما ما تسببا في رحيل اللورد «نورث». وهي خبرة « بيت » الثاني في حقلي المال والاقتصاد ما فرضه على مجلس غير واضح الاتجاهات. واذا بقي مجلس العموم قوة ادبية تقف في وجه غيرهـــا دون ان تسيطر على السلطة التنفيذية، واذا بقي الوزراء خداماً للملك، فمرد ذلك الى ان النظام السائد قد عمل لمصلحة الاوليغارشيين.

الاقاليم المتحدة

تؤلف الاقاليم المتحدة جمهورية اتحادية تضم سبعة اقاليم لعبت البورجوزاية فيها دوراً كبيراً بسبب تجـــارة التخزين والنقل البحرية . وهي في دور المحطاط كلي لان مزاحمة الانكليز والفرنسيين تقضي على تجارتها التي لا تحافظ على نشاطها الا في الهند الشرقية . ويبرز انحطاط التجارة انقساماتها الداخلية . ينحصر النشاط كله في امستردام. اما المدن البحرية الاخرى واقـــاليم الداخل الزراعية ، المتحاسدة ، فتحارب سياستها التجارية وتطالب باقصاء اوليغارشيتها البورجوازية والعودة الى القيادة العسكرية لصالح اسرة اورانج ، حليفة ملوك انكلترا . وفي الخارج اصبحت الاقاليم المتحدة اعجز من ان تعد للمعـارك اساطيل كبرى وجيوشـــاً قوية . زد على ذلك ان هزال القوة وورود شطر كبير من الدخول الهولندية من الاموال الموظفة في انكلترا والخوف ايضاً من اقدام الفرنسيين على احتلال المناطق المنخفضة قد ابقتها في تحالف انكليزي اشبه بالاقطاعية . في السنة ١٧٨٧ ، اسقط الانكليز ، بالاتفاق مع البروسيين ، الحزب الجمهوري البورجوازي ، صديق فرنسا ، واعادوا نظام القيادة العسكرية .

فرنسا

حافظت فرنسا على طابعها الزراعي اكثر من انكلترا . فالارض فيهـــا توفر ، اكثر منها في انكلترا ، معظم الموارد ، والاملاك العقارية ، ولا سيما امـــلاك النبـلاء ، تفرض مركز المرء في المجتمع . تضم الارستوقراطية العقارية الامراء الملكيين وكبـار الاشراف من دوقة ومراكيز يعيشون في البلاط وباريس اجـمالاً ، واحياناً في امـلاكهم حيث ينفردون ، ورؤساء الاساقفـة ، والاســاقفة ، ورؤساء الاديرة المرموقين ، ومتوسطي وصغار النبـلاء في الاقاليم ، والضباط الملكيين . الامراء والعظماء مستاؤون ابداً . يأخذون على الملك المطلق انه لا يترك لهم اي دور سياسي ، وعلى الملك الذي يجمع السلطات بنظـــام المركزية انه يحرمهم بواسطة وكلائه من كل ادارة اقليمية ومحلية ولا يترك لهم سوى صلاحيات عقارية . يقضون اوقاتهم في المطالبة بالحرية ، اي بتولي الارستوقراطية حكم فرنسا . ويشاطرهم صغـــار النبلاء آراءهم في ادارة الاقاليم ، وينضمون اليهم للاعتراض على كافـة محاولات الملك لاخضاع طبقة الاشراف هذه لأعباء اميرية ؛ ولكنهم يقاومون استئثار كبار النبلاء ، انسباء الملـــك ، بالوظائف الشرفية والسلطات .

سواد النبـلاء في نزاع دائم مـع الطبقات الاخـــرى. فهم يدافعون عن انفسهم ضـد البورجوازيين . كلما ازداد شأن هؤلاء ، نادى النبـلاء بامتيـاز نسبهم . الاسقفيات وقف على ابناء العائلات النبيلة من غير الابكار : ومن المحـــال البحث عن بوسويه آخر . بذلت بعض الجـــهود منذ السنة ١٧٥٧ للاحتفاظ للنبـلاء بمراكز الضباط ، وفي السنة ١٧٨١ ، حددت درجات النبل المفروضة لشغل هذه المراكز بأربع درجات . ويقاوم النبـلاء الفلاحين ايضـاً . صغار النبـلاء ، من جهة ثانية ، فقراء لا يلبثون ان يفقدوا اموالهم في الجيش حيث يحاربون ببسالة . يحتفظ هؤلاء النبـلاء حتى النهاية باحترام دورهم العسكري . فان الاسعار التي ترتفـع باطراد ، لا سيما منذ السنة ١٧٦٠ ، في حال ان الواجبات الاقطاعية قد حددت منذ زمن بعيد بمبالـغ نقديـة ثابتة ، ترغمهم على البحث عن مداخيل اخرى ، فيخالفون الاعراف بتعاطيهم التجارة والصناعة وحتى زراعة ارض تستلزم اكثر من اربعة محاريث . لذلك نراهم يحـاولون ، لا سيما في الثلث الاخير من القرن ، استثمار حقوقهم الاقطاعية جهـــد المستطاع . ويبحث لهم بعض خبراء النظام الاقطاعي ، في سجلات قيد حقوق هـــذا النظام ، عن الحقوق المنسية . فتثقل من ثم وطأة النظام الاقطاعي . ويقوم بعمل مماثل متوسطو النبـلاء وكبارهم ، ولكنهم يحاولون بالاضافة الى ذلك حرمان الفـلاحين من الحقوق المكتسبة والاستئثار بالغابات التي غدت نادرة الوجود كبيرة القيمة ، وبالبراحات ، ليجعلوا منها اراضي زراعية ومراعي . وقـد دفعهم الى ذلك ، بعد السنة ١٧٦٠ ، نفـوذ القائلين بان الزراعـة هي المصدر الوحيد للثروة . وعقد بعضهم مع الجماعات القروية اتفاقات ملازمة او استقرار تسمح لها بتسييج ثلثي الامـلاك العامة ، او اتفاقات اختيار تؤمن لها ثلث هذه الاملاك . بيد ان حركة التسييج كانت محدودة. فبقيت فرنسا بلاد استثمار لصغار الفلاحين . وهكذا تعرض النبـلاء ، في اواخر القرن ، لحقد الفلاحين المتعاظم .

ولكن النبلاء ، في نضالهم ضد الملك الذي كانوا يريدون استعادة السلطة منه ، اهتدوا في مؤلفات الفلاسفة : نظرية العقد ، ونظرية الحقوق الطبيعية ، ونظرية القائلين بان الزراعة هي مصدر الثروة ، الى البراهين التي كانوا يفتقرون اليها ؛فوعى النبلاء حينئذ واقتنعوا بانهم على حق .

وقد ساند نبلاء الجندية ، في هـــذا النضال ، نبلاء القانون والشرع ، مالكو الخدمات او الوظائف العامة الرئيسية التي ما زال الملك يبيعها ، ولا سيما ضباط المحاكم العليا او المجالس التي غالباً ما كانت وظائف اعضائها وراثية او بيعت من عـــدد محدود من العائلات نفسها . الف اعضاء هذه المجالس عالمـــاً مقفلاً ، او طبقة خاصة . احتقروا نبلاء الجندية الذين احتقروهم بدورهم أيضاً . ولكنهم لم يكونوا دون نبـــلاء القانون والشرع تمسكاً بامتيازاتهم ، ولا سيما الاميرية منها ، فكانوا على غرارهم اسياداً عقاريين ، وارتبطوا بهم بالمصاهرات واحترف بعضهم الجندية ، فقامت بينهم مصالح مشتركة كثيرة . ادعوا لنفسهم الحق بـــدور موجه في الدولة وبرقابة القرارات الملكية ، فعارضوا بعناد كل محاولة لاصلاح الملكية .

من هاتين الطبقتين انطلقت ضد شخص الملك اعنف الانتقادات ، وأقذر الافتراءات، بوحي من الدوق « دورليان » والامير « دي كونتي » والدوق « دانغين » .

وفي وجه هذه الطبقات نمت البورجوازية التجارية . افادت من جهود كبـــار « المستبدين المستنيرين » في القرن السابع عشر : هنري الرابع ، لويس الثالث عشر ، لويس الرابع عشر . في أوائل العهد دفعت محاولة « لو » الأعمال التجارية الى الامام . انتقل مجموع التجارة الخارجية من ٢١٥ مليون ليرة في السنة ١٧١٦ (١٧٢ مع أوروبا ، و ٤٣ مع الدول الأخرى) ، الى ٤٣٠ مليون ليرة في السنة ١٧٤٠ (٣٠٦ و ١٢٤) والى ٦١٦ مليونـاً في السنة ١٧٥٦ (٤١٢ و ٢٠٤) . ثم دبّ النشاط مرّة أخرى بعد انكسارات حرب السنوات السبـع . ففي السنة ١٧٧٧ بلغت الصادرات ٢٥٩ مليون ليرة والواردات ٢٠٧ ملايين ؛ وفي السنة ١٧٨٩ ، بلغت الصادرات ٣٥٤ مليون ليرة والواردات ٣٠١ . وكانت اعظم التجارات كسبا التجارة البحرية التي استخدمت اكثر من ٣٥٠٠ سفينة ، بينما لم يبق منها سفينة واحدة تقريبا في السنة ١٧١٣ . بلغت مرافىء « سان مالو» و « لوريان » و « روان » و « له هافر » و « نانت » و «لاروشيل» و « بوردو » و « مرسيليا » اوج ازدهارها . وكانت خير عناصر هـــذه التجارة المحاصيل الاستعمارية ، ولا سيما سكر « سان ـ دومنغ » وعرق سكرها ، والنخاسة . وقد أتاحت رؤوس الأموال المكدسة تجمع الصناعات التجاري حول المرافىء ، الصناعات القطنية حول روان ، والصناعات الكتانية حول المرافىء البريطانية ، والصناعات الصوفية حول مرسيليا «وسيت» . وأنشأ مجهزو المراكب والتجار ، في بوردو ونانت، معامل التقطير والتصفية ، كما انشأوا في كافة انحاء المملكة مصانع الفولاذ والورق واستثمروا مناجم الفحم الحجري : فكانوا في اواخـــر القرن منطلق المحاولات الاولى لاختراع الآلات واستخدامها وتجميع الصناعات . ولكن بعض النبلاء ساروا على خطاهم ووظفوا رؤوس الأموال في أعمالهم التجارية وتقاضوا الفوائد من مناجم الحديد والفحم الحجري ومصانع الفولاذ . فملك المركيز « دي سولاج » مثلا اسهماً كثيرة من مناجم « كارمو » . اخذ المجتمع يتخلق بأخلاق البورجوازية . وتسربت الروح البورجوازية الى الادب والفن وشطر من النبلاء . منذ السنة ١٧٥٠ ، غدا اللباس اسود اللون ، فأخذ الناس لا يميزون بين النبيل والبورجوازي . وفي عهـد لويس السادس عشر استملح النبلاء الاقلاع عن حمل السيف واستبداله بعصا بورجوازية وتخلى بعض النبـــلاء عن الجمّة المستعارة واكتفوا بشعورهم . وتظاهر بعضهم بعادات بسيطة ، و « باخلاق رقيقة » : فحرص الامير على أن يقدم الاميرة ، زوجته ، الى فرقته بقوله : « يا بَنيّ ، هذه هي امرأتي » .

اراد البورجوازيون الحرية لاعمالهم التجارية ، والغاء امتيازات النسب ، والاشتراك في سن القوانين ، ورقابة الميزانية والسياسة الملكية ، ولكنهم أرادوا الابقـــاء على كثير من الحقوق السيدية والاراضي المسيّجة لان العديد منهم قـــد اشتروا الاقطاعات . وقد أدّت الحكومة الملكية خدمات جلى للبورجوازيين. فان دائرة التجارة ،التي تأسست في السنة ١٧٢٢ ،قد وضعت

البيانات الاحصائية ووفرت للتجار المعلومات والتوجيهات وساعدت المشاريع . وتولى مجلس التجارة الارشاد والتوجيه ، فخفت شيئاً فشيئاً ، بالاقتراحات والتراجعات، حدة العراقيل وقساوة الانظمة . وتسهلت المواصلات ؛ فانشئت دائرة الجسور والطرقات في عهد الوصاية ، ونظمت اعمال التسخير الملكي لأجل الطرقات في السنة ١٧٣٨ وشقت طرقات كثيرة وخفضت رسوم المرور ؛ واطلقت تكراراً ، في السنوات ١٧٦٣ و ١٧٧٠ و ١٧٧٤ و ١٧٨٧ ، حرية تجارة الحبوب التي كان مقدراً لها ان تزيد الانتاج بفعل يقين التاجر من البيع بسعر مغر ، فجاءت كذلك تدبيراً مشجعاً للفلاحين الملاكين . وبعد السنة ١٧٥٠ ، اقدمت الادارة الملكية، تحت تأثير القائلين بأن الزراعة مصدر الثروة ، على تلطيف انظمة الصناعة . فأجازت انتاج الكتانيات المصورة والملونة (١٧٥٩) ، وألغت منها بعض البنود ، ولم تطبق البنود الاخرى الا ببصيرة وفطنة . لا بل ان « تورغو » قد استصدر قانوناً في السنة ١٧٧٦ بالغاء تعاونيات الحرف ومحاكمها الخاصة التي كانت تعيق تأسيس مشاريع جديدة واعتماد طرائق جديدة . ومنذ السنة ١٧٧٩ استمرت التجارب لاشراك الأعيان في الادارة بواسطة الجمعيات الاقليمية .

ولكن الحكومة لم تذهب الى ابعد من ذلك . فما لبثت التعاونيات ان اعيدت . وفي السنة ١٧٨٦ عقدت مع الانكليز معاهدة تجارية مضرة بصالح البلاد اذ انها أقرت تخفيض الرسوم الجركية على المصنوعات الانكليزية ، وهي دون المصنوعات الفرنسية كلفة الى حد بعيد ، الى ١٢ ٪ ، فنجم عنها غزو المصنوعات الانكليزية لفرنسا ، وأزمة خطيرة . ولم يمنح البورجوازيون سوى القليل من الاسهام في الشؤون المحلية والاقليمة والوطنية ، فاستمروا مستائين من وضعهم .

ان الحكومة الملكية لم تتكيف التكيف اللازم بسبب افتقارها الى القادة . ففي السنة ١٧١٥ ، مست الحاجة الى وصاية ، اذ ان الملك لويس الخامس عشر (١٧١٥ – ١٧٧٤) كان في سن الخامسة . ترك الحكم للدوق « دورليان » ، الوصي ، حتى بلوغه الشرعي في السنة ١٧٢٢ ، ثم حتى وفاة الدوق في السنة ١٧٢٣ ، ثم للدوق « دي بوربون » ، احد الامراء الملكيين ، حتى السنة ١٧٢٦ ، وأخيراً لمهذبه الكردينال « دي فلوري » منذ السنة ١٧٢٦ حتى السنة ١٧٤٣ . فأعلن حينذاك ، وقد بلغ الثالثة والثلاثين ، عن تصميمه على تولي الحكم بنفسه . ولكنه لم يقو على ذلك. فان هذا الملك ، الجميل، الذكي ، المثقف ، الكريم ، البعيد كل البعد عن المسخ الذي ارتكب « ميشليه » خطأ جسيماً برسمه ، تميز بالوجل والخشية خلقاً وتربية . افتقر طيلة حياته الى الحزم والثبات اللازمين . فسيطرت عليه عائلته وخليلاته (السيدة « دي فنتيميل » ، والدوقة « دي شاتورو » منذ السنة ١٧٤١ حتى السنة ١٧٤٤ ، والمركيزة « دي بومبادور » منذ السنة ١٧٤٤ ، والكونتية « دي باري » منذ السنة ١٧٦٩) ووزراؤه وزمر دسّاسيهم . كما ان حفيده لويس السادس عشر (١٧٧٤ – ١٧٩٢) ، السليم القلب ، القفال الماهر ، الأب الصالح ، محب الشعب ، البورجوازي المتربع على العرش ، قد اشتهر كذلك

بضعف ارادته . فقد رأى كلاهما الخير ولكنهما لم يفعلاه .

كان بمقدور الملكية أن تبقى ملكية مطلقة باقدامها على الاصلاحات : الغـــاء امتيازات الارستوقراطية الاميرية ، وصول الجميع الى جميع الوظائف ، إقرار حرية اقتصادية معتدلة حتى لا يقع العمال وفقراء الفلاحين في قبضة الاثرياء ، توحيد مملكة اقامت فيها الجمـارك الداخلية ، والمقاييس والنقود المتباينة ، والعادات والاعراف المتعددة في الولايات ، العراقيـــل في طريق الحياة القومية ولا سيما في طريق الحياة الاقتصادية . ولكنها لم تفعل . واذا هي وسعت رقعـة الوطن بضم « اللورين » (١٧٦٦) والحصول على « كورسكا » (١٧٦٨) ، فقد حافظت اللورين على جمارکها من جهة المملكة واستمرت في الاتجار بحرية مع الامبراطورية المقدسة .

كان من الواجب تحطيم الارستوقراطيات. ولكن الملكين اعوزتهما الارادة ابداً للنهوض بهذا العمل. برهنت ارستوقراطية الامراء والدوقية عن عجزها في الحكم. استبدل الدوق «دورليان»، الوصي ، وزراء لويس الرابع عشر البورجوازيين بمجالس تضم كبار النبـــلاء ، رغبة منه في ارضائها . ولكن سرعان ما اتضح عجزهم. ومنذ السنة ١٧١٨ مست الحاجة الى اعادة الوزراء. ولكن كبار النبلاء شكلوا خطراً دائماً بواسطة دسائسهم في البلاط، وبواسطة زبنهم ، وبواسطة اتفاقهم مع المجالس .

كانت هذه المجالس سبباً في اخفاق كافة محاولات الاصلاحات . في السنة ١٧١٥ أعاد الدوق « دورليان » لها حق النصح والانذار مقابل قرار يجعل منه سيد مجلس الوصاية ، على الرغم من وصية لويس الرابع عشر . منذ ذاك التاريخ بات بمكنة مجلس باريس مرة أخرى تأجيل تسجيل المراسيم الملكية الى ما لا حد له. وقد بلغ من ازعاجه أن حدّ الوصي من حقه في الانذار والنصح في السنة ١٧١٨ . ولكن هذا الحق أعيد بكامله في عهد لاحق ، فأتاح بصورة عامة على الرغم من تعطيله أو الحد منه احياناً ، معارضة المجالس معارضة دائمة للاصلاحات المـــالية . كم من مرة حاولت الحكومة الملكية التوصل إلى اسهام كافة رعاياها بنسبة دخلهم. وكانت محاولتها الوسيلة الوحيدة لتغطية النفقات المتزايدة في دولة تتسع ادارتها يومـاً بعد يوم ، في حال أن ارتفاع الاسعار قد انقص الموارد بزيادة النفقات إذ انه يحد من الاستهلاك، وبالتالي من مدخول الضرائب غير المباشرة التي تتناول الشعب كله . ولكن المجالس ، يساندها الامراء والاساقفة ونبـــلاء الولايات ، وكلهم من ذوي الامتيازات ، قد قاومت ، بكل قواهـا ، الارادة الملكية . كانت تستثير السكان برفض التسجيل، والنصح والانذار، وتأثيرها المباشر على الفلاحين، وتثير الشعب في صفوف الطبقات الدنيا التي ما كانت لتدرك ما تفعل . سببت فشل ضريبة الجزء من خمسين على دخول الممتلكات العقـــارية (١٧٢٥ – ١٧٢٧) ، وضريبة العشر (١٧٣٣ – ١٧٣٦ ، ١٧٤٠ – ١٧٤٩) التي جبيت اثناء الحروب ولكنها افسدت فلم تجبَ إلا من الفقراء ، وضريبة الجزء من عشرين المرتبطة باسم «ماكو دارنوفيل» (١٧٤٩ – ١٧٥٤)، والاعانة العـــامة التي اقترحها «سيلويت» (١٧٥٩) والاعانة العقارية التي اقترحها «كالون»(١٧٨٧). وحالت بمقاومتها

المتوقعة دون تقديم «ثورغو» مشروعه الخاص بالاعانة العقارية. وكان الرأي العام الى جانبها لأنها اتقنت الادلاء بالبيانات الاخاذة : ان رعايا الملك « اناس احرار وليسوا عبيدا » ؛ وحاربت « طوفان الضرائب » ؛ وساندت كل مقاومي السياسة الملكية ، فساندت الجنسينيين مثلاً على اليسوعيين الذين الغيت جمعيتهم في السنة ١٧٦٤ . ولكنها لم تفكر الا بامتيازات النبلاء ، امتيازاتها ، وبالامتيازات التي ترفعها فوق الجماهير ، وبصوالحها الخاصة ، لا بل طالبت بتأليف هيئة مع كافة المجالس في المملكة ، وبحق الاشتراك في السلطة التشريعية ومقاومة الارادة الملكية . فقد ساند مجلس بريطانيا الجمعية الاقليمية المعروفة باسم « مجلس طبقات بريطانيا » على الحاكم الراغب في شق الطرقات لأن الطرقات تدخل في صلاحية المجلس ، الذي لا يقوم بأي عمل .

نفى الملك دوريا مجلس باريس ثم استدعاه ثانية . وأخيراً الغى المستشار « موبو »، في السنة ١٧٧١ ، وظائف القاضي واستبدل اعضاء مجلس القضاء بقضاة مأجورين. ولكن لويس السادس عشر ، لسوء الحظ ، أعاد المجالس في اواخر السنة ١٧٧٤ محاولا بذلك تهدئة الخواطر . إلا أن مجلس باريس تمسك بالشرائع الاساسية للملكية ، وحقوق المجالس والاتفاقات المعقودة مع الولايات ، وضرورة اقتراع مجلس الطبقات على الضرائب ، فعطل الملك المجلس وفككه ونقل تسجيل المراسيم الى محكمة عليا تضم خدام الملك الخلّص .

بدأت الثورة حينذاك بثورة ذوي الامتيازات . فقام اعضاء المجالس ، حلفاء النبلاء ، باثارة السكان في كافة المدن التي قامت فيها المجالس ، في « غرينوبل » و « رين». وكان من مجلس الطبقات الاقليمي في مقاطعة «دوفينه» ، المجتمع في «فيزيل» ، أن رفض دفع الضرائب . فاضطر الملك الى دعوة مجلس الطبقات للاجتماع في اول ايار من السنة ١٧٨٩ .

ولكن الأمة انقسمت آنذاك شطرين. فطالب الامراء الملكيون والأعيان بدعوة تجري بحسب النظم القديمة وباقتراع يجري وفاقاً للترتيب التالي : الاكليروس ، النبلاء ، ممثلو الشعب ، الذي يضمن الاكثرية لذوي الامتيازات . وطالب البورجوازيون ، الذين أسسوا « حزباً قومياً » وجمعوا كلمتهم في كل مدينة ، بجمعية وطنية ، وبمضاعفة عدد ممثلي الشعب والاقتراع الشخصي الذي يضمن لهم الاكثرية . فلم يوافق الملك إلا على مضاعفة العدد في شهر كانون الأول من السنة ١٧٨٨ .

وقد برز نشاط طبقات اخرى . لقد حدث ما يشبه ثورة الطبقة الكادحة . فان معاهدة السنة ١٧٨٦ ، سبب البطالة ، ومحول حصائد السنة ١٧٨٧ والسنة ١٧٨٨ قد زادا في ارتفاع الاسعار ؛ فبات الخبز الذي كان يمتص ٥٠٪ من موازنة العامل ، يمتص منها ٨٠٪ . ارتفع عدد المتسولين والمتشردين . انفجر فجأة حقد عارم على السيد ، والغني ، والموظف. فحدثت اعمال شغب ، وهوجمت القصور ، وهوجم البورجوازيون والاشراف الريفيون واضعو اليد على الحبوب.

في ٢٧ نيسان من السنة ١٧٨٩ ، نهب مصنع « ريفيون » للورق الملون القائم في ضاحية « سانت انطون » ، إحدى ضواحي باريس . كانت ردة فعل الحكومة ضعيفة : فالوكلاء فقدوا الاعتبار والجيش فقد الانتظام .

جرت انتخابات مجلس الطبقات في السنة ١٧٨٩ باقتراع شبه عـــام ، وبالترتيب . وضع المنتخبون « دفاتر شكاوى » ضمنوهـا امانيهم : دستور ، الحرية الفردية ، التساهل ، مساواة الحقوق ، اجتماع مجلس الطبقات دوريا للتصويت على الضريبة ، اللامركزية ، جمعيـــات اقليمية وبلدية ينتخبها الملاكون في الدرجة الاولى ، احترام الاعفاءات والحريات في الاقـاليم ، السلطة التنفيذية للملك ، السلطة التشريعية للملك والأمة . وهكذا ارتضى البورجوازيون بقسم كبير من برنامج ذوي الامتيازات بسبب عجز الملك عن تسلم دفة الاصلاحات .

اوروبا الجنوبية

اسبانيا

إن اسبانيا ، التي ما زال الانحطاط مخيماً عليها في السنة ١٧١٥ ، ما زالت دولة حطم الملوك فيها سلطة الاسياد السياسية دون أن يفعلوا في اخراج البـلاد من القرون الوسطى . انتهى النظام الى التحجر في قوانين واعراف وانظمة لا يحصى لها عد . كان دور اسبانيا في اوروبا دور بـــلاد حديثة اقتصادياً تصدر الى انكلترا وفرنسا ودول الشمال الغربي صوف اغنامها ومعادنها وذهب وفضـة مستعمراتها ، وتستورد منها بالمبادلة المصنوعات التي تفتقر إليها .

لم يكن ممكناً ان تصدر الاصلاحات إلا عن الملك ، المطلق مبدئياً ، الاقوى من الشرائع . وقد تم ذلك على يد الملوك البوربونيين ، الفرنسي فيليب الخامس ، حفيد لويس الرابع عشر ، وابنيه فرديناند السادس (١٧٣٥ – ١٧٥٩) ، ولا سيما شارل الثالث الذي اعتلى العرش منـذ السنة ١٧٥٩ ، بعد ان تربع على عرش نابولي طيلة عشرين سنة ، اجرى خلالهـــا إصلاحات عديدة ، وقـد تميز بذهنه الثاقب والعملي . فأدخلوا افكار الفرنسيين وطرائق كبار المستبدين المستنيرين من الفرنسيين في القرن السابع عشر .

اقـام الملوك ملكية ادارية على غرار الملكية الفرنسية . اخضعوا مجالسهم لسلطة مجلسين رئيسيين: مجلس الهند، ومجلس قشتالة حيث فرضوا سلطتهم بواسطة وزراء كانوا احياناً مـن النبلاء المتشبعين بالافكار الفرنسية ، كالكونت « دارندا » مثلاً (١٧٦٦ – ١٧٧٣) ، ولا سيما من البورجوازيين ، كالايطالي «البروني»، و «باتينيو»، (١٧٢٦ – ٣٦)، و «خوسيه مونينو»، الذي اصبح كونت « فلوريدا بلانكا » وتزايد نفوذه منـذ السنة ١٧٦٢ ، و« كمبومانيس » . تولى تنفيذ أوامرهم في كل ولاية وكيـــل اسندت إليه، كما في فرنسا ، شؤون الاموال والادارة العامة ، وضابط عام يقود الجيش ، ومحكمة تؤمن العدل ، يعجز الواحد منهم عن العمل دون الآخرين ، ويراقب بعضهم بعضاً .

اخضعت الهيئـــات المنظمة القليلة التي كان بمقدورها ان تقاوم الارادة الملكية . فمحكمة التفتيش التي ابقي عليها قد اكرهت على الخضوع للحكومة . وضمن الملك لنفسه تعيين الاساقفة طيلة ثمانية اشهر في السنة (١٧٥٣) ثم طيلة السنة . ألغيت جمعيـة اليسوعيين في السنة ١٧٦٧ بتهمة انتوائها قتل الملـك ، وخصوصاً بتهمة نشر المبادىء المضادة للحق الملكي ، وهو شارل الثالث الذي استحصل من البابا على الغائها في كافة البلدان (١٧٧٣) .

حاول الملوك جاهدين تنمية التجارة والصناعة باعتماد كولبيرية حقيقية : مصانع ملكيـة ، استدعاء اختصاصيين اجانب ، مساندة المصانع الخاصة بمساعدات مالية وحماية جمركية ، احداث شركات تجارية ، ومنذ السنة ١٧٦٥ تأسيس جمعيات اقتصادية ووطنية لاعادة العمل الى سابق عزته ، شق الطرق وإنشاء الاقنية ، حماية المزارعين الذين ما عاد الملاكون ليرفعوا يدهم عـــن الاملاك دون اسباب جوهريـة (١٧٦٨) وحماية صغار الملاكين الذين استحصلوا ، ضد مالكي الاغنام المتنقلة ، على حق تصوين اراضيهم . وكان من سرعة النجاحات المحرزة ان استفاقت مبادهة الاسبانيين من سباتها وان طالبت الجمعيات الاقتصادية منذ السنة ١٧٧٠ بمزيد من الحرية : ألغت الحكومة ، بعد السنة ١٧٧٥ ، الجمارك الداخلية واحتكار « قـــادس » للتجارة وفتحت باب تجارة المستعمرات لـ ١٣ مرفأ اسبانياً . وعلى الرغم من أن اسبانيا مـــا زالت محتاجة اقتصاديـاً للدول الاخرى ، فقد قامت فيها مصانع جوخ وحرير وقطن في كل مكان . ومنذ السنة ١٧٧٩ توقف طلب الاجواخ والحرائر والقبعـــات من فرنسا . وفي السنة ١٧٨٨ ارسلت اسبانيا الى الهند بضائع اسبانية تجاوز حجمها ما ارسلته من المصنوعات الاجنبية . ارتفع سكانها من ٥ الى ١٠ ملايين . اعيد انشاء الاسطول والجيش على انهما افتقرا الى التدريب .

تطلب كل ذلك اموالا ضخمة . اختلت الميزانية . ألغى شارل الثالث كثيراً من التزامـات الضرائب وزاد من دخل الضريبة باسناد جبايتها الى الموظفين . ولكنه لم يتمكن من اخضـاع النبلاء والاكليريكيين للضريبة . اكثر من الضرائب ، واختبر امكانات مصرف «سان ـ شارل» الذي اخفق كما اخفق مصرف « لو » . في السنة ١٧٨٩ تخبطت اسبانيا في ازمة بلغت ذروتها ، قبل ان يكتمل تطورها .

البرتغال

ان البرتغال التي لعبت دور الوسيط بين مستعمرات اوروبا كادت تفقد هذا الدور بفعـل مزاحمة الدول الاخرى . وكادت صادراتها الخفيفة (خمور ، واخشاب البرازيل) تنحصر في أسواق انكلترا . لم تستفد فيما مضى من تجارتها لتنشىء صناعة في اراضيها ولتجدد زراعتها . بقي نظامها الاقتصادي والاجتماعي شبيهاً به في القرون الوسطى . في عهـد الملك الحازم ، بخوسيه الاول (١٧٥٠ – ١٧٧٠) ، تمكن مصلح قوي الشكيمة ، هو «كافالهو» ، الذي لقب بالمركيز « دي بومبال » منذ السنة ١٧٦٩ ، من تحطيم سلطة محكمة التفتيش التي مـا عادت لتقدر على احراق الهراطقة دون موافقة الحكومة ، ومن تحرير المجددين (١٧٥١) ،

وطرد اليسوعيين الذين يقاومون سياسته ، بتهمة تدبـــير المؤامرات (١٧٥٩) ، وفتح ابواب الوظائف العامة لكافة البرتغاليين دون استثناء ، وتأسيس المدارس وادخال العلوم الى الجامعات ، وانشاء المصانع ، وانماء التجارة ، وبناء اسطول ، واعادة تنظيم الجيش ، وتشييد الحصون . اجل لم تواصل الملكة « ماريا » الاولى عمله ، ولكنها لم تهدمه .

في هاتين البلادين يذكرنا جهد الحكومة بالجهد الفرنسي في القرن السابق . واذا كانت فرنسا متخلفة قرناً عن انكلترا ، فان اسبانيا والبرتغال كانتا متخلفتين ما يناهز القرن عن فرنسا .

ايطاليا

اما ايطاليا ، « العبارة الجغرافية » المقسمة الى عـــدة دول ، فما زالت تعاني من الاكتشافات الكبرى ومن توسع التجـارة الاوقيانوسية الكبرى . تضاءل شأن المدن البحرية النسبي تضاؤلا كبيراً . واذا ما استثنينا مرفأ ليفورنو الحر في توسكانا ، نرى كافة هذه المدن تتأخر بفعل منافسة الانكليز والفرنسيين والنمساويين الاقتصادية ، وافتقار البـلاد الى المناطق الصناعية ، وعادات البطالة والانفاق المألوفة ابان ازدهارها العظيم . جنوى والبندقية ، التجاريتان ، كانتا جمهوريتين . ولكن الارستوقراطية البندقية ، التي كانت من قبل بورجوازية العادات ، قد هجرت التجارة ، وغدت البندقية في الدرجة الأولى مكان اجمل اعياد أوروبا . فتكررت على لسان ملوك فولتير هذه الجملة : « وقصدت البندقية لأقضي فيها ايام المرفع » .

كانت الدول الأخرى بلداناً ريفية ، ملكيات يترك فيها الامراء للارستوقراطيين لا سلطة اجتماعية كبرى فحسب ، كما في فرنسا ، بل قسطاً كبيراً من الحكم الاقليمي والمحلي ايضاً . كان هؤلاء النبلاء على جانب كبير من الكسل وغالباً ما انغمسوا في الملذات . تأخر نمو المدن وتدنى عدد البورجوازيين الذين كانوا فقراء وعديمي التأثير . وفي كل مكان كان الفلاحون متخلفين وبؤساء .

نزع الأمراء الى السلطة المطلقة ، وغالباً ما كانوا « مستبدين مستنيرين » . وانما يجب هنا ان نلفت الانتباه الى بعض الفروق .

فحكومة الدول البابوية الثيوقراطية لم تكترث بالمسائل المادية . فتميزت دول البابا بأسوأ ادارة وكانت اشد دول شبه الجزيرة بؤساً .

وفي مملكة نابولي ، حاول البوربونيّان ، شارل (١٧٣٩ – ١٧٥٩) ، ثم فرديناند ، القيام ببعض الاصلاحات مع الوزير « تانوتشي » ، ومهدا السبيل لالغاء جمعية اليسوعيين (١٧٧٣) ، وحاربا نفـــوذ « فدائيي » « ألفونس دي ليغوري » (« اللاهوت الادبي » ، ١٧٥٣) الذين ناهضوا العلم والمكتبات ، والغيا الفدادية والاوقاف ، ووفرا المساعدات المالية للمصانع ، وفرضا الضريبة على ممتلكات الكنيسة ، ولكنهما عجزا عن فرض الضريبة على النبلاء فبقيت البـلاد مغطاة باملاك واسعة يسيء العناية بهـــا شركاء ثقلت عليهم وطأة اعمال التسخير والحقوق السيدية الأخرى .

وفي توسكانا ، أتاحت سياسة اكثر حرية ، والغاء التعارنيات ، والاجازات المؤقتة بتصدير

الحبوب ، وتجفيف بعض المستنقعات ، تكديس الثروات وتأسيس المشاريع التجارية وارتقاب النهوض من السبات .

وفي لومبارديا الغى النمساويون تلزيم الضرائب الثقيل الوطأة على المكلف واعتمدوا الجباية المباشرة ، ومسحوا الأراضي ، وخفضوا الرسوم الجمركيـــة وجعلوا من ميلانو سوق مقايضة ، مشجعين بذلك نخبة بورجوازية صغرى يتزعمها « بيترو فرّي » .

وفي هاتين البلادين خُفّف من وطأة الحقوق السيدية واخضعت للضريبة كافة الاراضي تقريباً بما فيها اراضي النبلاء وأراضي الكنيسة .

اما المملكة الساردية فكانت أعظم الدول الايطالية قوة وتقدماً . فالفلاحون كانوا فيهـــا احراراً . ونظم الملك فيها استرجاع الحقوق الاقطاعية بأثمانها (١٧٧١) . أقسام النبـــلاء في ممتلكاتهم وحسنوا الزراعة ، فتقهقرت المزارعـــة لصالح المساقاة . تجمعت الاراضي في أيدي الرأسماليين الزراعيين من الملاكين أو كبار المساقين . الغى الملك شبكة الطرق ، وحـــاول ان يجعل من مملكته الوسيط التجاري بين فرنسا وايطاليا ، وبين ايطاليا وسويسرا . اعتمدت هذه المملكة الاقتصاد ، فكان لديها جيش مؤلف من ٣٠٠٠٠ رجل ، وكان ينتظرها مستقبل عظيم .

نذكر على العموم ان ملوكاً يتمتعون بمزيد من السلطة المطلقة يدفعون بايطاليا الى الامـــام ، ولكن البورجوازية ما زالت مفقودة .

اوروبا الوسطى

سويسرا

كان « الجسم الهلفيتي » اتحاداً غير متماسك يضم ١٣ ولاية ذات سيادة تغار على استقلالها ، وقد انقسمت عـــن طريق المعتقـــد الى ولايات كاثوليكية وولايات بروتستانتية . كان التنظيم جمهورياً . في المدن النامية عند نقاط المرور المؤدية الى ممرات جبـــال الألب ، عاشت بورجوازية على بعض الفقر ، ولكنها كانت أعظم قوة الى حـــد بعيد من سكان المناطق المنبسطة ، فكانت بمثابة اشراف احتفظوا لأنفسهم بالحقوق السياسية والفوائد الاجتماعية . كانت الخلافات مستمرة بين الولايات ، وبين المدن والارياف في داخل الولايات .

البلدان الجرمانية والدانوبية

كلما توغلنا في داخل أوروبا الوسطى ، انطبع في نفوسنا اننـــا نعود بالتاريخ الى الوراء وندخل ابعد فأبعد في القرون الوسطى . كانت هذه الدول في معظمها بلداننا ريفية ، ضئيلة الانتاج ، خاضعة لنظام سيدي ثقيل الوطأة جداً . الى الغرب من نهر الالب ، كانت الفداوية قد زالت من بعض الاماكن أو تلطفت بعض الشيء ، ولكنها ما زالت على مرارتها الى الشرق من النهر حيث ندر ان تجد فلاحاً حـــراً . استمرت الارستوقراطية في فرض اعمال التسخير التي لم تترك للمطلوبين لها الوقت اللازم لزراعة حقولهم ، وجباية الضرائب المخولة حق الانتخاب والاتاوات الباهظة ، واستثمار الاحتكارات الرابحـــة ، كالافران ، والمطاحن ، والمعاصر ، واحقاق الحق والمحافظة على الامن . فهي لم تمـــارس هذه

الصلاحيات اكثر منها في فرنسا فحسب ، ولم تستأثر عمليـاً بكل الادارة الاقليمية فحسب ، كما حدث ذلك غالباً في اسبانيا وايطاليا ، بل احتفظ الملوك للنبلاء بكافة مراكز الجيش وكافـة مراكز الادارة ايضاً . اجل لقد انتمى بعض الوزراء الى الطبقات الدنيا ، لا سيما في اواخـر القرن ، ولكن الارستوقراطية احتفظت بكل شيء بصورة عامة .

بقيت الطبقات الاجتماعية متميزة جداً ، ومتباعدة جـداً . فعلى نقيض انكلترا حيث اختلطت الطبقات اكثر فاكثر على الرغـم من كل شيء ، وعلى نقيض فرنسا حيث حدثت الظاهرة نفسها في النصف الثاني من القرن ، نرى النبـلاء والبورجوازيين والصناعيين اليدويين والفلاحين يعيشون بعيدين بعضهم عن بعض ونرى كل طبقة تحتقر من دونها ؛ فالمراتب محفوظ عليها والمسافات ابقي عليها .

ارتضى الملوك بالحصول على طاعـة النبـلاء والاستئثار بخدماتهم . استخدموا التقنيات الاقتصادية والسياسية التي توصلت اليها الدول الغربية المتطورة (انكلترا وفرنسا) رغبة منهم في ارساخ سلطتهم ، فاحدثوا بذلك ، كما باستخدام تعابير الفلاسفة ، انطباعـاً بان دولهم دول عصرية تتقدم دول الغرب نفسها ، بينما لم يقطعوا في الواقع ، آنذاك ، سوى مراحل مـا زالت بعيدة كل البعد عما بلغه الغرب .

الامبراطورية المقدسة

ما نزال هنا امام تفتت اقطاعي واسع النطاق . فالامبراطورية المقدسة الرومانية الجرمانية ، التي لا تطابق حدودها حدود المانيا ، « العبـارة الجغرافية » ، ليست سوى ظاهر فحسب . ان الامبراطور ، رئيس سـلالة هبسبورغ ، هـو مبدئياً خليفة شارلمان واوغسطوس . ولكنه انتُخب ، في السنة ١٧٦٣ ،على يد تسعة منتخبين: منتخبي بوهيميا وساكس وبراندبورغ وهانوفر وبافاريا والبالاتينا وثلاثة كنسيين هم رؤساء اساقفة ماينس وتريف وكولونيا . اكرهه الانتخاب على اعطاء الامـراء ضمانات ، وتكفل التدخل الاجنبي بعمل ما تبقى : فعجز الامبراطور عن ان يجعل من الامبراطوريـة دولة . كرست معاهدتا وستفاليا ، كمبدأ من مبادىء الحق الدولي ، سيادة امـراء الامبراطورية التي آلت الى التحاد على بعض الاسترخاء . وحدت من سلطة الامبراطوريـة جمعية مركزهـا « راتسبون » تتولى امور الادارة وتعلن الحرب او تعقد الصلح وتوقع المعاهدات . اضف الى ذلك من جهـة اخرى انها كانت مؤلفة من ثلاث هيئات تضم ممثلي المنتخبين والامراء والمدن المتضاربي المصالح والعادمي الثقة بالامبراطور ، فلم تأت عملاً مجدياً حقاً . اضف الى ذلك ايضا ان المانيـا ، وهي الشطر الاهم من الامبراطورية المقدسة ، كانت تضم ٣٤٣ تقسيما اقليميا يدخل في عدادها ٣٠ دولة ، وامارات ، ومدن امبراطورية حرة ، واملاك واسعة لفرسان الامبراطورية الخاضعين مباشرة للامبراطور . وضمت ضفة الرين اليسرى وحدها ١١٧ دولة صغرى تتأثر كلهـا تأثراً قوياً بالنفوذ الفرنسي .

الامراء

حاول كافة الملوك اقتفاء اثر « اليزابت » في انكلترا خلال القرن السادس عشر ، واثر لويس الرابع عشر في فرنسا خلال القرن السابع عشر . سعوا لان يجعلوا من امارتهم دولة مطلقة ، مركزية ، بيروقراطية ؛ وان ينموا طاقاتها بالغاء الامتيازات والمساواة الضريبية والروح التجارية كما قال بها « وليم سيسيل » و « كولبير » . فخلقت الدولة الصناعة خلقاً وساعدت بذلك على قيام طبقة بورجوازية . في المدن الامبراطورية الاحدى والخمسين ، نهضت البورجوازية واثرت واحدثت تيارات تجارية جديدة ، وكلفت بالمعرفة والجمال فبعثت نشاطاً فكرياً عظيماً ، ولعلها فعلت كل ذلك بتأثير مما كان يجري في الدول المجاورة . وغدت فرانكفورت ومانهيم وليبزيغ وهمبورغ مراكز فن وابحاث ، على غرار عواصم الملوك الصغرى التي كانت اضعف من ان يلمع نجمها الا بنصرة الآداب والفن ، كـ « فيار » و « غوتا » و « ابينا » .

آل هبسبورغ

لقب الامبراطور مجرد رتبة ، ولم يكن بعض آل هبسبورغ اقوياء الا بممتلكاتهم كشارل السادس حتى السنة ١٧٤٠ ، وماري — تيريز ابنته (١٧٤٠ — ١٧٨٠) ، وجوزف الثاني حفيده ، الذي اعتلى عرش الامبراطورية منذ السنة ١٧٦٤ ، واشركته امه في الحكم ، وكان سيد املاك آل هبسبورغ منذ السنة ١٧٨٠ حتى السنة ١٧٩٠ . سليل هبسبورغ ارشيدوق النمسا وملك بوهيميا وملك هنغاريا. اراضيه تضاهي اراضي ملك فرنسا ، ولعلها تعادلها سكاناً ، ولكن موارده دون موارد ملك فرنسا بخمس مرات ، ولم يكن مطاعاً. ما زالت اراضي آل هبسبورغ وكأنها في القرون الوسطى ، مقسمة الى قطع كبرى وصغرى ، وموزعة بين بحر الشمال والسهل الروسي وبين المانيا الوسطى من جهة ، وسهل البو والادرياتيك من جهة ثانية . العلائق بين الاجزاء المختلفة بطيئة وصعبة ، والشعوب من نمساويين وهنغاريين ورومانيين وايطاليين وتشيكيين وسلوفينيين ، وفلمنك و« فالون » ، متباينة اخلاقاً ولغة ومعتقداً ويجهل بعضها البعض . يرتبط كل منها بآل هبسبورغ بعقد مختلف خاص ، تتمتع كلها بالاستقلال الاداري ، ومجالس طبقاتها الاقليمية ، اي جمعيات النبلاء ورجال الكنيسة ، تدافع عن حريات البلدان وامتيازاتها ولا تهتم في الدرجة الاولى الا بدفع حد ادنى من الضرائب . تتولى هذه الشعوب بنفسها تعيين رجال ادارتها من بين النبلاء الذين يقبضون على زمام السلطة ، الا في المدن التي تعين البورجوازيات لادارتها قضاة منتخبين . هنالك مؤسسات هبسبورغية كثيرة : ثلاثة مجالس في فيينا للسياسة العامة والمالية والتجارة والحرب ؛ وثلاث مستشاريات لبوهيميا وهنغاريا والدول الوراثية (النمسا وملحقاتها) ؛ ومجلسان للفلاندر وايطاليا . ولكنها كلها شبه مقيدة امام التقاليد والعادات المحلية الخاصة .

ان شارل السادس ، الذي لم يقدر حق قدره ، قد أمن لآل هبسبورغ ، في الدرجة الاولى ، امتناع تجزؤ اراضيهم . لم يرزق واخوه البكر اولاداً ذكوراً . فاقر الامر الصادر عن الامبراطور والمجلس (١٧١٣) ، في حال عدم وجود وريث ذكر ، حق الوراثة لأنساله من

الاناث دون انسال اخيه البكر . وقد اثبت في مستهل هذه الوثيقة امتناع تجزؤ دوله . وتوصل الى اعتراف ممتلكات آل هبسبورغ المختلفة بها كقانون دولة ، بينما لم يعترف بوراثة الاناث في بوهيميا ودوقية ميلانو ، وربما في النمسا نفسها . فكانت عقداً جديداً يبعد مخاطر التفكك ، استمر العمل به حتى السنة ١٩١٩ .

في سبيل ايجاد موارد جديدة للملكية ، لجأ الى طريقة شركات الاحتكار : شـــركة « اوستند » للاتجار مع الهند والصين التي اخفقت بفعل عداء الانكليز والهولنديين ، وشركة موانىء الشرق الادنى في تريستا .

الا انه لم يتمكن من ان يفعل اكثر من ذلك بسبب نزق الهنغاريين وفقدان النفوذ الذي مني به في اعقاب حروب خاسرة .

اما ماري – تيريز فقد حاولت مجدداً بمعاونة المستشار « كونيتز» وابنه جوزف ، تحقيق مشاريع الاصلاح ، لا سيما بعد حربي وراثة عرش النمسا (١٧٤٠ – ١٧٤٨) وحرب السنوات السبع اذ توفقت ، بتخليها عن سيليزيا ، الى الحؤول دون تفكك ممتلكاتها وفقدان لقبها الامبراطوري . كانت سمينة وقصيرة ، لطيفة وتقيـــة ، يحبها رعاياهـا ويحترمونها ويلقبونها بـ « ام الوطن » ، وكانت ذكية وواقعية تقدر المقاومات المحتملة حق قدرها ، فارادت اجـراء التغييرات ببطء وصمت . قوّت المركزية . فاوجدت فوق المؤسسات القائمة مجلس شورى يتخذ كافة المقررات . وقد نفذ هذه المقررات مباشرة ، في بعض الولايات ، موظفون تابعون للتاج . نادراً ما دعت للاجتماع مجلس ممثلي هنغاريا ومجلس الطبقات . عملت بالروح التجارية .وحظرت استيراد المصنوعات وتصدير الخامات وهجرة اليد العاملة ، رغبة منها في خلق صناعة بالقوة . واقامت في املاكها نفسها ملاكين صغاراً انكبوا على عمل الزراعة بمزيد من النشاط والعنايـة ، ولكن الاسياد لم يحذوا حذوها . واقرت الخدمة العسكرية ، الا انهـا اقصرتها على الفلاحين وفي الدول الوراثية . لم تستطع اصلاح الادارة المالية . حققت بعض الشيء في حقل التساهل الديني : فمنذ السنة ١٧٧٤ ، لم يعد ســـكان هنغاريا من غير الكاثوليك مجبرين على السير في التطوافات ، او على استدعاء كاهن كاثوليكي للمرضى . ولكنها هدفت لان تقيم كنيسة نمساوية اكثر منها رومانية : فمنذ السنة ١٧٦٧ ، ما كان اي منشور بابوي ليدخل الدول النمساوية بدون اجازة ملكية . اصلحت التعليم . بيد ان كل ما حققته ما زال جزئياً .

كان ابنها جوزف الثاني، الزاهد المتوج ،مبرهناً منسقاً منطقياً لا يقيم وزناً لمشاعر الشعوب . أوجد تسلسلاً في التقسيمات الادارية تداخلت فيه وحدات تاريخية مختلفة ، رغبة منه في صهر الشعوب : الولايات المقسمة الى دوائر . كان حكام الولايات ووكلاؤها وضباط الدوائـر يتولون اعمال الادارة على حساب موظفي الدولة . وجب أن يكونوا خريجي جامعـــات (١٧٨٧) : فدخل صغار النبلاء والبورجوازيون مكاتب الادارة ، ولكن المراكز العليـــا بقيت وقفاً على

كبـــار النبلاء فرضت الالمانية على كافة الشعوب لغة رسمية للادارة والمدارس الثـانوية والاكليريكيات (١٧٨٤ – ١٧٨٦) .

في السنة ١٧٨١ اصدر براءة تساهل اقامت المساواة بين الكاثوليـك واللوثريين والكلفينيين والأرثوذكس . بقي اليهود خاضعين لنظام خاص . ولكنه واصل تحقيق حلم كنيسة قوميـــة مستقلة عن روما ، فانقلب تساهله تصلباً ضد الكاثوليـــك الذين نغّص ضمائرهم بتأسيس اكليريكيات رسمية يهمل فيها اللاهوت ، ومنع كتب اللاهوت (١٧٨٤) ، وحظـــر زيارة الأماكن المقدسة والتطوافات ، وإقفال أديرة كثيرة باعتبارها غير مفيدة ، بينما يرى الكاثوليكي أن الرهبان التأمليين أنفع البشر طرا بصلواتهم . علمن نصف الأديرة واستولى على ممتلكاتهـا (١٧٨٦ – ١٧٨٨) .

أبقى على كثير من النظام التجاري والروح التجارية ، ولكنه اتجـه شطر الحرية التجارية : معاهدة تجارية مع روسيا ، إلغاء الاحتكارات التجارية ، حرية تجارة الحبوب في الداخل ، حرية تأسيس مصنع أو حانوت (١٧٨٢) . حرر الفلاحين وجعل منهم ملاكين وراثيين لاراضيهـم مقابل ضريبة تخول حق الانتخاب. الغى الاحتكارات السيدية، وأبدل أعمال التسخير بأتاوات نقدية (١٧٨٣ – ١٧٨٨) . وزع أملاكه وممتلكات الأديرة مزارع كبرى لزمها تلزيماً .

مسح الأراضي رغبة منه في تحقيق المساواة أمام الضريبة (١٧٨٩) ، وعمّ هنغاريا بالخدمة العسكرية، وأجرى تبادلاً جزئياً في السكان بين الالمان والهنغاريين رغبة منه في صهر الشعوب.

ولكنه تعجل في انجاز عمله ، فساء كافة رعاياه بالخدمة العسكرية ، والكاثوليك بسياسته الدينية ، والنبلاء بتدابيره الاجتماعية، والفلاحين المحررين الذين ثاروا واستباحوا السلب والنهب. فمنذ السنة ١٧٨٨ هبت عاصفة من الاعتراضات والثورات التي كان أخطرها في المناطق المنخفضة حيث التحد ضد الامبراطور كاثوليك « فان – دير – نوت » التقليديون وبروتستانت «فونـك » الاحرار . فتوجب التخلي عن معظم الاصلاحات ، باستثناء حرية الفلاحين .

آل « هوهنزولرن »

على نقيض ذلك ، أحرز آل هوهنزولرن في بروسيا نجاحاً تاماً. ولا غرو، فان ممتلكاتهم ، وإن كانت قطعاً متناثرة بين بولونيا والرين ، كانت كلها تقريباً في سهول المانيا الشمالية المأهولة بالجرمانيين في الغرب ، وبالجرمـانيين وبعض السلافيين في الشرق ، ولكن هؤلاء السلافيين المتأخرين حضارياً وصناعياً طبعوا دونما صعوبة بطابع الملوك . أضف إلى ذلك أن فردريك الثاني قد تمتع بسلطة الابطال الظافرين التي أعوزت النمساويين .

ان فردريك غليوم الأوّل ، « الملك الرقيب » (١٧١٣ – ١٧٤٠) الجبار ذا القامة الفائقة الطول ، المعرض للسكتة ، وذا الأعصاب المهيجة ابداً بالافراط من التبغ والمشروبات الكحولية والأطعمة الأزوتية ، مثار رعدة عائلته ورعاياه ، قد أعد آلة حرب الفتوحات، صناعة بروسيا القومية . ازدرى بالأدب والفلسفة ، « الهواء » ، فأحب الواقع وأراد « تحقيق جديـــد » كل

سنة . قام بعمل مرهق ، إذ اطلع بنفسه على كل شيء ، باعتباره الخادم الأول لـ « جلالة الدولة » . وفرض على الجميع الطاعة السلبية دونما براهين. دفع لموظفيه رواتب محترمة وأوجب عليهم العمل والنظام ، واستخدمهم في تأسيس دوله ، ووطن البروسيين في كليف والكليفيين في بروسيا . رفع عدد السكان بتأسيس المستعمرات ، فاجتذب الأجانب من هولنديين وفرنسيين ، ووفر لهم الأدوات والحيوانات والبذار ، فانشأ مئات القرى . بلغ عدد سكان المملكة ٢ ٤٠٠ ٠٠٠ نسمة . حاول تنمية الصناعة بالروح التجارية فحظر تصدير الصوف كي يحتفظ به للمناويل. واعتمد اقتصاداً مدروسا اتاح له تنمية الجيش. أقر مبدأ الخدمة العسكرية الشاملة . وفر الاشراف الريفيون ، خريجو الاكاديمية العسكرية المؤسسة في برلين في السنة ١٧٢٢ ، ضباطا للجيش تميزوا بشجاعة لا تتزعزع . كان لكل فرقة معسكرها ، وكانت تضم جنودها من قضاء واحد ، فتقوي الرابطة الاقطاعية النظام العسكري. كانت بروسيا معسكراً واسع الاطراف يعمل فيه الجميع لخدمة الجيش : الفلاحون ينضمون اليه ، أو يؤمنون له الغذاء ، والصناعيون اليدويون يكسونه ويسلحونه ، والأشراف يقودونه .

أما فردريك الثاني ، ابنه ، القصير القامة ، والنحيف البنية ، ذو الأنف الحاد والشفتين الغاطمتين ، المكار والقاسي ، والكلف بالمجد ، فقد أحب الادب والفلسفة وكان كاتبا موهوبا. ساءت العلاقة زمنا طويلاً بينه وبين والده الذي خشي أن يسمي ابنه « مركيزاً صغيراً » ، ولكنه رأى آراء ابيه الاساسية نفسها : يجب أن تستهدف الادارة الداخلية قوة الجيش المتزايدة ، ويجب على الجيش أن يحقق الفتح ؛ والفتح يتيح إنماء قوة الدولة لتحقيق فتوحات جديدة . منذ السنة ١٧٤٠ حتى السنة ١٧٦٣ ، انشغل فردريك في الدرجة الاولى بالحرب ضد النمسا والاستيلاء على سيليزيا . في السنة ١٧٦٣ ، تدنى عدد السكان ، بعد الحروب الى أربعة اخماسه ، وعم الخراب ، وارتفعت الاسعار ، وساد البؤس والفجور والفساد والفوضى .

أرسل فردريك الى المناطق المكتسحة ، ثم الى البلدان البولونية المفتوحة فلاحين آتين من الدول الالمانية الاخرى ، ولا سيما من مكلمبورغ والبلدان الصوابية ، ومالا وبذاراً وأغذية وجياداً ، ونظم القروض مقابل رهونات عقارية . في السنة ١٧٧٤ صدرت بروسيا قمحا بقيمة مليوني « تالر » سنويا .

حظر تصدير الصوف واستيراد عدد كبير من المواد البذخية ، وفرض رسوما جمركية مرتفعة ، وأعطى مساعدات مالية للمشاريع ومنح احتكارات ، ولكنه ما أن استطاع الى ذلك سبيلا حتى أقر منح الحرية رغبة منه في تشجيع الانتاج عن طريق المنافسة . تقدمت الصناعات كلها: فادخلت مصانع صفائح الحديد والأجواخ والقيشاني والمخمل ٣٠ مليون تالر في السنة . وصلت أقنية بين الفستول والإيلب ، ونقلت ١٣٠٠ سفينة بروسية الاقمشة والاجواخ والاخشاب والحنطة . وفي السنة ١٧٨٥ ، وقع فردريك معاهدة تجارية مع الولايات المتحدة .

أما الفرنسي « دي لوناي » فقد نظم الجمارك ، والضرائب غير المباشرة على الخبز واللحم والجعة والخمور والمشروبات الروحية والبضائع الاجنبية والمصنوعات البذخية ، التي يدفعها الجميع دون أن يشعروا بها : وأوجد « دي لوناي » احتكارات رسمية . فكانت خزانة الحرب ملأى ابداً بالأموال .

اعتمد فردريك التساهل واستقبل اليسوعيين انفسهم لتولي أمر التعليم . نظم المدرسة الابتدائية والتعليم الثانوي العملي واكاديمية برلين .

تعاظم جيشه بالتجنيد ، الاجباري غالباً ، وقاده نبلاء يتخرجون من المدارس العسكرية ويتدربون في مناورات الربيع والخريف ، وزوّد بمدفعية كافية ، واحتمى بخطوط من التحصينات على غرار فرنسا .

أعد توحيد القوانين في الدولة البروسية ، ولكن مجموعة القوانين العامة لم تظهر إلا في عهد خلفه .

أما النتائج فتوجز برقم بليغ : في السنة ١٧٨٦ بلغ عدد سكان المملكة ستة ملايين نسمة . ولكن اللوحة لم تكن جمالا كلها . فقد حدث تقهقر اخلاقي . وقد قال العالم « جورج فورستر » عن البرليليين : « ان حب الالفة والذوق الرقيق في الملاذ يستحيلان عندهم شهوانية وفجوراً ، لا بل نهما ، اذا صح التعبير ، كما أن حرية الفكر ومحبة الانوار تستحيلان اباحية وقحة ... النساء عواهر بصورة عامة » . وكان هذا الرأي رأي العديد من المسافرين . كان بمكنة المال أن يصنع كل شيء . وقد حدد ميرابو بروسيا بقوله : « نتانة قبل بلوغ كمال النمو ».

بيد أن المملكة كلها خضعت للملك ودفعت له كل ما سمحت به طاقتها ، وكان الجيش أقوى جيوش اوروبا ، ولم يستطع رد فعل فردريك – غليوم الثاني ، المتطرف في التقوى ، زعزعة العمل المحقق زعزعة تذكر .

اوروبا الشمالية

الدانمارك

كانت الدانمارك مؤلفة من اجزاء متشتتة ايضاً : « جتلند » ، الجزر ، نروج ، و « اولدنبورغ » في الجنوب التي قبضت في السنة ١٧٦٧ بدوقيتي « شلسفيغ » و « هولشتاين » . مركز الدولة هو المضائق . المرافىء عديدة ومزدهرة ، والتجارة البحرية ناشطة . قامت في وجه النبلاء الريفيين بورجوازية تجارية توصلت الى تحقيق نفوذ كبير . وأدت علائق البلاد العديدة الى نشر الآراء الالمانية والانكليزية والفرنسية فيها .

كان الملوك فردريك الرابع (١٦٩٩ – ١٧٣٠) وكريستيان السادس (١٧٣٠ – ١٧٤٦) وفردريك الخامس (١٧٤٦ – ١٧٦٦) مع وزيره « برنستورف » منذ السنة ١٧٥١ ،

وكريستيان السابع (١٧٦٦ – ١٨٠٨) الذي احتفظ ببرنستورف وأخذ الطبيب «ستارونسي» مستبدين مستنيرين حقيقيين ، ولا سيما الأخيران منهم . لا شك في انهم نجحوا في أن ينتزعوا كل سلطة سياسية من الارستوقراطية باقامة طبقة في وجه أخرى . ولكنهم لم يتوفقوا الى الغاء الفدادية وإعلان حرية الفلاحين مع ابقائهم خاضعين للحقوق الاقطاعية ، إلا في السنة ١٧٨٧ وبعد محاولات فاشلة كثيرة. إلا أن بعض كبار الملاكين رفعوا عن كاهل فلاحيهم أعمال التسخير منذ السنة ١٧٥٠ وجعلوا منهم مزارعين . ونهج الملوك سياسة تجارية . انمت الحماية الصناعة ، وتأسست بعض الشركات ، كالشركة الآسيوية في السنة ١٧٣٢ ، وشركة الهند الغربية وغينيا في السنة ١٧٣٣ ، وفتح مصرف كوبنهاغن ابوابه في السنة ١٧٣٦ . وأحدث كريستيان السادس وفردريك الخامس مدارس واكاديميات ومؤسسات علمية . إلا أن النبلاء لم يفقدوا قوتهم . ففي السنة ١٧٧٢ قاموا بعمل مفاجىء وأكرهوا الملك على إدانة « ستارونسي » وتخريب الاصلاحات تخريباً مؤقتاً . فتجانبت بلادان مختلفتان ، وجه بحري ناشط بورجوازي ، وداخل ارستوقراطي ريفي ، ولم تبرز نتائج نمو البلاد الاولى في البلاد الثانية الا بكل بطء .

السويد

ان السويد التي جعلت في فترة من الزمن بحيرة سويدية من البلطيك ، والتي ما زالت لها ممتلكاتها الهامة من جهة البلطيك الاخرى قد عرفت تطوراً أوسع وأعمق بفعل التجارة البحرية الكبرى . وفرت مناجم الحديد الممتاز ، والغابات الكبرى ، وأراضي سكانيا الغنية بالقمح ، المواد اللازمة للتصدير . وقد استثمر هذه المناجم والغابات والاراضي النبلاء وطبقة من البورجوازيين الاثرياء ، فأدى ذلك الى تقريب المسافات بين هؤلاء وأولئك . وكان الفلاحون احراراً وميسورين .

الا ان النبلاء والبورجوازيين والاكليروس الملوثي المنتسب الى البورجوازية ، قد استاؤوا من تضخم النقد وتقهقر التجارة والاقتطاع من الثروات لتخفيف ديون الحرب ، فأرادوا تحديد السلطة الملكية التي باتت مطلقة في عهد شارل الثاني عشر . كان الفلاحون راضين عن السلطة المطلقة ، ولكن الحروب الطويلة وعمليات التجنيد المستمرة جعلت البلاد تقفر شيئاً فشيئاً من السكان وافتقرت الحقول الى من يعنى بها؛ وكانت هذه الطبقة مستضعفة، وما كان مستواها الثقافي المتدني ليسمح لها بلعب دور سياسي. استفادت الطبقات الثلاث الاخرى من تأرجح حق وراثة العرش . بعد وفاة شارل الثاني عشر في السنة ١٧١٨ التأمت الجمعية ، المؤلفة من ممثلي الطبقات الاربع ، وانتخبت ملكة على العرش شقيقة شارل الثانية ، « اولريك – اليونور » دون أن تقيم وزناً لحقوق ابناء شقيقته البكر ، ولكن الملكة اضطرت بالمقابلة الى القبول بدستور السنة ١٧١٩ . غدت السويد جمهورية وملكها رئيساً . قررت الجمعية القوانين بأكثرية ثلاث طبقات من اصل اربع ، وعينت لجنة سرية تضم ٥٠ نبيلاً : ٢٥ اكليريكياً و ٢٥ بورجوازياً ، وتمارس السلطة التنفيذية ؛ وتقدم المرشح لمجلس يعينه الملك يتولى السلطة التنفيذية بين دورة

واخرى ؛ وكان على الملك ان يرضخ للاكثرية وكان صوته بمثابة صوتين فحسب .

برهنت هذه الحكومة عن عجزها بسبب تصارع الاحزاب. فالنبلاء ، متوسطوهم وصغارهم، اضطروا ، بعد ان افقرتهم الحروب ، الى طلب الوظائف العامـــة التي ارتفع عددها في « عصر الحرية » ، لا سيما وان نبـلاء السويد بيروقراطيون . وفي سبيل الحصول على الوظائف والتدرج في سلمها استزلم النبلاء لبعض كبار الاسياد الذين يتنازعون النفوذ والسلطة . وكي يتمكن هؤلاء من نقـد زبنهم المتزايدين ، دخلوا في خدمـة الاجانب من روس وانكليز وفرنسيين . فتشيع حزب « القلانس » لانكلترا ، ثم لروسيا منـــذ السنة ١٧٦٣ . وتشيع حزب « القبعات » لفرنسا . وكان من ملاءمة هـــذا الوضع ان وقعت كاترين الثانية وفردريك الثاني ، في السنة ١٧٦٣ ، اتفاقا سريا للابقاء على الدستور السويدي الذي يلاشي السلطة الملكية ويخلد الفوضى ، وضمنا الدستور « للقلانس » .

بلغ الوضع درجة من الخطورة مكنت الملك غوسطاف الثالث ، عنـد توليه العرش في السنة ١٧٧٢ ، من القيـام بانقلاب ساندته الشعب والجنود وفرض دستور جديد . استعاد حق اختيار وزرائـــه ، واقصر مجلس الشيوخ على دور استشاري والمجلس على دور الاشتراك في اقرار الضرائب واعلان الحروب . تصرف غوسطاف الثالث ، الذي سلخ سنوات طويلة من حياته في فرنسا ، تصرف المستبد المستنير . الغى الاعذبة ، واطلق حرية المعتقد للمهاجرين الاجانب ، واعلن حرية تجارة الحبوب ، ووسع التعليم الابتدائي ، وشجع الكتاب والفنانين ، وأسس الاكاديمية السويدية ، وبنى اسطولاً حربياً ، ونظم الجيش تنظيماً جديداً . بات النفوذ الفرنسي مسيطراً . ولكن ثقل وطأة ضرائبه هيج الشعب ، كما هيجته الاحسانات الـــتي اغدقها على النبلاء دون ان يفوز بانضمامهم اليه . فالنبلاء ، الذين حركهم ذهب كاترين الثانية ، قد اوقفوا الجيش السويدي ، في ضراوة الحرب الروسية ، بثورة تستهدف استعادة دستور السنة ١٧١٩ . استنجد غوسطاف الثالث بوطنية الطبقات الاخرى الثلاث واستخدم القوة وبقي السيد المطاع. الا ان بعض النبلاء طعنوه بخنجر في السنة ١٧٩٢ خلال حفلة راقصة كان المدعوون اليهـــا متنكرين بملابس مستعارة .

أوروبا الشرقية

بولونيا

كانت بولونيا ، وهي جـزء من سهل واسع الاطراف ، لا حدود طبيعية له ، مشرع الابواب امـام الغزوات ، دولة مهددة بالزوال . فكانت بمثابـة خطأ تاريخي واستمراراً لعهود ولّـى زمانهـا ، ودولة تذكّـر ، بنواح كثيرة ، بفرنسا الكابيتيين الاولين ، لا تجمعها وحدة وطنية . من اصل ١١ مليوناً من السكان ، يؤلف البولونيون النصف ، والروس الثلث في المناطق الشرقية ؛ امـــا السدس الباقي فيتألف من ألمان وليتوانيين ويهود وأرمن . ولا تجمعها وحدة دينية ؛ فنصف السكان كاثوليك ، والثلث ارثوذكس ، والبـــاقي

بروتستانت ويهود. وهي بلاد تكاد تكون ريفية كلهـــا . فالمدن ، وهي صغيرة جداً (٦ الى ٧ ٪ من السكان) لا تضم سوى بعض التجار اليهود وعدد قليل من البورجوازيين . ٧٢ ٪ من السكان فلاحون فداديون تسيطر عليهم ٢٠ الى ٣٠ الف عائلة من صغار النبلاء الفقراء جداً في اغلب الاحيان والتابعين لحوالي عشرين عائلة من كبار الملاكين النبلاء .

تحكم الدولة جمعية مؤلفة من مجلس شيوخ يعينه الملك ، ومجلس قصّاد ينتخبه النبلاء . غدت المملكة انتخابية . لذلك لم يتمتع الملك بأية سلطة . ولم تتمتع الجمعيـة كذلك بأية سلطة ، لان الاجماع ضروري حتى تصبح قراراتها نافذة. تمتع كل نبيل بحق النقض الحر ، اي بحق الاعتراض بمفرده على تنفيذ قرار او قانون ، وهو اعظم حرية يمكن ان يحلم بها الانسان . ولكن هـــذه « الحرية المذهبة » وضعت البلاد في الفوضى وجعلت منها ألعوبة الأجنبي. حين يتعذر اتخـاذ أي قرار ، « تحطم » الجمعية او « تمزق » . يلتف كل حزب حول زعمائه من كبار النبـــلاء الملاكين ويؤلف «اتحاداً لا سلطة شرعية له». هي القوة وحدها ما يحسم الخلافات بين الاتحادات المتخاصمة ، وذلك بالاستنجاد بالاجنبي .

استفاد كبار النبلاء الملاكين من انحطاط الملكية لاثقال اعمال التسخير والموجبات الاقطاعية. ورغبة منهم في شراء المحاصيل بأسعار منخفضة ، افقروا المدن والبورجوازيين بفتح ابواب البلاد على مصراعيها أمام البضائع الاجنبية ، وبتحديد الاسعار .

قاوم النبلاء ، كبارهم وصغارهم، كل اصلاح. انتخبوا ملوكاً من بين الاجانب . الساكسونيان اوغست الثاني (١٦٩٧ – ١٧٣٣) واوغسـت الثالث (١٧٣٣ – ١٧٦٥) دحـــرا ستانسلاس لكزنسكي ، مرشح الحزب القومي ، وافقرا الملوك ، وخفضا الجيش الى ١٠٠٠٠ رجـــل ، وصغّرا خزائن الاسلحة ، ولاشيا المدفعية ، وفاوضا الدول الاجنبية ، ففاوض الـ « قيصر تورسكي » الروس ، والـ « بوتوكي » الفرنسيين والنمساويين . الأرثوذكس استدعـوا الروس ، والبروتستانت استدعوا البروسيين . اتفق الروس والبروسيون والنمساويون والفرنسيون على ابقاء الفوضى و « تمزيق » الجمعيات بمقتضى صوالحهم . وانتهى الامر بالروس اخيراً الى ابـداء رأيهم في كافة القضايا وممارسة شبه حماية .

الا ان الدروس الجديدة ، التي بثها اليسوعيون ، ايقظت بعض النبـلاء وبعض بورجوازيي المدن من سباتهم . في السنة ١٧٦٤ ، افلح الـ « قيصر تورسكي » ، بمسانـــدة جيش روسي ، في انجاح مرشح كاترين الثانية ، ستانسلاس بونيا توفسكي . ولكنها خدعة ، لان ستانسلاس كان وطنياً بولونياً ، والقيصر تورسكي الغوا حق « النقض الحر » وعينوا لجاناً تنفيذية لمعاونة الوزراء المعينين مدى الحياة . عند ذاك ، اي في السنة ١٧٦٧ ، تدخلت الجيوش الروسية بحجة حمـــاية الأرثوذكس . اعاد « ربنين » ، السفير الروسي ، حق « النقض الحر » ، تلك « الجوهرة » ، ووضع الدستور تحت الضمانة الروسية . عبثاً قاوم اتحاد « بار » طيلة اربـع سنوات . في السنة

١٧٧٢ اتفقت روسيا وبروسيا والنمسا على تقسيم بولونيا الاول، فاقتطعت كل منها اجزاء كبرى، واحتلت جيوش الدول الثلاث البلاد التي حكمها في الواقع السفير الروسي ، « ستاكلبرغ» .

حاول البولونيون حينذاك ان ينهضوا ويثبتوا وجودهم . اعادوا تأليف الجيش ونظموا ادارة الاموال تنظيماً جديداً ، واستبدلوا اعمال التسخير والاتاوات العينية بضرائب تخول حق الانتخاب وبأتاوات نقدية ، واقروا نظاماً تعليمياً قومياً . واراد عدد من المصلحين الوطنيين إلغاء حق « النقض الحر » ، والملكية الوراثية ، والبعض تحرير الفداديين ، والجميع جيشاً مؤلفاً من ٠٠٠ ١٠٠ رجل . كان هذا برنامج جمعية السنة ١٧٨٨ الكبرى . تحالفت مع بروسيا التي فازت بجلاء الروس عن بولونيا ، لا سيما وقد انشغلوا آنذاك بمحاربة الاتراك والسويديين . ولكن ما حصل لم يكن سوى استراحة .

تركيا

ضمت الامبراطورية العثمانية الواسعة الاطراف ، آنذاك ، افريقيا الشمالية وآسيا الصغرى، فلا يجوز من ثم اعتبارها دولة اوروبية الا لانها ضمت كذلك شبه جزيرة البلقان وشواطىء البحر الأسود الشمالية . كانت امبراطورية ثيوقراطية اسلامية ينحدر فيها السلطان من سلالة النبي [1] محمد ويجمع في شخصه كافة السلطات . ويفوض بسلطته العليا الى باشاوات في الولايات . يرئس هؤلاء ضباط اتراك يمتلكون اراضي واسعة تأميناً لمعيشتهم ومكافأة على الخدمات التي ادوها فيما مضى للجيش . فكان النظام نظاماً اقطاعياً لجيش يعسكر في المناطق الزراعية بصورة خاصة . ويأتي بعد الباشاوات والضباط المسلمون العرب او الاوروبيون الذين يزاولون الزراعة او التجارة . اما المسيحيون من فلاشيين وصرب وبلغاريين ، فقطيع يخضع للجزية ؛ وهم وحدهم من يدفع الضريبة مبدئياً .

في هذا النظام ، كان كل شيء متوقفاً على قيمة الرئيس . والحال كان السلاطين يعيشون مختلين في حرمهم ، جهلة ومتخنثين ، ومنقطعين الى المسكر والفجور . وكان رؤساء وزرائهم مدينين بمركزهم للدسائس فحسب ، ولا يلبثون ان يثوروا قبل ان يتمكنوا من انجاز عمل حاسم. اما جمعية الانكشارية الدينية العسكرية ، المغمورة بالاحسانات والمراتب السنية ، فلم تعد سوى مجموعة مناصب يتقاضى اصحابها الرواتب دون خدمة ، تشترى بالمال وتنتقل من الاب الى الابن ، ويدافع عنها بالثورة ضد كل اصلاح . لذلك كان الباشوات يستقلون ، ويلزمون الضرائب ويجمعون ثروات طائلة . وكان الضباط يتصرفون كذلك تصرف الاسياد المستقلين . وكان ملتزمو الضرائب والجنود يسلبون المسيحيين والمسلمين على السواء بعلم وموافقة الباشاوات . فكانت الجزيرة العربية وسوريا ومصر وتونس والجزائر والمغرب خارجة عملياً عن سلطة السلطان . ولم يحافظ السلاطين في اوروبا نفسها على سلطتهم الا باسلام البلاد لليونانيين الذين كانوا موجودين في كل مكان وقد اثروا بالتجارة والحرف وتمتعوا بالنفوذ الديني عن طريق

(١) كذا في النص . والحقيقة التاريخية هي انتقال الخلافة من العباسيين في مصر الى السلطان العثماني سليم الاول بعد فتحه للقاهرة ١٥١٧ .

المغرب

بطريرك القسطنطنية ، وحركتهم فكرة اعادة الامبراطورية البيزنطية . جعل السلطان منهم حكام الامارات فتصرفوا فيها تصرف المستبدين . وكان البطريرك يعين الكهنة اليونانيين في كل مكان . تفككت الامبراطورية العثمانية إذ باتت دون وحدة اقليمية ودون وحدة وطنية ودون ادارة منتظمة ، اي دون اي من مقومات الدولة ، فتعرضت لشتى الضربات .

روسيا

ما زالت روسيا ، في السنة ١٧٥١ ، مجتمعاً أشبه بمجتمعات القرون الوسطى . كانت متسمة بطوابع شرقية دانت بها لموقعها الجغرافي ، ولكنها كانت خاضعة لتنظيم وادارة حققها الغرب منذ قرون ، وتمر بمراحل سبق للدول الاخرى ان عرفتها . بلغ سكانها ١٣ مليون نسمة منهم ٩٠ ٪ من الفلاحين ، و٧ ٪ من النبلاء ، و ٣ ٪ من اهل المدن . ما زالت البلاد في مرحلة الاقتصاد العقاري « المقفل » . اجل هنالك فلاحون احرار كثيرون ، ولا سيما في الشمال حيث الاراضي اقل خصباً . ولكن العدد الاكبر فداديون في الاملاك السيدية . يتبع معظم الاسياد بين ١٠٠ و ٥٠٠ فدادي ؛ ويتبع بعض كبار الاسياد اكثر من ١٠٠٠ فدادي ؛ ويتبع بعض صغار النبلاء اقل من ١٠٠ فدادي . كل ملك سيدي ينتج كل ما هو ضروري للسيد والفداديين، بما في ذلك المصنوعات الكثيرة . المدن قرى كبيرة تبيع من الاملاك السيدية المصنوعات المعدنية والبذخية . التجارة الداخلية تمارس على نطاق ضيق في الاسواق الدورية بنوع خاص وتعيقها الجمارك الاقليمية . اما التجارة الخارجية ، المتوسطة الحجم ، فتجارة نقل بضائع بين اوروبا وآسيا ، تجارة تصدير الخامات ، القنب والكتان والحديد والخشب ، واستيراد المصنوعات ، الحرائر والاقمشة الهندية والاصواف ، وكلها في يد الاجانب على كل حال .

القيصر هو مالك روسيا السامي (المالك الرئيسي في الواقع) ، وصورة الاله الآب ، وخليفة الاباطرة البيزنطيين ، والقائد الاعلى في الحروب ، وحامي البلاد . وهو يتمتع بالاضافة الى هذه الالقاب بسلطة مطلقة ، انه حاكم مطلق . سعى القيصر بطرس الاكبر (١٦٨٢ — ١٧٢٥) ، الجبار العنيف ، وراء المجد عن طريق الفتوحات. اقتضى له من ثم جيش واسطول وموارد مالية وادارة. اصلح الدولة شيئاً فشيئاً بأن اقتبس عن الدول الغربية افكاراً وأنظمة طبقها على روسيا فأضفى بذلك ظاهراً عصرياً على وقائع اكثر قدماً . ولكن الحالة الاجتماعية فرضت عليه استخدام الارستوقراطية وارضاءها . افتتح قسمة السلطة والفوائد الاجتماعية هذه بين الملك المطلق والارستوقراطيين ، التي تميز روسيا خلال القرن الثامن عشر . النبلاء ملزمون جميعهم بالخدمة العامة الاجبارية في الادارة والجيش ، وكل أولئك الذين خدموا بطرس قد رقوا الى طبقة النبلاء واعتبروا كما لو كانوا نبلاء قدامى . في السنة ١٧٢٢ خص كل منهم بمرتبة وفاقاً لخدماتهم . وهكذا صهر بطرس في بوتقة واحدة طبقة النبلاء القديمة وطبقة النبلاء الجديدة . الرجال الثقة يختارون من بين النبلاء الذين يخدمون في الحرس الامبراطوري؛ هؤلاء هم «الأوفياء» ، « المتفانون » ، أدوات القيصر. منح القيصر هؤلاء النبلاء كل سلطة على الفلاحين . فأحراراً كان

هؤلاء أم فداديين، فهم لا يستطيعون الابتعاد عن النبيل بدون اذنه (١٧١٨) . وأسند القيصر الى النبلاء الادارة المحلية: النبيل يجمع الضريبة المفروضة على الفلاحين، والنبلاء المحليون ينتخبون مفوضي المناطق الاقليميين (١٧١٨) .

تمكن بطرس بفضل ذلك من تنظيم حكم مركزي ، على غرار الحكم السويدي ، مع مجلس شيوخ يضم ٩ اداريين اختصاصيين يصدر الاوامر في غياب القيصر؛ وهيئات من النبلاء المتوسطين المرتبطين بمجلس الشيوخ بمثابة وزراء ؛ و ٨ حكومات يرئس كلا منها حاكم خاص ؛ وقسمت الحكومات الى ولايات يقوم في كل منها مفوض اقليمي ، كما قسمت الولايات الى اقضية والاقضية الى نواح . وتمكن من اخضاع الكنيسة الارثوذكسية باستبدال البطريرك بسينودوس مقدس يراقبه وكيل عام ثقة ، ومن استيفاء بعض مداخيل الاديرة . كما تمكن من بناء اسطول وتنظيم جيش عصري دائم واقرار الضريبة الشخصية في السنة ١٧٢٠ على غرار ضريبة الاعناق الفرنسية، واعتماد الروح التجارية ، وتوزيع الاحتكارات والاعانات المالية وتسليف القروض دون فائدة وفرض أنظمة على الصناعة، وحماية الصناعة برسوم جمركية مرتفعة، وإيجاد صناعة معدنية لحاجات الحرب لا سيما في جبال الا « اورال » ، ورؤية ٩٨ مصنعاً تعمل بانتظام ، قبيل موته ، وتسمح لروسيا بتصدير الحديد الى انكلترا .

اصطدم عمله بمقاومة عنيفة : فقد بدت كل هذه الجدة متنافية والمعتقد الارثوذكسي وصادرة عن المسيح الدجال . ولكن عيب النظام انقذ عمله : فلم يكن هنالك حق وراثي . كان القيصر يعين خليفته (١٧٢٢) . أما في الواقع فالعرش لم يكن « لا وراثياً ولا انتخابياً ، بل تملكياً » . فهم جنود الحرس وضباطه من أجلسوا على العرش المدعي الذي يختارونه . بيد أنهم كانوا يلتسبون جلهم الى طبقة النبلاء الجديدة ، ويرتجون كل شيء من سلطة القيصر العليا ، ففرضوا من ثم احترام السلطة المطلقة على أنسال طبقة نبلاء « البويّار » القديمة الراغبين في الحد من السلطة الامبراطورية . وهذا ما فعلوه حيال كاترين الأولى (١٧٢٥ – ١٧٢٧) ، وبطرس الثاني (١٧٢٧ – ١٧٣٠) ، وانّا ايفانوفنا (١٧٣٠ – ١٧٤٠) ، وايفان السادس (١٧٤٠ – ١٧٤١)، واليزابيت بتروفنا (١٧٤١ – ١٧٦٢) ، وبطرس الثالث (١٧٦٢) ، وكاترين الثانية (١٧٦٢ – ١٧٩٦) الحادة المزاج على غير تسرّع ، الالمانية « الروسية اكثر من كل امبراطورة اخرى » ، الخليفة الحقيقية لبطرس الاكبر .

لم تخل روسيا من النفوذ الاجنبي ، النفوذ الجرماني في عهد آنا ايفانوفنا التي قربت إليها الالمان ، والنفوذ الفرنسي ، في عهد اليزابيت التي نسجت على منوال فرساي وارغمت بطانتها على التشبه بنبلاء الفرنسيين ، وفي عهد كاترين الثانية التي شغفت بقراءة فولتير ومونتسكيو وواضعي دائرة المعارف ، وراسلت السيدة « جوفرين » وفولتير وديدرو ، وأضافت هذا الاخير و« مرسييه دي لا ريفيير » و« فالكونيه » ، ونحلت مونتسكيو في تعليماتها الى جمعية

النواب في السنة ١٧٦٧ ، وان طبعت ما نقلته عنه بطابع روسي ، وتلقت من الفلاسفة ، دعاتها عن غير قصد ، السذج جداً عندما يقتضي ذلك صالحهم ، لقبي « سميراميس الشمال » و « مينرفا الروسية » . وإنما اذا برهنت اليزابيت المغناجة وكاترين الكاتبة عن ذوق حقيقي ، فان الرغبة في اللحاق بالدول المتقدمة الاخرى واثبات ما تستطيعه روسيا واحتلال المركز الاول بين الملوك الاوروبيين ، لم تكن غريبة عن تحقيق ما تحقق ، على ان سلوك هذه الطريق لم ينس قط الواقع الروسي . فالجميع واصلوا السير في الاتجاهات التي عينها بطرس الاكبر .

فضل النبلاء تفضيلاً مطرداً على حساب الفلاحين. في السنة ١٧٨٥ ، كان التطور قد اكتمل. ايد قانون النبلاء اعفاءهم من الخدمة الاجبارية ، والضريبة ؛ منحهم حرية التصرف بأملاكهم وأولاهم حق تأسيس المصانع والمشاغل ، والاتجار بالجملة بمحاصيل املاكهم الزراعية وتصدير كافة منتوجاتهم الى الخارج .

تسلموا من القياصرة والقيصرات ، مكافأة لهم على خدماتهم ، اراضي واسعة جداً امسى فلاحوها الاحرار عبيداً وفدادين تابعين لهم ؛ وكان امتلاك هؤلاء وقفاً عليهم ، باستثناء الفترة الفاصلة بين السنة ١٧٢١ والسنة ١٧٨٢ ، اذ استفاد من حق الامتلاك هذا التجار المتعاطون صناعة استخراج المعادن ، رغبة في تنشيط هذه الصناعة ؛ تولوا بأنفسهم تدوين اسمائهم في لوائح خاصة ، ولمجرد التسجيل في اللائحة قيمة شرعية ؛ يضاف إلى ذلك ان كل فلاح حر ملزم باختيار سيده . كان من حق النبلاء ابعاد فداديهم المذنبين الى سيبيريا . خفض معدل الضرائب التي يدفعها فداديوهم كي يتاح لهم زيادة اتاواتهم السيدية. ضوعفت ايام اعمال التسخير ، فأصبحت ستة عوضاً عن ثلاثة : ولم يبق للفلاح سوى يوم الاحد لحراثة حقله . حظر على الفداديين التزوج بدون اذن السيد . عائلاتهم عرضة ابداً للتشتيت ، الرجال يبعوا قطعاناً . فلا عجب من ثم إذا كانت ثوراتهم مستمرة وإذا ما انضم فداديو املاك الفولغا وفداديو المصانع وفلاحو الدولة المسجلون في المصانع ، باعداد كبرى ، الى قوزاق « بوغاتشيف » (١٧٧٣ — ١٧٧٤) .

توقفت عن تجار المدن ، وهم اقل ثروة منهم في الغرب ، مساعدات الحكومة المالية ، فصادفوا الصعوبات في تأمين اليد العاملة اللازمة . استحال عليهم مقاومة مزاحمة الملاكين العقاريين الذين اسسوا المعامل (٩٨٤ في السنة ١٧٦٢) واستحصلوا على احتكارات تجارية. سلفت النبلاء رؤوس الاموال مصارف تأسست لخدمتهم منذ السنة ١٧٥٤ . وكان من سرعة النجاحات المحرزة ان تمكنت كاترين ، بعد السنة ١٧٦٠ ، من اطلاق حرية المنافسة ، ومن إلغاء كافة القوانين الصناعية . كان هنالك ٣١٦١ معملاً في السنة ١٧٩٦ ، ولكن اعظمها اهمية عاد للنبلاء ، فتذمر التجار .

أدت جهود الدولة الى انماء منطقة صناعية عظيمة في الاورال (مناجم الحديد والنحاس ومصانع تنقيتها ومعالجتها) . منذ السنة ١٧٥٠ ، تخلت الدولة عن بعض مشاريعها ، ولا سيما للنبلاء . واسس بعض النبلاء والتجار المثرين ، في بشكيريا ، مشاريع خاصة رأسمالية ضخمة .

كانت المشاريع رابحة على الرغم من المسافات ومن تقنية متأخرة ، بفضل الفدادية وعمل فلاحي الدولة الالزامي . وفرت معامل الاورال مصنوعات نصف جاهزة لكافة انحاء روسيا واسهمت بنسبة الثلثين في صادرات الحديد الروسية الضخمة ، مستفيدة من الحروب الاوروبية والاشرية الانكليزية . استمر التقدم بعد السنة ١٧٦٢ ، ولكنه كان تقدما بطيئاً : فالسوق الداخلية قد سدت حاجتها ، والاسعار ارتفعت ، والاضطرابات الاجتماعية برزت هنا وهناك ، وثورة بوغاتشيف خلفت وراءها الخراب ، وانكلترا حسنت تقنيتها وتخلصت شيئاً فشيئاً من حاجتها الى الحديد السويدي والروسي .

على الرغم من تقدم هذه الصناعات المعدنية والحياكية في جوار سان – بطرسبورغ وفي منطقة موسكو ، ومن سدّها حاجة السوق الداخلية وتصديرها الاقمشة الى جانب الحديد ، بقيت روسيا ، في الدرجة الاولى ، مصدرة للخامات ومستوردة للمصنوعات . وقد اضافت كميات ضخمة من الحنطة الى صادراتها منذ فتوحاتها على حساب الاتراك .

اكمل العمل الاداري بارساخ المركزية وتقسيم العمل . اسندت السياسة الى مجلس وزراء . وبعد تجارب وترددات كثيرة اصبحت هذه المؤسسة نهائية في السنة ١٧٦٨ اذ استبدلت الهيئات بالوزارات . احتفظ مجلس الشيوخ بالادارة العليا . عُدّ من سلطة الحكومات وجمعت عدة حكومات في نيابة . تمتع النائب الامبراطوري بسلطة مطلقة ولم يخضع الا لمجلس الشيوخ الذي هو احد اعضائه . وأقر تقسيم العمل في الحكومات ايضاً : ففصل بين القضاء والمالية والادارة واسند كل منها الى مجالس وغرف . فكان الحكم في روسيا استبداداً تحقق بتضحية الطبقات الاخرى على مذبح الارستوقراطية .

بلغ عدد السكان ١٩ مليوناً في السنة ١٧٦٢ ، و ٢٩ مليوناً في السنة ١٧٩٦ ، فتجاوز سكان فرنسا ، للمرة الاولى ، في أواخر القرن . تعاظم نفوذ الامبراطور تعاظماً كبيراً ، وتمكنت كاترين الثانية من مواصلة عمل بطرس الاكبر ، والنهوض بحروب فتح مثمرة ، والدخول الى حرم السياسة الاوروبية الكبرى .

ويتضح من ثم ان هذه الدول الاوروبية كلها بلغت مراحل تطور اشدّ اختلافاً من ان يمكن قيام اتحاد فدرالي على قدم مساواة . وما كانت وحدة اوروبا لتصبح ممكنة الا على يد دولة تتلتصر على الدول الاخرى فتضمها اليها او تجعلها تابعة لها . ولكن عهد محاولات التنظيم الاوروبي هذه يبدو وكأنه عهد ولى الى غير رجعة .

الفصل الثالث

تنوّع أوروبا
المنافسات بين الدول

الوضع الدبلوماسي في السنة ١٧١٥

في السنة ١٧١٥ ، أي في اعقاب « حرب المائة سنة الثانية » بين الانكليز والفرنسيين ، التي دامت في الواقع منذ السنة ١٦٨٨ حتى السنة ١٧١٥ ، كانت انكلترا قد توفقت الى احراز النصر . خضعت السياسة الاوروبية لداعي المصلحة العليا الذي لا ينظر الى الاخلاق بل الى صالح الدول ، فاستندت الى التوازن الذي تحقق لمصلحة انكلترا في معاهدات أوترخت (١٧١٣) وراستات (١٧١٤). اقتضى التوازن الاوروبي ان لا تصبح اية دولة من القوة بحيث تهدد استقلال الدول الاخرى . وليس هذا المذهب بالمذهب الجديد. فقد قال به الفرنسيون والانكليز . وهو يفسر السياسة الانكليزية في البر الاوروبي منذ نهاية حرب المائة سنة ، والصراع الطويل بين العائلة المالكة الفرنسية والعائلة المالكة النمساوية منذ السنة ١٥١٥ . حوالي السنة ١٦٨٨ طرأ عليه بعض التبديل . فقد برزت إذ ذاك نجاحات الرأسمالية التجارية . وباتت التجارة البحرية الكبرى ، التي توفر الوسائل المالية ، مرتكز القوة قبل الارض والسكان ، حين لم يكن نظام المجتمعات ليتيح لاية دولة تعبئة كافة مواردها وكافة رعاياها . كانت الدول قد تحاربت من اجل طرق التجارة ، والمستعمرات ، والعلائق بالامبراطوريات المستقلة الكبرى في ما وراء البحار . بات السعي وراء التوازن الاوروبي محاولة تستهدف منع أية دولة من ان تضمن لنفسها ، بانتصارها في اوروبا ، المستعمرات الهامة والنقاط الستراتيجية الرئيسية . دخلت فرنسا والنمسا في نزاع رهيب كان آخر احداثه حرب وراثة عرش اسبانيا ، ولكن انكلترا هي من وجهت هذا النزاع وافادت منه . حاربت لويس الرابع عشر باسم حرية الشعوب وسيادتها ، وحين بدا لها ان لويس الرابع عشر قد زال خطره ، تخلت عن حلفائها وارغمتهم على المفاوضة . وفي السنة ١٧١٣ ابقت على التوازن في البر الاوروبي وضمنت لنفسها من ثم الهيمنة البحرية والتجارية ، أي التفوق الشامل .

قسمت المعاهدات البر الاوروبي دولاً تتوازن توازناً كافياً لمنع تفوق احداها على الدول الاخرى ، ولارغامها جميعاً ، في حساب الانكليز ، على طلب تحكيم انكلترا . فان فرنسا التي

حصرت داخل الحدود التي عينتها لها معاهدة « ريسويك » ، قد فقدت الامل في أن تضم إليها اسبانيا في يوم من الايام ، إذ أن ملك اسبانيا ، فيليب الخامس ، حفيد لويس الرابع عشر ، قد تخلى نهائياً عن تاج فرنسا . وفقدت فرنسا بالفعل نفسه الامل في أن تتمكن يوماً من ان تستثمر بحريّة الامبراطورية الاستعمارية الاسبانية الواسعة الاطراف التي كانت تجارتها ، شأن كافة الامبراطوريات التجارية حينذاك ، وقفاً على الدولة المستعمرة . ولكن فرنسا قد فقدت في الحال ايضاً الشركة الفرنسية الاسبانية التي اسسها لويس الرابع عشر في قادس بموافقة فيليب الخامس ، للتجارة مع الامبراطورية الاسبانية واستيراد اليد العاملة السوداء .

تقسمت وراثة عرش اسبانيا بين فيليب الخامس الذي احتفظ باسبانيا والامبراطورية الاستعمارية ، وبين شارل السادس امبراطور النمسا الذي تسلم المناطق المنخفضة (بلجيكا الحالية تقريباً) ، بالاضافة الى منطقة ميلانو ، والمواقع التوسكانية المحصنة ، ونابولي ، وسردينيا ، في ايطاليا . وهكذا تجزأت امبراطورية شارل الخامس نهائياً ، وتقسم شاطىء البحر الشمالي ، على بعض المسافة من « با دي كاليه » ، بين عاهلين عدوين ، لويس الرابع عشر وشارل السادس ، كما تقسمت مسالك البحر المتوسط بين خصمين ، شارل السادس وفيليب الخامس .

ورغبة في تأخير تحرك الجيوش في حال نشوب نزاع بين آل بوربون وآل هبسبورغ ، وفي افساح المجال لتدخل الانكليز ، اقامت المعاهدات بينهم « حواجز » أي خطوطاً من المدن المحصنة اسند الدفاع عنها الى حاميات من دولة ثالثة ، ودولاً قطائل تفصل بينهم : حاجز الفلاندر في المناطق المنخفضة الذي يحتله الهولنديون ، حاجز نوشاتيل وفالنجين الذي يحتله البروسيون ، وقطائل مملكة سافوا وبييمون وساردينيا ، والبالاتينا (التابعة لدوق بافاريا) ، ومنتخبية كولونيا . وكانت الدول القطائل والدول الموالجة بحماية الحواجز اضعف من أن لا يحتاج الى عضد الانكليز ، لا بل من ان لا يحتاج معظمها الى مساعداتهم المالية . فتوفرت لانكلترا من ثم وسيلة للتدخل الدائم باسم حماية الضعفاء .

وضمن الانكليز لانفسهم رقابة الطرق البحرية الرئيسية والتفوق التجاري . راقبوا في المتوسط منفذ جبل طارق باحتلالهم جبل طارق ، ومسلك صقلية باحتلالهم مينورك وتباين صوالح العائلة المالكة في سافوا والعائلة المالكة في النمسا . وحصلت شركتهم التركية ، في ايطاليا وموانىء الشرق الادنى ، على فوائد حرم منها الفرنسيون . وفي البلطيك هزمت السويد شر هزيمة أمام تحالف الروس والبروسيين والدانماركيين ، وتعرضت البحيرة السويدية لان تغدو بحيرة روسية ، وهدد الروس المضائق الدانمركية . ولكن ملك انكلترا هو منتخب هانوفر ايضاً ، وهانوفر تعمل لحساب انكلترا وحسابها على الشواء . قاوم بطرس الاكبر ، وارسل جيوشاً الى الدانمارك المحاربة ضد السويد وحملها على المطالبة بانسحاب الجيوش الروسية الحليفة الخطرة من كوبنهاغن ، وساند الدانماركيين في هولستين على الدوق « دي غوتورب » خطيب ابنة القيصر ، ونبلاء مكلمبورغ على دوقهم ، ابن شقيق القيصر ، وفاوض فردريك غليوم ملك

بروسيا وأبعده عن التحالف الروسي ، وأعفى البضائع الانكليزية من الرسوم الجمركية ، واستحصل من الدانمارك على تخفيض الرسوم المستوفاة من السفن الانكليزية التي تجتاز مضيق الـ « سوند » . فحقق الانكليز التفوق التجاري في البطليك .

وحققوا الغلبة في الأوقيانوسات . منذ السنة ١٧٠٣ ، الغت معاهدة « ميتوين » المعقودة مع البرتغال ، مقابل تخفيض الرسوم الجمركية على الخمور البرتغالية على حساب الخمور الفرنسية ، الرسوم المفروضة على الاصواف الانكليزية وأعطت الانكليز حقاً مانعاً في تعاطي التجارة في البرازيل . فغدت لشبونة عملياً مستودعاً ، وميناء تموين ، وقاعدة عمليات للانكليز .

اضطر الفرنسيون لأن يتخلوا لهم ، في اميركا ، عن خليج هودسون ، وبالتالي عن تفوقهم في تجارة الفراء ، وعن اكاديا والأرض الجديدة ومياهها الغنية بالأسماك ، وفي جزر الانتيل ، عن سان كريستوف وانتاجها من السكر .

لا بل اسدف الانكليز ابواب الامبراطورية الاسبانية نفسها . في اسبانيا خفضت الرسوم الجمركية على منسوجاتهم الصوفية ، وأتاح لهم شرط الدولة المفضلة المطالبة بكل فائدة جمركية يعطيها ملك اسبانيا البوربوني نسيبه ملك فرنسا . وفي الامبراطورية الاسبانية استحصل الانكليز على احتكار استيراد العبيد السود اللازمين للمغارس والمناجم وحق ارسال سفينة محملة بالمصنوعات مرة في السنة ، الى بعض المرافىء الاسبانية في اميركا الجنوبية .

وقد بلغ من مهارة صيغة هذه المعاهدات لضمان تفوق الانكليز الاقتصادي والسياسي ، ان استوحت انكلترا مبادئها في السنة ١٨١٥ والسنة ١٩١٩ . ولكنها لم تضمن السلم . فقد ارتكزت الى الحسد والارتياب المتبادلين بين حكومات يراقب بعضها البعض ، مستعدة ابداً لامتشاق السلاح . كانت هذه المبادىء تطبيقاً لمبدأ « فرق تسد » ، فلم ترض احداً .

لم ترض الانكليز انفسهم . فقد أخذ تجارهم على الحكومة ، ببعض المرارة ، انها لم تذل فرنسا ، العدو الدائم ، اذلالاً تاماً ، ولم تستول على كافة ممتلكاتها في اميركا ، وفي الانتيل بنوع خاص ، ولم تفتح ابواب الامبراطورية الاسبانية على مصراعيها أمام تجارتهم . وهي هذه الاهداف التي اقتربوا منها تدريجياً في السنوات ١٧٦٣ ، و ١٨١٥ ، و ١٨٢٤ . وخشي جورج الاول ابداً أن يساند ملوك اوروبا آل ستوارت المخلوعين من العرش عليه .

لم يعترف فيليب الخامس ملك اسبانيا ، في قرارة نفسه ، بصحة التوقيع الذي ذيل به ، مكرها ، تنازله عن عرش فرنسا . ولم يرض كذلك بضياع الاقاليم الايطالية ، والتخلي عن السيطرة الاسبانية على حوض البحر المتوسط الغربي ، وقد حملته على وقوف هذا الموقف زوجته الثانية ، « اليزابت فارنيز » ، التي كانت تريد امارات لابنائها في ايطاليا ، والتي عينت ، في رئاسة مجلس الوزراء ، « البروني » ، الايطالي المحب وطنه ، الراغب رغبة صادقة في طرد النمساويين وتحقيق الوحدة الايطالية .

ولم يقتنع شارل السادس اقتناعاً تاماً بالتنازل عن عرش اسبانيا . فقد كان راغباً ، للتعويض عن هذه الخسارة ، في الحصول على اراض واسعة حول حوض المتوسط الغربي على الأقل : أي على صقلية ، ودوقية مانتو ، بالأضافة الى اراضيه ، والحماية على كاتالونيا الاسبانية بعد تقسيمها . كما كان راغباً في احياء القوة النمساوية بتنمية صناعتها ، وبفتح منفذ لها الى البحر ، وانهاض تريستا والموانىء الايطالية ، وتأسيس شركات تجارية . أقلق بذلك هولندا وانكلترا ، كما أقلقها بمشاريع توسعية في البلقان ، على حساب الامبراطورية التركية ، وفي الامبراطورية على حساب بافاريا والدول الجنوبية التي كان آخذاً في استعادة نفوذه عليها . فجاء اندفاعه في هذه الاتجاهات الثلاثة تهديداً للتوازن الاوروبي .

كان ممكناً جداً لروسيا التي اندفعت ، مع بطرس الاكبر ، نحو كافة طرقات التجارة ، في اوروبا كما في آسيا ، ان تصطدم بالنمساويين ، بصدد الامبراطورية التركية والبلقان ، وبالانكليز والسويديين والدانماركيين والهانوفريين والبروسيين بصدد البلطيك والمضائق الدانماركية .

قام الانقسام من ثم بين الدول الكبرى الهامة ، وهو هذا الانقسام ما كرس قوة الانكليز . كان لهؤلاء اسطول قوي ، ولكن جيشهم البري افتقر الى القوة اللازمة ، بسبب موقفهم الحذر من الملك . اعتمدوا اضعاف السلطة التنفيذية ما استطاعوا الى ذلك سبيلاً ، وهي سياسة ممكنة في جزيرة تحيط بها بحار كأداء تسمح برؤية من يقصدها ويقترب منها . ولكنهم كانوا بأمس الحاجة ، في البر الاوروبي ، الى الجيوش التي افتقروا اليها (كان جيش هانوفر صغيراً جداً) ، والى حلفاء يهتدون اليهم بتقسيم الاوروبيين . الى هذا ترد السياسة الفرنسية التي أوصى بها لويس الرابع عشر سفراءه بين السنة ١٧١٣ والسنة ١٧١٥ : ازالة حذر الدول الاوروبية من فرنسا ؛ اقناعها بأن فرنسا لا تهدف الى اية هيمنة ، وكانت هذه المهمة ضرورية جداً اذ ان السياسيين كانوا يخشون من اجتياح الجيوش الفرنسية لاوروبا ويعتبرون ان ايقاف الفتوحات عند الرين مخطط املته الحكمة على ملك فرنسا ؛ لعب دور المستشار والوسيط ؛ اقناع كافة الحكومات بأن الانقسام فيما بينها وخوفها من فرنسا يجعلان منها ضحايا الانكليز ؛ حملها على القبول بتنازلات متبادلة واتفاقات تعقد بحرّية ؛ ومن ثم اصلاح ذات البين بين دول اوروبا الكبرى وحرمان الانكليز من كل سانحة للتدخل وإثارة الخلافات بين الدول البرية ؛ وبذلك تحقيق توازن حقيقي وحرية حقيقية .

مميزات السياسة الخارجية في القرن الثامن عشر

الا ان خلفاء الملك العظيم لم يقدروا هذه السياسة حق قدرها . فكان القرن الثامن عشر عهد اضطرابات ونزاعات ، اقصر امداً واقل خطورة منها في العهد السابق ، وانما اكثر وقوعاً .

ارتدى الصراع بين الدول طابع « السياسة العائلية » . فهي العائلات في الواقع من كونت الدول وأوجدت سياسات الامم الراهنة . الامم والدول تتجسد في شخص الملك . وافضت

الاعراف الاقطاعية، واواصر النسب ، والمصاهرات ، والوراثات ، الى ايـــلاء عائلات الملوك حقوقاً على اراض لا حصر لهـــا . هذه الحقوق ممتنعة الابطال والتنازلات عنها باطلة . والملك الذي يرغب في التوسع ، لمصلحته او مصلحة رعاياه ، او في الحؤول دون توسع ملك آخر ، لا يعدم وسيلة في اثبات حقـــه على الارض المطموع بها او المتنازع عليها . وغالباً ما تتخذ الصراعات بين الدول شكل نزاعات على وراثة عرش . .

النزاعات تستوحي المصلحة العليـا او مذهب « السلامة العامة » : العواطف والتفضيلات والصداقات والاحقاد ، يجب ان تنحني كلها امـــام مصلحة الدولة العليا القاضية بالتوسع والاستيلاء على اقاليم غنية بالسكان والموارد ، والحؤول دون توسع الآخرين الذي يشكل تهديداً لازدهارها ووجودها . الاخلاق هي مصلحة الدولة . روح السياسة موضوعية كلها . السياسة علم مستخلص من احداث التاريخ ، عبوس وقاس ، وقاطع كالاداة الفولاذية .

الصراع مستمر . يتخذ الشكل الدبلوماسي اولاً . الدبلوماسيون فئة من الرجال الطيبين المهرة ، ولكنهم قادرون على كل شيء . يتميزون بسهر دائم ؛ كل شيء قـــد ينقلب خطراً ، وكل فرصة يجب ان تنتهز ؛ المصادفة لا تضر الا بالضعفاء ولا تفيـد سوى الاقوياء : على الدولة ان تكون في حالة تأهب دائم ، على غرار ابن المجتمع الذين يعيش بين المسايفين وذوي الاخلاق الشرسة . هذه هي حـال دول اوروبا اليوم اكثر من اي يوم مضى اذ ان المفاوضات ليست سوى مشادة دائمة بين أناس لا أخلاق لهم ، مجترئين في الاخذ وطماعين ابداً (المركيز دارجنسون) .

المكر عادة متعارفة والطرائق معوجة . يحاول الدبلوماسيون إفساد حكم الخصم بايقاظ اهوائه ، اهواء الجسد او هوى المال . اعطاء الملك خليلة واعطاء الامبراطورة او الملكة عشيقا عادتان رائجتان . فان سفير فرنسا ، لاشيتاردي ، قد اصبح ، لصالح الخدمة ، عشيقا للقيصرة اليزابت ؛ وقد أوفدت الحكومة الفرنسية البارون « دي بروتوي » مكلفة اياه مهمـة اشباع شهوات امبراطورة المستقبل كاترين الثانية . وطلبت ماري – تيريز من ابلتهـــا ماري انطوانيت ، زوجة ولي عهد فرنسا البالغة من العمر ١٧ سنة ملاطفة السيدة « دي باري » حتى تحمل هـــذه الاخيرة لويس الخامس عشر على الاعتراف بتقسيم بولونيا . وقبض الوزير الفرنسي « ديبوا » ٦٠٠ ٠٠٠ جنيه سترليني من الحكومة الانكليزية. وعينت فرنسا راتباً شهرياً للوزير النمساوي « توغوت » منـــذ السنة ١٧٦٨ . وكانت مجامع السويد وبولونيا والامبراطورية المقدسة تبيع انفسها ممن يدفع لهـــا افضل سعر . في السنة ١٧٦٣ كلف مجمع السويد فرنسا ١ ٤٠٠ ٠٠٠ جنيه سترليني، وفي السنة ١٧٦٦ ، كلفها مجمع بولونيا ١ ٨٣٠ ٠٠٠ جنيه سترليني.

الدبلوماسيون يمسكون بالرسائل . يبتاعونها من البُرد . يختار برد ثقات : فيخطفون وتنتزع الرسائل منهم ثم يفتك بهم قطاعو طرق مصنّعون . الرسائل تكتب بأرقام اصطلاحية

ولكن هنالك اختصاصيين يفكون رموزها. توصل بلاط فيينّا الى فك رموز السفارة الفرنسية ورموز رسائل لويس الخامس عشر السرية . وكان فردريك الثاني فخوراً جداً بأرقامه الاصطلاحية : ولكن عملاء لويس الخامس عشر في باريس كشفوا سرّها .

التدخل بالدسيسة والمال في سياسة الجار الداخلية عادة متعارفة ايضاً . وقد توفرت في الدول الجمهورية النزعات ، كالسويد وبولونيا ، فوائد خاصة بفعل نشاط الاحزاب . امد الملوك بالمال ، في الدولة المجاورة ، احزاب الحرية التي تضعف الدولة . حرضت الدول جماعات العصاة واثارت الحروب الاهلية وحمت الثائرين . كانت السويد وبولونيا والامبراطورية المقدسة والمستعمرات الانكليزية في اميركا ، قبل فرنسا ، مناطق مباركة لمثل هذه المناورات . كان الملوك المخلوعون من العرش ، والتائهون ، والمعدمون ، اكثر من ان يحصوا . فاوض الملوك الآخرون مغتصبيهم وجلاديهم . المصالح تتقدم تضامن الملوك ، ويزول احترام الملوك .

المعاهدات تنقض وفاقاً لمصلحة الدول . « في السياسة والمصالح ، لاشأن للاعتراف والمعاهدات ؛ هي القوة او المصلحة ما يعمل المعاهدات ؛ وهي القوة او المصلحة ما يلاشيها » . ويضيف الالماني في كتابه (النظم السياسية : « في السياسة يجب نقض الآراء النظرية التي يكونها عامة الشعب حول العدالة والانصاف والاعتدال وسلامة النية والفضائل الأخرى المعزوة للامم الأخرى ولقادتها . كل شيء يؤول في النهاية الى القوة » .

ان اخلاق الذئاب هذه تقود الى الحرب بمعناها الحصري ، الحرب بالاسلحة . كل حرب تعتبر عادلة منذ ان تجعلها مصلحة الدولة العليا ضرورية . ولا عجب من ثم ان تلجأ الدول الى الحرب الوقائية. فالانكليز الذين حكمّت سيادة البحار في صدرهم قبل اي شيء آخر ، اعطوا المثل على ذلك بهجمات ، دون اعلان حرب ، على سفن الاعداء ؛ وبالاستيلاء على السفن التجارية وملاحيها ، دون سابق انذار ، في ايام السلم . وقام البروسيون في البر بخير الهجمات المفاجئة لاتقاء ضربات محتملة يكيلها لهم اعداء محتملون ، كان اشهرها هجوم السنة ١٧٥٦ الذي ضرب به المثل وبات اجتهاداً قانونياً .

في الحملات العسكرية تسود المجاملة القصوى العلائق بين اركان الجيوش المؤلفة من الاشراف ، ولكن الحرب فظيعة وقاسية . تعيش الجيوش في البلاد وتسحق المقاومات بالارهاب . تصادر كل شيء ، حتى ما غلا ثمنه في الكنائس ، لتغذية خزانة الحرب . تفرض الرسوم على السكان وتدمر مساكن من لا يدفعون المفروض عليهم ، وتحرق المدن والقرى التي ترفض الضرائب المضروبة عليها . يرافق الجيوش حشد طفيلي من التجار والبغايا الذين يشتركون مع الجنود في السلب والاغتصاب واشعال النيران . النساء والاطفال يقتلون اذا ما قاوموا اجتياح منازلهم . وقد دون الكونت (دي سان — جرمان) عند وصوله الى المانيا هذه الملاحظة : « البلاد يعمها الخراب والدمار في دائرة يبلغ شعاعها ٣٠ فرسخاً ، كما لو ان النار قد اجتاحتها » .

السكان المشتبه بهم يطردون ، وسكان القرى التي اطلقت منها النيران على الجيوش يشنقون . الرهائن تكون مسؤولة عن وفاء الحاميات . في السنة ١٧٤٤ ، انذر النمساويون سكان اللورين بالتسليم : المقاومون سوف يشنقون « بعد إكراههم على قطع انوفهم وآذانهم بايديهم ». ودرج فردريك الثاني على تقتيل الاسرى أو تجنيدهم بالقوة . في السنة ١٧٥٧ ، كان الروس في «ميمل»: لم يشاهد الناس ما شاهدوا منذ غزوة الهون؛ السكان يشنقون بعد قطع انوفهم وآذانهم، وتنتزع سيقانهم ، وتبقر بطونهم وتشق قلوبهم » . في السنة ١٧٨٨ ، وبعد الاستيلاء على « اوتشاكوف » « بلغ من ضراوة الجنود الروس ، بعد انقضاء يومين على هجومهم ، انهم اذا ما وجدوا اطفالا أتراكا مختبئين في مكان مظلم ما . . . اخذوهم وقذفوا بهم في الهواء وتلقوهم على رؤوس حرابهم» .

تلتهي الحرب بمعاهدات يقرر فيها انتقال الممالك والامارات والدوقيات من سلالة الى اخرى دون استطلاع رأي السكان ودون اكتراث بما يكون رأيهم في هذا الانتقال . هذا ما يعرف بـ « تقايض البشر » . ويجب القول من جهة ثانية ان المشاعر القومية ، في معظم الحالات ، كانت اضعف منها في ايامنا . وكان السكان ، في عهد اسيادهم الجدد ، يحتفظون بعاداتهم وامتيازاتهم وبعض حرياتهم . ولكن هذا لا يصح في كافة الحالات . ففي السنة ١٧٧٢ صادر فردريك الثاني من الاقاليم البولونية التي استولى عليها قطعاناً من البولونيات بغية اعمار بومرانيا المفتقرة الى النساء . اما البولونيون فقد منعوا الهجرة في قطاعهم وبلصوا السكان دون رحمة .

« القوة هي القانون الاعلى » .

القبول بمعاهدات اوترخت وراستات (١٧١٥ - ١٧٣١)

في السنة ١٧١٥ ، لم ينتهز الوصي ، الدوق « دورليان » ، الظروف المؤاتية لمواصلة السياسة التي عينها لويس الرابع عشر . جعلته اطماعه الشخصية يهمل مصالح المملكة ، بدافع من مربيه القديم « ديبوا » الذي عينه وزيراً . كان لويس الخامس عشر ضعيف البنية . إذا توفاه الله ، فان عمه فيليب الخامس سيطالب بالتاج على الرغم من تنازله ، كما سيطالب به الدوق دورليان ايضاً . اراد الوصي ان يضمن لنفسه مساندة الرأي العام الفرنسي على فيليب الخامس . والحال كان الرأي العام الفرنسي معاديا جداً للنمسا وعاجزا عن ادراك مقاصد لويس الرابع عشر التي لم يكن بالامكان التداول بها علناً . قبل الوصي من ثم بالعون الذي عرضه عليه الانكليز في حال نشوب نزاع بينه وبين فيليب الخامس . وبالمقابلة تحالف معهم ؛ وساند جهودهم التقسيمية ؛ ووفر لهم ذاك الجيش البري الذي كانوا مفتقرين اليه . وحين حدثت ازمة « لو » المالية في فرنسا برهن خليفتا « ديبوا » ، « بوربون » و « فلوري » ، عن عجزهما الطويل الامد عن انتهاج سياسة مستقلة . وقد ساعدت الدبلوماسية والجيوش الفرنسية الدبلوماسيين والبحارة الانكليز ، خلال سلسلة من الازمات والحروب حتى السنة ١٧٣١ ، على الابقاء على معاهدتي اوترخت . لم تتقدم اية دولة تقدماً يمكنها من تهديد الهيمنة الانكليزية ،

فبقي البر الاوروبي في حالة انقسام مرضية .

في الشمال قسم إرث السويد ، حليفة فرنسا القديمة ، بين دول كانت ثلاث منها صديقات لبريطانيا . بموجب معاهدتي ستوكهولم (١٧١٩-١٧٢١) تخلت السويد عن «برمن» « وفردن » لهانوفر التي غدت قوّة بحرية ، وعن ستتين وبومرانيا الامامية لبروسيا ، وعن نصيبها من رسوم المرور في السوند وعن شلسفيغ للدانمارك ، بينما تخلت الدانمارك عن ستراسوند و « روغن » و « ويسمار » . فكان ذلك نهاية « البحيرة السويدية » واقامة حدود اكثر اتفاقاً والجغرافية، والمحطاطاً نهائياً للسويد الآخذة بالانظمة الجمهورية. اما روسيا عدوة انكلترا ، فقد استحصلت من السويد ، في معاهدة « نيستات » (١٧٢١)، على ليفونيا ، واستونيا ، وانغريا ، وجزء من كاريليا ، ومقاطعة من فنلندا مع « فيبورغ» . فاستحصلت بذلك على اراض واسعة على ساحل البلطيك ، المحور التجاري الهام ، واصبحت دولة بحرية بعض الشيء . ولكن عداء الدول السابقة ، التي كان يساندها الانكليز ، قد حرمها امكانية الاندفاع نحو المضائق الدانماركية والبحر الطليق ، فاضطرت لان تصرف النظر عن ذلك تدريجياً .

في الجنوب استحصل شارل السادس على صقلية مقابل تنازله عن سردينيا ، وانتزع من الاتراك سهول «تمسفار » وجزءاً من فالاشيا، وبوسنيا ، وصربيا مع بلغراد(معاهدة باساروفيتز ١٧١٨) ، والاعتراف بوثيقة وراثة العرش التي ترسخ وحدة دوله . ولكنه انتهى الى التنازل نهائياً عن اسبانيا والهند ، وحل شركة اوستند التي كانت تشكل تهديداً للتجارة البريطانية والتجارة الهولندية ، والاعتراف بمدعيات آل فارنيز في ايطاليا التي منعته من أن يجعل من ممتلكاته الايطالية كلا ذا توسع اقتصادي غير محدود (معاهدة فيينا الثانية ١٧٣١). أما فيليب الخامس ، الذي اضطر الى إقصاء « البروني » منذ السنة ١٧١٩ ، فقد انتهى الى التنازل جدياً عن عرش فرنسا وعن الأقاليم التي استولى عليها شارل السادس ، والتسليم للانكليز بجبل طارق والامتيازات التجارية التي مُنحوها في اوترخت مقابل تخصيص « دون كارلوس » ، الابن البكر لزوجته الثانية ، بدوقية « بارم » .

نهوض فرنسا ١٧٣١ - ١٧٤٠

ولكن الانكليز فقدوا بعد السنة ١٧٣١ مركزهم الأول في اوروبا . اطمأنوا الى قوتهم وانشغلوا بمنازعاتهم الداخلية ضد « والبول » ، فلم يبالوا بالبر الاوروبي في الوقت الذي حرر فيه تقويمُ الوضع المالي الكردينال « فلوري » من سياسة لم تخف عليه مساوئها .

حاول فلوري سلوك الطريق التي عينها لويس الرابع عشر . اعترض سبيله حزب «شوفلين » أمين سر الدولة للشؤون الخارجية الذي كان يقول بسياسة العداء التقليدية للنمسا ، التي لم يعد لها ما يبررها آنذاك ، بعد أن زال خطر آل هبسبورغ عن فرنسا ، والتي باتت سياسة مضرة اذ ان انقسامات البر الاوروبي توفر للانكليز الحلفاء وظروف التدخل . بيد ان الغلبة كانت

لانصار السياسة التقليدية عند انفجار أزمة وراثة عرش بولونيا . في السنة ١٧٣٣ توفي اوغست الثاني ، وكان التاج انتخابياً . تقدم مرشحـــان ، منتخب ساكس « اوغست الثالث » ، ابن شقيق الامبراطور وحميه ، وستانسلاس لكزنسكي حمي لويس الخامس عشر وملك بولونيـــا السابق المخلوع من العرش . انتخب ستانسلاس في ايلول بفضل المال الفرنسي . ولكنه كان رئيساً للحزب الوطني الراغب في اصلاح بولونيا وجعلهـا دولة . لم تقبل به روسيا والنمسا بأي ثمن . دخلت الجيوش النمساوية الروسية بولونيا وطردت ستانسلاس وحملت الناخبين على انتخاب اوغست الثالث .

كان ذلك إهانة للويس الخامس عشر . ومن جهة ثانية كان الناس في فرساي راغبـين في أن تكون ملكة فرنسا ابنة ملك . اضف الى ذلك أن الواجب كان يقضي بمحاولة انهاض بولونيا التي كانت تؤلف مع السويد وتركيا كتلة الدول الشرقية التي تضرب دول الوسط من الوراء ، لا سيما وأن الحكومة الفرنسية قد رفضت التحالف مع روسيا . اقنع شوفلين الملـك بضرورة اعلان الحرب ، ولم يجرؤ فلوري على الاعتراض . ولكنه خاض حرباً قصيرة الأمد .

لم يغز المناطق المنخفضة النمساوية حتى لا يقلق الانكليز والهولنديين . لم يرض هؤلاء يومـاً بـأن يروا فرنسا ، المنافسة البحرية ، تتوسع على شواطىء بحـر الشمال وتستقر خصوصـاً في « انفرس » التي قد تتخلص ، اذا ما آلت الى ايدي دولة كبرى ، من عبوديات معاهـــدة وستفاليا وتصبح مستودع تجارة اوروبا الوسطى وشمالي فرنسا ومزاحمة لندن وامستردام . وكان وجود الفرنسيين في بلجيكا يعني قيـام الحرب بينهم وبين الانـكليز . اكتفى فلوري بضرب النمساويين في ممتلكاتهم الايطالية . تحالف مع دوق سافوا ، ملك سردينيا ، الذي تخلى لفرنسا عن « سافوا » ، الفرنسية اللسان والعادات ، التي يفصلها حاجز الالب عن البييمون ، مقابـل حصوله على منطقة ميلانو (وهي سياسة سيعتمدها كافور ونابليون الثالث) . اما الحليف الآخر فكان ملك اسبانيا الذي كان يريد لابنه « دون كارلوس » منطقة ايطالية اعظم شأناً من بارم . انتصر الفرنسيون وحلفاؤهم دونما صعوبة (١٧٣٤) وتم الاستيلاء على منطقة ميلانو .

ولكن فلوري بادر اذ ذاك الى التفاوض للحيلولة دون اي تدخـــل انكليزي . وقعت معاهدة صلح تمهيدية في ايلول من السنة ١٧٣٥ ما لبثت ان تحولت الى معاهدة صلح نهائية في السنة ١٧٣٨ . ثم فقـــد شوفلين الحظوة في السنة ١٧٣٧ . وتنازل ستانسلاس لكزنسكي عن بولونيا ولكنه احتفظ بلقب الملك واعطي دوقية اللورين وكونتية بار . كان طبيعياً عند مماته ان تعود الدوقية والكونتية الى ورثته ، اي الى ملك فرنسا ، فتسد الثلمـة المفتوحة في الحدود الشمالية الشرقية وتؤمن المواصلات مع الالزاس وتعود مقاطعـــة فرنسية اللسان والعادات الى الوحـــدة الفرنسية . امسى الضم فعليا في السنة ١٧٦٦ . تخلى شارل السادس عن « نوفاري » لملك سردينيا الذي احتفظ بالسافوا حين لم يحصل على مقاطعة ميلانو . وتخـلى الامبراطور عن

نابولي وصقلية (مملكة الصقليتين) لدون كارلوس . واعطى هذا الاخير بارم وتوسكانا اللتين كان متوقعاً ان تؤولا اليه للدوق « فرنسوا دي لورين »، زوج ماري – تيريز ، ابنة شارل السادس، المرفوعة يده عن دوقيته . وفي ذلك خير مثل على مقايضة البشر .

في السنة التالية ، انقذت فرنسا صديقتها التقليدية ، تركيا ، وانزلت بالنمساويين والروس هزيمة ابقت على التوازن الأوروبي . منذ السنة ١٧٣٦ ، كان الروس ، الذين ما فتئوا يبحثون عن منفذ الى البحر الاسود ، في حرب ضد تركيا . كانوا قد استولوا على « ازوف » والقرم . ومنذ السنة ١٧٣٧ ، كان النمساويون، حلفاء الروس ، قد غزوا البلقان . شحذ السفير الفرنسي، « فيلتوف » ، عزائم الاتراك ، وزودهم بنصائحه . بفضله كسر الاتراك النمساويين . ففرض فيلتوف حينذاك وساطته ، وفي معاهدة بلغراد (١٧٣٩) اعاد الامبراطور للاتراك صربيا وفالاشيا . اضطر الروس الى التراجع . فأظهر السلطان امتنانه لفيلتوف بتجديده امتيازات فرنسا الديلية والتجارية في الامبراطورية التركية (١٧٤٠) .

في السنة ١٧٤٠ كانت فرنسا قد استعادت سيرها الى الامام . فقد احرزت حديثا نجاحاً اقليمياً كبيراً ، هو الاول منذ ريسويك . ووطدت تحالفها مع اسبانيا وتركيا والسويد ، واخذت توجه السياسة الاوروبية . وتقدمت صناعتها وتجارتها كل صناعة وتجارة في العالم وغزت مصنوعاتها انكلترا نفسها . وتفوق تجارها على الانكليز في الانتيل والهند وموانىء الشرق الادنى حيث اوقع الجواخون الفرنسيون ، حتى قبل تجديد الامتيازات ، هزيمة تجارية نكراء بالانكليز وكادوا يقضون هناك على تجارة الاجواخ الانكليزية. تقدم الفرنسيون في وادي المسيسبي واقفلوا داخل البلاد في وجه المستعمرين البريطانيين . وأسست شركة الهند الفرنسية باطراد اسواقاً جديدة كثيرة . وأعاد الاسبانيون من جهتهم تنظيم اساطيلهم وطمعوا في منع الانكليز من الاستمرار ، دون خجل، في مخالفة بنود معاهدة اوترخت بتلاعبهم بالسفن المسموح بدخولها الى مستعمراتهم حتى تنقل فوق ما هو متفق عليه ، وبشتى الاساليب الملتوية المعتمدة في عمليات التهريب المطلق العنان . استيقظ الانكليز وانتبهوا فجأة لان كل شيء يحدث كما لو لم يكونوا منتصرين، او كما لو لم يكن هنالك معاهدة اوترخت . فهم لم يفقدوا هيمنتهم البرية فحسب بل كانوا سائرين في طريق فقدان هيمنتهم البحرية والتجارية . فقرروا اللجوء الى الحرب .

الحروب البرية والبحرية الكبرى (١٧٤٠ - ١٧٦٣)

في تشرين الاول من السنة ١٧٣٩ قاموا باعمالهم العدوانية الاولى ضد اسبانيا . ولم يفتهم ان فرنسا ستنجر الى الحرب رغبة منها في الثأر لنفسها من معاهدتي اوترخت . وبالفعل انطلق اسطولان فرنسيان ، في شهر آب من السنة ١٧٤٠ ، لمساعدة الاسطول الاسباني . فبدأ بذلك الصراع الحاسم من اجل التفوق البحري والاستعماري، اي من اجل الهيمنة السياسية .

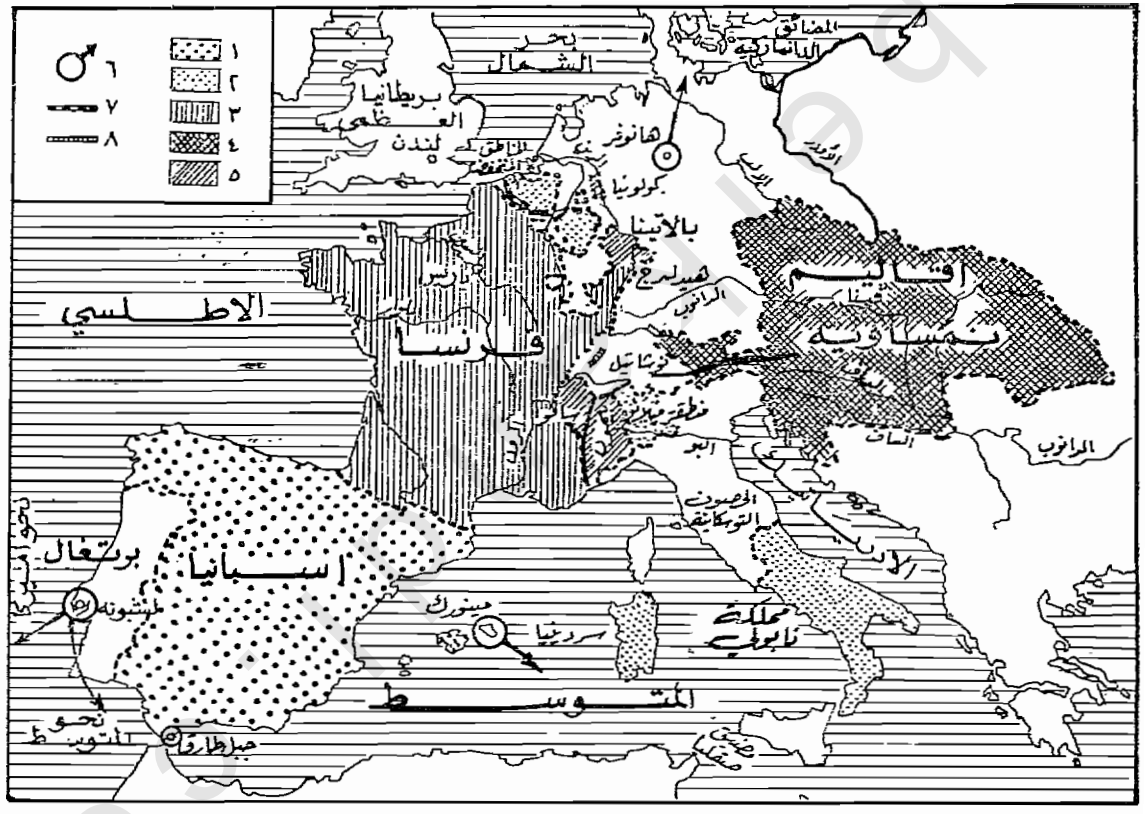

الشكل ١. معاهدات ١٧١٣-١٧١٤

وراثة عرش اسبانيا : ١- نصيب ملك اسبانيا البوربوني ، ٢- نصيب ملك النمسا - ٣- مملكة فرنسا ، ٤- مملكات نمساوية قبل المعاهدات ، ٥- دول قسطنطين ، ٦- قواعد بحرية ورقاب جسور انكليزية ، ٧- الحاجز الهولندي ، ٨- الحاجز الروسي .

كانت قوّة الاسطول الفرنسي كافية لان ترتقب النتيجة بثقة واطمئنان . وكان مقدراً لفرنسا ان تصبح في طليعة الدول ولمدة طويلة . وانما كان لزاماً ان تستطيع تكريس قواها للحرب في البحر والمستعمرات، اي ان لا تكره على خوض الحرب في البر الاوروبي .

ولكن الامبراطور شارل السادس توفي في ٢٠ تشرين الاول من السنة ١٧٤٠ ، فافتتحت وراثة عرش النمسا . ترك الامبراطور خلفاً له ابنة في الثالثة والعشرين من سنها ، ماري-تيريز، مع جيش غير منظم وخزانة فارغة . رأى كافة ملوك اوروبا الفرصة سانحة لكي يقتطعوا لهم بعض المناطق من اراضي آل هبسبورغ . نسوا كلهم انهم ضمنوا وثيقة وراثة العرش النمساوي ووعدوا بمساعدة ماري-تيريز على اعتلائه . ونظروا كلهم الى المعاهدات الحاملة تواقيعهم نظرتهم الى اوراق رثة حقيرة . طالب منتخب بافاريا شارل ـ البير بالارث كاملاً . وطالب كل من ملك اسبانيا ، وملك سردينيا ، وملك بروسيا فردريك الثاني بنصيب من الارث . كان فردريك الثاني قد ورث عن والده جيشاً مختاراً ، والحكمة القائلة بان لا قيمة للامير في العالم الا بسيفه ، ورسالة توسيع الاراضي البروسية ما استطاع الى ذلك سبيلاً ، وجمع الاقسام الثلاثة التي تتألف منها ممتلكات آل هوهنزولرن . وكان طامعاً في حينه بسيليزيا ، الولاية الغنية التي سيؤمن له امتلاكها تجارة الاودر الاعلى ، ويحمي براندبورغ من التعديات النمساوية ويتيح له اتقاء كل تهديد ممكن بهجوم مفاجىء على بوهيميا . كان لآل هوهنزولرن حقوق على سيليزيا تخلوا عنها بموجب معاهدات، ولكن فردريك الثاني ما كان ليقيم وزناً للعهد ، فاحتل الولاية (كانون الاول ١٧٤٠ – نيسان ١٧٤١) .

لم تكن فرنسا مهددة ، وكان باستطاعتها البقاء بعيدة عن النزاع . اجل كان الملك قد وقع وثيقة وراثة العرش وكان عليه ان يحترم توقيعه . ولكن الحزب المحافظ ، وعلى رأسه المارشال « دي بيل إيل » ، اعتقد بان الوقت قد آن للتخلص نهائياً من النمسا ، ولم يعر المسائل البحرية والاستعمارية أهمية تذكر . وما كان كبار الاسياد الفرنسيين آنذاك ، على نقيض الانكليز ، ليعنوا عناية كبرى بالمشاريع التجارية . ولم تكن العاصمة الفرنسية ، فرساي ، والمدينة الرئيسية المجاورة، باريس ، مدينتين يعول سكانها في معيشتهم على التجارة البحرية ؛ فكان من الصعوبة بمكان تهييج الرأي العام وإثارة الفتن فيهما من اجل الانتليل او السنغال . ولم يبرهن التجار الفرنسيون أنفسهم عن مثل ما برهن عنه الانكليز من عناد عنيف ، ولم يرغبوا ، على غرارهم ، في حرب ضروس تنتهي بظفر طرف وهزيمة آخر : عندما اعلنت القطيعة بين فرنسا وانكلترا في السنة ١٧٤٣ ، اقترحت شركة الهند الفرنسية على الشركة الانكليزية البقاء خارج نزاعات الحكومات ومواصلة الاعمال التجارية ، ولم تقرر الاشتراك في الحرب الا بعد أن رفض الانكليز اقتراحها . كان فلوري آنذاك قد طعن في السن ؛ فاضطر للموافقة على تولّي « بيل إيل » انتزاع التاج الامبراطوري من آل هبسبورغ . حين هزم هؤلاء أمام فردريك ، مهد بيل إيل السبيل لقيام معاهدة تحالف بين ملك اسبانيا ومنتخب بافاريا (ايار ١٧٤١) ،

وعقد تحالفاً مع بروسيا (حزيران) وفاز بانضمام منتخب الساكس . وقد تم الاتفاق بين المتحالفين على ان يستولي منتخب بافاريا على التاج الامبراطوري وبوهيميا؛ وابن ملك اسبانيا الثاني ، دون فيليب ، على بعض الاقاليم الايطالية ؛ وفردريك على سيليزيا ؛ بينما تكتفي فرنسا باذلال النمسا . احتلت الجيوش الفرنسية بوهيميا ، فاعلن منتخب بافاريا ملكاً عليها ؛ ثم انتخب امبراطوراً باسم شارل السابع (تشرين الثاني ١٧٤١ – كانون الاول ١٧٤٢) .

بيد ان « بيل إيل » اخطأ في انه لم يحاول الاجهاز على فيينا ، فطالت الحرب وتمكن الانكليز من التدخل وفتح جبهة ثانية . في شهر شباط من السنة ١٧٤٢ نزل جورج الثاني الى البر الاوروبي وتسلّم قيادة جيش من المرتزقة . عقد الانكليز والنمساويون والساكسونيون حلف « وورمز » واتفقوا على انتزاع الالزاس واللورين من الفرنسيين وقدموا لماري – تيريز المال الذي كانت مفتقرة اليه . وتوفقت ماري – تيريز ، بوعدها ملك اسبانيا بشطر من مقاطعة ميلانو ، وبتخليها عن سيليزيا لفردريك الثاني الذي ادار ظهره لحلفائه على الرغم من تعهداته الصريحة (معاهدة برسلو ، تموز ١٧٤٢) ، الى تفكيك التحالف وتاليب تحالف آخر على فرنسا التي ما لبثت ان واجهت تهديد حدودها (١٧٤٣) . واخيراً ، في السنة ١٧٤٥ ، بعد وفاة شارل السابع ، تنازل ابنه عن الامبراطورية لمصلحة زوج ماري – تيريز الذي انتخب امبراطوراً باسم فرنسوا الأول . باتت القضية أشبه بمبارزة بين العائلة المالكة النمساوية والعائلة المالكة الفرنسية التي تحالف معها فردريك الثاني المضطرب البال مرّة اخرى في السنة ١٧٤٤ ، ولكنه تخلى عنها مرّة اخرى ايضاً في السنة ١٧٤٥ حين ايدت ماري–تيريز تنازلها له عن سيليزيا في معاهدة « درسدن » . تحوّلت الجيوش الفرنسية ، في اعقاب ذلك ، عن الحرب الاستعمارية التي لم يلمع نجمها فيها حتى ذلك الحين . في السنة ١٧٤٥ استولت على لويسبورغ في كندا ، ولكنها فقدت مدراس في الهند في السنة التالية . ولا ريب في ان الفرنسيين كانوا احرزوا نجاحاً حاسماً لو ان كافة القوى الفرنسية تحولت شطر البحر . في البر الأوروبي صمدت فرنسا امام التحالف صموداً مشرفاً . في السنة ١٧٤٨ توقفت الى صون أكثر حدودها هشاشة ، اي الحدود الشمالية الخالية من الحواجز الطبيعية ، والمفتوحة عند ممر « الموز » و « السامبر» و « الواز » ؛ كانت قد استولت على المناطق المنخفضة النمساوية (التصار « فونتنوا » ، ١٧٤٥) والسافوا وكونتية نيس . فبات من ثم بمكنتها ان تفرض على اعدائها المنهوكين صلحاً مجدياً. ولكن لويس الخامس عشر تخلى في معاهدة «اكس–لا – شابيل» (تشرين الاول ١٧٤٨) عن كل شيء ، المناطق المنخفضة ، وسافوا ، ونيس . ووافق لويس الخامس عشر بتخليه هذا على ضمان سيليزيا لفردريك الثاني واعطاء ملك سردينيا قسما من مقاطعة ميلانو حتى نهر « تسينو » ، واعطاء دون فيليب بارم وبليزانس .

انذهلت اوروبا باجمعها من هذا الاعتدال الذي سخرت منه واعتبرته ناجماً عن ضعف عقل وضعف جنان . واغتاظ الفرنسيون من الملك . إلا ان هذا الصلح لم يكن شراً كله بالنسبة

لفرنسا اذ انها انقصت اراضي النمسا ، وأوثقت الروابط باسبانيا ، ووسعت دولا ثانوية. كانت متفقة وإحدى السياسات الفرنسية التي تؤثر التوازن وتجميع الدول الصغرى حول فرنسا ضد العظماء على السعي وراء التوسعات الشخصية . ولكنها انطوت على عيب جوهري . فان لويس الخامس عشر الصادق في مسالمته ، والمخلص في محبته المسيحية وشعوره الانساني ، والتعب بالاضافة الى ذلك من الحرب ، قد تغافل عن مقاصد الانكليز والنمساويين . تعامى عن أن شيئاً لم يسوَّ في البحر والمستعمرات ، وأن شيئاً لم يسوَّ بين النمسا وبروسيا ، وان الصلح ليس سوى مهادنة ، وأن حرباً أخرى لن تلبث أن تندلع ، وانه من الأهمية بمكان بالنسبة لفرنسا ، ما دامت الحرب محتومة ، أن تكون موجودة على قمم جبال الألب في سافوا وفي سواحل بحر الشمال حتى انفرس .

كانت الحرب الجديدة، المعروفة بحرب السبع سنوات (١٧٥٦-١٧٦٣)، نتيجة المنازعات بين المستعمرين الفرنسيين والمستعمرين الانكليز في اميركا من اجل الاستيلاء على وادي « اوهايو ». استعد لها الانكليز باهتمام . في شهر حزيران من السنة ١٧٥٥ ، وبدون اشهار حرب ، بدأوا عدوانهم بعمل قرصنة . فان السفن الحربية البريطانية قد استولت في الموانىء الانكليزية أو في عرض البحر على ثلاث ناقلات جيوش في طريقها الى كندا واكثر من ٣٠٠ باخرة تجارية و ٨٠٠٠ بحار . فحرم الفرنسيون بذلك ، منذ البدء خبرة ملاحيهم المدربين .

كان الانكليز بحاجة الى حليف وجيش لاجل حماية هانوفر، الممتلكة الشخصية لملك انكلترا ورقبة الجسر للتجارة البريطانية في الشمال، ولاجل تحويل القوات الفرنسية شطر البر الاوروبي. لم يعد بامكانهم الاعتماد على النمسا التي عرضت المناطق المنخفضة على فرنسا في حربها الانتقامية ضد بروسيا ، فرفضت فرنسا العرض كي لا تتخلى عن فردريك الثاني ، ولكنهم وجدوا هذا الاخير قلقاً ، ومرتاعاً من تحالف انكليزي روسي ، وراغباً في المساعدات المالية الانكليزية ، فنكث التحالف الفرنسي وعقد مع انكلترا اتفاق وستمنستر (كانون الثاني ١٧٥٦) . فاستفظع الفرنسيون هذا ووقعوا مع النمسا معاهدة فرساي (أول أيار ١٧٥٦) . تقربت النمسا في الوقت نفسه من الامراء الالمان ومن الساكس وروسيا . شعر فردريك الثاني بالخطر المداهم : فصمم على القيام بعمل يشل جيوش اعدائه قبل ان ينهوا استعداداتهم، وانقض على الساكس (آب ١٧٥٦). احرز النصر ، ولكن صمود الساكسونيين اتاح للنمساويين جمع قواهم . ولما كانت ابنة منتخب الساكس متزوجة من وريث عرش فرنسا ، استشاط لويس الخامس عشر غيظاً وعقد مع النمسا معاهدة فرساي الثانية (ايار ١٧٥٧) التي تعهد فيها بتقديم ١٤٠٠٠٠ رجل ومبلغ ٣٠ مليوناً اسهاماً منه في حرب المانيا . وهكذا انقلبت المحالفات واشتركت فرنسا في حروب بريئة حولتها عن مصالحها الحقيقية ، أي عن حرب المستعمرات التي كانت هي الحرب الحقيقية .

اعتقدت الحكومة الفرنسية بأن العمليات البرية لن تطول ، وبأنها ستستطيع بعد انتهائها

من الارتداد بقواها على الانكليز وحدهم . في السنة ١٧٥٧ احتل الفرنسيون فعلاً هانوفر ثم طوقوا الجيش الانكليزي الهانوفري وارغموه في ايلول على الاستسلام في « كلوسترسفن » وحصلوا منه على تعهد بأن لا يحمل السلاح حتى نهاية الحرب . وتحرك جيش فرنسي الماني لمهاجمة فردريك الثاني الذي كان يواجه خطر النمساويين في الجنوب ، والروس في الشرق ، والسويديين في الشمال . ولكن فردريك تمكن من المناورة بين اعدائه ، فسحق الجيش الفرنسي الالماني في « روسباخ » (٥ تشرين الثاني ١٧٥٧) ، والجيش النمساوي في « لوتن » (٥ كانون الاول) . ونكث الجيش الانكليزي الهانوفري عهده ، فاشترك في الحرب مرة اخرى ضد الفرنسيين . ومنذ ذاك التاريخ طالت الحرب وتمادت . فالجيوش الفرنسية التي قادها ضباط حذاق على غير سداد في الرأي قسّم التحاسد بينهم ، قد اوقفت ، على الرغم من بعض الانتصارات الجزئية ، بين الرين والفيزير بفعل مقاومة الجيش الانكليزي الهانوفري ، ولم تتمكن من مهاجمة فردريك الثاني من الغرب . خف العبء بذلك عن هذا الاخير ، فواجه الروس والنمساويين . انزلت به هزائم نكراء ، وفي السنة ١٧٥٩ ، بلغ كشافة اعدائه مشارف برلين . ولكنه برهن عن عناد فائق ، وحال احتراز الروس والنمساويين وعجزهم عن توحيد جهودهم دون اقدامهم على كيل الضربة القاضية . وفي السنة ١٧٦٢ توفيت القيصرة اليزابيت وتولى العرش بطرس الثالث المخلص لملك بروسيا ، فبقي النمساويون وحدهم .

منعت هذه الحرب الفرنسيين من التفرغ لاساطيلهم ومستعمراتهم . أمدّوا الهند بـ ١٧ رجلاً وكندا بـ ٣٢٨ رجلاً بينما كان الانكليز ، بتحريض من « وليم بيت » ، يواصلون تعزيز اساطيلهم ويرسلون الى اميركا حتى ٦٠ ٠٠٠ رجل . استولوا على كندا باستيلائهم على « كيبيك » (١٧٥٩) « ومونريال » (١٧٦٠) ، وعلى الهند باستيلائهم على بوندیشيري (١٧٦١) . وجاء دخول اسبانيا الحرب الى جانب فرنسا متأخراً جداً ولم يسفر سوى عن نتيجة واحدة هي اتاحة فرصة احتلال فلوريدا للانكليز . اضطر الفرنسيون لتوقيع معاهدة باريس مع الانكليز في ١٠ شباط من السنة ١٧٦٣ . تخلوا لهم عن كندا ووادي « اوهايو » وضفة الميسيسيبي اليسرى وعدد من جزر الانتيل . تنازلوا من كل مدعى سياسي بالهند حيث احتفظوا بخمس مدن دكت اسوارها وسحبت حامياتها . تخلوا عن اسواقهم التجارية في السنغال باستثناء جزيرة « غوريا » . وتنازل لويس الخامس عشر ، بالاضافة الى ذلك ، عن ضفة الميسيسيبي اليمنى أو لويزيانا للاسبانيين بغية إعاضتهم من فقدان فلوريدا . ولكن فرنسا احتفظت ، على الرغم من مقاومة العديد من الانكليز ، بصائد الاسماك في الارض الجديدة ، التي كانت بمثابة مدرسة جلَد وتدريب لبحارتها ، وبجزيرتي « سان بيير وميكلون » و « جزر السكر » ، « مارتينيك » و « غوادلوب » و « سانت لوسي » و « سان دومنغ » وذلك بفضل الملك جورج الثالث المتسرع في استهلال سياسته الشخصية والتخلص من استبداد « بيت » الذي كان يفضل انتظار محق فرنسا لتوقيع معاهدة الصلح . استاء الانكليز واعتقدوا بوجوب القيام بمجهود جديد ، ولكنهم على الرغم من كل ذلك

حققوا امكانات تقدم غير محدودة بتحقيقهم الهيمنة البحرية والتجارية والاستعمارية .

أما ماري – تيريز ، التي امست وحدها في الميدان ، فقد وقعت مع فردريك الثاني صلح « هوبرتسبورغ » (١٥ شباط ١٧٦٣) . احتفظ هذا الاخير بسيليزيا وتمتع بنفوذ عظيم في المانيا وفي اوروبا . غير انه ، على الرغم من كل ذلك ، لم يكن سوى ملك دولة صغرى يخيم عليها الخراب . وخرجت النمسا ضعيفة وخاسرة اقليمياً من هذه الهزيمة الجديدة . أما المسيطر الحقيقي على اوروبا الشرقية والوسطى فهو روسيا ذات الموارد المتزايدة ، التي اهتدت الى رجل هو القيصرة كاترين الثانية .

ارتقاء الروس والبروسيين (١٧٦٣ – ١٧٨٩)

ادت معاهدة باريس الى تخلخل التوازن في اوروبا. انشنى الفرنسيون والانكليز عن البر الاوروبي . انشغل الانكليز بشؤون تنظيم امبراطوريتهم . صادفوا صعوبات كبرى في مستعمراتهم الاميركية بنوع خاص . وأدرك الفرنسيون خطأهم . كرسوا قواهم لمحاربة انكلترا ، واخذ الوزير شوازول يعد العدة للانتقام. وكان الانتقام ممكناً في بلاد غنية جدا تفوق دول اوروبا الاخرى سكانا ولم تتأثر تأثراً جدياً بحروب خيضت كلها خارج ارض الوطن . اعاد شوازول انشاء الاسطول والجيش وابتاع من الجنويين جزيرة كورسيكا التي كانت مطمع الانكليز لانها تتيح السيطرة على الساحل الفرنسي المتوسطي (١٧٦٨) .

في هذه الظروف خلا الجو في اوروبا الشرقية لروسيا التي تخلت نهائياً عن مشاريع بطرس الأكبر في آسيا . فكان من ثم باستطاعتها استعادة سيرها شطر الغرب . عند وفاة ملك بولونيا اوغست الثالث (١٧٦٣) ، اتفقت كاترين وفردريك الثاني على منع كل اصلاح في بولونيا ، وضمان العرش لعشيقها ستانسلاس بونياتوفسكي (ايلول ١٧٦٤) بتهديد من الجيوش الروسية ، وفرض حماية روسية على البولونيين بحجة تأمين حريات الجمهورية البولونية (١٧٦٧) . ثار الوطنيون البولونيون، وتوفق شوازول ، املاً منه في انقاذهم ، الى اقناع الاتراك بدخول الحرب ضد روسيا . ولكن الانحطاط التركي كان آخذاً في التعاظم . خسر الاتراك آزوف والقرم والولايات الرومانية ودُمر اسطولهم في « تشسميه » (١٧٧٠) . خشي فردريك الثاني اذ ذاك من رؤية الروس والنمساويين يعززون قواهم في البلقان أو يتقابلون في حرب قد ينجر هو اليها . فاقترح على كاترين وماري –تيريز تقسيم بولونيا الذي أقر في سان بطرسبورغ في ٢٥ تموز من السنة ١٧٧٢ . « باسم الثالوث الأقدس »... وخوفاً من تفكك الدولة البولونية تفككاً كلياً ... استولت ماري – تيريز ، التي « ما انفكت تبكي وتأخذ » ، على غاليسيا وسكانها البالغين ٢ ٦٠٠ ٠٠٠ نسمة؛ واستولى فردريك على بروسيا البولونية وسكانها البالغين ٧٠٠ ٠٠٠ نسمة فقط ، باستثناء دانتزيغ ، ولكنه حقق الاتصال بذلك بين بروسيا وبراندبورغ ؛ واستولت كاترين على جزء من ليتوانيا يبلغ سكانه ١ ٦٠٠ ٠٠٠ نسمة . فاضطرت الجمعية البولونية ، التي حاصرتها الجيوش الحليفة ، الى التسليم بالمعاهدة والتعهد بعدم تعديل الدستور . وقد ألف الشركاء المتواطئون الثلاثة ، بغية الحفاظ على مكاسبهم ، حلفاً ثلاثياً ناصب فرنسا العداء في

عهدي الثورة والامبراطورية ، وكان نواة الحلف المقدس بعد السنة ١٨١٥ ، ودام حتى اواخر القرن التاسع عشر .

بوساطة النمسا ، وقع الروس مع الاتراك معـــاهدة « قينارجي » (١٧٧٤) . لم تحتفظ

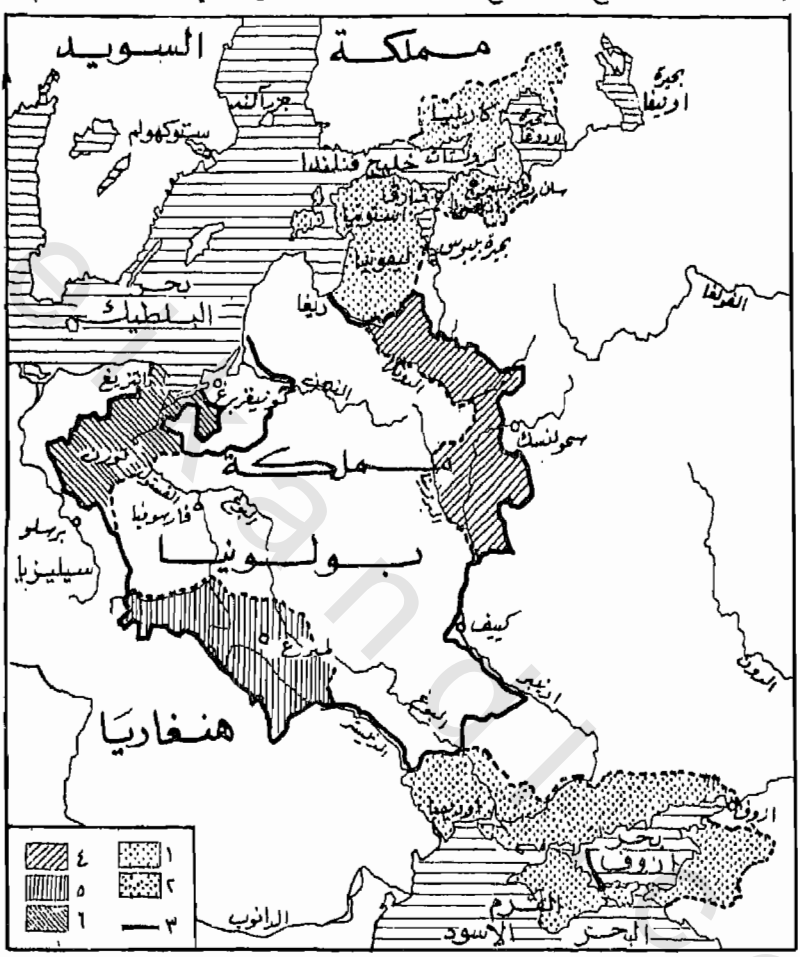

الشكل ٢ . الفتوحات الروسية وتقسيم بولونيا الأول .
١ - فتوحات بطرس الاكبر ، ٢ . فتوحات كاترين الثانية ، ٣ - حدود مملكة بولونيا في السنة ١٧٧٢
تقسيم بولونيا الاولى في السنة ١٧٧٢ - ٤ الفتوحات الروسية ، ٥ الفتوحات النمساوية ، ٦. الفتوحات الروسية

روسيا الا بـ « آزوف » ، ولكن استقلال « القرم » قد أعلن رسمياً ، وحـق للروس ، بصورة خاصة ، توجيه الانذارات الى السلطـان خدمة للكنيسة اليونانية أو للسكان الارثوذكس في الولايات الرومانية . فظهروا من ثم بمظهر حماة الشعوب المسيحية الارثوذكسية في البلقان وتوفر لهم امكان التدخل الدائم في الشؤون البلقانية ، مما سيسّهل مشاريعهم باتجاه القسطنطينية والمضائق .

إن اعمال الدول الثلاث في بولونيا حولت نظام التوازن الى « نظام تقاسم » . فهي لم تقض

لعمري على نظام التوازن ، اذ كان على الدول الكبرى أن تتساوى فيما بينها ما استطاعت الى ذلك سبيلاً. ولكنها سلّمت بحقها في تقاسم الدول الصغرى والدول الضعيفة اذا قضت مصلحتها بذلك . فتكرس بذلك مبدأ الاستخفاف بحقوق الدول ، الذي سيؤدي الى تقسيم اوروبا بين بعض الدول الكبرى المتجاورة ، المتباينة المصالح تباينا مباشراً ، التي ستمسي خلافاتها اكثر تكرراً وأشد خطورة منها في أي عهد مضى . فلاحت في الافق بوادر الحرب الدائمة وخراب اوروبا .

دب الذعر في هذه الاثناء الى السويد وتركيا والبندقية وكافة دول اوروبا الضعيفة التي ارتعدت هلعا بانتظار المبضع يوجه اليها. ولكن فرنسا عملت على استبقاء نظام التوازن القديم . فبمساندة الملك لويس السادس عشر، حاول «فرجين» الذي اشترك في الحكم منذ السنة ١٧٧٤ حتى ١٧٨٧، منع توسع الدول، وضبطها في نطاق النظام بالتوفيق بينها أو بإثارة الخلافات بينها عند الاقتضاء، والمحافظة على الدول الصغرى بجمعها حول فرنسا . فكان ذلك تمشيا على سياسة لويس الرابع عشر الاخيرة التي سينتهجها تاليران ولويس – فيليب بدورهما ايضا . رفض فرجين عروض النمسا المغرية في المناطق المنخفضة ومصر . فأفلح باستخدام منافس النمسا الجديد ، فردريك الثاني ، في منع جوزف الثاني اولاً وثانيا من احتلال بافاريا (١٧٧٩ و ١٧٨٤) ؛ ووضع حداً سريعا لمشروع نمساوي روسي يستهدف تجزئة الامبراطورية العثمانية (١٧٨١ – ٨٣) واقصر المكاسب الروسية على القرم دون أن يحصل الامبراطور على شيء . حقق بذلك السلم في البر الاوروبي الذي اتاح له محاربة الانكليز في البحر (١٧٧٨ – ١٧٨٣) ، والاسهام في تحرير المستعمرات الانكليزية الاميركية ، والانتقام جزئيا في معاهدة فرساي (٣ ايلول ١٧٨٣) ، من معاهدة باريس المذلة ، بتجريد انكلترا من أهم مستعمراتها . اضطر الانكليز الى الاعتراف باستقلال الولايات المتحدة الاميركية ، والتخلي لها عن داخل البلاد حتى المسيسبي ، واعادة مينورك وفلوريدا لاسبانيا والسنغال و « تاباكو » لفرنسا مع اطلاق الحرية لها بتحصين دنكرك .

استعادت فرنسا بذلك اعتبارها ونفوذها وامن اوروبا . ولكن هذه النجاحات لم تدم طويلا . فقد شلتها في السنة ١٧٨٧ الازمة المالية وثورة الارستوقراطية . اضطرت فرنسا لترك ملك بروسيا الجديد ، فردريك غليوم الأول ، يعيد سلطة القائد العسكري وينظم حلفاً ثلاثياً بروسيا وهولندياً وانكليزيا (١٧٨٧) . اعتبرت كاترين وجوزف الثاني الفرصة سانحة لمهاجمة الاتراك (١٧٨٨) . ولكن الانكليز والبروسيين حملوا ملك السويد غوستاف الثالث على مهاجمة الروس . وحمل فردريك غليوم الأول البولونيين على اصلاح دستورهم ورفض الحماية الروسية . وحرض الهنغاريين والبلجيكيين على الثورة على جوزف الثاني . ولا عجب في ذلك فقد أدى تواري فرنسا الى انفلات الاطماع . في السنة ١٧٨٩ ، كانت اوروبا متخبطة في ازمة شاملة . وكان اتحاد الدول أبعد منه في أي وقت مضى .

الفصل الرابع

تنوّع أوروبا

انطلاق أو يقظة العصبان القومية

لم تكن وحدة أوروبا الفكرية سوى صنيع طوائف يسيرة من البشر ، الكتاب ، والعلماء ، وبطائن الملوك . ولكن الروح القومية رأت النور منذ زمن بعيد عند كافة الشعوب . على انها تفاوتت نمواً : ولعل الانكليز والفرنسيين وحدهم الفوا قوميات ، بمعنى هذا التعبير الحقيقي ، اي جماعات بشر مرتبطين بأرض كيّفوها وكيفتهم وعالمين بتضامن ، ومصالح مشتركة ، وعادات خصوصاً ، واخلاق ، وأساليب حياة وتفكير ، ومثل أعلى ، اكثر تشابهاً فيما بينهم ، على الرغم مما لا يزال بينهم من اختلافات ، منها بين أية جماعة من البشر المجاورين . الا ان شعوباً اخرى توصلت هي ايضاً الى الوعي القومي توصلاً متباين الجلاء والقوة ، ومختلطاً وضعيفاً احياناً. كانت هنالك وطنية اسبانية حققها الصراع الطويل ضد المسلمين ، ووطنية ايطالية حققتها الغزوات الكثيرة التي عرفتها البلاد وعززتها ذكريات روما ، ووطنية بولونية تأيدت بمقاومة البولونيين للروس والجرمانيين ، ووطنية روسيا انمتها المسيحية الارثوذكسية التي جعلت الروس ينظرون الى كافة الشعوب نظرهم الى هراطقة وبرابرة ، والى روسيا نظرهم الى البلاد المقدسة ، الصادقة ، العادلة ، المحبوبة من الله بالذات ؛ وحتى وطنية المانية ايضا . واتضح اكثر فأكثر وعي الاختلافات الجماعية ، واقعية كانت أم خاطئة : « يقال ان الفرنسيين مهذبون وحذاق وكرماء ، ولكنهم متسرعون ومتقلبون ؛ وان الالمان صادقون ومجتهدون ، ولكنهم ثقلاء وسكيرون ؛ وان الايطاليين لطفاء ونبهاء وعذاب الكلام ، ولكنهم حساد وخونة ؛ وان الاسبانيين متكتمون وفطن ، ولكنهم متحذلقون ومتمسكون تمسكاً مفرطاً بالشكليات ؛ وان الانكليز شجعان حتى التهور ، ولكنهم متكبرون ومستخفون ومتعجرفون حتى القساوة » .

نمت الروح القومية نمواً كبيراً خلال القرن بفعل سياسة الملوك الذين اخضعوا ولاياتهم المختلفة لعادات مطردة التماثل ، وتنازعوا سياسياً واقتصادياً فأوجدوا بذلك في شعوبهم شعور التضامن والحقد على مصدر الأذية من الجيران ، سواء كانت هذه الأذية مزاحمة ام جيشاً .

ونمت كذلك بفعل التقـدم الفكري واتخذت هنا شكل ردّة الفعل ضد النفوذ الفرنسي ، موحد أوروبا . كل المثقفين في كل البلدان تتلمذوا على فرنسا . وفرت الروح الكلاسيكية لهذه الاخيرة تقدماً كبيراً وتفوقاً عظيماً . امست فرنسا استاذ اوروبا في المنطق والبيـان والجدل . منها تعلم الاوروبيون التفكير وتكوين الافكار وترتيبها والتوسع فيها والربط بينها واستخلاص النتائج المقبولة منها . تزود جميعهم بهذه الكلاسيكية التي يقتصر نتاج اعظم العبقريات بدونها على المقاصد والتخطيطات والوعود والتآليف المرتجلة ، التي تفتقر كلها الى التفتح الكامل . الا ان هذه السيطرة الفرنسية التي رضي بها الكتاب الفرنسيون في البدء باعجاب وامتنان قد ثقلت عليهم ، بعد مرحلة التقليد الطويلة التي يجب ان يمر بها كل تلميذ ، اي بعد السنة ١٧٦٠ ، حين اعتبروا انهم امسوا اسياد تفكيرهم وتعبيرهم . وعوا قوتهم الخاصة وذكاءهم الخـاص ، ونفرت اثرتهم القومية من السيطرة الفرنسية . ألهمهم كبرياؤهم المكلوم ، فانصرفوا ، رغبـة منهم في التحرر ، الى نقد الآراء الفرنسية نقداً قاسياً ولاذعاً ، وجائراً في اغلب الاحيان . وقد زاد في عنف هذا النقد انه صدر على العموم في كل بـــلاد عن اناس منحدرين من تلك البورجوازيات النامية التي كانت اقل تأثراً من الاسياد بالعادات المجتمعية المستوردة من فرنسا وبحيـــاة « الصالونات » التي سعت كافة الارستوقراطيات وراء تقليدها والـــتي باتت اسلوباً اوروبياً مشتركاً . انبثق نقدهم عن شعور تعاظم اثنـاء ردة الفعل الملموسة ضد جفاف واضمحلال دائرة المعارف واثناء ذيوع شهرة روسو فاتخـــذ طابع الهجوم على مذهب العقليين الفرنسي والكلاسيكية الفرنسية وشيوعية الوطنية الفرنسية . وقد تكلم كل منهم باسم مشاعر قوميتـه الخاصة ، فتزعزعت الوحدة الاوروبية الطالعة .

فاجأ الهجوم الفرنسيين في حالة مقاومة ضعيفة . فالروح الكلاسيكية كانت سائرة في طريق الانحطاط . رأيناها في القرن السابع عشر تصميماً على الكمال وجهاداً يستهدف التوصـــل بوضوح وجلاء اما الى ادراك الأفكار المتداخلة المتشابكة واما الى ادراك عالم مبهم وصاخب من المشاعر المضطربة ، وجهداً للتعبير عن هذا الادراك اصدق وأشجى تعبير ، وهذا لا ينقص ثروات الحياة الداخلية ، بل يظهرها علانية تخضع للانسان الذي يستفيد منها . اما في النصف الثاني من القرن الثامن عشر فقـد باتت هذه الروح متمسكة اكثر فأكثر بالشكليات ، وأصبحت مجموع انظمة صارمة تقيّد ، وضوابط تشل ، لا بل افتقرت اللغـة نفسها وأصبحت ضيقـة ووجلة ومقتصرة على تعابير عامة او صيغ جاهزة في اغلب الاحيان ، اي انها اصبحت اشبه بعلم جبر يلزم الشاعر بالتعريض في الكلام ، لا جهداً جباراً في سبيل التوصل الى انبجاس الحياة . والواقع ان انحطاط الكلاسيكية هـذا هو نقيض الروح الكلاسيكية . هو ما هوجم بعنف ، وبحق في اغلب الأحيان ، ولكنه اختلط بالكلاسيكية التي لم يكن سوى صورتها الهزلية . وقد اهمله العديد من الفرنسيين انفسهم . ان عهد الرومنطيقية ابتدأ منذ روسو .

زد على ذلك من جهة أخرى ان روح شيوعية الوطنية ، والاقتناع بأن البشر متساوون

كلهم ، والاعتقاد بوحدة الجنس البشري ، وهي تفرض كلها الوطنية، اذا احسن فهمها ، بدلاً من إلتنكر لهـا ، كما اثبت ذلك الفلاسفة الوضعيون ، قـد اضعفت الشعور القومي عند أرفع الفرنسيين ثقافة . الا انها لم تقض عليه في احد منهم ، وقد افاقت الروح الوطنية من غفلتها عند الكثيرين في الملمات الجسام . خلال حرب السنوات السبع، تبرع مجهزو المراكب وتجار المرافىء بسفن قدّموها للملك مساهمـة منهم في الحرب ضد الانكليز . وتأثر الفرنسون تأثراً عميقـاً بالانكسارات الخارجية . في السنة ١٧٦٥ مثلث مسرحية « حصار كالية » لمؤلفها « دي بلوا »، فبكت الجماهير وصخبت ، وامتدحت هـــذه الرواية البطولية من روايات الصراع القديم ضد انكلترا. ولكن الفلاسفة انجزوا بناء نظرياتهم في حب السلم وشيوعية الوطنية في احلك مراحل حرب السنوات السبع ، وانجزوها بسرعة كليـة ودون استطلاع كاف (اذ توجب عليهم ، في سبيل النجاح ، الاعاضة من التعليم القديم بتعليم جديد مبني على العاطفة والميل والادعاء في الوقت نفسه بأنه صادر عن العقل دون سواه) . لم يدافع الفرنسيون المستضعفون بقوة عن مراكزهم، كما لم يصمدوا صموداً قوياً امام غزوة الآداب الاجنبية ، الانكليزية منها ولا سيما الالمانية . منذ السنة ١٧٥٠ ، نشر « غريم » في « مركور فرنسا » ، بمساعـدة ديدور ، رسائل في الأدب الألماني ، وفي السنة ١٧٦٦ ، نشر « هردر » قصائد ألمانيـة مختارة ، كما نشر في السنة ١٧٦٨ ترجمة « الأغاني البلدية » للسويسري « جسنر »، وبين السنة ١٧٨١ والسنة ١٧٨٤ ، « تاريخ الفن عند الأقدمين » لـ « ونكلمن » . اخذت « النفوس السريعة التأثر » بالطابع البلدي والبطريركي الذي يتميز به الشعر الالماني . استوحى « الأغاني البلدية » «دليل» ومؤلف الامثال «فلوريان» ، و « برناردين دي سان – بيير » في كتابه « بول وفرجيني » . وأحدثت ترجمة « فرتر »لغوتيه في السنة ١٧٧٧ تغييراً عميقاً في الحس. فاستوحيت منها« دلفين » لمدام « دي ستال» و«ادولف» لـ « بنجامين كونستان » ، و « رنيـه » لـ « شاتوبريان » ، و « جوسلين » لـ « لامارتين » . وجاء التأثير الانكليزي ابعـــد عمقاً ايضاً . فعلى الرغم من استمرار شطر من الفرنسيين في كراهيتهم للانكليز بدافع من وطنيتهم ، استسلمت فرنسا لانكلترا وانجرفت في تيار استهواء كل ما هو انكليزي . وقد سلك هذه الطريق امراء العائلة المالكة انفسهم ، من امثال الكونت « دارتوا » والدوق « دي شارتر » . وغزت فرنسا حوالي السنة ١٧٧٠ حفلات الشاي ولعبـة الـ « وست » وسباقات الخيل وفرسان السباق والسترة الطويلة المشقوقة الذيل . واستعيض عن الصالونات شيئاً فشيئاً بنواد تدنت فيها آداب المجاملة مفسحة المجال للهجة الاجتماعات العامـة : كل يتكلم بصوت عـال ، ويصغي قليلاً ، ويعبر عن مزاجه في صوته ونظرته . وتسربت الى اللغة كلمات انكليزية كثيرة . وانتشرت الحدائق الرومنطيقية على الطريقـــة الانكليزية في « ارمنونفيل » و « باغاتيل » (١٧٧٧) و « بارك مونسو » و « بتي – تريانون » (١٧٧٨) . وقام الفرنسيون بالدعاوة للكتب الانكليزية بتراجمهم . واستقبل الاجانب النتاج الانكليزي خير استقبال لانه يساعدهم على خلع نير فرنسا الفكري .

والواقع هو ان الانكليز كانوا السباقين الى الحقد بازدراء على الفرنسيين والتنكر للطرائق الفرنسية والذوق الفرنسي . وقد درجوا على القول: « ان تجارتنا ومصانعنا توجب علينا وقوف هذا الموقف » . اخذوا على الفرنسيين تهذيبهم الذي يفقدهم كل شخصية ويسيء الى اخلاصهم . انتقدوا اطعمتهم غير المغذية. اخذوا على اللغة الفرنسية انها لغة بطانة بينما رأوا في اللغة الانكليزية لغة اناس احرار تتميز بمزيد من القوة والرجولية . ازدروا بالشعر الفرنسي ، والمسرح الفرنسي اسير النظم الصنعية والاستبدادية. فهم قالوا بأدب رومنطيقي في الدرجة الاولى. رجعوا الى التقليد والاثارة القومية ، الى لغة اكثر تحيزاً ، واكثر اصالة انكليزية ساكسونية ، وأقرب الى اللغة الشعبية ؛ الى الشعر الغنائي الفردي ، الى الايقاعات الشعرية الشبيهة بايقاع الاغاني القديمة والقصائد الاسطورية الشعبية . ادخلوا عناصر جديدة : العبادة الكلفة بالطبيعة ، والمشاهد الليلية ، والمقضة ، والجبلية ، هوى الحس والخيال ، القلق الكوني والديني وحتى القول بالوهية الكون . مهدت « ليالي » « يانغ » المتوفي في السنة ١٧٦٥ ، و « مراثي » « توماس غراي » ، المتوفي في السنة ١٧٧١ ، السبيل أمام هذا التيار الذي برز في مؤلفات « كوبر » ، اول منشدي بحيرات « كمبرلند » ، وقصائد « بيرنز » (١٧٥٩ – ١٧٩٦) السكتلندية ، ومكر السكتلندي « ماكفرسون » ، الذي زعم انه اكتشف اناشيد الشاعر القديم « أوسيان » ، والذي تميز بعواطف بسيطة وعنيفة وعرف شهرة فائقة. وعرفت انكلترا هندسة عمارة الحدائق التي تميزت بشلالات الماء والمسالك المتعرجة والاطلال الصنعية ، التي تتعارض كلها والحدائق الفرنسية ؛ كما عرفت المفروشات البلاذرية. وكان لها مدرستها في الرسم التي رأت النور في السنة ١٧٥٠ مع اكاديميتها الملكية التي تأسست في السنة ١٧٦٨ ، وهي تعكس روح تجارها العملية ، نجح الرسامون اما في نقد المجتمع واللوحات الاخلاقية والنفعية ، كـ « هوغارت » (١٦٩٧ – ١٧٦٤) ، واما في رسم صور اشخاص المجتمع الارستوقراطي كـ « رينولدز » (١٧٢٣ – ١٧٩٢) ، و « غينسبورو » (١٧٢٧ – ١٨٨٨) ، و « رومني » (١٧٣٤ – ١٨٠٢) ، و « لورنس » (١٧١٩ – ١٨١٣) ، الذي استهل عمله الفني في السنة ١٧٩٠ بصورة الآنسة « فارّن ». وأما النقاشة الانكليزية باللون الاسود أو بالتنقيط ، وهي مختلفة عن التقنية الباريسية ، فقد اسهمت في امتداد أثر هذه الفنون الى النمسا والسويد وروسيا .

أما في المانيا ، فما زال هنالك شعور غامض تغذيه ذكريات مجيدة وغير واضحة تركتها الغزوات الجرمانية والامبراطورية المقدسة . وتمكن هذا الشعور بالغيرة من الفرنسيين وعدم الثقة بهم والحقد عليهم. استعانت ماري – تيريز وفردريك الثاني كل بدوره ، على الفرنسيين بـ « الوطن الالماني العزيز » . ايقظت « روسباخ » الروح القومية وألبت الانصار في كل مكان حول فردريك الثاني ، وغالباً ما دفعت المصلحة الآنية بالامراء الالمانيين الى التحالف مع الفرنسيين ، ولكنهم كانوا يضمرون في عملهم هذا حقداً خفياً ، ورغبة دفينة في ابعاد فرنسا عن الرين ، وامل اكتال بهزيمة فرنسية وبتجزئة فرنسا . والحال ، تعززت مشاعر العداء لفرنسا ، في الثلث الاخير من

القرن ، ينمو ادب الماني ارسخ آراء مشتركة مناهضة لفرنسا وكوّن الامة الالمانية . اعلن « هردر » واصدقاؤه ان اللغة الفرنسية منافية للاخلاق ، ولغة صالونات ، مرنة ، مغرية ، تساعد على المداهنة باسم التهذيب واللياقات ؛ وانها لغة الخيانة والقطيعة بين المتحابين . أما اللغة الالمانية فلا تصلح إلا للتعبير عن الحقيقة . أدى كل ذلك الى تأخر اللغة الفرنسية . فعند وفاة فردريك الثاني (١٧٨٦) ، ساوت اكاديمية برلين في تقاريرها ومحاضر جلساتها بين اللغة الالمانية واللغة الفرنسية ، ونقح غوتيه « وصف رحلته الى ايطاليا » بابدال كافة المفردات الاجنبية المصدر بما يعادلها في اللغة الالمانية . وجمّل الكتّاب اللغة بالكلمات والتعابير الشعبية . وهاجم الالمانيان ، « لسنغ » في « فن وضع مسرحيات همبورغ » ، و « هردر » في بعض مؤلفاته ، الادب الفرنسي ، المجرد والصنعي البساطة ، ولا سيما المسرح الذي تقيده قواعد تناقض الطبيعة ، والذي تعتمد فيه لغة صنعية ، ليست لغة البشر . وأبان لسنغ المضادة بين راسين ، الذي لم يدرك صدقه ولم يعِ فيه الحياة ، وبين « شكسبير » و « سوفوكل » . وأعلن هردر نهاية عهد الادب الفرنسي وصرح بأن المستقبل للادب الالماني . وهاجم الالمان الفن الفرنسي . فلم يميز ونكلمن و « منغز » ، لغاية في النفس ، بين الفن الفرنسي والفن التزييني المبتذل ، واعترضا على الاكثار من النقوش العادمة الاهمية في هندسة العمارة ، وانتقدا الحديقة الفرنسية بسبب انتظامها الذي نعتاه بالملل ، ومخالفة الطبيعة باخضاعها لفكرة ، ونقما على الرسم الفرنسي الذي اتهماه بأنه خلو من الفكر والعاطفة ، واطريا الرجوع الى فن العصور القديمة . ولكنهما جعلا الفن الفرنسي مسؤولاً عن افراط الفن التزييني الايطالي أو الالماني المبتذل رغبة منهما في افقاده هالة الاعتبار التي تحيط به ، مهما كان الثمن . وأطرى المان آخرون الفن القوطي الذي اعتقدوا بهويته الالمانية . فقد هتف غوتيه بسذاجة امام كاتدرائية ستراسبورغ : « هذا فن الماني لا نرى له نظيراً في فرنسا » . وكان عليه قبل التصريح بذلك ان يقوم بنزهة في المنطقة الباريسية ، مهد هذا الفن الذي دعي بالقوطي اصطلاحاً . وحارب الالمان الفكر الفرنسي . اعتبروا الفرنسيين اكثر سطحية والانكليز اكثر شهوانية وسعياً وراء الرخاء من أن يصبحوا فلاسفة . وقد ارتأوا ان الالمان وحدهم قادرون على استنباط الفكر بما يتوفر لهم من عقل واتزان وميل الى البحث وبذل الجهد . وفي رأيهم ان واضعي دائرة المعارف قد طلعوا بالحماقات احياناً . فالمرء مشدود الى وطنه بكافة مصالحه ، يسعد بسعادته ويشقى بشقائه ، ولكنه اكثر شداً إليه بأجداده وتربيته ومنافعه وممتلكاته وكل كيانه : انه مدين له بكل شيء . على الالمان ان يرفضوا تقليد الفرنسيين ويكونوا المانا فقط .

وتباهى الاسبانيون ، بلسان الأب « فيخو » ، بأن لغتهم رنانة وموسيقية ومرنة اكثر من اللغة الفرنسية . ودافع اليسوعيون الاسبانيون المطرودون انفسهم دفاعاً حاراً عن الشرف القومي . وفي السنة ١٧٨٣ ، نشر الأب « فرنسسكو دي ماسدن » تاريخاً نقدياً لاسبانيا احصى فيه امجاد بلاده وجهد في تقديم الدليل على انها مدينة بها لفضائلها الخاصة لا للاجنبي . وتميز

سواد الاسبانيين باحتقار الأجانب وبالامانة الراسخة للملك والمعتقد القديم والوطن .

وكان للايطاليين لغتهم ومؤرخوهم وشعراؤهم القوميون وشعورهم بوحدة المنشأ ووحدة الطباع ووحدة الشرائع المدنية . وكانوا تواقين الى قيام اتحاد ايطالي . اخذوا يعترضون على تلقيب الايطالي غير الميلاني بالغريب في ميلانو : اذ ان الايطالي في وطنه حيثما وجد في ايطاليا. اخذوا على اللغة الفرنسية قلة مفرداتها وافتقارها الى الايقاع والموسيقى والروح الشعرية . حلم « فيكو » بايطاليا متجددة . وحاول « موراتوري » و « دنينا » انماء الوعي القومي بالتاريخ . وفي قصائد ومسرحيات تستوحي الوطنية الرومانية القديمة ، دعا « ألفييري » ايطاليا الى النهضة في ساحات الوغى . كتبت كاترين الثانية في السنة ١٧٨٠ : « ان ايطاليا تلتظر وترتجي » . لم تعد اليقظة حلماً .

أما اشراف روسيا فقد تلهوا بتلاوة جمل بالفرنسية دون أن يتكلموا اللغة الفرنسية . واعتبروا الآراء الفرنسية مُلَحاً ونكاتاً ، فلم تؤثر فيهم تأثيراً يذكر . وبقي الروس روساً يحتقرون الاجنبي .

فاذا ما حافظت اللغة والفكر الفرنسيان على تفوقهما في السنة ١٧٨٩ ، فان هذا التفوق قد تجاوز القمة وانحدر في طريق الهبوط . ولكن هذا الفكر وهذه اللغة هما ما اعطى اوروبا وحدتها الوحيدة . فكانت الغلبة للتنوع في النتيجة . وفقد الأمل تدريجياً بقيام وحدة اوروبية . وضعف بهذا الفقدان ، حتى قبل أن تحقق دول اوروبا اقصى توسعها في العالم ، الامل بسيطرة اوروبية دائمة على العالم اجمع ، وربما الامل بنشر لواء الحضارة الاوروبية في كافة انحاء العالم .

١٧- مَنظر حَدائق "بَاغَاتيل"

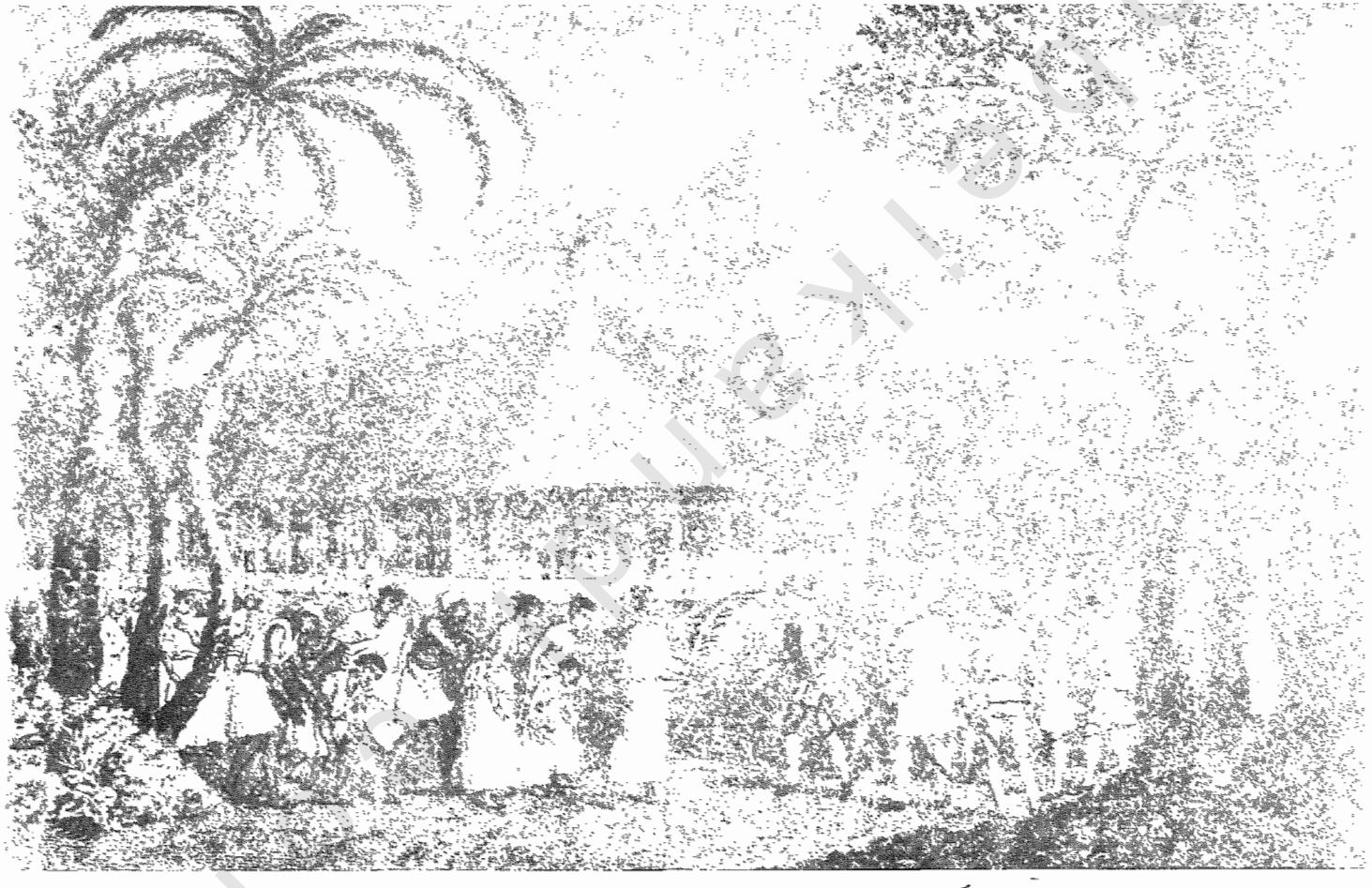

١٨- الملكة أوبيريا تتخلى عن تاهيتي للضابط واليس

١٩- بَرابِرة يُعِدّون طَعامَهُم

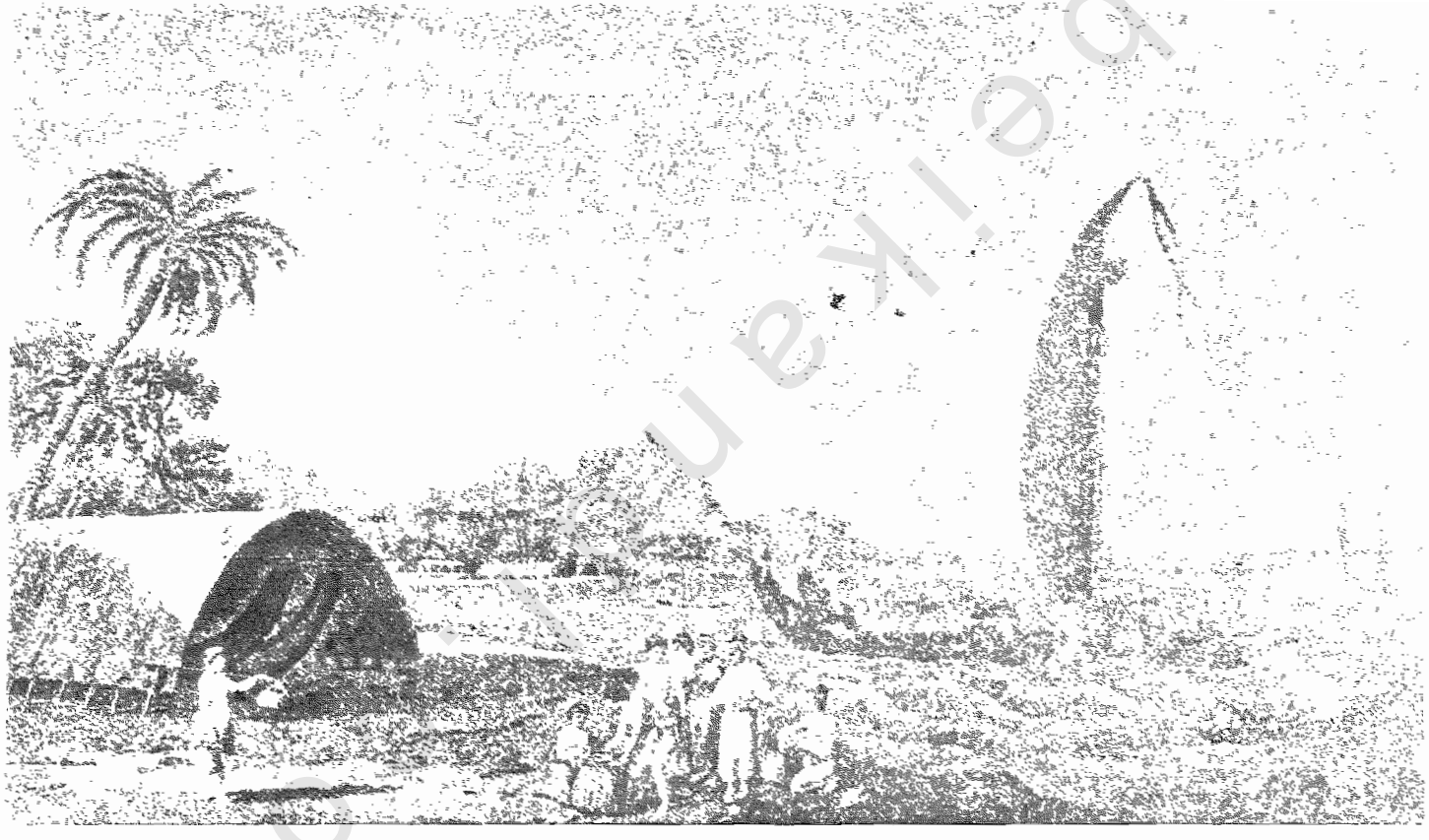

٢- منظر جزيرة "اوليباتيا"

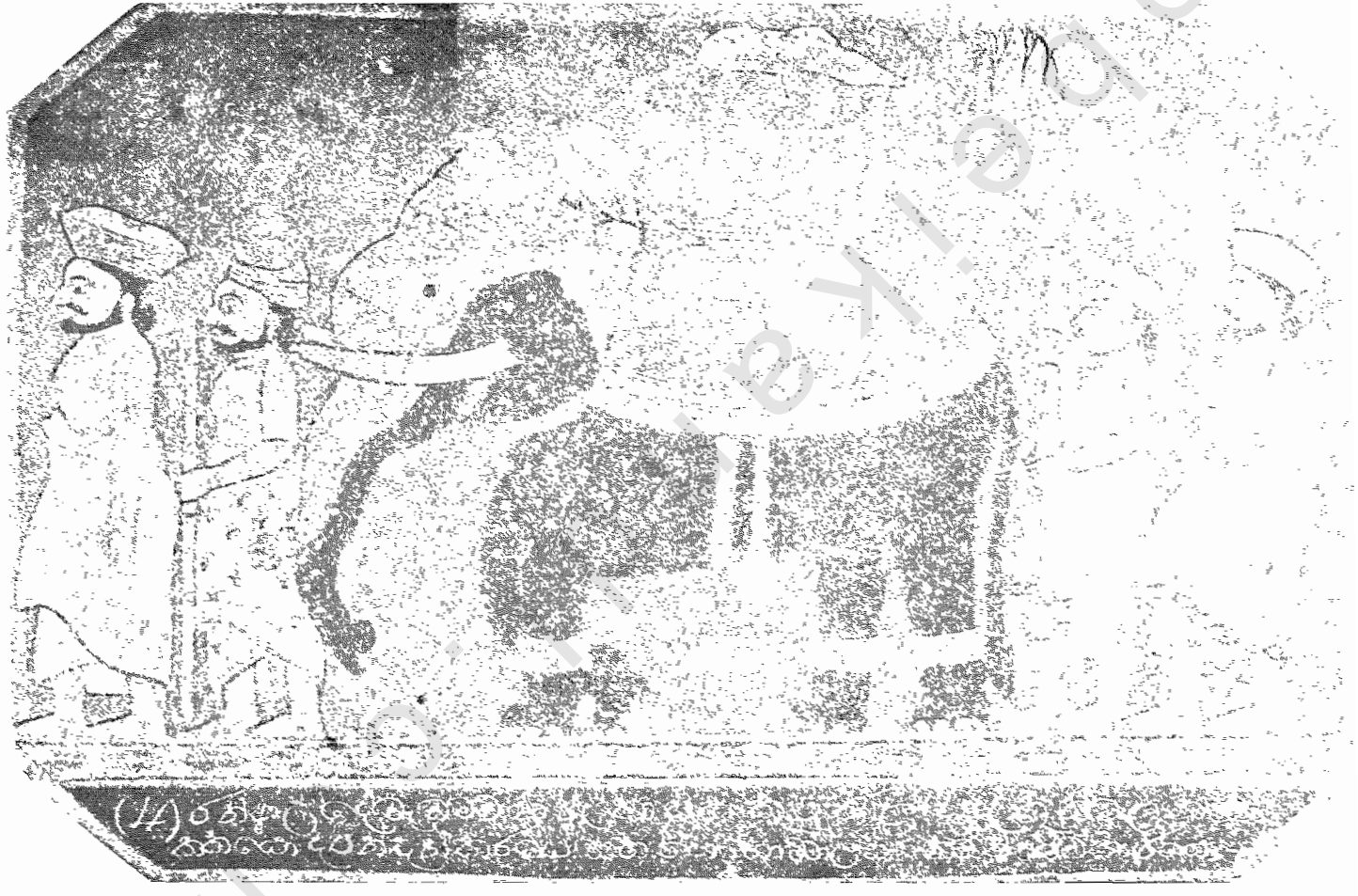

٢١- موكب المهـراجا

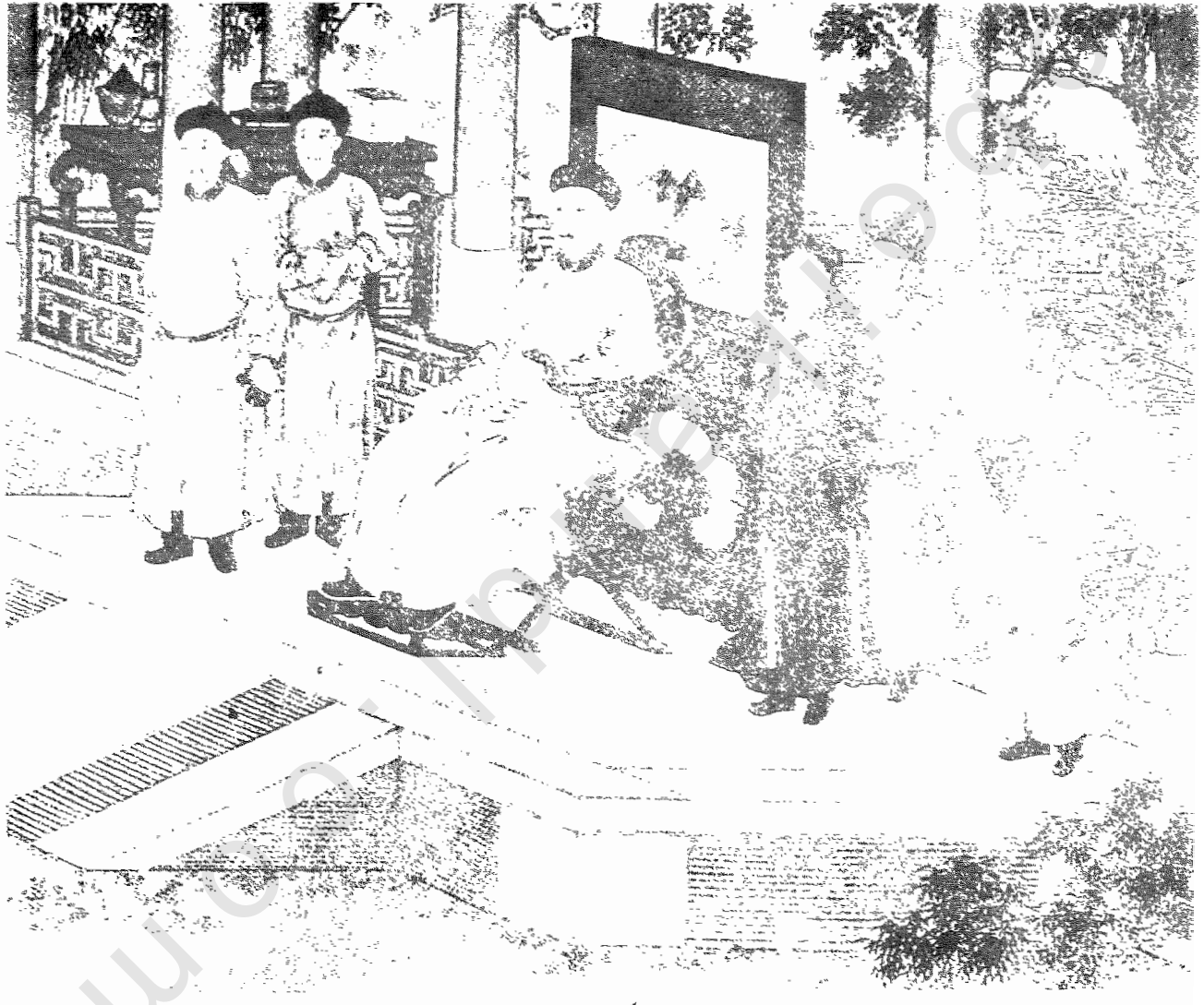

٢٢- الامبراطور "كيادلونغ" يتقبل الجزية

٢٣- مَرَاكِبُ صِينِيَّة

٢٤- منتزه على شاطئ البحر في اليابان

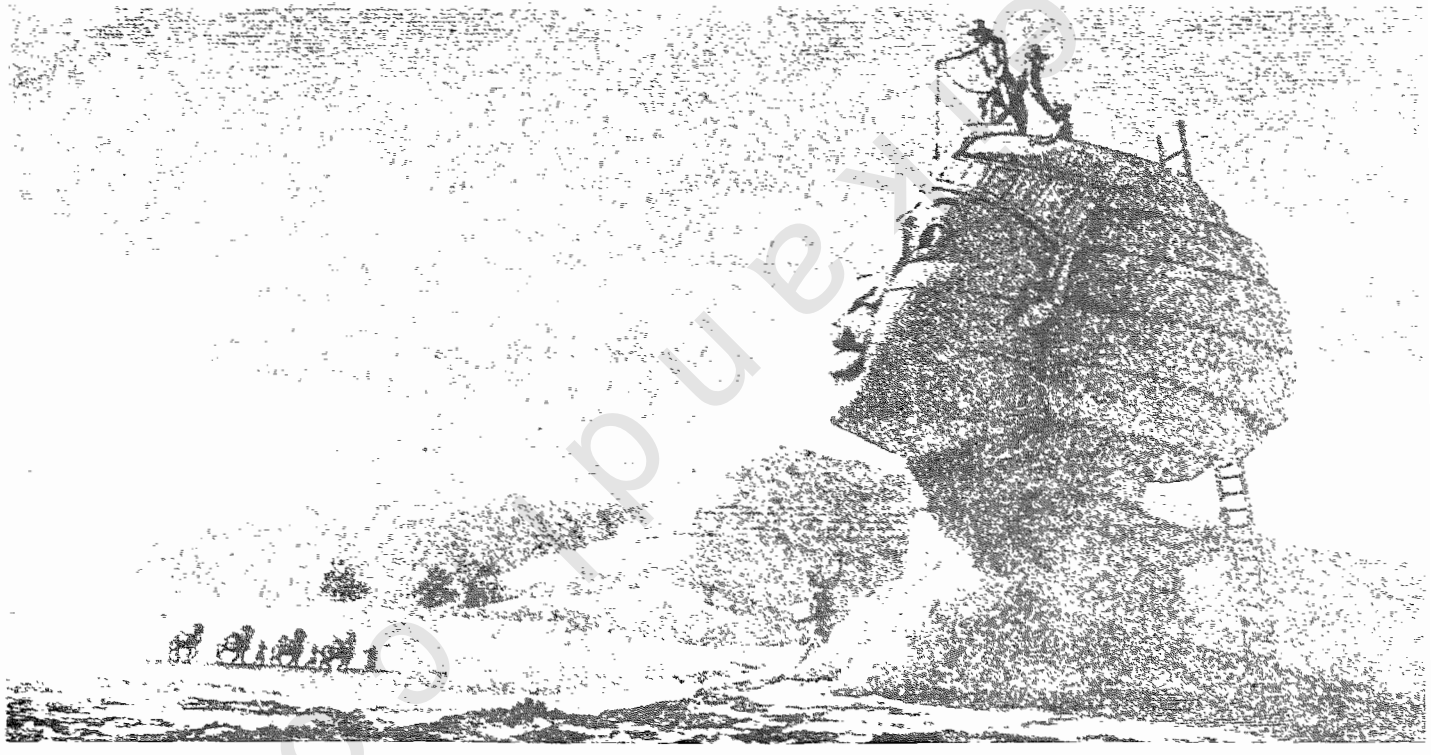

٢٥- وصول طليعة علماء الآثار الى مصر

٢٦- النخاسة في المرتنيك

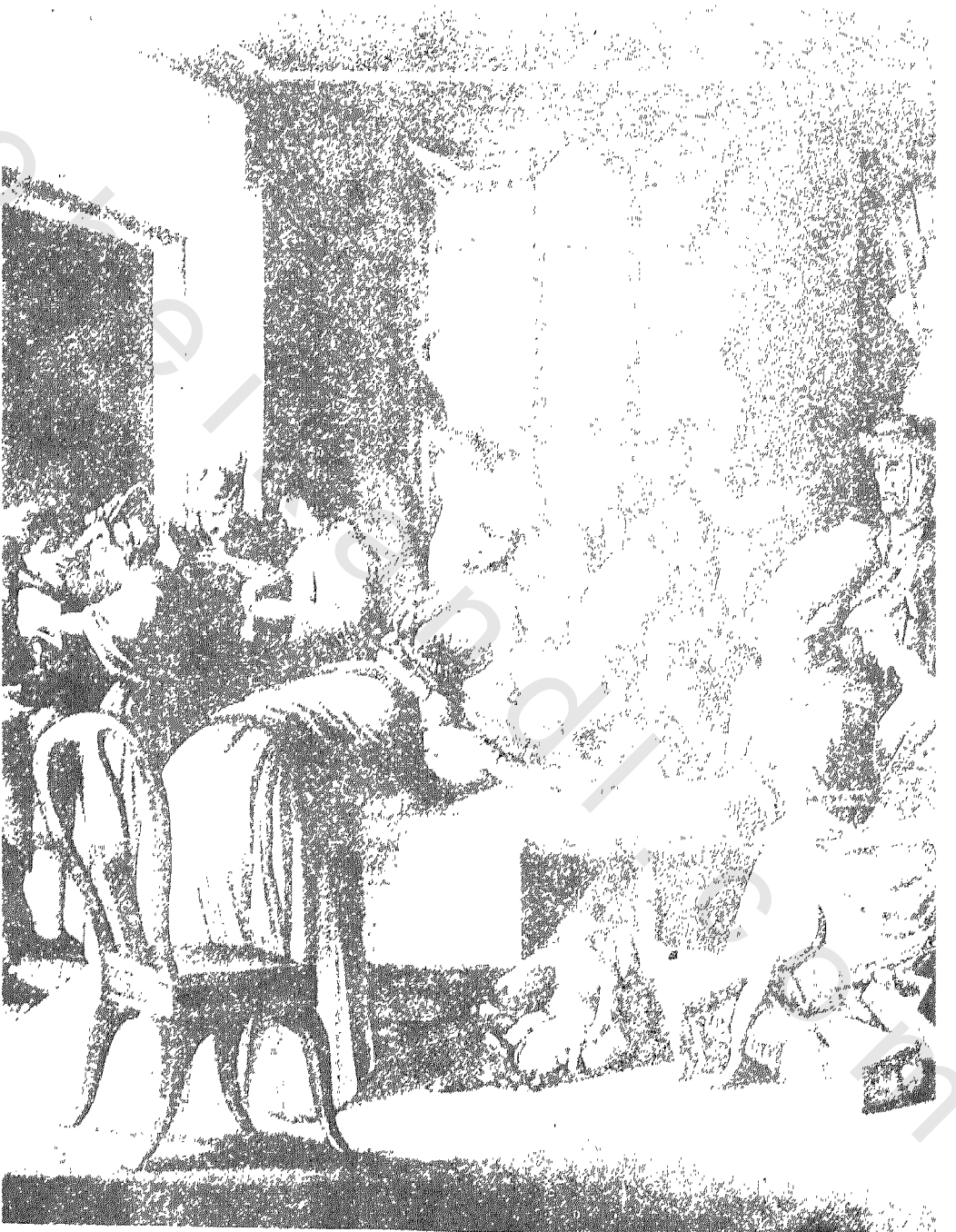

٢٧- نساء "ايدنتون" في كارولينا الشمالية يأتلين على الامتناع
عن استقباء الشاي حتى انقاذ بلادهن !

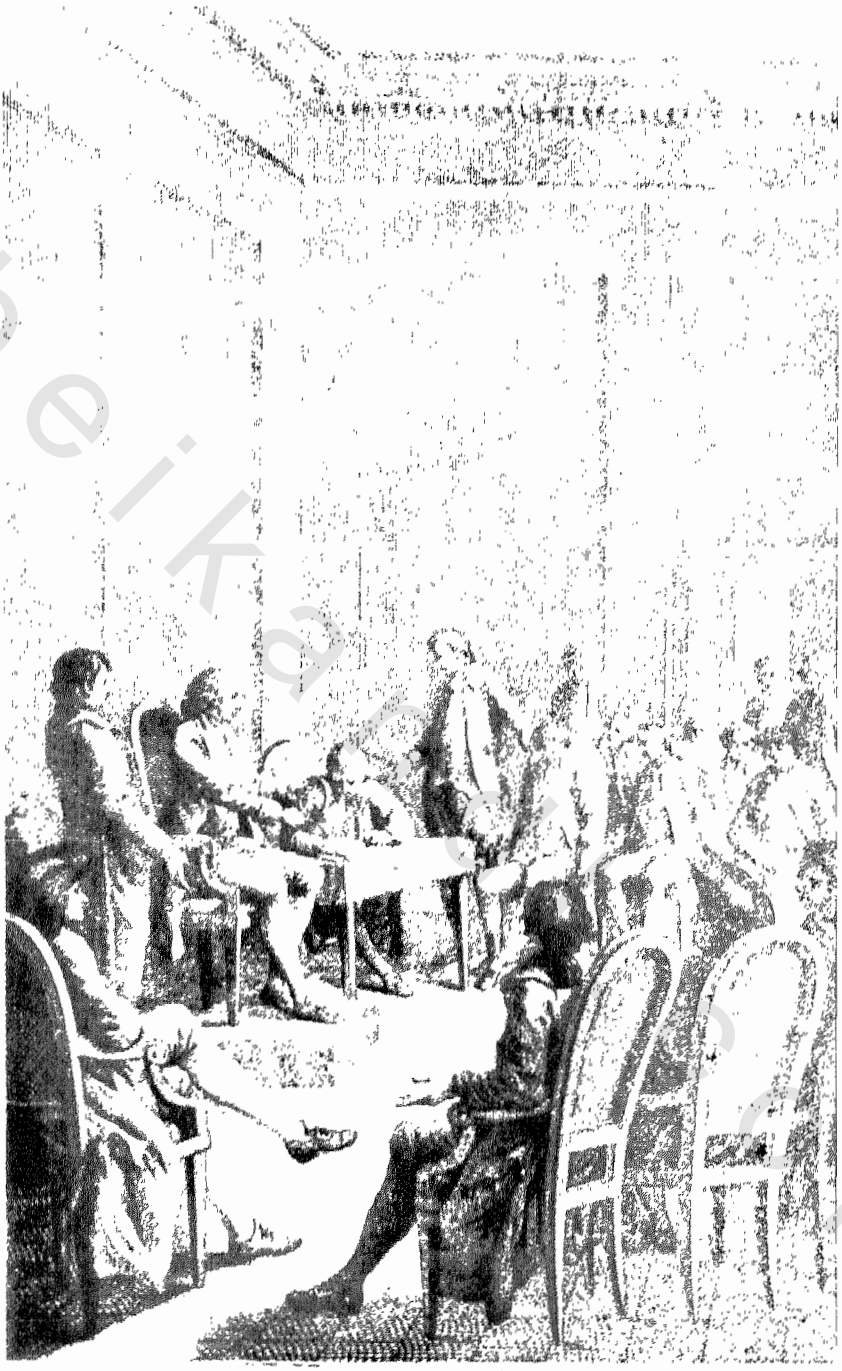

٢٨- جمعية الكونغرس الاميركي الاول

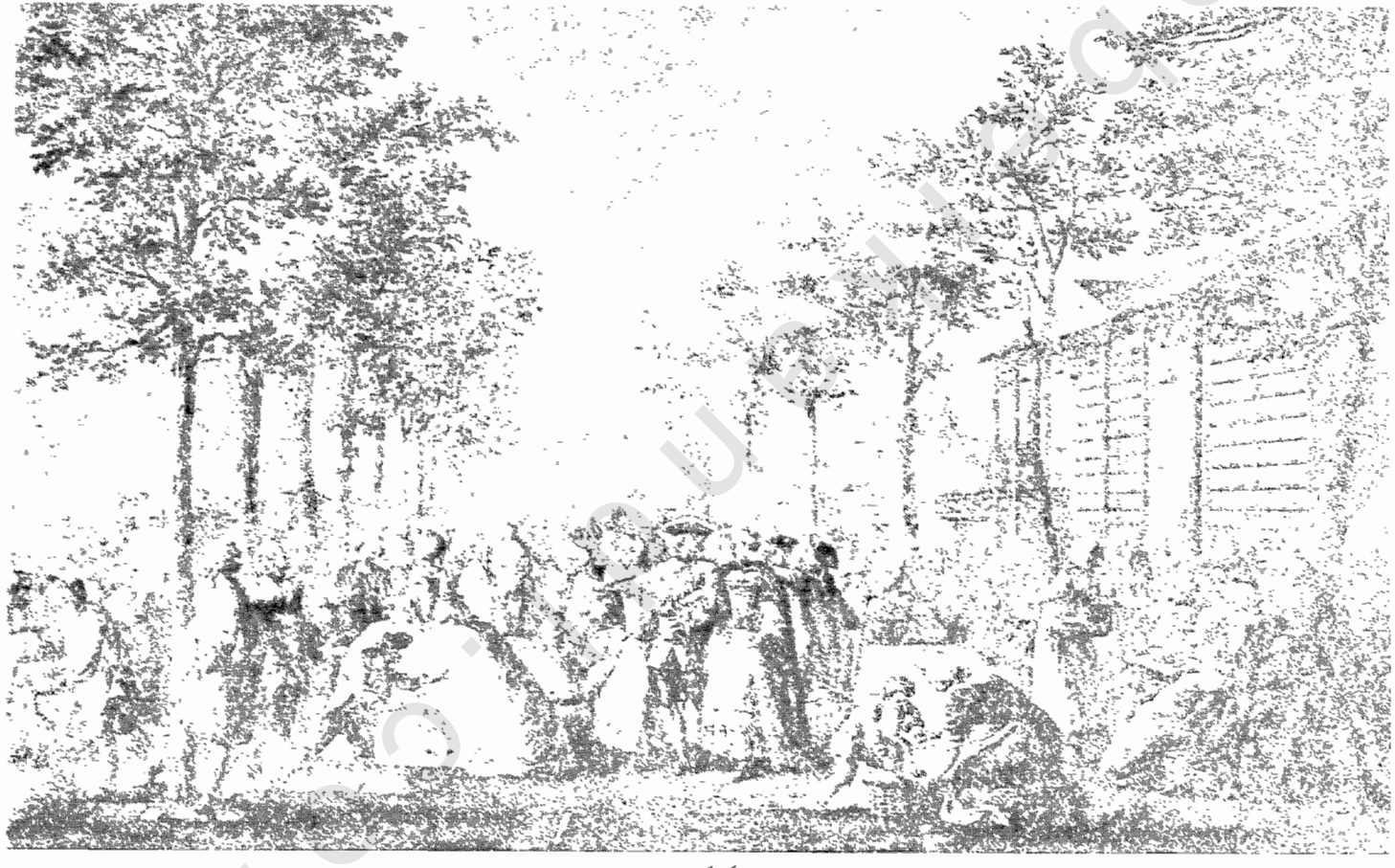

٢٩- نزهة عند أسوار باريس

٢٠- عيد احياء مدينة باريس على نهر السين عام ١٧٢٩

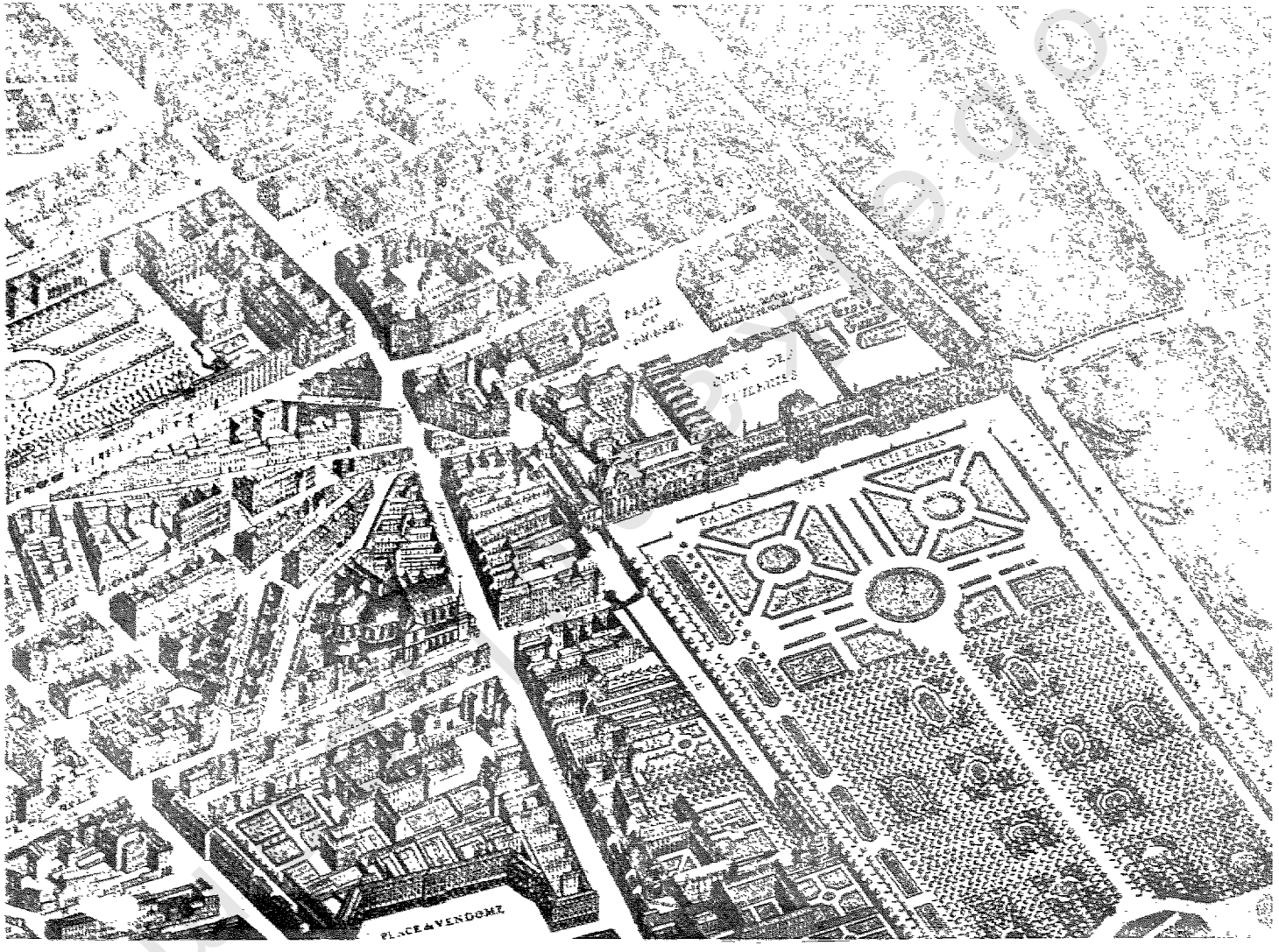

٢١- حي التويلري مع بناء الجمعية ومنتدى اليعقوبيين

٣٢- مشهد احد الشوارع : منشد الاناشيد

الكتاب الرابع

حضارة الانوار وحضارات ماوراء المحيطات

انتشار الحضارة الاوروبية

بعد ان تم للاوروبيين الاستبحار بامور الفلسفة الطبيعية ، وتوفرت لهم خير الوسائل العملية [1] ، انصرفوا لاستكشاف عوالم جديدة وراحو يرغلون عميقاً في المعروف منها لديهم : وقاموا بفتوحات واتصلوا بشعوب جديدة وزادوا كثيراً من معارفهم ، فانتشرت الحضارة الاوروبية في هذه البلدان والاقطار التي شغلها الاوروبيون ، وراح جانب محترم من ابناء هذه البلدان ما زال مع ذلك ضعيفاً جداً اذا ما قارناه بالسواد الاعظم من سكان تلك الاصقاع ، يقتبس ، ما وسعته الحيلة ، الافكار الاوروبية .

لا بد من ان نلحظ ، بدء ذي بدء ، هذا الفارق الكبير بين حضارة الشعوب والاقوام القاطنين ما وراء المحيطات ، وبين حضارة الاوروبيين . فقد وجد هؤلاء امامهم اجناساً بشرية من مستويات حضارية مختلفة : هؤلاء من العصر الحجري ، وأولئك ممن يعملون في رعي الماشية ، جميعهم من العقلية الغيبية او على النظام اللاهوتي ، اي انهم كانوا يعللون ، على تفاوت بينهم في مستوى النضج العقلي الذي بلغوه ، الظواهر الطبيعية التي وقعوا تحت تأثيرها ويردونها الى ارادات شبيهة بارادة الانسان ، انما من عيار اقوى وادهى ، ومن قدرات اقعل ، كالارواح والأبالسة والآلهة . وكان من المتوجب على هؤلاء الاقوام ان ينتقلوا سريعاً من المذهب الحيوي الذي يقول بوجود الارواح في الحيوان ، ومن الشرك الذي يهيمون في ضلالاته ليصلوا تدريجياً الى عقيدة التوحيد ، اي الى طور التجريد والميتافيزيقا . وهو طور يحاول فيه الانسان تفسير كل شيء برده الى هذه الكائنات الجبارة ، كالطبيعة مثلا ، لينتقلوا منه الى الدور الوضعي او العلمي ، وهو ما يميز فلسفات الاوروبيين او يطبع تفكيرهم ، في القرن الثامن عشر ، هذه الافكار التي تأرجحت بين هذه الادوار الثلاثة التي بلغ اليها الانسان ، اذ ذاك ، مع تغليب العنصر الميتافيزيقي او الوضعي .

---

(١) راجع الكتاب الاول والثاني

ومن جهة اخرى ، فالسواد الاكبر من الاوروبيين الذين خرجوا من اوروبا للعمل في البلدان الواقعة عبر المحيطات والعيش فيها طلباً للرزق ، انما هدفوا في الدرجة الاولى ، للعمل في مجالات التجارة . فالفكرة الرئيسية التي سيطرت على هذه الجماعات وعلى الحكومات والهيئات الرسمية انما كانت الحصول على المال والاثراء السريع . ويرى البعض ان العصر سجّل شيئاً من التأخر في هذا المضمار بالنسبة للعصور السابقة . فمنذ القرن السادس عشر ، قام الاسبان فعلاً بمحاولات ملحوظة ، وجهود مبرورة رموا منها الى رفع الهنود الحمر في مراتب السلم الاجتماعي . وفي القرن السابع عشر ، تجنّد الوزير ريشليو وتلميذه كولبير ، لعملية تمدين ابناء البلاد الاصليين ، واسعة النطاق ، ولانشاء فرنسا الجديدة في العالم الجديد . اما في القرن الثامن عشر ، فقد شالت الروح البورجوازية ، واستبدت في النفوس ، روح الكسب والاثراء على غيرها من المشاعر الإنسانية الرفيعة . فلنُصغ لما يقوله الكتاب الفلاسفة الذين عبروا احسن تعبير عن احاسيس الطبقة البورجوازية ومشاعرها، أمثال مونتسكيو وفولتير والكتّاب الموسوعيين خصوم سياسة الاستعمار واعداء الداعين اليه، هذا الاستعمار ، مولّد الحروب ، والباعث على الاغتراب والهجرة ، والمضني للمعمرين ، مع انهم كانوا ، من جهة اخرى ، من أشد الداعين الى المزدرعات الاستثمارية ولا سيما الاستوائية منها لانها تمد المستثمرين بالمواد والمحاصيل الزراعية التي هم بأمس الحاجة لها والتي في سبيلها اجازوا الرق واباحوا الاسترقاق ، كما اباحوا طرد العروق والاجناس الوطنية الواقفة حجر عثرة في طريق المستعمرين والحد من حرية العمل عندها ، والقول بمبدأ « الحكر » هذا المبدأ الذي يحصر حق التجارة في المستعمرات بالدولة الأم . ولهذه الاعتبارات، آثرت الدول والحكومات ان تترك حرية العمل والتصرف في هذا المجال للشركات التجارية ذات الامتياز التي تعرف كيف تستثمر ، على الوجه الاكمل ، المرافق التجارية ممثلة بهذه الوكالات التي نثروها على السواحل البحرية ، عبر البحار او في هذه الجزر المعروفة بخصبها ووفرة انتاجها وتنوع محاصيلها ، بدلاً من استثمار التاج نفسه لها ، وبدلاً من تدويخ مساحات شاسعة عبر البحار في حروب لا نهاية لها ولا حد. فالاوروبيون الذين يقبلون على الاغتراب هم على الغالب بحارة وقدامى المحاربين وتجار يفتقرون ، اصلاً ، لثقافة مُعرقة ، عُرفوا بنشاط عارم وجاشت نفوسهم بالاحاسيس العنيفة ، وحب الكسب والرغبة الشديدة في الاثراء السريع بجميع الوسائل الممكنة . ولذا نظر اليهم سكان البلاد الأصليون نظرة ملؤها الرعب والكره وربت فيهم سوء الظن وحملتهم على التحرز من كل اوروبي . اما اقوام آسيا ، ولا سيما من قام منهم في أرجاء آسيا الموسمية والذين عُرف عنهم تمسكهم الشديد بتربة آبائهم وارض آلهتهم واجدادهم ، فقد عاشوا ضمن اُطر ثابتة قوامها هذه الاسر الكبيرة التي تشربت روح النظام وتشبعت من روح الاعتدال واستقرت عندها نُظم داخلية ثابتة ، اصيلة ، فقد نظروا الى الاوروبيين نظرتهم الى برابرة اخشوشنت طباعهم على استعداد للتخلي عن اسمى المثل والعبث باقدس المحرمات في سبيل إشباع جشعهم وتحقيق

اطماعهم الاشعبية . وقد رأى فيهم الصينيون ... « ان هؤلاء البرابرة هم بالاحرى وحوش ضارية ، لا تحسن معاملتهم معاملة اناس متمدينين . فمعاملتهم وفقاً لناموس العقل ولمقتضيات الحجى مجلبة للخزي والعار . وقد ادرك الملوك قديماً هذه الحقيقة ولم يستعملوا في وجه هؤلاء البرابرة سوى العنف والحيلة . فليس من اسلوب آخر يعتمد عليه في التعامل معهم » .

والاوروبيون الوحيدون الذين تقدموا من ابناء البلاد الاصليين بفكرة تؤيدهم بخير ما لديهم واعطائهم فكرة عن العالم والكون اساسها المحبة التي تستطيع وحدها ان تؤمن للناس ، في هذا العالم ، السعادة ، وفي تلك الحياة الابدية ... كانوا المرسلين الكاثوليك . فقد تولى البابا ادارة هذه الارساليات بواسطة مجتمع انتشار الايمان الذي كان بمثابة وزارة الارساليات الكاثوليكية . فكان هذا المجمع ، يرسل الى البلدان التي يكرز فيها بالانجيل ، قصاداً رسوليين وابناء الرهبانيات الدينية ، ولا سيما من بين اليسوعيين والدومنيكيين والفرنسيسكان والكرمليين والاغوسطونيين ، وجمعية المرسلين في الخارج ، والآباء اللعازريين . الا ان عددهم كان قليلاً جداً . فلم يتجاوز عدد المرسلين اليسوعيين العاملين في الارساليات الدينية ٣٥٠٠ راهب في العالم كله ، واقل من هذا العدد ، عدد المرسلين الآخرين . وجمعية المرسلين في الخارج لم يتم لها اكثر من ٥٠ مرسلاً عملوا معاً في بلدان الشرق الاقصى . وقد خسرت هذه الارساليات من فعاليتها وقوة تأثيرها بالنظر لما قام بين المرسلين من اختلاف حاد حول منهجية العمل وطريقة الاسلوب ومن جدل ونقاش ضار حول طريقة الآباء اليسوعيين في حمل الرسالة الدينية (معركة الطقوس) ، وهذه المنافسات الحادة التي شجرت بعنف بين هؤلاء الرهبان والمرسلين على اختلاف رهبانياتهم وجنسياتهم ، ولا سيما من جراء تكالب الملوك على مناهضة اليسوعيين ومحاربتهم بكل الوسائل لديهم ، منذ عام ١٧٥٨ ، مما ادى الى الغاء هذه الرهبانية عام ١٧٧٣ ، فادى بالتالي الى القضاء تقريباً على كل النشاط الرسولي في العالم . وفي سنة ١٧٨٩ ، كان عدد المرسلين العاملين في حقل الرسالات قد هبط الى ٣٠٠ مرسل لا غير وقد خلخل عملهم الديني ، تدخل التجار والحكومات التي تدعي المسيحية ، ومن جهة اخرى ، سوء ظن اسياد البلاد بهؤلاء المرسلين ، اذ نظروا اليهم نظرتهم الى جواسيس يعملون عيوناً على البلاد واهلها ، بل اعتبروهم طابوراً خامساً يعد العدة ويهيء الاسباب للغزو وافتح مسلح . لهذه الاسباب ولغيرها مما لا مجال لذكره هنا ، كان عمل المرسلين في البلاد التي عملوا فيها ، اشبه ما يكون مساً سطحياً اكثر منه توغلاً او تغلغلا . والاغرب من هذا كله وادهش ما في الامر هو ان تكون هذه الرسالات سجلت اكثر من ارتدادات فردية ، فقد توصلت الى تأسيس مجتمعات مسيحية لها حياتها ونشاطها الزاخر وعوامل بقائها وديمومتها.

الفصل الأول

الاكتشافات الأوروبية في القرن الثامن عشر

في مطلع القرن الثامن عشر كانت مساحات شاسعة في جميع اطراف العالم لا تزال بعد مجهولة مقفلة، منها مثلاً المحيط الهادي والاصقاع القطبية ومجاهل افريقيا والقسم الشمالي والشرقي الشمالي من القارة الآسيوية، والشمال الغربي من القارة الاميركية واجزاء واسعة في اميركا الجنوبية. هنالك شعوب وأقوام وطنيون تعرفوا إلى مساحات واسعة وتوصلوا احياناً الى وضع خرائط ومصورات جغرافية. إلا أن معلوماتهم هذه لم تكن من الذيوع والشمول بحيث تصبح في متناول كل شخص في كل زمان وفي كل مكان، لافتقارها أساساً لعلامات هادية ومعالم واضحة الحدود ولحاجتها إلى وسائل حسابية ذائعة، ولافتقارها لعلم الفلك والرياضيات الفلكية. فقد كانت بالأحرى، مسائل روتينية تحفظ بالمزاولة والمراس في هذه الاسفار والرحلات تحت اشراف مرشد مجرّب ودليل محنّك. فالأوروبيون وحدهم كان في مقدورهم، بفضل ما توفر لهم من علماء الفلك وبفضل ما تم لهم من عدة وأدوات، أن يحددوا، بالدقة المطلوبة، الاكتشافات الجغرافية التي حققوها وأن يشيروا إليها بواسطة الاحداثيات الجغرافية وغيرها من وسائل التعيين والتحديد.

كانت الاكتشافات البحرية، حتى عام ١٧٦٣ قليلة العدد، إذ كان الاوروبيون في الغرب منهمكين عنها بالاعمال التجارية. وهذه الحركة الاستكشافية التي لم تتميز على العموم بالنشاط، تناولت الكشف عن مناطق تقع في اليابسة أو في البحر، فالرحلات الرئيسية هي التي قام بها الروس فحملتهم الى اقصى أطراف سيبيريا. فقد بلغ القوزاق، في القرن السابع عشر، مشارف المحيط الهادي ولكن كان عليهم أن يأتوا بالدليل القاطع على ان آسيا لم تكن لتتصل فعلاً بأميركا. وقد اخذ القيصر بطرس الاكبر عام ١٧٢٠، بهذه المغامرات الجغرافية وهذه الحركة الاستكشافية، رغبة منه في السيطرة على هذه الاصقاع النائية، ومجاراة للغرب في ميدان الكشف العلمي. فقد حالف الحظ البحّار الدانماركي بهرينغ، في الكشف عن المضيق الذي يحمل اسمه، منذ عام ١٧٢٠، ثم راح يستكشف تباعاً سواحل اميركا الغربية انطلاقاً من قمة جبل سانت ايلي فمار على الجزر الالوشيانية الملتئرة حباتها كحبات سبحة طويلة، وتوفي في إحدى

جزر بحر بهرينغ الواقعة بين الجزر الالوشيانية وشبه جزيرة كمتشتكا ، سنة ١٧٤١. وتمكن أحد نوابه ومساعديه النشيطين من الكشف عن بحر اوكوتسك ، عام ١٧٣٣ ، كما استكشف أرخبيل الكوريل ، وبلغ مشارف اليابان . أما على اليابسة ، فقد بلغت بعض فرق الجيش حوض مجرى نهر «الإيانا» عام ١٧٣٣ ، كما استكشفوا بواسطة زلاجات تجرها الكلاب، شطآن المتجمد الشمالي، كما قام « لابتيف » بين (١٧٣٦ – ١٧٤٠) وبروتشيتشف ، عام (١٧٣٥ – ١٧٣٦) بمغامرات بهذا الصدد . واخيراً بلغ تشيليوسكين عام ١٧٤٢ ، الطرف الشمالي لآسيا إذ ادرك الرأس الذي يحمل لليوم اسمه .وقد اثبتت هذه الكشوف الجغرافية المهمة ان القارتين منفصلتان تماماً الواحدة عن الاخرى وأن كل واحدة منهما تخفي ضمن حدودها مناطق شاسعة يتحتم الكشف عنها . وقد بقيت تقارير بهرينغ مدفونة بين المحفوظات الامبراطورية ليس من يفيد منها ولا من ينتفع بما فيها من المعلومات المفصلة حتى اواخر القرن الثامن عشر بعد ان كشف العالم الجغرافي « كوكس » والعالم الطبيعي بلاس عن اهميتها العلمية .

في اميركا الشمالية، استمر أفراد اسرة «لافيراندري» الفرنسية تحت رعاية بوهارنيه حاكم كندا العام وحمايته ، في بحثهم عن الفراء ، ورغبة منهم في الوصول الى « بحر الغرب» ، رأوا أن يكرسوا كل نشاطهم باحثين منقبين محددين المسالك باتجاه الشمال الغربي ، فاستكشفوا في خلال ٢٠ سنة السباسب والسهول الكندية كما ان بيير وفرنسوا لافيراندري بلغا ، في غرة كانون الثاني ١٧٤٣ ، السلسلة المعروفة بالجبال الصخرية .

ووضع الكاهنان الفرنسيان فوييه وفريزييه كشوفاً وخرائط لاميركا الجنوبية مفيدة للغاية . وقام بالعمل ذاته المستكشف الاسباني كيروغا في ما يتعلق بالاصقاع النائية الى اقصى الجنوب المعروفة باراضي ماجيلان .

اما المحيط الهادي ، فقد شاهد حملات استكشافية عديدة ، منها الرحلات البحرية التي قام بها بين ١٧١٤ – ١٧١٨ ، البحار الفرنسي لابارينه لوجنتيل والبحار الالماني الاصل « روغجيفن » من مدينة مكلنبورغ اذ قام في هذا المحيط ، برحلات لحساب البلاد الواطئة ، عام ١٧٢٢ ، استكشف معها جزيرة الفصح ، وجزر بوموتو وسامو ، والرحالة الانكليزي أنسون (١٧٣٩ – ١٧٤٣) الذي احتجز ، في المياه الاسبانية سفينة عليها مجموعة من الخرائط والمصورات الجغرافية ، فكانت لقطة موفقة للغاية إذ اعتاد الاسبان والبرتغاليون من قبل ، أن يبقوا سراً ويخفوا عن اعين الناس ، سر الاكتشافات البحرية التي وفقوا إليها محافظة منهم على طرق مواصلاتهم التجارية . وقد سهل نشر هذه الوثائق الهامة وإذاعتها على الملأ ، مهمة الاستكشافات الجغرافية في النصف الثاني من القرن الثامن عشر .

لم تلبث حركة الاستكشافات الجغرافية التي توقف نشاطها اثناء الحروب التي وقعت في منتصف القرن – ان استأنفت اعمالها العلمية بعد عام ١٧٦٣ . فقد جاب هيرن وماكنزي ،

بطائح شمال كندا .. فبلغ الأخير منها ، عام ١٧٨٩ ، دلتا النهر الذي يحمل اسمـــه في هذه المنطقة . اما الاكتشافات الداوية فهي تلك التي قام بتنظيمها واعداد اسبابهـــا الحكومتـــان الفرنسية والانكليزية ، في سبيل الوصول الى القارة الاوسترالية (او الجنوبية) التي مـــا فتىء العلماء ، منذ بطليموس ، يفترضون وجودها مقابل هذه الكشوف القائمة في الشمال . وقد زاد الفضول العلمي بين الناس وحب الاطلاع ، كما ينوه بذلك الكاتب والمؤرخ الفرنسي شـــارل دي بروس ، في كتابه الموسوم : « تاريخ الاسفار البحرية الى الاراضي الاوسترالية » (١٧٥٦) ، اذ يقول : « يجب الا نعلق اهمية كبرى على الفوائد التي تنجم عن هذه المغامرات ، فهي ستظهر ، ولا شك ، فيما بعد . علينا ان نفكر الآن بالناحية الجغرافية ، وبهذا الفضول العلمي الناجم عن الكشف وما سيضيفه الى العالم المعروف مـــن اراض جديدة ، كانت بالامس مجهولة لدينا ، كما ستمكننا من التعرف على اقوام جديدة » . وقد عمل جون كالندر (*Callender J.*) من جهته على نشر مثل هذه الأفكار ، في انكلترا ، معبراً عن امانيه واماني الجميع بان يؤول هـــذا النشاط كله فيساعد على نشر المسيحية بين سكان البلاد الأصليين . وقد وضع الملوك ، في هذه القرارات التي اتخذوها ، نصب أعينهم ، شغف الناس بالعلم واقبالهم على حياضه . فقد اوصى الملك لويس السادس عشر ، امراء البحر الفرنسيين ، إذا ما التقى لهم والتقـــوا بالبحـــار الانكليزي كوك الذي يحاول مد العالم المعروف ، خلال حرب اميركا ، ان يعاملوه معاملة الند للند ، كصديق ورصيف لهم . ولما كان الهيام بالعلم من الامور التي استحكمت بالعقول واستبدت بالقلوب ، وعقدت الآمال المريضة على اكتشاف اصقاع جديدة ، حرص الحكـــام على ان يحافظوا كرامتهم ويصون عندهم ماء الوجه . واخيراً ، كم يجب ان تكون والهة الغنى هـــذه القارة الجنوبية في نظر الفرنسيين ، فيموضوا بمشورهم عليها ، عن الحيف الذي نزل بهم من جراء خسارتهم الهند ، كما هم الانكليز ان يحافظوا ، من جهتهـــم ، على السبق الذي حققوه في الميدان التجاري .

وقد اخذوا يُعدّون الحملات الاستكشافية بمنتهى الدقة ويهيئوا لها الاسباب الكفيلة بالنجاح . فبدلاً من التعويل على الاقاويل والروايات المتواترة ، راح قادة الحملات وربابنتهـــا يزودون بمعلومات دقيقة وضعها لفيف من العلماء المدققين بعد ان لفتوا انظارهم الى العراقيل والصعوبات التي تعترض سبلهم ، وطريقة مواجهة حلها بالتي هي أحسن ، والأهداف التي يجب ان يضعوها نصب أعينهم من هذه المغامرات العلمية . وقد اصطحبوا معهم فريقاً مجرباً ، مختلف التجارب من هؤلاء العلماء ، بينهم علماء الفلك والاطباء وعلماء التاريخ الطبيعي وأمدّوهم بادهى ما استنبطه العلم من عدة وأدوات ووثائق هي غاية في الدقة والضبط . وعند رجوعهم الى اوطانهـــم كانوا يحرصون على اذاعة ما تم لهم من معلومات جديدة ليفيد منها من يرغب فيها .

اعتمد قباطنة البحار بالأحرى ، سفناً صغيرة الحجم سعتها بين ٣٠٠ ـ ٤٠٠ برميل وذلك تفادياً منهم لأخطار الشروب في الرمل أو الجنوح الى الشواطىء او الغرق . وحرصوا على ان

تكون سفنهم هذه متينة قوية ، أردفوها بعدد من قوارب النجدة ، كما حرصوا من جهة اخرى ، على تأمين أسباب الصحة واختزان مبيدات الحفر ، وموّنوها بالجعة والشوكروت ، وهكذا حاولوا خفض نسبة الوفيات . ففي حملته الثانية التي استمرت ثلاث سنوات ، لم يخسر كوك سوى بحّار واحد ، وبسبب المرض .

واتخذت احتياطات شديدة اثناء الرحلة . فقد كانت البعثة تتألف جهد المستطاع ، من سفينتين تسيران على بعد مدى الصوت ، الواحدة من الاخرى . وكانت تكثر فيها اعمال الرصد الجوي ، كما تكثر عمليات تحديد المواقع وسبر الاغوار على اعماق مختلفة . فعندما تلوح في الافق معالم ارض ما ، مهما دقت او رقت ، كانت السفن تسير الهوينا متمهلة في سيرها الوئيد فتقوم بعض القوارب بعملية استكشاف سواحل الجزيرة البادية للعيان . وكان التحفظ والحيطة القاعدة المتبعة مع أبناء البلاد ، اذ العرف المتبع هو ان تسير السفينة الهوينا الى ان يحين الظرف المناسب لمبادرة السكان الوطنيين واستمالتهم عن طريق هدايا صغيرة والتنكب عن كل عنف او شدة في علاقاتهم معهم .

وبفضل هذه التدابير الحكيمة واجراءات اللين لم تقع سوى كارثة واحدة هي التي راح ضحيتها الرحالة الفرنسي لابيروز الذي قتل عام ١٧٨٥ على يد بدائيي جزيرة فانيكورو .

وفي عام ١٧٦٦ ، ابحرت بعثتان على فارق بسيط الواحدة من الاخرى ، تألفت الاولى وهي انكليزية ، من البحار والـيس وكارتريت ، كما تألفت الثانية من البحار الفرنسي بوغانفيل . فلم يعتم البحاران الانكليزيان ان افترقا فانفصلا إثر إعصار أهوج عبث بهما إثر اجتيازهما مضيق ماجلان بقليل . فقد اتجه واليس صوب جزيرة بوموتو ، واكتشف عام ١٧٦٧ ، جزيرة تاهيتي التي فتنته بسحرها وغادرها والدموع ملء عينيه ، ومنها بلغ جزيرة ساموا وارخبيل الاصدقاء ، كما اكتشف جزر الماريان . اما كارتريت ، فقد امر بمحاذاة جزيرة بتكيرن الصغيرة ومنها افضى الى جزيرة سانت كروى ، وعرّج على جزر سلمون واستكشف جزيرة إرلندا الجديدة . واتضح من هذه الرحلات ان جزيرة بريطانيا الجديدة انما تتألف من جزيرتين : اما نتائج هاتين الرحلتين فلم يحدّ من التوفيق الذي صادفها سوى عدم كفاءة الإعداد الذي رافقها . وقد اضيفت بواسطتها اسماء جديدة على خريطة المحيط الهادي . اما بوغانفيل ، فقد انطلق وبصحبته احد علماء الفلك ، وآخر من علماء الطبيعة وتحت تصرفه عدد من الساعات الدقيقة التي تقيس الثواني . ففي عام ١٧٦٨ ، حدد موقع جزيرة بوموتو ، واستكشف ، هو الآخر ، جزيرة تاهيتي التي فتنته بسحرها وسماها سيتير الجديدة . واستكشف جزر ساموا وجزر السيكلاد الكبرى التي اطلق عليها كوك ، فيما بعد اسم هبريد الجديدة ، وجزيرة لويزياد وغينيه الجديدة ، وعاد عن طريق جاوا وجزيرة فرنسا . فكانت رحلته هذه اول رحلة جاءت غاية في الدقة العلمية جرى فيها تحديد خطوط الطول . وفي سنة ١٧٧١ ،

نشر بوغانفيل رحلته بعنوان : « رحلة حول العالم » لفت عند ظهورها رواجاً جنونياً اوحت اموراً لديدرو ولهردر .

ولكن هؤلاء البحارة الذين سيطرت عليهم فكرة المستعمرات الحارة التي تؤلف مجالاً تجاريا هاماً ، اتجهوا ، بعد ان داروا حول اميركا الجنوبية نحو الشمال الغربي ، الى ما وراء خط الجدي ، ثم داروا فجأة باتجاه الغرب ، محتفظين بجل نشاطهم للشمال . وقد جاءت رحلاتهم هذه بفوائد جمة الا انها تركت دون حل ، مشكلة كبيرة استأثرت بافكار الناس ووساوسهم . هل يوجد يابرى قارة اوسترالية جنوبية ؟ وهـذه الارض التي اكتشفها تسمان ، في القرن السابع عشر (زيلاندا الجديدة) ألم تكن هي نفسها هولندا الجديدة ؟ (ساحل اوسترالبا الغربي) وهـذه الاخيرة هل هي سلباً ام ايجابا ، غيلية الجديدة . كل هذه الأسئلة كان على الرحالة الانكليزي كوك ان يجيب عليها بما لا يدع مجالاً للشك .

قررت الاميرالية البريطانية ان توفد الى جزيرة تاهيتي ، بعض علماء الفلك ليقوموا عليها ، عام ١٧٦٩ ، بأرصاد جوية ترمي الى درس وقوع اقتران الزهرة والشمس ، بغية تحديد المسافة بين الزهرة والارض . واختارت الاميرالية قائداً للحملة جيمس كوك ، وهو اختيار في محله صادف ترحيباً حاراً . فقـد كان كوك بحـاراً بدمه . ولد عـ ام ١٧٢٨ من آب كان يعمل خادماً على الحراث ومن أم هي ابنة احد المزارعين . عمل في صباه صانعاً متمرناً في مدينة صغيرة تقع على الساحل . مال للحياة البحرية منذ صغره فتطوع بحاراً متمرناً على احدى السفن العاملة في شحن الفحم ، وفي سنة ١٧٥٥ ، عمل ربانياً في البحرية الملكية ولمع اسمه في حملة استكشاف لمصب نهر سان لوران ، أتاحت للاسطول البريطاني التصعيد في النهـر المذكور واحتلال مدينة كوبيك . ولذا عهدت اليه في السنوات الأربع التالية مهمة استكشاف سواحل كاديا (ايكوسيا الجديدة) وجزيرة الارض الجديدة ، وشبه جزيرة لابرادور . ووضع لهـذه الأماكن والمواقع خريطة امتازت بالدقة بقيت عماد الخرائط التي وضعت فيما بعد لهذه المناطق . وهكذا فقد كانت تمت له الدربة الكافية لرسم الخرائط الجغرافية والمائيـة ، كما تمرس بالارصاد الفلكية واجادها . وقد عرف بانطوائه على نفسه وبقلة محالطته للبحارة ، كما انه امتاز بمناقب عديدة جعلت منه بحاراً ممتازاً وأولته قدرة ظاهرة على التنظيم ، كما عُرف بروحـه الانسانية السمحاء وبحدبه على البحارة والاهتمام بتدريبهم وتأمين أسباب الصحة والرفاهية لهم . ولذا فقـد كان في مكنته ان يعوّل عليهم وان يطلب منهم الكثير .

عهدت إليه عـام ١٧٦٨ ، مهمة البحث عن القارة الاوسترالية حتى الدرجة ٤٠ من خط العرض الشمالي ، وان يقوم ببحث دقيق بهذا الصدد ، فان لم ينجح ، عليه الاستيثاق من المنطقة الواقعة الى الشرق من زيلاندا الجديدة ، فراح يستعد لرحلته هذه ويهيء لها اسباب النجاح ، وفي هذا السبيل اخذ يجمع المعلومات التي توفرها له الرحلات البحرية السالفة . فقد كان يعرف تماماً خريطة المحيط الهادي العامة التي تم رسمها عام ١٧٥٦ والتي اشار فيها روبرت دي فوغوندي

الى موقع مضيق تورّيس الذي أكمل امره منذ عام ١٦٠٧ وهو موقع جغرافي اشارت إليـــه ونوهت به الخرائط السرية الاسبانية . ولم يكن ليجهل بالطبع في هـذا المضيق التخطيـــط المفترض وجوده في الخريطة المنسوب وضعها الى «دالرمبل» والذي عرف بوجوده عند استيلائه عام ١٧٦٢ على مدينـــة مانيلا هذه الخريطة التي لم يشأ ان ينشرها كاملة . فقد رفض سفينة حربية واختار له مركباً من ناقلات الفحم هـو الاندفر ، وهو مركب بطيء الحركة ، إنما قوي متين يتسع لونسق وافر ويتحمل رحلة طويلة شاقة . واصطحب معه العالم الفلكي غرين والعالم النباتي الاسوجي الاصل سولاندر ، والعـالم الطبيعي بنكس . انطلـق عام ١٧٦٨ وقام بمهمته العلمية الفلكية في تاهيتي (نيسان حزيران ١٧٦٩) ثم اتجه غرباً صوب خط العرض ٤٠ دون ان يعثر على القارة الاوسترالية لاسباب لهـا ما يبررها . ودخل في السابـع من تشرين الاول ١٧٦٩ الى ساحل زيلاندا الجديدة الشمالي ، ثم قام بحركة التفاف كاملة ولاحظ ان هذه الارض تتألف من جزيرتين يفصل بينهما مضيق يعرف بهـــذا الاسم ، ووضع خريطة مفصلة لهذه السواحل ، ثم اتجه فيما بعد ، الى جزيرة هولندا الجديدة ، ووصل الى الساحل الشرقي وقام بعملية استكشاف دقيقة امتدت من رأس إيفرارد إلى رأس يورك ، اتسعت ١٦٠ ميلاً ، دعاها مقاطعة غال الجديدة الجنوبية ، ونزل الى البـر في ٢٨ نيسان ١٧٧٠ على صعيد مرتفع ملتف الاشجار كثير العشب ، شجع بنكس على تسميته : خليج بوتني . وهكذا تمت له احسن صورة للمكان الذي ارتفعت فيه ، فيما بعد مدينة سدني ، ثم جـاء بانافيا عن طريق مضيق تورّيس ، فاستكشفه من جديد بصورة ادق . وفي عام ١٧٧١ عاد الى اوروبا حيث كان لرحلته وقع كبير .

وقد سلّم بأن القارة الاوسترالية قد تقع الى الشمال او الى الجنوب من الطريق التي سلكها . وعاد اللورد سندويتش ، لورد الاميرالية ، فأرسل كوك في رحـــلة ثانية فانطلق يوم ١٣ تموز ١٧٧٢ ، قبلغ جون الملكة شارلوت في زيلاندا الجديدة . ومن هذه النقطة كان بامكانه ان يقوم بحركات استكشافية الى الشمال او الى الجنوب ، ليعود اليها عندما يشاء ، ليتيح لبحارتـه بعض الراحة والاستجمام من وعثاء الاسفـــار والرحلات التي يقومون بها متعرضين تارة لزمهرير البرد القارص في المياه القطبية ، وطوراً لحمارة القيظ اللاهب في المناطق الاستوائية . فتحرى كل زاوية من المحيط وقطع في ٢٨ شهراً ٨٠ الف كيلومـــتر في المحيط الهادي ، واعترضت سيره جبال الجليد الطافية عند الدرجة ٧٠ والدقيقة ١٠ من خط العرض الجنوبي ، في كانون الثـــاني ١٧٧٤ ، وبلـغ في الشمال ، جزيرة تاهيتي وجزر الماركيز وجزر الهبريد الجديدة ، واستكشف كاليدونيا الجديدة وجزيرة نورفولك ، واثبت ، بقوة احتمال غريبة وبالدليل القاطع انه ليس من قارة جنوبية .

عهد اليه بمهمة ثالثـة للبحث عن ممر مائي يصل المحيط الاطلسي بالمحيط الهادي عبر الدائرة القطبية وهو الممر المعروف بالممر الشمالي الغربي . فشمر عن ساعده ليقوم برحلة ثالثة عام ١٧٧٦ ، فاكتشف عام ١٧٧٨ ، ارخبيل سندويتش (هاواي) واستكشف بحر بهرينغ والمضيق المعروف

بهذا الاسم ، وصرف النظر عن الممر الشمالي الغربي الذي لم يصبح تحقيقه ممكنـاً ، انما بصعوبة كلية ، بعد ظاهرة ارتفاع درجة الحرارة فيه في السنوات الاخيرة . وهذا البحار الذي كان دوماً مثالا يحتذى من اللطف والايناس ولين الجانب مع ابناء البلاد الاصليين وجد حتفه وميتته المفجعة في اصطدام دام مع سكان جزيرة سندويتش عام ١٧٧٩ .

فقد خلف كوك خرائط تثير الاعجاب لما اتصفت به من دقة لا تختلف عنهـــا الخرائط الفرنسية ولم تكن بحاجة قط الا لبعض إضافات طفيفة .

فقد كان من نصيب الرحالة الفرنسي لابيروز ان يقوم بهذه المهمة . سافر بأمر الملك لويس السادس عشر ، فغادر مرفأ بريست عـام ١٧٨٥ وبصحبته كوكبة من العلماء البارزين . فأثبت عام ١٧٨٦ انه ليس من ارض مهمة تقع الى الشرق من ارخبيل بوموتو وجزر الماركيز وصحح موقع ارخبيل سندويتش لجهة خطوط الطول. ثم وضع رسماً دقيقاً لسواحل اميركا بين الدرجة ٦٠ والدرجة ٣٧ من خط العرض الشمالي ابتداء من جبل سانت ايلي حتى مونتيريز في الجنوب ، راسماً الخرائط ودارساً النباتات البحرية والقارية . وفي تشرين الثاني اخـــذ له بعض الراحة في ماكاو ، ثم اتجه عام ١٧٨٧ ليستكشف سواحل المحيط الهادي الشمالية الغربية ، التي فات كوك استكشافها ، ووضع خريطة لسواحل منشوريا وأثبت ان سخالين هي جزيرة (آب ١٧٨٨) ومن هناك اخذ باجتياز المحيط من الشمال الى الجنوب بين ابعد نقطتين بلغهما واليس الى الغرب ، و كوك الى الشرق ، ووصل الى اوستراليـا ، وصادف في كانون الثاني ١٧٨٩ ، في خليج بوتني عمارة انكليزية . ومنذ ذلك الحين انقطعت اخباره . فقد عُثر على بعض حطام سفنه ، عـــام ١٨٣٧ ، على مقربة من جزيرة فانيكورو .

وهكذا وُضعت الخطوط الكبرى لخريطة المحيط الهادي، كما قضي تماماً على اسطورة القارة الجنوبية الكبرى ، وظهر ان القسم الجنوبي من كرتنـــا الارضية يتكون من مياه المحيطات واتضح ان مياه البحر تغطي ثلثي مساحة كرتنا الارضية ، كما ان الأرض الـــتي اكتشفت في الاوقيانوس الهـــادي وسعت بصورة مدهشة معلوماتنـــا عن الجنس البشري في مختلف مستوياته الحضارية .

الفصل الثاني

اوقيانيا

آمن الاوروبيون بوحدة الجنس البشري الروحية وبسمو الحالة الطبيعية التي وُجد فيها ، فازدادوا اهتماماً باقوام اوقيانيا البدائيين. وراح بوغانفيل وكوك يدرسانهم عن كثب ويراقبان سلوكهم وتصرفاتهم بكل عناية . فالأخوان نوستر اللذان ساهما في الرحلة الثالثة التي قام بها كوك ، وضعا مع العالم الفرنسي بوفون اصول علم الانواع البشرية وتصنيفها، اي علم الاثنولوجيا أو علم السلالات البشرية .

ظن الاوروبيون لأول وهلة انهم أمام عروق بدائية تعود طبائعها الى بدء البشرية بعد أن وجدوا ان كل هؤلاء الاقوام لا يزالون بعد عند طبائع العصر الحجري ، وان ما لديهم من عدة وادوات هو اقرب الى ما عرفه الانسان منها في عصور ما قبل التاريخ . ولم يكن الامر يتعلق فعلاً بالبدائيين أصغر منه باقوام خضعت طويلاً لعوامل التطور والارتقاء عرف بعضها نوعاً من الحضارات العليا ، فكانوا في مرحلة التقهقر والارتكاس عند وصول الاوروبيين اليهم .

والظاهر ان كل هذه الاقوام تعود اصولها الاولى الى العروق البشرية في آسيا الجنوبية ، غُلبَت على أمرها فجلَت عن اوطانها مترسمة سير قواطع الطير في هجراتها الموسمية حتى اذا ما حطت رحالها في بعض الاصقاع المحدودة الانتاج والضيقة المحاصيل لانعزالها باكراً عن الاقطار المأهولة في القارات الاخرى، افتقرت في حياتها المعاشية ونظام غذائها للخضروات والثدييات[1]، كما ان ضيق الرقعة التي هبطوا فيها جعلتهم وجهاً لوجه أمام صعوبات كأداء تجم معظمها عن تضخم عدد السكان وندرة المواد الغذائية. فاشتبكت هذه الاقوام فيما بينها في حروب موصولة محاولة ايجاد حل لمشكلاتها الحادة : في الإجهاض ووأد الاولاد أو قتلهم ، وفي أكل بعضهم البعض بعد أن عضهم الجوع . والى مثل هذا الوضع كانوا انتهوا عندما أطل عليهم الاوروبيون من بعيد. وقد ارتعدت فرائص المستعمرين من احتمال ازدياد عدد السكان وتضخمه ، فراحوا يملء اختيارهم يعملون على الحد من المواليد عندهم . فليس بغريب الا تتطور حضارتهم عكسياً وأن

---

(١) - لم يعرفوا في مواطنهم الجديدة هذه غير الخلد والاوبوسوم والخفافيش

تعود القهقري . فاذا ما اخذنا بعين الاعتبار هذا النكوص والتقهقر والعوامل المؤثرة الاخرى كالتهجين ، صح القول ان اوقيانيا انما هي « متحف للعروق البشرية » .

والاقوام الوحيدة التي يمكن وصفها بحق بانها اقوام بدائية هي اقوام التسمانيين والاوستراليين الذين كانوا في اسفل دركات الجنس البشري وأحطها على الاطلاق .

كان التسمانيون في الدرك الاسفل بين الجنس البشري . فبعد أن استقر هؤلاء القوم في جزيرتهم في عهد كان اجتياز مضيق باس ، يهون على اصغر بحار وأقلهم خبرة أو دربة بالاسفار ، اي ما يزالون في الطور الاوسط من الدور البليستوسيني ، قبل ذوبان الجليد الذي أدى الى الارتفاع منسوب مياه المحيطات وجعل عرض المضيق المذكور خمسة اضعافه ، فقد عاشوا في شبه عزلة تامة جعلت حضارتهم تأسن فتضمر فتجف فتموت . فقد عاش العلماء فيها على نحو ٥٠٠٠ من العرق شبه الزنجي شعرهم مفلفل والحنك ضخم نافر والجمجمة مفلطحة هاربة والحواجب شديدة التقوس ، ألفوا اقرب حلقات الانسان السفلى الى القردة . وقد اتخذ القحف شكل اسفل السفينة فاصبح هذا الشكل من أهم الخصائص القردية المميزة . اما الادوات التي كانت تحت تصرفهم فقد جعلتهم في مصاف أدنى دركات انسان العصر الحجري القديم في غربي اوروبا . فقد جهلوا اللباس وأنكروا الاقامة والسكنى في المنازل ، وتفيأوا الشجر العريض الورق واعتاشوا من بعض النباتات وعلى ما تصل اليه ايديهم من قنص وصيد دون الاستعانة بكلب صيد . اما نظامهم الاجتماعي فبدائي للغاية يوالون زعماء آنيين يختارونهم لامد معين . قالوا ببقاء النفس بعد الموت ورهبوا جانب الموتى ، وبدت عليهم معالم ديانة عرفت بعض التسامي يُشتم منها القول بالتوحيد ، وعبدوا الها أعلى غاصت علاقاته بالسماء والظواهر الطبيعية وبَهُمت . فزال كل اثر لهم ، في القرن الماضي .

وعلى دركة أعلى قليلا نجد بين الاوستراليين اقواما كانوا بمستوى الطور المعروف بطور *Moustier* في العصر الحجري القديم في اوروبا ، وهم عرق مزيج من عناصر على شيء من المحاكاة بشبه الاوروبي وشبه الزنجي ، من بشرة سمراء يكسوها شعر كث كثيف وحواجب مقوسة ، وجبين هارب الى الوراء ، ونتوء الحنكين ، والشفاه الغليظة ، والانف الافطس الضخم . لهم دماغ ادنى وزناً بكثير وأقل تلافيف من دماغ رجل العرق الابيض .

ومع ان لباسهم مختصر فقد عرفوا كيف يبنون لهم اكواخاً من الاغصان والحشائش كما توصلوا الى استنباط النار بالاحتكاك السريع الشديد بواسطة مثقب في لوح خشب ، اسلحتهم من الحجارة المشظاة ، بينها البونيامن حجر المرّو بشكل جُماع الكف المضمومة . وبينها الرمح من العصر الحجري الحديث ، والمزراق و الـ *Boomerang* المشهور الا انهم جهلوا تماما استعمال القوس والنشاب كما جهلوا صناعة الفخار . اما غذاؤهم فقد تكوّن من الخضروات وبعض الصيد والبزاق والحلزون الذي يعيش في المياه الحلوة ، والديدان والحرذون والطير والكنغورو وغيره من ذوات الاكياس مثل *Oppossum* وبعض انواع النعامة ، وقدرة على اللحاق بالكنغورو النفور ، يعدون

وراءه بالسرعة التي يعدو بها . وكانت لهم حاسة شم شديدة بحيث يتبينون معالم الطريدة من استرواح رائحة التراب .

أما وضعهم الاجتماعي فكان على بدائية من التنظيم ، اذ كان للقبيلة زعماؤها الدائمون هم الشيوخ فيها ، وقد اعتمدوا التزاوج من الاباعد ، لكل قبيلة مجالها الحيوي وهو يتميز عن مجال القبائل الاخرى . وهكذا يكاد المرء يرى بينهم شيئاً من معالم الحق الدولي .

أما عقائدهم الدينية فقد كانت على شيء من التطور . فالاعتقاد ببقاء الارواح كان عاماً . واعتقدوا بأن في مكنة نفوس الموتى ان تتجسد من جديد . وقد أثار مرأى هؤلاء الاوروبيين الخارجين اليهم من عرض البحار باجسامهم البضة وعيونهم البراقة بفضل ما هم عليه من تطور جهازهم العصبي ، الهلع في نفوسهم فنظروا اليهم نظرهم الى اشباح أو خيالات . وقد ألفوا اكرام الموتى باقامة سلسلة من الطقوس الدينية تخليداً لذكراهم ، حتى ان بعض هذه القبائل كانت تحرص على أكل اجسام الموتى احتفاظاً منها لما فيها من مبدأ الحياة . وكانت لهم محرماتهم الطوطمية التي تمثل الخير المشترك يحتفلون بتكريمها بطقوس فيها الكثير من مظاهر التعزيم والسحر . وقد قال بعضهم بوجود إله خالد استحق الخلود في السماء بعد ان عاش على الأرض ، وباستطاعة المطلعين منهم على الاسرار ، الالتحاق به والانضمام اليه بعد الوفاة . وكانت هذه الاقوام متمكنة من أمور السحر ، ضالعة باسراره . ولكي يرقى الفتيان الى درجة الرجال ويصبحوا بالتالي صالحين للزواج ولممارسة بعض الوظائف الاجتماعية العليا ، عليهم ان يخضعوا لفترة من التلقين المعقد يضم في جملة ما يضمه من امتحان ، قلع احد الاسنان القواطع من الفك الاعلى ، واقتبال الختان وتقديم بعض الرسوم وبعض الاقاصيص الخرافية التي لم تكن المرأة لتخضع لها .

اما الاقوام الأخرى فكانت على مستويات ارفع قليلاً كما يظهر . فباستثناء اقوام البابوس الذين تميزوا بأنف أقنى ، محدودب كالمنقار يجعل منهم بحق عرقاً اصيلاً لوحدهم ، يبدو من دراسة اللهجات التي كانوا يتكلمونها ومن بعض العادات والاعراف الحسية التي كانوا عليها ، كهذه الزوارق المتخذة من جذوع الشجر المجوفة المجهزة بهزاز ان هؤلاء الاقوام ، شاركوا ، بالرغم مما بينهم من مفارقات جسيمة ملحوظة ، بحضارة اوقيانية واحدة كما انهم يعودون جميعاً الى محتد واحد . والراجح انهم خرجوا كلهم من ماليزيا وانساحوا الى الشرق ، في ارجاء المحيط الهادي ، وقد يكون بعضها بلغ مشارف اميركا ، كما ان بعضهم مطارح الى الغرب من كمبوديا ، والى سيلان ومدغشقر (كالهوفاس) على سواحل افريقيا الشرقية . فقد تكون هجرتهم وقعت بين القرنين الثاني والخامس للميلاد ، حتى بلغت موجة الاغتراب هذه مداها الاكبر بين ٩٠٠ - ١٣٥٠ للميلاد ، ثم خفّت بينهم النزعة وضعف عندهم الميل الى الارتحال عبر البحار .

اما الميلانيزيون[1] فقد كانوا على وضع حضاري يذكرنا باوضاع العصر الحجري الحديث

---

(١) - في جزر بسمارك وسلمون ولويزياد وسنت كروز ، وهبريد الجديدة وكاليفورنيا الجديدة ولويالتي وفيجي وغينيا الجديدة .

المتطور . فقد كانوا أكثر تطوراً جسمانياً : قليلي الشعر في الوجه ، مستقيمي الانف ، قلما تقوست حواجبهم ، وكانوا اكثر تفننا في حليهم وزينتهم . نساؤهم مكثرات من الوشم ، على شوه في الرأس وفي البدية ، تلوين الشعر أو صبغه بالمغر ، وعقود واساور من الاسنان أو من الاصداف ، وريش وزهور في الشعر .

كانت ادواتهم المنزليـــة على شيء من العناية والاتقان : فؤوسهم من الحجر المصقول ، وسكاكينهم من الصدف ، ومبارد من خراشف السمك ومخارز من الذهب وغير ذلك من الاسلحة المختلفة ، بينها القوس والمقلاع . فقد كانوا رجال بحر مجربين ، حذقوا صنع القوارب الكبيرة وفن قيادتها كما كانوا مزارعين ماهرين ، يعزقون التربة بعصاً واحدة ويزرعون البطاطا الصينية والتارو . عرفوا ضرباً من العملة او النقد المتخذ من الارياش والاسنان يتكالبون على الربح كما عرف بعضهم ان يجمع ثروات عن طريق الدَيْن بفائدة مائة بالمائة .

اما مجتمعهم فمجتمع اساسه الأم . فالخـــال هو القيم على ابن الاخت . والرجال يأكلون وينامون في باحة البلدة ، يعيش الجنسان الرجل والمرأة في شبه انفصال ، والزواج يتم بالشراء ، كما ان الأغنياء منهم مارسوا تعدد الزوجات .

اما وضعهم السياسي فكان على شيء من الديموقراطية ، تلعب فيه الجمعيـــات السرية دوراً بارزاً ، وللاغنياء بينهم شأن بارز لقدرتهم على البذل بسخاء واقامة الحفلات وبلوغ المراكز العليا . فكانت هذه الجمعيات السرية تزرع الهلع في قلوب من لم يدخل في عضويتها ، فيرزح تحت الضرب والغرامات الفادحة حتى الموت .

اما اعتقاداتهم الدينية فقد كانت متأصلة إلا انها في مستوى ادنى مما كان عليه الاقوام الذين اتينا على ذكرهم والتي كانت ادنى مستوى حضارياً . فقد اعتقدوا بالمانا ، هذه الفضيلة او السجية الفائقة الطبيعة ، المتوارثة . فالصياد لا يكون ماهراً إلا اذا تمت له المانا . وشرط النجـاح في الحياة ان تتم للمرء المانا . وباستطاعة السحر والسحَرة ان يؤمّنوها لمن يرغب فيهـــا . وبعض مظاهر هذه المانا لا تخلو من الخطر على صاحبها ، واذ ذاك يتدخل التابو المحرم ، يستنزلونه على الاشخاص والاشياء والاماكن التي يسكنها المانا او يقيم فيهـــا . فقد آمنوا بوجود الارواح في الحيوانات والحجارة والاشجار والافـــاعي ، انما لم يشركوا بالله الأعلى ، كما لم يقولوا بتعدد الآلهة ، وآمنوا بحياة النفوس بعد الموت . يقومون بصلوات طقسية ويقدمون القرابين والذبائح وينشدون الاناشيد المسجعة المقفاة وينقشون في الخشب صورة الجد الأول الذي يحيى في شخص بنيه وذراريه .

اما الميكرونيزيون[1] فقد كانوا شديدي الشبه بالميلانيزيين ، انمـا على شيء ارفع فقد كانوا بحارة ماهرين . وقام التجار منهم باسفار طويلة على قوارب مجهزة بهزاز ، مستخدمين في هذا

(١) ـ جزر الماريان وبالاو والكارولين ومارشال وجلبرت .

السبيل خرائط صنعت من قضبان البمبو او الخيزران . قام بينهم طبقة من الاشراف واخرى من الارقاء . وكان زعماؤهم يجزلون العطاء للبحارة الذين يتميزون بالخبرة وطول البـاع . وكان بعض سكان هذه الجزر عرفوا خلال ادوار التطور التي مروا بها الشرك . وقالوا بعدة آلهة على رأسهم كبير الآلهة .

وفي قمة السلم الاجتماعي قام البولينيزيون[1] هـذا الفرع الثاني من اشباه الاوروبيين ، بينهم عناصر من اشباه الزنوج واشباه المُغل ، فارعي القامة ، مع ملامح اوروبية وأنف مستدق ، شعر املس ناعم واللون حنطي . اما السمع فأرقّ مما عليه الاوروبيون ، بينما حاستا الشم والذوق عندهم تختلفان .

وهم بحارة لا يجارون يستطيعون ان يجوبوا مساحات شاسعة يبلغ مداهـــا ٢٥٠٠ كيلومتر دون ان يرسوا في مكان . وكان في مقدورهم ان يحددوا مواقعهم او نقطة وجودهم في عرض المحيط بواسطة الفرع المثقوب . وعرف سكان ساموا وتنغا قوارب مزدوجة بلغ طولها ٣٠ متراً تستطيع نقل ١٤٠ راكبا . ولكل جزيرة عمارتها الخاصة من القوارب . وقد احصى كوك ٣٣٠ قارباً في تاهيتي وحدها بعد ان قدّر سكانها بـ ٢٠٠،٠٠٠ نسمة .

اما ادواتهم فكانت من ادوات العصر الحجري المصقول وبعض هذه الادوات قيد الاستعمال لدى اقوام الماوريس في زيلاندا الجديدة ، بدت وكأنها من المعدن . والذين يبدو لنا ان جدودهم عرفوا المعدن وصناعة الفخار . ومهما يكن ، فقـــد أصبحت هذه الفنون نسياً منسياً لدى البولينيزيين عند قدوم الاوروبيين اليهم . ومن الثابت ان ادواتهم هذه انما كانت من جنس ارفع واحسن مما كانت عليه في القرن الثامن عشر .

اما ملابسهم فقد اتخذوها من الكتان في زيلاندا الجديدة . وانقطع السكان في الجزر الحـارة عن صناعة النسيج التي عرفها اسلافهم ليتخذوا بديلاً عنها صناعة لحاء الشجر يصنعون منه الفساتين المزركشة والكشاكش والمثلثـات والمربعات . تزينوا بالريش اللماع والاوراق الرمحية الشكل ، كما اتقنوا ، الى حد بعيد ، صناعة الوشم .

اما منازلهم فقد قامت ، في الغالب على ، مصاطب من الحجر فُرشت أرضيتها بالحصر وتناوح طول بعضها ، في جزر الماركيز ، بين ٢٠ و ١٠٠ متر ، ووجدوا بين مفروشاتها كلّة لِصدّ الناموس وابعاده . وشيّد الماوريس قلاعـــاً اتسع بعضها لبضعـة آلاف أحاطوها بالخنادق والدرابزونات والشرفات المرتفعة الصالحة للدفاع .

وقد بلغ من تطور هؤلاء الأقوام ان قـام فيما بينهم ، اسرات ضمت الواحدة بضع مئـات بين افرادها ، كانت تشبه الى حـــد بعيد ما عرفه الرومان من امر « الرَبْع » (*Gens*) او

---

(١) ـ موطنهم جزر ساموا والماركيز وتوامو تو وتنغا وتوبواي وفيجي وزيلاندا الجديدة وهاواي .

الـ (Genos) عند الإغريق . وقد انقسم المجتمع عندهم الى طبقات مسلسلة: الملك والنبلاء والاحرار والارقاء . وكان الملوك عندهم يتوارثون الحكم أبا عن جد وخلفاً لسلف ، عملا بسنّة البكورة، والملك عندهم يمثل الألوهية ، وكان بالتالي مكرّساً ومقدّساً لا يُمس . اما النبلاء فكانوا اصحاب اخاذات وإقطاعات، يسيطرون على المجالس والندوات ومناقشاتها ، فهم يملكون كل الاراضي. فكانت عظامهم بعد الوفاة توضع في اماكن مكرسة ، اذ كانوا يتمتعون وحدهم بالحياة بعد الموت . وكانوا يختارون لهم زعماء محليين او إقليميين يتخذون القرارات المشتركة وهي قرارات كثيراً ما كانت عرضة للاستبدال والتحوير ، اذا ما جادت جائرة او منافية للصواب والرجال الاحرار بينهم كانوا يخضعون للرسوم المفروضة كما كانوا عرضة للسخرة .

اما عقائدهم الدينية فقد حوت عناصر براهمانية وربما ايضاً فارسية وبابلية فقد آمن الماوريس مثلا ، باله سام ، خالد ، كلي القدرة ، عادل ، مسكنه السماء الثانية عشرة . وكانت هذه العقيدة على درجة عالية من السرية والتقديس بحيث ان سواد الماوريس كانوا يفارقون هذه الحياة دون ان يدروا او يشعروا بوجود مثل هذا الايمان فيما بينهم . كذلك قام بينهم مجموعة من آلهة السماء ، وأخرى آلهة محليين مأواها ومهبطها الغابات وتتمثل في الحصاد والحرب والبحر والشر ، حولها هالة من الأساطير الميثولوجية تفسر هذا الكون . كذلك عدوا طائفة من الارواح تتغلغل في المظاهر الطبيعية كما عرفوا عادة تكريم الآباء والجدود . والطبقة الكهنوتية ، التي كان اعضاؤها ينتقون من بين النبلاء ، كانت تحرص جداً على احترام أساطيرهم الدينية وصيانتها ، كما كانوا يقومون بالطقوس الدينية التي كان من بينها الذبائح البشرية . وقد كانت جزيرة خياطيا المركز الرئيسي الذي كانت تجري فيه التقاديم المشتركة بين سكان بولينيزيا . كذلك شاع السحر بينهم والجوسية . وافسحت العقائد الدينية المجال لظهور شعر ديني طريف جزل - وفن النقش الذي بلغ منزلة محترمة ، وان لم يحسن له ، في الغالب ، سوى قيمة ترفيهية .

اما الحروب فلم ينقطع سيلها بين هذه الأقوام ، فكثيراً ما ادت الى احراق الزرع والضرع ، ويقوم الغالبون باغتراس المغلوبين على امرهم فيأكلونهم على ان يحتفظوا بقلب الاضاحي للزعماء .

ان اعتقاد جانب كبير من هؤلاء الأقوام باله اعلى ، سام ، يختلف كثيراً عن كبير آلهة المشركين يجيز لنا ان نتساءل ما اذا كنا هنا ، امام اثر من آثار الوحي المدائني الذي صار الى هذا التحول او الانحطاط الديني الذي تروي لنا التوراة قصته ، او اننا امام ما تلقى من وضع سام توصلوا اليه بعد تطور طبيعي ، طويل النفس ، انطلاقاً من القول بوجود الارواح في الطبيعة ، قبل ان يعتري هذه الاقوام موجة من الركود والتقهقر .

فقد حافظ الاروربيون على علاقاتهم السلمية في القرن الثامن عشر تجاه هذه الاقطار المثيرة

التي لم يجدوا فيها ما كانوا يتوقعونه عنـــد هبوطهم اليها . ففي سنة ١٧٧٢ ، استولى القبطان كروزيه ، على زيلاندا الجديدة ، بعد ان دعاها باسم « فرنسا الاوسترالية » . الا انه لم يقم فيها اي مشروع استثماري . ولعل اول مشروع من هذا النوع هو المشروع الذي نهض به الانكليز في اوستراليا . ومنـذ سنة ١٧٧٦ ، حالت حرب الاستقلال الاميركية دون استمرار الانكليز ارسال المجرمين المحكوم عليهم بالسجن الى فرجينيا . وفي سنة ١٧٨٦ ، قرر الحاكم الانكليزي ، إنشاء مستعمرة إصلاحية في خليج بُتني . وعلى الاثر وصـل القبطان فيليب بتاريخ ١٨ كانون الثاني ١٧٨٨ ، ينقل في عمارته ٧١٧ من المساجين ، بينهم ١٨٨ امرأة بحراسة ١٩١ من جنـود البحرية و ١٨ ضابطاً ، ومعهم ثور و ٥ بقرات وكبش و ٢٩ نعجة ، فكانوا اول من رحل من الاوروبيين الى هذه المنطقة ، فألفوا بذلك النواة المتواضعة للشعب الاوسترالي .

وراح الاوقيانيون القهقرى واخذوا سريعـــاً بالاضمحلال تدريجياً في القرن التالي ، إثر اتصالهم بالاوروبيين .

فهل كان من المقدر المحتوم ان يكون لهم مثل هذا المصير ؟ فالجواب على هذا السؤال ليس من اليسير . فقد رأينا اقوام الصيادين والقناصين والقطافين هنا ، كما في اميركا ، وفي اي محـل آخر اتصلوا معه بحضارات اسمى وأرقى تقنيا من التي عرفوها ، اخذ عددهم بالتناقص تدريجياً ، كما تخلخلت اعرافهم وعاداتهم دون ان يقتبسوا لهم حضارة أرفع . ووقع لهم ذات الشيء عنـد اتصالهم بالصينيين والاوروبيين ومع ذلك فقد دل هؤلاء الاقوام عن قوة ملاحظة غريبة وقوة تفكير بارزتين حتى في هذه الموضوعات والافكار التي تبدو لهم غريبة . فقد ظنوا مثـــلاً ان العلاقات الجنسية لم تكن لتسبب وحدها الحمل ، بل ان مجرد مرور الزوجة بالقرب من كهف معين او من شجرة موصوفة تسكنها ارواح الجدود ينتقل في الحال اليها احـــد هذه الارواح وتتجسد فيها . وهـذا الاعتقاد المغلوط نتج عن تفكير سليم . لا تكاد الفتاة الاوسترالية تبلغ حتى تتزوج . وكان للرجـال عادة عدة زوجات ونساء . وقد رأوا على ضوء اختباراتهم الحسية الطويلة ان العلاقات الجنسية التي كانوا يقيمونها مع نسائهم لم تكن لتعطي دوماً نتائجها وثمارها مع الجميع اذ تبقى المعاشرة الجنسية عنـد بعضهن بلا نتيجـة او ثمرة . فما الذي يعنيه يا ترى مثل هذا الوضع ؟ فهو يعني ان العلاقات الجنسية في الزواج ، كانت تمهد او توطىء للحبل على ان تقارن العملية بشيء آخر يتم الحمل معها . فالعلاقات الجنسية كانت شرطاً اساسياً ولكنه شرط غير واف بالغرض حتماً ، وهو تفكير صحيح من وجهة نظرهم .

فهل يا ترى ، عدم وجود مبرر لدى هؤلاء الاقوام ، او عـدم وجود ما يرتاحون اليه لدى الاوروبيين ، منعهم من الاتصال بالحضارة الاوروبية والامتزاج بهـا ؟ فالحياة اليومية لدى الاوروبيين قامت على جملة من ضرورات العيش ولزومياته الضاغطة بينما حياة الاوستراليين اليومية كانت حياة حرة ، هينة ، ناعمة ، لا أمر فيها ولا ضغط . الا ان يحدث مثـــلاً شيء

طارىء ، مفاجىء يكدّر عليهم صفـاء العيش الهنيء كما لو وقعت ، مثلاً سنة جفاف او مواسم عجفاء . وأدهى ما كانوا يخشونه السحر وأفعـال السحرة . فطبيعة الحياة لدى الاوروبيين لم تكن تسبب لهم سوى الملل والسأم والاشمئزاز . فاذا مـا ارادوا ان يحافظوا على اهرافهم ، ويستمروا عليها في عشرة موصولة مع الاوروبيين ، لامتنع عليهم ذلك وتعذر ، لأن الاوروبي اينما حـل ، أينما هبط في بيئة غريبة ، ألحق فيها البلبلة وزرع التشويش وقضى عـلى ما فيهـا من سائمة وحيوانات تؤلف غذاء مستساغاً عند هؤلاء الاقوام ، كما ان وجوده يجلب لهم امراضاً وعللاً لم يكونوا ليعرفوها من قبل .

obeikandl.com

الفصل الثالث

آسيا

كانت آسيا تعاني فترة صعبة من الانحطاط . فقد تواقع تاريخها آنذاك — وسيبقى هذا الوضع قائماً بعض الوقت — مع هذا العراك الذي قام سجالاً ، بين اهل المدر واهل الحضر ، او بين البادية والمدينة . فقد تألفت رقعتها الشاسعة من سهول وواحات ذات مناخ محرق لاهب، كبلاد ما بين النهرين ، وسهول الهندوس والغانج وسهول نهري اليانغ — تسي والهوانغ — هو ، هذه السهول التي كانت مهداً لحضارات زراعية مشرقة ، حفت بها سباسب ومجاري آخذة بالجدب والجفاف تدريجياً ، تمور باقوام من الشعوب المرتحلة ، يذرعون في ظعنهم يمنة او يسرة ، جيئة وذهاباً ، بلاد فارس والتركستان والتيبت ومنغوليا ، شهدت من حين الى آخر ، غزوات دورية ماحقة ، قوامها اقوام من الرعاة اعتادوا ان يعيشوا فساداً في المقاطعات الدائرية . وكان هؤلاء البدو في وضع زري ، ابداً عرضة للجوع يقومون في سبيل العيش وسد حاجاتهم ، ببعض الاعمال التجارية يتبادلون مع سكان المقاطعات الدائرية ، في ايران والهند والصين ، بعض نتاجهم الزراعي ، ويقفون مشدوهين لما تقع عليهم عيونهم من غنى وثراء ، يتسقطون ما فيها من شوائب وعورات ومن مكامن الضعف والوهن : فتقع ابصارهم على شعوب ارزحتها الحرارة الشديدة والرطوبة ، كما تقع عيونهم على امراء وملوك ترهلوا وماعوا لما هم عليه من عيش رخي وبذخ سخي او رفه مخلخل ـ ففشا بينهم التسري والقصف واقذع الرذائل . واذ ذاك ينهض زعيم مفتول العضل من بين زعماء هذه القبائل البدوية الضاربة في قلب الصحراء ، ويفرض سيطرته على القبائل الاخرى التي تشدها وشائج القربى او صلات الرحم ، ويخضعها لسلطانه ويقودها للفتح بعد ان تكون تفتحت شهوتها الجامحة واهتاجت ، وجاشت فيها الرغائب والاثرة ويستولي على السهول الدائرية الخصبة ، ويكفي ان يحالفه النصر مرة واحدة حتى تهوى الامبراطورية المتداعية للسقوط ويعلن نفسه « ملك الملوك » في بلاد فارس ، او امبراطوراً في الهند او في الصين . ثم يأخذ ، والنشاط ملء بردتيه ، والحماس يتمطى بين الضلوع ، ينفخ روحاً جديد في الامبراطورية المهلهلة ويبعث فيها نهضة صادقة . ولن يلبث ابنه الذي لا يزال الدم البدوي يجري حاراً في عروقه ، والذي عرف ان يجمع في شخصه الشجاعة والحنكة بفضل ما تم له من تربية سياسية محكمة ، ان ينهض بالدولة الى الاوج .

الا ان اثر الاقاليم ، وحياة البـــلاط المرفهة ، وقتل الوقت وإضاعته في اللهو والعبث وعشرة نسائية في الحريم لا تلبث ان تترك فعلها المحلل واثرها المخلخل . ولن يمضي القليل حتى يمسي حفدة الملك الفاتح ملوكاً قعدة لا يـــأتون شيئاً. فاذا بالسلطة تنتهي من حيث لا يدرون ، الى ايدي من يترصدها باشتهاء ، من هؤلاء البرابرة الطارئين الطامعين .

فالى مثل هذه الصورة التي رسمنا للواقـــع المؤسف انتهت آسيا في القرن الثامن عشر . ففي ايران اخذت الدولة الصفوية بالانحدار والتدهور بعد ان استحكمت فيها الفوضى وأصلت منها الجذور . اما في الهند ، فامبراطورية المغول تتداعى للسقوط تحت عنف الصدمات الصادعة تنهال عليها من الخارج ، وردة الفعل الهندوسية من الداخل ، مما مهد السبيل لتدخل الاوروبيين الذين كانوا يتربصون لها ويرنون اليها باشتهاء . اما الصين فقد استطاعت ان تحافظ على مستوى رفيع تحت حكم اباطرة السلالة المنشوكية . هي السلالة التي تجاوزت شمسها السمت وبدت تميل نحو المغيب . اما اليابان فنراهـا ماضية في عزلتها و منطوية على نفسها لا تنثني ولا تلين ، وهي عزلة تسببت في انحـــلال المجتمع الياباني وتفسخه . فقد اخذ الاوروبيون يوسعون من علاقاتهم مع آسيا ، كما اخذوا بقضمها تباعاً : الروس براً ، من الشمال ، والانكليز والفرنسيون وغيرهم ، بحراً من الجنوب والشرق .

بلاد فارس والهند

بلاد فارس

في مطلع القرن الثامن عشر ، أخذت إيران ، في عهد الدولة الصفوية ، يساورها شكّ ممضّ ، في ذهاب هيبتها وانتقاص سلطانها . فقد عرفت هذه الدولة كيف تجعل من إيران ، في القرن السابع عشر دولة زاهية مزدهرة ، إذ استطاعت ان تعيـد الى البلاد المجد الذي عرفته في عهد الدولة الساسانية . كذلك أخذت الدولة باسباب التجدد تقتبس من الاختراعات الأوروبية . الا ان الدولة لم تلبث ان أخذت تفقد قواها تدريجياً بانغماس ملوكها بالفساد . وكان آخر ملك من ملوكها هو الشاه ثاماسب الثاني ، ملك البلاد في مطلـــع القرن الثامن عشر ، فـكان ملكاً مستبداً فاسد الاخلاق فظ الطبـاع قضى على الكثيرين من أمراء الاسرة المالكة وأغضب أعضاء قبيلته الخاصة التي كانت عماد جيشه وتمـــد البـــلاد بالمزارعين . فليس من عجب والحالة هذه ان ينظر البدو في فلواتهم ، والبرابرة في معاقلهـــم الجبلية ، في الخارج ، الى هذه الدولة نظرة اشتهاء يتربصون بها الشدائد والمصاعب ، بعد أن رأوا عوامل الانحلال تزداد فيها قتلاً ، فانقضّوا عليها واستباحوا باحتها .

وكان الأفغان أول من بادر بينهم الى شق عصا الطاعة ، بعد ان كانوا غُلبوا على امرهم على يد مؤسس الدولة الصفوية ، ودخلوا في طاعته . فالافغان والفرس من محتد واحد . فقـد عرفوا ان يحافظوا في جبالهم على فرديتهم المميزة بفضل هذه الوديان العميقة التي عصمتهم وهـــذه

الجازات والمعابر التي سهّلت لهم الاتصال ببعضهم البعض. وهم مسلمون سنيون جاشت حفيظتهم بالكره والبغض للفرس ، وهم على التشيع . والافغان من سكان الجبال ومن انصاف البـــدو ، اخشوشنت طبائعهم وتعاطوا تربية الماشية يظعنون بها وفقاً لفصول السنة . احتقـروا في الايرانيين حياة الحضر ، وهؤلاء المزارعين المترفين الذين تفسخت أخلاقهـم بالدنايا من الاعمال التي يأتونها كما ازدروا فيهم هؤلاء التجار الخطفة الجشعين. وفي سنة ١٧١٠ ، أعلنت قبيلة غلجيس احدى هذه القبائل الضاربة في قندهار ، العصيان وراحت تزيل من طريقها الحاميات الفارسيـة المرابطة في البلاد الواحدة بعد الاخرى ، داعية الافغان الى الانتفاض واعلان الثورة والتحرر من ربقة الفرس . وراح أمير غلجيس هو الامير محمود يهاجم بلاد فارس الى ان قهـــر الفرس ودخل اصفهان منتصراً في ٢٢ تشرين الاول ١٧٢٢ ، وأعلن نفسه ملكاً . فما كان من الشـاه تاماسب الثاني ان فر ونجا بنفسه والتجأ الى مقاطعة مازندران، وهي ولاية معروفة بغاباتها الكثيفة وبما فيها من بطائح وغياض ومستنقعات .

وإذ ذاك أخذت قبائل البدو والدول المجاورة لبلاد فارس تنقض عليها من كل صوب . فراح التركمان بقيادة أمير بخارى يغزون خراسان . والروس الذين كانوا يرنون بأنظارهم مـــن معاقلهم في استراكخان الى الطُرق التجارية بين الهند واوروبا ، عبر كابول وهراة ، ومشهد وطهران وتبريز ، لتتجه منها شمالاً ، الى ارضروم وطرابزونه ، وجنوبـاً الى ديار بكر وحلب والاسكندرون ، لم يعتموا ان احتلوا تباعاً داربنت عام ١٧٢٢ ، وباكو عام ١٧٢٣ ، واطلقت معاهدة بطرسبورغ التي عقدوها مع إيران ، يدهم باحتلال ضفة بحر قزوين الجنوبية وداغستان وشروان وغيلان ومازندران واستراباد . واغتنم الاتراك العثمانيون من جهتهم هذه الفرصـــة السانحة ليثأروا لأنفسهم مما لحق بهم في الماضي من خسف، فاحتلوا أرمينيا والعراق واذربيجان، وراح الامير اشرف ، وريث الامير محمود وخليفته الذي ربطته بالعثمانيين وحدة الايمان المشترك يتقرب من العثمانيين فاعترف بالفتوحات التركية وأعلن ولاءه للسلطان في القسطنطينية رغبة منه حمل اللقب الملكي الذي اعترف له به السلطان (خريطة٣) وتعهد له باستئصال شأفـة الشيعة من البلاد ، هذه الطائفة التي أعطت بلاد فارس فرديتها المميزة ، بحيث ان كل شيء كان يدل على ان هذه الامبراطورية القديمة العهد اشرفت على نهايتها .

الا انها وجدت خلاصها على يد زعيم بدوي ، تركي العرق والمحتد . كان يعيش عند أطراف خراسان ، يدعى نادر شاه الذي أصبح بعد سلسلة متصلة الحلقات من اعمال اللصوصية والقتـــل والتشنيع والمخاتلات ، زعيماً لقبيلة أفشر التركانية واستطاع كمألوف العادة ، ان يتغلب على إحدى القبائل ويفرض عليها سلطته ، كما عرف ان يكتسب بعوارفه السخيـة الانصـــار والمريدين ، وقبل في خدمته كل رجال الحرب الذين يرغبون في المغامرات ، وتمكن من اخضاع البطون والافخاذ التي تمت الى قبيلته افشر التركية بوشائج النسب . اغتنم بين ١٧٢٢ — ١٧٢٦ مناسبة انهيار دولة فارس فبسط سيطرته على ولاية خراسان وبرهن عن مقدرة وحسن تدبير

عندما أعلن ولاءه للشاه تاماسب ، وبذلك أصبح محط آمال الفرس ومناط رجائهم . وإذ كان على جانب عظيم من الحزم والنشاط في بلاد عصفت بها الاهواء والمطامع وأصبح معها العرش متأرجحاً ، فقد أخذ بتنظيم الجيش وفرض النظام واحترام هيبة القانون ، وتمكن من التغلب على الافغان وأعاد الشاه تاماسب الى عاصمته مكرماً ، عام ١٧٣٠ .

غير ان الشاه والفرس كانوا يتوقعون منه ان يعيد الامبراطورية الفارسية الى سابق مجدها وسالف عزها . فالشاه يجب ان يكون غازياً فاتحاً . وكان الفرس متشبعين منذ نعومة اظافرهم، من نصوص كتاب الملوك او الشاهنامة للفردوسي ، هذا الكتاب الذي له عند الفرس ما للالياذة والاوذيسة من منزلة عند الاغريق . فاستقر في خلدهم ان امتهم هي من اعرق أمم الأرض طراً ومن أقدمها على الاطلاق وبانها تعلو الأمم الاخرى قدراً وسمواً وشأناً ، وان الله كتب لها السيطرة وقدر لها السلطان على سائر أمم الارض . ولذا كان من الواجب إشباع هذه الامالي الوطنية وتحقيق الاهداف القومية التي تجاشت في صدورهم . ومن جهة ثانية ، فالتجار الذين كانوا يؤدون خدمات جُلّى للملك بما يسلفونه من الدراهم ، كانوا يتوقعون منه ان يعيد الى البلاد امنها الضائع لتصبح طرق المواصلات آمنة والاسواق سليمة ، حرة ، وبذلك تعود البلاد الى ما كانت عليه ،الطريق السلطاني الذي يربط شعوب آسيا بدول اوروبا ، كما تربط الشرق بالغرب . ثم كان على الشاه ان ينهض بالحرب بحيث يؤمن للمملكة الموارد اللازمة التي كانت الضرائب المفروضة على البلاد تقصّر عن تأمينها ، فلا يلبث ان يرتفع فيها صوت التاجر منادياً بالويل والثبور وعظائم الامور اذا ما تأذت مصالحه قليلاً ، وحيث يسهل على البدوي التواري والتخفي كما يسهل على الفلاح مبارحة ارضه بيسر اذا ما تعرض للضغط . ثم كان لا بد لهذا الملك ولقيمٍ قصره ان يُشبع عن طريق الغزو مطامع اشياعه واتباعه ويحقق ما يرغب فيه افراد اسرته وعشيرته ومحاربيه . ولذا بادر نادر شاه للجهاد ، فاسترجع خراسان من الأفغان كما استعاد منهم ولاية هراة . واجبر الاتراك على التخلي عن العراق والانسحاب من اذربيجان وأريوان وقرص وما استولوا عليه من قلاع في القفقاس . وبموجب معاهدة القسطنطينية المعقودة عام ١٧٣٧ ، عادت الى البلاد الولايات التي كانت لها من قبل ، كما ان المعاهدة المذكورة ضمنت لها الاشراف على ارمينيا الشرقية . وبسط حمايتها على بلاد الكرج . وفي عام ١٧٣٤ ، اضطر الروس ، لقلة حامياتهم ، لاخلاء الاراضي الشاسعة التي وقعت بايديهم في شمالي ايران ، عام ١٧٢٣ . وفي غرة شباط ١٧٣٦ ، تمكن نادر شاه من خلع آخر ملوك الدولة الصفوية ونودي به ملكاً ، في احتفال مهيب في سهول موغان ، اشترك فيه زعماء الشعب وممثلوه بحضور قواد الجيش وعدد كبير من الضباط . فجاء اعتلاؤه العرش تتويجاً لهذا العمل المجيد الذي قام به بعد ان اعاد الى البلاد امجادها الغابرة وانقذها من قبضة الافغان والاتراك والروس .

واذ كان آخر ملك الملوك عند الايرانيين فقد استطاع ان يوسع سيادة ايران في كل الاتجاهات ونشر الأمن على الطرق التجارية الكبرى التي تمر عبر بلاد فارس . فنقل عاصمة ملكه الى مدينة

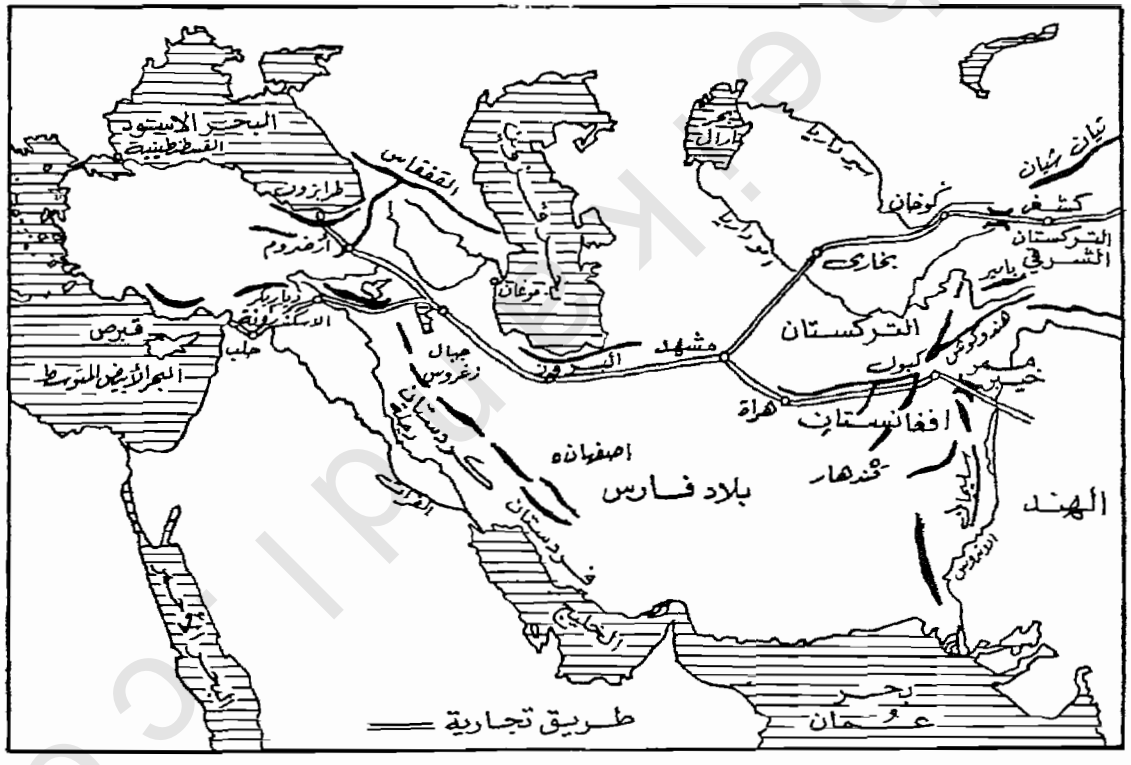

خريطة ـ ٣ المراكز التجارية الكبرى في العجم

مشهد بحيث يتمكن من مراقبة حدود الامبراطورية ويصونها من عبث البدو الرحـــل في التركستان . وشيد على رأس احدى قمم علاء – داغ ، قلعة نادرشاه المشهورة تحيط بهـــا الوديان العميقة ، لا يُرقى اليها الا من معبرين ضيقين لا يزيد عرض الواحد منهما على بضعة امتار ، واتجه عام ١٧٣٧ على رأس جيشه وهاجم الافغانستان التي تضم خير المعابر والمجازات الموصلة الى الهند ضيق خيبر ، والتركستان ، وفيها مضيق حاجي كاك ومضيق تدجن ، فاستولى على قندهار وغزنة وكابول واخضع لسلطانه كل القبائل ، فانفتحت امامه مداخل الهند . فاقتنع من حملته هذه على الهند بعملية نهب وسلب على نطاق واسع . وفي سنة ١٧٣٧ اجتـــاز نهر الهندوس ودخل مدينة لاهور على رأس جيش ضم اكثر من ٤٠ الف محارب ، وكسر شـــر انكسار ، في كرنال ، جيش المغول الذي تألف من ٢٠٠،٠٠٠ محارب بقيادة السلطان محمود ، ودخل مدينة دلهي واستولى فيهـــا على ٧٥٠ مليوناً وبذلك اتيح له ان يُسقط عن الايرانيين الرسوم المترتبة عليهم لمدة ثلاث سنوات . ثم اعاد الحكم في الهند الى السلطان محمود . وباتجـاه الصين ، هاجم التركستان ، عام ١٧٤٠ ، ولقن القبائل درساً بليغاً ، واجبر خان بخارى على دفع جزية فادحة واستبدل خان خيفا بآخر ممن اعترفوا بالولاء له .

ثم فكر بادخال الحضارة الاوروبية الى ايران بعد ان خيم السلام على ربوعها . وجاءت حركته الاصلاحية شبيهة الى حد بعيد بالعمل التنظيمي الذي قام به القيصر بطرس الاكبر في روسيا ، بعد ان تهيأت له اسباب النجاح . افلم تكن ايران آرية الاصل والعرق وتمثل في القارة الآسيوية التي تسحق الانسان بضخامتها واتساعها ، شيئاً من الانضباطية والاعتدال ؟ فالحضارة الايرانية ، مع كونها آسيوية في صميمها ، تعارض ، من حيث طبيعتها ، المسرحية الآسيوية بما تمتاز به من اعتدال في الحكمة واتزان في الانسانية وبما لها من قابلية تكاد تكون فرنسية ساعدتها على صهر العناصر المختلفة وصبها وافراغها في قالب اصيل . الا ان الزمن لم يمهل نادرشاه اذ وجد حتفه مقتولاً ، عام ١٧٤٧ .

فما كاد يتوارى عن مسرح السياسة في بـــلاد فارس حتى دب الفساد في الامبراطورية الفارسية . صحيح ان ليس بين خلفائه من يصح مقارنته بـــه ، كما ان اختلاف السكان وتباين العناصر في تلك البلاد لم يكن من شأنه ان يسهل مهمة هؤلاء الملوك . فايران بلاد صحراوية الطابع تحيط بها الجبال من جميع الجهات . فمقاطعاتها الجنوبية والغربية ، امثال كرمان وفارس ولورستان وكردستان ، يقطنها اقوام ايرانيون في الصميم ويتحسسون عميقاً امجـــاد الحضارة الفارسية القديمة ، مع العلم ان بعض هذه الولايات اندمجت فيها وانضمت اليها عروق جديدة كالعرب في اللورستان ، وبعض عناصر العرق الاصفر في الكردستان . اما الشمال فتألف سواده من العرق الاصفر المغولي والتتار والاتراك ، اذ ان جانباً كبيراً من الطارئين والغزاة الفاتحين والاقوام الرحالة استقر في هذا المجال الضيق الذي تحف به الصحارى الممتدة رقعتها المتماسكة من السنغال غرباً حتى نهر العامور شرقاً ، فتحتل قلب قارات ثلاث ، على نصف الطريق من

اوروبا الغربية ومن شطآن اوروبا الشرقية ، وهي مناطق تصلح كثيراً بسباسبها الشاسعة ، للكر والفر ولحركات الفرسان الخيالة وتنقلاتهم .

وهكذا بدت ايران خليطاً او مزيجاً من القبائل والاقوام . فقد اقتصر حكم ورثة نادرشاه على خراسان وعرفوا ان يحتفظوا بها متخذين من مدينة مشهد عاصمة لهم . وتمكن الافغان من استعادة استقلالهم ، والاتراك القرغز معظمهم قبائل بدوية من رعاة وقوافل ، والذين منهم خرج معظم قواد الدولة الصفوية، ألفّوا جماعات عسكرية سيطروا بها على الولايات الواقعة الى الشمال او الممتدة من ارمينيا الى افغانستان ، من حواضرهم الكبرى اصفهان واستراباد وقندهار ثاروا على السلطة وتمكنوا بالفعل من اعلان استقلالهم . واخيراً في الجنوب ، والى الغرب قليلا ، حاول زعماء قبائل البختيار والزندء إقامة سلطة الايرانيين على الامبراطورية الفارسية . فقامت في البلاد دولة وطنية ، قومية هي دولة الزند ، استطاع رئيسها كريم خان (١٧٥٠ – ١٧٧٩) ان ينتزع من يد القرغز الاتراك ، مدينة اصفهان واذربيجان والمازندران . وهكذا حقق وحدة ايران الغربية الممتدة من شواطىء بحر قزوين ، حتى مشارف الخليج الفارسي وجعل من مدينة شيراز عاصمة ملكه ، وعمل على تجميلها وشيد فيها مبنى تخليداً لذكرى حافظ وسعدى ، اكبر واشهر شعراء الفرس طراً .

وعند وفاته ، راح آغا محمود وهو من قاجار الترك ، يعيد بين صحبه واتباعه ، قصة نادر شاه ، فأخضع لسيطرته الاتراك القاجار ، وهمّ بفتح بلاد فارس . فانتزع ، عام ١٧٩٥ ، من يد الزند ، مدينتي اصبهان وشيراز ، واستطاع عام ١٧٨١ ، ان يحمل الروس على الانسحاب من مازندران بعد أن كانوا احتلوها . ومنذ سنة ١٧٨٥ ، بلغ قوزاق الامبراطورة كاترين الثانية ، مقاطعة القوقاز حيث راح امير الكرج يقدم خضوعه للامبراطورة ، كما قدم لها املاكه الواسعة الممتدة حتى نهر الاراكس، من ضمنها ثلاث قلاع هي تبليس وأريوان وكوتاي . وفي سنة ١٧٩٥ ، انقض عليه الشاه محمود فجأة وكسره شر كسرة،وقام بمقتلة بين المسيحيين ، ثم اتجه شطر الجانب الآخر من الامبراطورية ، ينتزع من ابن نادر شاه ، ولاية خراسان فاستطاع بعد هذه الفتوحات الضخمة ان يعلن نفسه ملكاً ويتوج ذاته « ملك الملوك » ولم يلبث ان جاءت جيوش الروس تنتقم لنفسها من المذابح الهائلة التي جعل من تبليس مسرحاً لها ،ودخلت بلاد الكرج والداغستان وشيروان ، واجتازت نهر الاراكس ، وضربت خيامها في سهل موغان . واسرع السلطان آغا محمود يدافع عن مداخل البلاد وثغورها ، فلاقى حتفه مقتولاً ، عام ١٧٩٧ ، فكان موته إيذاناً بحروب طويلة مع الروس ، انتهت باستقرار الروس نهائياً الى الجنوب من بحر قزوين .

آل امر ايران في هذه الغضون إلى ايدي قبيلة تركية أمنت لنفسها السيطرة على البلاد بسلسلة من الفظائع والمذابح سمرت الخوف في قلوب الاهلين ثم راحت تستغل البلاد وتستثمر

مرافقها على ابشع صورة . الا انها كانت اعجز من ان تعيد الى البلاد وحدتها . وفي سنة ١٧٩٥، انفصلت عنها افغانستان وبلوشستان وغربي العراق . كذلك عجزت عن ان تنشىء لها وحدة قومية اذ استقبلها سكان العراق وفارس وكرمان بالازدراء ، والاستخفاف . كذلك كانت اعجز من ان توطد دعائم الحضارة من البلاد بعد ان زعزعت منها الاركان حرب جرت على البلاد ، خلال قرن من الزمن ، الخراب والدمار . فمنذ عهد نادر شاه نفسه ، بدت اعراض انحطاط ادبي قوية . فالآثار الفكرية والادبية التي تعود لهذه العهد ، تتسم ، على الاجمال ، بالغلو والاطناب والثرثرة . فقد عرفت بعض الفنون ان تحافظ ، الى حد ما ، على شيء من الازدهار الذي سجلته من قبل . فصناعة السجاد بقيت مزدهرة ناشطة حتى اواخر القرن . وفنون التحلية والوشي ، بقيت ضمن حدود المعقول والاتزان ، محافظة على ما عُرف عنها من بساطة ومن منهجية روعيت فيها بدقة ، اسس النظام ، ومبادىء الإيقاع والانسجام التي ميزت الفنون الاوروبية كما امتازت بوفرة نماذجها الشرقية ، وبهذه الرشاقة التي تطبع الطراز المعروف بطراز لويس الخامس عشر ، كما امتازت بزركشة الالوان في اتّساق وانسجام ، على انساب مقدورة ، تتناوح فيها الالوان بين الفاتح والناصع والفاقع انسجاماً من جانب هؤلاء الفنانين مع التقاليد والاعراف الآرية التي اعتمدت طويلاً في هذه البلاد . ولكن ما ان يطل القرن التاسع عشر بغرته حتى تطل معه بوادر الانحطاط ، في كل مرافق البلاد . وهو انحطاط « يطالعك في الطرقات والمباني ، وسير العلوم والجيش والادارة ، ليشمل كل ما طلعت به بلاد فارس ، في عهد الدولة الصفوية — بلاد فارس هذه الغنية والصناعية ممثلة بشيراز واصفهان التي اثارت الاعجاب في نفوس الاوروبيين . كل ذلك انحدر وهوى الى الحضيض في عهد اتراك طهران » .

الهند

تكون الهند عالماً بذاته ، تعزله عن باقي اجزاء القارة الآسيوية، سلاسل ضخمة من الجبال الشاهقة ، عالم له خصائص حضارية مميزة، استمدها مما تناوح عليه من الارياح الموسمية الفصلية ، والديانة البراهمانية والنظام الطبقي الذي ساد تلك البلاد ، كما استمدها من الاسلام الذي بسط سرادقه على سهول نهري الهندوس والغانج . فاذا ما ضربنا صفحاً عما بين الهندوس والمسلمين من نفرة وشحناء ، وضغينة وبغضاء ، فقد نشأ عن اختلاف المناطق الطبيعية وتباين الأحداث التاريخية ، عدد من التقاليد والاعراف والعادات والاخلاق المتباينة .

كذلك نشأ فيها مجتمعات بشرية متباينة كانت عماداً لدول وتكأة لدويلات عديدة . وهذا السور الجبلي المحيط بالهند ، يقف ماردا لا يلين ولا يلتوي الا في الشمال الغربي عند « ابواب افغانستان» التي تتكون من مجازات خيبر وبيفر وخوجاك وغفاجا، هذه المنافذ بالذات التي تدافعت عبرها، هادرة مزمجرة ، هذه الموجات الغازية من البدو الرحل التي استباحت الهند دون ان تبدل منها او تغيّر من حالها .

ففي مطلع القرن الثامن عشر ، كان المغول تحت حكم المغول الأكبر اورنگزيب ، يسيطرون على الجانب الأكبر من شمالي الهند ، والشطر الشمالي من الدكن ، كما ان القسم الجنوبي منه اعترف بالولاء لهم . فقد كانوا في تنظيمهم ونظامهم اشبه بجيش اقام مضاربه وسط بلد ثم فتحه عنوة . وتألف الجزء الذي خضع مباشرة للمغول من إيالات *Soubabies* ، وتقسم كل إيالة الى عدد من المقاطعات *Nababies* يتولى الادارة في الاولى : سوباب ، وفي الثانية : ناباب ، يُتخذون من بين كبار الموظفين . بيدهم السلطة الادارية والعسكرية يختارهم السلطان من بين عملائه المخلصين. ومن بين من اخلصوا له الخدمة والطاعة ، تحت إمرتهم قوة عسكرية للمحافظة على الأمن والنظام في الولايات ، ولتأمين جباية الضرائب وايصالها سالمة مضمونة الى خزائن السلطان . ولكل واحد من هؤلاء الحكام ، وكلاء عُهد اليهم السهر على استتباب الأمن ، كما لكل واحد منهم عدد من الجند توزعوا بين القرى والحشود الكبرى في المنطقة . وقام في هذه الولايات بالذات ، امراء هنود اعترفوا بالولاء للسلطان ، كأمراء راجبوت مثلاً، لم يكونوا ليرجعوا في شؤونهم وأمورهم، للحكام المحليين او الاقليميين ، بل ارتبطوا في علائقهم العامة ، بالسلطان مباشرة ، يدفعون له رأساً ، العوائد والرسوم المتوجبة عليهم كما ربطوا انفسهم تجاهه بحق الولاء والطاعة . وعلى مثل هذا الوضع كان الامراء التوابع في الجنوب . شد الامراء بعضاً الى بعض ، وشائج وثيقة من الولاء ، بينما غامت فكرة الدولة عندهم واستدق مفهومها . فاذا ما فشا التراخي في السلطة وفي صاحبها ، واذا ما استمر السوباب والناباب في وظائفهم طويلاً ، قد يستحيل نظام الحكم عندهم الى شيء اشبه ما يكون بنظام الفدانة أو النظام الاقطاعي ، فيفضي الأمر الى سلسلة متعددة الحلقات من الرؤساء والاتباع ، فيحولون مقاطعاتهم الى إقطاعات خاصة.وهذا ما حصل خلال القرن الثامن عشر . وهكذا نرى ان كل الطبقة العسكرية هي عيال على الضرائب المترتبة على الفلاحين والمزارعين والتجار .

ان ضآلة عدد المغول لدى وصولهم الى الهند ، وطبيعة الحضارة التي كانوا عليها دعتهم للاعتصام بالتساهل ولأخذ الناس باللين . فقد راحوا يستعينون بكل من أنسوا فيهم الرغبة بالتعاون معهم ، دون ان يبالوا كثيراً بفوارق العرف والدين . وهكذا عمل في الادارة ، تحت اشرافهم ، فرس وافغان وهندوس وراجبوت ، كما استخدموا ، في الجيش ، إقطاعيين مشهوداً لهم بفنون الحرب ، وفرساناً ماهرين. كذلك اقتبسوا الكثير من مختلف الحضارات التي قامت في الهند ، كما جعلوا من اللغة الهندستانية لغة الادارة ، وسادت اللغة الفارسية في البلاط الامبراطوري الذي اصبح مركزاً مرموقاً للاشعاع الثقافي الايراني في الهند . تميزت سياستهم باللين ، وحكمهم بالعدل والنصفة تجاه الفلاحين والهنود . وقد حاولوا جاهدين ان يتعاونوا باخلاص مع ابناء البلاد الوطنيين ، فحافظوا بذلك ، على استمرار الحضارة الهندية ، كما ابقوا المجتمعات الهندية على وضعها الطبقي الاجتماعي . وهكذا بدا وضع الفاتحين اشبه ما يكون كالزبد يطفو على سطح البحر .

فاذا ما استطاع اورنكزيب ان يوسع من مدى فتوحاته ، فقد عرّض للخطر سيادة المغول على البلاد . عُرف عنه تمسكه الشديد باهداب الدين وبتعصبه المقيت ، وباحتقاره وازدرائه لكل ما هو غير مسلم . ولذا راح يكثر من اعمال المطاردة والسخرة يرزح تحتها رعاياه . وابعد عن وظائف الدولة ، كلما استطاع الى ذلك سبيلاً ، الحكام الهندوس ، والشيعة من الموظفين وأحلّ محلهم موظفين سُنّة . وحدثته نفسه بحمل الهنود على الاسلام بالقوة ، كما اصلى الهندوكيين اضطهاداً عنيفاً يفرض عليهم ضرائب خاصة هي الجزية . وحوّل معابدهم الى مساجد وأخذ بتعذيب رؤسائهم الدينيين . فلم تلبث سياسته هذه ان اثارت بين الهنود ردة فعل اهاجتهم ضد المغول . كذلك نفّر بسياسته الهوجاء ، اشد الاتباع ولاءً له حتى الراجبوت انفسهم الذين عرفوا بشدة بأسهم ، كما ان المراكز التي كانوا يحتلونها في هذه المقاطعات الخاضعة للاسلام والتي كانت تفضي بسالكيها الى « ابواب افغانستان » جعلت منهم عناصر لا يُستغنى عنهم . فقد انتقض عليه السيخ والمهرات . وبعد موته ، عام ١٧٠٧ ، تراخت قبضة سلاطين المغول على الهند واصبحت سيطرتهم عليها رخوة هشة ، وبقيت امبراطوريتهم قائمة بالاسم فقط . وقد استمر كبار الموظفين يحملون عندهم الالقاب التي حملوها من قبل معلنين ولاءهم للمغول الكبير ، اما في الواقع فقد كانوا مستقلين . وكان من جراء الحروب التي نشبت فيما بينهم بغية الاستئثار بالسلطة ان جعلت ادارتهم خواء ، جوفاء ، وحكمهم سلسلة من الاجراءات لا طائل تحتها . فلم يلبث ان أطل البدو من وراء الحدود ، لينقضوا كالشهاب الخاطف على الامارات الهندية يعملون فيها نهباً وسلباً قبل ان تقوم بردة فعل . فلا عجب ان تعود هذه الانقسامات الداخلية بالخير على الاوروبيين الذين كانوا يتربصون بها الدوائر ، فساعدتهم على فتح الهند واستعمارها .

ولم تلبث شدة المنافسة بين المطالبين بالعرش ان أدت الى انحلال السلطة في البلاد . وقام اولاد اورنكزيب الثلاثة يتنازعون فيما بينهم اطراف العرش ، ويقتتلون في سبيل تأمين صيرورته الى كل واحد منهم . وقد تم الامر نهائياً لابنه البكر بهادر ، واحتفظ بالسلطة حتى عام ١٧١٢ . وقام ابناؤه الاربعة ، من بعده ، يتجاذبون خلافة ابيهم فيما بينهم ، مما أدى الى قتل ثلاثة منهم ، فعاد الأمر لاصغرهم سناً ، المدعو ياهندر الذي اصبح المغول الاكبر فحكم البلاد سنة ١٧١٢ – ١٧١٣ ، الا ان ابن اخيه المدعو فاروق شير ، شق عصا الطاعة على عمه وتمكن من هزيمته وأمر بخنقه . ثم اعتلى العرش ، وتولى الحكم من سنة ١٧١٣ الى ١٧١٩ ، وانتهى الامر معه الى المصير ذاته ، على يد الهندوس الثائرين الذين نادوا تباعاً ، ببعض ذراري اورنكزيب ، سلاطين على الهند ، فحصدهم الموت وراحوا فريسة للدسائس والثورات والمؤامرات الى ان انتهى الامر الى واحد منهم يدعى السلطان محمود ، الذي كان حكمه بين ١٧١٩ – ١٧٤٨ ، اشبه ما يكون بحكم الظل . وخلفه في الحكم ، في الظروف ذاتها ، السلطان احمد (١٧٤٨ – ١٧٥٤) ، وعلمجير الثاني (١٧٥٤ – ١٧٥٩) وعَلَم الثاني (١٧٥٩ – ١٨٠٦) فقد كانوا جميعاً ، باستثناء علمجير الذي سقط وهو يجاهد ، اباطرة ظل ، وألعوبة بيد الاحزاب المتخاصمة ، يوزعون

الالقاب والفرامانات ، ذات اليمين وذات الشمال ، همهم الوحيد إلباس الامر الواقع لباس الشرعية ، والتاج ينتقل من هامة الى اخرى ، وفقاً لميزان القوى والمزايدة في الثمن .

ولما كان هؤلاء المتنازعون على العرش ، والمطالبون بحق الخلافة بحاجة لمن يشد من أزرهم . فقد راحوا يستنجدون نصرة الجماعات الهندية ، ولا سيما الراجبوت منهم والسيخ والمهرات ، الذين تمكنوا من تأسيس ممالك وطنية ، جاء طلوعها تعبيراً بليغاً لهذه الحركة الرجعية التي قام بها الهندوس ضد حكم المغول .

وقد ألف الراجبوت ، باكراً ، من الامارات التي تمتعت بشبه استقلال ، اتحاداً عاماً واطل عهد تحررهم الفعلي عندما راح الراجا عجيت – ينغ ، نائب ملك احمد آباد – يسترجع عام ١٧٢٠ ابنته التي كانت تحت السلطان فاروق شير ، وحملها على انتزاع لباسها الاسلامي ، وطرد وصيفاتها المسلمات . فكان بذلك اول راجا في الهند يسترجع ابنته بعد زواجها من ملك مسلم . الا ان الامراء الراجبوت كانوا على اختلاف عظيم وانشقاق بالغ فيما بينهم بحيث قصروا عن القيام بالدور الحاسم الذي اهلتهم له بسالة فرسانهم وموقعهم الجغرافي .

فبعد ان اصلى اورنكزيب السيخ اضطهاداً حامياً ، حسن وضعهم بعد ان آل الامر الى بهادر الذي اتسم حكمه بالتساهل الديني ، وادخل في خدمته مرشدهم وزعيمهم الديني غوبند.

الا انه اقتضى لهم اكثر من نصف قرن من الجهاد المرير والحروب الموصولة ، لتأمين سلامة مؤسساتهم في حوض نهر الهندوس . وقد تم لهم ذلك بواسطة عقيدتهم الدينية التي غدت فيهم مكارم الاخلاق وبعثت فيهم الحماسة والنشاط . فقد كوّنوا طائفة ظهرت بوادرها في القرن الخامس عشر ، تألفت من عناصر هندية متعددة الجذور والفروع . فقد عزفوا عن الشرك وعن عبادة الاصنام ، كما ضربوا عرض الحائط ، بالطقوس الدينية والفروق الطبقية ، فتألّب حولهم جماهير كثيفة من الهندوس ، من كل الطبقات الاجتماعية ولا سيما من طبقة المنبوذين ، فقالوا بوحدانية الله ، كما قالوا بالقدرية ، مما زادهم حماسة ونشاطاً اثناء المعارك التي خاضوها ، وفرضوا ، في الحين ذاته ، بذل الجهد الشخصي ، وعمل البر ، ومحبة الله والقريب كشرط اساسي للخلاص . ومن وصاياهم الا يديروا ظهورهم للعدو وان يمتنعوا عن تعاطي المسكرات والمخدرات ، وابيح لهم اكل اللحوم مما امّن لهم قوة بدنية لم يتوفر مثلها في غيرهم من الهنود الذين يعيشون على البقول والخضراوات . « وهكذا فقد جعل الايمان من هذا اللميم من الهنود الذين لا يعترفون بنظام الطبقات امة أعطت البلاد خير ما لديها من جنود . .» وانتهى بهم الأمر الى استرجاع البنجاب ، كما تمكنوا ، عام ١٧٦٤ من احتلال مدينة لاهور .

أما المهرات ، فقد ألّفوا ، في الاصل عرقاً جبلياً من قبيلة الغات الغربيين فشكلوا فرقة من الخيالة ، اشتهرت ببسالتها وبسرعة حركاتها بحيث كانت تنقضّ على العدو على حين غرة منه فتزرع الخوف والرعب في النفوس . فقد أعلنوا الثورة في القرن السابع عشر وانضمّ الى

صفوفهم عدد كبير من فجّاج الآفاق والمغامرين الأشداء قدموا من كل فجّ وصوب ، فيغيرون على المقاطعات الاسلامية ويعيثون فيها نهباً وسلباً يستولون على كل ما يؤمن لهم أود العيش . وفي سنة ١٧٠٨ ، حمل زعيمهم المدعو سهوجي سلطان المغول ، على الاعتراف باستقلالهم ، ولم يلبث

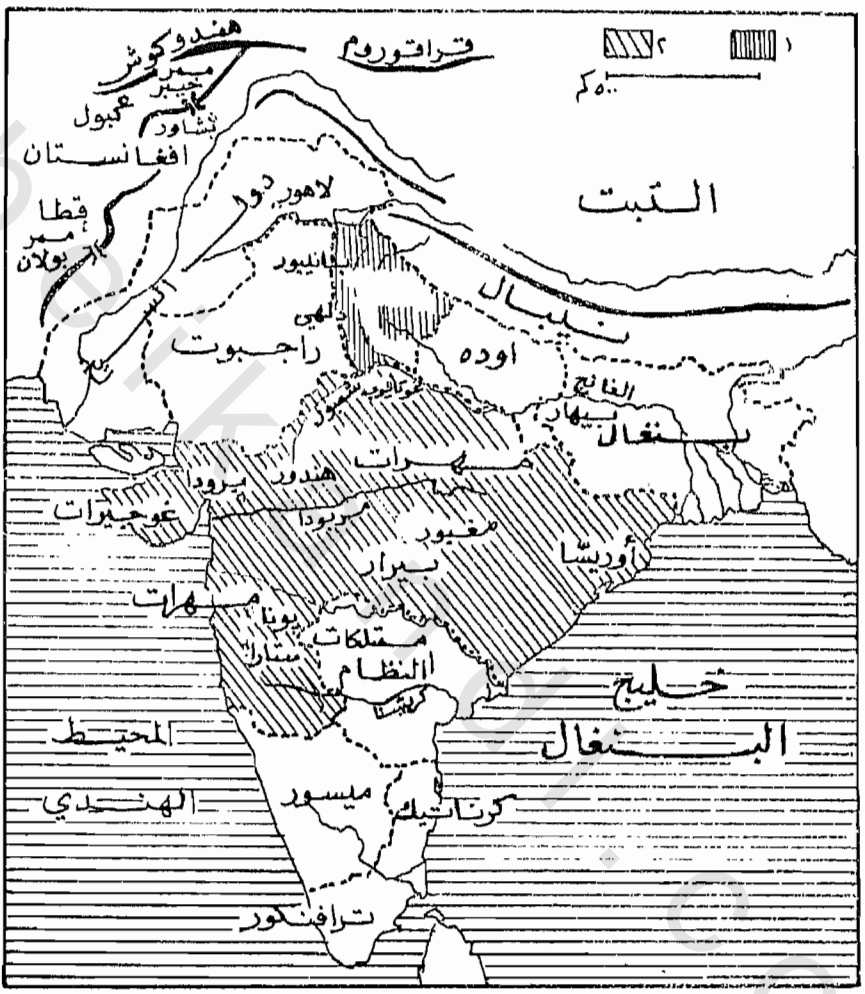

خريطة - ٤ الممالك المنفصلة عن الامبراطورية المغولية والممالك الاخرى القائمة في الجنوب من الهند
١ - المنطقة الخاضعة فعلاً لسلاطين المغول ٢ - المناطق التي يشرف عليها المهرات .

ان نودي به ملكاً على المهرات ، وجعل مدينة ستارا عاصمة ملكه . وقد قبل خليفته على العرش ، الراجا شاو ان يُعلن ، عام ١٧٠٩ ، تابعيته لأحد المطالبين بعرش سلاطين المغول ، فعهد اليه هذا باستيفاء الضرائب في ولايات الدكن السبع ، على ان يحتفظ المهرات لأنفسهم ، بالاضافة الى ريع الرسوم المجباة ، عشرة بالمائة (اي ما مجموعه ٣٥ ٪ من الرسوم) . فتوفرت

بذلك لهم الوسائل المالية اللازمة لانشاء جيش قوي ، كما تمت لهم سلطة شرعية كانت ستاراً لهم ومبرراً للقيام بهذه الاستباحات واعمال السلب والنهب التي قاموا بها في هذا القسم الشمالي من الدكن . وبعد ان اصيب الراجا شاو بالخمول ، من جراء وقوعه في *Zenana* اورنكزيب ، أثر رسوفه في الاسر أصبح هو وخلفاؤه من بعده ، خاملاً ، كسولاً ، قعدة . فقد صار الامر الى سدنة البلاط : البايشوى الذين تولوا زعامة المهرات وتوجيههم ، واستمروا في مناصبهم مشرفين على إقطاعاتهم في بونا حيث أسسوا سلالة ملكية . فأقطعوا ضباط جيش المهرات المناطق والاقاليم ومجموعة القرى والدساكر ، وفوضوا اليهم جباية الضرائب والرسوم . وهكذا تحول حكم المهرات تدريجياً الى نظام إقطاعي . فقد نال اول امراء البايشوى ، من سلاطين المغول عام ١٧٢٧ ، حق جباية الضرائب في هذه الدول والامارات الواقعة الى الجنوب من الدكن (ميسور ، وترافنكور ، والكرناتيك) ، وفي الولات الست الاخرى الواقعة في الشمال . وقد بسط ثاني امراء البايشوى هواجي الراجي – داو (١٧٢٠) سلطانه حتى حدود الانهر : تشامبول والجوما والغانج ، ووزع هذه الاراضي الجديدة التي دوخها ، إقطاعات بين بيوتات المهرات الاربعة الكبيرة : فنال الهلكار ، مالوى الجنوبية وجعلوا من اندور عاصمة لهم ؛ ونال الندهيار مالوى الشمالية وعاصمتها غوالبور . ونال البهوسلا بيرار مع نغبور عاصمة لها ، كما نال الغويكوار قسماً من الغوجيرات وعاصمتها بارودا . وهكذا امتد حلف المهرات حتى مشارف دلهي ، وفي عهد الثالث من امراء البايشوى ، المدعو بالاجي داو (١٧٤٠ – ١٧٦١) ، استمر المهرات في هجومهم وغزواتهم في جميع الجهات . ولم يفشلوا الا مع الفرنسيين ، فاضطروا للاعتراف لهم بالتابعية والولاء (١٧٥١) . غير ان الانشقاقات التي شجرت بين امراء المهرات وبينهم وبين امراء البايشوى ، الحقت الوهن بالحلف الذي كانوا توصلوا الى انشائه . فلم يكونوا ليوحدوا فيما بينهم ويستجمعوا قواهم الا عندما يرون انفسهم امام خطر مداهم يتهددهم من جانب المغول .

والهندوس مدينون بالنجاحات التي حققوها ، لهذه الانقسامات التي اقامت المسلمين في الهند بعضهم على بعض وفرقتهم . فقد تمت الغلبة لفاروق شير ، بفضل مناصرة شقيقين من السيّاد (من سلاله النبي العربي) ، سليلي اسرة شيعية استوطنت منذ بضعة قرون مقاطعة دواب *Doab* ، كانت تفخر باصلها الهندستاني : احدهما حسين علي ، نائب حاكم بُتنا ، الذي آلت اليه رئاسة الوزارة ، والثاني عبدالله خان ، نائب حاكم الله اباد القائد العام فيها . كان تحت امرتهم عدد من الانصار ورجال الحرب . فقد نهجا سياسة قومية هندستانية ، وعينا في المراكز الحساسة الهامة بعض العسكريين من انصارهما . وإذ رأى فاروق شير انهم على جانب من القوة راح يناصر المغول . واذ ذاك جمعوا صفوفهم ولموا انصارهم ونادوا باسقاط فاروق شير وخلصوه وعينوا مكانه محمداً واخذوا بتوجيهه .

ضاق نبلاء المغول وأشرافهم صدراً مما لحقهم من خسف وأصابهم من اهانة ومذلة ، فاهتاجوا

وأعلنوا الثورة. وتمكن نظام الملك سوبادار مالوى من التغلب على الشقيقين وتمكن من انقاذ الامبراطور عام ١٧٢٠ . وكان من نتائج هـــذه الردة المغولية ان افضت الى تفسخ جديد في الامبراطورية المغولية وتخلخلها .واذ اتضح لنظام الملك ان الامر خرج من يد الامبراطور الذي اصبحت سلطته واهية ، اقتطع لنفسه (١٧٢٢ – ١٧٢٤) امارة في الدكن وأسس فيها دولة وراثية ، اقامت صورياً ، الولاء للمغول الكبير . وسار على هذا النهج ايضاً ، في نيابة أوده الملكية ، سودوت خان ، هذه النيابة التي وقفها عليه السلطان محمود ، مكافأة له على خدماته . وعلى هـــذا النحو قس ايضاً نيابة البنغال وبيهار واوريسّا التي انفصلت عن الامبراطورية وأعلنت استقلالها . ولم يبق للمغول الكبير من سلطة فعالية الا في مدينة دلهي وضواحيها .

اما المهرات الذين كانوا في سبيل بسط سيطرتهم على الهند اجمع ، فقد اصطدموا في تقدمهم وتوسعهم بالدول الاسلامية ، ولا سيما بالنظام ، واخذوا يطالبون بفرض الرسوم والضرائب على ممتلكاتهم . ومع ان النظام فشل في حروبه ضد المهرات (١٧٢٩ – ١٧٣٦) فقد نال مع ذلك، وعداً بألا يدخل المهرات الى ممتلكاته . وقد تعهد من جهته بألا يسبب لهم اي ازعـاج ، ولا أية مضايقة في متابعتهم فتوحاتهم باتجـاه الشمال وباستئناف غزواتهم في هذه الناحية . وقـام المهرات بعدة غزوات امتدت الى مشارف البنغال ، واجبرت بيهار واوريسّا على دفع جزية لهم ، وكذلك كان شأن راجا ميسور . ووجه بلاجي راو غزواته باتجاه الراجبوت والبنجاب والاوده واستولى على مدينة باسّن بعد ان طرد البرتغاليين منها ، وهدد غوا بالمصير ذاته ، وقام بغزوة على الممتلـكات الفرنسية الا انها باءت بالفشل . وقد بدا ان مغازي المهرات ستتنـــاول الهند في جميـع اطرافها فركب الهم والغم نبلاء المغـــول ، كما ان القلق دب بـين التجار والفلاحين الهنود . وهكذا تعطل في البلاد النظام الاجتماعي المعمول به وبارت التجارة وأرهق الفلاحون . وقام خليفة نظام الملك ، هو النظام سلبات – يونغ بجهود طيبة في هذا المجـــال واستعان بفرقة السيباي التي كانت تعمل تحت إمرة الضابط الفرنسي بوسي الموفـــد من قبل المعتمد الفرنسي دوبليكس . وقد انكسر بلاجي – راو ، عـــام ١٧٥١ ، الا ان الفرنسيين اضطروا للانسحاب عندما اشتدت منافسة الانكليز لهم ، وغلب سلبات يونغ على أمره واضطر للدخول في مفاوضات مع الانكليز انتهت بالتخلي عن بعض ممتلكاته . واستأنف خليفته نظام علي الجهاد ، الا ان الفرنسيين تخلوا عنه عند نشوب حرب السبع سنوات. بعد ان عرف المهرات كيف يستفيدون من تفوق جنود فرقـة دي بوسي ، فأعادوا تنظيم جيشهم ، وقوّوا من شأن فرقة المشاة والمدفعية عندهم بتزويدها بمدافع شبيهة بمـــا كان منها لدى الفرنسيين . وهكذا غلب نظام على امره وتوزعت ممتلكاته بدداً .

هذه الحروب المتصلة الحلقات بين الهندوس والمغول وما اتاحت من نهب وسلب واستباحات عرضت الامبراطورية المغولية لغزوات جديدة بعد ان طمع بهـــا الطامعون . فبعد ان عامل امبراطور المغول ، شاه العجم نادر شاه ، بازدراء وعجرفة، راح هذا الاخير يهاجمه عام ١٧٣٩ .

فوجد الشاه في منطقة كابول وبشاور نواب ملك عاجزين دانوا بوظائفهم للمحسوبية ، كما وجد الحاميات في غاية الاهمال ، والقبائل التي عُهد اليها الانذار بالخطر والاستنفار والحد من تقدم الغزاة ،تتذمر وتتأفف غير راضية لعدم قبضها مرتباتها . فدخل الهند وكسر السلطان محمود واستولى على دلهي وقام بنهب البلاد بصورة منتظمة ، وحمل معه عرش المغول الكبير ، ثم غادر البلاد وقفل راجعاً فجأة بعد ان اوصى السكان بطاعة الامبراطور والامتثال لاوامره بعد ان اوسعه نهباً وسلباً . وقد قام الافغان بقيادة احمد عبدلي بغزون الهند مراراً ، بعد ذلك، سنة ١٧٤٨ ، الا انه تمكن من ايقافهم واخراجهم من البلاد ، ومن غزوها سنة ١٧٥٢ فتمكنوا من احتلال البنجاب وتعيين نائب ملك مغولي فيه ليس له من السلطة سوى الاسم ، وفي سنة ١٧٥٦ استولوا على دلهي ، واخيراً سنة ١٧٥٩ . وقام الهنود هذه المرة بكرة عامة اشترك فيها المهرات والسيخ ، الا ان الانشقاقات الحادة نشبت بينهم وهم يواجهون عدواً مشتركاً . فقد تخلف عن القدوم البهوسلا من بيرار ، ونائب ملك بوده التزم موقفاً معادياً من المهرات . كما انسحبت جماعات اخرى من المواقع المخصصة لها في تعبئة الجيش . ولم يعرف المهرات ان يستفيدوا كما يجب ، من مدفعيتهم ومن الفرق العاملة لديهم والمعبئة على نظام التعبئة الفرنسي ، عدا عن الفرق التي لم تأت شيئاً يذكر والتي لم تعرف ان تنسق حركاتها وتتنقلاتها في اثناء المعركة لتأتي منسجمة مع حركات الفرق المختلفة . وفي معركة بانيبوت التي وقعت في ٧ كانون الثاني ١٧٦١ ، انهزم المهرات شر هزيمة امام مناورات الخيالة الافغان الضخمة وهجماتها العنيفة المتكررة .

ومعركة بانيبوت والهزيمة النكراء التي الحقتها بالمهرات ، وضعت حداً في القرن الثامن عشر للحلم المعسول الذي راودهم بان يروا الهند حرة مستقلة . فقد "فتّ" في عضد المهرات بعد معركة بانيبوت الطاحنة التي خسروا فيها ٢٠٠،٠٠٠ جندي من خيرة رجالهم ومعظم قوادهم وزعمائهم بقطع النظر عن النساء والاطفال . ومنذ ذلك الحين اصبحوا اعجز من إخضاع الهند وتوحيدها في دولة متماسكة الاطراف لتقف بنجاح ضد هجمات البدو ، هذا اذ سلمنا جدلاً انه جال في خاطرهم مثل هذا الحلم ، وأوتوا مثل هذه القدرة . اما الدول الهندية الأخرى فقد كانت ضعيفة الجانب ، مهيضة الجناح . وكذلك قس الدول الاجنبية كالافغان الذين لم يبرهنوا الا عن مقدرة فائقة على الغزو والنهب والسلب ؛ وايران التي راحت فريسة حروب اهلية ، داخلية ؛ وقبائل التركستان والمغول التي لم تلبث ان راحت فريسة هجوم الصينيين بعد ان تمت لهم مدفعية من الطراز الاوروبي . ومن جهة أخرى ، فالتطور الذي عرفه حلف السيخ وتمركزه في مدينة لاهور ألف حاجزاً قوياً في وجه الغزوات التي كان يقوم بها الافغان ، كما وقف حاجزاً دون تعديات شذاذ الآفاق في التركستان والعجم الذين كانوا يمدون الامبراطورية المغولية بحاجاتها من قواد الحرب ورجال السياسة . وهكذا سار الامبراطور والامبراطورية المغولية على طريق الانحلال والانهيار ، ولم يعد في مكنة أحد ان يعيد الى الهند وحدتها بعد ان اصبح تاريخها سلسلة

متصلة الحلقات من الفوضى والاشتباكات الدامية . فعم البؤس البلاد وخيم عليها الضيق، وقامت سلامة الأفراد وأمنهم ، قبل كل شيء على سواعدهم والاعتصام بالحيلة . اذ لم يعد المرء يهتم قبل كل شيء الا بما يؤمن له أود العيش وما فيه أمنه وسلامته ، لا يلوي على شيء وفقد كل ثقة بالناس . وبارت الارض وما عليها من زرع وضرع ، لفقدان الطمأنينة ولاشتداد المجاعة في البلاد . وتعرضت المواصلات لمخاطر كثيرة واصبح المسافرون عرضة لفتك النمرة والفيلة، وشلت حركة التجارة في البلاد . فالقرى اقفرت من ساكنيها، والمدن غادرها اهلها ، وتداعت للخراب الهياكل والمساجد في مقاطعات كثيرة . فتدخل الاوروبيين وحدهم في القرن الثامن عشر ، سيساعد على إعادة النظام واستقرار الأمن تدريجياً في البلاد ويفتح امامها ابواب التطور .

بذل الاكليروس مجهوداً طيباً في حقل التبشير بالمسيحية في الهند ، ولا سيما في ممتلكات البرتغاليين ومراكزهم الرئيسية امثال غوا وديو ودامان ، كما عمل في هذا المجال ، مجال الرسالة بعض ابناء الرهبانيات الكبرى . قام في وجه الرسالة عقبات كأداء كثيرة . فالمسيحية قالت وعلمت بمبدأ المساواة ، وهو مبدأ يتعارض كلياً ونظام الطبقات المعمول به في الهند . فالروح يهب حيثما يشاء والله لا يأخذ قط بالوجوه . فكيف يألف البراهمان او يقبلون فكرة تناول القربان من يد كاهن هو من طبقة المنبوذين ؟ فمجرد تصور الاحتمال تدنيس له وتلطيخ لطهارته ، ومجرد التفكير به يجعل فرائصه ترتعد فرقاً وجزعاً ، كما ان مجرد اعتناقه للمسيحية يخلف فيه عوجاً او شوهاً لكيانه ويسبب له عذابات مبرحة . فالهندي الذي اعتنق المسيحية وارتضاها له عقيدة ودستوراً ، لم يعد يجوز له الخضوع للمراسيم والامتثال للطقوس الدينية التي كان عليه ان يأخذ بها ويخضع لها وهو على الهندوكية ، وكذلك قل عن الخرافات والطقوس الصنمية . وافراد الطبقة الذين انفصل عنهم وانقطع عن شراكتهم لا يستطيعون بعد ان يحافظوا على هذه الوشائج والروابط التي شدتهم بعضاً الى بعض من قبل ، بعد ان اصبح المتنصر ، في نظرهم ، رجساً ، نجساً ، كما امتنع على هذا المتنصر الدخول في أية طبقة اجتماعية اخرى . ولذا فهو يجد نفسه مفصولاً او مقطوعاً عن كل طبقة ، معزولاً عن جميع الناس ، مشرداً ، مرذولاً ، ضائعاً في متاهة الحياة .

ومن جهة ثانية ، فالمسيحية هي نفي من الاساس ، لهذه الصورة التي رسمتها كتب الهندوس القديمة للكون ، والتي قالت بها الهندوكية وعلمت ، والتي تمور بها وتلهج اناشيد الهندوس وزبورهم . فالصعوبة الكبرى لم تقم في القول بتعدد الآلهة ولا بالقول بالمذهب الروحي في الحيوانات . فهي تكمن في هذه الفكرة الاساسية التي تقوم عليها الفلسفة الهندوكية بعد أن تلقحت البراهمانية بالمؤثرات اليانية والبوذية ، كالمطلق والكائن غير المتناهي ، والخالد ، وكلها افكار آخذة ابداً في تطور دائم . وهذا الكائن المطلق يبدو للناس انبثاقاً متصلاً من الاشكال والكائنات المتغيرة ، ممثلة في هذه الكواكب والاشياء والنباتات والحيوانات والناس والآلهة انفسهم ، وهي صور واشكال ليست في الواقع سوى خيالات ومظاهر غرارة لهذا الكائن

المطلق لا وجـــود ولا حقيقة لها في غـير ذاتها . هذا القول يفضي بصاحبه الى الحلولية . فالاشياء كلها اجزاء من المطلق ، من الكائن الأسمى . وهـذا القول بالذات يصدم المسيحية في الصميم ويبطل العقيدة المسيحية ويملأ نفس المسيحي رعباً وظلاماً . وبالفعل ، فمع ان الايمـــان بيسوع المسيح هو بمعزل عن كل فلسفة او مذهب فلسفي ، فقد راح علماء اللاهوت يستعينون ببعض المصطلحات التاريخية ليفسروا كلام الله ، اي الكتاب المقدس لتقريب مفهومه من مدارك الناس ، مستعينين على ذلك ببعض الاصطلاحات والتعابير والتراكيب التي وردت على ألسنة فلاسفـــة الأغريق كأفلاطون ، ولا سيما ارسطاطاليس ، ثم توسعوا فيها واكملوهـا . فالعقيدة المسيحية اتضحت وتبلورت وتركزت على اساس من هذه المصطلحات الفلسفية التي تقول اساساً بـــأن للاشياء المحسوسة جوهرها الفرد ، هذه الصورة المتعدّدة التي تعطي المادة شكلها وكيانها وصيغتها وطبيعتها المميزة . فالكون وجود واقعي . فالعالم الخارجي ، قائم موجود . وهذا القول يجعل العقيدة المسيحية بوجود اله شخصي ، جوهر روحي ، حقيقي متميز اصلا وجوهراً عـن العالم ، الاساس الركين للايمـان بالسيد المسيح . ففي نظر هندي مثقف كما يجب ، فالمسيح ليس سوى مظهر من مظاهر الكائن الاكبر التي لا عدّ لها ولا حصر . فاعتناقه المسيحية والقول بمقالتها ، يكوّن عنده بالفعل ، انقلاباً جذرياً ، كلياً ، لافكاره ومكنوناته ويقلبهـــا رأساً على عقب وظهراً لبطن .

هذه الصعوبات وغيرها كثير لم تحـــل دون حصول ارتدادات بين الهندوس واعتناقهم النصرانية ، انما هي ارتدادات اقل بكثير ممـــا تمنته محبة المرسلين وسعت غيرتهم الملتهبة الى تحقيقه ، وقد تاقوا لو يستطيعون ارتداد كل الهندوس . فقد قـــام الآباء اليسوعيون ، في القرن السابع عشر بمجهود جبـار ليوفّقوا بين المسيحية وبين فكرة الهندوس ونظامهم الاجتماعي . فقد حافظوا على مظاهر طقوس هندية كثيرة ، ووضعوا اناشيد وأماديح دينية تحاكي من حيث شكلها ومحتواها ، الاناشيد والتراتيل الهندوكية القديمـــة بحيث لا يستطيع التمييز بينها الا من أوتي بُعد النظر وصدق الخبر ودقة البصر . وقد اقتبسوا كثيراً من حكمة الهنود وادخلوها حِكَم المسيحية ، وراعوا ، مـا امكن ، مفارقات الطبقات الهندية . فاليسوعي الذي تلبس مظاهر البراهمان ازدرى بأخيه اليسوعي المتدثر باسمال المنبوذين وضرب كشحاً عنـه . فاذا ما تحتم على يسوعي مثلا ان يحمل القربان الاقدس لمسيحيين من طبقة ادنى ، كان عليـه ان يناولهم القربان على رأس قضيب او ان يتركه على عتبة منزل المسيحي . وهذه « الطقوس اللابارية » ، سببت الشكوك لعدد كبير من المرسلين وحركت فيهم الغضب والحقد . فقد اصدر البابا ، منذ عـام ١٧٠٤ براءة رسولية يشجبها باعتبارها مغايرة للروح والآداب المسيحية . وفي عام ١٧٤٥ جاءت البراءة البابوية *Sollicitudo omnium* تؤيد الحكم السابق وتثبته . فلا عجب ان تخف من جراء ذلك حركة الارتدادات . ومع ذلك ، فقـد بلغ عدد المسيحيين في الهند ، عام ١٧٥٦ ، نحواً من المليون . الا ان الملوك اخذوا بمحاربة اليسوعيين . ففي سنة ١٧٥٧ ، أمر بمبال باعتقـــال

١٥٧ مرسلاً يسوعياً في الهند وإبعادهم الى لشبونة . وفي سنة ١٧٥٨ ، صدر امر يمنع الآباء اليسوعيين من القيام برسالتهم في المستعمرات البرتغالية ، فاضطر بضع مئات من الرهبان والمرسلين الى مغادرة تلك المقاطعات ، والعودة من حيث أتوا . وفي سنة ١٧٦٤ ، جاء دور المستعمرات الفرنسية . وفي نهاية المطاف اصدر البابا عام ١٧٧٣ ، مرسوماً بالغاء الرهبنة اليسوعية ، مع العلم ان الحروب المتصلة وفساد الاخلاق والآداب الآخذ بالانتشار لم يكن ليساعد كثيراً على نشر ديانة تقوم على البذل بالنفس والتجرد والمحبة ، والتي تجعل من طهارة القلب الشرط الاساسي لاقتبال كلمة الله ، والى هذا ، راح المسلمون والهندوس انفسهم يضطهدون المسيحيين . ففي خلال حروب ميسور (١٧٦٦ – ١٧٩٩) قتل تيبو – صاحب ، اكثر من ١٠٠،٠٠٠ مسيحي او جعلهم يرسفون أرقاء في العبودية . والهولنديون الذين كانوا على البروتستانتية ، اخذوا ، هم ايضاً ، يضطهدون الكاثوليك ، في جزيرة سيلان ، ويطردون المرسلين العاملين فيها او يأمرون بقتلهم . ففي سنة ١٨٠٠ ، لم يكن عدد المسيحيين في الهند ليزيد على ٥٠٠ الف . ثلثاهم قام في المستعمرات البرتغالية القديمة ، يقوم على خدمتهم الروحية اكليروس وطني ، بينما الباقون منهم هم مشتتون في جميع ارجاء الهند وسيلان ، على خدمتهم مرسلون كبوشيون وكرمليون ومرسلون تابعون للارساليات الاجنبية . وهكذا فشلت حركة الارتدادات كلما فشلت تماماً حركة فرنجة الهند وتمثلها الحركة العلمية الاوروبية .

وقد نجح الاوروبيون في مجال آخر ، خارجي المظهر ، سطحي المنظر ، هو بدء استعبادهم الهنود واستثمارهم لمرافق الهند . ففي ، مطلع القرن الثامن عشر نشط للعمل في الهند شركتان تجاريتان احداهما فرنسية والاخرى انكليزية . لكل واحدة منها مجلس ادارة اعضاؤه من بين كبار حملة الاسهم فيها . فالشركة الانكليزية تتولى هي نفسها ، ادارة اعمالها ، بينما كان يتولى ادارة الشركة الفرنسية مدير يعينه الملك نفسه وتخضع اعمالها لمراقبة مفتشين ماليين . وعلى المدير ان يتقيد بتعليمات الحكومة الفرنسية وتوجيهاتها . وكان مجلس الادارة يتمثل في الهند بحاكم عام يتولى مهام الادارة ويقوم بتوجيه وكلاء الشركة وممثليها في المقاطعات . وقد نالت كلتا الشركتين من المغول الكبير ، إمتيازات تخولها تأسيس وكالات تجارية لها . فأنشأ الانكليز لهم وكالات هامة في مدراس وكلكوتا وبمباي وصورات ، كما أنشأ الفرنسيون وكالات لهم في بنديشري وشندرناغور . واشتدت المنافسة بين الشركتين اشتداداً قوياً اذ ان تصدير البضائع الهندية الى أوروبا (منسوجات القطن والموسلين والحرائر والشاي والبن والفلفل الخ) كان يعود على التجار بأرباح طائلة تصل احياناً الى ١٠٠٪ الا انه منذ ١٧٣٠ ، كان معظم حملة الأسهم في الشركة الفرنسية من ذوي الايراد المحدود الدخل . كما ان مديري الشركة هم موظفون لا يهمهم كثيراً نجحت اعمال الشركة التجارية الموضوعة تحت اشرافهم او ازدهرت مشاريعها او لم تنجح .

تمكنت الشركة الفرنسية من النهوض بأمورها التجارية بين ١٧٢٠ – ١٧٤٠ ، بشكل يثير

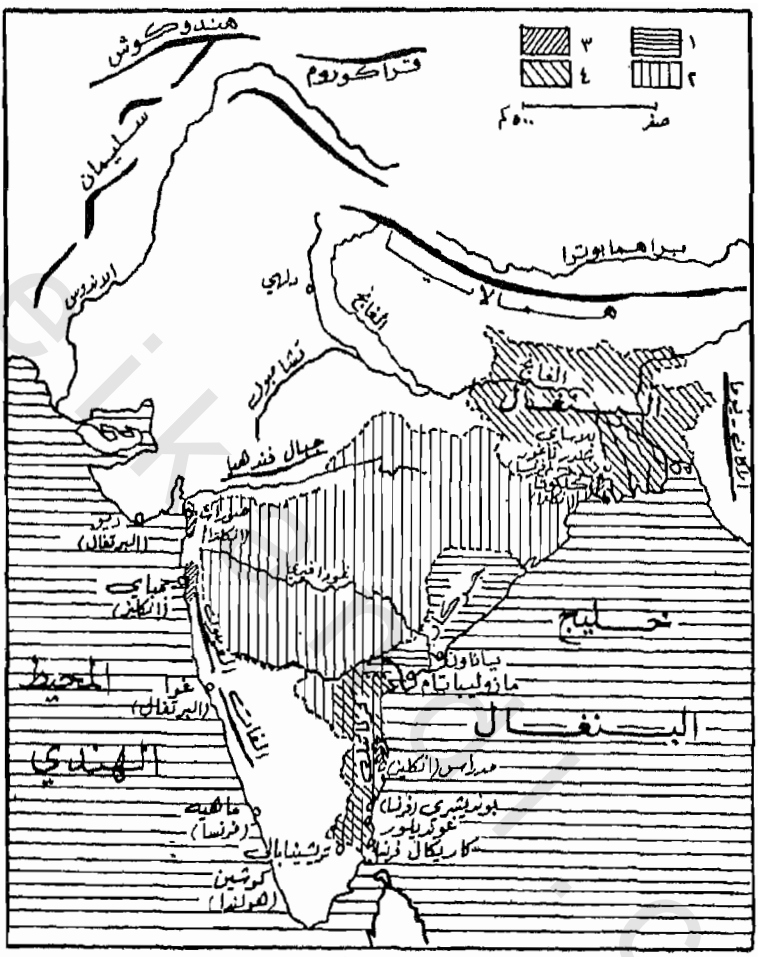

خريطة ـ ٥ الدوروبيون في الهند
الممتلكات الفرنسية الى عام ١٧٥٤ ـ ١ ممتلكات تابعة مباشرة للشركة الفرنسية ـ ٢ ـ ممتلكات الحلفاء والاتباع ـ الممتلكات الانكليزية : ٣ ـ الى عام ١٧٥٤ ـ ٤ ـ الممتلكات التي جرى ضمها او فرضت عليها الطاعة منذ ١٧٥٤

الاعجاب . فبينما اعمـــال الشركة الانكليزية كانت تعاني الركود والجمود ، فقد اعتمد الحاكم الفرنسي العام «له نوار» ، مبدأ الاتجار في الهند ومع الهند ، بالنظر لهذه الفوارق العظيمة التي باعدت بين مختلف اجزاء البـلاد والعباد فيها ، اي ان الشركة استخدمت كوسيط في اشباع مطالب شعوب الهند وتلبية حاجاتها . فاستطاعت الحصول على امتيازات جديدة من المغـول الكبير ، منها مدينة ماهيه (١٧٢١) وياناون (١٧٢٣) . فقد بـدا واضحاً للحاكم الفرنسي العام دوماس (١٧٣٥ — ١٧٤١) ، وهو يشاهد عن كثب تفسخ امبراطورية المغول وتناثرها ، ان الاستمرار في الاعمـال التجارية بنجاح يقتضي له قوة مسلحة تفرض حولها الهيبة والاحترام وتدعم المفاوضات التي تقيمها الشركة مع مختلف الامراء الذين يحققون استقلالهم النـاجز . فلم يغفل في تقديره ما للعرف من اهمية (كما انه لم ينتقص بوصفه مستعمراً مطلعاً جيداً على ما للأوضاع المتحكمة) من قيمته ، وادرك جيداً ان الهنود سيكونون غيرهم بعد ان يتعرفوا الى النظـــام الأوروبي المدهش ويستمرئوا مميزاته وحسناته . فشكل طوابير وطنية اتخذ افرادها من بـين فرقة السيباي المعروفين ببرودة دمهم ورباطة جأشهم ، حتى اذا مـا تسلحوا بالبنادق الجديدة والمدفعية الخفيفة ، قاموا بالمعجزات المدهشات اذا مـا قيسوا بغيرهم من الهنـود الذين يتألف سلاحهم من بنادق قديمة ومدافع ثقيـلة والدروع المزردة وغير ذلك من الاسلحة . وأنشأ له علاقات مع بعض الامراء كنائب كرناتيك ، ولم يتردد قط عن الاعتراف لهم بالتابعية والولاء . وتعهد له ، لقاء إيلائة امتيازاً جديداً للاتجـار ، بدفع بعض الرسوم كما قدم له مراسم الطاعة مع فرقته السيباي . وهكذا نال من احـد الراجات امتيـاز كاريكال عام ١٧٣٩ . وبرهن عن مشاعر انسانية كريمـة في علاقاته مع ابنـاء البلاد ، وأظهر احتراماً لعباداتهم وعاداتهم وطقوسهم الوطنية . ولم يهمل قط امـر مفاوضة المغول الكبير الذي انعم عليـه بلقب ناباب ، وهو لقب ينتقل الى الابنـاء بالوراثة . وهكذا اصبح من توابع الامبراطور مباشرة ، وأصبح له في الممتلكات الفرنسية سلطة أكبر على ابنـاء البلاد ، كما علا شأنه وارتفعت منزلته في نظر جميع الهنود ولا سيما في نظر الملوك والرؤساء وأصبح يتعامل معهم كالند للند .

وسار على نهجه وسننه خليفته في الحاكمية دوبليكس (١٧٤٦ — ١٧٥٤) الذي كان يعرف الهند معرفة عميقة وتزوج من احدى الخلاسيات احسنت التكلم بعدة لهجـات هندية . إلا ان حرب خلافة النمسا[1] اضطرته للتوقف في نهجه والصمود في وجه الشركة الانكليزية. واستطاع بمساعدة عمارة لابوردونيه الذي كان حاكماً على جزيرة فرنسا ، ان يتحكم بطرق المواصلات بين الهند والصين ، واستولى على مدينة مدراس (١٧٤٦) وقد تردد قليلاً بين ان يهـدم المدينة من الاساس وبين الاحتفاظ بها . الا انه رضي باعادتها الى الانكليز لقاء فدية عالية دُفعت له . الا ان هذا النبيل الفخور الذي ارهقته المفاوضات مع جلف عنيد تنازل عن الهند. ودوبليكس نفسه

---

(١) ـ انظر المجلد الثالث ، الفصل الثالث .

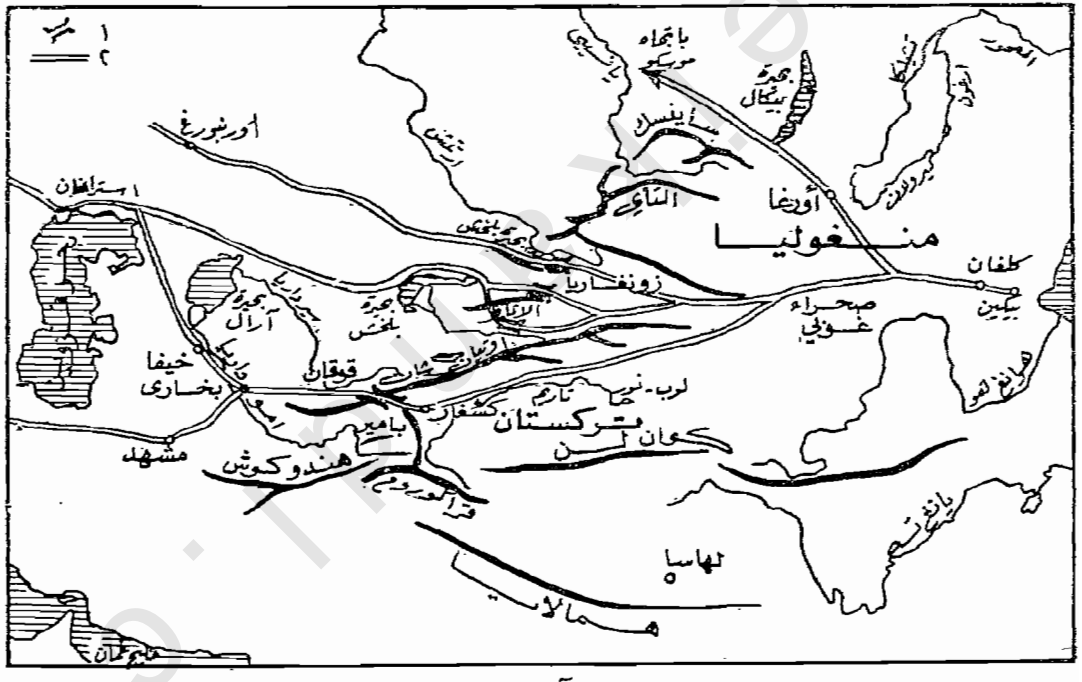

خريطة - ٦- طرق آسيا الوسطى
١- الممرات الرئيسية ٢- طرق القوافل .

انثنى عن متابعة فتح المراكز التجارية الانكليزية . ومع انه لم تصله أية امدادات جديدة من الحكومة الفرنسية الغارقة في حروبها في القارة ، فقد احتفظ بمدراس وتمكن عام ١٧٤٨ من صد هجوم بحري قامت به عمارة حربية انكليزية اوفدتها حكومة الانكليز لتعزيز مركز الشركة الانكليزية التي لم تغفل قط عن حربها الاساسية ضد بُنديشري . وجاءت معاهدة أكس لا شابل تعيد الأمور في الهند الى وضعها السابق : فعادت مدراس الى ايدي الانكليز . وقد تمتع دوبليكس بنفوذ عظيم وشهرة واسعة في الهند حتى ان المغول الكبير بعث يهنئه على البسالة والشجاعة التي ابداها .

وخطر لدوبليكس ، آنذاك ، ان يجعل من الشركة الفرنسية سلطنة هندية، وذلك محافظة منه على ما لها من امتيازات تجارية عريضة وتأميناً لموارد ورسوم ثابتة . فقد اراد ان ينحو نحو التوابع الأخرين الذين يعترفون بالولاء للامبراطور ، وينشىء للشركة مملكة مستقلة مع الاستمرار على ولائه للامبراطور والاعتراف بسلطته الاسمية . فتدخل في المشكلات والنزاعات التي لم يكن لخلافة الامبراطور بد من إثارتها وبعثها ورجح النصر والفوز النهائي للمطالب بالخلافة من انصاره . وهكذا اصبح ناباب كرناتيك من توابع الشركة الفرنسية ، كما ان نائب باب الدكن قبيل بحمايته وتنازل له عن مقاطعة السركار (١٧٤٩ – ١٧٥١) . وقد استنفر المهرات جيوشهم وقواهم لتأييد مطالبهم للسيطرة على الدكن كاملا وتوافدوا باعداد كبيرة ، إلا انهم كسروا شر انكسار ، وهي نتائج أمكن له الوصول اليها بقبضة من الجند ، بينهم ٣٠٠ من الفرنسيين ، و ١٨٠٠ من السيباي مع كتيبة من المدفعية بقيادة المركيز دي بوسي، هذا الزعيم المدهش الذي يعرف كيف يبعث الحماسة والنشاط في قلوب رجاله ، والذي ارسله دوبليكس فعرف كيف يستولي على جميع اطراف الدكن وألحق الهزيمة بجيش المهرات الذي تجاوز ١٠٠،٠٠٠ محارب، معظمهم من الفرسان .

ادرك احد الموظفين الانكليز في الشركة الهندية الشرقية الانكليزية، يدعى روبرت كليف، بعد فترة من الزمن ، ان السبيل الوحيد للصمود تجارياً ، في وجه الفرنسيين، هو انتهاج السياسة التي ينتهجونها ، فقرر السير على خطتهم والنسج على منوالهم . فتاريخ الهند في هذه الحقبة ، يرى في الشركتين المذكورتين المتنافستين ، تابعين من توابع المغول الكبير الآخذ بالانحطاط والانحلال ، يحاول كل منهما الاستئثار بأكبر قسم من تركته . فبعد ان تلقى كليف إمدادات قوية من لندن ، تشكلت من جنود انكليز ومن مدفعية ، تمكن من دحر ناباب كرناتيك (١٧٥١) ، وتغلب في معركة تريشينا بالي ، على الضابط الفرنسي لو *Law* ابن شقيق الاقتصادي المشهور بهذا الاسم ، الذي كان يتولى قيادة فرقة من فرق دوبليكس (١٧٥٢) .

اضطر دوبليكس لطلب امدادات جديدة من الشركة . غير ان الشركة الفرنسية تفتقر للمال ، منذ عهد لو ، لتنهض باعمالها وتحقق مشاريعها ، وهي مشاريع لم تكن ثمارها دوماً دانية القطوف . وكانت الحكومة الفرنسية راغبة في السلام وتسعى صادقة اليه . فاستبدلت

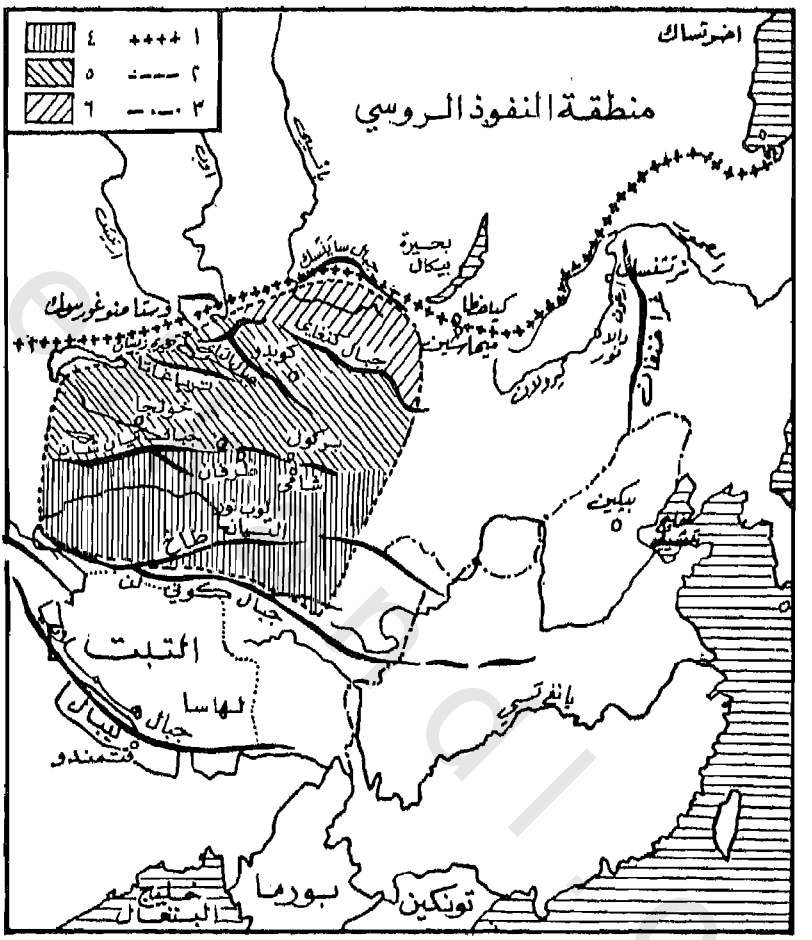

خريطة ـ ٧ توسع الصين في آسيا الوسطى

١ـ الحدود التقريبية لمناطق نفوذ كل من روسيا والصين ـ ٢ـ الحدود التقريبية لمنطقة نفوذ الايلوت ـ ٣ـ الحدود التقريبية لمنطقة نفوذ الصين الخاصة ٤ـ فتوحات الصين عام ١٧١٥ ـ ٥ـ فتوحات الصين بين ١٧٣٤ ـ ١٧٤٠ ٦ـ فتوحات الصين عام ١٧٥٥.

دوبليكس ، بحاكم آخر يدعى غودهو الذي سارع فوقع ، عام ١٧٥٤ ، معاهدة مع الانكليز ، من شروطها ان تتخلى الشركتان عما تنعم به من القاب وطنية ، والتنازل عما لها من حمايات والتخلي عن كل الامتيازات التي اعترف لها بها خارج مراكزها التجارية . فكانت صفقة المغبون في اقدس حقوقه واعزها ، اذ لم يكن للانكليز غير مراكز تجارية في البلاد بينما الامتيازات التي نالتها الشركة الفرنسية ، والسلطة الواسعة التي تمتعت بها ، امتدت فوق رقعة من ارض الهند تبلغ مساحتها ضعفي مساحة فرنسا ، وكانت تعد من السكان ١٣٠ مليون نسمة . ومع ذلك ، وبالرغم من هذه التنازلات لم يكن مندوحة من الحرب بين الشركتين والبلدين .

فبينما اخذ الفرنسيون بشن هجوم على المانيا ، راح كليف يهاجم البنغال ، المعروف نابابها بعدائه للانكليز ، وباستيلائه على مدينة كلكوتا ، وحشره ١٤٥ انكليزياً في سجن ضيق لا يدخله الهواء ، يعرف بالتاريخ باسم : « الوكر الاسود » حيث قضى ١٢٦ منهم اختناقاً بعد ان عانوا آلاماً مبرحة . استرجع كليف مدينة كلكوتا واستولى على شندرناغور ، وهزم سوباب بلاس شر هزيمة (١٧٧٥) ورفع الى العرش سوباباً اختاره هو ، رضي بحماية الشركة الانكليزية . واذ ذاك ، حدثته نفسه بمهاجمة الفرنسيين مباشرة . وقد ارسلت الحكومة الفرنسية ، عام ١٧٥٨ ، حاكماً عاماً ومديراً للشركة هو لالي – تولندال ، ومعه ٣٠٠٠ جندي فرنسي . غير ان الحاكم الجديد الذي كان يجهل جهلاً مطبقاً امور الهند وشؤونها ، اظهر احتقاراً كبيراً لهذه البلاد وللهنود ، اذ راح يلقبهم : «بالصعاليك السود» ، وكان سلوكه في الهند سلسلة من الاغلاط والمساوىء . واستدعى بوسي اليه بحجة ان فرنسا لا يهمها كثيراً ان ينازع الابن الاصغر اخاه الاكبر السيادة على الدكن ، كما انها لا تهتم قط بهذه المنازعات التي تقوم بين راجاوات الهند ونابابائها . ولما ايقن سوباب الدكن ان الفرنسيين سيتخلون عنه طلب حماية الانكليز الذين انصرفوا لمشاغلهم في اماكن اخرى . فغلب على امره امام المهرات ، وهكذا فقدت فرنسا اهم انصارها . وراح لالي – تولندال يثير بسوء تصرفه وبعنفه سكان البلاد. وانقطع عنه المدد لانشغال فرنسا بحرب المانيا . وبعد ان حوصر في مدينة بونديشري هو و ٧٠٠ من رجاله على يد الجيش الانكليزي الذي تألف من ٢٢ الف محارب يشد ازرهم اسطول بريطاني ضم ١٤ سفينة حربية بقي يقاوم عبئاً خمسة اشهر واضطر للاستسلام في كانون الثاني ١٧٦١ . وقد اعادت معاهدة باريس للشركة الفرنسية مراكزها التجارية الخمسة في الهند على شرط ان تزيل من الاساس ما قام عليها من حصون وقلاع ، وان تبقى عزلاء من كل حامية وان تتخلى عن كل نزعة سياسية وبعبارة اوضح عن اهداف تجارية عليا . وهكذا هبطت موارد الشركة بسرعة وانحلت عام ١٧٧٠ .

وهكذا لم تعد الشركة الفرنسية لتثير اي قلق او اي ازعاج للانكليز في الوقت الذي اخذ الضعف يدب الى المهرات ، اقوى سلطة هندية ، اذ ذاك ، بعد انكسارهم المميت في معركة بانيبوت ، فحال الخسف الذي اصيبوا به دون قيامهم بأي مجهود يذكر في البنغال . وبالرغم من

هذا كله ، لم يتمكن الانكليز من احتلال الهند كلها بعد ان ادرك كليف جيداً انه من الاوفق للمصلحة الانكليزية ان يوطد نفوذه ويرسخ سلطته في هذه الممتلكات التي تقع تحت اشرافه بدلاً من السعي للتوسع باضافة مقاطعات جديدة الى ممتلكات الشركة . واوصى بان يقتصر عمل الفتح والحرب على ما لا مندوحة عنه او ما لا بد منه . وهكذا بقيت قائمة مُطِلّة على الوجود دويلات هندية جديدة كانت على شيء من القوة والشأن في المجالين السياسي والحربي ، وجدت في بعض الضباط الفرنسيين خير معوان لها . هؤلاء الضباط قد سبق لهم وعملوا من قبل في خدمة الشركة الفرنسية في الهند ، بينهم الضابط لو ، والكونت موادافر والفارس دي كريسي وميدوك ودرينباك ، والالماني رينهارد سمبر ، ثم انضم اليهم بعد ان وضعت حرب السنوات السبع اوزارها ، مغامرون شباب اكثرهم من الفرنسيين ، وغيرهم ايطاليون وفلمنكيون وهولنديون وكونت دي بواني من مقاطعة السافوى . وراح امراء الهند يتخاطفون الضباط الفرنسيين ، فاستخدمهم ناباب اوده عام ١٧٦١ ، الا ان جيشه انكسر امام قواد كليف قبل ان يتمكن هؤلاء الضباط من اعادة تنظيم صفوفهم . وراح بعض هؤلاء الضباط يعمل في خدمة الامبراطور المغولي علم الثاني فكانوا عوناً له في كثير من المعارك التي انتصر فيها . كما راح البعض الآخر يعمل في خدمة المهرات مادافا سندهيا (١٧٣٠ - ١٧٩٤) وهو احد الراجاوات الذين نجوا من معركة بانيبوت ، الذي استطاع ، بفضل مساندة هؤلاء الضباط ولا سيما بفضل مؤازرة الكونت دي بواني ، ان يقتطع له في الشمال الغربي من الهند امارة توازي مساحتها مساحة فرنسا والمانيا مجتمعتين ، واعاد سلطة الامبراطور عام ١٧٨٩ ، وحطم غزوة قام بها الافغان ، عام ١٧٩٠ . واخيراً نرى عدداً من هؤلاء الضباط في خدمة سلطان ميسور ، تحت حكم حيدر علي وتيبو - صاحب ، من اشد خصوم الانكليز ومن اعدائهم الالداء في الهند . وكان هؤلاء الضباط موضوع تقدير الجميع لما امتازوا به من روح الانضباط الذي عرفوا ان يفرضوه على الهنود . فبعد ان حذقوا التغلب على مشاعرهم الاولية بفضل التدريب الذي خضعوا له ، والتحكم بأحاسيسهم ، اخذوا يقومون بصورة آلية ، وبانضباط كلي ، تحت وابل من القذائف النارية بحركات ومناورات يكررونها الوف المرات في مأمن من المؤثرات العارضة متحررين تماماً من الفوضى والهلع الذي تستسلم له الجماهير الملتاعة التي لم يتيسر لها التدريب على التحكم بعنان النفس في الاوقات العصيبة . وهكذا ارتدت الفرق الوطنية قوة تأثير شديدة ، كما ارتدت صلابة لم تكن لها من قبل ، دون ان تبلغ مع ذلك القوة والصلابة التي تميزت بها الفرق الاوروبية . وقد حمل هؤلاء الضباط معهم معرفة استخدام الاسلحة الجديدة وهي معرفة زادت كثيراً من فعاليتها . كذلك قاموا بتشكيلات وتعبئات ومناورات جهلها الهنود من قبل . وقد دشّن الكونت دي بواني ، ضد الافغان في الهند نوعاً من التعبئة الجديدة تعرف : « بالمربعات الجوفاء » ، تبناها بونابرت وولنغتن فيما بعد . فالافغان ، هؤلاء الفرسان الذين كانوا يحاربون بروح القرن الثالث عشر مدججين بالاسلحة ، والذين كانوا يقضون

طوال الليل في معاقرة الخمرة ، وكانوا في النهاية يدورون ويدورون عبثاً حول هـذه المربعات التي كانت تقذفهم حمم النـار والموت،ثم تنتهي المعركة بالفوز المرتجى بهجوم بالسلاح الابيض ، بعد ان يكون قائدهم ألزمهم تناول العشاء وتجديد نشاطهم بالنوم ليـلا . وقد اتقن هؤلاء الضباط روح الانضباط وفن التعبئـة ، فوضعوا المبادىء الاساسية لكل تعبئة منهجية وحددوا قواعدها الثابتة ، وهي اسس وقواعد عمـل الانكليز فيما بعد ، على تطويرها . وقد اتصف عدد كبير من هؤلاء الضباط بطيب القلب ، مما حمل افراد الفرق الوطنية ، على الامتثال لهم والتفاني في خدمتهم ، بخلاف الزعمـاء الوطنيين الذين كان الفساد اخذ منهم كل مأخذ وغلبت عليهم اطماعهم الاشعبية . وكان الجنود يفضلون السقوط في مراكزهم ، في ساحة الوغى بعـد ان يروا ضباطهم يجندلون في الصفوف الامامية ، وهم يقودونهم للحرب . وقد كان قبر احـد هؤلاء الضباط البواسل ، الضابط الفرنسي ميشال ريمون ، موضوع تكريم جميع الجنـود الشباب يحجون اليه كرمز للبطولة والفروسية حتى مطلع القرن العشرين . وبقي رعايا الراجا مادهانيا سندهيا يذكرون بأسف ، وهم تحت حكـم الانكليز وسلطانهم ، الروح الانسانية التي تميز بها الضباط الفرنسيون في ادارتهم الفرق الحربية التي أمّروا عليها . وهكذا عملت التقنية الاوروبية والروح الاوروبية كثيراً على تجديد القوى الهندية ، كما فعلت فعلهـا في تأخير نجاح تطور الانكليز في الهند .

ومع ذلك فقد حقق الانكليز نجاحات كبيرة . فقد نال كليف ، بـين ١٧٦٥ – ١٧٦٧ من المغول الكبير ، مهمة السهر على الأمن وجباية الرسوم والضرائب في البنغال والبيرار على ان يرسل قسماً منها الى دلهي . وهكذا اصبحت الشركة الانكليزية قانوناً وشرعاً،الموظف الامبراطوري الاول في هذه المقاطعات . اما في الواقع فقد كانت بالفعل صاحبة السلطة فيها . ولم يلبث كليف ان فرض حمايته على ناباب اوده ، وعلى راجا بيناريس .

الا ان ما نال الهنود من العنف والضغط والعنت من قبل عملاء الشركة الانكليزية والارتكابات الكثيرة التي استهدفوا لها من قبل الانكليز الذين عرفـوا بغطرسيتهم وعنجهيتهم ، حفزهم الى اعلان الثورة . ان البذخ الشرقي والاهمية الانتخابية التي تمتع بها هؤلاء «النابابه» الانكليز ، عند رجوعهم الى بلادهم ، زرعت الشكوك في قلوب الانكليز . وبعـد ان ثبتت جريمة الارتكابات على كليف وضع حداً لحياته بالانتحار . ان سيطرة شركة خاصة على مساحات شاسعة شكلت بحد ذاتها حادثاً هاماً للغاية . ولذا راح البرلمان الانكليزي يضع ، عام ١٧٧٣ ، قانون التنظيم الذي اوجب المزيد من الاشراف من قبـل الحكومة ، على الشركة . وبذلك ابتدأ مشروع اخضاع الامبراطورية البريطانية لتفتيش أدق من قبـل التاج . وهكذا وضعت كل ممتلكات الشركة تحت مراقبة حاكم عام هو الجنرال وورن هاستنغز الذي جاء تعيينه من قبل البرلمان ، الا انه لم يكن في مقدوره ان يقرر شيئاً بدون الرجوع الى مجلس اعـلى ، اعضاؤه معينون من قبل البرلمان . وكان على مدراء الشركة في لنـدن ، ان يطلعوا الوزراء على جميع مراسلاتهم .

وقامت في كلكوتا محكمة عدل ، من صلاحياتها حق الرفض لكل قرارات الشركة .

غير ان الحاكم وورن هاستنغز (١٧٧٤ – ١٧٨٥) الذي كان طاغيـة ، شديد البأس ، لا ضمير له ولا وجدان ، راح يستثمر ، دونما خجل او وجل ، امراء الهند ويعتصرهم اعتصاراً . كان الناس في الهند يحملون حقداً عميقـاً على الانكليز ، كما انهم سخطوا على ادارتهم وسلطتهم فيها . وعمل وورن على خلع راجا بيناريس وضم ممتلكاته . الا انـه باء بالفشل امـام سلاطين ميسور : حيدر علي وابنه تيبو – صاحب ، اذ وضعا الانكليز امام اكبر خطر واجههم ، بين ١٧٨٠ – ١٧٨٣ ، ابان حرب استقلال اميركا . فقد كان سبق لحيدر علي ان عقـد حلفاً مع فرنسا ، فأسعفته ببعض الامدادات . فهاجم جيش ميسور بقيـــادة ضباط فرنسيين مقاطعة كرناتيك ، في حزيران ١٧٨٠ ، ودحر الانكليز ، وأسر عدداً كبيراً من ضباطهم الذين دانوا بخلاصهم من موت محتم لتدخل الضباط الفرنسيين. وفي البحر تغلب النبيل الفرنسي دي سوفرين، خمس مرات على الانكليز (١٧٨٢ – ١٧٨٣) في خمسة انتصارات متتاليـة ، اهمها وادعاها للفخر النصر البحري في معركة غوندلور (حزيران ١٧٨٣) . وكان الانكليز يفكرون جدياً باخلاء مقاطعة كرناتيك والانسحاب منهـا ، عندما تم عقد معاهدة فرساي التي اعادت السلام الى ربوع الهنود ، واضطر تيبو – صاحب الذي خلف أباه ، عـام ١٧٨٢ ، الى توقيع معاهدة منغالور مع الانكليز (٧ آذار ١٧٨٤) ، بعد ان رأى نفسه منعزلاً، فأعادت المعاهدة الامور الى ما كانت عليه من وضع سابق .

فقد بلغ من تجاوزات هاستنغز لواجباته وكثرة مخالفاته المتكررة للقانون وارتفـــاع صوت الهند بالشكوى المريرة عالياً والتذمر مما لحق بها من حيف ، ان اضطرت الحكومة البريطـانية لاستدعائه وإحالته على المحاكمة . فقانون الهند الصادر ، عام ١٧٨٤ ، ترك للشركـة حق تعيين الحاكم العام ، مع الحق للملك بعزله ، وانشاء مجلس تفتيش تُرك للملك أمر تعينه، مركزه لندن، كما أوجب هذا القانون ، على الشركة ، توجيه نسخة الى المجلس المذكور من جميع مراسلاتها .

وهكذا نرى الانكليز ، عام ١٧٨٩ يقيمون في الهند بشكل غريب تحت ستار شركة تجارية خاصة ، تابعة ، من جهة ، للمغول الكبير ، فاعتبرت عنده بمثابة موظف كبير ، كما كانت من جهة أخرى ، تابعة لرعوية ملك انكلترا ، يشرف عليها عن كثب ، يناصرها ويشـــد من ازرها في ما رمت اليه من تهديم الامبراطورية المغولية وانهاكها تدريجياً . وكان فتح البلاد أبعد من ان يتم ، اذ كان لا يزال في الهند ممالك مستقلة ، مهيبة الجانب ، منهـــا مملكة السيخ في مادهافيا سندهيا ، ومملكة ميسور . وكان الانكليز ، لما ابدوه من العجرفة والبطش ، وبما اظهروه من ضروب العنف والعنت والقسوة ، موضوع كره الجميع ، في كل مـكان ، بحيث كان الكل يتوقع انفجاراً عاماً في البلاد .

الهند الصينية

سكن جبالها المحرجة اقوام يعتاشون من القنص والصيد والقطاف وشهدت احواض الانهر الخصبة التي تجري فيها ماجريات الاحداث. فقد اقتبس شعب الموئز الذين جاؤوا البلاد من الشمال ، الحضارة الهندية وأسسو على مجاري نهري الايراوادي والسيتانغ مملكة بيغو . ترك المناخ وغنى التربية وخصبها اثره المخلخل في هذه الاقوام ، فاستسلموا للدعة والكسل واصبحوا ، بالتالي عرضة لهجمات البورمانيين الذين هبطوا من اعالي جبال هالايا واستوطنوا البقاع المحيطة بأعالي نهر الايراوادي وأخذوا يستمرئون الحضارة الهندية . وحوالي عام ١٧٥٠ ، تمت السيطرة نهائياً للبورمانيين . وفي سكرة النصر الذي حققوه خرجوا من حدودهم الطبيعية وفتحوا بلاد سيام واستولوا عنوة على العاصمة أيوثيا (١٧٦٧) وحملوا معهم كأسرى حرب ، جانباً كبيراً من الشعب السيامي ، وشتتوا المسيحيين أيدي سبا أو أبعدوهم خارج البلاد .

وقد تمكن شعب من اقوام «الثاي» جاء من مقاطعة يو – نان من ان ينشىء له دولة في سيام احتلت في توسعها ، حوض نهر مي – نام . وكان خط مقسّم المياه السفلي نحو الشرق والسهول المعشوشبة ، يتيح لهم القيام من وقت الى آخر ، بغزوات على الكمبودجيين المستوطنين وعلى الامارات ثاي في مقاطعة اللاوس المنعزلة في بعض الاحواض النهرية الخصبة ، بعد ان ابيدت دولة السيام من الوجود ، عام ١٧٦٩ ، ثم عادت وتمثلت فيها الحياة من جديد اثر ثورة الفاجاتاك عام ١٧٦٩ التي جعلت من مدينة بنكوك ، عاصمة لها واستطاعت ان تعيد البورمانيين من حيث أتوا وردتهم ضمن حدودهم الطبيعية وابعدت من البلاد ، المرسلين النصارى ، واستأنفت سلسلة من الغزوات المدوخة باتجاه الشرق ، فتأخذ من الارقاء ما تحتاج اليه الارض من يد عاملة لاحياء موات الاراضي البور .

اما في الشرق ، فكانت دلتا نهر سنغ – كوي او التونكين ، والسهول الساحلية الصغيرة ، ودلتا نهر الميكونغ والكوشنصين ، منذ بضعة قرون ، عرضة لموجات من الغزاة هم الاناميون مستهدفين النيل من الحضارة الصينية . فقد تمكن هؤلاء الفلاحون الاشداء من طرد الكمبودجيين الذين ألفوا طبقة ارستوقراطية ، كسولة سيطرت على شعب من أسرى الحرب صار امرهم الى العبودية والرق . فبلغوا ، عام ١٧٥٣ مدينة ميتو . وكانت مملكة الاناميين تقيم ، ولو اسمياً ، الولاء لملوك «لاي» هؤلاء الملوك الكسالى المترفون في مدينة هانوي ، كما اعترفوا بالتابعية للصين. واذ كانت مملكتهم محصورة في رقعة ضيقة من الارض ، فقد انقسموا ، في الواقع ، بين اسرتين من سدنة البلاط هما : «الترينه» في هانوي «والنغويين» في مدينة هويه . وقامت بين سدنة البلاط وبين الامراء الاناميين حروب متصلة ، كثيراً ما كان المسيحيون فيها عرضة للاعتصار والسخرة كما استهدف المرسلون انفسهم للعذابات والاضطهادات والطرد . غلب نغويين – انه على امره ،

فالتجأ الى احد المرسلين ، هو المطران أدران : بينيو دي بيهان الذي غادر البلاد وجاء فرنسا لائذاً بالملك لويس السادس عشر (١٧٨٧) . وللحال ارسل الملك بعض الضباط ، ومدفعية وبعض المهندسين ، مقابل التنازل له عن خليج توران وارخبيل بولو – كوندور . واذ ذاك استطاع نغويين–انه ان يستولي ، عام (١٧٨٨) ، على مدينة سايغون وشرع بفتح مقاطعة الانام .

الانسولاند

وقعت الانسولاند تحت سيطرة سلاطين الملايو الذين كانوا على الاسلام . الا ان الشركة الهولندية للهند الشرقية كانت لها الأولوية في هذه الاصقاع النائية وتحرص حرصاً شديداً على ابعاد الاوروبيين منها . وتمثلت اهم ممتلكات هذه الشركة في جاوا المشهورة بانتاجها الضخم للبهارات والنيلة والحرير . كذلك سيطرت الشركة على مدينة بتافيا (٥٠ الف نسمة) وما حولها من الضواحي والارباض (٢٠٠ الف نسمة) وعلى السواحل الشرقية الشمالية بما فيها سمارانغ وجزيرة مادورا (مليون و ٦٠٠ الف نسمة) . أما ما تبقى من هذه البلاد ، فقد شكل ممالك اعلنت ولاءها للشركة ، وقام بينها سلسلة من الحروب ادت الى ايهانها فالحلالها . اما المناطق الأخرى ، فقد حاولت الشركة ان تبسط سيطرتها عليها لتجعل في حوز حريز ، مضيق مالقا ، وابعاد كل من يمكن ان ترى فيه مزاحماً لها او منافساً لتجارتها والاقتصاص من القراصنة الذين كانوا يعيثون فساداً في جزر ريو وسليبس. واقامت لها حامية في مدينة مالقا ووضعت تحت ادارتها مدينتا بندا وامبوان ، وحمت سواحل صومطرة الغربية ، وسلطان بالمبانغ ، وضربت نطاقاً محكماً حول بورنيو من الامتيازات التجارية التي نالتها في هذه الجزيرة ، واحتلت في جزيرة سليبس ، ماكسار ، وحرّضت ، بعضاً على بعض ، الامراء المحليين .

ولم يكن للشركة الهولندية سوى عدد ضئيل من الجند ، كما لم تملك عمارة حربية ، تأخذ على عاتقها الدفاع عن هذه الممتلكات الشاسعة . وفي سنة ١٧٧٢ ، انتزعت منها الشركة الانكليزية للهند الشرقية بضعة مراكز في صومطرة . وفي سنة ١٧٨٠ ، كان القرصان الهولنديون سبباً مباشراً لنشوب الحرب بين هولندا وانكلترا ، فانهزم الهولنديون واضطروا للتخلي عن ناغاباتام للانكليز واعترفوا لهم بحق الاتجار بحرية مطلقة ، في مياه الارخبيلات العديدة (معاهدة باريس ، ٢٠ مايو ١٧٨٤) .

خرجت الشركة الهولندية في الحرب ترزح تحت وطأة الديون ، لا هيبة لها ولا شأن . وقد تنمر عليها الامراء المحليون ، كما راح المعمرون يتحررون من محسوبيتهم للشركة ومن ولائهم لها ، مُظهرين دوماً الاستعداد لاعلان الثورة . وما ان اطلت سنة ١٧٨٩ ، حتى كانت الشركة على وشك فقدان كل ممتلكاتها .

الصين

عاشت الصين ، في القرن الثامن عشر ، في ظل الاسرة الامبراطورية المنشوكية ، فكان عهدها من ازهر عصور الصين وازهاها ، عبر التاريخ . المحدر اباطرة هذه السلالة من ذراري امراء القبائل الرحل التي تمكنت من ان تنتزع الصين من اسرة المنغ ، وذلك خلال هذه الحقبة الواقعة بين ١٦٤٠ ـ ١٦٥١ ، وقد برهنوا عن رأي حر ورحابة صدر كما حافظوا بكل احترام ، على عادات البلاد واعرافها القومية ، حيث تنعم التقاليد بكل رعاية ومنزلة ، مع الاحتراز الا تقف هذه الاعراف حائلا دون تطورهم فاقبلوا ، ما وسعتهم الحيلة ، على الاخذ باسباب الاختراعات الاوروبية . فلا يزال الامبراطور كانغ ـ هي نصف بدوي ، جندياً لا يكل ولا يمل ، وصياداً ماهراً مال بكليته للصيد والقنص ،لا يستقر في مكان، متنقلاً بين اطراف الامبراطورية النائية ، مواجهاً بروح واقعية احداث الدهر وصروفه ، ذو تفكير نيّر ، وقضاء اتصف بالسرعة وصدق العزيمة . وفي كانون الاول ١٧٢٢ ، خلفه على اريكة الحكم ابنه الرابع ، الامبراطور لونغ ـ تشانغ . فقد كان جندياً له من العمر ٤٥ سنة ، كثير الظنون ، شديد القسوة ، رصين ، مجتهد ، متفان في القيام بواجباته . وفي سنة ١٧٣٥ ، ارتقى العرش كيان ـ لونغ ابن الامبراطور يونغ ـ تشانغ ، وهو شاب له من العمر ٢٤ سنة . وقد راح هذا الصيني ، البدوي الاصل يملأ البلاط حياة ونشاطاً ومرحاً ، فلما غادر عاصمته الامبراطورية ، يفرغ ايامه بين نسائه وخصيانه ، ثقيف ، ذواقة ، وعالم طلعة . قرض الشعر ووضع عدداً من المعاجم والفهارس . ومع ذلك عرف ان يحافظ على قواه البدنية وعلى نشاطه الزاخر . فاذا لم يقم هو نفسه بحروب ، فقد كان سياسياً محنكاً واداريا لبقاً قديراً ، شابه جده بنظره الثاقب ونظرياته السياسية الجريئة ، واستطاع بفضل ما تم له من صلابة في الرأي من ان يملك حتى سنة ١٧٩٦ .

تابع هؤلاء الاباطرة اعمالهم الحربية وفتوحاتهم ، الى الجنوب من نهر اليانغ ـ تسي ، وتوفق الى احتلال الثماني عشرة ولاية التي تتألف منها الصين الحقيقية . ففي سنة ١٧٧٤ ، تم له إخضاع قبائل مياو ـ تسي الوطنية التي كانت تقطن المناطق الجبلية في تسو ـ تشوان وكواي ـ تشاو . وغزو الصين الذي شرع به الصينيون منذ عهد اور الكلدانيين وبابل ، أوفى على نهايته . ولم يبق لهؤلاء الرعاة الا ان يعمّروا السهول بالسكان وان يستثمروا البلاد الجبلية ، واستغلال ما فيها من خيرات الارض .

تابع كيان ـ لونغ سياسته المعادية لكبار الملاكين واصحاب الاراضي والاطيان العريضة . وهي اراض اعطيت للامراء ولرجال البلاط ولكبار الموظفين مكافأة لهم ، كانت معفاة من الضرائب والسخرة . وقد صادر الامبراطور جانباً كبيراً من هذه الاملاك ووزعها بين فلاحين استحالوا بذلك من صغار الملاكين . والمزارعون الذين يستغلون، اباً عن جد ، اراضيهم، منذ بضعة اجيال ، بلا انقطاع ، اعتبروا مالكين شرعاً لوجه الارض او أديمها ، بينما بطن الارض او داخلها يبقى من حق المالك الاصلي . وهكذا حق للمزارع ان يشتري او ان يبيع

ما يملك من وجه الارض، له الملكية العينية بينما تبقى للمالك الاصلي ، الملكية الذاتية . وهكذا طلع في الصين نظـــام ديموقراطي ، زراعي رسخت اصوله . وبذلك يكون تصرف الاباطرة المنشوكيين اقرب الى تصرف طغاة دكتاتوريين اخذوا جانب الشعب ، واعتمدوا في حكمهم وادارتهم على تأييد الجماهير الشعبية عندما راحوا يقلمون اظافر الارستوقراطية وكبار الاغنياء في عهد المنغ . وتجلى تحسين وضع الفلاحين ، في ازدياد الثراء وتكاثر عدد الاثرياء . وبلغ عـــدد سكان الصين ، عام ١٦٦١ ، حوالي ١٠٥ ملايين نسمة ، فاذا به يرتفع ، عـــام ١٧٦٦ ، الى ١٨٢ مليوناً . وهكذا قويت يد الدولة واشتد منها الساعد .

في هذه الصين العامرة المزدهرة ، ازدهرت الفنون ولا سيما مـا مالاً منها ذوق سكان البلاط والنوادي الادبية ، كالشعر الخفيف الرشيق ، والخزفيات ، وهندسة المنازل والحدائق ، وهي فنون تدخل البهجة والبشر الى النفوس ولا سيما نفوس الغزاة بعد ان يتذوقوها ويهيموا بها . اما فنون الرسم والنقش والتحلية فقد اخذت ، بعكس ذلك ، بالانحطاط .

نظم شعراء الصين في مواضيع ورموز اتخذوا منها ستاراً يستترون وراءها ، جاءت آية في الروعة كما جاءت منظوماتهم روائع تملأ القلب هزة والنفس بشراً . وقد بلغ فن الخزفيات ، وهو اهم فنون الصين اذ ذاك ، أوجـه ووصل الى الذروة من الاتقـان في عهـد الامبراطور كنغ ـ هي . فبعد ان يُمرّث الصلصال جيداً ويعجن عجناً مسبقاً يلين معها ويستجيب توضع العجينة في القالب وتدار بعناية كلية ، فترتدي ، اذ ذاك ، اشـكالاً وصوراً تشع نعومة واناقة، ثم تصقل بعناية كبيرة وتطلى بالمينـا النقي اللماع ذي الالوان القوية الصارخـة . والآنية من كل حلي وزينة ، تبدو وكأنها قشرة الدرّاق او احمر الحديد او دم الثور ، والقرمز المرجـــاني والبنفسجي الباذنجاني والاسود الفاحم المشع ، او زرقاء ، خضراء ، صفراء . اما الآنية المعـدة للتحليـــة والتطرية فتبـدو زرقتهـا على ارضية بيضاء ، او على الوان متنوعة فوق ارضية خضراء شفافة . وفي عهـد الامبراطور يونغ ـ تشانغ ، حل محـل الارضية الخضراء ، ارضية قرنفلية متلالئة بالوان زاهية من القرمزي ، الى الابيض ، الى السمنجوني، الى الاصفر الليموني، او الازرق الفاقع والاصفر الكبريتي ، والاصفر الخردلي ، والاحمر الارجواني ، تتناوح فيهـا الألوان بين الناعم والمهفهف ، في اتساق وانسجام يأخذ بمجامع القلب . والصور المرسومة كثيراً ما استوحاها الفنان من منظومات قدامى الشعراء ، فجاءت على شكل رصائـــع وانواط او رسوم المشجرات المتشابكة ، والخيزران المتعاقد وهفـاف الغيوم ، وعود الصليب ، والفراش ودقاق الطير والعصافير والسيدة الهيفاء ذات الوجه المشرق الصبوح . ولم يلبث كيان ـ يونغ ان اضاف الى هذا كله التحلية المعروفة عندهم : « بذات الالف زهرة » . وهذه الآنية ذات المظهر الأثيري والالوان المهفهفة والانوار المتلألئة الشفافة ، والاشخاص ذوي القدود الهيفـاء كسارية العَلَم ، تتثنى رقة ونعومة وتذوب غنجـاً ودلالاً تذكرنا ، ولو من بعيد ، بفن الرسام الفرنسي واتّو . « هذا هو طراز لويس الخامس عشر الصيني » . ولكن بعد عام ١٧٥٠ ، يشكو القوام

والهندام قلة العناية ويـــأخذ بالتحول والانحطـاط ليسارع في تردّيه اثنـاء القرن التاسع عشر ، بينـما يشتد الطلب عليه في اوروبا ، كما ان الصناعة اخـذت تشكو ، هي الأخرى ، السرعة والتعجّل .

وعمل الاباطرة الثلاثة على ترميم ما عُرف في بكين « بالمدينة الحمـراء الممنوعة » وهو الاسم الذي اطلق على المقر الامبراطوري . كانت النيران التهمته ، عند سقوط سلالة منغ ، عام ١٦٤٤ . فراحوا يدشّنون ، في ضاحية المدينة ، الى الشمال الغربي من بكين ، عن طريـق الآباء اليسوعيين « فرساي الصين » ، وهو صرح منيف ، ضم عدداً كبيراً من القصور الفخمة الجميلة تحيط بهـا الجنان الخضراء والحدائق الغناء ، في تناغ موصول من الفنون الاوروبية والصينية ، على اتم ما يكون الانسجام والمناغاة . والظاهر يدل على ان الروح تختلف عن روح فرساي ، اذ ان التنوع وحرية الطبيعة هما على نطاق ضيق ، وبذرق رهيف واثق من نفسه . اختار الآباء اليسوعيين من بين هذه النواشز الجميلة الحلوة ما ينسجم تماماً مع مطلب الروح الانسانية . فقد خلقوا منـاظر ومشاهد رائعة بعد عمليات حسابية ومعادلات وتطبيقات غاية في الدقة والتعقيد ، من هـذه الاشياء البارعة الجمال التي تنطق عالياً بانتصار العقل وتذيع التجلي والتسامي .

ومع هذا ، فالفن الصيني العظيم كان ولّى عهده ، وانقضى في القرن الثامن عشر ، فـلم يبق سوى فنون تحلية ترفيهية . فإلام يجب ان نرد هذا التغير والتبـدل يا ترى ؟ أإلى حوادث الغلبة والفتح ودخول روح جديدة على البلاد بدخول المنشو الى الصين ، وكلها تغييرات وتحولات تمت بالرغم من الجهود الصادقة التي بذلها الاباطرة المنشو في سبيل تمثلهم الحضارة الصينية ؟

واستأنف الاباطرة المنشو ، في القرن الثامن عشر الأخذ بسياسة صينية قديمة طالما اعتمدها اباطرة الصين ، الا وهي بسط سيطرتهم على آسيا الوسطى . يحف بالصين سباسب وصحـارى شاسعة كانت طرقاً موصلة الى الصين اكثر منها عوائق وحواجز تحول دونها ، تمور فيهـا اقوام من البدو ، في حركة دائمة هم دوماً على استعداد للغزو والنهب والسلب والاستباحة عند أقـل بادرة ضعف أو وهن لدى الجيران . وكان يخترق هذه الصحارى الطرق البرية التي ربطت الصين بآسيا الوسطى والغرب والتي ما زالت تدرج عليها قوافل التجار والرحـالة بالرغم من سهولة الاعتماد على المواصلات البحرية ، حاملة بضائع واصنافـاً خفيفة الحمل غالية الثمن . من هذه الطرقات ، طريق موسكو — بكين ، عبر بحيرة بيكال واورغا ، او بالاحرى ، عبر نهر ارتلش وبحيرة زيسان الواقعة بين جبال ألتاي وطربغاتاي ؛ منها كذلـك الطريق التي تمر الى الشمال من الجبال السماوية (تيان — شان) بين طربغاتاي وبين آلا — تاو ، عبر دزونغـاري وبحيرة بلخاش ، باتجاه مدينة استراكخان في روسيا ، وهي افضل هذه الطرق واعرضهـا وتأتي على ارتفاع ٤٠٠ متر من سطح البحر ، كثيرة العشب والكلأ يردُفها وادي نهر الإيلي الواقـع بين آلا — تاو وبين تيان — شان ، انما تقع تحت رحمة قبائل بدوية نهّابة سلاّبة ؛ ومنهـا الطريق التي تمر الى الجنوب من الجبال السماوية وهي اكثرها طروقـاً واعتماداً لدى المسافرين عبر

التركستان الشرقي وكشغار وواحات التركستان الغربي : فوكان وبخارى تم تتجه منها : اما شمالاً الى خيوى واستراكخان ، واما ، وهو الغالب ، الى مشهد وبلاد فارس والبحر المتوسط . فحسن التدبير ، والاهتمام بالتجارة وتأمين وسائلها ، جعلت الاباطرة يهتمون دوماً بهذه الشبكة من الطرقات الدولية .

وقد حالفهم النجاح في مهمتهم هذه . فقد كان الجفاف الطابع المميز لهذه الاقطار كما كان سكانها قليلي العدد . فالقبائل البدوية انقسمت على بعضها البعض. فلم يكن باستطاعتها ان تعوّل على اهل الحضر من سكان الواحات المتناثرة عند اقدام سفوح سلاسل الجبال . ولم يستفد البدو من الحروب الاهلية التي نشبت في الصين ، بعد ان كانت سبيلهم الوحيد للفوز كانصار ببعض الغُنْم . ومن ناحية اخرى ، فقد كان للاباطرة المنشو مدفعية حديثة صبها لهم اليسوعيون في بكين .

وقد كان بالامكان ان ينهض مزاحمون لهم من بين اقوام الروس القاطنين ارجاء سيبيريا والذين كانوا يتحكمون ، في الجنوب ، بالطرق التجارية والوسائل التي تمكنهم من الوصول الى المياه الدافئة . فقد كانوا يتضرّسون ، كل يوم ، بمساوىء مرفأ أوخوتسك ، لصعوبة الوصول اليه بعد ان غمرُه الجليد والثلج بضعة اشهر في السنة ، والذي كان يربطه بمدينة ياكوتسك *Yakoutsk* طريق برية طويلة للغاية ، صعبة المسلك ، قل من طرقها . فقد كانوا بحاجة الى طريق نهر العامور . الا ان قواهم ، في القرن الثامن عشر كانت متمركزة في الغرب ، وليس تحت تصرفهم في آسيا الوسطى سوى بعض الفرق الضعيفة التي تألفت من بعض المعمرين ومن بعض الجند . فلم يقوموا ، في عهد بطرس الاكبر، بأي مجهود مسلح واكتفوا من حيث اتصالهم بالصين ، بتحسين علاقاتهم معها عن طريق البعثات والسفارات الدبلوماسية . وكانت العلاقات بين البلدين تنتظمها شروط معاهدة نرتشنسك(١٦٨٩)اذ احتفظ الصينيون بموجبها،بكل حوض نهر العامور وحالوا بذلك دون وصول الروس الى منشوريا ، هذا الممر المنبسط الذي يتألف من سهول خصبة تمتد من النهر المذكور حتى مشارف الصين ، في الشمال . ونال الروس ، في المقابل، حرية الاتجار مع الصين الامر الذي مكن لقوافل التجار الروس الوصول الى بكين . وفي سنة ١٧٢٩ ، نال الروس بموجب معاهدة كياخطا *Kiakhta* تصحيحاً جزئياً في الحدود ، والسماح لهم بانشاء كنيسة ارثوذكسية في بكين حيث اقامت جالية روسية صغيرة . غير ان سفريات القوافل وتنقلاتها خضعت لبعض الاجراءات،والمبادلات التجارية اشترطُ فيها ان تتم عند اطراف منغوليا ، في كياخطا وميمتشين . وكان من جراء هذه التضييقاب ان ادت منافستهم هذه الى شل حركة القوافل الى بكين ، وهي قوافل توقفت الحكومة الروسية عن متابعة إرسالها . وهكذا امّن الصينيون على حدودهم من الشمال .

وقام الى الغرب من نهر العامور حاجز بين الروس والصينيين قوامه اقوام رعاة . وكان الصيادون القادمون من اورغنخاي *Ourgangkhaï* والعاملون بين نهري الشلكا والإيانسّيي ،

يدفعون رسوما عن صيدهم السمّور لكل من الصين وروسيا . ومنذ انكسارهم الصارخ عند بحيرة زيسان *Zaîsan* ، عام ١٧٢٠ ، انقطع الروس عن اعتماد ممرات دزونغاري وكشغاري . وآخر حصن لهم على نهر إرتلش ، كان حصن أوستكا مينوغورسك . ومنذ ذبح البعثة الروسية التي خرجت من استركخان لاحتلال خيوى عام ١٧١٧ ، باتجاه التركستان الغربي ، لم يتجاوز الروس ، شمالاً شواطىء بحيرة بلخش ، وبالنادر جداً منطقة الفولغا. فكان يكفيهم ان يشجعوا القوافل التجارية بتخفيضهم الرسوم المفروضة على الصفقات التجارية ٥ ٪ وباعفاءات يعطونها للقوافل المرسلة من قبل كبار رؤساء القبائل . ولم يلق الصينيون ، من جهتهم اية صعوبة تحد من حركتهم التجارية .

وكان الامبراطور هانغ ـ هي ، في مطلع القرن الثامن عشر فرض الامن وسط السلام على الحدود الغربية . فهزم غول الغرب عام ١٦٩٧. اما مغول الشرق او الكلخاز ، فقد اعترفوا بالولاء لخان المنشو وهو تتاري مثلهم . اما في التيبت الواقع تحت حكم لاهوتي رهباني ، فقد كان سبق لكانغ ـ هي ونصب عليه الدالاي ـ لاما الذي كان موالياً له .

غير ان هذه النتائج التي توصل اليها كانت واهية ، وبقيت ممرات آسيا الوسطى بعيدة عن إشراف الصينيين وسيطرتهم. فمن جبال سّاينسك *Saiansk* حتى جبال كوان ـ لُن شكّل المغول الغربيون او الإيلوث *Eleuthes* امبراطورية لهم سيطرت على الطرق التي تسلكها القوافل الضاربة في تلك الارجاء ، وبعد ان سيطروا على الحركة التجارية في آسيا الوسطى ، شرهت نفوسهم للسيطرة على التيبت وعلى منغوليا الشرقية . وقد يكون خطّر لهم ان يستخلصوا الصين نفسها من قبضة ابناء عمومتهم المنشو .

ولذا قاموا في القرن الثامن عشر ، بعدة هجمات احدث كل واحدة منها ردة عند الصينيين . وكانوا في كل هجوم يقومون به يتقهقرون الى ان زالت امبراطوريتهم . فقد امتنع الروس عن شد ازرهم . واستخدم الصينيون ضدهم وحدات من فرسان الكلخاس ، واحياناً اخوة لهم منشقين عنهم من الايلوث لا يقلون عنهم سرعة في حركة تنقلاتهم ، وقوة صبر واحتمال وطول معاناة . واستعملوا الاسلوب التقليدي الابدي الذي طالما ركنوا اليه الا وهو استعمال الحضر ضد البدو . فأنشأوا عند بعض النقاط الحساسة الواقعة على طريقهم مدناً حصنوها بالقلاع ، واقاموا فيها جوالي عسكرية صينية . وقام الجنود يعمرون الارض ويحيون ازاض مواتا ضيقة الرقعة ، يسهل الدفاع عنها . وانشأوا مراكز تموين فاضت بالمواد الغذائية والاعلاف للدواب ، يستطيعون معها القيام بغزوات طويلة . وراحوا يعيثون فساداً وينهبون الموارد الطبيعية القليلة المبعثرة التي كان الايلوث يعوّلون عليها . فما لبث الايلوث ان اشتدت بهم الحاجة الى المواد الغذائية وعلف الدواب والخيل والجمال ، فاضطروا ، والحالة هذه ، للمهادنة والتزام جادة السلام . وعندما كانوا يعودون لحمل السلاح ويستأنفون اعمالهم الحربية ، كانت قوى الحاميات تحول دون استعادتهم الاراضي التي خسروها .

وفي سنة ١٧١٧ ، قام قبدان ، احد زعماء الايلوث ، بهجوم على التيبت لم يلبث ان اتسع بحيث راح يهدد يونان وسوتشوين . فانتهزها هانغ – هي سالحة مؤاتية ليقوم بطرد الايلوث خارج التركستان الغربي ، وبذلك يؤمن للصينيين ، السيطرة على الطرق الرئيسية باتجاه الغرب . ثم راح ينشىء له جوالي عسكرية عند الممر الذى يؤدي من تيان – شان الى بركول وخامي وطرفان واورومتشي . كذلك اعاد النفوذ الصيني الى التيبت .

وقامت قبائل الايلوث بغزوات متكررة ، بعد عام ١٧٣١ ، حملت الامبراطور يونغ – تشانغ الى طردهم ودفعهم الى الشمال من جبال الالتاي ، ليؤمن للصينيين ممرات دزونغاري ومعابرها . وفي سنة ١٧٣٤ ، نرى الصينيين ، في أولياسوتاي وكيدوو على ضفاف نهر إرتلش . وأجبر الامبراطور كيانغ – لونغ ، الايلوث ، عام ١٧٤٠ ، الا يتجاوزوا جبال الالتاي ، الى الجنوب .

ولم يمض وقت طويل حتى تمّ له اخضاعهم واعترفوا له بالتابعية ، على اثر الخصومات والانشقاقات التي ثارت بين النازعين للاستئثار بالسلطة ، مما حمل عدداً من امراء الايلوث الذين باءت محاولتهم بالفشل ، على الالتجاء الى الصين ، ومعهم الكثيرون من اتباعهم وانصارهم ، فقدموا طاعتهم وولاءهم للامبراطور كيان – لونغ ، مقابل المراعي التي وضعها تحت تصرفهم والحماية التي نعموا بها خلال حكمه . وقد بدت فرصة سالحة للامبراطور ، فجهز فرقة انضمت اليها وحدات من الإيلوث ، قامت بفتح وتدويخ المنطقة الواقعة الى الشمال من جبال الالتاي. وهكذا انفصمت عرى الوحدة بين اقوام الايلوث فانقسموا الى اربع قبائل لكل منها خاناتها المتميزة يجري تعيينهم من قبل حاكم صيني عام يمثل الامبراطور ، استقر بعد ذلك ، الى الجنوب في مدينة خولدجا الواقعة على نهر «إيلي» ، في نقطة مركزية ، بحيث يتاح له مراقبة كل الممرات والمداخل (١٧٥٥) .

الا ان القضاء قضاء تاماً على الايلوث لم يتأخر أجله. فقد قام احد زعمائهم وهو امير من أمراء العائلة المالكة ، يدعى اموريانا ، ان حمل اثر الفشل الذي مني به ، البدو المستقلين على الانتقاض والثورة ضد الصينيين ومحاربتهم . ولما طُلب اليه القدوم الى بكين ليؤدي حساباً عما زرعته يداه ، فرّ ولجا بنفسه ، نحو بحيرة إرتلش ، وجمع حوله ٤٠٠٠ من الانصار ، وفتك بأفراد الحامية المرافقة للمقيم الصيني ، التي تألفت من ٥٠٠ صيني . فكان ذلك اطلاق العنان لثورة لاهبة ضد الصينيين . الا ان الايلوث انهزموا شر هزيمة عند نهر الاميل ، سنة ١٧٥٧ ، اوقعت فيهم مذابح دامية . ففر امورسانا مع ٢٠ الفاً من رجاله وأنصاره والتجأ الى الروس . اما الباقون فقد جرى ابعادهم الى حدود كان – سو ، وضمت الاراضي التي كانت تابعة من قبل للايلوث الى الامبراطورية الصينية . فامتدت حدود الصين حتى بحيرة بلخاش . وعيّن على الاراضي الجديدة حاكمين صينيين ، قام احدهما في كبدو كما قام الثاني في خولدجا . واعيد إعمار

البلاد وتأهيلها بالسكان بأقوام الكازاك هم مزارعون مسلمون من الكشغار، ومعمرون عسكريون من المنشو ، ثم جاء عام ١٧٧١ ، بأقوام جدد من التورغوت . وهكذا اصبح التركستان الشرقي ولاية صينية ، تشكلت منها ولاية سنكيانغ العسكرية .

ان القضاء التام على الامبراطورية الايلوث سجل الذروة في نفوذ الامبراطور كيان – لونغ في آسيا الوسطى . فقبائل البدو في التركستان الغربي : كالكرغس في القبيلة الذهبية الكبرى (١٧٥٨) والقبيلة الذهبية الصغرى (١٧٦٢) وخانات بخارى وخوكان وطشقند واندجان ، قدموا ولاءهم للامبراطور ، وبذلك بلغت سلطته مشارف بحر قزوين . وقد كان من بُعد شهرته ، وشدة بأسه وقوة سطوته ان خرجت قبائل تورغوت المغول عن طاعتها وولائها للروس . فمائة الف اسرة من هذة القبائل ، كانت تقيم مضاربها على ضفة الفولغا اليمنى ، كان القيصر نفسه يقوم بتعيين خاناتها ويقدّم للروس قوات اضافية مساعدة اشتهرت بشجاعتها في الحرب . فبعد ان تبينوا الخطر الذي تعرّضوا له من قبل الحاميات والمستعمرين الذين اخذوا بمطاردتهم ، وبعد الاهانات التي كالها الروس لهم ومظاهر الاحتقار والسخرية التي الحقوها بهم ، نفر السواد الاكبر من هذه الأسر التي تجاوز عددها ٧٠ الف اسرة ، وفرّوا نحو الشرق ، بعد ان فرشوا قارعة الطريق بجثث الموتى . الا انهم وصلوا نهر ايلي والتمسوا من الامبراطور حق اللجوء (١٧٧١) وقبولهم في الامبراطورية . فسارع الامبراطور وأمدهم بما يلزم من ألبسة وأغذية واقامهم في المراعي التي كانت من قبل للايلوث ، وانعم على عدد من كبار زعمائهم بألقاب شرفية صينية . وهكذا جاء شعب جديد ، يقدّم طوعاً واختياراً ، ولاءه للامبراطور ويمد الامبراطورية الصينية بقوى اضافية جديدة ، ويأخذ على نفسه الدفاع عن حدودها الشرقية .

اما في الجنوب الغربي ، وفي الجنوب ، فالحدود الصينية كانت في حرز حريز . وفي سنة ١٧٩١ ، جاء الغوركاس وهم اقوام هنود يسكنون النيبال يحاولون السطو على اديار التيبت ، طمعاً بما فيها من خيرات ، واجتازوا جبال همالايا فتصدّى لهم جيش صيني الحق بهم الخسف وهزمهم مراراً ، ودفعهم الى الوراء حتى بلغ عاصمتهم كتمندو واضطرهم لاعلان ولائهم للصين (١٧٩٢). واحتل الصينيون ، باتجاه بومانيا ، عام ١٧٦٥ ؛ الممر الرئيسي واتجهوا نحو عاصمة البلاد ، عام ١٧٦٧ ، الا ان محاولتهم هذه اصيبت بالفشل . ومع ذلك قدم ملك بومانيا ، عام ١٧٩٠ ، ولاءه للصين وأصبح منذ ذلك الحين من اتباع الامبراطور .

وازداد امبراطور الصين نفوذاً على نفوذ بوضعه البوذية تحت رعايته وجعلها الديانة الرئيسية لهذه الرقعة من الارض الممتدة من سور الصين الى بحر قزوين . وأخذ على نفسه الدفاع عن سلطة الدالاي لاما الدينية في التيبت ضد تعديات الزعماء العلمانيين وضد الثورات التي قام بها التيبتيون الوطنيون وضد اطماع الدول المجاورة ، بينما وضع تحت اشرافه المباشر عملية انتخاب الدالاي لاما ، وراح يراقب سياسته عن كثب .

وفي سنة ١٧٢٠ ، أتاح استرداد التيبت من يد الإيلوث ، للامبراطور هانغ – هي ان يجعل

منها حمـــاية صينية . فعين عليها مندوبين ساميين اقـــاما مع حامية صينية في مدينة لاهسا « لتقديم النصح » للدالاي لاما .

وراح الوزير الاول التيبتي يقـوم في منتصف القـرن الثامن عشر بدسائس تهدف لطرد الصينيين من البلاد ، ممـا حمل المفوضين الامبراطوريين على تصفيته والتخلص منه . وعلى الاثر ثار الشعب في العاصمة لاهسا من جديد ، عام ١٧٧١ ، مما ادى الى التشدد في امور الحماية واعطي المفوضان الصينيان الحق بمراقبة كل اعمال الدالاي لاما ، كما اعتُرف لهما بحق الاشراف على عملية انتخابه ، كما كان صوتهما مرجحاً في الهيئـة الانتخابيـة . وكان على المنتخب ان ينـال من الامبراطور فرماناً بانتخابه يعده مجلس الطقوس في بكين ويحظى بمصادقة الامبراطور ليصبح الانتخاب قانونياً . ان اخضاع الدالاي لاما ، للامبراطور وضع تحت تصرف هـذا الاخير ، ما للاكليروس البوذي من نفوذ قوي . كما ان مراسم التكريم والتبجيل التي احاط الامبراطور كيان ـ لونغ الدالاي لاما بها ، أمنت للاسرة المنشوية ولاء كل الاقوام الذين اعتنقوا البوذية في آسيا الوسطى .

وهكذا نرى سلطة الامبراطور تمتد ، في اواخر القرن الثامن عشر ، على كل آسيا الوسطى وتنتهي عند حدود السيادة الروسية والانكليزية ، كما انها تحكمت بطرق المواصلات التجارية كما سيطرت على منافذ الصين وابوابها . وهكذا حققت الاسرة المنشوية الاحلام التي طالما راودت خواطر الصين الوطنية .

اما علاقات الصين مع الاوروبيين ، من ناحية الغرب فلم تكن شيئاً يذكر على الاجمال ، بينما علاقاتها معهم في الشرق كانت انشط بكثير ، وكان لها نتائج اكبر واهم وهي علاقـات سلمية تجارية ودينية ، اذ كانت الصين هـدف جميع الاوروبيين العاملين في آسيا . والاشـياء المدهشة التي قام بها اليسوعيون واثارت دهشة الاباطرة المنشو واعجابهم اعطت هؤلاء الاباطرة فكرة صحيحة عن القوة التي توليها العلوم والتكنولوجيا ، كما جعلتهم يوجسون شراً من احتمال قيام هؤلاء الاوروبيين بمحاولة انزال جيوش في الصين واخذهم لها على حين غرة من الوراء ، فيحولون بذلك دون الاعمال الحربية التي قام بها الصينيون في آسيا الوسطى ، وربما افضت الى خلخلة سلطانهم وقضت على سيطرتهم . وقد ازدادت هواجسهم ، وزادت خواطرهم قلقـاً للاخبار التي جاءتهم من الهند عن الانتصارات الاسطورية التي حققها في الهند ، كل من دي بوسي وكليف . والخوف الذي اعترى الصينيين من احتمال غزو الاوروبيين للصين ، يفسر لنا الى حد بعيد ، حذر الاباطـرة المتزايد من المرسلين والمبشرين الذين كانوا ينالون من الصينيين المرتدين ، كل ما يرغبون في الحصول عليه . الا ان بُعد الصين ، كان يوجب على الاوروبيين انشاء عـدد كبير من الاسكلة ، ومستودعات على طول الطرق البحرية الموصـلة اليها . فالعمليات التي كانت الهند مسرحاً لها ، في البدء ، اتبعت مثل هذه الخطة وسارت على مثل هـذا النهج . وقد رأى الاوروبيون انفسهم غارقين في عدد كبير من المشروعات والاعمال ينافسون بعضهم

بعضاً . فقد قام فيما بينهم نقاط احتكاك وتصادم في كل مكان من العالم . وهكذا وجدت الدول الاوروبية نفسها في شغل شاغل من امورها لتفكر جدياً بمهاجمة امبراطورية متحدة ، هي في ابان ازدهارها حرص الاباء اليسوعيون على احاطتها بهالة من العظمة في مـــا وضعوا عنها من رسائل وابحـــاث وتقارير . وهكذا تقدم الاوروبيون من الصين كأصحاب التماس واستطاع الاباطرة المنشو ان يحافظوا على ملء حرياتهم ، في جميع اعمالهم العسكرية ، في آسيا الوسطى بينما لم يفتحوا ثغورهم البحرية في الشرق للاوروبيين الا بالقدر الذي رأوه مناسباً .

واستقطبت الحركة التجارية في الصين عـدداً كبيراً من الاوروبيين . فالبلاد بما لهـا من غنى ، وبما فيهـا من كثرة السكان ألّفت ، في نظرهم زبوناً مرغوبـاً فيه جداً ، وكانت منتوجاتها العديدة : كالحرير واللاك ، والخزف والشاي مواداً اشتد الطلب عليها في اوروبا ، كما ألّف تسويقها عملية تجارية رابحة . فقد ساعد النقد وسهولة السيولة على القيام بمضاربات ماليـة رابحـة اذ ان نسبة الفضة الى الذهب كانت بنسبة ١ — ١٠ في الصين ، بينما هي بنسبة ١ — ١٥ في اوروبا . وهكذا وفد عليها الانكليز والهولنديون والفرنسيون ناقلين معهم عملات من الفضة حصلوا عليها من اميركا الاسبانية ، عن طريق التهريب ، فيبدلونها في الصين بعمـلة ذهبية ، ثم يبادلون هذا الذهب ، لدى عودتهم الى اوروبا ، ضد البضائـع والسلَع (او ضد عملات من الفضة) فيحققون ارباحاً كبيرة .

والثغور الصينية التي سُمح للاوروبيين الاقامة فيها كانت قليلة جـــداً ، كما لم يكن ليُسمح للتجار الاوروبيين مغادرة هذه المدن والتغلغل الى داخـل البلاد . واذ كانوا يرون فيهم خطراً على سلامة البلاد ، فكانوا يحصرونهم في احيـــاء او حارات خاصة ويضعونهم تحت المراقبة . فقد كان للبرتغاليين امتياز مكاو الذين جعلوا منه مرفأ دولياً . وكانوا دوماً يدعون مجاناً ، ان لهم الحق بارغام السفن الاوروبية على الرسو فيها . ونال الاسبانيون امتيازات في بعض المرافىء الساحلية ، في فوكيان وأموي وفو ـ تشيو ، واحتلوا لفترة قصيرة فورموزا ، الا ان الصينيين عادوا واسترجعوها عام ١٧٤٢ . وعبثاً طلب الانكليز الاقامـــة في أنوي او في نانغ ـ بو . وقد وجدت الحكومة الصينية انه من الافضل لها بكثير جعل مدينة كنتون قاعـــدة للاتجار مع العـــالم الخارجي ، ومن سنة ١٧٠٢ — ١٧٢٠ ، اعطى الامبراطور هانغ — هي ، تاجراً صينياً من تجار كنتون ، احتكار المعاملات التجارية مع التجار الاجانب . وكأن بهذا التدبير لم يكن كافياً ، فراح الامبراطور المذكور ينشىء عام ١٧٢٠ الـ *Hong* او نقابة التجار الصينيين اصحاب الامتيازات ، وهي مؤسسة تجارية ضمت التجار الهانيين ، وعددهم عشرة ، هم من كبار التجار في البلاد ، برئاسة رئيس الجارك البحرية . وفي سنة ١٧٧١ ، الغى الامبراطور كيان — لونغ هـذه النقابة (*Hong*) وراح التجار الذين كانوا اعضاء فيها يتابعون اعمـــالهم التجارية ، بصورة فردية وبذلك حافظوا على الاحتكار . وكانت هذه الطريقة مؤاتية جـــداً للامبراطور اذ تزيد كثيراً من دخله . ولكي يكون التاجر تاجراً هانياً ، كان عليه ان يدفـــع للامبراطور

مبلغاً ضخماً، كما راحوا بدورهم يفرضون على السفن الاجنبية أن تدفع للامبراطور رسماً اميرياً يتناسب وحجم السفينة . كل ذلك كان من شأنه ان يضاعف اعتماده المالي ، اذ كثيراً ما استهدف التجار الهانيون ،من قبل الامبراطور ، لعملية تسليف واسعة اجبارية،يضطرون معها الى استلاف مبالغ طائلة من التجار الاجانب . كذلك سهل هذا التدبير مراقبة الاجانب المقيمين في مدينة كنتون ، حيث كان لكل امة حي او حارة خاصة (*Loge*) ، وهو كناية عن خـــان كبير يجري تأجيره من قبل التجار الهانيين . وكان التجـــار الهانيون الذين يتمتعون بالاحتكار ، في المقابل ، يحددون الاسعار حسبما يرغبون ، فينظمون بذلك حركة دخول البضائع الاجنبية الى الصين ، فيثيرون بالتالي المنافسة الحادة بين التجار الاجانب ، ويؤمنون لانفسهم ارباحاً ضخمة جداً . ولم يكن للروس الحق بالاقامة في كنتون . بينما اعطي هذا الحق لنمساويين وبروسيين ودانيماركيين واسوجيين واسبان . والجانب الاكبر من هذه الحركة التجارية كان بيد الانكليز والهولنديين والفرنسيين . ففي ٢٩ ايلول ١٧٦٥ ، في وقت كانت فيه تجـــارة الفرنسيين قد اخذت بالانحطاط ، وجد في مرفأ كنتون ٣٤ سفينة منها ٢١ انكليزية و٤ هولندية و٤ فرنسية و٣ أسوجية و ٣ دانيماركية . وفي سنة ١٧٨٤ ، دخل الحلبة التجارية منافس جديد خطير في شخص الولايات المتحدة الاميركية . وفي هذه السنة بالذات، قامت السفينة « امبراطورة الصين » بأول رحلة لها بين فيلادلفيا وكنتون وعادت بربح بلغ ٢٥٪ . وفي سنة ١٧٨٦ ، قام في كنتون لجنة تجارية اميركية . واحتكر الاميركيون الاتجار بالفراء في جنوب الصين . وفي سنة ١٧٩٠، دخل مرفأ كنتون ٤٠ سفينة اميركية قدمت من نيويورك وبوسطن وفيلادلفيا .

وقد اجيز للكهنة الكاثوليك وجدهم تقريباً الدخول الى الصين . وشهد القرن الثامن عشر نهاية عملية بديعة تمت على نطاق واسع : فالكنيسة التي حلمت ، في القرن الماضي بان تكسب الصين وتدخلها في النصرانية ، رأت آمالها واحلامها تذهب هبـــاء . وبذلك ، فقد كل امل بادخال الحضارة الاوروبية الى الصين .

ففي عام ١٧١٥ ، كانت الكنيسة في الصين تتألف من اســـاقفة برتغاليين في كل من بكين ونتكين ومكاو ، يعودون في امورهم الهامة الى مرجعهم الاعلى رئيس اساقفة غوا . وكان البابا اعترف للبرتغال بحق رعاية الكنيسة في الصين . ومن بين الامتيازات التي تمتع بهـــا ، تبليغ القرارات والمراسيم الكنسية الخاصة بالشرق الاقصى . وهكذا برز الاساقفة البرتغاليون كممثلين لرئيس الكنيسة كما برزوا رؤساء لجميع رجـال الاكليروس . ولذا لم يقبل البرتغال ، في الصين ، سوى مبشرين برتغاليين او خاضعين للسلطات البرتغالية .

على المرسلين الا يعترفوا بغير سلطة الحبر الاعظم ممثلة بمجمع انتشار الايمان ، يمثله نواب رسوليون لهم سلطات الاساقفة . والف اليسوعيون العدد الاكبر من المرسلين قام لهم في بكين نفسها رسالتان : رسالة برتغالية ورسالة فرنسية ارسلها الملك لويس الرابـع عشر وتعيش على

مساعدات فرنسية . كذلك نشط اليسوعيون للتبشير في عـــدد كبير من الولايات الصينية . ويليهم من حيث العدد : الآباء الدومنيكيون والفرنسيسكان الاسبان الذين جعلوا من الفيلبين قاعدتهم الكبرى ، وعملوا باعداد كبيرة ، في عدد من الولايات الصينية ، ولا سيا في فو-كيان. وكان مرسلو جمعية المرسلين في الخارج التي يقوم مركزها في باريس ، وجمعية الآباء اللعازاريين ، اقل عدداً من غيرهم من الرهبانيات التبشرية . وقد استطاعوا ان يكسبوا للمسيحية ٣٠٠٠٠٠ صيني ، بينهم عـــدد محترم من كبار الموظفين ، يعمل افراد منهم بمعية الامبراطور . والفوا مجتمعات وطنية مسيحية يقوم على خدمتهم الروحية رهبان صينيون . كانت هـــذه النتائج ضئيلة جداً اذا ما قيست بضخامة سكان الصين ، الا انها كانت بالفعل عظيمة اذا ما قيست بعدد المبشرين والمرسلين المحـــدود ، وبالصعوبات التي اكتنفت عملهم التبشيري . وبالرغم من العراقيل والمصاعب التي اعترضتهم ، فقد بعثوا في النفوس آمالاً واسعة .

كان اليسوعيون هم أول من حمل امبراطور الصين على الوقوف موقفاً متساهلاً تجاه الديانـة المسيحية . وبفضل ما تمتعوا به من نفوذ عريض في البلاط ، استطاع المبشرون متابعة عملهـــم الرسولي في الولايات . وبفضل ما تم لهم من العلم الاوروبي والتكنولوجيا . فقد امسوا ، لا غنى عنهم كرياضيين وعلماء فلك ، فكانوا اعضاء في الديوان الفلكي الامبراطوري ورسامي خرائط ، وميكانيكيين ، ومهندسين واطباء ، وبرزوا في أعين الناس كمترجمين ودبلوماسيين . وسيطروا بمالهم من مقدرة فائقة كفلاسفة وادباء من حملة الثقافة العليا ، واصبح لهم كلمة مسموعة لدى الموظفين الذين ينزلون المعرفة وحملة العلم منزلة رفيعة ، وعرفوا ان يكسبوا لهـــم ، الكثير من الاصدقاء ومن قادري فضلهم بفضل ما ظهر من طيب احاديثهم وبفضل ما جادوا به مـــن هدايا وخرائط جغرافية وساعات وادوات رياضية وكتب علمية . وعرفوا ان يشيعوا الفضول العلمي في الاباطرة .وكان يحلو للامبراطور هانغ — هي ان يقتل الوقت بالتحدث اليهم فاستطاع بذلك ان يحصل على مبادىء العلوم الغربية ، كما تم له الاطلاع على العادات الاجتماعية والسياسية المرعية لدى الغربيين . وقد هبط نفوذ اليسوعيين وتأثيرهم في عهد الاباطـرة يونغ تشانـغ — وكيان — لونغ بسبب الجدل العنيف الذي أثارته الطقوس وفتح الهند . الا انهم حافظوا على مكانتهم العالية كفنيين وتقنيين . فالآليات كانت معبود كيان — لونغ ، وقد صنع له الاخ تيبول ، عـــام ١٧٥٤ ، اسداً يتحرك من تلقاء ذاته ، كما ان الاب سيجسموند زاده اعجاباً على اعجاب بصنعه إنساناً يتحرك مع حركات الساعة . وفي سنة ١٧٥٢ ، صنعوا بمناسبة العيـــد التذكاري الستين لولادة الامبراطور ، تمثالاً يتحرك ويلقي خطبة تقريظ بينما تماثيل اخرى تقرع الصنوج ، وتعين اوزة بمنقودها الساعة على حافة الحوض . وهكذا ، فالعلوم والتكنولوجيا مهدت السبيل امام انتشار الدين المسيحي .

وقد ساهم الآباء اليسوعيون كثيراً في تيسير سبل الأخذ بالمعتقدات المسيحية والعمل بهـا عن طريق تفسيرهم للمعتقدات و « الطقوس الصينية » . آمن الصينيون بخلود نفوس الجدود وادّوا

لهم عبادات من التكريم ، في ولائم جنائزية وفي ادعية خاصة . واعتقدوا ان بفضل هـذه العبادة كانت هذه النفوس تعيش سعيدة وتغدق النعم على ذراريها ، وبدونها كانت بائسة ، تعيسة وإذ ذاك تنتقم لذاتها بمساوىء لا حد لها ولا حصر . وكان المثقفون منهم يؤدون عبادة لروح كونفوشيوس . وكان الصينيون يعبدون قوى الطبيعة التي رأوا فيها ارواحاً لها قوة هائلة . انما امر البت بعبادتها تُرك للحكام في الولايات . والفرد لم يكن له من تأثير عليها الا بالسحر . واخيراً هنالك اله سام ، اعلى ، هو السماء او السيد المطلق ، ها تشانغ – تي ، عبادته متروكة للامبراطور وحده ، الرئيس الاعلى للدين الذي يستمطر على البلاد اجمع بركات الله في الاعالي .

وعملية تنصير الصيني يشترط فيها عدم تحميل الصيني تغييرات قاسية تبدل جذرياً من عاداته واعرافه ، بحيث لا تسبب عملية تنصيره تنغيصاً له يجعل عيشه في المحيط الوثني الذي يجد نفسه فيه ممتنعاً لا بل مستحيلاً . هذه كانت مشكلة الهند ايضاً . ففي سبيل تخفيف الصدمة في نفس الصيني ، راح الآباء اليسوعيون يرون في الـ *Le Tien* او الشانغ – تي ، اله المسيحيين الشخصي . فالنصوص الصينية ، والحق يقال كانت غامضة في ذاتها اذ انها تصور لنا *Le Tien* تارة كإله شخصي ، كلي القدرة ، كلي المعرفة ، مثيب ، مجازي الكل على اعمالهم ، ويصورونه طوراً الهاً غير متميز عن الهيولى او المادة العامة . وقد عرف اليسوعيون ان يستفيدوا من هذا الغموض بحيث يساعدهم على تقديم الايضاحات اللازمة للتحديد والتعيين . وقد استعملوا هذا اللفظ بالذات للدلالة على الله الآب وعلى السيد المسيح . اما عبادة الجدود فقد ألّفت مشكلة اساسية . فالمنتصر الجديد لم يكن له بد من المشاركة بهذه العبادة ، والا تعرض للطرد من الجماعة واصبح بالتالي منبوذاً منها او مقطوعاً من المجتمع الصيني ، وبذلك يستهدف لاحكام القانون . فقد شجب الآباء اليسوعيون هذه العبادة ذاتها . الا انهم سمحوا للمتنصر ان يشارك بها على اعتبار منه بانها مجرد فعل احترام للجدود ، على ان يحمل تحت ثيابه او يضع على الطاولة صليباً او صورة تقوية يرتفع بعقله وقلبه من صلواته اليه . ومنذ ١٧٠٠ ، ظنوا انهم يستطيعون ان يروا بفضل تصريح من الامبراطور هانغ – هي في هذه العبادة ، احتفالاً مدنياً لا غير . فلا غبار بالتالي على المؤمنين من حضورها والمشاركة بها دون ان يخدش ذلك ضمائرهم او وجدانهم .

وقد لقيت هذه الشروح والتفسيرات شجباً عنيفاً من قبل الكهنة بقيادة الدومنيكيين والفرنسيسكان . فقد قام بين المرسلين مناقشات وجدل هي بعض ما قام منها بين الرهبانيات والجنسيات . اما الدوافع فقد كانت دينية قبل كل شيء . فقد رأى خصوم اليسوعيين في الاله *Le Tien* عنصراً شاملاً غير متناه هو والهيولى سواء . فالصينيون ، والحالة هذه هم حلوليون ، وثنيون ، مشركون ، كما راح الدومنيكيون يعلنون . فتسمية الله بـ *Le Tien* او *Chang-ti* تكوّن تجديفاً على الله كما فيه حمل للصينيين على ارتكاب خطيئة مميتة . امـا الطقوس فهي في نظرهم عبادة ارواح الجدود ، وبالتالي شيء من الصنمية او عبادة الاصنام ، وهو شيء فظيع

في نظر المسيحيين . فالموقف الذي اجازه اليسوعيون للمتنصرين كان من شأنـــه ان يجعل باقي الصينيين يعتقدون ان الكنيسة الكاثوليكية تجيز هـــذه العبادة ، مع ان جوازها يعرض النفوس للهلاك الابدي . كان لا بد من ملاحظة هذه المفارقات والإعراض عن هـذه الاساليب البشرية والجهر بالحقيقة مهما قست وآلمت ، والتعويل على الصلاة وعلى الصلاة وحدهـا ، وعلى التقوى والمحبة ، والنعمة الالهية ، وعلى شفاعة السيد المسيح واستحقاقاته غير المتناهية في فتح الصين امام المسيحية .

فبعد ان درس الكرسي الرسولي القضية من جميع وجوهها ، شجب البابا الآباء اليسوعيين ، واصدر عـام ١٧١٥ براءة بابوية *Ex illa die* التي حظرت استعمال الكلمات *Tien* و *Chant-ti* مرادفتين لكلمة الله ، كما حظرت مراسم العبادة والتكريم التي تقام لكنفوشيوس وللجدود ، واجاز الاشتراك بالحفلات المدنية العرفية ، ان مثل هذا الحكم حمل في ثناياه القضاء المبرم على الارساليات التبشيرية في الصين . وامام تحذيرات اليسوعيين والامـــور التي اثاروها ، ارسل البابا القاصد الرسولي ميزابارباً (١٧٢٠ – ١٧٢١) ليحصل من الامبراطور هانغ – هي على السماح للصينيين المسيحيين باعتماد التشريع الكنسي . واذ كان الامبراطور برماً جداً من هذا الجـدل الديني والمناقشات الحادة التي استمرت ردحاً طويلاً ، رفض رفضاً باتاً النزول عند طلب القاصد الرسولي ولو تعرض لثورة عامة ، مردداً ما كان سبق له واعلن ، عام ١٧٠٠ ، بانه لا فرق قط بين الفكرة التي يقيمها الصينيون والمسيحيون لله ، وبان الطقوس ليست سوى مراسم تذكارية لا غير . فاذا كان ذلك تفكير هانغ – هي ، فمعظم الصينيين لم يكونوا من هذا الرأي ، ولا من هذا التفكير ، وما للامبراطور من سلطة على آرائهم الشخصية . وقفل ميزابارباً راجعاً بعد ان ترك ثمـــاني « جوازات » ، كانت في ذاتها بالفعل نقضاً لاحـــكام البراءة البابوية . فالبابا لم يعر هذا التدبير الذي اتخذه ممثله الاهتمام الكافي ، وفي سنة ١٧٤٢ ، اصـــدر البابا بندكتوس الرابع عشر ، البراءة *Ex quo Singulari* التي حرمت الجوازات المذكورة واقرت احكام البراءة .

لم يأمر هانغ – هي باضطهاد المسيحيين . اما الامبراطور يونغ – تشانغ فقد اخذ يحتقر الهازئين بعبادة الجدود كما راح يسخر من العاملين على نشر عقيدة الثالوث الاقدس ، هـذه العقيدة التي تصدم العقل في الصميم . ولم يطل الامر على كبار الموظفين في البلاط حتى ادركوا ان الامبراطور لم يعد يأخذ تحت حمايته المسيحيين . وفي سنة ١٧٢٣ ، شجب مون – آن – بان الذي كان نائباً للامبراطور في فو – كيان ، المسيحية واصدر امره لجميع المرسلين العاملين في الولاية المذكورة بالانسحاب منها واللجوء الى مدينة مكاو . فكان ذلك إيذاناً بابتداء الاضطهاد وامتداده الى الولايات الاخرى . فهُدمت الكنائس ، او جرت مصادرتها من قبل الحكومة وحولت الى مستشفيات ومستودعات او مدارس . وتعرض الكهنة في الشوارع للمهانة والتحقير ،

وزج بالمسيحيين في السجون واوسعوا تعذيباً . وراح مكتب الطقوس يشجب المسيحية في كل انحاء الصين . واقر الامبراطور يونغ ـ تشانغ هذه الاجراءات كما اقر هذا الشجب وصادق عليه عام ١٧٢٤ ، وامر باخراج المرسلين من جميع اطراف البـــلاد وسوقهم الى كنتون ليجري تسفيرهم الى اوروبا . واجيز لعشرين يسوعياً بالبقاء في بكين ، باعتبارهم فنيين اوروبيين . وقد خطر ليونغ ـ تشانغ طردهم منها عام ١٧٣٣ . لم يُعرف الامبراطور كيان ـ لونغ بعدائه للمسيحية ، الا انه كان يخشى مشاعر الجماهير ، كما انه كان يتوقع هجوماً من الاجـانب على البلاد . وفي سنة ١٧٧١ ، شجب المسيحية من جديد ليس باعتبارها ديانـــة باطلة او رديئة ، بل باعتبارها مخالفة لقوانين البلاد .

وعـــاد المرسلون سراً وخفية الى الصين متنكرين بلباس الصينيين ، يقودهم مرتدّون مسيحيون ، معرضين حياتهم لخطر الموت . فكانوا عرضة للتوقيف والسجن ، ويوثقون بشكل لا يستطيعون معه الوقوف او الجلوس ، ويجري خنقهم في السجن ثم تجـــز رؤوسهم . وقد تعرضوا لاتهامات مشينة واتهموهم بفعل المنكر مع عذارى مسيحيات ، كما اتهموا بقتل الاولاد ، ودس مواد سامة مؤذية للشعب . واستهدف كثيرون من المعمدين للجـلد والضرب والتعذيب ، وبيعوا في اسواق النخاسة عبيداً أرقاء . فلا عجب ان يجحد عدد منهم دينهم الجديـد ، كما ان بعضهم تصرف تصرف الابطال والشهداء الابرار .

الا ان الضربة القاصمة للارساليات في الصين جاءت بالأحرى ،من اضطهاد الحكومات للرهبنة اليسوعية منذ عام ١٧٥٨ . وعلى الأخص من الغاء الرهبنة اليسوعية ، عام ١٧٧٣ : وفي سنة ١٧٨٤ ، حل الآباء اللعازاريون رسمياً محل الآباء اليسوعيين ، في بكين . ولم يبق سوى بعض رهبـان لم يلبثوا ان توفوا الواحد بعد الآخر . ومن اصل ٣٠٠،٠٠٠ مسيحي كانوا في الصين ، عـــام ١٧٨٩ ، لم يبق سوى ١٨٧،٠٠٠ استمروا على ايمـــانهم بفضل الرهبان الوطنيين وبعض المرسلين المتخفين .

وراح البعض يتساءلون ما اذا لم يكن من الافضل للبابابوات ان يجيزوا « الطقوس الصينية » باعتبار ان التفسير الذي اعطاه اليسوعيون للاله الاسمى ولعبادة الجدود ، قد يكون غزا ، مع الوقت ، عقول الصينيين ، مما كان من شأنه ان يؤدي مثل هذا التدبير الى تنصير الصين برمتهـا مع اقطار آسيا الوسطى . وهذا الاحتمال كان يقابله ، في الوقت ذاته احتمال آخر هو ان يجعل المسيحيون الصينيون من الله بحسب المفهوم المسيحي له ، الهاً حلولياً . كما كان جعلهم يعبدون ، بالفعل ، ارواح الجدود . وهكذا تختلط المسيحية لتذوب في هذه الطقوس مع مذاهب التفكير الصيني ، لا سيما اذا ما أخذنا بعين الاعتبار وأدركنا جيداً الجهود البائسة التي بذلهـــا الآباء اليسوعيون الذين كانوا يؤلفون ، الفرقة الأمـــامية للمرسلين المناضلين ، وهم يعملون على صعيد مترجرج ، خطر ، بذلوا الى اقصى حد ممكن الجهود الكريمة التي قاموا بها . فبقي من هذا كله ان الـ *Tien* ليس هو بالله الذي يملأ التوراة وان عبادة الجدود هي من صميم الصنمية والشرك .

ومما لا شك فيه قط ان فشل المسيحية في الصين يكوّن فشلاً في محاولة « فرنجة » تلك البلاد واخذها باسباب الحضارة الاوروبية . كانت الصين متحجرة في عاداتها واعرافها وعقائدها التي سارت عليها منذ بضعة آلاف من السنين ولا سيا عبادتها للجدود ، واقصار احترامها على الماضي وعلى طقوسها الدينية . وكان على الصيني ان يحترم ، طوال حياته ، اصغر الحركات والسكنات ويتقيد باتفه العبادات والحركات الطقسية ، بدقة كلية ، والا تعرّض لمساوىء عديدة . فكل جديد يأتيه او يقوم به ، في هذا المجال ، يكوّن مخالفة منه للطقوس المرعية ، كما يكوّن انتقاضاً لحكمة الجدود ، وخروجاً على تعاليمهم . وهكذا لم يكن من الممكن قط ادخال أي اصلاح او القيام بأي تجديد . فالخروج بالصين من نطاق هذه الطقوس او إلحاق أي تغيير او تبديل او تفسير يغير من معناها انما يعني التسليم بحدوث تغييرات جديدة وفتح الباب على مصراعيه امام التطور. وهكذا قضي على الصين أن تأسن عاداتها ، وان تبقى عند هذا المستوى الذي بلغت اليه الحضارة الرومانية . ولم يكن هذا الوضع ليتعارض مع ظهور اخلاقية عالية ومع اكبر الفضائل واروعها . الا انه كان يتعارض ، في الصميم ، مع طاقتها الكبرى على التحكم كقوة كبرى بقوى الطبيعة .وهكذا اخذ ميزان القوى ونسبة الفوارق يتسع بين الصين واوروبا او بين الشرق والغرب .

فلم يستفد الصينيون بالفعل كثيراً من اتصالاتهم مع الاوروبيين في القرن الثامن عشر . فقد حمل اليهم الآباء اليسوعيون نتائج محققة ، مكتسبة نزلت عند اباطرة الصين منزلة عالية ، انما جهل رعاياهم كيف يطبقونها ويفيدون منها ، وبالتالي لم يفقهوا ، ما تحمله بين ثناياها من طاقات وما تخفيه في طياتها من امكانات . فعلى قيد خطوات من اليسوعيين الذين كانوا يعملون ، في ارصادهم العلمية ، على المجهر وعلم المثلثات وفرضيات كوبرنيكوس ونيوتن ، استمر علماء الفلك الصينيون يستعملون المزاول الشمسية ويعتمدون نظرية السماء الجامدة او الصلبة . وعبثاً علمهم الرسامون اليسوعيون وجوب،مراعاة الابعاد ووجوب الأعتماد على الانوار والظلال .فقد استمر الفنانون الصينيون على جهلهم لهذه المبادىء والضرب بها عرض الحائط ، كما استمروا على إضفاء النور على رسومهم الفنية من كلا الجانبين . اخذ الفنانون الصينيون بتقليد الخزف الاوروبي ونسخ الرسوم والنقوش البادية على مصنوعات سان كلو وخزفيات لويس الخامس عشر ، كما قلدوا تقليداً حرفياً موضوعات وصور اوروبية ، وذلك تلبية منهم لطلبات تقدم بها بعض الغربيين ، اذ راح احد العلماء الصينيين يرى في علم الجبر بعثاً او تطوراً لطريقة علمية صينية قديمة . وموجز الكلام بقيت الصين مجالاً مغلقاً وحقلا موصداً في وجه الفكر الاوروبي .

اما الاوروبيون فقد اظهروا شديد اعجابهم بكل ما هو صيني . وقد استطاع المرسلون ولا سيا الآباء اليسوعيون من بينهم ان يضعوا بالابحاث العلمية التي عقدوها حول الصين اساس علم الصينيات *Sinologie* فرسموا لنا صورة شاملة عن الحضارة الصينية بهذه الرسائل التقوية الغريبة التي

وضعتها الارساليات الاجنبية ، خلال هذا القرن . وكتاب « وصف الصين » الذي وضعه الأب دي هالد مزداناً بأول خريطة عامة للصين (١٧٣٥) والذي تمت ترجمته الى الانكليزية والالمانية فور صدوره بالفرنسية ، كان موضوع وحي وإلهام لعدد كبير من فلاسفة العصر . وفي اواخر القرن ، طلع علينا كتاب « مذكرات حول الصينيين لمرسلين في بكين » وهـــو كتاب عظيم الشأن مليء بالعلم والفوائد الجمة ، « يؤلف معيناً لا ينضب . وكثيراً ما جـاء مونتسكيو على بحث امور الصين في كتابه المعروف : « روح الشرائع » . وفولتير نفسه كثيراً مـا استشهد بحكمة الصينيين في « قاموس الفلسفة » ووضع لنا : « يتيم الصين » وهي مسرحية ناجحـة . وعقد ديدرو بحثاً مستفيضاً عن «فلسفة الصينيين» في موسوعته المشهورة . وروسو نفسه استمد من الصين الدليل الرئيسي الذي أيّد فيه خطابه الاول .

وكان استشهاد الفلاسفة بالصين واتخاذهم بعض تعاليمها تأييداً لنظرياتهم اكثر منه سعيـاً لتفهم الصين . فقد اتخذوا من هذه الادلة التي استمدوها من ادب الصين وفلسفتها براهين لتأييد تعاليمهم ونظرياتهم واقوالهم بما يتعلق بالديانة الطبيعية ، لا اهتماماً منهم بتوضيـح جوهر الله وصفاته او تقريب العناية الالهية للافهام ؛ بل تأييداً منهم « لاستبدادهم النير » ، اذ راحـوا يتوهمون انهم امام بلاد يحكمها حكماً استبدادياً امبراطور فيلسوف وعصبة من العلماء الحكماء . وقد خُيل لعلماء الاقتصاد ، اذ ذاك ، ان يتخذوا من وضع الصين، تأييداً لنظرياتهم الاقتصادية، اذ تصوروا الصين او بالأحرى صوروها امبراطورية زراعية قائمة وفقاً للمبادىء التي يقولون بها، وانها تُحكم وفقاً للنواميس الطبيعية ، وهذا الكمال الامثل والاسمى الذي رأوه في الصين كان له تأثير بعيد على نشر فكرة الشعوبية في العالم .

وبفضل الهدايا التي قدمها اليسوعيون للموظفين الصينيين ونقل المصنوعـــات الصينية الى اوروبا ، أطلّ إقبال مهووس على كل مظاهر الفن الصيني.وهذا الهَوَس للصنائع الصينية رسخ في الناس ذوق المستهجن ، وراح امراء العائلة المالكة يسعون لتكوين مجموعات لهم من الخزفيـات الصينية ، منهم الفنان « كويبل » وجوليين نصير الرسّام واطـو . وقد اوصى الاوروبيون على خزفيات صينية ، وتلقت مدام بومبادور من كيانغ ـ سي طاقماً كاملاً من الخزف الصيني يحمل شاراتها المعلمة . وهنالك نفوس تقية حرصت ان تحمل خزفياتها صور القديس اغناطيوس دي لويولا ، وفرنسوا كسافيه وعماد السيد المسيح ، والصليب ورسم قيامة السيد المسيح ناهضاً بمجد من القبر . ورغب آخرون الى فنانين مشهورين امثال دلفت في هولندا ، وشانتـلي في فرنسا، بتقليد الخزف الصيني .

واستوحى الفنانون من الخزف الصيني ومن هذه الألواح الفنية المنشورة في الكتاب الموسوم: «وضع الصين الحالي » الذي نشره الاب بوفيـه ، عام ١٧٩٧ ، موضوعات عديدة لوشيهم وتحليتهم . كما استوحوا منها تحفاً فنية صغيرة (*Chinoiseries*) ودمى هزلية *Singeries* . فحا الرسام واطو نحوها في زركشته وتحليته ديوان الملك الخاص في قصر الـ *Muette* ، كما ان الرسّام هويه رسم عجلات

ومحفات وحلى كثيرة للصالونات ، وغرفاً للطعام على هذا النحو ، وغرفة زينة قصر دي روهان (١٧٤٥ — ١٧٥٠) . والى هذا المنشأ او الينبوع الفني يجب ان نرد الدمى الهزلية التي تزين قصر شانتلي . كذلك عالج بوشيه وناتييه موضوعات صينية تحاسية في المرح والدعابة .

كذلك ظهرت أقمشة تحمل رسوماً صينية . فزي الاطلس الصيني اخذ في الظهور ، عام ١٧٣٢ ، والنسيج القطني الاصفر من طراز النسيج المعروف بننكين ، والنسيج الحريري الموشى من طراز بكين ، عرفت رواجاً عظيماً .

وقد طبع أوبركمف في مدينة جوي ، عام ١٦٧٠ ، اول نسيج يحمل رسوماً صينية هزلية .

والمقاعد والطاولات طلي كثير منها بالطلاء الصيني ، كمكتب لويس الخامس عشر ، هذا المكتب بالذات الذي كتب عليه الملك لويس السادس عشر وصيته ، وهو مسجون في سجن التمبل . كذلك ، صنعت السكاكين وفقاً للطراز الصيني ، كما تحلت مقابضها برسوم قردة صينية .

وكان الانكليز اول من قلد الحدائق الصينية في كيو . ومن تصميم الحديقة الصينية انبثقت الحديقة الرومنطيقية . كذلك ظهر في كيو وشانتلو اول ما ظهر ، طراز المعابد الصينية ذات القباب . وكل حديقة كان يقيمها امير كبير او مالي ثري امام قصره ، ارتفعت فيها سرادقات صينية ، منها في بلدة باغاتيل للكونت أرتوى ، وفي شانتيلي وسانت جيمس ، على الطريق الممتد بين غابة بولوني ولويي ، وفي اماكن اخرى .

وبعد عام ١٧٦٠ ، اخذت أذواق الناس تتوق لنماذج من الفن القديم ، كما استبدت بأذواقهم النظريات الفنية التي طلع بها جان جاك روسو ، وكلها تعارض الى حد بعيد ، التنظيم الاجتماعي الشديد ، في الصين ، حيث لا قيمة للفرد ولا شأن له فجاء رواج هذا الذوق وانتشاره بين الناس يخفف تدريجياً من تأثير الفن الصيني الذي تأصل عميقاً في نفوس القوم ، اذ ذاك .

ففي اواخر القرن الثامن عشر ، بدت الصين واوروبا غريبتين تماماً الواحدة عن الاخرى . فالاخوة الانسانية التي راودت النفوس ودغدغت المشاعر برهة من الزمن ترى حلمها يتطاير هباءً منثوراً ويتوارى عن الانظار . وهذه الصين التي اصبحت عزلاء من السلاح لافتقارها للتكنولوجيا الاوروبية ، دانت باستقلالها وبالنجاحات التي حققتها ، لهذه الانقسامات والمشاحنات والمنافسات التي اقامت الدول الاوروبية بعضاً على بعض فذهبت جهودهم سدىً . وعندما توارى الامبراطور كيان ـ لونغ عن العرش ، عام ١٧٩٦ ، تاركاً الحكم بيد خليفة خشنت اخلاقه وماعت بعد معاشرته النساء في الحريم ، بدا مستقبل الصين قاتماً مظلماً .

اليابان

بقيت اليابان في عزلة شبه تامة في جزرها المتناثرة ، وتحسباً منها لغزو محتمل تقوم به اوروبا بحافز من المرسلين والمبشرين ، حظرت اليابان الكرازة بالمسيحية والتبشير بها ، منذ سنة ١٦١٦ ، ولم يُعرف ان يابانياً واحداً غادر اليابان الى الخارج ، منذ سنة

١٦٣٧ . فكل محاولة من هـذا النوع كانت تعرض صاحبها للموت الاكيد ، كما انه اشترط في بناء السفن ألا يتعدى حجمها الأقصى ٢٥ طنـــاً . فلم يكن يسمح لغير الهولنديين من بين الاوروبيين باستيراد البضائع الاوروبية الى وكالتهم التجارية في جزيرة دشيما الواقعة عند مدخل خليج ناغازاكي ، بعد ان يتعرضوا للكثير من ألوان الازعاجات والمضايقات التعسفية . وكانت بعض القوارب اليابانية تستورد من الصين ، بعض المواد والاصناف التي تقتضيها حيـــاة البذخ . فاليابان كانت موصدة الابواب ، مغلقة النوافذ .

وقد وجّد سدنة البلاط من آل توكوغاؤوا في هذه العزلة وفي هذا الاغـلاق مدعـــاة للطمأنينة ، اذ كان يفوّت على كبار الاقطاعيين الذين غلبوا على امرهم امكانية الاعـتماد على عون او نصرة من الخارج . فالميكادو او الامبراطور كان يقبع في قصره في كيوتو ، لا يأتي عمـلاً . وكان يحيط بسدنة البلاط من آل توكوغاؤوا او الشوغون ، في عاصمتهم يادو (توكيو)، حاشية ألّفت بلاطاً زاهياً ، حكموا البلاد باسم الامبراطور وجمعوا في قبضة ايديهم ملء السلطة الفعلية ، يتصرفون بالجانب الاكبر من التوابع المرتبطين بهم بالولاء : مـن اشراف وبارونات ومساموراي وفرسان . هنالك ١٥٠ اسرة من نبلاء الفوداي *Fudai* اصحـــاب الامتيازات تتوارث ، أباً عن جد الوظائف العامة في البلاد ، مكافأة لها ، في شخص جدودها، لمناصرتهم توكوغاؤوا والوقوف الى جانبهم ، واخلاصهم لهم الخدمة . وكان في وسع التوكوغاؤوا ان يعتمدوا الى حد بعيد ، على ولاء ٥٠٠٠ فارس من الفرسان *Bannaret* ، وعلى ١٥٠٠٠ من رجال الحرب المدججين بالسلاح. وقد أبعد عن الحكم هؤلاء النبلاء من بطون توزاما الذين سبق لاجدادهم ان وقفوا موقفاً معادياً من توكوغاؤوا، الا انهم كانوا ينعمون باستقلالهم الاداري في اقطاعاتهم الواسعة ، هذه الاقطاعات التي لم يكن للشوغون ان يتدخل بأمورها مباشرة طالمـا ان الامن مستتب وليس ما يعكر الطمأنينة والاستقرار . وكان لبعض هـذه الأسر كالشيمادزو والداتا والمايدا اطيان طائلة يعمل في تابعيتهم عدد كبير من النبلاء والساموراي بحيث تؤلف الواحدة قوة مهيبة الجانب .

وكان النبلاء والساموراي يؤلفون طبقة عسكرية . الا ان معظم افراد هذه الطبقـــة لم يكونوا ليعملوا شيئاً يذكر ، اذ كان محظوراً عليهم ، باسم الشوغون ، ان يقومـوا بأي نشاط غير النشاط العسكري والدرس. وكان يؤمن أود معيشتهم طبقة بائسة من المزارعين والفلاحين، ترزح تحت عوائد ورسوم من الارز تفرضها عليهم طبقة النبلاء ، لا يبقى لهم بعد تأدية مايترتب عليهم تقديمه ، ما يسدّ رمقهم او يكاد. وقد قامت في المدن نقابات من اصحاب الحرف والتجار (*Chenins*) تؤمن للبلاط ولسكان الريف المصنوعات التي هم بحاجة اليها في معايشهم .

وقد أخذ هذا النظام الاجتماعي بالتفسخ والانحلال للعزلة التي كانت فيها اليابان . وكان عدد السكان قد ارتفع كثيراً في ايام السلم ، اذ تراوح سنة ١٧٢٦ ، بين ٢٨ – ٣٠ مليون نسمة

وهو رقم وقف عند هذا الحد دون ان يتعداه حتى سنة ١٨٥٠ ، بعد ان ادرك الانتـــاج ، في البلاد ، حدّ الكفاية . فاليابان بلاد جبلية الطابع ، لا يستثمر المزارعون منهـــا سوى سبع مساحتها ، واليابانيون كالصينيين لم يكونوا يحسنون سوى استغلال السهول واستثمارها . وكان يخشى ان يتجاوز السكان بعيداً طاقة البلاد الانتاجية ، اذ ان الجفاف والمحباس المطر طويلا او وفرته احياناً ، من شأنه ان يسبب المجاعة في البلاد التي كثيراً ما قاست من هول المجاعة بـــين ١٧٠٢ — ١٧٩١ ، فتضرست باثنتي عشرة سنة من السنين العجاف ، زادها إيلامـــا وشدة ، الرسوم الجركية في الداخل التي كانت تحول دون انتقال الارز من الاقضية التي ترتع ببحبوحة الى تلك التي تعاني من الجوع ويتضور اهلها منه . وكثيراً ما كانت هذه المجاعات تجر وراءهـــا الاوبئة والثورات وتتسبب في حرب الفلاحين وفي خراب رجال الحرب ولذا راحـوا يهبطون المدن طلباً للرزق . وكان لا بد من شراء الارز من الخارج فيقايضون به المواد المصنوعـة في البلاد . ولكن أنى ذلك والقوانين المرعية تحول دونه ؟

والسبب الآخر هو سلوك طائفة الشونين وتصرفاتهم . فقد قام هؤلاء التجار وسيطاً بـــين النبلاء والتجار الهولنديين في دشيما، وبين الفلاحين والصناعيين. فكانوا يحددون اسعار الحاجيات على هواهم : يشترون رخيصاً ويبيعون غالياً ، وبذلك يتسببون بخراب هؤلاء واولئـــك على السواء . وهكذا راحوا يؤلفون ، شيئاً فشيئاً ، طبقة جديدة من البورجوازيين الرأسماليين، يشترون من النبلاء أقطانهم كما يشترون ألقاب الساموراي . فالشيء الوحيد الذي يحـــد من مضارباتهم ويضع حداً لتعسفاتهم وتحكمهم هو سياسة تبيح الاستيراد الحر وتطلـــق المنافسة بين التجار .

والفلاحون الذين ارزحتهم الضرائب والرسوم المفروضة وارتفاع اسعار الحاجيات المصنوعة، وبخس ثمن الارز الذي يبيعونه ، اخذوا يهجرون الريف للمدن ويدخلون في خدمـة المنازل ، او يهيمون على وجوههم . وبعد ان تقفر مقاطعات برمتها من السكان تعجز عن دفع ما يترتب عليها من رسوم . والفلاحون الذين يبقون في منازلهم يعجزون عن تربية اولادهم ، ولذا راحوا يقتلون اطفالهم او تعمل النساء على الاجهاض بالرغم من القانون . ولكي يؤمن اصحاب الارض الايدي العاملة الاخذة بالتناقص ، راحوا يشترون اولاداً ناشئين بعد ان يجرى خطفهم من المدن على يد اناس مختصين مدربين على ذلك . وهؤلاء النبلاء الذين كانوا يعيشون في البلاط او يملكون اخاذات صغيرة لا تفي بأودهم لم يلبثوا ان اصبحوا مدينين لدى التجار . وكانوا يستمرون على هذا النهج من الحياة بعد ان ينشئوا في املاكهم صناعات للحياكة ، وبتخفيض كميـــة الارز المخصصة لرجال الحرب التابعين لهم . وكان بعضهم يضطر ، بعد ان يغرقـــوا في الدين ، لبيع املاكهم من هؤلاء التجار .

وكان عدد كبير من رجال الحرب يذهبون فريسة الفـــاقة والعوز ، فيفقدون كل شعور

بالكرامة التي يحملون ، كـــما يفقدون كل حس بنبل المحتد الذي ينحدرون منه فيتخففون من عبء بعض بنيهم بالتخلص منهم . وكانوا يعفون من خدمتهم لهم الاتباع الذين توارثوهم ابـاً عن جد ، لقاء بعض المال يدفعونه لهم نقداً . وكثيراً ما تبنوا ابناء بورجوازيين اغنيـاء يعطونهم اسماءهم وينقلون اليهم الامتيازات التي ينعمون بها ، مقابل مبلغ محترم من المـال ، ثم يهجرون اسيادهم ويهبطون الى المدينة ويصبحون ساموراي مشردين بعضهم ينصرف للتجارة بينما يصبح معظمهم من شذاذ الآفاق ، او ممثلين مسرحيين او مغنين او قطاعي طرق .

وكانت الطبقات الاجتماعية تتداخل فيما بينها وتتشابك بصورة يصعب حلهـا . ففي مجتمع يبدو مستقبله غامضاً ويسارع كل افراده للتمتع بمباهج الحياة ولذاذاتها، فالمضاربون الذين حالفهم الحظ وبسم لهم القدر ، والمشردون المغمورون بين الجمـــاهير الذين يسعون للكسب من كل جوارحهم : هؤلاء عن طريق ثروة هبطت عليهم من حيث لا يدرون ، واولئـــك عن طريق غنيمة باردة او صيدة من غير صائد ، او لينعموا بسانحة بسمت لهم بين الاشواك ، كل ذلـك التف مادة استفادت منها بائعات اللذة في هذه الاحياء الخاصة القائمة في المـدن الكبرى المكتظة بالسكان . فدور البغاء اصبحت مؤسسات رسمية معترف بهـــا . والفن الوطني او القومي نفسه تتزى بهذا « الزبد الطافي فوق المجتمع» . فالنو *No* ، هذا الفن الغنائي الذي يمور بالرمزية والذي تكفيه اللمحة الشاردة دون الايماءة المغرية ، قد انحط امام الدراما الشعبية الصاخبة العـــاتية . فالصورة الخشبية ، *Estampe* اكبر فنون اليابان وابرزها طراً ، تبرز لنا ، حتى درجة الارهاق، مشاهد حياة البغايا ، وما هن عليه من بذخ صارخ ، ومواقفهن المصطنعة التي توحي لنا هـــذا الاحتشام الكاذب والخفر الحيي ، وهذه العـاطفة المشبوبة المنكمشة او المتحفظة . فهاروتوبو (١٧١٨ – ١٧٨٠) الذي كان اول من اخترع الطباعة المتعددة الألوان الكاملة ، واوتومارو (١٧٥٣ – ١٨٠٦) لم يصورا لنـا غير البغايا . وتسيونوبو (١٧١١ – ١٧٨٥) وكيومتسو (١٧٣٥ – ١٧٨٥) وكيولوروا (١٧٣٨ – ١٧٦٥) وكوريوساي ، وكيونوغا (١٧٤٢ – ١٨١٥) الذي بلغ فن الاستامب على يدهم الذروة ، صوّروا بالأكثر بغايا . وهكذا أخـذ الفن يروّج لتذوق هذه اللذائـذ التي تحرك الشهوات وتهيـج الاعصاب ، وتسهم في افساد الاخلاق والآداب ، فتزيد من آلام المجتمع واوصابه .

وقد أسقـط في ايـدي الشوغون يانوبو (١٧٠٩ – ١٧١٣) ويوشيمون ، وجيناري ، ولم يستطيعوا شيئاً امام هذا الوضع المستحكم الحلقات . فقـــد حاولوا معالجة الاعراض والظواهر دون البحث عن اسباب المرض الحقيقية ، وحاولوا ان يزيدوا من نفـوذ الكونفوشية ، سياج الاخلاق الحميدة والمدافعة الأولى في البلاد عن الانضباط وحسن النظام . واتخذوا مستشارين لهم فلاسفة وحكماء متعمقين في الكونفوشية امثـال هاراي هاكوسيكي (١٦٥٦ – ١٧٢٦) وموروكيوسو (١٦٥٨ – ١٧٣٤) ، ومتسودايرا سادانوبو (منذ عام ١٧٨٦) . بذل هؤلاء المستشارون جهوداً طيبة لاصدار القرارات الرادعة ، ضد حب المال وسطوته ، وضد انحطاط

الاخلاق بين طبقة الساموراي (١٧١٠) وضد المزارعين الذين هجروا الارض واوجبوا عليهم الرجوع اليها والعمل فيها ، ومنع الفلاحين من هجر اراضيهم (عددهم وافر جداً) ، والحد من البذخ والاسراف وتحديد الايام التي يسمح لهم فيها بتناول الارز ، واجبار النساء على ترتيب زينتهن بانفسهن ، وانشاء جوائز ومكافآت لمن يحافظن على طهارتهن او تقواهن ، والالغاء الدوري لديون الساموراي . كل هذه الاجراءات والتدابير الاحترازية لم تحدث اية تحسين ، وبقيت دونما اثر . وكان الوضع يزداد سوءاً يوماً بعد يوم . واستبدت المجاعة بالبلاد على اثر الجفاف والفيضانات التي نزلت بالبلاد بين ١٧٨٣–١٧٨٨ . فالهر والفأر قنص طيب يرغب فيه جيداً . وراح اليابانيون يأكلون جيف الموتى ، ويجهزون على المحتضرين ، ويكبسون لحم الآدميين ليحتفظوا به اطول مدة ممكنة . وقد امتنعت السلطات عن ملاحقة السرقة والمتسببين بالحرائق .

كل هذه الامور نغصت عيش النبلاء والساموراي وابناء التجار المثقفين ، بعد ان هالهم ما رأوه من قدرة الاوروبيين وسطوهم وبعد تأثيرهم . وقد اخذ الهولنديون يستوردون الساعات والمجاهر والفانوس السحري ، وقنينة ليدن ، وميزان الحرارة وميزان ثقل الجو وقد سمح الشوغون مورو كيوسو ، باستيراد الكتب الاجنبية باستثناء الكتب التي تبحث في الدين المسيحي . ووضع احد الكونفوشيين يعمل موظفاً رسمياً اسمه اوكي يونزو عام ١٧٤٥ ، لحساب الحكومة ، معجما هولندياً يابانياً . وقام بعض الخاصة امثال ريوتاكو وسوجيتا يتعلمان اللغة الهولندية ، واشتروا عام ١٧٧١ ، كتاباً في علم التشريح يضم الواحاً علمية واقتنعوا عن طريق علم التشريح بأن الحق الى جانب الاوروبيين ضد الصينيين . وعملوا عام ١٧٧٤ ، على نشر الكتاب الآنف الذكر مترجماً الى اليابانية . وقد ادخل سوجيتا ، بعد ذلك ، طريقة العالم النباتي «لينيه» . وقد بقي روتاكو يبحث حتى اجله الاخير (١٧٨١) ليكوّن له فكرة عن وضع اوروبا . وقام هيروغا جناي (١٧٣٢ — ١٧٧٩) بابحاث حول النباتات الطبية ، وصنع اجهزة كهربائية وأصبح تاريخ اوروبا وجغرافيتها ، موضوع اهتمام الجميع . واستقر في خلد الجميع ان ليس باستطاعة اليابان قط الصمود في وجه هجوم يقوم به الاوروبيون ضدها . وراح سيهاي هاياشي ينبه الناس الى الخطر الكائن على اليابان من تقدم الروس ، ومن مجاورتهم لهم ، وابرازه بأنه الخطر الذي يهدد القومية اليابانية بأسوأ مصير . وراح الشباب يلتف حول هؤلاء الرجال بعد ان قلقت خواطرهم وتاقوا جداً الى ان تستورد بلادهم العلوم والادارة وسياسة الغرب ، كذلك اخذ الجميع يكره حكم توكوغاؤوا وادارتهم . فالشك الذي قوبل به نظام حكم الشوغون والكونفوشية الرسمية حمل بعض الفلاسفة اليابانيين على نبش مدونات تاريخ اليابان القديم ودرسها . واخذوا يعون ، اكثر فأكثر ، مدى القول بأن الامبراطور هو ابن الشمس الاله الأسمى والأعلى . وراحوا يعلنون على رؤوس الاشهاد بأن الشوغون هو مرسل بسيط من قبل العرش وان الولاء للعرش هو اسمى بكثير ، وفوق الولاء لسيد إقطاعي . وفي الوقت ذاته كشف اليابانيون

عن قوة جديدة في نظريات الفيلسوف الصيني القـــديم وانغ - يانغ - منغ وتعاليمه (او - يوماي) وهذا الفيلسوف الكونفوشي المنشق يوحي بتهذيب الشخصية عن طريق التمعن بالحقائق الداخلية ، فحصها وترويض النفس عليهـــا . ويشجب الاعتماد على ظاهر الكلمات المكتوبة . فساعد بذلك اليابانيين على تحرير ذواتهم من نـير تقاليد التوكوغاؤوا . وطلع من بين تلاميذه عدد كبير من دعاة الاصلاح في القرن التاسع عشر .

راحت انظـــار المستائين من ادارة التوكوغاؤوا وحكمهم ، والواقفين الى جانب الميكادو تتجه ، اكثر فأكثر الى بعض كبار النبلاء من امثـــال توزاما ومساتسوما والموري والتوزا والهيزن الذين عرفوا ان يبقوا بعيداً عن مؤثرات البلاط، ان يقتصدوا وان يستثمروا إقطاعاتهم على الوجـــه الامثل وينظموها وحدات مستقلة اقتصادياً . فأوجدوا بعض الصناعات لهم وللمزارعين العاملين في خدمتهم ، وأولوا التجارة اهتمامهم الاكبر وراحوا يدافعون عن رجالهم ويحمونهم من جشع التجار المرابين ، ويحافظون على هذه المناقب الاجتماعية القديمة ويعتصمون بها . واذ كانوا حذقوا فن القيادة باعتبارهم زعماء القوم ، وبرهنوا عن كفـاءة ادارية عظيمة راحوا ينتظرون بهدوء الوقت المناسب والفرصة المؤاتية .

فمنذ اواخر القرن الثـامن عشر اخذت تتهيأ في اليابان ، هذه الحركة الكبرى التي ادت الى ثورة ١٨٦٨ ، كما ادت الى بعث اليابان وطلوع نهضتها الحديثة .

الفصل الرابع

افـــريقيـــا

كانت افريقيا تعيش في عزلة شبه مغلقة . فقد قام في الشمال من هذه القارة مجتمعـــات اسلامية ، امتدت حلقاتها من البحر الاحمر حتى شواطىء المحيـــط الاطلسي ، اولت ولاءها السلطنة العثمانية . وانعزلت مثلها عن آسيا محاولة دفع الكـُفـَرَة عنها . وفي ما عدا ذلك، حواجز تألفت من شواطىء قليلة التقاطيع بيئتها واطية ، منخفضة ، رملية هنا ، او تغشاها المستنقعات والغياض ، هنالك ، ونواتىء طبيعية تبرز على الخط الدائري . ومساحات شاسعة تفترشهـــا الاحراج والغابات والغدران والرمـــال المحرقة ، واقوام من الـزنج فُزعة ، ألف بعضها القسوة والفظاظة، والبعض الآخر حربي الطابع من أكـَلـَة لحم البشر تعتمل فيه فكرة الاستعمار التجاري والاستغلال ، بحيث ان كل شيء كان يحول ، في هذه القارة المترامية الاطراف ، دون التوغـل والانسياح في ارجائها . فلما ابتعد الاوروبيون في القرن الثامن عشر عن بعض المراكز التجارية التي نثروا حباتها على الساحل الافريقي . اذ ان البرتغاليين الذين كانوا تسربوا الى بعض المناطق الداخلية ، واوغلوا فيها ، خلال القرون الماضية ، والذين احتفظوا لانفسهم بسرية الاكتشافات الجغرافية والبشرية التي توصلوا اليها عبر الاجيال ، قطعاً منهم لاثارة الشهوات واهاجة الرغائب بين المنافسين ، والذين لم يكن يهمهم غير التجارة وتأمين الارباح الطائلة ، كانـــوا قد تناسوا بعض ما تمّ لهم من علم ومعرفة عن هذه البلدان . وكان يشار الى داخل هذه القارة، في أدق المصورات الجغرافية التي تعود لتلك الحقب التاريخية ، بلون ابيض او بخطوط تشير الى حـــدود اعتباطية فيبدو منها وكأن نهر النيجر مثلاً ، يخرج من بحيرة تشاد ليتصل سيره فيما بعد بالسنغال، كما تبدو بحيرة تشاد وكأنها احدى منابع النيل، وكأن عدة انهر قوية تجتاز الصحراء الكبرى في اتجاهات عديدة ، كما يبرز حيناً فيل شارد يهيم على وجهه فوق الربى والتلال . والحضارات القائمة في هذه الاقطار ، الجاهلة لاصول الكتابة في ادنى صورها ، والعاجزة عن الاحتفاظ بمدوناتها البدائية ، تكوّن السواد الاكبر مما تقع عليه العين من انماط متغابرة ، باستثناء بعض المعلومات التي توفرت على جمعها المراكز الاوروبية القائمة على الشواطىء الافريقية . فالمستندات الوحيدة المتوفرة، تتألف من هذه الابحاث والكتب التي وضعها الكتاب العرب، حول افريقيا الشمالية ، وحول بلاد الزنج التي قامت بينها وبين العرب والبربر ، بعض العلائق عبر التاريخ .

هذه الحضارات الافريقية نراها كلها آخـــذة بالانحطاط في القرن الثامن عشر .

مصـــر

فالبلدان الافريقية الواقعـــة الى الشمال تشارك السلطنة العثمانية ، انحطاطها وتقهقرها . وعند النقطة التي تلتقي فيها آسيا بافريقيا ، في هذه الزاوية التي يتلاقى عندها العالم الشرقي بعالم البحر الابيض المتوسط ، تقـــوم مصر ، التي نظرت اليها القسطنطينية نظرتها الى ولاية من ولاياتهـــا . وكان السلطان العثماني يعين عليها والـــياً او باشا يستبدله بغيره مع انتهاء العام . ويأتمر بامر الوالي ٢٤ نائباً يحمل كل واحد منهم لقب بك ، لهم ٣٧ وكيلاً ، وتحت امرة الوالي خمسة طوابير من الخيالة ، بينهم ثلاثـــة من الصباحيين واثنان من المشاة ، وواحد من الانكشارية ، وواحد من العُزب ، يقوم على امرتها آغاوات او زعماء ، ولكل آغـــا نائب . على الباشا ان يؤمن النظام في البلاد ، وان يقيم العدل بالسواء بين الرعية ، كما يترتب عليه جباية الرسوم والضرائب ، على اشكالها : كضريبة الاملاك ، وضريبة الاعناق المفروضة على الذميين من نصارى ويهود . فاذا كانت الرسوم المفروضة عيناً على الاطيان والاراضي التي يردفها النيل بالخصب والثراء تؤمن دخلاً طيباً ، فالجمارك من جهتها ، امنت هي الاخرى ، مردوداً عالياً . فقد كانت السفن العربية ترد السويس ومرفأ القصير قادمة من صورات ، في الهند محملة بالموسلين والاقمشة الهندية والقهوة العربية ، كما كانت تصل اسيوط قادمة من دارفور ، ناقلة العاج وقرن وحيد القرن ، وخشب الابنوس وريش النعـــام ، بينما كانت الاسكندرية تستقبل الاجواخ والخرداوات المختلفة تصدرها الى مرسيليا وليغورنو . فاينما وقع منك النظر في هـــذه المدن والموانىء ، رأيت سوقاً للرق والعبيد يؤتى بهم من السودان ، او سوقاً آخر للارقاء البيض يؤتى بهم من القوقاس وكان من مألوف العادة ان يرسل الوالي الى الاستانة ، كل سنة ٦٠٠ ٠٠٠ قرش من الخراج ، وعدداً من الجند .

اخذت هذه الولاية تعيش في شبه عزلة بعد ان راحت فريسة انحلال النظام الاقطاعي ، حيث غامت كل سلطة للسلطان فيها . وراح البيكوات المماليك فيها يعملون على شراء ارقـــاء من البيض ، يجعلون لهم منهم فرسانا عرفوا بالمماليك الذين شدتهم الى اسيادهم ، رابطـــة الولاء والاخلاص أو ما يشبه رابطة البنوة . وقد جرت العادة في البلاد على ان ينعم اقوى البيكوات بلقب بك ، على احد مماليكه المصطفى فلا يعتم هذا الاخير حتى يسارع بدوره الى شراء ارقاء له من بلاد الكرج او من بلاد الشركس يقيم له منهم مماليك يقومون على خدمته . يختار من بينهم كالمعتاد بيكوات . وهكذا نرى ان جمهرة من العبيد والارقاء يتولون اكبر الوظائف الادارية واهمها في البلاد .

واخذ الجند بدورهم يختارون هم انفسهم ، آغواتهم لمدة سنة ، حتى اذا ما انقضت انضم الاغا الخارج الى مجلس الآغوات الذي يقوم على ادارة الفرقة ويختار اعضاءها .

ولم يلبث هؤلاء الجند ان استقلوا عن ســـلطة الباشا لا يعرفون رئيساً لهم غير زعيمهم ، فيأخذون بابتزاز الفلاحين وامتصاص التجار . وكان الباشا يبيعهم او يضع تحت تصرفهم ضياعاً بكاملها يستغلونها حتى ان بعض البيكوات تم له من ٢٠٠ الى ٤٠٠ عزبة او مزرعة ، اذ كان

يحتفظ في كل ضيعة من هذه الضياع بعزبة يكل امر العناية بها لفلاحين ومزارعين يسخرهم لهذا العمل . وكان يفرض عليهم الرسوم ، والضرائب على الاراضي والاملاك ، يعهد بجبايتها الى مأمورين يختارهم من بين موظفين نصارى من الاقباط ، حذقوا اسرار مسح الاراضي كما حذقوا القضايا المالية . وكان يحتفظ بقسم من هذه الرسوم ويرسل الباقي للوالي . وكان باستطاعة هؤلاء الآغوات والمماليك ان يوصوا ، شرعاً باملاكهم لاولادهم . فبعد ان الف المماليك جيشاً مرابطاً في البلاد يستغلها كما يشاء ، راحوا بوصفهم ورثة هذ القبائل البدوية التي تم الفتح على يدها ، يردون عن البلاد هجمات البدو في عهدهم .

وكان الباشوات والآغوات يتجاذبون اطراف السلطة فيما بينهم ، يستخدمون في سبيل الاستئثار بها الدسائس والمؤامرات والاشتباكات الدامية ولا يتورعون قط عن القتل طعناً بالخناجر او السم المدسوس . وقد يشره طاغية جبار من بينهم للسلطة ويحاول فرض سطوته على الجميع . من اشهر هؤلاء البيكوات علي بك (١٧٥٥ – ١٧٧٢) احد هؤلاء المماليك الذين سبقوا محمد علي الى الاستئثار بالحكم ، والذي ادرك ما عليه الاوروبيون من قوة البأس والشكيمة ، فحاول ان يحصل من فرنسا ما هو بحاجة اليه من المدافع ، كما حاول ان يفرض سيطرته على السودان الى الجنوب من مصر ، وعلى سوريا والحجاز ويؤمن لمصر استقلالها الناجز ، كما انقطع منذ عام ١٧٦٨ ، عن استقبال اي باشا ترسله الاستانة ، وامتنع عن ارسال الخراج اليها ، وضرب العملة باسمه . وبعد ان اخذ يدس لرفاقه ويعاملهم بكل قسوة مات مكروهاً من الجميع الا من افراد الشعب الذي امّن له ، بالحديد والدم والنار ، النظام والعدل . وقد كانت البلاد في معظم الاحوال ترسف في الفوضى المخزية ، بالرغم من محاولة فاشلة قام بها الاتراك لاعادة سيطرة السلطان على البلاد من جديد (١٨٨٧ – ١٧٨٩) .

والعدد الضئيل من الاوروبيين الذين سكنوا مصر ، اذ ذاك ، كان يمثل بعض البيوتات التجارية معظمهم من الفرنسيين الذين لم يكن عددهم يتجاوز الثلاثين ، يأتون مصر باذن خاص من غرفة تجارة مرسيليا ، فألفوا من بينهم «أمّة» لها منظماتها وهيآتها الرسمية يرأسها قنصل . وكان القنصل موظفاً يجري تعيينه من قبل الملك ، يساعده ترجمان خاص تخرج من مدرسة اللغات الشرقية التي تأسست في باريس ، عام ١٧٢١ ، وقامت ضمن كلية لويس الكبير ، فيها . وقد كان بعضهم امثال «له غران» الذي كان استاذاً لسلفستردي سياسي ، وكاردون وديجون من كبار علماء المشرقيات الذين ساهموا باغناء المكتبة الملكية بما اهدوها من كتب ومخطوطات شرقية ، تركية وعربية . وقد نال الفرنسيون تخفيضاً لرسوم الجمرك عن بعض السلع التي يستوردونها بمعدل تراوح بين ٢٠و٣٪ على الاجواخ الجيدة ، منافسة منهم للاجواخ الانكليزية . وفي سنة ١٧٥٢ ، مات آخر تاجر انكليزي في مصر ، كما ألغيت القنصلية الانكليزية فيها .

ولم يكن يسمح للاوروبيين بالاقامة . وكان عليهم ان ينزلوا ارضاً عن ضفة جيادهم

عند مصادفتهم مرور الآغا او الوالي في الطريق ، وكثيراً مـا كانوا عرضة للاهانات والضرب وابتزاز المال .

ان انشاء امبراطورية في الهند جعل اهمية خاصة لطريق السويس وهي طريق اخصر بكثير من طريق رأس الرجـــاء الصالح . الا ان البحر الاحمر الذي تقوم على سواحله الشرقية مدن الاسلام المقدسة كان محظوراً دخوله على الكفار . الا ان الضعف الذي اعترى السلطنة العثمانية سهل الاتصال مباشرة مع سيد مصر الموقّت . ففي سنة ١٧٧٥ ، نال وورن هاستنغز ، الترخيص للسفن الانكليزية بالدخول الى مرفأ السويس . وفي سنة ١٧٨٦ عاد الانكليز فانشأوا لهم قنصلية في القاهرة ، ومنذ ذلك الحين اخذ الضباط الانكليز والموظفون والتجار منهم يعتمدون السويس في طريقهم الى الهند ، عبر الصحراء والاسكندرية والبحر الابيض المتوسط ، والعكس بالعكس . ونال الفرنسيون مثل هذه الامتيازات ، عام ١٧٨٥ .

هذه البلاد الغنية ، مصر ، التي تعود التجارة فيها بارباح مغرية على القائمين بها والتي تقع وسطاً بين عالمين وكانت في ولاتها تابعة لسلطان ضعيف مستضعف ، كانت تثير الرغائب والمجازفـات في قلوب من يرنون اليها باشتهاء . فقد رأى شوازول في احتلال فرنسا لمصر ، خير عوض لهـا عن خسارتها وفقدانها لكل من كندا والهند ، فراح سنة ١٧٨٤ يشرح في شانتلو ويبين افكاره وآراءه ويؤيد نظرياته امام تاليران الذي كان وزيراً للخارجية ، في حكومـة الديركتوار . وعُرضت قضية احتـــلال مصر عدة مرات لفرجين . وانشأت الأمبراطورة كاترين الثانية قنصلية لها في الاسكندرية لتدفـع بالبيكاوات والآغوات الى التحرر من ربقة السلطان بوضع انفسهم تحت حمايتها . وستلعب مصر ، عما قريب ، دوراً رئيسياً في المسألة الشرقية .

تونس

كلما اوغل المرء سيراً باتجاه الغرب كلما شعر بضعف الولاء وضعف تابعية شعوبها لتركيا . فقد سبق وقام في تونس دولة جديدة عقب منـاداة الآغوات منها بالحسين باي عليها (١٧١٠) وتوارث الحكم والخلافة بعده ابناؤه . واغتنم سكان الجزائر حدوث أزمة حكـم في البـلاد ، فاستولوا على تونس وفرضوا على الباي ضريبة فادحـة (١٧٥٦) ، الا انه تمكن ، عـام ١٧٩٠ ، من الغاء علاقـات الولاء والتابعية التي شدته لداي الجزائر . واثرى هؤلاء الحكـام بفضل الاحتكارات التجارية التي انشأوها . وقـد اثارت ادعاءاتهم المجانية وتعديات القراصنة الذين خرجوا عن طاعتهم ، صعوبات مع الاوروبيين كسكان البندقية والاسبان والفرنسيين (تدخل الاسطول الفرنسي في الـ *Goulette* ، عام ١٧٨٤/١٧٨٥) ونال الفرنسيون من علي بك (١٧٥٩ – ١٧٨٢) امتيازاً خولهم احتكار صيد المرجان وإنشاء وكالة تجارية لهم في بنزرت ، واربعة مراكز تجارية اخرى حـول رأس عنابة *Cap Bon* وبزت الحركة التجارية الفرنسية في عهـــد خلفـــه الباي حموده (١٧٨٢ – ١٨١٤) نشاطات كل البلدان الاخرى .

الجزائر

كانت الجزائر خاضعة لحكم الداي الذي يجري انتخابه غادةً ، من قبل ضباط فرقة الإنكشارية . فمن اصل ٣٠ دايا تعاقبوا على حكم البلاد ، بين ١٦٧١ – ١٨١٨ ، جاء ١٤ حاكماً منهم الى الحكم إثر انقلابات عسكرية كانت تؤدي الى قتل الحاكم العام . ولعل اكثر الصناعات رواجاً في الجزائر واوفرها رِفْداً ودخلاً هي القرصنة اذ يقوم القرصان بمهاجمة السفن التجارية واخذ مَن وما فيها من انس ومال ، والاعتداء على المسيحيين الساكنين على السواحل البحرية . الا ان تطور صناعة السفن واساطيل الحربية لدى الاوروبيين ، خلال هذا القرن ، والرحلات التفتيشية التي اخذت تقوم بها هذه الاساطيل ، حدّت كثيراً من هجمات القرصان . دخل الداي في مفاوضات مع الدول الاوروبية التي رضيت تفادياً منها لتعديات القرصان ، ان تدفع له ، رسماً سنوياً معيناً بشرط ان تكون في مأمن من هجماتهم وتعدياتهم ومضايقاتهم ، وما عتم ان اهمل هؤلاء القرصان مهنة لم تَعُد لتدرّ على القائمين بها مدخولاً طيباً . وهكذا هبطت قوة الاسطول الجزائري من ٢٤ سفينة عام ١٧٢٤ ، الى ١٠ سفن عام ١٧٨٨ . كذلك ضعف النشاط الزراعي فيها وتردّت الاعمال الزراعية من جراء الجفاف الذي لحق بالبلاد ، ووباء الطاعون الذي تعرّضت له ، كما ان تجارة الاستيراد التي كانت الشركة الفرنسية الافريقية تلعب فيها دوراً بارزاً تقوم به فروعها الثلاثة في لاكال وعنابة وكولو ، قد انحطت هي ايضاً .

وقد راح الداي يشدد ، اكثر فأكثر على استثمار مرافق البلاد ، اذ عهد بالادارة في الملحقات الى بيكوات اتراك لقاء رسوم طائلة يفرضها عليهم فيحملون اليه الضرائب المجباة كل ثلاث سنوات . وكانت إيالة الجزائر تقسم ادارياً الى عدة اقضية ، يعهد بامور الادارة فيها الى موظفين من الترك . وكان الحكام الاداريون يصدرون تعليماتهم لرؤساء القبائل وشيوخها الذين كانوا يتحكمون بدورهم ، بالقرى او الدوار . وتُركت للقبائل الحرية بالمحافظة على عاداتها وتقاليدها المرعية ، اذ كل ما اراده الداي منهم هو دفع الضرائب والرسوم المترتبة . اما قبائل المخزن فكانت تتمتع بالاعفاء من الضرائب وتعمل على تحصيلها من القبائل الموالية . ولم تكن سلطة الداي الفعلية لتتعدى سدس مساحة البلاد . وكانت جمهوريات القبيل والقبائل الرحل التي تسكن المرتفعات والجنوب ، والامارات العسكرية امثال توغورت ، او الديلية ، كعين مهدي مثلاً ، لم يشدها الى الداي سوى وشائج غامضة من التابعية والولاء ، تضعف دوماً مع الانقلابات والانتفاضات .

واسبانيا التي اضطرت لاخلاء وهران والمرسى الكبير أمداً من الزمن ، عادت الى احتلالها ، عام ١٧٣٢ . غير ان الاسبان فشلوا في انشاء قاعدة قوية لهم ، وكانوا يعولون بالاحرى ، على وطنهم الأم ، لتأمين اسباب عيشهم . وفي سنة ١٧٩٠ ، حدثت هزة ارضية هدمت مدينة وهران مما حمل الاسبان على التخلي عن هذه القاعدة للداي .

المغرب

كان السلطان الشريفي في المغرب يتمتع عملياً باستقلاله التام عن السلطنة العثمانية. ففي مطلع القرن الثامن عشر ، كان حكم السلطان مولاي اسماعيل ، هـذا الطاغية المستبد ذي المزاج الناري، يمتد فوق سلطنة واسعة الأرجاء ، شملت المغرب والسودان.

كان السودان يقـدم للسلطان ما هو بحاجة اليه من قوة عسكرية فيمدّه بجيش من الزنج قوامه ١٥٠،٠٠٠ جندي يخلصون له الخدمة والولاء. وكان هؤلاء الجنود، في الغالب ، متزوجين من زنجيات ، حتى اذا ما انجبن ، شبت ابناؤهم الذكور في مخيمات التدريب وانخرطوا فيما بعد ، في صفوف الجيش . امـا الاناث فينشأن على الاعمال المنزلية ثم يتزوجن . وقام في الاماكن الستراتيجية قصبة يحيط بها سوران ترتفع فيها المستودعات والمساجد وحامية للدفاع عنها . ومن مدينة مكناس ، كان الشريف مولاي اسماعيل يفرض احترامه وطاعته على البلاد اجمع ، بعد ان انزل في قلوب الناس الخوف والرعدة ببطشه واعمال السلب والنهب والابتزاز . فـلم يترك للانكليز سوى مدينـة طنجة ، وللبرتغاليين سوى موزاغان ، وللاسبان سوى مدينتي سبتا ومليلا .

واشتهر السلطان مولاي اسماعيل ببعد النظر ، وعمل على التخفيف من حمـاس الذين عُرفوا بتعصبهم الديني ، وهم فرقة من القرصان يقومون بنشاطاتهم على السواحل البحرية . ويعملون على مطاردة المسيحيين وتعذيبهم . فوضع حـداً لاعمال القرصنة التي انقطع اليها القرصان في صالح وتطوان . وكان من جراء ذلك ، ان نشطت الحركة التجارية وزادت واردات السلطان ، بعد ان فرض على الصادر والوارد رسومـاً بلغت ١٠٪ ، واصبحت مدن صالح وتطوان وصافي واغادير ، مرافىء تجارية ناشطة . واحتلت مدينـة فاس من هذه الامبراطورية القلب . وكان البرتغاليون يفدون على مدينة قادس طلباً للدودة القرمزية والزنجفر من الاسبان ، والاجواخ والاصداف من الغينه التي كانوا يستعملونها نقوداً ويستوردها الانكليز مع الاقمشة ، يتلقون التوابل والاسلحة والاعتـدة الحربية من الهولنديين ، والشب والكبريت من ايطاليا ، والحرير والقطن والزئبق والافيون من بلدان الشرق الادنى ، ويحملون كل هذه الاصناف الى السواحل ، حيث كان المسلمون واليهود يتهافتون على شرائها لمقايضتها مع العرب والسودانيين لقاء مسحوق الذهب والفيل وريش النعام والعاج من السودان ، والتمر من الواحات وقد احتل الانكليز في هذه التجارة المرتبة الاولى .

وبعد وفاة مولاي اسماعيل ، أخذ أولاده من نسائه العديدات ، يتجاذبون الخلافـة كل من جهته ، في هذه الفترة الواقعة بين ١٧٢٧ — ١٧٥٧ . وقد تصرف الجنود الزنج تصرف المستبد . يرفعون الشرفاء الى الحكم ويخلعونهم كما يحلو لهم . واغتنم زعماء القبائل هـذا الوضع لاعلان العصيان والثورة . فأهمل المغـاربة مصير السودان واسقطوه من اهتمامهم فوقع في الفوضى وراح يتخبط فيها .

استطاع مولاي محمد (١٧٥٧ — ١٩٧٠) ان يعيـد الامن والهدوء الى البلاد . الا انـه

تخلى نهائياً عن السودان وارغم البرتغاليين على الانسحاب من مازاغان ، عام ١٧٦٩ ، الا انه باء بالفشل امام مليلا . فبعد ان اعطى الدانيمارك احتكار الاتجـــار مع مدينة اسفي وأغادير (١٧٥١) عقد مع فرنسا معاهدة تجارية عاملها معاملة الدولة الاكثر رعـــاية . وقام منذ ذاك في مدينة الرباط ، قنصل فرنسي ، كما جاء وسكن البلاد عدد من الفرنسيين . وأسس السلطان مدينة موغادور وجعل منها اكبر اسواق المغرب على الاطلاق ، كما اقام احتكاراً للملح. وهكذا عرف المغرب الازدهار دون ان يعيد الى الوجود ، الامبراطورية الافريقية ، مع بقاء البلاد في وضع لا يختلف كثيراً عن وضعها في الاجيال الوسطى .

افريقيا السوداء

كانت افريقيا السوداء التي ألفت سوقاً كبيرة للرق والنخاسة آخـــذة في مجموعها بالانحطاط والقهقرى وهي تقاسي الامرّين من الاتجار بالرقيق . وقد راح تجار الرق من العرب ، يتجهون شمـالاً وشرقاً سائقين امامهم سوق النعاج ، سحائب لا تنقطع من الارقـاء باتجاه مدينة مراكش وطرابلس ، او باتجاه اسيوط والممالك الاسلامية في الصومال وسلطنة زنجبار ، ومنها ينقلون للعمل في الزراعة او في الجيش ، او في حريم السلاطين والامراء ، في افريقيـا الشمالية وآسيا الصغرى . امـا تجار النخاسة من الاوروبيين فكانوا ينشطون للعمل الى الغرب من القارة الافريقية ، انطلاقاً من موريتانيا حتى الكونغو في رقعة شاسعة طولها ٣٥٠٠ كيلومتر . وكانت النخاسة أهم وجوه النشاط التجاري في هـذه الوكالات التجارية الفرنسية القائمة في سان لويس وبودور وغوريا وكازامانس والبريدا بعد ان تتموّن بالرقيق من السنغال ومن المراكز الانكليزية في غمبيا وسيراليون والشاطىء الذهبي . اما خير ارقاء الزنج الذين عُرفوا بقوتهم البدنية وحسن طاعتهم فقد كان يؤتى بهم من جزيرة فرناندو بو الاسبانية ومن الوكالات التجارية الدانيماركية والهولندية ، في منطقة خليج بنين *Bénin* التي ألفت سوقاً طيبة وان كانت محاصيلها وسطى ، واخيراً من الوكالات التجارية البرتغالية العديدة ، في سان بول دي لواندا ، وسان فيليب دي بنغويلا ، على الساحل الغربي ، ومن لورنسو ماركيز وصوفالا ، وكويليمان وموزمبيق على الساحل الشرقي .

واستعمل تجار النخاسة طريقتين : الكتيبة الغـــازية والشراء . فالاولى كانت الطريقة التي عول عليها التجار العرب في زنجبار ، اذ كانوا يفاجئون بكتيبة من الجنـــد حسنة التسليح يصطحبونها معهم ، القرى على حين غرة ويذبحون فيها كل من يحـــاول المقاومة او يسبب لهم ازعاجاً مـــا ، ويستاقون السكان صفوفاً لا نهاية لها ، عبيداً وارقاء . فيلاقى عدد كبير منهم حتفهم في الطريق . وكان الهلع يسمر الخوف في قلوب السكان حتى من كان منهم في مناطق البحيرات الافريقية ، ويتعرض الريف لعملية منظمة من السلب والنهب ، ويروح الزنوج فريسة البؤس والخوف ويدب التفسخ والانحلال في المجتمعات الزنجية . ونهج الطريقة نفسها الخلاسيون البرتغاليون *Pombeiros* الذين عرفوا بالقسوة والفظاظة وفساد الاخـــلاق محتذين حذو التجار

العرب . اما الطريقة الثانية ، وهي التي اعتمدها بالاكثر الاوروبيون ، واحياناً تجار النخاسة من العرب ، فقامت على شراء الارقاء من بعض الزعماء على اساس من المقايضات تستدعي احياناً ستة اشهر من المفاوضات والمداولات . كان من نتائجها بيع اكثر من ١٠٠ ٠٠٠ اسير زنجي ، في السنة .

وقد تركت تجارة الرق اثرها البعيد ، داخل القارة الافريقية . هنالك زعماء كثيرون اشعلوا الحرب ونفخوا في اوارها ، تأميناً لحاجتهم من الارقاء . وقد راح العرب والاوروبيون على السواء ، يحرضون الملوك والامراء والزعماء المحليين بعضهم على بعض فيقتتلون فيذهب الفريق المغلوب على امره اسرى يقودونهم الى الموانىء الساحلية ، في صفوف طويلة . ولذا قامت الحرب بينهم باستمرار ، والف الرق عند اصحابه عملية اختيار بالمعكوس . فينقل النخاسون بعيداً من افريقيا السوداء ، الفتيان الاشداء يعملون في الزراعة ، والزنجيات الجميلات للاخصاب والنسل ، والاولاد الصغار للعمل والخدمة في المنازل . وهكذا كانت افريقيا تفقد خير سكانها وتنزف دونما انقطاع ، دمها المتجدد . والذين يستبقون في مجاهل الارض يعيشون تحت رحمة شريعة الغاب ، حيث الحق للقوي ، وحيث يطلع الصباح عن مصير مجهول ، وعن غد يطوّح بهم الى البراري ، او يعرض مقتنياتهم لغزو لا يرحم من السلب والنهب ، ومنازلهم للحريق والابادة ، فيجدون انفسهم مشردين تترصدهم يد الموت ، واحياناً اذا ما اسعف الحظ وافتر القدر عن بسمة الرضى ، امام مقصف ينقطع اليه الاوروبيون في القرن التاسع عشر حتى اذا ما خمر هؤلاء واولئك ، راحوا فريسة عملية فتح لا تبقي ولا تذر .

اما الى اقصى الجنوب في القبارة السوداء ، فالشركة الهولندية لم تكترث بمدينة الراس الا باعتبارها الاسكلة الرئيسية على طريق الهند . هنالك مزارعون هولنديون انضم اليهم بعض اللاجئين من بروتستانت الفرنسيين ، جلوا عن بلادهم هرباً من الاضطهاد الديني رأوا اعمالهم الزراعية في السهول الطيبة التربة تجود وتزدهر ، اربى عددهم على ٢٠ ٠٠٠ . فمن عاش منهم على مقربة من الساحل جاء عيشهم رغيداً على النمط الاوروبي . اما الذين نهضوا منهم للعمل في مشاريع استثمارية داخل البلاد ، فقد عاشوا عيش الآباء الاقدمين . فقد كانوا كلفنيين متعصبين ، يطالعون باستمرار الكتاب المقدس ، ويعتقدون اعتقاداً لا يتزحزح ، باسطورة تفوق الجنس الابيض ، وشرعية الرق وقانونيته بعد ان اقرته اسفار العهد القديم ، كما اعتقدوا يقيناً ان الله اضفاء عليهم بارض افريقيا شريطة ان يجتثوا منها الزنوج المشركين كما فعل اليهود باعداء دينهم من عبدة الاصنام ، وتحت تصرفهم يعمل في خدمتهم ٢٠٠ الف من الزنج العبيد ، يطاردونهم احياناً مطاردة الصياد لطريدته الهاربة اللب ، ويتعقبون فارين من وجههم ، اقوام البوشيمان والهوتنتو ، الى آخر حدود الارض المأهولة المتصلة بمنطقة الكلاهاري ، ثم يعودون للحرب ضد الاحلاف العسكرية التي شكلها الاقوام الرعاة كالزولو والمتابيلة ، والكفار والبسوتو الذين

عرفوا بنشاطهم وعنادهم . واول مستعمرة انشأهـــا البيض من الاوروبيين ، عرفت بسعيها المسعور للقضاء على سكان البلاد الاصليين .

حـــاول الآباء اليسوعيون ، في المستعمرات البرتغالية ، ان يكسبوا الزنوج للمسيحية فيضعونهم تحت حمايتهم . فقد حـــاولوا ، هم انفسهم ، ان ينشئوا لهم مزدرعات ناجحة ، وان يؤلفوا للزنج دينا مبسطاً يأتلف مع تفكير الاطفال وذهنيتهم . الا انه صدر ، عـــام ١٧٥٨ ، الامر بطرد اليسوعيين من جميع الممتلكات التابعة لملك البرتغال . هؤلاء الزنج الذين اعتنقوا من عهد قريب مسيحية مبسطة ، لم يلبثوا ان عادوا الى وثنيتهم الاولى ليغرقوا من جديد في الخرافات واعمال السحر والسحرة .

جلب العرب معهم الى سباسب افريقيا وسهولها الرحبة الواقعة الى الجنوب من الصحراء الكبرى ومن ليبيا ، والسودان ، الاسلام والزي العربي في اللباس ، أقله لزعماء القوم ، وفن البناء العربي ممثلاً في المساجد ، كما حملوا اليهم المبادىء الاسلامية التي قام عليها التنظيم السياسي والاجتماعي . وقد انتشر الاسلام بين بعض القبائل الكبرى ولا سيما بين التي تعيش منها على تربية الماشية والظعن . وبعكس هؤلاء بقي سكان الريف على وثنيتهم يؤمنون بوحدة الأرواح العاقلة في الحيوان . وكان من تأثير اعتناق القوم للاسلام ان اخذوا يختارون لهم زعيماً او شيخاً للقبيلة ، كما اخذوا يخضعون لقانون واحـد ولشريعة مشتركة . وألفت عدة قبائل من ذاتها مملكة قد تكون سلطنة او امارة ، على شاكلة الدول التي قامت في الاجيال الوسطى . وكان من جراء ذلك ان زاد القوم تمسكاً بالاخـــلاق والآداب ، كما ازدادوا حركة ونشاطاً وكثيراً ما طلب الى المؤمنين الجـــدد الاشتراك بالجهاد او الحرب المقدسة ، اشـــد الفرائض الاسلامية وقعاً عليهم واقساها طراً ، وساد بينهم تعدد الزوجات ، وهو وضع خول عـــدداً من انصاف الاخوة ، المطالبة بحق الوراثة ، الامر الذي سبب انحلال عدة سلالات ، كما ادى الى وقوع عدة حروب اهلية بحيث حق لنا ان نتساءل اذا كان الدين ادى بالفعل الى رفع مستوى الزنوج ام لا . واستمرت حركة نشر الاسلام طوال القرن الثامن عشر . فبعد ان اخذ اقوام التوكولور بالاسلام راحوا يفرضونه على قبائل «البوله» التي كانت تؤمن بالغيبية ويلزمونهم الاخذ بمؤسساتهم ونظمهم ، كانشاء مجلس الاختيارية ورئيس منتخب لمدة سنتين يكون في الوقت ذاته كاهن القبيلة ، وقائدها في الجهاد والقاضي فيها ، وألف البوله عام ١٧٢٠ ، مملكة ثيوقراطية في مقاطعة الفوتا–جالون ، كما الفوا لهم عام ١٧٧٠ ، مملكة اخرى في الفوتا– تورو . واذ كانوا شعباً ذا اخلاق راعوية شديدة ، محافظين حتى حدود القسوة على الاخـلاق ، فلم يلبثوا ان عرفوا بعصبيتهم المتشددة ، اشداء في الحروب . واستمروا على هـــذا الوضع بينما اخذ السودان بالانحلال والتفكك .

وراح السودان يتأثر ، الى حد بعيد بحوادث الغرب . فمملكة السنغاي التي قامت عنـــد

عطفة نهر النيجر ، وجدت نفسها ، في مطلع القرن الثامن عشر ، تحت حماية المملكة الشريفية المغربيـة ، يحكمها ملك ينتخب من بين ابناء الاسرة الملكية القائمة في مدينـة تمبوكتو . وكان يقوم الى جانبه ، باشا مغـربي يعينه السلطان ويعهد اليه بالإدارة المدنية . وكان قاضـي تمبوكتو يتولى قيادة الجيش العليا ، كما تولى القضاة المساعدون قيادة الحاميات الغربية المرابطة في مدن بُمبا وغاو وديانّا وتندرينا وكولامي . وقسمت المملكة إداريـاً الى اربـع نيابات توزعت كل واحدة الى عدة ولايات . وكان الباشا يختار نواب الملك الاربعة كما يختار الحكام من بين ابناء الطبقة الارستوقراطية الزنجية . وهنالك امراء توابع ، من بينهم امراء الطوارق والفولبا والجوليمند ، والبربر القادمين من جنوبي المغرب ، يستمدون سلطتهـم من الباشا ، يعملون في جيش المرتزقة على تخوم المملكة . اما حضارتهم فعلى شيء من الازدهار ، والمدن عديدة مكتظة بالسكان . والحرف اليدوية ناشطة والاتجار بالحاجيات الثمينة رائجة على اكتاف المدن والاسواق التجارية ، وعرفت الزراعة ان تفيد من بعض الاشغال الفنية كحفر الآبار والاقنية والـتـرع اللازمة للري ، كما ان المدن كانت مراكز للنشاط الفكري غصّت بالادباء والعلماء المسلمين الذين ألفوا تربة صالحة انبتت عدداً كبيراً من الشيـوخ والعلـمـاء والادباء والفقهاء ، وعلماء الكلام والاطباء .

بعد وفاة مولاي السلطان اسماعيل (١٧٢٧) واثناء هذه الاضطرابات الدامية التي نشبت في المغرب ، وجد الجيش المغربي في السودان نفسه سيداً مطلقاً على البلاد . وما لبث ان ألـّف هذا الجيش وذراري الجند ، طبقة عسكرية عُرفت بجشعهـا وفظاظتها وشراستهـا . وتمكن قضاتهم من تأليف امارات خاصة بهم عرفت ، عندما تتفق فيما بينها ، ان تفرض تعيين الباشا الذي ترضى عنه ، لذلك كثيراً ما آل الامر فيما بينهـا الى الحرب والاقتتـال . وراح الطوارق والجوليمندن ، بعد ان نعموا بالمزيد من الحرية عند تقهقر المغرب ، يغتنمونها فرصـة سانحة لغزو مقاطعات الشمال ، بينما راح الامراء والملوك الوثنيون ، في الجنوب يحذون حذوهم هم ايضاً . وفي اواخر القرن الثامن عشر تمكن الطوارق والجوليمند من الاستيلاء على تمبوكتو وانزلوا الدمار بمدينتي بمبا وغاو ، وزرعوا الخراب في هذه البقاع الواقعة عند عطفة نهر النيجر. فأدت هذه الحروب الى مذابح هائلة بين السكان ودمرت المزروعات وردمت الآبار والتُرع القائمة ، وعرّضت البلاد لمجاعات شديدة ، فاقفرت الطرق من سالكيها ، فماتت التجارة وبارت الـكارات ، كما خفتت الحركة الفكرية في المدن بعد ان اصيبت بالانحطاط .

وقد تعرّض غرب السنغال لغزوات المغـاربة . اما مقاطعة البورنو الواقعة في الشمال والتي اعتنق اهلها الاسلام ، فقد استكان ملوكها وخملوا وضعُف بالتالي صمودهم في وجـه الطوارق الغزاة ، وفي وجه الغزوات التي شنها عليهم ملوك الدول الوثنية ، في الجنوب ، فأقفـرت مقاطعة البورنو من سكانها . وهذه المدن التي اعتنق اهلها الاسلام ، امثـال باغرمي وعـوادات ودارفور ، والتي كانت بمعزل من الغزوات التي قامت بها الدول الكبرى الغازية ، فقد تمتعت

بفترات طويلة من الازدهار ، استغلت فيها الى اقصى حد ، شبكة الطرقات وقنـــوات الري والازرعة ، فازدهرت فيها الفنون التشكيلية والآداب وعلم الكلام . وقد تخلل هذه القرون وقوع ثورات وحوادث قتل وحروب دامية بين مختلف السلالات الملكية انطلقت فيها الاطماع والغرائز البشرية من عقالها ، فجاءت بأعمال من القسوة والوحشية زرعت البلاد خراباً ودماراً.

وراحت جاليات من العرب تتغلغل شرقاً بالرغم من اعتراض جبال الحبشة المسيحية لسيرها الى الامام ، بالرغم مما قام بينها من انقسامات وعصبيات حزبية ، فاستأثرت بالمراعي الخصبة القائمة عنـد عويداي ، حيث اختلطت ذراريهم بذراري سكان البلاد الاصليين وتمازجت معاً فنشأت قبائل الشواس الذين كانوا رعاة ثم استحالوا حضراً بعد ما ابتلوا به من اوبئة وافدة فتاكة اصابت ماشيتهم فمحقتها ، وبعد الحروب الدامية التي ارغمتهم على التراص فيما بينهم ، فأخذوا يتعاطون الزراعة .

والى الجنوب من عطفة نهر النيجر قامت اقـــوام الموسيس الذين انعزلوا عن العرب والبربر لبعدهم ولبثوا على الوثنية . واستمروا قائمين في المنطقة بعد ان ألفوا من بينهم ، مملكتين قويتين تركزتا حول واغادوغو .

اما هذه المساحات التي افترشتها الغابات الظليلة ، فقـــد استوطنها قوم من حضر الزنج احترفوا الزراعة وقالوا بوجود الارواح العاقلة في الحيوان . ففي هذه المنطقة التي تغطيها الانهر ومصباتها العريضة ، والغياض والمستنقعات والاحراج البكر الـــتي تقف حائلاً دون التواصل والتناذج ، فقد راحت تشـأر من القبائل الضاربة في مجاهلها . لكل منها لهجتها الخاصة وعاداتها واعراقها . ويكفي ان تتعرى ارض من غاباتهـــا لتعرضها لانحباس المطر ، حتى يروح الزنج يكوّنون لهم فيها مملكة فيلتفون حول مليك يكون لهم ، في الوقت ذاتـــه ، حاكماً مستبداً ورئيس احبار ، كله استعداد ، للأخذ هو واتباعه ، بالوثنية وتعدد الآلهة ، ثم تحاول التوسع وتشرئب بأعناقها الى السيطرة بعيداً . وفي القرن الثـامن عشر ، انقسمت امبراطورية الماندينغ الى عدد لا يحصى من الامارات . واستطاعت مقاطعة الداهومي ، اذ ذاك ، أن تحقق استقلالها على حساب مملكة أردر *Ardre* ، وتؤمن للبلاد وحدتهـا ، خلال هذا القرن . واستمرت قبائل أشنتي الحربية في توسعها وتمددها الى الشرق والغرب معاً . ومع ان عهد ازدهار دولة « البنين » *Bénins* قد مضى وانقضى ، فقـــد عرفت ، مع ذلك ، ان تحافظ على حضارتها الأصيلة كما تشهد على ذلك صنائع الشبهان والعاج التي خلفتها ، وهي مصنوعات اقل جمالاً فنياً من سابقاتها ، مع ما لها من قيمة عالية .

وظهر في اواخر القرن دليلان على حدوث تغيير او تبـــدل ظاهر في موقف الاوروبيين ، فقد قـام السكوتلاندي جيمس بروس ، بين ١٧٦٩ – ١٧٧٣ ، بعـــد ان استهدف لمخاطر تشيب لهولهـا الولدان – باستكشاف مجاهل الحبشة والنيل الأزرق وبلاد النوبة . فنشر عام ١٧٨٨ ، وصف رحلته هـــذه ، فكان لها وقع كبير في انكلترا . وفي هذه السنة بالذات ،

تأسست في لندن ، الجمعية الافريقية ووضعت نصب عينيها القيام باستكشافات منهجية . ومن جهة ثانية استطاع فريق من أرقاء الزنج النجاة بأنفسهم من اميركا ، والقدوم ، باعداد كبيرة ، الى انكلترا حيث وجدوا انفسهم في حرز حريز اذ لم تكن الشرائع الانكليزية ولا طائفة الكويكر وعلى رأسها ويلبرفورس ، تعترف بشرعية الرق . فسمح لهم بالرجوع الى بلادهم الاصلية . وعلى يدهم قامت مدينة فريتون ، في سيراليون ، كملاذ لهم ولكل الزنج الارقاء الذين ينجون بأنفسهم من افريقيا . فعاش هؤلاء الارقاء القدامى فيها بين الفوضى واعمال العنف . وهكذا طلعت علينا حركة واسعة المدى من الرحلات والرسالات كشفت للناس عن موارد غنية في افريقيا ، فرنت اليها انظار الدول والمغامرين مما ادى الى اقتسام الاوروبيين لها في القرن التاسع عشر .

obeikandl.com

الكتاب الخامس

الأنوار والمجتمعات الأوروبيّة في أميركا

لبث العالم القديم شبه منعزل عن الحضارة الاوروبية ، بالرغم من وقوع اوروبا على مسافة قريبة جداً من القارة الافريقية وهي امتداد او استطالة لآسيا. ففي العالم الجديد وحده، استطاع الاوروبيون ان يؤلفوا ، عبر البحار ، مجتمعات جديدة . فقد ارتفعت لهم حضارة مشتركة امتدت اطرافها من بطرسبورغ حتى مدينة كوبيك في كندا وحتى اورليان الجديدة ، في اميركا ، ومن البندقية حتى مدينة بونس ايرس . وهكذا بدا المحيط الاطلسي اداة وصل وربط اكثر منه حاجزاً او حائلاً .

ومرد هذا الوضع يعود الى ان السفر بحراً هو ايسر اخذاً من الاسفار براً ، كما ان اوروبا هي اقرب بحراً الى اميركا منها الى آسيا ، مع انها متصلة بها جغرافياً . فالفوارق الجغرافية بين اوروبا واميركا ، وهذا الامتداد الذي لا ينتهي ، وهذا الاستواء في المناطق ، وقوة العناصر الماحقة للانسان المستضعف التي لم تكن لتبز الفوارق القائمة بين اوروبا من جهة ، وبين افريقيا واميركا من جهة اخرى ، قام بديلاً منها وعوضاً عنها ، ما نرى ونشهد من سهولة النفاذ والتغلغل في القارة الاميركية ، ومن امتداد طبيعة المناخ في هذه المرتفعات والاصعدة المرتفعة الملائمة للانسان الابيض . ومن ذلك ايضاً هو ان الاوروبيين لم يصادفوا ، في اي مكان من اميركا ما اعترضهم في آسيا من كثافة السكان ومن امبراطوريات قوية ذات حول وطول ، بل وجدوا انفسهم امام اقوام قليلة العدد ، مشتتة على مستوى مادي متدنٍ جداً ، وان الامبراطوريات الاكثر تطوراً التي وجدوها احياناً امامهم ، في المكسيك او في البيرو ، كانت تقنياتها ادنى بكثير مما تم منها للاوروبيين ، كما وجدوا امامهم قبضة من المتحكمين المسيطرين ، رعاياهم واتباعهم على اتم استعداد للثورة ضدهم وشق عصا الطاعة عليهم، وزحزحة النير الذي رزحوا تحته طويلاً .

وهذه المجتمعات الاوروبية التي قامت في العالم الجديد ، خلال القرن الثامن عشر ، اخذت بدورها تتطور بسرعة فائقة وتستبدل مرافقها المهلهلة بالجديد ، وهو تطور ظهر في تزايد

موصول لعدد السكان ، وفي مختلف مظاهر النشاطات والثروة والحياة الفكرية . واكتسب السكان فيها عادات واعرافاً ومصالح اختلفت كلياً عما تم من امثالها لسكان البلدان الام . وهبت على هؤلاء الاقوام روح قومية جديدة ، فأخذت المجتمعات البشرية تتململ وتتبرم من وضع الاستعباد والاستعمار والاستثمار الذي أريد لها فأقصرت عليه ، والذي روعيت فيه ، قبل كل شيء ، مصلحة الوطن الأم لا غير . فرفضت بعد ان عاد اليها وعيها الاجتماعي والسياسي، بشمم واباء ، ان تدار شؤونها من الخارج ، كما رفضت الخضوع والتسليم لنظرية اقتصادية نفعية ولنظام اقتصادي اعتباطي حائل اساسه الاستثناءات ، يقوم على الميثاق الاستعماري ، والذي يفرض على المستعمرات إقصاء تجارتها على الوطن الأم او حصرها في نطاق المستعمرات الاخرى ، وان تقصر انتاجها الزراعي والصناعي على ما يسد حاجة البلد الأم . هنالك نزعة شاملة تتغلغل بين هذه البلدان تدفعها للتحرر ونيل الاستقلال . وهذه النزعة تقوى او تضعف بنسبة درجة التطور الذي بلغته المستعمرة ، والقوة التي تمت لها مع وجوب مراعاة العديد من المستويات والمفارقات .

الفصل الأول

أميركا البرتغالية

وضع البرازيل في مستهل القرن

يمثل البرازيل احد هذه البلدان الاميركية المستعمرة التي كان فيه الوقوف في وجه الوطن الام ، والرغبة في التحرر منه والاستقلال عنه اقل مما استعر من امثال هذه المشاعر ، وادنى مما اعربت عنه الرغبات المماثلة في البلدان الاخرى . فقد تطور البرازيل دونما خضخضة او رجرجة ، فما ان مالت شمس القرن الى المغيب حتى رأيناه على استعداد ليسير سيرته الشخصية دون اي رغبة فيه بفرض مثل هذا الحل بالقوة ، حتى انه لم يفكر قط في مثل هذا الامر جدياً .

ومع ذلك ، فالبرازيل لا كيان له ولا وجود الا لمصلحة الوطن الام . فالبرتغال احتفظ لنفسه باستثمار خيرات هـــذه البلاد الغنية والاستئثار بمواردها الطائلة ، فحظر على التجار الاجانب الدخول الى البلاد . فاذا ما شذ عن القاعدة وخرج عن الصدد ، عام ١٧٠٣ بمعاهدة مُثوين التي عقدها مع انكلترا واعترف لها بحرية الاتجار مع البرازيل ، فلأمر واحـــد هو رغبته في تصريف نبيذه في المملكة المتحدة ، وليجد فيها نصيراً له وحامياً ، وتوفيراً منه للمواد الصباغية التي تحتاج اليها هذه المستعمرة . فمصلحته الخاصة هي الهادي له في الامـــر والمسير لخطاه ، ومنها يستوحي احكامه ويستلهم مواقفه . فالوكالة التجارية الانكليزية في لشبونة ، هي التي تشحن البضائع الانكليزية ، والسفنَ التي ترسلها البرتغال ، كل سنة ، الى البرازيل هي التي تجلب الى مرفأ لندن ، محاصيل البرازيل ونتاجه لتخزنها في عنابرها ، وتعود فيما بعد لتوزعها يمنة ويسرة ، حسب مقتضيات الحال واستبداد الاسعار بالاسواق .

كانت الزراعـــة في مستهل العصر المرفق الرئيسي في اقتصاديات البرازيل . وكان البرتغال ينتظر ان تصله منه المحاصيل التي تعطيها المستعمرة . فهو يحظر عليها زراعة الكرمة وشجـــرة الزيتون والتوت . وكان على المعمرين ان يشتروا ، باعلى الأسعار ، من البرتغال ، النبيذ والزيت والحرير والملح وخشب الصباغة الذي يخضع لاحتكار الدولة . ويعهد ملك البرتغال بحـــق الاحتكار هذا ، لمن يدفع خير الاسعار . ولذا كان ارتفاع سعر الملح يجعل من صيد السمك عملية راكدة ميتة . وسكر القصب يجب شحنه للبرتغال غير مصفى ولا مكرر ، بحيث يجـــري

تكريره هناك . واكبر قدر من التبغ يحتفظ به لمعامل التبغ في الدولة البرتغالية ، وعلى المعمرين ان يتنازلوا للبرتغاليين عن الارباح التي يحققها توضيب التبغ ومعالجته الفنية . وكل المزدرعات تخضع لضريبة كنسية تبلغ العشر ، تجبى باسم الملك الذي يحتفظ لنفسه بقسم منها .

والبرتغال الذي يحتفظ لنفسه بالارباح الناجمة عن عمليات الاستثمار احتفظ لنفسه ايضاً بحق ادارة البلاد وحكمها على هواه . فالمجالس الملكية في لشبونة ، وعمليا ، الملك ووزراؤه هم الذين يعينون بالفعل ، منذ عام ١٧٢٠ ، نائب الملك ، ورئيس القباطنة ، والقباطنة العاديين ، والقضاة في وظائفهم لمدة ثلاث سنوات . ورئيس قبطان هو الذي يعين ، بدوره ، صغار الموظفين . وبالاشتراك مع القباطنة العاديين يعين اعضاء المجالس البلدية المفروض فيهم ان ينتخبوا انتخاباً .

وهذا النظام الذي فرض على البرازيل الخضوع التام للبرتغال والذي اوجب عليه وضع جميع مصالحه في خدمة البلاد الام ، عمل به المعمرون عن رضى وقبول وطيب الخاطر ، لأنه كان شكلياً او صورياً اكثر منه حقيقياً واقعيا . كان الموظفون لا يستمرون طويلا في وظائفهم فالهيئات الوحيدة القائمة لم تكن سوى الغرف البلدية وهي تتألف من سكان البلاد . وكان على الموظفين ان يرجعوا الى هذه الهيئات في الكثير من امور الادارة . وبالفعل ، كثيراً ما كانت المجالس البلدية هي التي تفتي او تقضي في الأمر حتى في القضايا والشؤون البعيدة عن الإدارة البلدية . وكان من حق هذه الهيئات ان تعين رئيس الادارة اذا ما تلكأت الحكومة عن اتخاذ الاجراءات اللازمة . ولما كان هؤلاء الموظفون كثيراً ما يرون في الوظائف التي تعهد اليهم ، فرصة لاستغلال الصلاحيات التي عهد بها اليهم ولا يهمهم من الامر الا ان يُثروا من اخصر الطرق ، فكثيراً ما تركوا لهذه المجالس البلدية حرية التصرف . ان عدداً كبيراً من رؤساء القباطنة لم يكونوا موظفين بالمعنى المعروف ، اذ كانوا ينظرون الى وظيفتهم كإنعام يجود بها عليهم الملك . والاوامر القطعية والتعليمات الاستبدادية الصادرة عن الحكومة البرتغالية ، كثيراً ما جرى تطبيقها ، عند ابلاغها ، بتساهل كلي ، ناهيك عن ان هذه المجتمعات البشرية كانت مشتتة ، متباعدة والمسافات شاسعة بين الواحدة منها والاخرى ، والمواصلات بطيئة للغاية . ولذا كان كبار الملاكين والموظفون المحليون يتصرفون على هواهم ، دونما رقيب او حسيب .

فالمعمرون وذراريهم في المستعمرات ، كان بينهم عدد كبير من الاولاد المنفيين والمبعدين والخارجين على القانون من سكان جزر الاسُور والماديرا ، فسيطر عليهم الخمول ورسفوا في الجهل والجهالة ولم تجش نفوسهم بأي رسيس من الرغائب التي تتطلب الاشباع ويقتضي اشباعها الانفاق . فقد ضعُفت فيهم الميول وخف عندهم الاستعداد او القابلية للعمل ، فلم يهتموا من قريب او من بعيد ، ولا عَنَوا قط بما يؤمن او يؤول الى الازدهار الاقتصادي في البلاد ، وما

بُرِموا يوماً من نظام الاستثناءات الذي خضعوا له وعاشوا فيه . دفعهم الى مثل هذا الوضع خفوت نشاط الحياة الاقتصادية وضعفها التي لم تُثِر فيهم اي منزع للرغبة ، ولم تحرك فيهم اية شهوة للربح . فالانتاج كان محدوداً لا يزيد على حاجة اليد العاملة بعد ان قل فيها عدد السكان في البلاد . وقد استحال عدد كبير من الهنود فيها الى أرِقّاء يعملون باستمرار في المزارع او في المناجم . الا ان الآباء اليسوعيين عرفوا ان يجتذبوا اليهم عدداً كبيراً من هؤلاء الارقاء ولا سيما من بين الهنود والزلوهم قرى ودساكر في ظل حكم ثيوقراطي شيوعي . وقد بقي عدد منهم حراً يتمتع باستقلاله في هذه المناطق والمرتفعات الجبلية ، او في حـــوض نهر الامازون . ولذا كان لا بد من الاستعانة بالزنوج لتأمين ما يلزم من يد وقوى عاملة في زراعة قصب السكر ، في مناطق برنمبوك وبَيهيا وبراهيبا . الا أن عددهم لم يكن ليسد حاجة البلاد ، وهكذا بقيت مشكلة اليد العاملة فيها مشكلة مستعصية الحل . والعمال الاحرار من اصـــل برتغالي كانوا ينتجون بالقدر الذي يفي بحاجاتهم ويسد عوزهم ، اذ لم يكن ليساورهم اي امل بأن يصبحوا يوماً من صغار الملاكين ، على قِلّتهم . وكان رؤساء القباطنة يتولون ، هم انفسهم ، توزيع الاراضي الشاغرة ، فانشأوا في البلاد ، بهذه الطريقة ، اطياناً شاسعة الأرجاء . فقد توزعت اراضي مقاطعة براهيبا بين ٤ من كبار الملاكين ، وحددت مساحة الممتلكات ، في مقاطعة بيوهي ، بـ ١١٢٤٠٠ هكتار . وكان باستطاعة اي كان من الناس ان يقتني ما يشاء من الاقطان ، مساحة الواحد منها ١١٢٤٠٠ هكتار . ولعل معمراً بسيطاً تألفت املاكه من ٥٠ هكتار ، واليسوعي من ٣٠ هكتار . وكان المعمرون يرفضون رفضاً باتاً ان تقسم املاكهم لئلا يتعذر عليهم تنويع زراعاتهم وتبديلها كلما افتقرت الارض. وكان وضع المهاجرين القادمين، والمعتقين وضع المرابعين والمزارعين في بلادهم الأصلية.

كذلك اشتدت حاجة البلاد كثيراً الى رؤوس اموال . فقد تمكن الانكليز من سحب مقادير كبيرة من نقد البلاد عن طريق بيعهم الاهلين الحاجيات المصنوعة . وكانت النقليات تجمـــد جانباً كبيراً من رؤوس الاموال . فعدد البغال والبغّالين اللازمين للنقل في الغابات الاستوائية ، والعربات والثيران المعدّة للجـــر ، والسواقين ، والاكّارين في السهول والسباسب المرتفعة ، والعتالين الهنود ، او العملة الذين يعملون في جر السفن عند المساقط والشلالات النهرية ، وبطء المواصلات الصعبة التي تستغرق شهوراً للوصول بالملاحة النهرية ، الى ماتو غروسو ، عبر نهـــر تاباغوس وامازونيا ، كل هذه النشاطات والاعمال كانت تضطر الملتزمين والمتعهدين الى عمليات تسليف باهظة . ولم يكن المال يتوفر للقيام بمشروعات زراعية او صناعية اخرى .

وهذا الشعب البرازيلي ، لم يخامره يوماً اي شعور بالحاجة لاستبدال النظام السياسي المعمول به في البلاد ، ولا الى النظام الاقتصادي ، اذ عُرف عن البرازيليين ، الامتثال والطاعة. فقـــد عُرف عنهم حبهم للظهور . الا انهم كانوا يقنعون بمركز ثانوي من هذه المراكز التي كانت تُعطى عادة للمواليد من البرتغاليين في تلك البلاد . وكان باستطاعة الاغنياء من ابناء هذه الطبقة بلوغ

اعلى المراتب وأرفع الوظائف التي كان يحتفظ بها إجمالاً ، للبرتغاليين من ابناء الوطن الام ، وهي وظائف تولي من يقوم بها او من يضطلع بمسؤوليتها شرف المحتد . ولم يكن الخلاسيون يشعرون بأي احتقار نحوهم او بأي إنتقاص من شأنهم . والفوارق الاجتماعية عندهم لم تنهض على اختلاف اللون او البشرة ، اذ كان باستطاعة الملونين ان ينالوا الوظائف العامة كالخلاسين ، مثلاً بمثل ، بعد ان اتصفوا بالنشاط والإقدام ، فألفوا نسبة محترمة بين الطبقة الوسطى . ولم يقم ما يسبب النفور بينهم او يبعث فيهم التذمر من المجتمع الذي عاشوا فيه .

اما الوحدة البرازيلية ، وحدة الشعب ، فقد عرفت اوضاع مخاض صعب . فكان لكل منطقة او مقاطعة كبيرة من مناطق البـــلاد ومقاطعاتها الرئيسية ، حياتها الخاصة التي تتمركز حول ما قام فيها من موانىء ومرافىء ناشطة ، تتجه بعلاقاتهـــا الى لشبونة اكثر منها الى المقاطعات المجاورة ، ولكل قبطانية او ولاية ، عملتها الخاصة ونقدها الخاص . وكانت قبطانية مارنهاو ، تصدّر ، عبر مرفأ بارا ، ما تنتجه من خشب للصناعة كما تصدر انتاجهـــا من الابنوس لاوروبا . واعتادت مدن باراهيا وبرنمبوك وبهيّا ، ان ترسل براً ، سيراً على الاقـدام ، ما تنتجه من قصب السكر والتبغ واللحوم ، وجلود الابقار المستوحشة من المناطق الداخلية الى الساحل . وقام حول ريو دي جانيرو وسان–باولو ، كما قام حول كوريتنيا وباراناغو ، حركة تعمير واحياء زراعي اخذت تنشط وتقوى باستمرار . اما البلاد ، في الداخل ، فقد كانت فارغة تقريباً ، والعزلة الاقتصادية تتضاعف بعزلة ادارية . وقد اعتادت لشبونة ان تتصـــل مباشرة برؤساء القباطنة دون المرور ادارياً بنائب الملك .

وهكذا نرى كيف ان السكان كانوا يتحملون راضين قانعين ، سيادة كان من اليسير عليهم ان يزحزحوها ، وان يتحرروا منهـا بأيسر السبل . فالموظفون البرتغاليون ، قلة هم ، وافراد الجيش البرتغالي لم يكونوا راضين عن مرتباتهم التي لم تكن لتُدفع لهم بانتظام ، كما برموا من قلة العناية بهم ، ناهيك ان عددهم كان اقل بكثير من افراد الميليشيا المحلية .

تطور البلاد الى عهد بمبال

اخذ البرازيل يزداد ، تدريجياً ، غنىً وسكاناً ووحدةً . فقـد كانت اشتدت جداً ، قبل سنة ١٧٥٠ ، حركة السفن الانكليزية التي تعمل في التهريب ضمن الامبراطورية الاسبانية ، اذ كان جانب كبير من نشاط هذه الحركة ، يمر عبر البرازيل ، باتجاه ريو دي لابلاتا ، في الجنوب ، او باتجاه بوليفيا والبيرو ، الى الغرب ، او باتجاه فنزويلا عبر نهر الريو نغرو والكاسيكويار الى الشمال . وحركة التجارة والتهريب هذه وفرت لمتعهدي النقل البري ، الاموال اللازمة لقيامهم بمشروعات واشغال جديدة ، كما انها بعثت النشاط في العلاقات بين مختلف المناطق البرازيلية .

ومن جهة اخرى ، شاءت الاقدار ، عام ١٧٠٠ ، ان يعثر البولسيون ، وهم عرق توالد في البرازيل من تزاوج المنفيين والهنديات ، عرف بالنشاط العارم وروح المغامرة والاتكال على النفس ،

على مناجم الذهب ، في هـذه المناطق الواقعة في حوض نهر الأورو بريتو ، وبلو هوريز ونثه ، والى الجنوب من سان – باولو ، كما قيض لهم ، ان يعثروا ، منذ عام ١٧٢٥ ، على المـاس ، عند مجرى نهر سان فرنسيسكو ، وفي المنطقة المعروفة عندهم بمنطقة الماس *Diamantina* . وقد تخلى ملك البرتغال عن استثمار مناجم الذهب لبعض الخاصة ، لقاء رسم معين يتناسب وعـدد العمال العاملين في استخراجه من المناجم . اما استثمار الماس الذي سار على النهج ذاته ، في بدء الامر ، فقد اصبح ، بعد عام ١٧٤٠ ، احتكاراً حكومياً تولته الدولة مباشرة ، وذلك تفادياً منها لاغراق الاسواق بهـذا الحجر الكريم والمحافظة من جهة ثانية على اسعاره العالية في العالم . وفي سنة ١٧١٤ ، اصبحت منطقة المناجم هذه ، قاعدة لقبطانية عامة ، عُرفت باسم « ميناس جيرايس . فقد أدّى استثمار المناجم ،بالطبع الى تعمير الارض وإحياء الاملاك الواقعة على مقربة منها ، في الداخل ، امثال : فتو غروسّو وغويار . ولم تلبث هذه المناطق ان اصبحت فيما بعد ، مراكز نشطت فيها تربية الماشية ، لتأمين حاجة المعدّنين من المواد الغذائية ، كما قامت فيهـا اسواق تجارية ، منها سوق كويابا (١٧١٨) ، وغوياز (١٧٢٢) ، ومدينـة ريو دي جانيرو التي كانت ترد اليها محاصيل الذهب والمـاس ، كما كانت تردها الادوات الصناعية اللازمة للعمل في المناجم ، فلم تعتم ان بزت مدينة بهيا بنشاطها .وهكذا ادّى اكتشاف مناجم الذهب والماس الى توفير رؤوس الاموال اللازمة لاستثمارها والى ايجـاد مناطق اقتصادية جديدة ، كما ادى الى تنشيط التبادل التجاري بين مختلف مناطق البرازيل ، وزادها ارتباطاً بعضها ببعض، وشدّ بالتالي من وحدتها .

وكان من بعض نتائج هذا الوضع ان ارتفع عدد السكان في البلاد ، وطرأ بالتالي ، تغيير على طبيعة تركيبهم الاثنوغرافي . فأخذ البولسيون بمطاردة الهنود حتى في منطقة الامازون لتأمين اليد العاملة في المناجم . الا انهم اصطدموا ، في منطقة بارانيا ، بمعارضة اليسوعيين لهم ، الذين اخذوا يقاومون بالقوة ، الحملات العسكرية التي اخذ البولسيون بتنظيمها تأميناً لحاجتهـم ، وبذلك استطاع الآباء اليسوعيون ، ان ينقذوا الهنود من الرق الذين استهدفوا له ، كـما حافظوا عليهم من الفناء المحتم ، اذ كان الهنود يتعرضون للموت باكراً ، اذ لم تكن اجسامهم الضعيفة ، لتتحمل عياء المناجم واعمالها الشاقة المضنية . ولذا كان لا بد لهؤلاء البولسيين من استيراد الزنوج ، باعداد كبيرة من المستعمرات البرتغالية في افريقيا . فألف سوقهم وشحنهم مجرىً لم ينقطع سيله حتى اواخر القرن . ولما كانت الحكومة البرتغالية مهتمة بتطوير الزراعة في البرازيل ، فقد حرصت على نقل عدد كبير من الفلاحين ، من جـزر الاسور ومادیرا ، نزولاً منها عند طلب حكام القبطانيات ، شريطة ان يوفـروا لهـم السكن والعمـل عند وصولهم .

عمل بمبال الاصلاحي

قام الوزير بُمبال ، بين ١٧٥٠ – ١٧٧٧ ، بمجهود اصلاحي ، عمـراني كبير في البرازيل وفي البرتغال ايضاً . فحـاول بوصفـه « دكتاتوراً

مستثيراً ، ان يخضع البرازيل لتوجيهات الملك مباشرة . فاجرى تغييراً جذرياً في وضع القباطنة العامين وذلك بجعلهم موظفين رسميين . كذلك اعطى الموظفين حق البقاء في الخدمة الفعلية الى ما لا حد له ، كما مكنهم من ان يتمتعوا ، عن طريق خبراتهم الواسعة لامور البلاد وطبائع العباد واعرافهم ، بكل حرية ، بالسلطات والصلاحيات التي تؤهلهم لاتخاذ القرارات اللازمة ، كما انه أقصر مهمة المجالس البلدية على الامور البلدية ، ليس إلا .

واذ كان بمبال من كبار الداعين للتطور الاقتصادي في البرتغال ، فقد راح يحاول ، دون ان يمس بسوء ، منطوق المعاهدات والمواثيق الدولية السارية المفعول ، الحلول محل الانكليز ، بالاتجار مع البرازيل . فاخذ ، في هذا السبيل ، بتنشيط الصناعة في البرتغال . فحظر على سكان البرازيل ان ينشئوا ، على ارضهم ، الصناعات التي تقوم مثلها في البرتغال . الا انه ترك لهم فقط حرية صنع المنسوجات الخشنة المتخذة من الكتان او القطن والتي يحتاج اليها الزنوج والهنود والطبقات الشعبية السفلى . وحاول جاهداً ، ان يهيء للبرازيل ، الاخذ باسباب التطوير والانماء الاقتصادي عن طريق إنشاء شركات برتغالية رأسمالية قوية ، بمعاضدة الدولة . فانشأ من ذلك شركات تجارية تتمتع باحتكارات خاصة ، منها شركة بارا التي رأت النور عام ١٧٦٥ ، وشركة مارنهاو ، عام ١٧٦٩ ، وشركة برنمبوك وبراهيبا . واخذت شركة بارا تقوم باعمال لها واسعة في منطقة كانت لا تزال متخلفة جداً ، وتفتقر كلياً لوسائل العمل ، ومع ذلك حققت نتائج ممتازة . فاستوردت العبيد من زنوج افريقيا ، اذ لم تتوفر للطبقات الفقيرة ، تأمينهم من قبل ، واوجدت سوقاً لتنفيق وتصريف المحاصيل الطبيعية التي تدرها بسخاء منطقة الامازون والتي أهمل امرها لعدم وجود من يهتم بها . وضاعفت مقاطعة ماتوغروسو وغوياز تصدير انتاجها من الماشية الى منطقة الامازون ، وارغمت المعمرين على التخلي لها عن محاصيل السكر بسعر ادنى من السعر الذي له في السوق الحرة ، كما الزمتهم بشراء حاجياتهم باثمان غالية . وراح بمبال يعوض عليهم هذه الخسارة عن طريق تشجيعه زراعة النيلة ، وذلك باعفائها من الرسوم لمدة عشر سنوات ، والارز لمدة عشرين سنة .

كذلك حاول ان يزيد من انتاج المناجم التابعة للتاج . فعرض ، منذ عام ١٧٥١ ، دفع رسم مقداره ٢٠٪ على الذهب ، فجاءت هذه الزيادة في وقت كان الانتاج قد اخذ بالهبوط . ولكي يحول دون حركة تهريب الماس ويخفف من نتائجها وذيولها ، استبدل نظام العهدة او التأجير بنظام الاحتكار ، وابعد عن المنطقة الغنية بالماس ، كل من لا يعمل في المناجم . ويبدو ان نظام الاحتكار لم يأت بنتائج افضل من نظام التأجير والتلزيم .

وبعد ان اقتنع بمبال بالمساوىء التي يجرها الرق على الهنود ، اصدر عام ١٧٥٥ ، امره بتحريرهم وعتقهم . فاصطدم هنا بمعارضة اليسوعيين الذين لم يكونوا مقتنعين قط ، بمقدرة الهنود على تدبير امورهم بانفسهم ، وكانوا من ناحية اخرى ، يرغبون في ابقاء من يعملون منهم في الارساليات الدينية والتبشيرية ، تحت اشرافهم مباشرة . وكان بمبال على اختلاف شديد مع

تلك الرهبنة بمناسبة حركة القرصنة والتهريب التي كانت تقوم بهـــا السفن البريطانية . وكان الانكليز راغبين جداً بتفادي كل اختلاف او مشاحنة مع الاسبان في منطقة الريو دي لابلاتا، لاستخدامهم في حركة التهريب الواسعة التي يقومون بها ، عن طريق باراناغوا المفضية في نهاية المطاف ، الى مدينة اسنسيون ، ومنها عبر اودية بلسكومايو وفيرميخو ، الى بوليفـــيا ، فراحوا عام ١٧٥٠ ، يحرضون البرتغال ، على ان يقوم بعملية مبادلة مع الاسبان ، فيتنازل لهم عن مقاطعة سكرمنتو (اورغواي) لقاء املاك الارساليات اليسوعية الواقعة بين نهـــري الاورغواي والباراغواي . واليسوعيون الذين كانوا تمكنوا من ربط ارســـالياتهم في الشرق بارسالياتهم في الغرب بعد ان تم لهم انشاء مركزي ساوستانسلاس وساو يواكيم ، والذين كانوا يتولون الاشراف التام على دولة ثيوقراطية امتدت اطرافها من الاورغواي حتى جبال الاندس ، والذين كانوا يرغبون في ابقاء الهنود بعيدين عن كل اتصال بالبيض لأنهم المخلخل للاخلاق ، راحوا يقاومون بشدة هذه الاجراءات . وتمكن بمبال ، عـــام ١٧٥٤ — ١٧٥٥ من تحطيم مقاومتهم بالقوة ، مستعيناً على ذلك بالبولسيين . ثم اصدر امره عـــام ١٧٥٩ ، بطرد اليسوعيين من البرازيل . ولم يلبث الهنود ان عادوا سريعاً الى وثنيتهم الاولى ، بعد ان فقدوا كل شعور بحريتهم ، اذ كان لا بد لهم ، وهم في مثل هذا الدرك السحيق من التخلف ، ان يُعهد بادارتهم ، الى حكام مدنيين ، علمانيين ، يتوجب عليهم تسليفهم بعض المال ليتغلبوا على مصاعب الحياة ، فجعلتهم ديونهم هذه التي رزحوا تحتها ، في وضع مادي عصيب لا يجدون لهم منه مخرجاً ، اما هنود بارا ومارنهاو ، فآثروا ان يعملوا فعَلةً احراراً باجر اعلى .

اما مشاكل الحدود بين البرازيل واسبانيا ، فقد حُلت بموجب معاهدة سانت الدفونش المعقودة عام ١٧٧٧ ، وبمعاهدة البرادو التي وقعها الطرفان ، عام ١٧٧٨ . فتنازل البرتغال عن مقاطعاته الجنوبية الواقعة على ريو دي لابلاتا، مقابل الاراضي الواقعة الى الشرق من الباراغواي، والشرق من البيرو والغوبان حتى مشارف الريو نغرو . وكان من نتائج هذه الاتفاقات انشاء طريق جديدة تسلكه السفن القائمة بالتهريب (*Interlope*) قامت عليها ، عـــام ١٧٧٤ مدينة كورنبا ، وتسهيلات اوسع في الاتجاهات التي كانت تعتمدها حركة التهريب النهرية من قبل . وهكذا تأسست مدينة طباتنغا ، على نهر الامازون ، عام ١٧٨٠ .

وقد أتيح للوزير بمبال ان يحدث حركة تطورية عادت بالخير واليمن ، ووفرت رأس المال واليد العاملة ، وزادت من الانتاج وتقوية العلاقات بين مختلف المقاطعات ، ولكن بعد ان دفع ثمن ذلك غالياً من الاستثناءات الاضافية .

حركة التطور بعد بمبال

على إثر اعتزال بمبال مهـــام الوزارة ، أُلغيت بعد عام ١٧٧٧ ، كل الشركات التي كان اسسها بعد ان جاءت بأطيب النتائج . فاستمرت مقاطعات الشمال تنعم بالازدهار الذي عرفت ان تؤمنه لها شركة بارا . واخذ عـــدد من القباطنة العامين يهتمون بمصالح رعاياهم وتأمين الازدهار للمقاطعات التي يشرفون عليها ادارياً ،

بعـد ان اتيح لها القيام بمثل هذا العمل الطيب المجدي . فبقطع النظر عن هذه الزراعات التي كانت موضوع اهتمامهم منذ عهد بعيد كقصب السكر والتبغ ، فقد بذلوا جهوداً طيبة لتطوير الحديثة منها كالنيلة والارز والبن والقطن والكاكاو ، كما ازداد كذلك ، تصدير الجلود . وبذلك اصبحت الزراعة اهم مرافق البلاد ، فأمنت لها الرفاه بعد ان هبط انتـاج المناجم من المعادن الثمينة ، لنفاذ الطبقات السطحية ، ممـــا ادى الى تأخر مدينة اورو بريتو بحيث امست في اواخر القرن قرية متواضعة لا شأن لها . وهذا الازدهار الاقتصادي ادى بدوره الى مضاعفة عدد السكان بين ١٧٧٦ — ١٨٠٦ .

فبعد ان اصبحت البلاد اوفر سكاناً ، واكثر غنى واشد تماسكاً ووحدة ، اخذت تشعر ، اكثر فاكثر ، بمساوىء نظام الاستثناءات الذي تعيش في ظله ، بعد ان شدد بمبال من قبضة البلاد الام في ادارتها لها . واخذ الشعب يتوق بملء جوارحه الى حريـــة اوسع في التجارة والصناعة والزراعة . كما انه تاق أن يرى ابنـــاء البلاد يحكمون انفسهم بأنفسهم . وانتشرت افـكار « الفلاسفة » التي نادى بها الكتاب الفرنسيون بين ذراري البرتغاليـــين الذين توالدوا في البرازيل وتناسلوا بعد ان تم لهم المزيد من الثراء والعلم والقبس من الآراء التقدمية ، كما ان مُثل الولايات المتحدة الاميركية حرّك رغائبهم نحو الاستقلال . فبدت على الناس أعراض التذمـــر والقلق . فقد كانت الأمة البرازيلية في سبيلها الى التكون والبروز والانفصال عـــن البرتغال وكانت تنتظر الفرصة المؤاتية والسانحة العارضة . الا انه بالنظر لإدارة البرتغال السمحاء ، على الاجمال ، لم تلتهب في البرازيل ، أزمة حادة كما شهدنا في غير مكان من اميركا الجنوبية .

الفصل الثاني

أميركا الاسبانية

كان التطور الذي أخذت اميركا الاسبانية باسبابه ، شبيهاً من وجوه عدة بذلك التطور الذي نهجت عليه البرازيل مع فارق وحيد هو ان الشعور الوطني او القومي برز فيها اشد ، كما ان أزمة الاستقلال أخذت تحتدم فيها ، منذ عام ١٧٨٩ ، إذ أن الدولة الاسبانية التي تم لها من القوة والبطش ما لم يتم بعضه للبرتغال ، استطاعت ان تطبق ، بشكل اشد وأبرز ، مبادىء « الميثاق الاستعماري » ، ولان نفوس فريق محترم في الامبراطورية الاسبانية ، جاشت بمشاعر واحاسيس نحو الملونين فاعتمدوا تجاههم سياسة من الاستثناءات والتمييز الطبقي بلغ من عنفها وحدتها ما لم تصل الى بعضه نفوس البرتغاليين .

الوضع العام بعد معاهدة اوتريخت

كان ملك اسبانيا يعتبر نفسه عام ١٧١٤ ، ملكاً مطلقاً على امبراطورية تسكنها شعوب واقوام هم ادنى منزلة ومرتبة من الاسبان في البلد الأم ، يحتم استثمارها واستغلالها بما فيه مصلحة الملك والشعب الاسباني.

فهذه الامبراطورية التي قامت في الهند الغربية ، كانت تحكم وتدار من اسبانيا مباشرة ، وباسم الملك ونيابة عنه ، على يد مجلس الهند . والقرارات التي يتخذها هذا المجلس ، يقوم على تنفيذها والتقيد بها بكل دقة : نائبان للملك ، يقيم احدهما في اسبانيا الجديدة ، مركزه مدينة مكسيكو ، كما يقيم الثاني في مدينة ليما ، عاصمة البيرو ، يجرى تعيينهما من قبل الملك نفسه ، ويتمتعان بجميع الصلاحيات والسلطات التي له . ويعمل تحت ادارتهما قبطانان عامان ، يقيم احدهما في غواتيمالا ، ويقيم الآخر في سانت دومنغو ، واليه يرجع حكام كوبا وبورتو ريكو وفلوريدا . ويصدر نائبا الملك اوامرهما مباشرة لحكام الولايات الواقعة ضمن نيابتهما ، والتي لا يقوم على رأس ادارتها قبطان عام . ويتولى الادارة المحلية في المجتمعات غير الوطنية ، مجالس بلدية (*Cabildos*) ، ينتخب اعضاؤها انتخاباً ، من حيث المبدأ ، مع ان وظائفهم تبقى عرضة للمساومات ، فيزداد عددها لتزداد بالتالي مداخيل الملك ، وان لم يكن لها بالفعل أي سلطة ، يؤمن العدالة ، في الدرجة الاولى ، قضاة مختصون . اما في الدرجات الثانية والثالثة ،

فمحلفون يجلسون للقضاء . للسكان الوطنيين الحرية بالمحافظة على عاداتهم واعرافهم القومية ، شريطة ألا تتعارض مع وصايا الكنيسة الكاثوليكية وتعاليمها ، تحت مراقبة فريق من بني دينهم يقضون فيما بينهم في القضايا المدنية والجزائية ، لهم السلطة لتشغيلهم لقاء اجر معين ، ويقومون بالفعل وسطاء بينهم وبين البيض في كل ما يتعلق بامورهم . فالحكام المحلفون والقضاة ، كل هؤلاء يجري تعيينهم مباشرة من قبل ملك اسبانيا . وفي حال غيابه ، من قِبل نائب الملك. اما صغار القضاة ، فيتولى تعيينهم الحكام بحيث يشعر الجميع ، حتى في المجالس البلدية ، بسلطة الملك المطلقة .

واستغلال الامبراطورية واستثمارها هي من شؤون اسبانيا الخاصة وحدها فيحظر على هذه الامبراطورية أن تنتج اي صنف تنتج مثله اسبانيا . ونالت البيرو بصعوبة كلية الترخيص لها بغرس شجرة الزيتون في بلادها ، وزرع الكرمة في اراضيها المعتدلة ، شريطة الا تصدّر اي شيء من انتاج هذين الصنفين ، الى اي جزء من اجزاء الامبراطورية الاسبانية التي تنمون زيتاً وزيتوناً من الوطن الأم . وحظر على الامبراطورية كذلك ان تصنع اي شيء يصنع مثله في اسبانيا . فلاسبانيا وحدها الحق بشراء جميع منتوجات الامبراطورية ، كما لها وحدها الحق بأن تبيعها ما تحتاج اليه من امور المعيشة . فاذا ما تعذر على اسبانيا ان تزودها بما تحتاج اليه ، او ان تستهلك هي نفسها منتوجات امبراطوريتها ، قامت اسبانيا وسيطاً بينها وبين زبائنها . فغرفة تجارة اشبيلية التي انتقلت ، عام ١٧١٨ ، الى مدينة قادس ، لسهولة دنو سفن الشحن من المرفأ ، تحدد هي نفسها ، كمية الشحن المعد مثلاً للهند الغربية ، كما تحدد منها الاسعار ، وعدد السفن التي تقوم بنقل الوسق والمشحونات . هنالك اساطيل تجارية تؤلف معاً قوافل منتظمة تغادر قادس المرفأ الوحيد الذي له حق الاتجار مع اجزاء الامبراطورية الاسبانية في اميركا، باتجاه مرافىء بورتو بلو وقرطاجنة وفيراكروز حيث يجري تفريغ الاصناف المشحونة ، ثم تباع البضاعة في الاسواق التجارية ، وهي اسواق تستمر قائمة مدة اربعين يوماً ، ومنها تنقل براً الى جميع اطراف الامبراطورية . كذلك تشحن من هذه الموانىء جميع محاصيل بلدان الامبراطورية . والبضاعة الوحيدة التي يجري نقلها مباشرة ، بين الامبراطورية الاسبانية وبين بلاد المشأ، هي تجارة الرقيق التي ألفت احتكاراً انكليزياً (*Asiento*) وذلك منذ عام ١٧١٣. فللانكليز الحق بنقل الرقيق مباشرة من افريقيا الى بونس ايرس وقرطاجنة وبورتو بلو ، اختصاراً للوقت وللمسافات ، واستعجالاً للمعاملات لما تتعرض له هذه البضاعة السريعة العطب من اخطار ومهالك .

وهذا النظام القائم على الحظر والاحتكار والاستثناء والذي فرض على الامبراطورية فاضطرت للنزول عنده والاخذ به ، فألزمها الشراء بسعر عال والبيع بسعر متدنٍ منخفض ، حال ، الى حد بعيد ، دون تطوير مرافق الزراعة والصناعة فيها . ففيه كل المساوىء التي عانت منه البرازيل في النظام البرتغالي ، فالطريقة التي يجري عليها الاستثمار لا تساعد قط على توفير ما

تحتاج اليه البلاد من رؤوس الاموال واليد العاملة. فاسبانيا والقائمون بأعمال التهريب من قراصنة البر والبحر ، يسلبون الامبراطورية ، ما لديهـــا من معادن ثمينة ، فيقل النقد من التداول ، وتتأخر حركة البيع والشراء. ان تأمين كل ما يحتاج اليه العمال العاملون في الغابات بالتلزيم ، وبطء حركة النقل ، والصعوبة القائمة في توفير رؤوس الاموال التي لا بد منها لتأمين هذه المتوجبات ، يلتهم رؤوس الاموال الزهيدة الـــتي امكن توفرها (مع العلم انه يقتضي ٣ اشهر لقطع المسافة القائمة بين بونس ايرس وسلطا ، كما يقتضي لقطعها ١٢،٠٠٠ رأس بقر ، و ٦٠٠ مركبة او عربة). واعمال النقل تستوعب عدداً كبيراً من اليد العاملة . ان ثلث سكان كولمبيا ونصف البونغا في لاباز وبوليفيا هم من البغّالين . وهذه البلاد الكاثوليكية ، على طريقتها الخاصة ، تعد من الرهبان والراهبات عدداً لا يحصى . فلا عجب ان تفتقر افتقاراً شديداً لليد العاملة .

حاولت الدولة الاسبانية ان تحافظ ، بجهدها ، على استمرار بعض الافكار التقليدية حيـة بين رعايا امبراطوريتها في اميركا . فالجامعات التي قامت في كل من مكسيكو وليما وسانتا فيـه في بوغوتا ، وقرطبة وشركاس وغواتيمالا وكوزكو وسان دومنغو ، ضمت فروعـاً واقساماً لتعليم اللاهوت والفلسفة الكلاسيكية والحقوق والطب ، والآداب الرفيعـــة والرياضيات . فجامعة ليما ، مثلاً ، تدرّس لغة الكويسّوا ، كما ان جامعة مكسيكو تدرس لغة الازتيك والاوتومي . كثيرة هي في البلاد ، المدارس الابتدائية والثانوية التي يقوم على ادارتها العديد من الرهبان والراهبات . اما الكتب فنادرة الوجود غالية الثمن. فليس من مطبعة بعد ، في غير مكسيكو وليما . والحكومة تراقب الطباعة ودورها عن كثب ولا تبيح الدخول الى الامبراطورية ، لاي من الكتب او المطبوعات التي توجس منها شراً على الاخلاق او العقائد او الآداب ، كما تحظر دخول الكتب ذات النزعة المتحررة . ويساعد الحكومة في مراقبتها هذه ديوان التفتيش الذي سجل بين الكتب الممنوع دخولها الى اي جزء من اجزاء الامبراطورية ٥٤٢٠ كتاباً . وهكذا نرى الاميركيين يخضعون لنوع جديد من الوصاية الشديدة والرقابة الصارمة .

ليس من عجب قط ان ترتفع ، بعد هذا ، الاصوات بالتذمر والشكوى معربة عن عـدم رضاها . ويرى مواليـد الاوروبيين في المستعمرات من ذراري المعمرين الاسبان ، انهم يضحى بهم بسخاء فيذهبون ضحية اسبانيا ، ناهيك عن ان كل الوظائف الرئيسية هي بأيدي من هم من مواليد اسبانيا . والشاذ نادر جـــداً ، حتى ان الشؤون المحلية لا تخضع هي نفسها لمراقبتهم . فالمواليد البيض في المستعمرات يتحسسون عميقاً الفوارق الطبقية التي تعتمل بها نفوس الاسبان : فهم يحتقرون الخلاسيين بعـــد ان تكاثر عددهم في البلاد ويعرضون عنهم باستعلاء وازدراء . وهؤلاء الخلاسيون يزدرون الهجناء من هؤلاء المواليد الذين بالنظر لما فيهم من الدم الابيض ، خيّل اليهم انهم فوق الهنود بمراحل . وكثيراً ما شعر الهندي بمرارة المغلوب على امره فيستغله غالب عليج لا تربطه به ايـة صلة . فمن منهم كان في ارض جاد بها ملك اسبانيا لاسباني ما ، كان عليه ان يقوم بما يفرضه عليه سيد الارض الجديد من اعمال وأشغال لقاء اجر يعينه له ، فيعمل

في المناجم والحقول او المزارع . ويحق للقضاة ان يفرضوا عليهم العمل ، بالشروط ذاتها ، في الطرقات والمباني العامة . فالقوانين الحكومية الخاصة بالهنود تعتبر ممتازة. ولكن في هذه البلاد النائية ، تعجز الحكومة المركزية التي تفصلها مسافات شاسعة ، عن تنفيذ ما تتخذه من قرارات . فالهنود الذين تفرض عليهم اعمال شاقة ينوؤون تحتها ، والذين يذهبون ضحية معاملات مؤذية تلحق بهم الحيف والضر من حيث المرتبات التي تجري عليهم والغذاء الذي يعطى لهم ، والذين يستهدفون لالوان الابتزاز والاستثمار البشع ، كل هؤلاء تجيش نفوسهم بالحقد والبغضاء نحو اسيادهم . ويأتي دون الهنود مرتبة ، الارقاء من الزنج الذين لا يزال الكثيرون بينهم يتنغصون ، وليس من يرحم او يسمع ، للحريات التي كانوا يتمتعون بها من عهد قريب ، قبل ان يصيرهم حظهم العاثر والقدر الغاشم الى ما اصارهم اليه من نكد العيش . وفي الدرك الاسفل من السلم الاجتماعي يأتي «الزمبو» ، هؤلاء الخلاسيون من الزنوج والهنود ، الذين كانوا موضوع هزء الجميع واحتقارهم ، والذين كانوا يُسخّرون للقيام بأقسى الاعمال واحقر الاشغال باجور سيئة جداً .

وهذا النظام الطبقي الذي وصفنا ، كان من شأنه ان يثير الاحقاد والضغائن ويغذي الحفائظ بأشنع واقذع الذكريات . فمنذ مطلع القرن الثامن عشر ، هبّ على الامبراطورية الاسبانية ، بعكس الامبراطورية البرتغالية ، ريح صرصر من الثورة تمطى بين الضلوع ، وأخذ الناس يتطلعون بلهفة وشوق الى الاستقلال .

الامبراطورية الاسبانية بين ١٧١٣ - ١٧٩٥

كان توسع الامبراطورية الاسبانية ، حتى عهد الملك شارل الثالث ، يتجه نحو الشمال ، وذلك بفضل الارساليات الكاثوليكية ، على الاخص . فقد انشأ الآباء اليسوعيون ، في كاليفورنيا القديمة ، قرى لهم ودساكر تنازلوا عنها ، فيما بعد ، للآباء الدومنيكيين . كذلك عمل الآباء الفرنسيسكان من جهتهم ، على تطوير كاليفورنيا الجديدة ، اذ ساعدوا على توطين الهنود كما ادخلوا على البلاد زراعة الاشجار المثمرة والبقول والخضروات المعروفة في أوروبا . وأنشأ المرسلون لهم مراكز يشعون منها الى اريزونا . وخلال ١٧٢٠-١٧٢٢ ، وضعت اسبانيا يدها على مقاطعة تكساس حتى مشارف النهر الاحمر ، تحوطاً من المشروعات الفرنسية حول لويزيانا . وحاول الاسبان الوقوف في وجه تقدم البرتغاليين ، حتى نهر ريو دي لابلاتا ، فأسسوا ، عام ١٧٢٦ ، مدينة مونتفيديو .

وبفضل نشاط الحركة التجارية ازداد عدد السكان كما ازداد الغنى واليسر بين الناس . وقد أقصرت التجارة مع الامبراطورية على بعض المرافىء منها في المكسيك مثلاً فيراكروز . ومن هذا المرفأ كانت البضائع ترسل ، عن طريق خلابا ، الى المناطق الجبلية ، واكابولكو التي كان يصلها كل سنة ، سفينة مانيلا محملة منتوجات ومحاصيل آسيا الشرقية . اما في اميركا الجنوبية

فأهم هذه المرافىء ، مرفأ قرطاجنة ومنها تشحن البضاعة باتجاه كميتو وليما ، متبعة في سيرها الى الامام ، وادي مغدلينا وكوكا ، مارة بمـــدن : مادلين وسنتا فيه بوغوتا وبوبويان ، ومرفأ بورتو بلو ومنه تشحن البضائع عبر برزخ بناما ، الى مدينة بناما ، لتحملها من جديد سفن باتجاه ليما. ومن ليما كانت تنقل على ظهر البغال باتجاه بوليفيا والشيلي وسلطا ، ومنها تحمل على عربات نقل ، الى التوكومان وقرطبة وبونس ايرس. وكان من المحظور وصول ايـــة بضاعة الى بونس ايرس رأساً باستثناء الرقيق والسفن التي تشحن ارقـاء الزنوج ، والسفينة البريطانية المرخص لها ، وحدها تستطيع الرسو مباشرة في بونس ايرس . وعلى طول هـذا الخط التجاري الشاسع المسافات ، نشأت تباعاً الاستثمارات الحربجية والمزدرعات ، يغذيها بما يلزم من المال ، متعهدو النقل الذين اثروا . وقد توفرت لهم اليد العاملة اذ ان عدداً كبيراً من الزنوج سهل لهم الدخول الى « الاراضي الدافئة » في كولمبيا وفنزويلا ، كما نشأت اسواق تجارية ضمت كل مـــا يلزم للتموين والانتاج .

والى هذا النشاط يجب ان نضيف عمليات التهريب الواسعة التي قامت بهـــا سفن القرصنة *Interlope* ، اذ كان يتم على يد عمليات التهريب الواسعة هـــذه حركة واسعة من الاستيراد والتصدير لعدد كبير من مختلف البضائع والسلع . وهذه التجارة غير المشروعة التي كان ينهض بها تجار الرق وقباطنة السفن المجاورة التي كان وسقها يتجاوز دوماً الخمسمائة برميل المرخص بها في المعاهدات والمواثيق المبرمة ، وذلك بفضل توسيع صابورة السفينة فوق خط العوم وعمليات تحشية الالواح والحواجز . وبين القائمين بعمليات التهريب هذه ، التجار غير المرتبطين بعقد اتفاق من كانوا يستخدمون الموانىء والطرق البرازيلية ، وجزيرة الثالوث ونهـر الاورينوك وشواطىء خليج المكسيك . وقد استخدم الانكليز في هوندوراس وساحل الموسكيتوس ، الترخيص المعطى لهم من الاسبان ، ليقطعوا خشب الصباغ الذي يتوفر كثيراً في تلك المنطقة . ومن بينهم كذلك المعمرون في جمايكا الذين قاموا ، بين ١٧٢٠ — ١٧٤٠ ، بانشـــاء وكالات تجارية لهم ، عند مصب النهر الاسود *Rio Negro* وقد قام الاسبان بدك هذه الوكالات وهدمها. وفي كل مرة كان المعمرون يعيـــدون بناءهـا ، وقد بلغ القائمون باعمال التهريب الهضاب والمرتفعات الجبلية وتحالفوا مع هنود موسكيتوس ، واقاموا عليهم نوعاً من الحماية ، واخذوا يصدرون نحو جمايكا ولندن ونيويورك ، خشب البقم والـكاكاو والنيلة وسكر القصب والتبغ ، وقد سوّلت لهم النفس الوصول الى سواحل المحيط الهادي ليفتحوا لهم باتجاه اميركا الجنوبية ، طرقات جديدة يعتمدها المهربون في تجارتهم الرابحة . وفي هذا السبيل ، وتأميناً لسيطرتهم على الطرقات التي تمر ببرزخ بناما ، اقنعوا ، انكلترا ، عام ١٧٤٠ ، على توجيه الاميرال فرنون ضد بورتوبلـّو وقرطاجنة ، والاميرال انسون ، الى سواحل البيرو . وفي سنة ١٧٤٣ ، راح تريلوني حاكم جمايكا الانكليزي ، بتشجيع من لندن ، يحشد المعمرين في هوندوراس وسلحهم ، وبلـّغ حكام نيكاراغوس وغوتيمالا ، بسط الحماية الانكليزي على المنطقة . الا ان الفشل الذي اصيب

خريطة ٨ - طرق مواصلات الامبراطورية الاسبانية في اميركا الجنوبية. الطرق الرسمية ١. السفن والنقل من بناما - ٢. النقل على البغال - ٣ - النقل النهري الطرق التي يتبعها المهربون: ٤ - الانكليز - ٥ الفرنسيون الى عام ١٧٢٤.

به الاميرال فرنون امام قرطاجنة ، ومعاهدة اكس لا شابيل التي حافظت على الوضع الراهن ، من جهة اخرى ، حملت الانكليز على ان يقترحوا عقد المعاهدة الاسبانية البرتغالية ، عام ١٧٥٠ ، ليفتحوا امامهم طريقاً جديداً . وراحوا من جهة ثانية يطالبون بمنحهم حق احتكار الاتجار مع الامبراطورية الاسبانية مقابل تخليهم عن تجارة النخاسة والرق التي اصبحت ادعى للخسارة منها للربح .

وقام بتجارة التهريب هذه ، على نطاق واسع ، عدد من الفرنسيين والهولنديين فعادت عليهم بارباح طائلة ، فاتخذوا من جزائر بحر الكرايبي او الانتيل قاعدة لهم ومستودعاً لبضائعهم فقاموا بمنافسة الانكليز ومزاحمتهم مزاحمة قاسية .

وتجارة التهريب التي سببت نقصاً كبيراً في واردات مرفأ قادس حيث كان يسيطر التجار الفرنسيون ، عادت بالخسف على اسبانيا ، كما حركت الضغائن والاحقاد .

ولقد كانت معاضدة الحكومة الانكليزية لتجارة التهريب ومناصرتها للقائمين بها ، من هذه الاسباب التي دعت الى هذه الحروب التي نشبت بين الانكليز والاسبان ، عام ١٧٣٩–١٧٤٨ ، و ١٧٦٢–١٧٦٣ ، وتلك الحروب التي قامت بينهم وبين الفرنسيين ، عام ١٧٤٢ – ١٧٤٨ ، و ١٧٥٦–١٧٦٣ ، فاذا ما عادت حركة التهريب هذه بارباح طائلة على المهربين الأجانب فقد أمّنت ، من جهة ثانية ، للاهلين من سكان الامبراطورية الاسبانية ، ارباحاً اطيب من التي تعود عليهم من التجارة العادية ، اذ شحذت فيهم الحماس والرغبة على مضاعفة الانتاج وسهلت لهم الوسائل المالية والبشرية .

ولذا جاء التطور الاقتصادي كبيراً . وبفضل التسهيلات التي وفرتها وسائل النقل تمركزت المناجم وتضاعف انتاجها بعد ان كان اخذ يتقهقر تقهقراً ملحوظاً في القرن السابع عشر ، وأمدّت اوروبا بالنقد اللازم لتطورها الصاعد ، وساعدت في رفع الاسعار ، فكان ذلك كله سبباً لظهور هذه التغييرات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي وقعت فيها ، كما ساعدت من جهة أخرى على تطوير المحاصيل والمواد الغذائية في اميركا ، ولا سيما في هذه المناطق « المعتدلة » ، أو « الباردة » في جبال الاندس . فازدهرت زراعة الذرة والشعير والقمح والزيتون والكرمة ، بعد ان ساعدت هذه المحاصيل على اجتذاب اليد العاملة والباحثين عن اسباب الرزق . وراح المعمرون وذراري الاسبان المولودون في اميركا يستخدمون العبيد من الزنج لاحياء المزيد من الأرض ولانشاء زراعات جديدة ، من قصب السكر والتبغ والفانيلا والكاكاو والبن ، في الاراضي السهلية الدافئة ، في كل من البيرو وكولمبيا وفنزويلا والفويان والمكسيك وجزر الانتيل . وراح الخلاسيون والهنود يستثمرون الغابات بحثاً منهم عن خشب الصباغ وخشب الابنوس ، ولحاء شجر الكينا ، منذ عام ١٧٥٠ ، وزراعة الماتيه . كذلك عرفت تربية الماشية رواجاً كبيراً توفيراً لحيوانات الجر والنقل اكثر منه للحم والجلود . واخذت البيرو تستورد اكثر من

١٠٠ الف بغل من التوكومان والشيلي . وكان يباع في كل سنة يقام فيها معرض مالطا ، اكثر من ٦٠ الف بغل جرى تطبيعها وتدريبها وقد قام في السهول المعشوشبة المحيطة بنهر الاورينوك وبمرتفعات غرناطة الجديدة والاناهيواك والمكسيك الجديدة، على مقربة من الاستثمارات الزراعية والمعدنية ، مزارع كبيرة تعنى بتربية الماشية . اما في هذه السباسب والسهول التي تنأى بعيداً عن هذه المشروعات الاستثمارية ، فقد تركت قطعان الماشية تعيش فيها نصف متوحشة او برية ، يسهر على حراستها اقوام من الخلاسيين والهنود ، يعملون على وشمها واقتيادها بمشقة الى الاسواق القائمة في خلابا وتوكومان وسلطا ، بقصد بيعها .

كذلك اخذت الحياة الفكرية بالظهور والتفتح، على اثر سماح السلطات المعنية في المكسيك، باصدار جريدة ودورية اخرى بعنوان *Mercure Volant* تعطي قراءها اخباراً عن اوروبا ، وتنشر في حقولها ابحاثاً ومقالات حول العلوم الطبيعية والفيزياء . ويجب التنويه هنا بفضل حركة التهريب التي ساعدت على نشر الافكار الجديدة بين مواليد الاوروبيين وذراريهم في المستعمرات بعد ان تغلغت بينهم المؤلفات الفرنسية .

ان ازدياد عدد السكان ونشاط حركة الاعمال ، والرغبة في منع حركة التهريب ومراقبة الانتاج ، والرد على التهديد الانكليزي والصمود في وجهه ، كل ذلك وما اليه أدى الى انشاء تقسيمات جغرافية جديدة والاكثار من الموظفين . ففي سنة ١٧١٧ ، انشئت لتعود الى الوجود من جديد بعد إلغائها ، عام ١٧٣٣ ، نيابة للملك في غرناطة الجديدة (كولمبيا وفنزويلا) ، كما انشئت ، عام ١٧٤٢ ، قبطانية عامة في فنزويلا .

هذا التشدد في المراقبة وزيادة احكامها اخذ يحد من التطور الذي اخذت البلاد باسبابه ، كما صدم ، في الصميم ، شعورها بالحرية والاستقلال ، وساعد كثيراً في اذكاء اسباب النفرة والتذمر في الداخل، مما ادى بالتالي الى حركات تمرد في اماكن كثيرة، منها الحركة البلدية التي قام بها طلاب المدارس في الباراغواي ، عام ١٧٢١ ، والثورة التي قام بها الاسبان وذراري المعمرين الاوروبيين في البيرو (١٧٤١) ، وفي المكسيك (١٧٤٢) ، والثورة الشعبية التي قام بها الخلاسيون والهنود في وجه كبار الملاكين في فنزويلا ، عام ١٧٤٩ . كذلك ثار اليسوعيون في الباراغواي عندما وقّعت الحكومة الاسبانية ، عام ١٧٥٠، المعاهدة التي عقدتها مع البرتغال وتنازلت لها فيها عن الممتلكات التي قامت فيها ارسالياتهم في الباراغواي ، مما اضطر الآباء اليسوعيون معه لمغادرة تلك المقاطعات والجلاء عنها ، مما سهل للانكليز الذين كانوا وراء عقد هذه المعاهدة ، الدخول بحرية الى البرازيل ومنها الى مقاطعة شاكو ، باتجاه المناطق الجبلية في بوليفيا والبيرو . وبذلك سلست عندهم وسائل التهريب وهددت باسوأ المساوىء الهنود الذين تُركوا وشأنهم . ورفض اليسوعيون الانصياع ، واخذوا يتحصنون في ارسالياتهم للصمود في وجه الاسبان والبرتغاليين معاً وطردهم اذا امكن ، فاضطر هؤلاء الى مجابهة حرب شنوها ضدهم . وكانت الحرب في هذه الفترة قائمة على قدم وساق في الشيلي ضد الأروكان الذين كانوا

انشأوا لهم دولة مستقلة ، ناصبتهم العداء .

عهد شارل الثالث

في عهد الملك شارل الثالث (١٧٥٩ – ١٧٨٨) وقعت معظم التطورات الجذرية وتمت النجاحات التي سجلتها الامبراطورية الاسبانية ، اذ ذاك. فقد عرف ملك اسبانيا ان يحافظ على المبادىء الاساسية التي نهض عليها الاستعمار الاسباني . الا انه تفهم تماماً الموجبات التي تقضي بخلق مصالح وببعث روح مشاركة بين اسبانيا واوروبا والتمكين لها في النفوس .

فقد حالفه النجاح في محاولاته توسيع حدود الامبراطورية الاسبانية ، والدفاع عما تم لها من وضع اقتصادي ممتاز ضد الانكليز . ففي ٢ كانون الثاني ١٧٦٢ ، دخل الحرب الى جانب الفرنسيين ضد الانكليز ، فجرت عليه الحرب الخسائر والهزائم ، اذ احتل الانكليز مدينة لاهافانا ، واستولوا على ١١ سفينة اسبانية كانت راسية في خليجها وغنموا من الاسلاب ما تزيد قيمته على ٣ ملايين غرش ، وبذلك اصبح في مكنتهم مهاجمة فيراكروز والكر على قرطاجنة دون ان يلقوا مقاومة تذكر من قبل الاسبان . وبتاريخ ٢٣ ايلول من السنة نفسها ، استولت عمارة انكليزية على مدينة مانيلا في الفيليبين هذا المرفأ الاسباني الكبير في المحيط الهادي . وبموجب الصلح الذي عقد عام ١٧٦٣ ، اضطرت اسبانيا للتنازل لانكلترا عن واحدة من اثنين : اما بورتوريكو او فلوريدا ، فتخلت لهم عن الثانية بعد ان احدق بها الخطر الانكليزي اثر تخلي الفرنسيين للانكليز عن ضفة مسيسبي اليسرى . كذلك اضطر شارل الثالث للتنازل لهم عما له من حقوق الصيد في ضواحي جزيرة الارض الجديدة وارباضها التي كانت بمثابة دار تدريب للبحارة الاسبان . كذلك اعترف لهم بحق قطع خشب الصباغة في هوندوراس مما اتاح لهم المزيد من الفرص للقيام بمظاهرات باتجاه المحيط الهادي . الا ان الاسبان استرجعوا لاهافانا وكوبا . وبعد ان تخلى الانكليز عن تجارة العبيد تنازلوا عن مطالبتهم الاحتفاظ بحق احتكارهم الاتجار في الامبراطورية الاسبانية . فهل ادى ذلك ، ياترى ، الى التخفيف من تجارة التهريب التي كانوا يقومون بها ؟ وتعويضاً لاسبانيا عن تنازلها للانكليز عن فلوريدا ، تنازلوا لها بدورهم عن ضفة المسيسبي اليمنى . وفي حرب الاستقلال الاميركية ، تدخل شارل الثالث بوصفه حليفاً لفرنسا في الحرب ضد انكلترا ، وذلك من سنة ١٧٧٩ الى ١٧٨٣ . واوجبت معاهدة باريس على الانكليز ، ارجاع فلوريدا للاسبان .

وسجل الاسبان لهم انتصارات ضد البرتغاليين . كان سيبالوس حاكم بونس ايرس استولى عام ١٧٦٢ ، على المستعمرة البرتغالية سكرمنتو ، فجاءت معاهدة باريس توقف تنفيذ العملية . واستأنف سيبالوس ، عام ١٧٧٦ ، المغامرة واستولى على سكرمنتو من جديد ، واقام فوقها الحصون والقلاع . واذ كان الانكليز غارقين في الحرب ضد مستعمراتهم الاميركية في اميركا الشمالية لم يستطيعوا مساندة البرتغال وشد ازرها فاضطر هؤلاء بموجب معاهدتي سان ألفونس

(١٧٧٧) والبرادو (١٧٧٨) للتخلي نهائياً عن مقاطعة سكرمنتو لاسبانيا ، ونالت اسبانيا وحدها حق الملاحة في نهر ريو دي لابلاتا والاورغواي .

وفي سنة ١٧٧٦ ، جرى تعيين الحدود الفاصلة بين الممتلكات الفرنسية والاسبانية ، في سان دومنيك .

واستمر ٣٦ راهباً من الرهبان الفرنسيسكان في توسعهم على ساحل المحيط الهادي وانشائهم القرى والدساكر والمزارع . من انشاءاتهم تلك ، سان بلاس ، ومونتيري ، وسان فرنسيسكو ، وجعلوا من هذه المراكز الجديدة قواعد لتنظيم حملات ورحلات باتجاه خليج توتكا الذي استكشفه خوان بيريس ، والذي كان مركزاً هاماً للاتجار بفراء كلب الماء . وهنالك التقى الاسبان بتجار من الانكليز والروس والاميركان . واسس الانكليز لهم في توتكا ، شركة حاولت ، عام ١٧٨٩ ، الاستيلاء على الخليج المعروف بهذا الاسم . الا ان الاسبان تمكنوا من صدهم وردهم خاسئين .

وهكذا امتدت حدود الامبراطورية الاسبانية في كل اتجاه وعرف الاسبان كيف يناضلون دونها ويردّوا عنها تعديات جيرانهم .

وعرف شارل الثالث ، بوصفه « طاغية مستنيرا » ان يشدد من قبضته الادارية على الامبراطورية . فطبق ، عام ١٧٦٨ ، على الهند الغربية ، النظام الفرنسي الذي ادخله الملك فيليب الخامس ، على اسبانيا ، بتعيينه نظاراً او قهارمة مرتبطين رأساً بنائب الملك ، جاؤوا مرتبة ، فوق القباطنة العاملين وفوق الحكام العامين . كان عددهم كبيراً ، اذ قام منهم ١٢ في المكسيك ، و ٨ في البيرو ، و ٧ في لابلاتا ، فكانوا اكثر اهلية لادارة مقاطعة اصغر مساحة . وتمتع هؤلاء النظار بصلاحيات واسعة : مالية واقتصادية وعسكرية وفي مجال الامن العام . فتمكنوا من القضاء على مساوىء كثيرة في الادارة ، وحموا ، على الاخص ، الهنود ضد تعديات صغار الحكام الاسبان والمتزعمين . فالاصطدامات التي قامت بينهم وبين الانكليز ، والبرتغاليين ، والخوف الذي بعثه في نفوسهم مُثل الولايات المتحدة الاميركية العميق الاثر ، والتغييرات الاقتصادية ، كل ذلك سبب ، عام ١٧٧٨ ، إنشاء نيابة ملك جديدة ، في لابلاتا كانت عاصمتها بونس ايرس ، كما أدت الى إنشاء قبطانية عامة في الشيلي . كل هذا جاء جميلا انما زاد الادارة مركزية وشدد من المراقبة الادارية .

وشجع شارل الثالث الحياة الفكرية لتأتي وفقاً لما كانت عليه في البلد الأم . فأنشأ جامعات جديدة : في سنتياغو الشيلي ولاهفانا وكيتو . وأدخل على الجامعات القديمة تدريس علوم جديدة ، فأخذوا يدرّسون في جامعة مكسيكو علم الهيئة وعلم النبات ، وعلم المعادن والكيمياء . وقام في مكسيكو معهد خاص بتعليم علم المناجم ، وحديقة للحيوان والنبات أسسها غلفيز وزير الهند الغربية . وسمح عام ١٧٧٧ ، بادخال الطباعة الى غرناطة الجديدة ،

والى بونس ايرس عام ١٧٧٩ . وصدر في مكسيكو الـ *Le Journal Littéraire* عام ١٧٦٨ ، كما ظهر فيها عـام ١٧٨٨ الغازيت الادبية . وصدر في اماكن كثيرة جرائد عديدة . الا ان ديوان التفتيش ووزارة الهند اوصدتا بشدة ابواب الامبراطورية ، امام الكتب الاجنبية .

الا ان الاسس الاقتصادية التي قامت عليهـا سياسة البلاد الاساسية بقيت مرعية الجانب . فنظام الاستثناءات بقي معمولاً به بشدة والقاعدة الركينة لكل سياسة . فالشاغل الاكبر هو ان تصبح اسبانيا بعد تجددها وبعثها خير زبون للامبراطورية تصديراً واستيراداً [1] . فهـي وحدها دون سواها، تمد الامبراطورية بالمواد الصناعية وببعض المواد الغذائية . فقد حرّم شارل الثالث العرق المستخرج من نبـات الـ *Agave* ، الذي كان ينافس العرق الاسباني المصنوع من العنب . واستمر مرفأ قادس وحده المرفـأ الذي يتولى تصدير الحبوب ومواد غذائية اخرى ، كل سنة ، الى الامبراطورية التي كان بامكانها الاستغناء عنها . وبقيت التجارة محصورة بيـد الاسبان دون سواهم. وفي سنة ١٧٧٨ ، انتهى اجل العقد المعطى للشركة الانكليزية التي تتعاطى تجارة الرق *Asiento* فرأى الملك شارل الثالث ، في حرب الاستقلال الاميركية ، فرصة سانحة ليحتفظ بهذه التجارة لاسبانيا ، واجبر البرتغـال على التنازل له عن جزر فرناندو – بو وانوبون ، على سواحل افريقيا الغربية ، باعتبارهما مركزاً لتجـارة الرق الاسود . وفي سنة ١٧٨٠ ، رفض مشروعاً فرنسياً بانشاء ترعـة او قناة تربط ما بين نهر سان خوان وبحيرة نيكاراغوى ، وبذلك كان تم ربط خليج المكسيك بالمحيط الهادي ، فتختصر المسافة بين اوروبا وآسيا الوسطى ، مبرراً رفضه من خوفه ان يؤدي فتح هذا الطريق الجديد الى اشتداد تجارة التهريب ودخول التيارات الفكرية الاجنبية الى الامبراطورية الاسبانية .

فبالاضافة الى الجهود العظيمة التي قام بها لتطوير التجارة والصناعة في اسبانيا ،وحؤولاً دون قيام ابناء المستعمرات الاسبانية باحتذاء حذو الاميركيين في طلب الانفصال وانتزاع الاستقلال، راح الملك شارل الثالث ، عام ١٧٧٨ ، يعطي حرية الاتجـار بين اسبانيا والامبراطورية لـ ١٣ مرفأ اسبانياً ولـ ٢٤ مرفأ في اميركا ، من بينها بونس ايرس . وقـد استثنى المكسيك وحدها من هذا الحق ، فاحتفظ لمرفأ فيراكروز وحده ، باحتكار التجارة ، الا انه لم يسمح له باستيراد اكثر من ٦٠٠٠ برميل من مختلف البضائع والسلع ، في السنة كلها .الا ان المكسيك عرف بدوره ان يتمتع ، سنة ١٧٨٦ بحرية اكبر أدت الى مضاعفة علاقاته بين اسبانيا والامبراطورية ، وهي حرية لم تحدث اي تبدل في صلب نظام الاستثناءات المعمول به . ومع ذلك فقد حققت ازدهاراً عظيماً . فقد بلغ ما صدرته اسبانيا ، عام ١٧٧٨ ، الى الامبراطورية ، ما قيمته ٢٨ مليون ريال من البضائع الاسبانية ، وما صدّرته من البضائع الاجنبية ، بلغت قيمته ٤٨ مليون ريال . فقد شحنت عام ١٧٨٨ ما قيمته ١٥٨ مليون ريال من البضـائـع الاسبانية ، و ١٤٢ مليون ريال من

---

(١) – راجع الكتاب الثالث ، الفصل الثاني

البضائع الاجنبية. وباعت اميركا الاسبانية من اسبانيا بما قيمته ٨٠٠مليون ريال[1]. وهكذا اخذت اسبانيا تصدر وتستهلك اكثر من الماضي ، مما أدى الى إثراء مواليد الاسبان في المستعمرات ، واكتظاظ المدن بالسكان وازدياد حركة العمران فيها . وهكذا نرى ان عهد الملك شارل الثالث المستبد المطلق ، عاد بالخير العميم على بلاد الهند الغربية .

ومع ذلك فالتململ والتذمر ازدادا حدة. فقد بعث الاثراء ونماء الازدهار الشعور في النفوس بالحاجة الى الاستقلال كما ايقظ فيهم الوعي والشعور بالقيمة الذاتية فتملكهم الشعور الشديد بالحرية والتحرر الذي يعود عليهم بالمزيد من المغانم والمكاسب . وبالرغم من التدابير الزجرية والاجراءات الاحتياطية المتخذة ، فقد راحت الافكار والمبادىء الجديدة التي نادى بها الفلاسفة الفرنسيون تتغلغل بين سكان المستعمرات الاسبانية ، وتهريب الكتب وتسريبها سراً وانتقالها بين الناس كان على اشده . وعمل مربون فرنسيون على ادخال المبادىء التي نادى بها روسو واصحاب دائرة المعارف الفرنسية .

وقد قصد عدد كبير من الشباب في المكسيك وغرناطة الجديدة ولا بلاتا ، اوروبا ولا سيما فرنسا يتشربون الافكار والآراء الجديدة المسيطرة على اجواء باريس ، كما راح يستلشق هذا الجو المشبع بكل جديد من الافكار والنظريات التقدمية ، كثيرون ممن هبطوا باريس من الخارج ، ومواليد الاسبان في اميركا اقبلوا بعطش ، على تعلم الفرنسية والاستبحار في آدابها ، برغبة وتوق اين منهما رغبة الشباب الاوروبي . ولم نر في مكان ما من التعليقات والشروح على «روح الشرائع» لمونتسكيو الذي منه استمد الاميركيون مبادىء دستورهم الجديد ، مثل ما قام منها في الولايات والمستعمرات الاسبانية التي كانت اكثر اوساط العالم طراً اعجاباً به ولا سيما الشباب الاميركي الذين اطلعوا على تاريخهم الوطني من مطالعتهم وقراءتهم كتاب « تاريخ الفلسفة » الذي وضعه رينال . وقد خلف روسو وراءه تلاميذ تميزوا بالنشاط والحماس فكانوا خميراً بين النشء الجديد ، وهذه الجمعيات الادبية والثقافية التي رأت النور في جميع المدن الكبيرة القائمة في المستعمرات الاسبانية ، كان اعضاؤها وغيرهم من المتحمسين يقرأون ويرددون عن ظهر قلوبهم ، المسرحيات الفرنسية الكلاسيكية .

ان مَثل الولايات المتحدة والتشبه بها عمر النفوس بالأمل . فقد تغلغلت الافكار الجديدة بين الطبقات العليا في البلاد وبين رجال الادارة والضباط حتى اخذ بها واحتضنها دون برناردو اوهجنز ، ابن حاكم الشيلي . ورؤساء الاكليروس والمرسلون كلهم أخذوا بمَثل الولايات المتحدة حتى ان الخوارنة العاملين في خدمة مواليد الاسبان الروحية في المستعمرات كانوا من بين دعاة الانفصال .

ويبدو ان الاسبان المولودين في المستعمرات الاميركية عرفوا وحدهم ان يفيدو على الوجه الصحيح من نماء الغنى والثروة في البلاد ومن التطور الفكري الذي اخذت باسبابه . فالجامعات كانت وقفاً عليهم . والملونون هالتهم الفروق التي اخذت تباعد بينهم وبين البيض . فالكهنة الخلاسيون ، كثيراً ما جاشت نفوسهم بفكرة التحرر ، وكثيراً ما حرّضوا اخوتهم في الدم على المطالبة بالحرية . وبالرغم من سهر نواب الملك والنظار والمفتشين العاملين تحت امرتهم استمر صغار رجال القضاة في المدن في استغلال الهنود على ابشع وجه ، بالرغم مما يرزحون تحته من

(١) يجب ان نأخذ بعين الاعتبار ارتفاع الاسعار .

الضرائب الباهظـــة والرسوم القاصمة . وهكذا نرى ان طبقات الشعب الدنيا حكانت على أتم استعداد للسير في ركاب الثورة اذا قام من ينادي بها ويرفع لواءها ضد الاسبان وضد ذراريهم في البلاد .

كان عدد سكان اميركا الاسبانية يتراوح ، اذ ذاك ، بين ١٦ – ١٨ مليوناً اي بزيادة ٦ – ٨ ملايين اكثر من البلد الام ، بينهم ٣ ملايين من العرق الابيض ، معظمهم من الاسبان المتوالدين في البلاد ، ممـن زودتهم الحكومة بالسلاح وشدت من ازرهم بالمليشيا دفاعـــاً عنهم وعن المستعمرة . ولكن عدد البيض ضاع بين الهنود الذين زاد عددهم على ٨ ملايين ، اضف الى ذلك ٥ ملايين من الخلاسيين و ٧٨٠٫٠٠٠ من الزنج .

ففي سنة ١٧٨٣ ، رفع الكونت داراندا الى الملك شارل الثالث ، مذكرة بين له فيهـــا الصعوبة التي يقتضيها الحفاظ على المستعمرات الاسبانية ، واقترح عليه بالاّ تحتفظ اسبانيا بغير كوبا وبورتوريكو وبقطر آخر في اليابسة . اما ما تبقى من هذه المستعمرات الشاسعة الارجـاء فينشأ فيه ثلاث ممالك: واحدة منها في المكسيك، والثانية في البيرو ، والثالثة في داخل البلاد، على ان يعهد بالملك فيها لثلاثة من امراء العائلة المالكة يقيمون الولاء للمـــلك اسبانيا بوصفه امبراطوراً ، ويبقون مرتبطين باسبانيا تشدها اليهم وشائج وروابط التابعية والولاء ، وهـذه العلائق التجارية والمصالح المادية ، وموائيق هجومية ودفاعية ، تقوم بين الطرفين . اما شارل الثالث فقد ضرب بهذا الاقتراح عرض الحائط واطّرحه جانباً .

الا ان ريح الثورة عاد يعصف بالبلاد في الربع الأخير من القرن الثامن عشر ، اذا ما ضربنا صفحاً عن الثورة المشتعلة بين اقوام الأوركان في الشيلي . من لَفَحَات هذا الريـح الصرصر ، الثورة اللاهبة التي قام بها ، في البيرو، زعيم الإنكا : توباك–أمارو ، آخر سلالة «ابناء الشمس» الذي عرف ان يستغل الاحقاد والضغائن المعتملة في قلب الشعب لهـــذه الابتزازات الدنايا التي تعرض لها من قِبل صغار القضاة . الا ان هذه الانتفاضة الثورية انتهت بتقطيع اوصاله اربـاً في مدينة كوزكو (١٧٨١ – ١٧٨٣) . ومنها الثورة التي قام بها الاسبان وذراريهم في سنتا فيه بوغوتا (١٧٨١) ، وفي الشيلي بقيادة فرنسيين هما برنيه وغراموزيه ؛ والحركات العدائية التي قام بها المواطن الفنزويلي فرنسيسكو دي ميراندا ، المولود في كراكاس ، عام ١٧٥٠ ، والذي خدم ضابطاً في الجيش الاسباني وتتلمذ على اصحاب الموسوعة الفرنسية وعلى البنائين الاحرار ، فقام برحلات الى الولايات المتحدة الاميركيـــة ، والى انكلترا (١٧٨٠) وبروسيا (١٧٨٥) وروسيا (١٧٨٧) وراح يفاوض رجال السياسة من الاميركيين والانكليز ؛ ويستأنس برأي ملك بروسيا ، ويستشير امبراطورة روسيا كاترين الثانية ، مستمزجاً رأيهم، محاولاً ان يكسب عطفهم على حركة التحرر التي تقوم بها المستعمرات الاسبانية في اميركا، قبل ان يأتي الى فرنسا وينخرط في جيش الثوار ، تمهيداً لمحاولته النفخ في بوق الثورة في اميركا الاسبانية .

في هذا الجو العابق بروح الثورة ، رأى النور ، عام ١٧٧٨ ، سان – مارتن الذي كان ابوه عقيداً في الجيش الاسباني وحاكماً اسبانياً ، والمحرر العتيد للشيلي والبيرو . كذلك ، ولد عام ١٧٨٣ ، من اسرة ثرية ومن ذراري الاسبان ومواليدهم في اميركا ، بوليفار .

وفي سنة ١٧٨٩ ، غدوت لا تسمع الناس يقولون لك : « انا اسباني » بل « انا اميركي » . وهكذا طلعت على البلاد حركة التحرر ، واطلت عليها سحائب الثورة مزمجرة . فالردة التي قام بها شارل الرابع ، وفتح الفرنسيين لاسبانيا في مطلع القرن التاسع عشر ، ألهب الهشيم فتطايرت الشظايا تحرق الاخضر واليابس .

obeikandl.com

الفصل الثالث

الجـــزر

بين « جزر » البحر الكرايبي او جـــزر الانتيل الفرنسية والانكليزية اكثر من نقطة تشابه . فهي ، في نظر كل من البلد الام ، مستعمرات نموذجية ، هذه المستعمرات التي تمد الوطن الام بما يحتاج اليه ، في الاساس ، والتي لا يتوفر فيها شيء مما تنتجه البلد الام . فمزروعات التبغ والنيلة ، ولا سيما قصب السكر ، والبن تتسع فيها باطـــراد وتستوعب اعداداً اكبر من زنوج افريقيا الارقاء . وهذه المحاصيل والغلال هي محور حركة تجارية تعود على اصحابهـــا والقائمين بها بالربح الوافر : تجارة انكليزية مثلثة الاضلاع. فليفربول تشحن الى غمبيا والغينيه الخرداوات الحديدية والانسجة لتصبح فيها موضوع مقايضة بالزنوج الذين يسبحون بدورهم مادة للمقايضة مقابل السكر والروم والتبغ والدبس والقطن ، وكلها مواد تطلبها اوروبا وتصدّر اليها . وعلى مثـــل هـذا تجري في الجزر الفرنسية حركة تجارية تزفد سان – مالو ونانت ولاروشيل وبوردو وتجعل من فرنسا الند المنافس لانكلترا . وهكذا تؤلف هـــذه الجزر منطقة قوامها العرقية . فالزراعة تمتنع اسبابها ويستحيل الاخذ بها ما لم يتوفر لها مـــا يلزم من اليد العاملة ، يؤمنها رقيق من الزنج ، لا ينقطع معينه . « زنوج وما يحتاجون اليه من مواد غذائية ، هذا هو قوام الاقتصاد » في هذه الجزر . هنالك ارستوقراطية مؤنّقه قوامها اصحاب المزروعات تؤلف الطبقة ، العليا في البلاد ، تسمح للزنجي بالزواج من بيضاء ، وتقصيه عن الوظائف العامة وعن المراتب المسلكية في المليشيا ، وتحظر على الزنج ارتداء ازياء البيض، وتضن عليهم بالتعليم، وتعزلهم عن المؤمنين في الكنائس وينظر الكاثوليك شزراً الى العضو منهـــم في الكنيسة الكاثوليكية التي تقول بالاخوة الانسانية .

تتردى الجزر الانكليزية منها في وضع حرج يهدد بأوخم العواقب الحياة في الامبراطورية البريطانية ، كما رأى فيه كثيرون تهديداً للسلام في اوروبا . فقد ازداد استهلاك السكر كثيراً ، في اوروبا ، منـذ عـام ١٧١٣ . فليس من عجب قط ان يصبح قصب السكر محور النشاط الزراعي في جزر الانتيل . الا ان انهاك التربة واعياءها ، في الجزء البريطاني من هذه الجزر ، والضرورة لاستعمال المزيد بالتالي ، من العبيد والمخصبات الكيماوية تسببت في رفـــع الاسعار

والكلفة بصورة فادحة . اما في جزر الانتيل الفرنسية فقد كان الوضع على عكس ما هو عليه في الجزر الانكليزية تماماً ، اذ ان الارض فيها لم يجر استثمارها الا بعد استثمار الانكليز لجزرهم بزمن طويل ، ولذا بقيت التربة فيها مستريحة وغنية كما ان الزنوج فيها عملوا بشكل افضل وكان الانتاج بالتالي اقل كلفة ، ولذا استطاع المزارعون الفرنسيون ان يبيعوا محاصيلهم من السكر بسعر ٤٠٪ افضل . ومنذ عام ١٧٢٨ ، اخذ السكر الفرنسي يزحزح من طريقه السكر الانكليزي ، في اي مكان عُرضا للبيع معاً في اوروبا . ومما هو أنكى من ذلك واحز وقعاً في نفس الانكليز ، هو ان المعمرين الانكليز في انكلترا–الجديدة راحوا يتسوقون عصير الدبس والروم من جزر الانتيل الفرنسية ، ويصدّرون اليها ، بالمقابل ، الحبوب واللحوم ، ومواد البناء والسفن . فالانتيل البريطانية افتقرت لكل شيء واضطر المعمرون الانكليز ان يدفعوا للأميركيين الشماليين ثمن محاصيلهم الزراعية ، نقداً وعداً ، كما اضطروا لمضاعفة حركة التهريب في ارجاء الامبراطورية الاسبانية ، فكان ذلك سبباً في إطلاق شرارة الحرب ، عام ١٧٣٩ . فالانتيل الفرنسية رفلت بالبحبوحة والمخفضت فيها اسعار الحاجيات الضرورية وتمكن الفرنسيون من تخفيض سعر السكر فيها ، بحيث ان التجار الانكليز في الانتيل الانكليزية راحوا يشترون ، بالتهريب ، السكر الفرنسي لارساله الى لندن ، حتى ان انكلترا نفسها تم للسكر الفرنسي غزوها بعد ان كانت سوقاً محفوظة ، مبدئياً ، للسكر الانكليزي . واذ ذاك تحرك المزارعون الانكليز ، وكانوا من اصحاب النفوذ في بريطانيا . وبفضل ما كانوا عليه من بسطة العيش والغنى والنفوذ ، كثيراً ما كان يجري انتخابهم اعضاء ، في مجلس العموم البريطاني ، حيث كانوا يحاولون إفساد الضمائر . واذ كانوا ، في نظر الانكليز ، معمرين نموذجيين ، وزُبُناً ومصدرين لا مندوحة عن خدماتهم ، فقد كان الرأي العام دوماً على استعداد لمناصرتهم والاستماع بعطف الى مطالبهم . فطالبوا بمنع الاتجار بين انكلترا –الجديدة وجزر الانتيل الفرنسية . ان الاستجابة لهذا المطلب والاخذ به ، كان من شأنه ان يلحق الفوضى في النظام التجاري الانكليزي ، وذلك لاضطرار المعمرين الانكليز في انكلترا الجديدة للاتجار مع جزر الانتيل ، وذلك ليستطيعوا تسديد اثمان مشترياتهم من البلد الام : وقد نال المزارعون قانون عام ١٧٣٣ الذي فرض رسوماً عالية على العصير ودبس القصب الغريب الانتاج المستورد من البر الاميركي ، كما حملوا المجلس على إقرار القانون الآخر الصادر عام ١٧٣٩ ، الذي اجاز لهم بالرغم من المبادىء الاساسية للاقتصاد التجاري ، نقل السكر ، رأساً الى اوروبا . الا ان الاميركيين من سكان انكلترا الجديدة ، كانوا بحاجة الى كل جزر الانتيل كسوق طبيعية لهم اذ كانت تضم مجتمعة من السكان ما يوازي عدد سكان اميركا الشمالية . فقد كانوا بحاجة للحرية التجارية التامة او ضم جزر الانتيل الفرنسية .

ولذا اصبحت هذه الجزر فريسة عراك هائل تمثل في هذا التصادم الدائم الذي قام بين المعمرين والقراصنة والمهربين من كلا الدولتين المتنافستين ، كما راحت فريسة المطامع الدولية ، اذ ان « هذه الجزر » والنشاط التجاري الذي تقوم به كانت سبباً من هذه الاسباب لهذا العراك

الجبار بين الفرنسيين والانكليز ، ممثـــلاً بأوضح مجاليه ، بحرب خلافة النمسا وحرب السنوات السبع وحـــرب الاستقـــلال الأميركي . فقد اعتبر الفرنسيون معاهدة ١٧٦٣ ، نصراً كبيراً لهم ، اذ بالرغم من تنازلهم عمـــا لهم من حقوق عينية على جزر تباغو وسانت كروا وغرناطـة وغرينادين وسان فنسان ، استطاعوا ان يحتفظوا بخير زبنهم من جزائر الانتيل ، كما عرفوا ان يحتفظوا بجزيرة غوريه الصغيرة في عرض السنغال وجعلها قاعدة لتجارة الرق عندهم. وقد شعر الانكليز بمرارة الخيبة المحرقة ، وجاشت نفوسهم بالحقد ضد الوزير «بوت» احد وزراء الملك جورج الثالث ، لفشله في المفاوضات . ونزولاً عنـــد مطلب الرأي العام وارتياحاً منه للدور الذي تلعبه المستعمرات ، راح الملك لويس السادس عشر الذي تغلب عـــلى الانكليز ، يطالب عام ١٧٨٣ ، في معاهدة فرساي ، باسترجاع ما كان له من حقوق على تباغو وسانت لوسي ، والمراكز التجارية التي كانت لفرنسا في السنغال .

كانت « الجزر » تخضع مبدئياً لنظـــام الميثاق الاستعماري ، الا ان الغنى الذي رتع فيه المزارعون ، والأهمية المتزايدة الـتي كانت لمزدرعاتهم في المجال التجاري ، ارغمت الدول على القبول بعدة تنازلات . فالجزر الانكليزية نعمت بهيآت تمثيلية . اما الفرنسية منهـا في الانتيل فقد قامت فيها مجالس راحت تنافح عن مصالح المزارعين الذين كانوا موضوع رعايـــة الحكام ايضاً . وكان المعمرون يتذمرون من العراقيل الـــتي تقف حائلاً دون نشاطهم الجم ، ولا سيما الفرنسيون ، وظهر بينهم حوالي عام ١٨٠٩ ، تيار قوي يطالب البلد الام ، بالاستقلال الاداري ، حتى ان بعض الفرنسيين منهم ذهبوا للمطالبة بالانفصال .

الفصل الرابع

أميركا الشمالية الفرنسية والانكليزية حتى عام ١٧٦٣

البلاد وسكانها

وجد المغمرون الفرنسيون والانكليز انفسهم ، في اميركا الشمالية ، وسط خضم من الغابات البكر والاحراج الظليلة تفترش رقعة من الارض تساوي ربع مساحة اوروبا . فقد حاول البيض إعمار بعض القطاعات منها وعزق الارض واحيائها . فعلى مقربة من سيف البحر ، لم يعد يوجد ما يذكر بوجود الغابات في المنطقة ، سوى واحات حرجية ، تقوم هنا وهنالك . اما في المدى الابعد ، فالانفراجات الحرجية ، كانت تدق وتسترق بحيث تبدو وكأنها رقاع غبراء او صفراء في بحر متموج من الخضرة السندسية . فعلى مقربة من نهر المسيسبي ، خلفت الحرائق الهائلة الأكول التي اضرمها الهنود وراءهم ، صحارى شاسعة تكسوها الاعشاب الظليلة ، لتترك بعد حين المجال لسباسب لا حد لها تمتد مدى البصر . وباستثناء بعض المغامرين من رجال الكشف ، وبعض تجار الفراء ، كانت عملية الاستعمار والاستغلال تقوم على استثمار بعض الاحراج لما فيها من خشب للبناء او للسفن .

في هذه الفلوات عاشت اقوام الهنود من عرق مغولي ، صفر الجلد نافرو الوجنات ، سود الشعر على نعومة عند الملمس . عددهم قليل لا يتجاوز ٤٠٠ الف كما هو مرجح بالنظر لنمط العيش الذي كانوا عليه يتأرجحون بين نصف بداوة ونصف حضر ، يعولون على نظام زراعي ، قوامه زراعة الذرة وقطاف الثمار البرية ، وصيد الوعول والغزلان وريم الفلا ، والمعز البري . وفي سبيل القنص والصيد كانوا يتخلون ، في فصلي الربيع والخريف عن قراهم الخشبية ليعيشوا تحت الخيام . نظامهم الاجتماعي فوضى ، اذ كانوا يؤلفون احلافاً جذورها واحدة تتوزع الى قبائل تجمعها العصبية . ولكل قبيلة مجلس اختيارية يضم رؤساء القبيلة وقواد الحرب. وقد الفت قبائل الايروكوا الضاربة الى الشرق من بحيرات ايريه واونتاريو مع قبائل الكريك في الاباما ، اتحادات فيما بينها ، ملاطها الضام مجلس من الساشم *Sachems*، الا انه لم يكن للاتحاد اي وسيلة للضغط على القبيلة ولا للقبيلة اي تأثير على الحلف ، ولا للحلف اي تأثير على الافراد . وكان في مقدور اي هندي ان يقوم مع زمرة من اصدقائه بعمليات غزو وسلب ، وهي

عمليات كثيراً ما اضطرتهم اليها وحملتهم عليها قلة الدراية وعدم المداراة . والمعاهدات كثيراً ما انتهكت . وكانت الحرب قائمة باستمرار بين الهنود وبينهم وبين الاوروبيين .

فقد كانت حروبهم ضد الاوروبيين تنتهي بالفشل والهزيمة فيضطرون للتراجع والانسحاب . فقد ثقفوا استعمال الاسلحة النارية الا انهم لم يستمرئوا قط ما تم للبيض من تقنية زراعية . وقد عرف البيض كيف يستغلون رقعة صغيرة من الارض تسهل عليهم حمايتها والدفاع عنها ويحصلون منها محصولا طيباً من المواد الغذائية تكفيهم مؤونة السنة بكاملها. اما الهنود فكانوا يحتاجون الى اراض شاسعة تسرح فيها الماشية المعدة للذبح . وكل تقدم او تطور يحققه الاوروبيون كان يجر معه القضاء على القنص والصيد مما يضطر الهنود معه للانكفاء والتراجع الى الوراء تفادياً منهم لغائلة الموت جوعاً . وكان الهنود المتحدون فيما بينهم يستغلون ما بين الهنود من انقسامات ، فيقيمونهم بعضاً على بعض . ومن سوء حظ الهنود ان يكون العنصر الانكلوسكسوني هو العنصر الغلاب في اميركا الشمالية . فالفرنسيون عاملوا الهنود بالحسنى ، وحاولوا تفهمهم والتفاهم معهم ، وتربيتهم وتمثيلهم . وقد سن الاسبان قوانين ترمي للحفاظ عليهم . اما الانكلوسكسون فقد كانوا هنا ، كما في كل محل آخر ، عرقيين بالفطرة ان لم يكونوا من حيث المبدأ . فقد حملوا كرهاً شديداً لسكان البلاد الاصليين ونزعوا دوماً للقضاء عليهم . واذ كانوا على البروتستانتية فقد راحوا يبررون تصرفهم هذا منهم وسلوكهم وفقاً لنصوص التوراة وآيات الكتاب المقدس : فالله قد اقطعهم هذه الارض . ولذا ترتب عليهم ان يعاملوا سكان البلاد الاصليين كما عامل العبرانيون الكنعانيين في فلسطين .

المستعمرات الفرنسية

تألفت المستعمرات الفرنسية في اميركا الشمالية ، قبل كل شيء ، من فرنسا الجديدة التي تشكلت اصلاً ، من كندا . وقد اقتطعت منها معاهدة اوتريخت ، قسما كبيراً ضم اكاديا وجزيرة الارض الجديدة وخليج هدسون . وهكذا اقتصرت فرنسا الجديدة على العناصر الثلاثة التالية : اهمها وادي نهر السانت لوران الذي اخذ يكتظ بالسكان بسرعة كبيرة عن طريق التوالد والهجرة ، اذ ارتفع عددهم من ١٩،٠٠٠ نسمة ، عام ١٧١٤ ، الى ٦٦،٠٠٠ ، عام ١٧٦٣ . وقد ألفوا من بينهم اشبه ما يكون بـ « قرية » جبارة اعتمدت في معايشها على الزراعة وتربية الماشية . ولم يزد عدد السكان في مدينة كوبيك ، اذ ذاك ، على ٨٠٠٠ نسمة ، كما ان عدد سكان مونتريال بلغ ، في ذلك الحين ٤٥٠٠ نسمة . ثم يأتي ما سلم من اجزاء اكاديا القديمة : جزيرة سان — جان ، وجزيرة رأس بريطانيا يعمل فيها من ١٠ — ١٢ الف معمر ، واخيراً عدد من الارساليات التي يشرف عليها اليسوعيون وبعض المراكز التابعة لتجار الفراء ، وفقوا في اختيار مواقعها عند نقاط العبور والمخاضات بحيث اصبحت اليوم مدناً كبيرة عامرة ، منها فرونتناك وليغارا وديترويت وصولت — سانت — ماري وماكينباك ، ولابوانت (دولوث) .

ولم يكن اهتمام فرنسا كبيراً بهذه البلدان ذات المحاصيل والمنتوجات الطبيعية الشبيهة

بالمحاصيل الفرنسية من وجوه عدة ، باستثناء الفراء منها . ولم يكن ليرسو في مرفأ كوبيك اكثر من ٣٠ سفينة طوال السنة بكاملها . وكان يمضي وقت طويل على الموظفين والجنود العاملين في هذه المستعمرة قبل ان يعودوا الى الوطن الأم . وكان عدد كبير بينهم يتزوج ويشتري له بعض الاراضي يعمل في احيائها واستثمارها . والسلطات الادارية كانت تحاول ، وهي في عزلتها ، الوصول حثيثاً الى قيام وضع من التفاهم بينها وبين السكان حيث ران على الجميع جو من التفاهم والمشاركة ، يشد من ازرهم كونهم جميعاً على الدين الكاثوليكي المتأصل منهم بفضل كهنة غيورين. وعلى هذا النحو ، نعمت فرنسا الجديدة بشيء من الاستقلال الاداري . وكان الحكام يمتدحون عالياً ما أنسوا بينهم من المحبة رائدة جميع السكان ، كما كانوا يثنون على ما هم عليه من دماثة الاخلاق ونمط العيش الرضي، وكثرة المواليد في العائلة، والقناعة وما هم عليه من طيب استعداد للتعاون ومن نشاط لا يعرف الملل .

اما في حوض نهر المسيسبي ، فقد كانت مقاطعة ألينُوي او البلاد العليا مرتبطة ، منذ عام ١٧١٧ ، بمقاطعة لويزيانا التي كان يدير احوالها ، في بداية الأمر ، شركات تجارية ، ثم لم تلبث ان اصبحت ، منذ عام ١٧٣٣ ، مستعمرة ملكية . وقد تم استكشاف هذه البلاد وبُدىء باستثمارها على يد مرسلين وتجار هبطوا اليها من كندا . ولم يقم فيها سوى بعض قرى معزولة ، قليلة السكان ، منها شيكاغو وحصن سان لويس (بيوريا) وكاهوكيا وكسكاسيا وسانت جنفياف واورليان الجديدة (١٧١٨) . وقد تألف عدد السكان في مقاطعة ألينوى من ٤٠٠ من البيض ، ومن بضع مئات من ارقاء الزنج . وعدّت لويزيانا ٢٥٠٠ من البيض ، و ٤٥٠٠ من الزنج العبيد . فالى جانب تجارة الفراء ، كانت مقاطعة ألينوى تغل القمح لتموين مقاطعة لويزيانا التي كانت تعطي بدورها الخشب والماشية والقطران الذي يصدّر لجزر الانتيل ، والأرُز والنيلة والتبغ يصدر للوطن الام . وكانت الحكومة الملكية والرأي العام يعلقان اهمية كبيرة على مقاطعة لويزيانا التي كانت تفتقر جذرياً للمعمرين .

وهكذا نرى ان الممتلكات الفرنسية ، في اميركا الشمالية ، ألّفت لوحدها ، امبراطورية واسعة الاطراف ، قليلة السكان .

المستعمرات الانكليزية

شابهت المستعمرات الانكليزية ، المستعمرات الفرنسية من حيث تباعدها عن بعضها البعض وبما جاشت به من نزعة نحو الاستقلال الاداري . الا انها تميزت عنها بعدد اكبر من السكان ، وبانتاج أوفر وبحركة تجارية انشط بكثير ، وبالديانة الغالبة على الاهلين وهي البروتستانتية .

غذّى هذه المستعمرات حركة من الهجرة الواسعة . فقد بلغ عدد سكان هذه المستعمرات عام ١٧٠٠ نحواً من ٢٥٥،٠٠٠ نسمة ، ارتفع عددهم ، عام ١٧٦٣ ، الى ١،٦٤٠،٠٠٠ نسمة . فقد تكاثر عدد الزنج العبيد في الجنوب لتأمين اليد العاملة للمزدرعات . اما في الشمال ، فقد كان عددهم قليلاً ، حيث عملوا على الاخص في الاعمال المنزلية .

تنوع المستعمرات الانكليزية

تنوعت هذة المستعمرات كثيراً فيما بينها . فقد كانت كل واحدة منها مستقلة تماماً عن الأخرى ، وتقف الواحدة من الثانية موقف اللامبالاة ، ان لم نقل موقفاً معادياً . وكان بعضها يرفض شد أزر البعض الآخر في حالة قيام حرب ، وتفرض الواحدة رسوماً جمركية في وجه تجارة الاخرى . وكان يباعد احياناً بين الواحدة والاخرى مسافات شاسعة وصعوبة المواصلات مما يعرض الركاب والمسافرين للمخاطر . فالمسافة بين مقاطعة ماين ، في الشمال وجيورجيا في الجنوب ، تبلغ ٢٠٠٠ كيلومتر ، اي المسافة القائمة بين باريس ومدريد . فالطرقات والكباري والبحيرات كانت نادرة ، وكان التقدم الى الامام يتم ببطء كلي على هذه الممرات الضيقة والشعاب القائمة بين الغابات الظليلة ، حيث لا معالم غير ضربة فأس على جذوع الشجر ، يرى المسافر نفسه مهدداً بخطر الضياع او الغرق في النهر او البحيرة ، او التغيّط في المستنقعات . ان خبر اعلان استقلال الولايات المتحدة ، عام ١٧٧٦ اقتضى له ٢٩ يوماً ليصل من فيلادلفيا الى شارلستن ، وهي ذات المسافة التي يقطعها المسافر بين فيلادلفيا وباريس .

واختلفت بما باعد بينها من فوارق طبيعية وانماط المعيشة وغير ذلك من المنافع والمصالح والمشارب والتقاليد والاعراف . فالجنوب الذي تألف من مقاطعات ماريلاند وفرجينيا وكارولينا ، ثم من جيورجيا ، فيما بعد ، بلغ عدد سكانه ، عام ١٧٠٠ ، نحواً من ١٠٨،٠٠٠ ، فاذا بهذا العدد يرتفع عام ١٧٦٣ ، الى ٧٣٥،٠٠٠ ، بينهم ٢٨١،٠٠٠ من الزنوج ، وتوزع على الاجمال ، الى ممتلكات واسعة بلغت احياناً ٢٠٠٠ هكتار في كارولينا الجنوبية وجيورجيا ، كما بلغت احدى هذه الممتلكات ، في فرجينيا ٧٠،٠٠٠ هكتار . اما زراعاتهم فقامت على اساس تجاري ضمت : التبغ في ماريلاند وفرجينيا ، والأرز والنيلة في كارولينا الجنوبية وجيورجيا ، والتبغ والارز وتربية الماشية والخشب في كارولينا الشمالية . وتصرف المزارعون تصرف الاسياد المستبدين في مزدرعاتهم ، كانت تحت امرتهم قوة من المليشيا ويقضون بين الناس كحكام صلح ، ويصوتون على مشاريع القوانين كنواب . فقد كانوا اجمالاً على جانب لائق من الثقافة ، من خريجي الجامعات الانكليزية ، فأنشأوا لهم في منازلهم مكتبات عامرة .

اما في الشمال او انكلترا الجديدة (نيوهمشير ، ماستشوستس — ماين ورود ايلاندو كونكتكيت) الذي عدّ ٩٤،٠٠٠ نسمة عام ١٧٠٠ ثم ارتفع هذا العدد ، عام ١٧٦٣ ، الى ٧٩٥،٠٠٠ نسمة بينهم ١٧،٠٠٠ من الزنوج ، عام ١٧٦٣ ، فقد قامت فيه مجتمعات صغيرة ضمت كل منها عدداً من صغار الملاكين . فقد عوّلوا في معايشهم على زراعات مختلفة كالذرة والقمح والخضروات وحدائق التفاح وتربية الماشية . وقد تعهدوا بشرفهم الا يشتروا اية كمية من الخارج ، مهما صَغرت . حملهم فقر التربة عندهم على الاخذ بأسباب الصناعة والتجارة فتوزعت نشاطاتهم بين السفن المعدة للتصدير الى انكلترا ناقلة اليها الخشب والسمك ، واللحوم المقددة ، نقل المواد

خريطة 9- الفرنسيون والانكليز في اميركا الشمالية

١ - ممتلكات تخلت عنها فرنسا لانكلترا عام ١٧١٤ ، ٢ - ممتلكات تخلت عنها فرنسا لانكلترا عام ١٧٦٣ ، ٣ - ممتلكات تخلت عنها فرنسا لاسبانيا عام ١٧٦٣ ، ٤ - مستعمرات انكليزية ، ٥ - ممرات ومواصلات بين الشرق والغرب .

المصنوعة في انكلترا ، الى جزر الانتيل ، واستيراد عصير الدبس وثفالة القصب من هذه الجزر ومن المقاطعات الجنوبية ، فيخضعونه لعمليات تخمير معقدة لصنع مشروب الروم الذي تجري مبادلته في الغينيه بالزنوج الذين يباعون عبيداً أرقـــاء في الجنوب وفي الانتيل . وكان معظم السكان في هذه المقاطعة على مذهب البيورتين المغالين في العقيدة والمتعصبين ، الذين عُرف عنهم انهم لا يصنعون جعتهم نهار السبت لئلا تختمر يوم الاحد . اما التعليم عندهم فكان الزامياً بحيث يستطيع المرء قراءة التوراة ، مع ان عدداً كبيراً يكاد لا يعرف ان يوقع امضاءه. ومع ذلك، فقد قامت جامعة لهم ، في هارفرد (١٦٣٦) ، وبعـــد ذلك جامعة اخرى في يال . وكان الجدل السياسي ضارباً أطنابه بين الجامعات ، والقساوسة يجيشون بينهم بأفكار راديكالية ، هذه الافكار التي قال بهـــا وعلم كل من لوك ومونتسكيو وبلاكستون الذين قام لهم في وسط الجماعة تلاميذ ومريدون نشيطون . وكانت مدينة بوسطن الـــتي بلغ عدد سكانها اذ ذاك ، ٢٠،٠٠٠ نسمة ، مركزاً فكرياً وثقافياً هاماً .

اما القسم الأوسط من هذه المستعمرات ، فقد تألف من نيويورك ونيوجرمي وبنسلفانيا وديلاوير . وبلغ عدد السكان في هـــذه المقاطعات ٥٣،٠٠٠ ، عام ١٧٠٠ وهو عدد ارتفع عام ١٧٦٣ ، الى ٤١٠،٠٠٠ ، بينهم ٢٩،٠٠٠ من الزنوج . وقد حاز الملاكون ممتلكات من جميع المقاييس كما ان السكان كانوا خليطـاً من جميع الشعوب والمذاهب ، حيث ألف الانكليز أقلية نعمت بالتسامح الديني . اما المدن الرئيسية في هذه المنطقة فأهمها نيويورك حيث كانت تسرح الخنازير وتمرح ، وفيلادلفيا التي كانت أكبر مدينة اذ ذاك ، في اميركا الشمالية والـــتي امتازت بشوارعها وانتظام مساكنها . وهـــذه المنطقة التي نشطت فيها الصناعات الخشبية واشتهرت بمحاصيل الحبوب ولا سيما القمح والطحين وتنظيم رحلات قوافل السفن باتجاه جزر الانتيل وأوروبا الجنوبية ، ازدهرت فيها الاعمال التجارية على اختلافها .

وحدة هذه المستعمرات

جمعت بين هذه المستعمرات مصالح مشتركة متماثلة ، فقـــد تشابهت من وجهة وحدة الرأي العام بحيث استطاعت الصمود في وجه الحكومة الانكليزية فيما بينها . فقد تنوعت اوضاعها وتوزعت الى ثلاثة اشكال او ثلاثة اوضاع استعمارية مختلفة ، هي : مستعمرات ملكية ، ومستعمرات اقطاعية لبعض كبـــار الملاكين (ماريلاند وبنسلفانيا) ، ومستعمرات اعترفت براءات ملكية خاصة بملكية بعض الشركات لها (كونكتيكت ورود-ايلاند) ، وعاشت كلها في ظل نظام تمثيلي بورجوازي ، اذ كانت تنتخب لهـــا هيئات من ممثلين يقومون بالتصويت والاقتراع على مشاريع القوانين المعروضة . واحتفظت كل منها بحق الانتخاب للملاكين الموسرين ممن تتوفر فيهم شروط دينية خاصة . اما عدد الناخبين فيها فكان يتراوح بين ٨ – ٩ ٪ حتى ان عددهم في ماستشوستس وكونكتيكت لم يكن ليتجاوز ٢٪ وهنالك مجلس اعلى مشترك مكلف بالتصويت على مشاريع القوانين لدى القراءة الثانية ، وحاكم عام يسهر على تنفيذ هذه القوانين بعد اقرارها .

تمركزت القضايا السياسية في مقاطعتي كونكتيكت ورود-ايلاند حول استياء الذين حُرموا من حق التصويت وحردهم . تمتعت هـذه المستعمرات باستقلالها الاداري الواسع : فممثلو الشعب يقترعون بكل حرية ، على مشاريع القوانين ، ويختارون مجالسهم الخاصة وحاكمهم . اما في ماريلاند وبنسلفانيا فالمشكلة تمركزت حول المجلس والحاكم اللذين كان يقوم باختيارهما وتعيينها ، اصحاب الاملاك اذ ان القوانين لم تكن خاضعة لحق الفيتو . امـا في المستعمرات الملكية الثمان ، فالمعمرون كانوا في نزاع دائم مع المجلس والحاكم والملك . فالحاكم كان له حق الفيتو او حق رفض القوانين ، وفي حال اقراره لها، لم تكن قابلة التنفيذ الا بعد مصادقة المجلس الخاص لها . فالمعمرون يعتبرون انفسهم انهم اخبر الناس بنوع القوانين التي تصلح لهم ، فكانوا يفرضون ارادتهم على الحاكم ، بتهديدهم له الامتناع عن فرض الرسوم والضرائب التي يستدعيها الدفاع والادارة او اقرار الرسوم التي تتعلق بمرتبه ، مـع ان معـدل القوانين التي كان يلغيها لم يكن يتعدى ٥،٥ ٪ . ولذا اخذوا يطالبون بالغاء كل حق بالمراقبة ، والتمتع بحقوق السلطة التشريعية كاملة .

ومن جهة ثانية فقد أُخضعَت هذه المستعمرات لنظام الاستثناءات . فأخذ مكتب الزراعة والتجارة على عاتقه تحديد نمط الحياة الاقتصادية بتوجيهاته وارشاداته التي تستحيل فيما بعـد قرارات واحكاماً يصدرها الوزير او مجلس الملك . ان عدداً كبيراً من محاصيل المستعمرات لم يكن يسمح بتصديره الا لانكلـترا أو الى مستعمرات انكليزية أخرى ، وعلى المعمرين الذين يتسوقون من مستعمرة انكليزية ان يدفعوا رسماً اضافياً هو رسم الإستيراد ، والا كان عليهم ان يذهبوا من نيويورك الى لندن ليحصلوا على أرُز ولاية كارولينا . وقد أستُثني من هـذا التدبير ارز كارولينا منذ سنة ١٧٣٠ ، اذ أبيح تصديره رأساً الى البرتغال أو الى اسبانيا . ولا يُسمح باستيراد أية بضاعة او سلعة اجنبية الى المستعمرات ما لم تُشحن الى احد موانىء انكلترا ثم تشحن من جديد الى المستعمرة المستوردة . وفي سنة ١٧٣٣ ، صدر قانون جديد فرض على دبس القصب الاجنبي وثقالته رسوماً مانعة أو رادعة بينما استيراد القصب من جزر الانتيـل لم يكن يفي بالحاجة ، فلا بد والحالة هذه ، من الاعتماد على دبس وعصير جزر الانتيل الفرنسية لصنع مشروب الروم ، الذي كان بمثابة النقد اللازم للمقايضة في اسواق النخاسة . والصناعات على اختلافها اخذت تتطور في الاقسام الوسطى والشمالية من البلاد ، منهـا صناعة النسيج والحياكة ، وقبعات الكستور والحديد الخام ، وكلها مواد استطاعت ، منذ عام ١٧٥١ ، ان تدخل الى انكلترا ، بينما تصدير الغزول والانسجة والقبعات كان محظوراً . وحظر القانون الصادر عـام ١٧٥٠ ، على المستعمرات انشاء اي معمل او مصنع للتصفيح او اي مسبك او اي معمل حدادة او معمل نشارة . « فاذا ما خطر لاميركا ان تصنع عـلى ارضها مسماراً واحداً لكانت انكلترا تشعرها في الحال وتتدخل في الأمر بكل ثقلها وبطشها». ولذا كان الاميركيون في غاية الاستياء من هذه التدابير التعسفية ، ولا سيما من كان منهم في الوسط او في الشمال لان

الامر يعنيهم مباشرة . فقد كانوا مستائين اكثر منهم متضررين ، لان بعد اعلان هـذا المبدأ عالياً ، وتأكيد وجوب التقيد به كانت الحكومة البريطانية كثيراً ما تغض النظر عن المخالفات، وعن اعمال التهريب التي نشطت في هذا المجال . وقد حرصت على الأخص ، ان يفيد المعمرون ، على نطاق واسع ، من النظـام الاقتصادي البريطاني ، هذا النظام الذي هـدف الى افراغ الامبراطورية الانكليزية في وحـدة تكتفي نفسها بنفسها ، اذ كان يترتب على كل عضو او جزء من اعضاء هذه الامبراطورية وأجزائها ان يعطي او ينتج ما هو مهيّء بالأكثر لانتاجه . وكانت الدولة تدفع مكافآت لرجـال الصناعة عن كثير من الاصناف التي يصنعونها او يصدرونها الى المستعمرات . وكان سعرها يخفض للمستهلكين فيها . فألف هذا التدبير بحد ذاته ، عملية تسليف واعتبر بمثابة توفير رأس مـال . وهكذا كانت منتوجات المستعمرات موضوع احتكار في الاسواق التجارية البريطانيـة . فالمستهلك الانكليزي كان ملزمـاً بتدخين التبغ الاميركي واستهلاك السكر الذي تلتجه المستعمرات ، وان يستعمل القير او الزفت الذي تصدره ، وكان يدفع غالياً اثمان هذه السلع لعدم وجود منافس لها. فقانون الملاحة كان في مصلحة بناة السفن في انكلترا الجديدة اكثر منه لبناة السفن في انكلترا ، مع انهم كانوا يبتاعون الخشب فيها بأسعار مرتفعة . فالتقييدات الـتي نص عليها قانون عام ١٧٥٠ جاءت مقابل السماح بادخال عتلات الحديد الاميركي الى البلاد معفاة من كل رسم ، بينما الحديد الاسوجي كانت تفرض عليـه رسوم عالية منفّرة . ولذا فهيجان الرأي العام الاميركي وتذمره ليس ما يبرره او يزكيه . فقد قـام على اساس من عدم تفهم الامور على وجهها الصحيح وعلى جانب كبير من حب الذات والاعتداد القومي والفردية الشخصية .

وهذه المشكلات السياسية والقضايا الاقتصادية التي نشبت بـين انكلترا ومستعمراتها الاميركية طبعتها نزعة ظاهرة تركزت حول تأمين وحدة المستعمرات ، كما حملت في طياتها وبين ثنايا بذور الانفصال عنها. وزادت هذه الامور حدة خلال القرن مع التطور الاقتصادي الذي اخذت المستعمرات باسبابه ، ومع النجاح العظيم الذي حققته في الداخـل ، والصمود في وجه الفرنسيين في هذا النزاع الحاد الذي نشب بين الجانبين المتجاورين .

حركة الاسكان في المستعمرات حتى سنة ١٧٦٣

أهلت المستعمرات الاميركية بسرعة وعُمّرت بالسكان ، قبل عام ١٧٦٣ ، وذلـك بفضل ما انهال عليها من سيل لا ينقطع مـن المهاجرين الاوروبيين بعد ان اجتذبتهم اخبار الازدهـار المـادي الذي ينعم به الاهلون ، واغراهم رخص ثمن الاراضي وقلة تكاليف الحياة ، وارتفاع اجور العمال ، وسهولة الانضمام الى الطائفة الدينية التي يرغب بالانضواء اليها من قـال بمقالتها . فقد جاؤوا باعداد قليلة من انكلترا نفسها، وبأعداد أضخم من مقاطعة الاولستر إثر نزوح السكوتلانديين من ابناء الكنيسة المشيخية ، وتركهم البلاد بعد استفحال ازمة النسيج الحادة التي نشبت اثر صدور القوانين الخاصة بحماية التجارة . كذلك جاءت اعداد كثيفة من المانيا الرينانية حيث

جعلت الاضطهادات الدينية ، والحروب والنظام الاقطاعي المسيطر على البلاد ، الحياة صعبة قاسية ، والعيش عسيراً في وجه عدد كبير من الفلاحين . وقامت في نواح عديدة مكاتب تجميع عُهِدت الى دعاة جهزتهم ببيانات جذّابة ، مغرية ، حركت في قلوب الناس الشوق الى الاغتراب والهجرة . الا انه كان لا بد للراغبين في النزوح والسفر ان تتوفر لهم نفقات الطريق ورأس مال صغير يساعدهم على السكن والاستقرار بعد وصولهم سالمين الى حيث يقصدون . فالفقراء المعدمون منهم وقّعوا تعهدات اشترطت عليهم شروطاً معينة قبلوا بها وتعهدوا النزول عند مقتضياتها . فكان قبطان السفينة التي تنقلهم يودعهم عند وصولهم الى الشواطىء الاميركية ، في نزل خاص ، فيأتي المعمر الراغب في الحصول على اليد العاملة ويدفع للقبطان مبلغاً من المال يزيد مرتين او ثلاث مرات على تكاليف السفر ، ثمناً للعامل الذي وقع عليه الاختيار . فكان هذا يتعهد له بالعمل في خدمته ثلاث او خمس سنوات ، يتلقى عند انتهاء اجل العقد من رب العمل ، الالبسة والادوات والعدد اللازمة وحيوانات الجر ومبلغاً من المال بحيث يتمكن من ان يعمل لحسابه الخاص معتمداً على نفسه ونشاطه . وهكذا ، بالرغم من رحلة شاقة تستغرق بضعة اسابيع او عدة اشهر ، يعتبر المسافر نفسه محظوظاً ، الى حد بعيد اذا لم تقع عينه في النهار على اكثر من جثتين او ثلاث يقذف بها البحارة الى اليم ، ممن يموتون على ظهر السفينة ، اثناء الرحلة لكثرة ما كانت تغص به من الركاب . اضف الى هذا السيل الجارف ، عدداً من المبعدين او المنفيين يجري ابعادهم الى المستعمرات ، بلغ عددهم ٥٠ الفاً بين ١٧١٧ — ١٧٧٩ ، حُكم عليهم بالاشغال الشاقة مدة سبع سنوات ، بينهم بعض رجال السياسة الذين رؤي التخلص من مضايقاتهم ، وبعض المحكوم عليهم بجنح من قبل القضاء الذي كان يأخذ الناس بالشدة ، فاذا بهم بعد لأي من الزمن يصبحون من اقوَم المواطنين واصلحهم اخلاقاً ونشاطاً للعمل في البلاد .

وعند انتهاء أجل عقود هؤلاء النازحين عن ديارهم ، والتحرر من ارتباطاتهم ، كان كثيرون منهم يتجهون غرباً سعياً وراء اراضٍ حرة تباع لهم بابخس الاسعار أو يستملكونها بمجرد وضع اليد ، يسيرون في خطى تجار الفراء . ومعظم هؤلاء الرواد من السكوتلانديين ، يبنون لهم اكواخاً من جذوع الشجر ، يعزقون الارض ويحيونها ثم يزرعونها ناهجين في عيشهم نهج الهنود يقتاتون من بعض نتاج الارض مما يزرعون او مما يقعون عليه من صيد او قنص ، ثم لا يلبثون ان يتخلوا عن ارضهم لراغب فيها طارىء ، وينزحون هم الى ابعد ، باتجاه الغرب . وكثيراً ما حل محلهم أُسَرٌ ومعمرون احسن عدة وعتاداً ، معظمهم من الألمان ، فلا تعتم ان ترتفع في الأرض الحدائق والمغروسات وتنشأ فيها المزارع ، وتأخذ رقاع الغابات بالتقلص والضمور حتى تصبح معالمها واحة أو جزيرة في السهل المنبسط على مدى البصر . وعندما تعترض سيرهم مساقط المياه والشلالات يتحول هؤلاء الرواد الى بنسلفانيا ويتغلغلون بين ثناياها ويهبطون أودية الابالاش ويقيمون لهم المنازل في رؤوس الوديان في فرجينيا او كارولينا . وهكذا قامت انشاءات على

الاراضي المرتفعة كما قام منها العديد على السواحل ، في هذا الغرب الديموقراطي ، حيث الرجل الموفور الكرامة الذي يتمتع بالشهرة الواسعة والجاه العريض ، هو من يقطع بفأسه اكثر من غيره من الاشجار في سبيل « احياء الارض وتعميرها » ، والذي كان في مقدوره ان يسلخ جلدة رأس عدد من الهنود ، بعكس المنطقة الشرقية التي كانت بورجوازية .

فمنذ سنة ١٧٣٠ راح المزارعون على سواحل فرجينيا من عائلات لي *Lee* وواشنطون ينشؤون لهم شركة واستحصلوا على ارض مساحتها ٢٠٠،٠٠٠ ايكر (٨٠،٠٠٠ هكتار) في وادي اوهايو ، لتوطين بعض المعمرين هنالك . وفي سنة ١٧٤٩ ، وعدت سلطات فرجينيا شركة اخرى باسم شركة : لويال لاند ، بان تضع تحت تصرفها اراضي مساحتها ٨٠٠،٠٠٠ ايكر (٣٢٣٠٠٠ هكتار) تقع الى الغرب من جبال أليغاني .

في هذه الحركة من التوسع والانتشار يقوم بها تجار الفراء والرواد المستكشفون واصحاب رؤوس الاموال ، اصطدم هؤلاء بالهنود والاسبان والفرنسيين. فقد قام بينهم وبين الهنود صراع دائم كانت معه المستعمرات تقدم مكافأة لمن يأتي برأس هندي . ووقعت بالفعل حروب دامية كالتي اصطلى بنارها اقوام تشيروكي في جيورجيا او تلك التي وقعت في ولايتي كارولينا الشمالية والجنوبية ، سنة ١٧٥٩ و ١٧٦١ . ونال جيمس أوغلثورب ، عام ١٧٣٢ امتيازاً بانشاء مستعمرة له في جيورجيا الى الجنوب من سفانا مزاحمة منه للاسبان في فلوريدا، مما أدى الى سلسلة من الغزوات والاصطدامات بينهم وبين الاميركيين اضطر معها الاسبان للتنازل عن فلوريدا للانكليز ، عام ١٧٦٣ . ولكن النزاع الطويل هو الذي قام بين الانكليز وبين الفرنسيين .

النزاع بين الفرنسيين والانكليز

ضربت المستعمرات الفرنسية نطاقاً محكماً حول المستعمرات الانكليزية ، واصبح الفرنسيون ، بعد عام ١٧١٥ ، في وضع يسيطرون معه على تجارة الفراء . فالتجار والمعمرون الانكليز هم الذين باشروا الحرب اولاً ثم جروا اليها الهنود واخيراً ارغموا الحكومات على الدخول فيها والانغماس في ميدانها على غير رضىً منها تقريباً .

بالرغم من معاهدة اوترخت احتفظ الفرنسيون بتفوقهم في تجارة الفراء ، بفضل رحّاليهم ورواد المستكشفين. فالرحلات التي قام بها فيرندري، باتجاه الشمال الغربي، اتاحت له الاتصال المباشر بالقبائل التي تقوم بعملية الصيد وتمكنوا من تحويل تجارة الفراء نحو مونتريال. والرحلات الاستكشافية التي قام بها سان — دنيس ، بين ١٧١٤ — ١٧١٧ ، فاجتاز معها مقاطعة التكساس وبلغ منها نهر الريو غرانده ، والرحلات الاخرى التي قام بها لاهارب، فصعّد بعيداً في النهر الاحمر (١٧١٩ — ١٧٢٠) والاركنصو (١٧٢٢) ، وهذه الرحلات الاخرى التي قام بها بورمون ، فمكنته من استكشاف الكنصاس (١٧٢٣) ، وعمليات الاستكشاف التي قام بها الأخوة ماليه اللذان انطلقا من نهر ميسوري واجتازا نبراسكا والكنصاس والكولورادو (١٧٣٩) ، كل

هذه الرحلات وعمليات الاستكشاف الواسعة النطاق التي رافقتها ، ساعدت على ازدهار تجارة الفراء في اورليان الجديدة . وبفضل تفوق المواصلات البرية ، تم السبق للتجـــار الفرنسيين على التجار الاميركيين في ألباني ونيويورك ، مع ان هؤلاء كانوا يحصلون على البضائـــع الانكليزية بشروط ٥٠٪ افضل ويستخدمون نهر الهدسون الذي كان حراً من الجليد طوال السنة. ومن جهة اخرى ، وبالرغم من البند الخامس عشر من معـــاهدة اوتريخت التي اعطت الجنسية الانكليزية لاقوام الايروكوا ، انتشر الكنديون في المقاطعات الواقعة الى الجنوب من بحيرات اونتـــاريو وايريه وسان – لوران ، باتجاه خط مقسم المياه بين البحيرات الكبرى والمحيط الاطلسي .وقد اصطدم الرواد البروتستانت القادمون من انكلترا الجديدة في تقدمهم ، بالكنديين الكاثوليك ، فنظروا اليهم نظرة العبرانيين الى العمالقة والمديانيين المستوجبين عندهم للذبح والافناء ، كالهنود مثلاً بمثل .

ولذا نشبت الحرب بين الجانبين واحتدمت بينهم بالرغم من رغبة الحكومتين بالمحافظة على السلام . ونال التجار الانكليز ، عام ١٧٢٧ ، من قبائل الايروكوا ، السماح لهم بانشاء حصن في أوسوينغو على بحيرة اونتاريو ، ومنه اخذوا ينطلقون غرباً ويشعون عن طريق الاوهايو . ولكي يوقفهم الفرنسيون عنـد حدهم ويحولوا دون تقدمهم ، راح الفرنسيون يبنون حصن فنسين على نهر الواباش ، كما راح تجار نيويورك وبنسلفانيا ، ينقلون عن طريـق الايروكوا ، الاسلحة الى اقوام الرينار في مقـاطعة الفسكنسين والألينوى وحرضوهم على الحرب ضد الفرنسيين ، وهي حرب استمرت حتى سنة ١٧٣٠ . وتقدم تجار كارولينـــا حتى الاركنصو ، وحرضوا عام ١٧٢٩ ، قبائل الناتشز على الثورة ضد الفرنسيين . كذلك عملوا على تسليح اقوام شيكاشا وعلى تنظيمهم وتدريبهم ، ثم دفعوا بهم ، عام ١٧٣٦ ، الى مهاجمة القوافل الفرنسية التي كانت تسير ونهر المسيسبي .

واثناء حرب خلافة النمسا ، احتل المتطوعة الانكليز ، في انكلترا الجديـــدة ، مدينة لويسبورغ (١٧٤٥) التي اعادتها الحكومة الانكليزية ، الى الفرنسيين مقابل مدينة مدراس ، في الهنـــد ، مما اثار حفيظة سكان بوسطن واحتجاجاتهم . وكان الانكليز خـــلال الحرب مسيطرين على البحار ، فلم يصل الفرنسيين سوى النزر النزير من البضائع ، كما ان اسعار الحاجيات والسلع على اختلافها ارتفعت كثيراً بحيث بلغت ١٥٠٪ ، واستطاع تجار بنسلفانيا ان يكسبوا ، الى جانبهم ، القبائل الهندية وان يؤسسوا لهـــم مدينة لُغتاون ، الى الجنوب من بتسبورغ ، وحصن بيكاولاني ، الى الجنوب الغربي من بحيرة ايريه اللذين اصبحا مركزين هامين للتجارة في تلك النواحي .

فالصلح الذي عُقد عام ١٧٤٨ ، في اكس لا شابيل ، لم يغير شيئاً ولم يوقف شيئاً .وحافظ التجار الانكليز على مواقفهم . واستمر آل واشنطون وآل لي *Lee* ، في محاولاتهم ومشاريعهم

الاستثمارية لوادي الأوهايو ، وراح انكلوسكسون هاليفكس التي انشئت عام ١٧٤٠ يهاجمون دونما نتيجة ، سكان اكاديا، عام ١٧٥٠ .وبتحريض من حاكم بوسطن راح المعمرون الانكليز، في انكلترا الجديدة ، يتقدمون من خط مقسم المياه حيث اصطدموا بخطوط الدفـــاع الكندية وراحوا يتحصنون في مراكزهم الامامية .

وقد اوجس الحـــاكم الفرنسي في كندا السيد لاغارسونيير خيفة من ان تنقطع اتصالات فرنسا الجديدة مع مقاطعة لويزيانا. فجرد حملة فرنسية استرجعت الاوهايو، ودكت عام ١٧٥٢، حصن بيكاولاني . وراح خلفه الحاكم دوكسن ينشيء خطاً من القـــلاع والحصون ، تأميناً لوصل كندا بالاوهايو . وفي سنة ١٧٥٣ ، دفع المعمرون في فرجينيا ، الحاكم على انشاء حصن لهم في الموقـــع الذي تقوم عليه مدينة بتسبورغ ،عند تشعب نهر الاوهايو الملقب : «الباب الى الغرب » . فاستولى عليه الكنديون ودكوه الى الارض وبنوا مكانه حصناً كبيراً باسم دوكسن واذ ذاك ، انفذ حاكم فرجينيا كتيبة من المشاة بقيادة احد كبـــار المساهمين بشركة الاوهايو ، هو جورج واشنطون . وفي ظروف غامضة ، مبهمة ، وقـــع قتيلاً قائد الكتيبة الفرنسية جومونفيل الذي كان متوجها بصفته مندوباً ممثلاً لحكومته . واضطر واشنطون للالتجاء الى قلعة ارتجل بناءها عرفت باسم « الحصن المرتجل » ، واستطاع الفرنسيون من ارغامـــه على الاستسلام بعد ذلك بقليل في ٢٠ تموز ١٧٥٤ .

اجتمع ممثلو المعمرين الانكليز في مدينة الباني ، في شـــهر حزيران ، الا انهم لم يتوصلوا الى اتفاق فيما بينهم . ولذا قرروا الاتصال بالبلد الام . وفي تلك الاثناء انهزم الجيش الانكليزي وجيش المليشيا التابع لفرجينيا ، شر هزيمة امام حصن دوكسن ، وفي ٩ تموز ١٧٥٥ ، وبفضل هذا النصر عاد الهنود الى تحالفهم مـــع الفرنسيين . وراح جيش فرنسي يسير باتجـــاه الباني ونيويورك ، متبعاً في سيره الوادي الجليدي التكوين الكبير الذي يسير فيه مجرى نهر ريشليو ، والذي تقع فيه بحيرتا تشامبلين وجورج ، الا انه انهزم عند بحيرة جورج ونجح من جهة ثانية ، الهجوم الذي شنته مليشيا بوسطن على اكاديا . وحدث من جراء ذلك ان تم ابعاد سبعة آلاف من سكان اكاديا الكاثوليك ، وبذلك حيل بين الابناء ووالديهم ، والازواج وزوجاتهم، كما تعرضت النساء للضرب العنيف ومات تحت الضرب عدد منهن . ومن اصل هؤلاء الآلاف السبعة قضى اربعة منهم فريسة البؤس والعناء وتمكن ثلاثة آلاف آخرون من الافلات والفرار والنجاة بانفسهم ، واستهدف بعضهم لسلخ جلدة رؤوسهم اذا ما شاء نكد طالعهم وحظهم العاثر ان يقعوا من جديد في قبضة الانكليز . واحرقت القرى والدساكر ليزيدوا من شقاء الفارين وهلعهم . وصودرت املاكهم واراضيهم ووزعت بين معمرين اميركيين . « وهكذا راح هذا الشعب الشهيد فريسة قوة طاغية اظهرت من الفظاظة والفظاعة وعدم الحياء مـــا لا يختلف بشيء عما تضرست به اوروبا وراحت فريسة له في تلك الآونة» .

ومع هذا كله ، كانت فرنسا وانكلترا لا تزالان رسمياً بحالة سلم . الا ان مهاجمة الاميرال

الانكليزي بوسكوين ، في حزيران ١٧٥٥ ، بدون سابق اعلان حرب ، لقافلة من السفن الفرنسية ، في طريقها الى كندا ، ثم مهاجمة كل السفن الفرنسية ، في تشرين الثاني ، افضى الى حرب مكشوفة بين الدولتين ، في كانون الثاني ١٧٥٦ . واذ كانت الحكومة الفرنسية منهمكة في الحرب القائمة اذ ذاك ، على القارة الاوروبية ، المعروفة بحرب السنوات السبع ، فقد اهملت شؤون كندا . وعندما راح مندوب فرنسيي كندا يطلب ، عام ١٧٥٩ ، امدادات لتقوي من موقفهم الصعب في الحرب ، رد عليه وزير المستعمرات قائلاً : « عندما تكون النار عند ابواب منزلك ، يا سيدي ، فلا يعود من الجائز التفكير بالاصطبلات» . اما التفكير الانكليزي فكان على عكس ذلك تماماً . اذ تصبح حرب المستعمرات في نظرهم ، هي الساحة الاولى والمجال الرئيسي لها ، وتمسي مشروعاً قومياً وصليبية مقدسة .

ومع ذلك ، وصل في شهر مايو ١٧٥٦ ، القائد الجديد للقوات الفرنسية ، هو المركيز دي مونكالم الذي عُرف بروحه المرحة ، وبُعد تفكيره ، ونشاطه وشجاعته ، وعرف بالتسعة آلاف من الجيش النظامي الفرنسي وبقبضة من جنود الميليشيا وبعض الهنود ، ان ينظم صفوفه وان يصمد في وجه القوات الانكليزية التي كانت تفوق قواته كثيراً ، والتي كانت تتلقى الامدادات باستمرار اذ وصلها ١٢،٠٠٠ عام ١٧٥٧ ، و١٤،٠٠٠ عام ١٧٥٨ ، و٩٠٠٠ ، عام ١٧٥٩ ، عدا عن جيش الميليشيا العامل في المستعمرات الانكليزية الذي يزيد على مجموع هذه القوى بكثير . فراح مونكالم يؤمن ، قبل كل شيء ، سلامة وادي الاوهايو ، باستيلائه على حصن اوسويغو ، في آب ١٧٥٦ . وفي سنة ١٧٥٧ ، امّن طريق مونتريال باستيلائه على حصن وليم ـ هنري الواقع عند بحيرة جورج . وفي سنة ١٧٥٨ ، راح الانكليز يستغلون تفوقهم العددي الساحق ، فبادروا للهجوم من ثلاث نقاط ، في وقت واحد . فقد فشل سيرهم رأساً ضد مونتريال ، اذ استطاع مونكالم ، بقوات ٦ مرات اقل ، ان يلحق بهم الهزيمة الى الجنوب من بحيرة تشمبلين ، عند حصن تيكوندروغا . الا انهم استولوا على حصن فرونتناك وحصن دوكسن وبذلك تمكنوا من فصل كندا عن مقاطعة لويزيانا ، كما فصلوها تقريباً عن فرنسا الجديدة باستيلائهم على لويسبورغ . واخذت قوى الجيش الفرنسي بالتناقص والانخفاض. وفي سنة ١٧٥٩ ، قام الانكليز بهجوم مركز على كوبيك ومونتريال ، مستخدمين لانجاحه بحيرة اونتاريو ونهر ريشليو ومصب نهر سان لوران . فالطوابير المهاجمة من الجنوب اخفقت في تحقيق اهدافها بالرغم من احتلالها حصون تريكوندوغا ونياغارا . والعبارة الانكليزية في سان لوران ، فشلت هي الاخرى ، في بدء الامر ، في مهاجمتها لخطوط الدفاع القائمة الى الجنوب من كوبيك . الا ان القائد البريطاني وولف المعروف بعناده ، قام بمناورة جريئة رائعة ، اذ نقل قوة انكليزية عبر النهر ، كما انزل قوات اخرى الى الشمال من المدينة ، ودار في ١٣ ايلول قتال عنيف بين الفريقين ، قتل فيه كل من القائدين : وولف ومونكالم ، الا ان الانكليز بقوا مسيطرين على الوضع . وهكذا اضطرت كوبيك للاستسلام في ١٨ ايلول ١٧٥٩ . وتمكن

الشفاليه دي لفيس من الصمود سنة ثانية ، وانتصر في نيسان عام ١٧٦٠ ، على الانكليز عند ابواب مكوبيك . الا ان الامدادات لم تصله من فرنسا ، فراحت ثلاثة جيوش انكليزية ، تضرب الحصار حول مونتريال ، فاضطرت المدينة للاستسلام في ايلول ١٧٦٠ ، لحاجة المدافعين للاعتدة الحربية والمؤن والقوى اللازمة لمتابعة الحرب . وبموجب معاهدة باريس ، في ١٠ شباط ١٧٦٣ ، اضطرت فرنسا الى ان تتخلى لانكلترا عن كندا وعن وادي الاوهايو وضفة المسيسبي اليسرى . وهكذا زالت الامبراطورية الفرنسية في اميركا الشمالية من الوجود ، وراح المعمرون الانكليز يستسلمون في الخيال للاحلام المعسولة امام غنى هذه المجالات الشاسعة الغنية بمواردها التي انفتحت آفاقها امامهم .

obeikandl.com

الفصل الخامس

استقلال المستعمرات الانكليزية في أميركا
(١٧٦٣-١٧٨٣)

الشعب الاميركي

ما كادت عشرون سنة تمر على انتصار انكلترا على فرنسا وانتزاعها ممتلكاتها في شمالي اميركا ، حتى كانت المستعمرات الانكليزية قد انفصلت عن انكلترا واستقلت عنها تماماً . لم يأت هذا الاستقلال فط وليد ارادة رغبت فيه وهيأت له الأسباب . ان عدداً كبيراً من المعمرين في اميركا بقوا على تعلقهم بالوطن الأم . وعندما كان يخطر لبعضهم الذهاب الى انكلترا ، كانوا يقولون انهم ذاهبون الى « بلادهم » ، وأثناء الثورة الاميركية ، وبالرغم من الاصطدامات العنيفة التي قام بها كلا الجانبين بقي هنالك ما لا يقل عن ثلث السكان يحتفظون بولائهم للانكليز ، كما بقي على الحياد ، في هذا المصطرع ، ثلث آخر ، ولم يبق في الميدان سوى ثلث « الوطنيين » الذين قرروا ، في اللحظة الأخيرة ، والأسف يحز في نفوسهم ، والغصة في حلوقهم ، القيام بالخطوة الحاسمة .

الا ان المعمرين كانوا قد استحالوا ، دون ان يشعر أحد من الناس ، ولا هم تبينوا في مطلع الأمر ، كيف انهم أصبحوا ، شعباً جديداً هو الشعب الاميركي . فقد برزوا من هذا المزيج او الانصهار الذي تم بين المهاجرين والسكان ، وكلهم من اصل انكلوسكسوني ، دون ان تتم لهم السيطرة على كل شيء . فقد كان ثلثا سكان بنسلفانيا من السكوتلانديين نزحوا من مقاطعة الاولستر في ايرلندا الشمالية ومن الالمان . أما الجنوب ، فكانه جهرة سكانه في الداخل أجانب . وتخلق هؤلاء الناس ، في مثل هذا المحيط والبيئة الجديدين ، باخلاق وعادات جديدة ، وتمت لهم اعراف واحدة مشتركة فيها بينهم . ولغتهم الانكليزية ، احتفظت ببعض التعابير والمصطلحات القديمة ، وببعض التراكيب التي عفا اثرها لدى الانكليز ، واقتبسوا عن الهنود وعن المهاجرين الجدد ، اوضاعاً ومسميات وكلمات جديدة . فتطلعت نفوسهم الى روح المغامرة وهاموا بالجديد من كل شيء . وهذا المجتمع الجديد الذي طلعوا به كان أكثر ديموقراطية ، في مجموعه مما هو عليه المجتمع البريطاني المعروف بروحه المحافظة . فباستطاعة أي متطوع في الجيش أو أي متطوع بخدم فيه ان يثري وان يرتفع ويرقى الى المراتب الأولى . فالغرب منه كان أكثر اخذاً بالعقلانية من

الشرق ، حتى ان المزارعين في الجنوب تشربوا بتعاليم لوك ومونتسكيو وبكّاريا والموسوعيين الفرنسيين . فقد احتفظوا بهذه الروح الثورية التي جاشت بها انكلترا ، حيناً، الا ان جذوتها خمدت في الوطن الأم ، فيما بعد وخفت ريحها . ومن جهة ثانية ، فالكنيسة التي كانت توصي بالطاعة والامتثال للملك اقتصر اثرها على الجنوب وعلى نيويورك ، أما في ما عدا ، فالأمر كان بيد المشاقين . ومع نظريات العقد [الاجتماعي] رفرفت فوق النفوس ، في كل مكان ، روح من سوء الظن والريبة نحو السلطة ، والرغبة في تحديها والصمود في وجهها .

وامتنع التفاهم بين الانكليز والاميركيين . فالانكليز كانوا يزدرون : « رعايانا في اميركا ». ودار في خلد العسكريين منهم واستقر في يقينهم ان المعمرين أكثر من جبناء بحيث يستطيعون الصمود ، وانهم سيفرون زرافات ووحدانا لدى أول لقاء بهم أو اصطدام معهم . وكان صموئيل جونسن (١٧٠٩ – ١٧٨١) اكتب كتاب الانكليز وأبعدهم شهرة في هذه الحقبة يردد: « نحن أمام عرق من ذراري من حُكم عليهم بالاشغال الشاقة ، يا سيدي » . بالطبع لم يكن هذا الكلام وما أشبه مما يطيب للاميركيين سماعه او مما يشنّف آذانهم ، عندما يأتون لانكلترا ، فيتبرم كبرياؤهم من مثل هذه الآراء فيهم . وقد هالهم ما هي عليه الطبقة العليا في انكلترا من تفسخ الأخلاق ومن فشاء روح التشكك وحب التنعم بلذاذات ، وفساد الطباع وشيوع ذلك فيما بينهم بالرغم من « وشلي » ومن نزعتهم القديمة الى السيطرة والحكم المطلق .

كان من المتوجب على الحكومة البريطانية ان تستعمل معهم الكثير من الدراية والمداورة واللين . وكأنه حلا لها ان تصدم باستمرار مصالح الاميركيين وتثير مشاعرهم ، وبذلك جعلتهم يعون ، أكثر فأكثر ، ما يباعد بينهم وبين انكلترا ، ويدركون ، أكثر فأكثر ما يوحد بينهم ، فساعدت بذلك على ان تجعل منهم أمة مترابطة متراصّة .

روح السيطرة البريطانية والمقاومة

ثمل الانكليز بانتصاراتهم الداوية فراحوا يطبقون، الى اقصى حد ، بعد عام ١٧٦٣ ، النظرية الاقتصادية القديمة التي قامت على الاستثناءات . فهم تصوروا الامبراطورية البريطانية مجموعة من البلدان والأقاليم والشعوب والأمم يجد بينها كل انكليزي ما يشبع اطماعه ويروي غليله على ان تبقى هذه المجموعة تحت حكم بريطانيا وسيطرتها مباشرة لانها سبب هذا الازدهار المشترك الذي ينعم به الجميع . وهذه الطريقة في التفكير تنسجم الانسجام كله مع ما جاش به الملك جورج الثالث من نزعات استبدادية تعسفية ، هذه النزعات التي دان بها للتربية التي تلقاها وخضع لها والتي قد تكون جاءت على مثل ما اراده « الطغاة المستنيرون » . فبعد عقد معاهدة باريس ، خُيّل للحكومة البريطانية انها تستطيع ان تتصرف بمستعمراتها الاميركية كيفما تشاء .

وفي ٧ تشرين الاول ١٧٦٣، نشر تصريح ملكي جاء فيه ان الأراضي الجديدة التي يتم فتحها الى الغرب من خط مقسم المياه في جبال أللغاني ، يجب اعتبارها أراضي ملكية يحظر فيها

القيام بأية انشاءات او استثمارات ، ويُطرد بالتالي كل من استقر فيها أو قام عليها. وهكذا رأى المعمرون وأصحاب رؤوس الأموال أنفسهم محرومين الافادة من الأراضي التي ناضلوا دونهـا وبذلوا دماءهم في سبيل استخلاصها .

ومن جهة أخرى ، رغبت الحكومة الانكليزية في ان تؤمن لحكام المقاطعات مرتباً ثابتاً يضمن لهم مع الكرامة الذاتية ، الاستقلال والسيادة ، ويجعلهـم في مأمن من هَوَس المجالس المحلية واهوائها ، فترسخ سلطاتهم وتنزل هيبتهم في النفوس . كذلك أعرب حكام المقاطعات عن رغبتهم في الاحتفاظ بجيش دائم قوامه ١٠،٠٠٠ جندي للحفاظ على المستعمرات والدفاع عنها لدى الطوارىء . ولما كانت انكلترا غارقة في ديونها ، وجدت من العسير عليها تأمين الرسوم اللازمة من الضريبة العقارية . فمن العدل ، والحالة هذه ، ان تسهم المستعمرات في تحمل بعض هذه الأعباء التي هي في مصلحتهم وحدهم . وكان من حق البرلمان البريطاني ان يفرض رسوماً على التجارة في المستعمرات . فأقر عام ١٧٦٤ ، قانون السكر ، كما وضع عام ١٧٦٥ ، قانون التمغة . ففرض الأول رسوماً جديدة تجبيها ادارة الجمارك أصابت عدداً كبيراً من المنتوجات الأجنبية ، من بينها عصير قصب السكر وثفالته وهي مادة لا غنى عنهـا . وفرض قانون التمغة من جهته رسماً جديداً على المعاملات القانونية ، كالسفاتج المالية وكتب الاعتماد والجرائد. وأخيراً وليس آخراً ، أعاد البرلمان سنة ١٧٦٦ ، النظر في تصدير أي بضاعة من المستعمرات الى غـير انكلترا أو الى أي بلد يقـع الى الجنوب من رأس فلستير ، من مستوردي الأرز في الجنوب .

لم يكن في مثل هذه الاجراءات شيء جديد . فالجديد فيها هوان الوزير غرينفيل ، رغبة منه في تطبيق هذا القانون ، ارسل الى اميركا فريقاً من مأموري الجمارك وسفناً تقوم على مراقبة الشواطىء البحرية ، وأحال المخالفات الى محكمة الاميرالية . وهكذا قامت الصعوبات في وجه تجارة التهريب .

وراح الاميركيون بدورهم ، بوصفهم من الرعايا البريطانيين ، يعترضون على هـذه التدابير فاعترفوا للبرلمان الانكليزي ، من حيث المبدأ ، بحق اصدار القوانين المتعلقة بتنظيم التجارة في الامبراطورية عن طريق فرضه للرسوم اللازمة . أما في هـذا الوضع بالذات ، فالقضية ليست قضية تنظيم التجارة ، بل ايجاد موارد جديـدة للخزينة . فالرسوم المفروضة على السكر وعلى التمغة ليست في نظرهم ، سوى ضرائب غير مباشرة . ان إقامـة المعمرين في اميركا لم تفقدهم حقوقهم كمواطنين بريطانيين . فمن حقهم الأساسي ان يقروا هم أنفسهـم ، الضرائب التي يترتب عليهم تحملها . ولم يكن لهم بالتالي من يمثلهم في البرلمان الانكليزي . ورد الانكليز على هـذا الحجاج بان أعضاء البرلمان يمثلون الشعب الانكليزي أينما كان وليس الدوائر التي انتخبتهم . الا ان الاميركيين لم يكونوا ليرضوا الا بتمثيلهم الفعلي في البرلمان .

انطلقت إشارة المقاومة في ٢٩ أيار ١٧٦٥ ، من مجلس فرجينيا ، على يد محام شاب هو بتريك

هنري الذي أعـاد الى الذاكرة ممثل بروتوس الذي تصدى لقيصر ووقف في وجهه ، كما استشهد بمثل كروموبل الذي وقف في وجـه شارل الأول ، وحمل المجلس ببلاغته على إقرار « قرارات فرجينيا » ، وهي قرارات أيدت حق الاميركيين وكان لها اذ ذاك ، وقع هائل في نفوس القوم. وراح التجار ينظمون في ما بينهم حركة مقاطعة واسعة النطاق للبضائع الانكليزية. واتفق تجار المرافىء الرئيسية كنيويورك وفيلادلفيـا وبوسطن على ان يمتنعوا عن استيراد بضائعهـــم من انكلترا . وشكل العمال في المدن جمعيات لهم ، عُرفت باسم « أبناء الحرية » ، تجاهل التجار في أول الأمر وجودها ، ثم ما لبثوا ان اتخذوا منها أداة انتفعوا بها ، وأخيراً توصلوا معها الى اتخاذ موقف موحد ، وارغموا على الاستقالة ، بالقوة ، الموظفين المعهود اليهم تصريف أوراق التمغة . وفي تشرين الأول ١٧٦٥ ، عقد ممثلو تسع من هذه المقاطعات مؤتمراً لهم في نيويورك وجهوا خلاله عريضة التماس الى كل من ملك انكلترا والبرلمان ، صاغوها بعبارة تنبض بالاحترام. وعلى الأثر ، أرسل فرنكلين مندوباً عنهم يمثلهم في لجنة برلمانية خاصة تشكلت لهـذا الغرض . وبعد أخذ ورد أقرت الوزارة الغاء رسم التمغة وخفضت الضريبة على نقل السكر بمقدار نحاسة (بني) واحدة للغالون الواحد (آذار ١٧٦٦) ، مما أدخل البهجة والفرح الى قلوب الاميركيين بعد ان سبب لهم توقف الحركة التجارية كثيراً من صنوف الحرمان . الا ان المشكلة الدستورية بقيت قائمة كاملة ، اذ ان القانون الجديد الذي فرض رسماً على عصير قصب السكر وثفالته ، مع انه ابقاه متدنياً جداً ، لم يشترع شيئاً جديداً في المجال التجاري . فبقي هذا الرسم ضريبة سارية المفعول وراح البرلمان يعلن صلاحيته وحقوقه المطلقة لسن القوانين ، مهما كانت طبيعتها ، وهي قوانين يجب تطبيقها على كل أجزاء الامبراطورية البريطانية .

وفي سنة ١٧٦٦ ، خلال وزارة «بت» الثانية ، راح وزير المالية تاونسهند يأخذ من جديد بسياسة غرينفيل ، وحمل البرلمـــان في شهر مايو ١٧٦٧ ، على اقرار رسوم جديدة على الورق والزجاج والقصدير والشاي . واذ ذاك ، قـام التجار في اميركا ، يقاطعون البضائع الانكليزية وعملوا على ادخال بضائع اجنبية بالتهريب ، فنتج عن ذلك اضطرابات . وفي الخامس من آذار ، اصدر اللورد نورث قراراً بالغاء الضرائب الجديدة باستثناء الرسم المفروض على الشاي ، الأمـر الذي ادخل البهجة الى القلوب ، باستثناء قـلة من الناس رفضوا بكل حيلة ووسيلة ، الوقوف موقفاً معتدلاً . وفي نيسان ١٧٧٣ ، تسهيلاً لشركة الهند الشرقية تصريف شحنة لها من الشاي ، رخص لها اللورد نورث ، بيع بضاعتها رأساً من الاميركيين بحيث يصبح سعر الشاي متدنيـاً للغاية . غير ان هذا التدبير عرض التجار الاميركيين لخسارة الأرباح الناجمـة عن النقل ، كما جعل من المتعذر عليهم بيع الشاي الذي كانوا استوردوه رأساً من انكلترا ، كما ان التجـار الذين اختزنوا كميـات كبيرة منه رأوا أنفسهم مهددين ان يبيعوه بخسارة . واذ ذاك دفعوا الى الامام « ابناء الحرية » . فقد راح عـام ١٧٧٣ ، فريق من سكان بوسطن تزيّوا بلباس الهنود الحمر ، يطرحون الى البحر وسق ثلاث سفن مشحونة شاياً .

والمهم في هذا الأمر كله هو ان الحكومة الانكليزية لم تكن تجاوزت حقوقها في هذه القضية، بينما رأى الاميركيون في المناسبة السانحة فرصة مؤاتية للتعبير عن موقفهم المتصلب هذا وعن عزمهم على معالجة شؤونهم الاقتصادية بأنفسهم ، دون ان يبالوا ، من قريب او بعيد ، بالمصلحة العامة في الامبراطورية . وبذلك عبروا بصراحة عن رغبتهم بالاستقلال التام . فقد كانوا تجاوزوا بعيداً القضية الاساسية التي كانت سبباً أولياً في هذا الجدل . ولذا قام بعض الاميركيين، من بينهم بنجامين فرانكلين ، يسعون جهدهم ، للمحافظة على وحدة الامبراطورية وحياتها ، وذلك عن طريق الوصول الى صيغة تصونها في المستقبل ، بحيث تؤلف المستعمرات الانكليزية، من بينها ، حلفاً يتمتع باستقلاله ويبقى متحداً ، مع ذلك ، مع الامبراطورية ، بالملك . وعلى مثل هذا كان رأي «بت» الذي استقدم فرانكلين الى دارته وأعد معه ، من آب الى كانون الأول ١٧٧٤ ، مشروع تحقيق امبراطورية انكليزية تمتد من البحر الشمالي الى المحيط الهادي . الا انهم كانوا بهذا ، اسبق من زمانهم بكثير .

واذ ذاك اغلقت الحكومة البريطانية مرفأ بوسطن واخضعت المدينة وولاية مسلشوستس كلها لنظام عسكري (١ ايار ١٧٧٤) . وقد ارسلت جميع المستعمرات ، باستثناء فرجينيا ، مندوبين عنها يمثلونها في مؤتمر قاري (٥ ايلول ١٧٧٤) فأسس المؤتمر بتاريخ ٢٠ تشرين الأول « الجمعية القارية *Le Congrès continental* تأخذ على نفسها تنظيم مقاطعة شاملة للنظام الاقتصادي الانكليزي . وتحول حماس الاميركيين الى هياج شديد عندما بلغهم خبر قانون كوبيك ، الذي ربط اداريا كل الشمال الغربي حتى الاوهايو بولاية كوبيك ، اي انه وضع بمثل هذه الاقطار الجميلة تحت تصرف « البابويين » اذ كانت الديانة الكاثوليكية مسموحاً بها في كندا . وهكذا اصبح الصمود في وجه الملك ومقارمته صليبية شعارها : « لا بابوية » . وتألفت في طول البلاد وعرضها لجان شعبية من المواطنين وقدم «بت» ، في اول شباط ١٧٧٥ ، مشروع تسوية رفعه الى مجلس اللوردات . وراحت اللجان الاميركية « للسلامة العامة » تقيم مستودعات وتشيء لها مخازن للاسلحة والعتاد الحربي . وفي ١٩ نيسان ١٧٧٥ ، وقع اصطدام بين كتيبة انكليزية ارسلت لوضع يدها على احد هذه المستودعات ، بأفراد المليشيا الاميركية ، في لكسنغتن . فأتلفت المستودع الا انها اضطرت للعودة بفوضى وبدون نظام الى بوسطن ، بعد ان تعرضت لتحرشات الاميركيين ومضايقاتهم لها . وفي اليوم التالي ، اخذت فرقة المليشيا ، في انكلترا الجديدة بضرب الحصار حول بوسطن . وهكذا نشبت في البلاد الحرب الاهلية .

حرب الاستقلال

استمرت الحرب تتأرجح ثماني سنوات . وكان حزب الاحرار *Whigs* الانكليزي يعطف على الاميركيين ويعمل باستمرار ، على اثارة العراقيل، بوجه الحكومة . وكان عدد الموالين في اميركا كبيراً . فبعد ان قلق التجار جداً من راديكالية « ابناء الحرية » ، نزعوا للوقوف الى جانب الملك ، اذ رأوا في الحرب القائمة حرباً بين الطبقات. وراح الموالون يؤلفون من بين انصارهم ، فرقاً خاصاً مما اضطر الجيش الانكليزي الى اتخاذ

احتياطات عسكرية خاصة كالتي يتخذها جيش معادٍ . فالمسافات الشاسعة ، والبلاد المقفرة ، زادت كثيراً من صعوبة المواصلات والتموين . والجيش الانكليزي الذي تألف من وحـــدات نظامية مدربة وجد حركاته وسكناته مقيدة من قبل القيادة في لندن التي كانت ترغب في ابداء رأيها في خطط الحرب والتصميم للعمليات الحربية . اما الجيش الاميركي ، فقد تألف من افراد المليشيا الذين رفضوا الخدمة في مقاطعاتهم ليعودوا ، بعد انتهاء نوبتهم وانقضاء مدة خدمتهم للعمل في الحصاد ، كما تألف من متطوعين كثيراً ما راحوا في بدء الأمر ، فريسة للهلع والخوف، مرتباتهم سيئة تدفع لهم « بعملة ورقية قارية » ، ولم يكونوا دومـاً ممن يطمأن الى نواياهم . وكان غايتس يدس على واشنطون ويحيك له الدسائس ، كما خان شارلي لي وارنولد القضيـــة وتخلوا عنها . ولحسن الحظ ، فقـــد اظهر القائد العام الذي جرى تعيينه من قبل الكونغرس القاري الثاني ، من الروح الوطنية ، ما جعله فوق كل امتحان ، كما انـــه برهن عن تفهم سليم للامور والأوضاع القائمـة ، وعن حزم لا يتزعزع ، ورباطة جأش ليس ما يكدرها . كل ذلك اعاد الثقة الى اكثر المترددين المتأرجحين وبعث الحماس في النفوس .

اجتمعت الكونغرس البرية الثانية في العاشر من ايار ١٧٧٥ ، وأدركت على ضوء الحوادث انه لا بد من عقد احلاف مع بعض الدول الأجنبية لتحقيق اهداف الثورة . فتوجهت بأنظارهـا الى الكنديين الذين كانوا لا يزالون يذكرون ، والمرارة ملء نفوسهم ، ما لحقهم من عنت الحروب السابقة ، وما استهدفوا له من حقد هذه التقوى البروتستانتية المتعصبة التي تكشفت عنها نفوس الانكليوسكسون . ان قانون كوبيك كان منحهـم من جهة ثانية التسامح الديني واستمرار العمل بمعظم القوانين الفرنسية التي ساروا عليها من قبل . فلم يحركوا ساكناً . ولذا راحت كتائب الاميركيين تغزو كنـدا . وأصبحت بالتالي خطراً يهدد مونتريال وكوبيك . واذ ذاك نهض الكنديون لامتشاق الحسام وردوا الاميركيين على اعقابهم (تشرين الثاني ١٧٧٥) . .

وهكذا بقيت الكونغرس وحدها في الميدان . وكان الملك جورج الثالث اعلن على الملأ ان الاميركيين بحالة عصيان وتمرد وحظر كل نشاط تجاري معهم ، اذ قصد من ذلك ان « يزرع » الخراب في اميركا . وأحرق الانكليز مدينتين مفتوحتين هما فالموث في مقاطعة الماين ونورفولك في مقاطعة فرجينيا .

واذ كان اعضاء الكونغرس على يقين تام بأن الحرب وحدها هي التي ستقرر المصير ، وان الحليف الوحيد الطبيعي الذي يقف الى جانبهم في حربهم ضد الانكليز ، انما هو فرنسا ، فقد قاموا بمفاوضتها . فاشترطت فرنسا عليهم لدخول الحرب الى جانبهم ، انفصالهم التام واستقلالهم عن الانكليز شريطة ان يوحدوا من صفوفهم بحيث يظهرون مظهر المتحدين . ففي ٤ تمـوز ١٧٧٦ ، اتخذ الكونغرس قراراً باعلان الاستقلال التام . وقد وضع نص هذه الوثيقة التاريخية جيفرسن فجاءت بمثابة قيـــاس استدلالي ذكّرت مقدمته الكبرى بمبادىء « الفلاسفة » ، هذه المبادىء التي أصبحت التراث المشترك لكل الأوروبيين . فقد جاء فيها بالحرف الواحد :

« نحن نعتبر واضحة بذاتها المبادىء التالية التي تعلم وتقول ان الناس اجمع خلقوا متساوين فيما بينهم ، وان الله خالقهم ميزهم ببعض الحقوق التي لا يمكن نسخها . من هذه الحقوق : حق الحياة ، وحق الحرية والبحث عن السعادة . فالحكومات تقوم بين الشعوب لضمان هذه الحقوق وان صلاحياتها ومسؤولياتها الحقة تصدر عن رعاياها وموافقتهم . فكل مرة يستحيل فيها شكل الحكومة الى حكومة تعمل على العبث بهذه الحقوق ، حق الشعب ان يستبدل حكومته هذه باخرى وان يقيم محلها حكومة جديدة » .

ثم راحت تعدد سلسلة من العبث لهذه الحقوق الطبيعية، من قبل ملك انكلترا والانكليز. وانتهت من سرد هذه الأمثلة بالنتيجة الحتمية قائلةً :

« نحن ممثلو الولايات المتحدة الاميركية المجتمعون هنا هيئة عامة ، نحتكم الى محكمة الديان الاعلى لهذا العالم ، المطلع على سلامة نوايانا وطهارة ضمائرنا . نحن ننشر ونعلن باسم هذا الشعب الطيب المقيم في هذه المستعمرات ، بان لهذه الولايات الحق التام بان تكون ولايات حرة مستقلة ، وبانها لا تعترف باي ولاء ولا باي خضوع للتاج البريطاني وان كل اتحاد سياسي فيما بينها وبين بريطانيا العظمى انقطع ويجب ان ينقطع تماماً » .

ابتهج الشعب الفرنسي لثورة الاميركيين ، اذ رأى فيهم رجالاً من ابناء الطبيعة ، كلهم تقىّ . جاء فرانكلين باريس بما هو عليه من بساطة الروح، بجواربه الصوف وأحذيته الضخمة ، فازداد القوم في فرنسا ايماناً بهذا الشعور . وقد راح الشباب الفرنسي يجتاز المحيط الاطلسي باعداد كبيرة متقدماً بخدماته للكونغرس الاميركي . وراحت وثيقة اعلان الاستقلال تحمل حماس الفرنسيين الى هذيان الفرح والغبطة . وفي هذه الفترة بالذات يسافر المركيز دي لا فاييت نفسه ويتطوع في خدمة الجيش الاميركي . وحلا للوزير الفرنسي فرجين ان يرى في هذه الحرب الوسيلة الوحيدة ليثأر لفرنسا من معاهدة ١٧٦٣ المشينة . وبواسطة بومارشيه ، استطاع ان يمد الاميركيين بالسلاح والعتاد الحربي . غير ان هزائم الاميركيين المتتالية جعلته يتردد قليلاً قبل ان يكشف عن اوراقه . الا انه في ١٧ تشرين الاول ١٧٧٧ ، اضطر جيش انكليزي أرسل من كندا الى نيويورك لتعزيز موقف الانكليز الحربي فيها ، الى الاستسلام، في بلدة ساراتوغا ، بعد ان احاطت به كتائب المليشيا ومنعت عنه وصول الامدادات والمؤن . وقد كان لهذا النصر الأميركي الكبير الأول صدى عظيم ووقع كبير على الرأي العام ، فأكسبهم محالفة الفرنسيين لهم . وقعت معاهدة التحالف هذه في ٦ شباط ١٧٧٨ ، وتعهدت كل من فرنسا والولايات المتحدة الأميركية على الا تعقدا هدنة أو تجريا صلحاً إلا برضى الفريق الثاني، وان لا ترميا السلاح الا بعد أن تنال الولايات الاميركية ، استقلالها التام الناجز . وتعهدت فرنسا بألا تعود إلى استرجاع كندا . الا أن الولايات المتحدة ضمنت لها الممتلكات التي لها او التي بين أيديها في القارة الاميركية ، وقد استطاع الوزير فرجين ان يحمل اسبانيا على الدخول في الحرب الى جانبها (حزيران ١٧٧٩) . وأعلن الانكليز الحرب على الهولنديين الذين راحوا يبيعون الاميركيين ما هم بحاجة اليه من البارود (كانون الاول ١٧٨٠) وأخيراً راحت الدول الأخرى الواقفة على الحياد بسعى من الامبراطورة كاترين الثانية ، تؤلف من بينها حلفاً يقف بالقوة ، في وجه كل سفينة من سفنها تحاول تهريب الأسلحة الحربية .

جاء التدخل الفرنسي حاسماً . فالاساطيل الفرنسية بقيـــادة امراء البحر لاموت – بيكه وغراس واستانغ وسوفرين استطاعت ان تؤمن حرية البحار . والانكليز الذين تعرضوا للهجوم اينما وُجدوا : في جزر الانتيل والهند واميركا وجبل طارق ، اضطروا لتوزيـع قواهم . فقد اخذت جيوشهم في اميركا تشكو عالياً من انقطاع الامدادات والذخائر الحربية . ثم ان وصول فرقة فرنسية مؤلفة من ٧٥٠٠ جندي ، في تموز ١٧٨٠ ، بقيادة الكونت دي روشمبو ، امّنت للاميركيين الذين بقوا حتى الساعة يسجلون الهزيمة تلو الهزيمة في المعارك المعبّأة ، قوة نظامية حنكتها الاعمال الحربية التي تمرست بها ، كانت بمنأى من التقلبات الموسمية أو من الاشتباكات المحلية ، وكانت لها قدرة تامة على متابعة الحركات الحربية ، وقامت بتعاون مشترك بين اسطول فرنسي بقيادة الاميرال دي غراس وبـــين الجيوش الفرنسية والاميركية بقيادة واشنطون ولافاييت وروشمبو . فقد اجبرت هذه الاعمال الحربية والتعـاون بين مختلف القوات العاملة في مختلف القطاعات ، على الاستسلام ، الجيش الانكليزي الوحيد الذي له القـدرة على التناور في البر ، وذلك في مدينة يورتون ، في ١٩ تشرين اول ١٧٨١ وبذلك ربحوا الحرب .

وقد حنث المندوبون الاميركيون قسمهم وأخلفوا بوعدهم بالرغم من معـــارضة فرانكلين وضربوا بعرض الحائط توقيع الشعب الاميركي ، فسارعوا الى التفاوض مع انكلترا والى التوقيع على تمهيد للصلح ، في ١٣ تشرين الثاني ١٧٨٢ . واذ رأى الوزير فرجين نفسه امام الأمر الواقع اضطر للدخـــول معهم بالمفاوضات . جرى توقيع المعاهدة الفرنسية الانكليزية في فرساي ، في غرة ايلول ١٧٨٣ ، وهي معاهدة لم تعترف الا ببعض المنافع والتنازلات لفرنسا بسبب انسحاب الاميركيين من الميدان ، وبسبب هزيمة نزلت بالاسطول الفرنسي في جزر الانتيـل ، في نيسان ١٧٨٢ ، ولأن المفاوضين الفرنسيين لم يطالبوا بكل ما كان يجب ان يطـــالبوا به . فاستعاد الفرنسيون جزر تباغو وسانت لوسيا وبعض المؤسسات والمراكز في السنغال . اما نصيب ملك فرنسا فقد كان انه حال دون استبطار سيطرة الامبراطورية الانكليزية ، وقلّم اظافرها بعد ان نزع منها احسن مستعمراتها واغناها وأمن الحرية والاستقلال لشعب من شعوبها . اما المعاهدة الانكليزية الاميركية ، فقد جرى توقيعهـــا في باريس ونصت على اعتراف انكلترا باستقلال الولايات المتحدة الاميركية ، وحملت حدودها في الغرب الى المسيسبي ، وفي الشمال الغربي الى البحيرات الكبرى ونهر السان لوران .

فبالرغم من انسحاب الاميركيين لم يشأ لويس السادس عشر ان يطالبهم باي تعويض لقـاء النفقات الباهظة التي تحملها في الحرب . فقد تنازل لهم ، فوق ذلك ووهبهم ١٢ مليون ليرة ، وعلاوة على قروض الحرب التي استدانوها ، قدم لهم سلفة من ٦ ملايين ليرة لأجـــل ترميم اقتصادياتهم واعادتها على أسس قويمة عام ١٧٨٣ . كل هذا حدا بفرانكلين للتنويه عالياً بالصداقة والامتنان الخالدين .

الفصل السادس

تطوّر كندا
(١٧٦٣-١٧٩١)

ونشأة الولايات المتحدة الأميركية
(١٧٨٣-١٧٨٩)

كندا وأكاديا

على ضوء التجربة والاختبار راحت الحكومة الانكليزية تنهج تجاه ما كان يُعرف بفرنسا الجديدة نهجاً يتسم بالحرية الواسعة. فقد نشأت فيها مستعمرات تمتعت باستقلالها الاداري، سكانها مزيج من عروق متباينة واجناس مختلفة.

فقد استثنى الملك جورج الثالث، في منشور له، العناصر الكاثوليكية من الاشتراك في ادارة البلاد، وبذلك رأى سكان كندا انفسهم خاضعين لسيطرة بضع مئات من الانكليز. الا ان خصومة انكلترا وحربها مع مستعمراتها القديمة، حملت الوزارة الانكليزية على انتهاج سياسة تنم عن تسامح اكبر. فقانون كوبيك (١٧٧٤) اعترف للكاثوليك بحرية ممارسة طقوسهم الدينية، واعفى الكنديين من مرسوم *Bill of Test* الذي كان يفرض على كل من قام باعباء وظيفة عامة تناول القربان حسب الطقوس الانغليكانية، كما ترك لهم حرية العمل بجانب كبير من القوانين الفرنسية التي خضعوا لها من قبل ان يخضعوا للحكم البريطاني، لقاء قسم بالتزام الولاء لملك انكلترا، والأخذ باحكام اهم الشرائع الانكليزية، والعمل تحت اشراف حاكم عام ومجلس يقوم الملك بتعيينهما. وقد اتسم اول حاكم انكليزي على كندا بروح سمحاء، واقام علاقات طيبة مع الاكليروس الكاثوليكي وطبق بكل دقة مرسوم كوبيك بحيث بقي الكنديون على ولائهم الصادق لملك انكلترا.

واتفق ان ٣٥،٠٠٠ من «الموالين» الاميركيين، نزحوا عن الولايات المتحدة، خلال حرب الاستقلال وبعدها، فجاؤوا وسكنوا الى الشمال الغربي من بحيرة اونتاريو. وشابت العلاقات بين الفرنسيين والانكليز الظنّة وسوء التفاهم والتحفظ باستمرار. وتقديراً لحسن موقف الكنديين وصدق ولائهم للتاج البريطاني، اصدر الملك جورج الثالث امراً بتقسيم البلاد الى

ولايتين متميزتين : كندا العليا للانكليز ، وكندا السفلى للفرنسيين. وتمتعت كل ولاية باستقلالها الاداري ، وقام فيها مجلس تمثيلي منتخب .

وقد حافظ الكنديون الفرنسيون على عقيدتهم ولغتهم واعرافهم وتقاليدهم، وطبقوا ما جاء على لسان النبي إرميا ، اذ يقول : « ابنوا بيوتاً واسكنوا واغرسوا جنات وكلوا من ثمارها ، واتخذوا نساءً ، ولِدوا بنين وبنات ، واتخذوا لهم نساءً واجعلوا بناتكم لرجال وليَلِدنَ بنين وبنات،وأكثروا هناك ولا تقلّوا واطلبوا سلام المدينة التي أجأتكم اليها،وصلّوا من أجلها الى الرب ، فإن بسلامه يكون لكم سلام . » (١) . وبدون ان يتلقوا أي رديف عن طريق الهجرة والاغتراب من فرنسا التي أهملت أمرهم وتخلت عنهم ، وبفضل تمكسهم بالمثل الكاثوليكية السامية وانتهاجهم في الحياة نمطاً قوامه الزراعة والاستمساك بمكارم الأخلاق على سنة الجدود ، وبفضل تزايد عدد السكان عندهم بمعدل هو أعلى ما عرف الجنس الأبيض من أمثاله ، وبعزم لا يفتر ، قرروا معه الا يتركوا أنفسهم يذوبون في الكبير الانكليزي والبوتقة البريطانية . فقد بلغ عددهم عام ١٨٠٦ ، أكثر من ٢٥٠،٠٠٠ نسمة . وهكذا استطاعوا بفضل ما أوتوا من صلابة العود وصدق العزيمة ، ان يحافظوا على طابع حضارتهم الفرنسية ، وسط بلد ومحيط سكانه من الانكلوسكسون .

اما اكاديا ، فقد أخذ يعود اليها تباعاً ، بعد عام ١٧٦٣ ، جماعات صغيرة ممن نجا من المحنة الماحقة التي ابتلوا بها وما نابهم من جرائها ، من العذابات والاضطهادات المريرة . وقد فرشوا طريق العودة ، كما فرشوا طريق الهجرة من قبل ، بالاعزّة ممن سقطوا في مختلف مراحل صليبهم المرير . وهكذا وصل منهم ١٢٦٥ شخصاً ، فوجدوا املاكهم ومقتنياتهم واراضيهم يحتلها المعمرون الانكليز . ولذا استقروا بين اراض رديئة التربة راحوا يعزقونها ويحيونها بعرق جبينهم ، حتى اذا ما لانت وطابت وجادت فاجأهم على حين غرة طارىء انكليزي وبيده صك تملك ، فينتزعها ويجبر مالكها على العمل في خدمته ، وليس في اليد حيلة بعد ان كانت المحاكم التي يرفعون اليها ظلامتهم تصدر دوماً احكامها ضدهم . وكانت ابخس الاجور تعطى لهم دوماً عن اشق الاعمال واقسى الاشغال . وراحت الحكومة الانكليزية، خلال حرب الاستقلال الاميركي تداري جانبهم وتلين ملامسها ، فتتنازل لهم عن اراض يستملكونها ، كما اجازت لهم ممارسة واجباتهم وفقاً للطقوس الكاثوليكية . الا ان سيلاً جارفاً من « الموالين » الاميركيين ، زاد عددهم على ٤٠،٠٠٠ ، هبط عليهم واغرقهم تحت غمره ، واخذوا في تعمير واحياء ما عرف بايكوسيا الجديدة وبرونسويك الجديدة . ومع ذلك فقد عرف الاكاديون ان يحافظوا كالكنديين على شخصيتهم وفرديتهم المميزة . فبلغ عددهم عام ١٧٩٠ ، بفضل حركة الموالين الناشطة بينهم ، ٨١٦٦ نسمة ، واستمروا على نمائهم وتكاثرهم ، يشترون من الانكليز اراضيهم ويعملون بذلك على زحزحتهم تدريجياً .

---

(١) – ارميا ، اصحاح ٢٩ ، عدد ٥ ـ ٧

الولايات المتحدة ودستورها الجديد

خُيل لمعظم الناس بما فيهم الملك جورج الثالث وفردريك الثاني ، ولعدد كبير من الاميركيين انفسهم ، ان الاتحـــاد الذي تألف من هذه الولايات لن يعمر طويلاً ، لما بينها من فوارق واختلافات ، وبما في هـذه الجمهورية التي الفوها من عناصر مخلخلة وقوى محللة . وبالفعل فقد اخذت هذه الولايات تتصرف فيما بينها كدول مستقلة ، سيدة والفوضى فيها ضاربة اطنابها .

وبدعوة من مجلس الكونغرس ، راحت الولايات الاميركية ، باستثناء كونكتيكت ورود آيلاند ، تنشىء نظمها ومؤسساتها الجمهورية على اساس من المبادىء التي نادى بها العقد الاجتماعي (لروسو) ، والنظريات التي قال بها مونتسكيو وعلم . وقد اتسمت هـذه النظم والمؤسسات بالروح الديمقراطية بالرغم من قلة عدد سكانها ، في بـــلاد كانت فيها الملكية العقارية هي التي تولي صاحبها ، حق الاقتراع ، وهذا مطلب يسير ، سهل التحقيق ، كما برهنت عن سماحـــة وتساهل ظاهر في علاقاتها مـــع الكاثوليك . واذ كانت الهيئات التمثيلية توجس خيفة من طغيان السلطة الفردية ، فقد سيجت حولها بسلطات مطلقة . فالحكام الذين ينتخبون بالاقتراع العام يتمتعون بسلطة تنفيذية محدودة . ومثل هـذا الوضع ، كان معقولاً ومقبولاً يوم كان هؤلاء الحكام ممثلين لملك وراثي ، تتمثل في شخصه وتتجسم المصالح العامة في الدولة ، ويتمتع بالتالي ، بنفوذ عظيم ، اما مـا هو من الغرابة بمكان ، ان يكون هـــؤلاء الحكام هم ممثلو الشعب . فقد ادى النظام الذي قام على هذه المجالس والهيئات الى نتائج وخيمة ، بحيث ان سلطة الحكام اخذت تزداد وتقوى طوال القرن التاسع عشر .

وراحت هذه الولايات تتباعد عن بعضها البعض حسب منطوق مواد دستور الاتحاد الذي أقرّ بتاريخ ١٥ تشرين الثاني ١٧٧٧ ، اذ جعل هذا الدستور ، من هـــذه الولايات « عصبة من الاصدقاء يعملون في سبيل الدفاع المشترك » ، وفي سبيل « مصلحتهـا العامة المشتركة » . فقد احتفظت كل ولاية بسيادتها وحريتها التامة واستقلالها . والكونغرس الاميركي ، لم يكن في الواقع سوى مؤتمر من الدبلوماسيين لعدد من السفراء تبعث بهم الولايات ممثلين لها . فلكل ولاية صوت واحد ، والقرارات يجب ان تؤخذ باجماع الأصوات . ويتولى الكونغرس الشؤون الخارجية وكل مـــا يتعلق بالحرب والبحرية والنقد ، والمكاييل والموازين والبريد . الا انـــه لم يكن من صلاحياته ، ولا بوسعه ان يتولى النظر او تنظيم النشاط التجاري بين مختلف الولايات ، ولا بين الاتحاد والخارج . فلم يكن للكونغرس اي سبيل او اي وجـــه للضغط على الولايات المستقلة وارغامها على السير باتجاه معين .

عجز مجالس الكونغرس

فالضعف الذي وجدت حكومة الاتحاد نفسها فيه خلّف الفوضى في جميع مرافق البلاد، وسبب لها ازمة حادة جعلت في وضع مضطرب ، خَطير ، مرافقها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية .

فقد افقدتها حاجتها الملحة للمال . فراحت تصدر نقداً ورقاً لا تغطية له ، فهبطت قيمته بسرعة بحيث ان خطر لاحد الخبثاء من المزيفين ان يفرش جدران محله بالأوراق المالية الكبيرة. وعبثاً طلب الكونغرس من الولايات الاسهام بالنفقات العامة التي بلغت ٨ ملايين دولار ، عام ١٧٨٢ ، ومليوني دولار فقط عام ١٧٨٣ . الا انه لم يصل من أصل هذه المبالغ الا الى مليون دولار ونصف . وقد هبطت مساهمة الولايات ، عام ١٧٨٥ الى ٣٧٥،٠٠٠ دولار لا غير .

ولذا عَسُرت قضايا تسريح الجيش وتعقدت كثيراً ، اذ راح الضباط يطالبون بمعاش تقاعدي ، وهو طلب لم يكن وضع خزينة الاتحاد يستطيع تحقيقه ، كما انه كان يلاقي معارضة قوية لدى الرأي العام ، الذي وجد في مثل هذا الطلب وتحقيقه ايجاد جسم جديد في الدولة ونوعاً من الارستوقراطية .

واستطاع واشنطون ان ينتزع ، في ٢٢ آذار ١٧٨٣ ، من مجلس الكونغرس سندات على الخزينة بفائد ٦٪ ومعاشاً كاملاً لمدة خمس سنوات . وقبل ان يأخذ الضباط بالتفرق ، اسسوا فيما بينهم ما يعرف ، في التاريخ ، باتحاد سلسناتي ، مع شارة خاصة تعطى للأعضاء هي عبارة عن نسر وشريطة زرقاء . فكان هذا الاتحاد ، الهيئة الوحيدة المعترف بها في كل الولايات . فألف له لجاناً في كل المدن الرئيسية . وقد ساعدت هذه المنظمة كثيراً على تمتين روابط الوحدة ، كما جاهدت كثيراً وسعت الى اقرار الدستور الذي وضع عام ١٧٨٧ .

أما أفراد الجيش ، فلم يتيسر لهم قبض المتأخر من مرتباتهم ، فأعلنت وحدات معسكر نيوزبرغ العصيان ، في أيار ١٧٨٣ ، فاضطر واشنطون لاستعمال كل سلطته ونفوذه ليحملهم على قبول تسريحهم ، بعد دفع مرتب ثلاثة أشهر ، ونار الوعود المعسولة للمستقبل .

واشتدت الازمة الاقتصادية وأخذت بخناق البلاد ، وهي ازمة تسببت اصلاً عن الخراب الذي زرعته الحرب وويلاتها في البلاد كما نتجت عن نزوح عدد كبير من الموالين للانكليز ، بينهم عدد كبير من التجار ورجال الصناعة الاغنياء ، ناهيك عن الاهمال الذي نزل بالمشروعات العامة وفقدان رؤوس الأموال ، في البلاد ، والنقص الفادح في الانتاج . وزاد في حدة الأزمة وشدتها العجز المالي المقعد الذي تسكع فيه مجلس الكونغرس . فقد أبت عليه الولايات الاعتراف له بأي حق في فرض الرسوم الجمركية حتى ولو كان طابعاً اميرياً لتأمين جانب من واردات الخزينة . وراحت هذه الولايات المتمتعة باستقلالها وسيادتها تشن على بعضها البعض حرباً اقتصادية لا هوادة فيها . فاذا ما خطر لاحداها ان تزيد من رسوم الجمرك في اراضيها ، راحت الأخرى تخفض الرسوم عندها اجتذاباً منها للتجار وخنقاً لحركة الاعمال في الولايات المجاورة . وقد رأت انكلترا في هذا الوضع المزري ، فرصة سانحة لها ، لاغراق البلاد بمصنوعاتها الوطنية ، وبذلك سددت ضربة قاصمة لهذه الصناعات الناشئة التي رأت النور في البلاد إبان حرب الاستقلال. فقد باعت الاميركيين ، سبعة أضعاف ما كانوا يستوردونه من البضائع والسلع المصنوعة في الخارج ، بينها المصنوعات الحديدية على اختلاف حجومها ، والسكاكين والمسامير ومصنوعات الصفيح ،

والأجواخ والعقادة (تجارة الخردوات) والعقاقير والمواد الطبية . وأخذت الولايات المتحدة تصدّر اليها ، بدورها ، القسم الأكبر من محصول القمح والطحين واللحوم المملحة ، والتبغ ، وشيئاً من محصول القطن . ومع ان هذه الولايات كانت مستقلة سياسياً فقد كانت تعول اقتصادياً على انكلترا التي منعت عليها ، مع ذلك ، الاتجار مع جزر البحر الكرايبي او جزر الانتيل ؛ فان أتوها فمن باب التهريب ليس الا . وقد أبت انكلترا عقد أي معاهدة تجارية معها لعجز مجلس الكونغرس عن إلزام الولايات المتحدة احترام المواثيق والتقيد باحكامها ومندرجاتها. وفي البحر الأبيض المتوسط، كان القراصنة المسلحون ينقضون على السفن الاميركية، لامتناع الانكليز عن حمايتها او الدفاع عنها . وبالرغم من الاسواق التجارية الجديدة التي انفتحت أمام صادراتها ، في كل من فرنسا والبرتغال والصين ظل الميزان التجاري عندها يشكو العجز المزرح .

وكانت رؤوس الأموال تخرج باستمرار من البلاد او تختزن في صناديق أصحابها تحسباً للمستقبل الغامض . فقد عجزت عن تلبية حاجات البلاد ومطلب المرافىء الشرقية ، كما انها كانت شبه مفقودة في اقصى الغرب حيث اقتصرت الحركة التجارية على المقايضات ، وحيث كانت الرسوم تجبى جلوداً او لحم خنزير مملحاً او شحماً او وسكي . وقد شلت ندورة النقد حركة البيع والشراء وكل نشاط تجاري ، فخف بالتالي الانتاج . فلا عجب ان ترتفع أصوات المتبرمين والشاكين . وراح كثيرون يطالبون باصدار عملة ورقية ولا سيما بين المزارعين والرواد المستكشفين والقائمين باعمال المضاربات الغارقين في ديونهم لقاء المبالغ التي استلفوها من التجار . وقد بدا للمدينين ان النقد البنكنوت سيخسر كثيراً من قيمته الاسمية ، وان منتوجاتهم سترتفع أسعارها وبذلك سيتخلصون بسهولة مما يرزحون تحته من ديون ، فيتاح لهم شراء الأراضي والاملاك . وهكذا راحت سبع ولايات تصدر لها عملة ورقية .

رفضت ولاية ماستشوستس الاخذ بهذا الاصدار ، فأسقط بيد الدائنين في وفاء ديونهم واستهدفوا لعقوبات السجن . وبالنظر لفقدان السيولة ونقص رؤوس الاموال الفادح ، والمزاحمة الانكليزية الشديدة ، اصبحت الحياة صعبة في البلاد . وتولى ضابط قديم في جيش التحرير ، يدعى شايس ، قيادة فرقة من العصاة الخارجين على القانون معظمهم من رجال المليشيا الذين استدانوا على مرتباتهم خلال خدمتهم للعَلم في حرب الاستقلال ، لتأمين أوَد ذويهم . قُمِعت حركة العصيان هذه بسهولة كلية الا ان الحركة لاقت عطفاً كبيراً من قبل الطبقات الشعبية اذ رأوا فيها نذيراً لحرب اهلية تنفجر بين الطبقات الفقيرة والطبقة الغنية . وقد كتب واشنطون الى لي Lee ، اذ ذاك ، قائلاً : « يجب ان تتمتع البلاد بحكومة تضمن حياتنا وحرياتنا ومقتنياتنا والا دهانا ما هو انكى وافظع » . فالثورة التي قامت بقيادة شايس ، اقنعت الجميع بالمحسوس ، بعد ان زرعت الهلع في قلوب الطبقات الثرية ، بوجوب قيام حكومة قوية ، لتفرض احترام « قدسية الارتباطات المعقودة » وحقوق الملكية . فكان الوضع الذي تردت اليه البلاد من هذه البواعث التي دعت الى وضع دستور جديد لها .

امتنع على مجلس الكونغرس الاميركي ايجاد الحل المرتجى لقضية الغرب الاميركي . فمنذ عام ١٧٦٣ ، وبالرغم من الاوامر والتعليمات الصادرة عن ملك بريطانيا ، وبالرغم من قيام الحرب ، لم يتوقف الرواد قط عن عبور الانهر واجتياز الجبال . وقد اضطرتهم الأزمة التي نشبت بعد حرب الاستقلال الى الانسحاب والانكفاء نحو الشرق . ففي سنة ١٧٧٦ ، رأينا ٢٥،٠٠٠ اسرة اميركية تقيم في وادي الاوهايو ، الى الغرب من ولاية بنسلفانيا بحيث اصبحت بتسبورغ مدينة صغيرة . والرواد كانوا يسرحون في الاودية التي تسير فيها روافد الاوهايو ، امثال كنتاكي والتنسي ويجتازون الاوهايو . وشكل عدد من المضاربين شركات قوية لهم اخذت بشراء الاراضي وبيعها حصصاً . وهكذا تأسست مدن جديدة ، منها مدينة لويزفيل ، عام ١٧٧٤ ، ولكسنغتن وسنسناتي ، عام ١٧٩٠ . وفي هذه السنة بالذات بلغ عدد سكان كنتاكي ٧٨،٠٠٠ نسمة وتنسي ٣٥،٠٠٠ نسمة كما رأينا يقطن مقاطعة الاوهايو التي ستصبح فيما بعد ولاية ، ٤٢٣٠ ، نسمة .

وقد نشأ عن هذا التوسع والتطور صعوبات ومشاكل مع الهنود . فالمعاهدات التي عُقدت عام ١٧٦٨ (فورت-ستانفكس) ، وعام ١٧٨٥ ، حملت البعض منهم على التخلي عن حقوقهم العينية . وقد اضطرت السلطات الاميركية الى شن حرب فعلية عام ١٧٧٤ ، و ١٧٧٦ ضد قبائل تشيروكيز ، وعام ١٧٧٨ ضد قبائل الايروكوا .

ومع ذلك ، فلم تكن هذه الامور اصعب المشكلات وأشقها مما وقف في وجه الحكومة الاميركية ، اذ راحت ولايات فرجينيا وكارولينا الشمالية وجيورجيا تطالب لنفسها بضم هذه الاراضي التي انتزعت من الهنود ، باعتبارها امتداداً لها ومكملة لحدودها . وقد اعترضت على هذا المطلب كل من ولايات ماستشوستس وكونكتيكت وماريلاند التي اوجست شر أمن رقعة هذه الولايات الضخمة ، واقترحت على الكونغرس بان يجعل من الغرب اقليماً خاصاً خاضعاً للاتحاد . فاحبط في يد المجلس المنكود الحظ وبقي متردداً لمن من الجانبين يستجيب . فأمام إصرار ماريلاند ووقوفها موقفاً متصلباً من الاعتراف بالدستور ، اضطرت هذه الولايات الراغبة في التوسع ، للتنازل ، الواحدة بعد الاخرى ، عن مطالبها ومطامعها . وحوالي عام ١٧٧٨ ، اعتبر الغرب مقاطعة خاضعة للاتحاد .

وقد أثار الرواد ، من جانبهم ، مشاكل عديدة ، في وجه الكونغرس ، اذ راحوا يسطون على المواشي وينهبون حدائق الكنديين الفرنسيين القاطنين كسكاسكيا وكاهوكيا ، بعد ان راحت إحدى الشركات ، تحاول انتزاع ملكيتهم . وبصعوبة كلية نال الكنديون من الكونغرس الاميركي ضمان حقوقهم في التملك والتعويض اذ ما تخلوا عنها . وقد اخفق مجلس الكونغرس الذي كان بحاجة ملحة للمال والجيش في حمل اسبانيا ، على منح الاميركيين ، حق الملاحة في نهر المسيسبي بعد ان اصبحت ضرورية لهم في عملية تطوير الغرب الاميركي . ولذا راحت اسبانيا تقفل النهر في وجه الاميركيين وتحرض الهنود على الوقوف ضدهم . واذ كان الرواد المستعمرون

بحاجة شديدة للمال ، فقد أخذوا يهددون بالانفصال عن الاتحاد ، كما راح فريق منهم يهدد هو الآخر ، بالالتحاق باسبانيا .

كل هذه الامور والقضايا كانت مرآة انعكس عليهـــا عجز الكونغرس الاميركي وضرورة تقوية حكومة الاتحـاد . ولذا راحت ولاية نيويورك ، عام ١٧٨٢ ، وولاية ماستشوستس ، عام ١٧٨٥ ، تقترحان تعديل الدستور . وفي سنة ١٧٨٦ ، انتخبـت الولايات مجلساً تأسيسياً ضم ٥٥ مندوباً ، اجتمع في ٢٥ ايار ١٧٨٧ ، برئاسة جورج واشنطون ، وأقر الدستور الجديد الذي صدر عام ١٧٨٧ ، هذا الدستور الذي تسير عليه الولايات المتحدة اليوم .

دستور عام ١٧٨٧

انشأ هذا الدستور الجديد عدداً من النظم والمؤسسات الجديدة التي « تعمل في سبيل الدفاع المشترك » ، ومن اجل « تأمين الازدهار العام » للبلاد ، وتحقيقاً لهذه الاهداف ، فقد الغى سيادة الولايات واستقلالها المطلق ، واعلن قيام أمة اميركية واحدة تتشكل من الولايات وتكون فيه مجرد اعضاء باسم : « نحن شعب الولايات المتحدة » . ويجري العمل بهذا الدستور ويُعمل بموجبه ، عندمـــا تقره تسع ولايات من اصل ثلاث عشر ولاية . فلم يعد اذاً للولايات من سيادة مطلقة ، وعلى الاقلية ان تتبع الاكثرية ، وبذلك اعترفت بسلطة بشرية اعلى من سلطتها وسيادتها الفردية .

استوحى واضعو هذا الدستور المبادىء التي نادى بها مونتسكيو وعلّم . وقد اخذ بمبـــدأ الفصل بين السلطات تفادياً للحكم الاستبدادي المطلق ، وتجنباً لهذه الفوضى التي تفضي بالبـلاد الى الضعف والوهن وتؤول بالتـالي الى وقوعها تحت سيطرة الاجنبي . وقام بموجب الدستور الجديد حكومة قوية باعتمادها النظام الرئاسي في الحكم ، تحت حكم رئيس ينتخب لمـدة اربـع سنوات من قبل المجلسين ، وينفذ باسمها القانون . ينتخب اعضاؤها المواطنون لغرض واحد هو انتخاب الرئيس . فالرئيس يمثـــل ، إذاً ، الشعب الاميركي ، ويكتسب بهذه الصفة ، سلطة ادبية عظيمة ونفوذاً كبيراً . فالرئيس ليس مسؤولاً امام المجلس ، وهو يختار وزراءه ، كما يشاء ويرغب ، ويصرفهم عندما يستحسن . ولا يمكن لأي من المجلسين ان يرغمهم على الاستقالة ، اذا ما حجب عنهم الثقة . فليس هنالك من نظام نيابي بالمعنى الحصري . فباستطاعة الرئيس ان يتابع مدة ولايته التي تمتـــد اربع سنوات ، السياسة العامة التي رسم خطوطها الكبرى عندما تم انتخابه شريطة ان يصادق المجلسان على الموازنة العامة .

ويضطلع الرئيس كذلك بجانب من السلطة التشريعية . فالقوانين لا تكتسب الصفة الالزامية الا اذا اكتسبت مصادقته النهائية . فاذا ما رفض الموافقة عليها وأبى إقرارها ، كان باستطاعة الكونغرس ان يتجاوزها شريطة أن ينال مشروع القانون في كل من المجلسين ، اكثرية ثلثـــي الأصوات ، وهي اكثرية من الصعب توفرها . لا يحق للرئيس ان يقترح هو نفسه مشاريع القوانين ، ولكن بوصفه رئيساً للدولة ويمثل مصلحة البلاد باجمعها ، بامكانه ان يقدم اقتراحاته في رسائل عامة

يوجهها الى الكونغرس يعرض فيها الوضع العام في الاتحاد كما يستعرض قضايا الساعة ومشكلاتها وموقف الاتحاد منها .

وينوب عن الرئيس ، نائب الرئيس الذي يجري انتخابه مع انتخاب الرئيس ويقوم باعباء الرئاسة ومهامها عندما يستحيل على الرئيس القيام بها .

ويؤمن الدستور مراقبة المواطنين في معالجتهم القضايا العامة التي تهم الشعب الاميركي . السلطة التشريعية بيد مجلسين : مجلس النواب الذي ينتخب ممثلي الشعب فيه الناخبون في كل ولاية ، من الذين تتوفر لهم المؤهلات القانونية فتوليهم حق الاقتراع والاشتراك بعمليات الانتخاب لاكثر هذين المجلسين اعضاء . وتنتخب كل ولاية من الممثلين لها عدداً من النواب يتناسب مع عدد سكان الولاية .فالولاية التي تضم ارقاء ، للبيض وحدهم حق الاقتراع . وفي عملية تقدير عدد ممثلي الولاية في المجالس ، يعتبر الارقاء ثلاثة اخماس عددهم . فالبيض في الولايات الجنوبية هم اكثر تمثيلاً من البيض في الولايات الشمالية ، ينتخب اعضاء المجلس لسنتين فقط . وهكذا بإمكان الناخب ان يراقب ممثليه ويحاسبهم على اعمالهم اثناء ولايتهم .

هنالك خطر على الولايات القليلة السكان ، هذه الولايات بالذات التي تألفت منهم انكلترا الجديدة ، بأن تهدر مصالحها الولايات الكبيرة المكتظة بالسكان . ولذا كان لا بد من مجلس ثان للنظر في القوانين التي مرت على المجلس الاول وقد يكون اقرها في ساعة من الهوى او الغرض ولذا قام مجلس الشيوخ . فلكل ولاية شيخان يمثلانها ، مهما كان عدد سكانها . ويقوم بانتخاب اعضاء مجلس الشيوخ المجالس التشريعية القائمة في الولاية. وينتخب الشيوخ لست سنوات ،يتجدد انتخاب ثلث الأعضاء كل سنتين، وذلك تفادياً للتغييرات المفاجئة التي يمكن ان تقوم بها الاكثرية تحت تأثير حوادث عاطفية .

القوانين المقترح اصدارها يجب ان يصادق عليها كل من المجلسين . يمكن تقديم مشروع القانون المقترح لهذا المجلس او لذاك ، على السواء ، باستثناء قانون الموازنة العامة الذي يجب ان يصوت عليه مجلس النواب في الدرجة الاولى ، وذلك لتأمين مراقبة المواطنين لنفقات الدولة ، وبالتالي مراقبتهم لأعمال الحكومة واجراءاتها .

يشارك مجلس الشيوخ ببعض السلطة التنفيذية . فعلى الرئيس ان ينال موافقة مجلس الشيوخ على تعيين بعض كبار الموظفين في الدولة . فما من معاهدة يوقعها الرئيس مع الدول الاجنبية تكتسب الصفة القطعية ، ما لم يقرها مجلس الشيوخ . كذلك يمارس هذا المجلس جانباً من السلطة القضائية ، اذ يتحول الى مجلس أعلى لبقاضي الأشخاص الذين يوجه اليهم مجلس النواب تهماً معينة . وهكذا اتخذت الاحتياطات الضرورية لتفادي اي انقلاب يمكن للرئيس ان يقوم به .

ولكن المجلسين ليسا مطلقي التصرف في إقرار ما يرغبان في إقراره من القوانين . فالأقلية

قد تستهدف للضغط من قبل الأكثرية . ففوق القوانين يوجد الدستور الذي بموجبه يصدر ما يصدر من الشرائع والقوانين . وفوق القوانين التي يضعها البشر والدساتير التي تقرها الأمم ، هنالك شرائع طبيعية ركزها الله في الانسان وأولته حقوقاً مقدسة لا يمكن نسخها او انتزاعها منه : كالحرية وحق التملك او الحيازة . فكل قانون مخالف للدستور او يتنافى وحقوق الانسان الطبيعية ، باطل هو وساقط ، لا يُعمل به . فالمحكمة العليا مكلفة النظر والحكم فيما اذا كانت القوانين مطابقة لروح الدستور ولحقوق الانسان الطبيعية . هنا تقوم وظيفته الأولى. وهذه المحكمة تنظر وتفطع في القضايا الناشبة بين المواطنين والادارة ، وفي المشكلات التي قد تنشب بين الولاية والأخرى . فهي تتحرك للعمل بناء لطلب يتقدم به احد المواطنين او احدى ولايات الاتحاد . وهذه المحكمة تتألف من سبعة قضاة يعينهم رئيس البلاد مدى الحياة، تأميناً لما يتمتعون به من استقلال تام في اقضيتهم .

الجماعات عرضة للتغير والتبدل على مر الزمن وكر السنين . والدساتير التي يجب ان تحافظ على المبادىء العامة ، يجب ان تكون قابلة للتكيف وفقاً للظروف المستحدثة . فالدستور اذاً ، هو قابل للتكامل ، ويمكن بالتالي إدخال تعديلات عليه . تعديل الدستور يجب ان يتقدم بمشروعه ثلثا عدد الولايات . والتعديل يصبح جزءاً مكملاً للدستور اذا ما اقرته ثلاثة أرباع الولايات في الاتحاد ، من قبل هيآت خاصة تنتخب لهذه الغاية .

وقد رؤي اتخاذ اجراءات خارجية عن الدستور لتوسيع احكامه على الغرب الاميركي . فقد سبق واتخذ عام ١٧٨٥ ، قراراً باجراء عملية مسح للمنطقة الشمالية الغربية ، نص في بعض مواده على بيع الفدان الواحد من الارض بالمزاد العلني ، على الا يقل السعر الادنى عن دولار واحد للفدان ، يدفع نقداً . يوشر بعملية المسح عام ١٧٨٦ . والقرار الذي صدر في تموز ١٧٨٧ حول المنطقة الشمالية الغربية ، جعل من هذه المنطقة ارضاً تابعة للاتحاد ، وعين لها حاكماً وثلاثة قضاة ، واوصى بقسمتها الى عدة اقضية متميزة . فكل قضاء منها بلغ عدد السكان فيه ٥٠٠٠ من الذكور البالغين ، تمتع بحاكم عام يعينه مجلس الكونغرس ، وقام فيه مجلس تمثيلي منتخب ، ومجلس آخر ينتخبه الكونغرس من بين قائمة من المرشحين يعدها مجلس النواب . وعندما يبلغ عدد سكان القضاء ٦٠،٠٠٠ من الافراد الاحرار، يمكن له ان يصبح ولاية جديدة فيضع لنفسه دستوراً خاصاً ويرسل ممثلين عنه الى الكونغرس ، وينعم بكل الامتيازات التي تنعم بها الولايات الاخرى على قدم المساواة التامة معها . وهذا القرار اصبح الدعامة او الوثيقة الاولى التي قام على اساسها التطور العظيم الذي اخذ الغرب باسبابه .

وفي سنة ١٧٨٨ صادقت اكثرية الولايات على الدستور المعدل وبذلك اصبح نافذ المفعول . وقد ادخلت عليه ، فيما بعد ، عشرة تعديلات ، صُودق عليها في حينه واقرت وشكلت نوعاً من اعلان حقوق الانسان ، فهي تضمن الحرية الفردية ، وحرية الصحافة وتحظر على الكونغرس

تحديد دين الدولة . واذ ذاك تم انتخاب جورج واشنطون رئيساً بالاجماع واخذ بممارسة صلاحياته كرئيس اعلى للبلاد ، في ٤ اذار ١٧٨٩ .

كان على الدستور ان يؤمن بالضرورة ، وعلى الوجه الاكمل ، السلطة للبلاد ، والحرية لافراد الشعب وان يساعد على نمو الاتحاد وتأمين ازدهار الولايات المتحدة .

الولايات المتحدة واوروبا

لما كان الدستور الاميركي اول دستور محرر او مكتوب تضعه دولة كبيرة قام على المبادىء العقلانية ، وتشبع ، اسوة بوثيقة اعلان الاستقلال ، من مبادىء وافكار « الفلاسفة » الفرنسيين ، ولا سيما من المبادىء التي نادى بها مونتسكيو وعلم ، فقد اصبح ، كإعلان الاستقلال نفسه ، مصدر وحي وإلهام للدول الاوروبية المستنيرة . فالولايات المتحدة الاميركية التي تدين لاوروبا بوجودها وطريقة تفكيرها وسياستها ، والتي تلقت منها الفن يوم كان هودون يرفع فوق كابيتول رتشموند ، تمثال جورج واشنطون على شاكلة تمثال لويس الرابع عشر برقم ديجاردين ، كما ان الكابيتول جاء نسخة عن المنزل المربع في مدينة « نيم » كما كان اوتيل سَلم مُلهِماً لبُناة البيت الابيض ، فرساي الجديدة ، وللباني التي قامت في واشنطون عاصمة الاتحاد الجديدة ، في هذا الوقت بالذات انتقل طراز غبرييل الهندسي الى بوسطن ، وقد ساهمت الولايات المتحدة بمحاصيلها وتجارتها في اعداد هذه التغييرات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي وصلت الى اوروبا عن طريق الاتصالات الدولية ، وراحت تقدم لها ، اليوم ، مثلاً يحتذى ، لاكمال حركة التطور ، عن طريق نقل الثورة اليها .

كان الاوروبيون يتتبعون بشوق وحرارة اخبار اميركا ، وقلوبهم تخفق لكل خبر من اخبار صراعها . وعندما بلغ مدينة السنور خبر نيل اميركا استقلالها ، « كان مرفأ المدينة يعج بالسفن من جميع الدول ، وقد ارتفعت الاعلام ابتهاجاً وأخذ البحارة يهتفون هتافات الفرح والغبطة ... وقد راح ابي يثير فينا الشعور بالحرية السياسية ، فجمعنا حول المائدة وشربنا مع ضيوفنا لمخب الجمهورية الجديدة ... » واستولى على الجميع ، في أوروبا رغبة شديدة دفعت الناس الى احتذاء حذو اميركا والنسج على منوالها ، اوروبا هذه المتعبة ، المهتاجة ضد حكوماتها والتي اخذفيها جميع البرمين ، المستائين ، اينما وجدوا : في بروسيا والممتلكات النمسارية ، وفي هولندا واسوج ، وجنيف ، ينظمون المظاهرات الصاخبة . ولم يبلغ الحماس في مكان ما من اوروبا ، مابلغه في فرنسا . وهذه الثورة الهادرة التي كانت وشيكة الانفجار ، في كل مكان ، قامت بها اوروبا لان ما تبقى فيها من مخلفات الاجيال الوسطى ، كان قريب الزوال لانه بدا للناس شيئاً لا يطاق . وقد عرفت فرنسا وهي اكثر حكومة مركزية في اوروبا ، وفيها أكبر طبقة مهيضة الجناح من النبلاء ، مؤسساتها الثانوية أشد عبودية . فكانت اكثر الدول تجانساً وأكثرها تماسكاً . وقد بدت فيها الثورة ضرورة ملحة ، كما بدت وسائل النهوض بها سهلة التناول للغاية . ولم تكن فرنسا لتقنع بأن يقتصر العمل الثوري عليها وحدها . فستحاول ان تجعل من حقوق الانسان ، انجيل البشرية الجديد ، كما تجعل من ثورتها اداة لتحرير الشعوب ، وصليبية ، تأخذ على نفسها انقاذ الشعوب والامم وتأمين سعادة البشر .